تاريخ الأدب في إيران

من الفردوسي إلى السعدي

تأليف

المستشرق الكبير ادوارد جرانفيل براون

[الأستاذ بجامعة كامبردج سابقا]

نقله

إلى العربية

الدكتور ابراهيم امين الشواربي

[أستاذ اللغات الشرقية بجامعة إبراهيم]

بإذن وترخيص

دار طباعة جامعة كامبردج بانجلترا

١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

تاريخ الأدب في إيران

من الفردوسي إلى السعدي

تأليف

المستشرق الكبير ادوارد جرانفيل براون
[الأستاذ بجامعة كامبردج سابقا]

نقله
إلى العربية

الدكتور ابراهيم امين الشواربي
[أستاذ اللغات الشرقية بجامعة إبراهيم]

مطبعة السعادة بمصر
١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

A Literary History Of Persia

« From Firdawsî to Sa'di »

By

E. G. BROWNE

Translated into Arabic

By

Dr. I. AMIN SHAWARBY

[رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ] .

(صدق الله العظيم)

محتويات الكتاب

الفصل الأول

تمهيد وترديد

الفصل الثانى

عصر الدولة الغزنوية

الفصل الثالث

العصر السلجوقى الأول

الفصل الرابع

الأدب فى العصر السلجوقى الأول

الفصل الخامس

عصر السلطان سنجر وإخوته

الفصل السادس

الشعراء الأربعة النابهون

الفصل السابع

مملكة خوارزم

الفصل الثامن

كتاب العصر المغولى الأول

الفصل التاسع
شعراء العصر المغولى الأول

كشاف

كلمة المترجم

فى مطلع القرن العشرين ، لمع فى أفق « الدراسات الشرقية » اسم مستشرق عظيم هو : « إدوارد جرانڤيل براونْ » الأستاذ بجامعة كامبردج ، فقد استطاع بتخصصه فى لغات الأمم الإسلامية وإتقانه لثلاث منها هى «العربية» و « الفارسية » و«التركية» ، أن يدخل نفسه فى عداد كبار المستشرقين كافة ، وأن يصبح كذلك زعيم المستشرقين الإنجليز فى هذا القرن من الزمان .

ارتبطت حياة «براون» بحياة «إيران» ارتباطا عجيباً منذ سنة ١٨٨٠ م ، حينما بدأ وهو فى الثامنة عشرة من عمره يدرس اللغة الفارسية وآدابها ، فلما اكتملت له وسائل التحصيل وانتهى من دراساته الجامعية ، جعل حياته وقفاً على هذه الأمة الخالدة ، وشغل نفسه بنواحيها التاريخية والفكرية والاجتماعية ، حتى أصبحت «إيران» همه الدائب وشغله الشاغل ، يكتب عن أمجادها القديمة ، كما يكتب عن حركاتها الحديثة ، فتصبح كتاباته فى كلا الناحيتين العماد والمرجع ، وتصبح سجلا كاملا يتضمن كل ماعرف عن «إيران» منذ مشرق التاريخ حتى نهاية الربع الأول من هذا القرن الذى نعيش فيه .

والكتب والأبحاث التى ألفها «براون» أوالتى تولى ترجمتها ، أوالتى قام على تصحيحها وإخراجها ، تبلغ العشرات والعشرات ؛ كل واحد منها يمتاز فى موضوعه امتيازا خاصا ، لا يستطيع أن يجحده جاحد أو ينكره معاند ... ولكن أهم هذه الكتب على الإطلاق هو الكتاب الذى جعله بعنوان : « تاريخ الأدب فى إيران » وجعله «موسوعة أدبية» موزعة على أربعة مجلدات كبيرة ، تربو صفحاتها على ألفين ومائتين من الصفحات ، تستوعب مشتملاتها الحياة التاريخية والفكرية للايرانيين منذ أقدم ما عرف من أخبارهم وتواريخهم إلى سنة ١٩٢٤ م ؛ أى خلال فترة تقرب من خمسة وعشرين قرنا .

وقصة تأليف هذه «الموسوعة الأدبية» قصة طريفة ، تسربت بعض أخبارها فى ثنايا الكتابات التى كتبها المؤلف نفسه ، فهو يقول فى مقدمته على المجلد الأول : إن نفسه تتوق منذ سنوات إلى كتابة تاريخ يسجل فيه الحركة العقلية والأدبية للايرانيين ، على نسق الكتاب المدهش الذى ألفه «جرين» عن تاريخ الشعب الإنجليزى؛ لأن هذا الكتاب — فى معتقده — مفخرة لكل من احتذاه ، يندر من يستطيع تقليده ومجاراته ، وينعدم من يرجو إدراكه أو التفوق على مستواه ...!!

ولكن «براون» سرعان ما عاد عن فكرته فى احتذاء نمط هذا الكتاب ، خشية أن يضطر إلى إخراج كتاب يكون شديد الإيجاز والاختصار ، فالتمس نموذجا آخر يحتذيه ، يكون فى احتذائه مجال للتطويل والتفصيل ، فكان نموذجه فى هذه المرة الكتاب الممتع الذى ألفه «جوسيراند» باسم « تاريخ الآداب الإنجليزية » فقد أعجب بفكرته وطريقة إخراجه إعجابا شديداً ، جعله يقرر فى النهاية أن يخرج «تاريخ الأدب فى إيران » على نسقه ومنواله .

وعقد «براون» العزم على أن يتم كتابه فى مجلد واحد ، يضمنه تاريخ إيران برمته حتى مطلع القرن الحالى ، ولكنه سرعان ما تحقق من استحالة بغيته ، فرجا أن يصل به على الأقل إلى غارة المغول على الديار الإسلامية ، باعتبارها نقطة فاصلة من نقط التحول فى التاريخ الإسلامى ، ولكنه لم يلبث أن تأكد أيضا من استحالة ذلك لاتساع الموضوع وتشعب نواحيه ، فاضطر اضطرارا إلى أن يختم المجلد الأول من كتابه بالحديث عن العصر الذى سبق «الفردوسى» بقليل من الزمن .

وانتهى «براون» من كتابة المجلد الأول فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٢ م ، وجعله بعنوان: «تاريخ الأدب فى إيران ، منذ أقدم الأزمنة إلى زمان الفردوسى» .

A LITERARY HISORY OF PERSIA :
From the Earliest Times until Firdawsi.

وقد تضمن هذا المجلد الحديث عن «جاهلية إيران» والحديث عن القرون الأربعة الأولى من حياتها الإسلامية .

وانقضت بعد ذلك أربع سنوات تقريبا ، فلما كان اليوم السادس عشر من

شهر مايو سنة ١٩٠٦ م نشر « براون » المجلد الثانى من موسوعته بعنوان :
« تاريخ الأدب فى إيران ، من الفردوسى إلى السعدى » .
A LITERARY HISTORY OF PERSIA :From Firdawsî to Saadî.
وجعله وصلا للمجلد السابق ، يتضمن تاريخ الأدب فى إيران فى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الرابع الهجرى ومنتصف السابع الهجرى، أى بداية القرن الحادى عشر ومنتصف القرن الثالث عشر الميلاديين .

وانقضت بعد ذلك فترة تبلغ أربع عشرة سنة ، انشغل فيها «براون» بأحداث إيران الثورية والدستورية ، فكاد ينصرف عن عمله فى مواصلة إتمام هذه الموسوعة التى بدأها بالمجلدين السابقين ، لأنه وجد من الحق بل من الواجب عليه أن ينسى قليلا أمجاد إيران الغابرة وأن يأخذ بيدها فى أحداث حياتها الحاضرة ؛ فلما ساهم بنصيبه فى ذلك ، عاد إلى موضوعه الأصيل ، فأصدر فى ٥ إبريل سنة ١٩٢٠ م المجلد الثالث من موسوعته الأدبية عن إيران بعنوان جديد ، هو :

« تاريخ الأدب الفارسى ، من سنة ١٢٦٥م إلى سنة ١٥٠٢م »
(أى من سنة ٦٦٤ هـ إلى سنة ٩٠٨ هـ)
A HISTORY OF PERSIAN LITERATURE (1265-1502)

وقد تضمن هذا المجلد تاريخ الأدب فى إيران من « السعدى » إلى «جامى» أى من موت « هولاكو » محطم الخلافة العباسية فى بغداد إلى قيام الدوله « الصفوية » فى إيران .

وبعد ذلك بأربع سنوات تقريبا ، استطاع «براون» أن يتم موسوعته بإصدار المجلد الرابع والأخير منها فى ١٢ يونية سنة ١٩٢٤م وجعله بعنوان :
« تاريخ الأدب الفارسى: من سنة ١٥٠٠ إلى سنة ١٩٢٤ »
أى من سنة ٩٠٦ هـ إلى سنة ١٣٤٢هـ
A HISTORY OF PERSIAN LITERATURE (1500—1924.)
وتضمن هذا المجلد تاريخ الأدب فى إيران فى عصورها الحديثة والمعاصرة .
وقد ابتهج «براون» بإخراجه ابتهاجا كبيراً لأنه حقق به أملا ظل يتردد فى

جوانبه ، وعملا ظل يشفق على نفسه من شدائده ومتاعبة ، حتى استطاع فى النهاية وقبل وفاته بعام واحد ونصف العام أن يتوج سائر مجهوداته بإتمام هذه الموسوعة عن « الأدب فى إيران » وأن يجعلها الأثر الخالد لسائر كتاباته أو كما يقول الفرس « شاهكار » كتبه ومؤلفاته .

وقد نشر «براون» المجلدين الأخيرين من هذه الموسوعة فى دار نشر غير الدار التى نشرت له المجلدين الأولين ، وعلل ذلك بسببين هما :

أولا — أنه أراد أن يسهل للمقتبسين أن يقتبسوا من كتاباته كما أراد أن ييسر للمترجمين أن يحصلوا على الإذن بترجمة مؤلفاته ؛ فرأى أن يتجه إلى دار نشر جديدة، تحقق هذه الغرضين وتعين عليهما .

ثانيا — أنه أراد أن ينشر النصوص الشرقية التى تعرض لها فى كتاباته أو التى استشهد بها فى مؤلفاته ، بلغاتها الأصيلة وبالحروف التى تكتب بها عادة فى هذه اللغات ، حتى ييسر للدارسين سبيل الانتفاع بها ، فسعى إلى ناشر جديد ، لديه من الأهبة والاستعداد ، ما يستطيع بهما أن يتلافى النقص الذى أصاب المجلدين السابقين فحرمهما من ذكر الشواهد بنصوصها الأصيلة .

ولم يكن ناشره الجديد إلا « دار طباعة جامعة كامبردج » فأخرجت المجلدين الأخيرين إخراجا حقق رجاء «براون» فيها ، ورصعت صفحاتهما بإيراد الأمثلة والشواهد بنصوصها الأصيلة فى الكتابات «العربية» و «الفارسية» و «التركية» ، كما حققت للمترجمين والمقتبسين سبيل الاقتباس والترجمة ،فلم تبخل بالإذن إلى ذلك، بل ويسرته تيسيراً سخياً كريما، كان من نتيجته ترجمة بعض مجلدات هذه الموسوعة إلى الفارسية ، ثم صدور هذه الترجمة العربية التى نسعى إلى نشرها لسائر المجلدات

وقد نتج عن صدور مجلدات هذه «الموسوعة» فى دارين من دور النشر أمور ، جعلت المجلدين الأولين منها يتميزان بسمات تختلف عن السمات التى يتميز بها المجلدان الأخيران ، ربما كان أظهرها وأوضحها أمران :

أولا — أن المجلدين الأولين صدرا فى البداية بعنوان موحد ، هو :

« A Literary History of Persia »

أما المجلدان الأخيران فصدرا فى البداية بعنوان آخر ، هو :

" A History of Persian Literature "

ثانيا — أن المجلدين الأولين يخلوان خلوا يكاد يكون تاما ، من إيراد الشواهد فى أصولها الشرقية : العربية أو الفارسية أو التركية ، أما المجلدان الأخيران فتزخر صفحاتهما بالشواهد الأصيلة مطبوعة بالحروف التى تكتب بها هذه اللغات .

وفى رأيى أنه لو امتد الأجل بالأستاذ « براون » لتدارك النقص الذى عاب المجلدين الأولين ، ولضمنهما كما فعل فى المجلدين الأخيرين سائر الشواهد فى نصوصها الشرقية الأصيلة ، ولجعل المجلدات الأربعة وحدة ، مشتركة الصفات ، متشابهة السمات . ولكن من أسف أن الموت عاجله ، ولم يمهله القدر إلا عاما ونصف العام منذ فراغه من آخر المجلدات ، فتوفى فى الخامس من يناير سنة ١٩٢٦ . وكل ما حدث بعد ذلك أنه منذ أخذت «دار طباعة جامعة كامبردج» حقوق طبع «الموسوعة» برمتها ، أنها وحدت تسمية مجلداتها الأربعة ، فجعلتها جميعها بعنوان واحد هو :

" A LITETARY HISTORY OF PERSIA "

وهو العنوان الذى استصوبت ترجمته إلى العربية بعبارة :

« تاريخ الأدب فى إيران »

وصدرت الطبعات التالية بهذا العنوان ، وتسلسلت مجلداتها على هذا النسق :

المجلد الأول : « تاريخ الأدب فى إيران ، منذ أقدم الأزمنة إلى الفردوسى »

المجلد الثانى : « تاريخ الأدب فى إيران ، من الفردوسى إلى السعدى »

المجلد الثالث : « تاريخ الأدب فى إيران ، أثناء حكم التتار »

المجلد الرابع : « تاريخ الأدب فى إيران ، فى الأزمنة الحديثة »

وحققت دار النشر بذلك ، الفكرة التى ارتسمت فى خاطر « براون » من جعل مجلداته الأربعة التى صور فيها الحياة الأدبية والفكرية للإيرانيين موسوعة كاملة الدورات متصلة الحلقات .

ولقد خلبتنى هذه الموسوعة منذ قيض الله لى فى سنة ١٩٣١ أن التحق بجامعة لندن لدراسة اللغات الشرقية والتخصص فى اللغتين الفارسية والتركية على يدى أستاذ جليل من

تلاميذ « براون »هو المرحوم « السير دينيسون روس » ، وأصبحت بتلمذتى لهذا الأستاذ وثيق الصلة بأستاذه « براون » وبسائر كتبه ومؤلفاته .

وتملكتنى رغبة جامحة ، منذ أيام الطلب والتحصيل ، فى أن أنقل إلى العربية بعض مؤلفاته ، وعلى الأخص موسوعته عن « تاريخ الأدب فى إيران » حتى تكون نقطة البداية التى نبدأ بها دراساتنا للأدب الفارسى فى الجامعات المصرية الحديثة ، لأننى تحققت من أن ترجمة كتاب من كتب المستشرقين ، يكون جامعا لأطراف الموضوع ، شاملا لخلاصة أبحاثهم فيه خلال القرون الطويلة التى سبقونا فيها إلى دراسة الأدب الفارسى ، توفر علينا ضياع الوقت والجهد فى بحث أمور سبقت معالجتها والبلوغ بها إلى غاياتها أو ما يدنو من غاياتها ، وأنه أجدى علينا أن نخصص جهودنا لتصرفها فيما يكون وصلا لما انقطع ، وفيما يخرج بنا إلى بحوث جديدة ، نضيفها الى التراث العام الذى خلفه سائر المشتغلين بالدراسات الشرقية من مختلف الأجناس والقوميات ولو استطاع كل متخصص فى علم من العلوم أو فن من الفنون أن ينقل إلى العربية كتابا واحداً من أمهات الكتب المتعلقة بموضوع تخصصه، لكان للعربية من مجموع هذه الترجمات ثروة طائلة ، كفيلة بأن تجدد الفكر العربى واللغة العربية تجديداً كاملا ينتهى بنا إلى نهضة كاملة شاملة كالتى حدثت فى أوروبا عندما نقلت إلى لغاتها الكتب العربية والشرقية فى سالف الوقت والزمان ، ولاستكملنا بهذه الثروة العريضة ما نقصنا فى الفترة التى وقفنا فيها موقف الفتور والتكاسل والتخلف والتواكل .

وقد أحس الأيرانيون أنفسهم بخطر الموسوعة التى أصدرها « براون » عن «تاريخ الأدب فى إيران» فأقبلوا عليها يتدارسونها ويقتبسون منها وينبهون إلى أهميتها ، وسعى منذ ثلاثين عاما تقريبا أحد رجالاتهم الذين قدرت له تولى وزارة المعارف فيما بعد ، وهو الأستاذ الكبير «على أصغر حكمت» أن يترجم هذه الموسوعة إلى الفارسية ،وأقرته وزارة المعارف الإيرانية على مقترحه الذى يعود على العلم والأدب بفائدة محققة ، وحصل فعلا من الأستاذ «براون» فى سنة ١٩٢٥ على إذن بنقل هذه الموسوعة إلى الفارسية ، ثم وزع مجلداتها الأربعة على أربعة من كبار أدباء

إيران ومحققيها ، كان هو نفسه واحداً منهم ، ولـكن الظروف والأقدار شاءت ألا تصدر من الترجمة الفارسية حتى الآن إلا ترجمة المجلدين الأخيرين من هذه الموسوعة فأصدر المرحوم «رشيد ياسمى» الأستاذ بجامعة طهران ترجمة المجلد الرابع فى سنة ١٣١٦ الهجرية الشمسية (= ١٩٣٧م) بعنوان: «تاريخ أدبيات إيران از آغاز عهد صفوية تازمان حاضر» ثم انقضت فترة تبلغ إحدى عشرة سنة استطاع بعدها وزير المعارف الإيرانية الأسبق الأستاذ «على أصغر حكمت» أن يخرج فى سنة ١٣٢٧ الهجرية الشمسية (= ١٩٤٨م) الترجمة الفارسية للمجلد الثالث من مجلدات براون بعنوان : «از سعدى تا جامى : تاريخ أدبى ايران از نيمهٔ قرن هفتم تا آخر قرن هشتم هجرى ، عصر استيلاء مغول وتاتار » .

وأما المجلدان : الأول والثانى ، فمازال الأمل كبيراً فى نقلهما الى الفارسية ، وليس سبقنا الى نقلهما إلى العربية من باب المصادفة المحضة فهما يشتملان على كثير من الأمور العربية التى تبرر لنا هذا السبق وتجعل لنا حقا كبيرا فيه .

* * *

ولقد يسر الله لى حتى إبريل سنة ١٩٤٥ أى منذ تسع سنوات تقريباً أن أتم ترجمة المجلدين الأولين من موسوعة «براون» ، وطمعت فى أن تعيننى وزارة المعارف المصرية على نشرهما أو أن أجد الناشر الذى يرفع عن كاهلى كثيرا من النفقات والتكاليف ، ولـكننى لم أظفر للأسف بما يحقق البغية وييسر المطلوب ، فتوقفت السنوات الماضية أتدبر الأمور وأسعى الى إكمال ترجمة المجلدين الأخيرين ، حتى هيأ الله لى فى هذا العام الوسائل لنشر مجلد واحد منها ، سأظل بعده أتحين الفرصة لنشر باقى المجلدات ، وتحقيق أمل رجوته منذ سنوات .

وقد وقع اختيارى على المجلد الثانى ليكون طليعة نشرى لهذه المجلدات فى نسختها العربية ، وربما كثرت الأسباب التى بررت لى البدء على هذا النحو الغريب ، ولـكن أهمها وأبرزها ما يأتى :

أولا — أن المؤلف نفسه اعتبر كل مجلد من مجلداته وحدة قائمة بذاتها ، تدرس عصرا معينا من عصور الأمة الإيرانية بحيث يمكن اعتبار كل واحد منها كتابا مستقلا لا بأس من طبعه على حدة .

ثانياً — أن المجلد الأول لا يشتمل الا على الأصول النائية التى لا تهم دارس الآداب الإسلامية بقدر ما تهم دارس الحضارات الإيرانية القديمة ، ومن أجل ذلك فصله المؤلف فصلا تاما عن المجلد الثانى وجعله تمهيداً له ، لأنه يتعلق أكثر ما يتعلق بـ «جاهلية إيران» . أما المجلد الثانى ففيه بداية الحديث عن الآداب الفارسية بمعناها الفنى الدقيق، أى منذ أخذ الفرس ينشئون آدابهم باللغة الفارسية التى نشأت بعد الفتح العربى لإيران ، وظلت مستعملة منذ ذلك الوقت حتى أيامنا هذه ، فهو فى الحقيقة نقطة البدء لدارس الآداب الإسلامية التى نشأت فى إيران بعد الإسلام .

ثالثاً : أن كثيرا من المقدمات والتمهيدات التى اشتمل عليها المجلد الأول ، قد تعرضت لها كتب عربية مختلفة ، مما جعل قراء العربية يعرفونها بوجه من الوجوه ويلمون بها إلى حد من الحدود ، وفى هذا مايعوض عليهم هذه المقدمات إذا تأخر نشرها قليلا ، وما يجعل ابتداءهم بالمجلد الثانى بداية غير شوهاء ولا بتراء .

رابعاً : أن المجلد الثانى هو أكثر المجلدات التى تهم قراء العربية ؛ فقد اشتمل على دراسة كثير من المسائل العربية التى أخرجتها عقول إيرانية ، ومن أجل ذلك فهو يهم العرب بقدر مايهم الإيرانيين ، وإذا كان «براون» قد عنى فى سائر مجلداته بكثير من مسائل النتاج العربى الذى أخرجته عقول إيرانية ، فإن النصيب الأوفى من هذه العناية كان من نصيب المجلد الثانى بحكم الظروف التى جعلت موضوعه مجالا لإظهار هذه الحقيقة وإثباتها .

لهذه الأسباب جميعها ، ولأسباب عملية أخرى تتعلق بدراساتنا للآداب العربية والفارسية فى الجامعات المصرية ، رأيت البدء بنشر المجلد الحاضر من مجلدات « براون » ، راجيا أن تهيأ لى الظروف التى تمكن من نشر سائر مجلداته باللغة العربية ، حتى يكون لقراء العربية مثلما كان لقراء الإنجليزية : «هدية إلى هذه الجماعة الصغيرة المتزايدة من هواة الآداب الفارسية الذين تعلموا من الترجمات التى نشرتها أن يحبوا شعراء الفرس وأدباءهم ، وأن لا يدخروا وسعا فى تنمية معلوماتهم اللغوية والأدبية لشعب من أقدم شعوب الأرض ، اختص بكثير من المواهب العالية والصفات السامية» .

ولا شك أن هؤلاء الجماعة من « الهواة » هم العماد الذى نعتمد عليه فى دراسة اللغات الشرقية وآدابها ... فى بلد لا يغرى على مثل هذه الدراسات وتنقصه المعاهد الشرقية المنظمة كالتى توجد فى العواصم الغربية الأخرى ...!!» .

* * *

إما الصعوبات التى تكلفتها فى نقل هذا الكتاب إلى العربية فأكثر من أن يتسع المجال لذكرها تفصيلا ؛ ولترجمته قصة لاتقل روعة عن قصة تأليفه ، بل ربما كانت أشد عناءا وأكثر بلاءا ... لأمور عامة يعرفها كل من كابد الترجمة وعانى النقل من لغة إلى أخرى ، ولأمور خاصة أحب أن أنبه إلى بعضها فى هذا المقام ، وأهمها وأخطرها ما يأتى :

أولا : إن هذا الكتاب عبارة عن موسوعة أدبية ، اشتملت على كل ما تعلق بإيران أى البلاد الفارسية منذ أول ما عرف من أمرها حتى السنة التى أتم فيها المؤلف كتابه أى إلى سنة ١٩٢٤ ، ومن أجل ذلك تضمن الكتاب أمورا مغرقة فى القدم ، ما تزال تتدرج فى تاريخ هذه البلاد وما أنتجته من علم وأدب حتى تصل بنا إلى نهاية الربع الأول من القرن الذى نعيش فيه ، ولقد حرص المؤلف على أن يجعل كتابه « دائرة معارف » يثبت فيها كل ما نشر من كتب ومقالات وأبحاث تتعلق بسائر العصور التى تعرض لها كتابه ، وترتب على ذلك أنه أصبح لزاما على من يتصدى لترجمته أن تكون له سابقة اطلاع على كتابات الشرقيين والمستشرقين التى ذكرها فى ثنايا كتابه ، وأن يكون على قدر كبير من الخبرة بحيث يأمن الزلة ويتجنب العثرة. ولطالما صادفتنى إشارات اضطررت فيها إلى الرجوع إلى المكتبات العامة والخاصة فى مصر فوجدت فيها بغيتى أو انصرفت عنها بخيبتى لعدم عثورى على المرجع الذى أطلبه ، ثم ظللت أسعى إلى تحقيق ما أريد بوسائل أخرى كلفتنى رهقا وجهدا كبيرا .

ثانيا : إن هذا الكتاب وقد مضت سنوات على تأليفه ، يتطلب من مترجمه أن يزود ترجمته بكثير من الحواشى والتعليقات . فمنذ فرغ « براون » من كتابته ، نشرت كثير من الأبحاث والمقالات ، وصدرت كثير من الكتب والمؤلفات التى تتعلق

بالموضوعات التى احتواها الكتاب ؛ وأصبح لزاما على المترجم أن يشير إلى هذه الأمور وإلى أمور أخرى تتعلق باختلاف وجهة النظر وإثبات الآراء الجديدة . ولقد شئت أن أوفى الترجمة حقها فأزودها بما فى الوسع من تحشيات وتعليقات ولكنى وجدت أن حجم الكتاب يتضاعف إذا فعلت ذلك ، فاكتفيت مضطرا بجعل تعليقاتى تقتصر على الأهم دون المهم ، وأن ينصرف أكثرها إلى التنبيه إلى المسائل الفارسية دون غيرها من المسائل الغربية أو العربية التى ذكرها « براون » . وإنى أحس خاصة بكثير من الأسف لعدم التعليق على الأمور العربية ، ولكنى من ناحية أخرى مؤمن بأن القارىء العربى ليس فى حاجة ملحة الى مثل هذه التعليقات فهو عارف بها وبأصحاب البحوث الحديثة فيها ، لايطمع فى أن يذكره بها كتاب كتب خاصة للتعريف بحياة « إيران» العقلية والفكرية .

ثالثا : اعتمد «براون» فى تأليف كتابه على كثير من المراجع الشرقية، واستشهد بالطبيعة بالتأليفات «العربية» و«الفارسية» و«التركية» ولكنه لم يستطع فى الغالب الأعم أن يورد لنا شواهده فى نصوصها الأصيلة فى هذه اللغات ، واكتفى بإيراد ترجمتها الى الإنجليزية ، ولم يكن من المستساغ عقلا أو المقبول فناً ، أن أعود فأترجم هذه المترجمات الى العربية ، لأن الترجمة عن ترجمة لاشك تضلل المترجم وتبعده عن الأصل . ومن أجل ذلك ألزمت نفسى بإثبات الشواهد العربية بنصها التى وردت به فى الكتب العربية اللهم إلا إذا كان الكتاب مخطوطا وليست له نسخة فى دور كتبنا ، كما ألزمت نفسى أن أترجم الشواهد الفارسية والتركية عن أصولها فى هاتين اللغتين وأن أثبت أصولها فى متن الكتاب أو هامشه حتى تكون فى متناول القارىء المتخصص الذى يريد التحقيق والمقارنة . ولربما اختلفت ترجمتى مع ترجمة « براون » ولكن هذا الاختلاف بقدر مايسمح به النقل الى العربية دون إخلال بالمعنى والمبنى .

رابعاً — إن صاحب هذا الكتاب ، بالإضافة إلى تبريزه فى إتقان جملة من لغات الأمم الإسلامية ، كان مبرزاً كذلك فى طائفة غير قليلة من اللغات الأوربية القديمة والحية ، ومن أجل ذلك كثر نقله عن اللغات « اليونانية» و «اللاتينية» و«الفرنسية» و«الألمانية» . وغير ذلك من اللغات . وبعض هذه اللغات أعرفها بعض المعرفة وبعضها الآخر

أجهله جهلا تاماً ، ومن أجل ذلك اضطررت اضطرارا إلى أن الجأ إلى أصدقائى كلما صمد فى وجهى شاهد من هذه اللغات ، فاستطاعوا مشكورين أن يعينونى على نقله وترجمته .

خامسا — يعتبر صاحب هذا الكتاب من كبار أدباء الإنجليز ، يستطيع أن ينشىء فى الإنجليزية نثراً فنيا رائعا وشعرا فنيا شائقا ، ومن أجل ذلك أغرم بترجمة النثر الفنى الشرقى إلى نثر فنى إنجليزى ، وشغف بترجمة الشعر الشرقى إلى شعر إنجليزى ، فصار من العسير على المترجم فى الحالتين أن يتأنق تأنقه فى اصطناع الأساليب وإبداع التراكيب ، وأصبح عليه أن يتكلف كثيرا من الجهد للوصول إلى قرارة هذه العبارات الأنيقة والوصول إلى معانيها الدقيقة .

* * *

وفى الحق . . . إن ترجمة مؤلفات «براون» الذى جمع تراث الشرق والغرب ، واستطاع أن يجعل الشرق والغرب يلتقيان فى شخصه ، لمن الأمور التى طالما تحرجت من التصدى لها ، والإقدام عليها ، ولم يدفعنى إليها إلا الأهمية التى بينتها فيما سبق لكتابه « تاريخ الأدب فى إيران » وإلا خلة أخرى أعرفها فى « براون » ويعرفها كل من قرأ كتاباته ، وهى أنه من المستشرقين القلائل الذين أنصفوا الشرق والشرقيين ، وأعجبوا إعجابا شديدا بالإسلام وحضارته العربية الفارسية . ومن أقواله الخالدة التى يجب أن نحمدها له وأن نعيها عنه قوله :

« إنى أحس فى قرارة نفسى بإعجاب شديد للاسلام وحضارته العربية الفارسية »
« وأجد لزاما علىّ إن اعترف بهذا الإعجاب اعترافا صريحا فى هذا الوقت الذى »
« حرم فيه الإسلام من إنصاف الأوروبيين الذين أساءوا فهمه وتصويره ، ظانين »
« أنهم وحدهم يحتكرون كل ضروب الحضارة والتمدن ، وأن الله قد وكل إليهم »
« أن يفرضوا على العالم أجمع نظمهم فى السياسة بل وفى أساليب التفكير والثقافة »
« أيضا . . ! ! ومن أسف إنه كلما تقدمت السنون أخذ عدد الدول الإسلامية المستقلة »
« فى النقص والقلة ، وأخذ ما بقى منها مستقلا يهدده التدخل الأوروبى بكل أنواعه »

« وليس من شك عندى فى أن المسلمين أنفسهم مسئولون عن ذلك بعض الشيء »
« وأن الشعور بالفتور والإهمال اللذين ركبا فى أنفسهم يساعد الأوروبيين ، بما »
« ركب فى طباعهم من جشع فى امتلاك الكون ونهم للغزو والفتح ، على أن »
« يعجلوا بالقضاء على هذه الدول الحرة والولايات المستقلة . ومن أسف أيضاً أن العقول »
« الغربية لا تفكر إلا فى الواقع المادى ، ولن يأخذها شيء من الرحمة والشفقة »
« فى سبيل القضاء على هذه الدول الإسلامية ؛ بل إن أوداجها لتنتفخ بهذه »
« الفتوحات الجديدة التى أعدوها الأولادهم ورؤوس أموالهم . . ! ! ومع ذلك كله فإن »
« عددا قليلا ممن خبر الشرق وأهله ، وعرف كيف يحبه ويحبهم ، ليتحقق من »
« مقدار ديننا لهم بأغلب الأفكار الروحية العظيمة التى جعلتنا نشعر بلذة الحياة »
« وقيمتها ، ويدرك أنه كلما زالت من الوجود واحدة من هذه الدول الإسلامية »
« المستقلة ، فإن العالم يفقد بفقدها شيئا لا يمكن تعويضه . »

* * *

وإنى لموقن بعد ذلك كله أن القارىء العربى سيعجب بـ «براون» وبمؤلفاته ، وأن هذا الأعجاب سيكون سبيلى لديه فى اغتفار مواضع الزلل والعثار ، ووسيلتى إليه كلما تطلبت الحجج والأعذار ، ولطالما هدأ من روعى ، وخفف من وجلى بيتان من الشعر ، صغتهما همسا ، وظللت أرددهما طوال المدة التى ترجمت فيها هذا الكتاب فكانا بالنسبة لى حداءا يدعو القافلة إلى المثابرة والمسير ، وبالنسبة للقارىء دعاءا يدعوه إلى مغفرة الزلل والتقصير . فأما هذان البيتان فهما :

لقد تعب المؤلف والمترجم   فليتك قدر هذا الجهد تعلم
كلانا دائب يسعى ويشقى   فهل ألفيك عند السهو ترحم

* * *

وإنى أشكر فى ختام كلمتى «دار طباعة جامعة كامبردج» فقد يسر لى حضرة مديرها الأستاذ « ر . و . داڤيد R. W. David: » سبيل الحصول على الإذن اللازم لنشر هذا

الـكتاب فى نسخته العربية ، ولولا ما أبداه من روح طيبة قبلى ، وترحيب كبير بعملى لظللت بين العزم والإحجام والتردد والإقدام .

كما أشكر أيضا صاحب «مطبعة السعادة» ومديرها الأستاذ «على محمد إسماعيل» فقد خص الـكتاب بعنايته وتكلف معى كـثيرا من الجهد والصبر حتى استطاع تهيئة الأسباب التى دللت الصعاب بما يستحق الحمد والإعجاب ؟

السبت ٢٨ شعبان سنة ١٣٧٣ ﻫ
أول مايو سنة ١٩٥٤ م

ابراهيم أمين الشواربى

المكتبة الفارسية

مجموعة من الكتب يصدرها الدكتور ابراهيم أمين الشواربى ليعين القارىء على دراسة الفارسية وآدابها والاطلاع على مابها من درر روائع وفرائد زواهر .

صدر منها حتى الآن الكتب والأبحاث العلمية الآتية :

١ — القواعد الأساسية لدراسة الفارسية .

وهو أول كتاب وضع بأسلوب علمى حديث لتعليم اللغة الفارسية لأبناء العربية ، وهو مطبوع بلجنة التأليف والترجمة والنشر فى سنة ١٩٤٣م وصدرت له طبعة ثانية فى مطبعة السعادة سنة ١٩٤٩ م

٢ — أغانى شيراز أوغزليات حافظ الشيرازى (فى جزءين كبيرين)

وهو عبارة عن أول ترجمة عربية لديوان حافظ الشيرازى تقع فى جزءين كبيرين ، طبعا بلجنة التأليف والترجمة والنشر ، الأول منهما فى سنة ١٩٤٤ والثانى فى سنة ١٩٤٥ م .

٣ — حافظ الشيرازى : شاعر الغناء والغزل فى إيران

وهو عبارة عن دراسة واسعة مفصلة لأحوال هذا الشاعر الإيرانى الكبير ، تضمنت وصفاً مسهباً لموطنه وعصره وظروف حياته ومواضيع فلسفته ومحتويات ديوانه .

وقد طبع هذا الكتاب بدار المعارف ومطبعتها سنة ١٩٤٤ م .

٤ — حدائق السحر فى دقائق الشعر :

أول كتاب فى علوم البلاغة الفارسية ، وضعه باللغة الفارسية أصلا « رشيد الدين محمد العمرى » الكاتب البلخى المعروف بالـ « وطواط »

المتوفى سنة ٥٧٣ هـ وقد نقله الدكتور ابراهيم أمين الشواربي إلى العربية لأول مرة فى سنة ١٩٤٥ م وطبعه بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٥ — قصة الحضارة الفارسية .

بحث طريف فى أسلوب ممتع ، نشره الأستاذ «ول دورانت» بالإنجليزية ضمن كتابه « قصة الحضارة » وقد نقله الدكتور ابراهيم أمين الشواربي إلى العربية وطبعه على حدة فى مطبعة السعادة سنة ١٩٤٧ .

٦ — بحث فيما نقله الجاحظ من أخبار الفرس .

منشور فى مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) بالجزء الثانى من المجلد الرابع سنة ١٩٣٩ م .

٧ — مصادر فارسية فى التاريخ الإسلامى .

بحث علمى مطول منشور فى مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) بالمجلد السابع سنة ١٩٤٢ م .

٨ — نشأة الشعر الفارسى الإسلامى .

بحث علمى منشور فى العدد الثامن من مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) بالمجلد الأول سنة ١٩٤٦ م .

٩ — رحلة فى إيران .

مقالات منشورة فى مجلة الراوى الجديد بالسنة الثامنة سنة ١٩٤٣م .

١٠ — العربية فى إيران .

مقالة منشورة فى « حوليات كلية الآداب بجامعة إبراهيم » بالعدد الأول الصادر سنة ١٩٥١ م .

مقدمة المؤلف

يعتبر هذا المجلد وصلا لمجلد سابق قدمته لقراء هذه المجموعة منذ أربع سنوات. والمجلد الحاضر يشتمل على تاريخ الأدب فى إيران فى الفترة الواقعة بين بداية القرن الحادى عشر ومنتصف القرن الثالث عشر الميلاديين (أى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الرابع الهجرى ومنتصف القرن السابع الهجرى) وهذه الفترة قصيرة حقاً ولكنها ـ رغم قصرها ـ تشتمل على سيرة أغلب النبهاء من شعراء الفرس وكتابهم. فلا غرابة إذا توقعت مقدما أن يتهمنى بعض النقاد البارعين بالتقصير فى إيراد التفاصيل وبعدم توفية الموضوع حقه من الدرس والتمحيص. ومع ذلك فلو قدر لى النجاح فى تنفيذ مشروعى الأول الذى عزمت فيه على دراسة «تاريخ الأدب فى إيران» منذ بدايته إلى وقتنا الحاضر، لاحتاجت دراستى للقرون الباقية ومقدارها ستة قرون ونصف القرن إلى مجلد آخر فى حجم هذا المجلد الحاضر[1].

وإنى أبادر ـ وقد تم طبع هذا الكتاب ـ بالاعتراف بأنى واقف على مواضع القصور فيه. وفى رأيى أنها ناتجة جميعاً عن كتابته فى فترات مختلفة من فترات العطلة والفراغ. وقد اضطرنى ذلك إلى كتابة الفصل الواحد من فصوله، ثم الانتظار بعد الفراغ منه مدة شهرين أو أكثر قبل أن أشرع فى كتابة الفصل الذى يليه. وساعد على ذلك أن جامعة «كمبردج» أصبحت فى الأيام الأخيرة من أقل الأماكن مناسبة لهذا النوع من البحث الهادىء الدؤوب. وإذا امتازت بأنها غنية بكتب المراجع التى لا يستغنى الباحث عنها، فإنها من ناحية أخرى للأسف، تضطر الباحث أن يلتمس أوقات الفراغ والدعة فى غيرها من الأماكن. وحالها فى ذلك شبيه بما يقوله الشاعر «صائب» فى هذا البيت:

شگوفه باثمر هرگز نگردد جمع دريك جا
محالست آنكه باهم نعمت ودندان شود پيدا

---

(١) المترجم: احتاج الأمر فى الحقيقة إلى مجلدين آخرين كتبهما الأستاذ «ادوارد براون» ليكمل بهما مشروعه.

ومعناه :

لا تجتمع الأزهار والأثمار مطلقاً في مكان واحـــد
كما يستحيل اجتماع النعم الطيبة والأسنان السليمة في فم واحد

وقد ترتب على ذلك فيما أعلم ، أن هذا المجلد أصبحت تعيبه النبذ المتكررة وكذلك يعيبه التفكك وعدم الاتصال بين سائر أجزائه . وإنى أرجو القارىء أن يعفو عن لمثل هذه الهنات والزلات ، وأن يتأكد من أنى عوضت عليه هذا النقص باجتهادى في الرجوع إلى المصادر الأصيلة وتكوين الآراء الشخصية المستقلة التى ساعدنى على الوصول إليها حسن توفيقي إلى العثور على جملة من المؤلفات النادرة التى لم تكن في متناول من سبقونى من الكتاب والباحثين ، وأذكر من بين هذه المؤلفات الكتب الآتية على وجه التخصيص :

« چهار مقاله » أى المقالات الأربع تأليف « نظامى العروضى السمرقندى »
« لباب الألباب » تأليف « محمد عوفى »
« المعجم في معايير أشعار العجم » تأليف « شمس القيس الرازى »
« جهان گشا » أى فاتح العالم تأليف « عطا ملك الجوينى »
« جامع التواريخ » تأليف « رشيد الدين فضل الله[1] »

وقد استولى هذا العمل على مجمع قلبي ، وكان بودى لو استطاع أيضاً أن يملك كل عنايتى غير مقسمة ولا موزعة . ذلك لأنى أحس في قرارة نفسى بإعجاب شديد بالاسلام وحضارته العربية الفارسية ، وأجد لزاماً علىّ أن أعترف بهذا الإعجاب اعترافاً صريحاً في هذا الوقت الذى حرم فيه الإسلام من إنصاف الأوروبيين الذين أساءوا فهمه وتصويره ظانين أنهم وحدهم يحتكرون كل ضروب الحضارة والتمدن ، وإن الله قد وكل إليهم أن يفرضوا على العالم أجمع نظمهم في السياسة بل وفي أساليب التفكير والثقافة أيضاً . . . !

---

(١) المترجم : طبعت جميع هـذه الـكتب ونشرت في أوقات مختلفة ضمن « سلسلة جب التذكارية » ماعدا الثانى فقد نشره الاستاذ براون سنة ١٩٠٣ م في مجموعة كتب النصوص التاريخية الفارسية ، وكذلك الأخير فقد نشرت بعض أجزائه في أوقات وأماكن مختلفة كما إن دور الـكتب المختلفة تشتمل على بعض أجزائه مكتوبة بالعربية أيضاً .

ومن أسف أنه كلما تقدمت السنون أخذ عدد الدول الإسلامية المستقلة فى النقص والقلة ، وأخذ مابقى منها مستقلا ، مثل إيران وتركيا وبلاد العرب ومراكش[١] يهدده التدخل الأوروبى بكل أنواعه . وليس من شك عندى فى أن المسلمين أنفسهم مسئولون عن ذلك بعض الشىء وإن الشعور بالفتور والإهمال اللذين ركبا فى نفوسهم الأسيوية ، يساعد الأوروبيين بما ركب فى طباعهم من جشع فى امتلاك الكون ونهم للغزو والفتح ، على أن يعجلوا بالقضاء على هذه الدول الحرة والولايات المستقلة . ومن أسف أيضاً ، أن العقول الغربية لا تفكر إلا فى الواقع المادى ولن يأخذها شىء من الرحمة أو الشفقة فى سبيل القضاء على هذه الدول الإسلامية ، بل إن أوداجها لتنتفخ بهذه الفتوحات الجديدة التى أعدوها لأولادهم ولرؤوس أموالهم .

ومع ذلك كله ، فإن عدداً قليلا ممن خبر الشرق وأهله ، وعرف كيف يحبه ويحبهم ، وتحقق من مقدار ديننا لهم بأغلب الأفكار الروحية العظيمة التى جعلتنا نشعر بلذة الحياة وقيمتها ، يدركون مع المستر « تشسترتون[٢] » إنه كلما زالت من الوجود واحدة من هذه الدول الإسلامية المستقلة ، فإن العالم يفقد بفقدها شيئاً لا يمكن تعويضه . ومناقشة هذا الرأى لن تصل بنا إلى نهاية مجدية ، وسيكون حالنا فى هذه المناقشة كحال الذى يتمادى فى الجدل ليفاضل بين حديقة غرس فيها نوع واحد من أنواع الخضر المفيدة ، وبين أخرى غرست فيها شتى أنواع الزهور ذات الألوان المختلفة والروائح المتباينة . وحسبنا فى هذا الصدد أن نكتفى بما يعترف به كل محب للشرق ، مدرك لروحه وعقليته ، فنقول إنه آخذ فى التقلص والزوال النهائى حتى ولو سيطرت عليه خير أنواع الإدارة الأوروبية وأكثرها عطفاً وحدباً عليه .

ومن أجل ذلك فقد أصبحت « القسطنطينية » و « شيراز » و « فاس » تمتاز — رغم ما بها من عيوب — بشىء من العناصر والخصائص الفنية والعقلية والروحية التى زالت وأخذت فى الزوال من مدن إسلامية أخرى مثل « القاهرة » و« دلهى » و « الجزائر » و « تونس » .

---

(١) المترجم : منذ ذلك الوقت قضى على استقلال مراكش ؛ وقد أصدر براون الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٩٠٦ م .

(٢) ذكر ذلك فى كتابه (Man in Green) by: Chesterton.

ولسنا ندرى هل يظل الإسلام يدمى حتى يموت مثخنا بجراحه التى أصابته بدايةً على أيدى « المغول » منذ أكثر من ستة قرون ونصف القرن ، أم هل يحذو حذو « اليابان » التى أقامت الدليل على أن العنصر الأسيوى لا يقل فى شىء عن العنصر الأوروبى حتى من حيث الحيوية الجسدية ، فينهض فجأة من كبوته ، ويقوم مرة ثانية من عثرته . . ؟ !

هذه مسألة شائكة ، ذات خطر بالغ ، لا يتسع المجال لتقريرها أو بحثها فى هذه الصفحات .

***

وإنى مدين بشكرى الخالص لشقيقى الآنسة «إ . م . بروان E. M. Broune» ولصديقى وزميلى المستر « إ . هـ . منس E. H. Minns » فقد تفضلا بقراءة مسودات هذا الكتاب ، وأصلحا بعض ما وقع فيه من أخطاء لغوية بسيطة ، كما تفضلا على بمقترحات عن آراء لها أهميتها وخطرها . ولابد أن أذكر أيضاً أنى مدين بشكر آخر للمستر « منس » لقاء تكرمه بترجمة جملة من المقالات التى كتبها نفر من مشاهير المستشرقين الروس ، فتمكنت بذلك من الإشارة إليها فى صفحات هذا الكتاب ، ولولا مساعدته الكريمة لبقى ما كتبوه فى صحف مغلقة مقفلة . وأجد لزاما على أن أذكر فى هذا المقام واحداً من الانتقادات الهامة التى تكرم بتوجيهها إلى ، فقد حدثنى أنى لم أكن مبيناً ولا مفصحاً عندما تحدثت فى الفصل الأول من هذا الكتاب عن « الشعر الفارسى وأوزانه » بحيث لم أوضح لقرائى العاديين من غير المستشرقين طبيعة « البيت » الفارسى والقوانين الأساسية لتقطيعه وفقاً لقواعد العروض .

فأما المسألة الأولى التى تتعلق بطبيعة « البيت » فإننى أكرر ما سبق لى أن قلته فى غير هذا المكان من أن المسلمين يعتبرون « البيت» وحدة قائمة بذاتها ، ومن أجل ذلك فإنى أرى من الخطل ترجمته بكلمة Couplet كما جرت بذلك عادة بعض الكتاب فى ثنايا كتبهم الأوروبية .

وليس أظهر فى الدلالة على أن « البيت » وحدة قائمة بذاتها من الحقيقة الماثلة للعيان فى أن البيت إذا اشتمل على ست تفعيلات أو ثمانى تفعيلات فإنه يسمى «مسدساً»

أو « مثمناً » وفقاً لعدد تفعيلاته . ومن أسف أن العادة المتبعة فى الشرق جرت على كتابة « البيت » أو طبعه فى سطر واحد ، ولكن هذا البيت إذا كتب بحروف رومانية فإنه يتطلب حيزاً أوسع بحيث يقتضى منا بالضرورة أن نطبعه فى سطرين كما حدث ذلك فى كتابة البيت الذى طبعناه بحروف رومانية فى منتصف الصحيفة رقم (١٥) وكذلك فى البيت الذى نشرناه فى السطرين الخامس والسادس من الصحيفة التالية . وهذه الطريقة من طرق الطبع ، إذا أضفنا إليها بالنسبة للمثل الأول من هذين المثلين أنه عبارة عن «مطلع» لإحدى الغزليات ، وإنه باعتباره مطلعاً يستلزم بالضرورة وحدة القافية بين جزءيه أو شطريه فإن كل هذا قمين بأن يعوه الحقائق على القارىء العادى فيفترض خطأ أن عليه أن يقنع بما يفهم من مدلول كلمة Couplet دون أن يتحقق من دلالة هذه الوحدة المستقلة التى نطلق عليها كلمة « بيت » .

وأما المسألة الثانية التى تتعلق بقواعد العروض والوزن فى الشعر الفارسى فإنها بسيطة للغاية بحيث لا تحوجنا إلى كتاب مفصل فيه ، نرجع إليه لبيان كمية الحركات أو حروف اللين . فالحركات الممدودة جميعها تعتبر من المقاطع الطويلة . وليس هناك صعوبة فى معرفة هذه الحركات ، فإن تصوير الكلمة كتابة ونطقاً كفيل بأن يبين لنا حركاتها دون عسر أو إشكال . فأما الحركات القصيرة فإنها تعتبر مقاطع قصيرة إلا إذا أعقبها حرفان ساكنان ، سواء أكانا فى كلمة واحدة ، أم عرض أحدهما فى نهاية كلمة من الكلمات وثانيهما فى بداية الكلمة التالية .

وهذه القواعد سهلة للغاية ، يستطيع كل مشتغل بالدراسات القديمة أن يتبينها ويدركها . ولكننا نذكر فيما يلى بعض المواضع التى تختص بها الفارسية دون غيرها من اللغات :

فكل كلمة من الكلمات تنتهى بحرفين ساكنين أو بحرف واحد ساكن مسبوق بحرف مد طويل (فيما عدا إذا انتهت الكلمة بحرف النون فإنه لا يحسب حرفا بل يعتبر صوتاً أنفياً) فإن مثل هذه الكلمة توزن كما لو كانت منتهية بحركة قصيرة زائدة[1] . وهذه الحركة القصيرة الزائدة يسميها المشارقة باسم « نيم فتحه » أى

---

(١) هذه الحركة القصيرة الزائدة لا تحتسب فى نهاية « البيت » أو فى نهاية « المصراع »

«نصف فتحة» ويسميها الفرنسيون خطأ باسم «الإضافة للوزن L'izafet metrique »
ويظهرها الهنود فعلا فى نطقهم ، ولكن الفرس يمتنعون عنها بتاتاً ، رغم أنه يجب
احتسابها دائماً فى الوزن ، اللهم إلا إذا تلتها كلمة مبدوءة بحرف من حروف المد .
ويجب تطبيق هذه القاعدة أيضاً على المقاطع .

وفيما يلى بعض الأمثلة التى توضح ما ذكرناه آنفاً :

فكلمات مثل : باد	ساكنة الآخر	بمعنى :	ريح
بيد	«	«	« : شجرة الصفصاف
بود	«	«	« : كان
كار	«	«	« : عمل
شير	«	«	« : أسد
مور	«	«	« : نملة

توزن كما لو كانت مفتوحة الآخر ومكتوبة « بادَ » و « بيدَ » و « بودَ » .. الخ
.. أى مكونة من مقطع طويل ثم آخر قصير هكذا : (— u)
لا كما يظن أولا من مقطع طويل واحد هكذا : (—)
ومثل هذا القول ينطبق تماما على كلمات كالآتية :

دست	[الحرفان الأخيران ساكنان]		بمعنى :	يد
بند	«	«	«	« : رباط
گرد	«	«	«	« : غبار

فإنها توزن كما لو كانت مفتوحة الآخر ومكتوبة « دستَ » و« بندَ » و« گردَ » .
ومثل هذا أيضاً ينطبق على كلمات مثل :

بادگير	. . .	بمعنى : مروحة
شيرمرد	. . .	« : رجل شجاع كالأسد
دوربين	. . .	« : منظار
دستكش	. . .	« : قفاز

فإنها توزن فى الكلمتين الأوليين كما لو كانتا مفتوحتى الآخر ومكتوبتين

بادَ گیرَ أى مكونة من مقطع طويل ثم قصير ثم طويل ثم قصير (— u — u)
شيرَ مردَ « « « « « « « « « « « (— u — u)
وفى الكلمتين الأخيرتين كالوكانت الأولى منهما مفتوحة الآخر والثانية ساكنته:
دورَ بين أى مكونة من مقطع طويل ثم قصير ثم طويل (— u —)
دستَ كش « « « « « « « « « (— u —)
أما كلمات مثل :

جهان . . . بمعنى : الدنيا
نگين . . . « : فص الخاتم
درون . . . « : داخل

فإنها توزن على أنها مكونة من مقطع قصيرثم طويل (u —) لأن هذه الكلمات تنتهى بحرف النون .

فإذا أخذنا بعد ذلك بيت الشعر الذى نشرناه فى صحيفة ١٦ وهو على وزن الرمل المثمن المحذوف .

— u — —	— u — —	— u —
— u — —	— u — —	— u —
فاعلاتن	فاعلاتن	فاعلات

فإن تقطيعه يكون بالصورة الآتية(١) :

آفرين و	مدح سود آ	يد همى
گربگنج ا نـ	در زيانِ آ	يد همى

وهناك فيما عدا ذلك طائفة قليلة أخرى من خصائص العروض الفارسى ، نذكر منها على سبيل المثال أن الكلمات المكونة من مقطع واحد ينتهى بالواو مثل :

تو . . . بمعنى : أنت
دو . . . « : أثنان
چو . . . « : مثل ، لما

---

(١) المترجم : يشير المؤلف إلى رقم الصحيفة فى الأصل الانجليزى ، وكتابة هذا البيت على أصله هكذا

آفرين ومدح سود آيد همى گر بگنج اندر زيان آيد همى

فإنه يمكن وزنها على أنها مكونة من مقطع طويل أو من مقطع قصير وفقاً لما يقتضيه الحال .

وهكذا الحال مع كسرة الإضافة .

أما المقطع الوحيد الذى يفيد العطف ويكون بمعنى « واو العطف » فإنه يمكن اعتباره حرف مد طويل «أو» ا و قصير « ُ » أو حرفاً ساكناً قصيراً محركا بحركة الفتحة « وَ » .

فإذا اعتاد القارىء هذه القواعد والخصائص التى ذكرناها فيما سبق ، فلن يصادف فيما عداها إلا قلة قليلة من المسائل التى تستثنى من أحكامها ، ولكن ذلك لن يعوقه عن تقطيع ما يعترضه من الأشعار الفارسية .

* * *

وقد كان اليوم الأول من شهر مايو من السنة الحالية محدداً لنشر هذا المجلد ، ولكن ظروفاً قاهرة اضطرتنا مكرهين إلى تأجيل صدوره فى هذا التاريخ . وإنى مع إحساسى بالأسف لهذا التأخير أقدم اعتذارى لصديقى المستر « فيشر أنوين Fisher Unwin » كما أقدم له شكرى لقاء ما أبداه من أريحية فى قبول العذر الذى وضحته له واعتباره كافياً فى التعويل عليه . وانتهز هذه الفرصة لتقديم خالص شكرى لحضرات الطابعين « إخوان أنوين وشركائهم » فى مدينتى « ووكنج »و «لندن» لما أبدوه من عناية فائقة فى طبع هـذا المجلد الذى يشتمل على كثير من الصعوبات المطبعية .

١٦ مايو سنة ١٩٠٦ — أدوارد جرانفيل براون

الفصل الأول

تمهيـــد وترديد

موضوع الكتاب :

كتبت من قبل كتاباً عن تاريخ الأدب في إيران منذ أقدم الأزمنة إلى عصر الفردوسى ، قصدت به أن يكون وحـدة قائمة بذاتها وأن يكون كذلك تمهيداً لهذا الكتاب الذى أقدمه الآن للقارىء ، وقد استطعت أن أدرس فيه « تاريخ الفرس » من الناحيتين الثقافية والأدبية منذ أقدم أزمنتهم إلى الفترة المبكرة من العصر الغزنوى حينما أشرقت (حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية = ٣٩١ هـ) عبقرية « الفردوسى » فأكدت أن «النهضة الأدبية الفارسية » التى بدأت قبل ذلك بما يزيد على قرن من الزمان لابد آخذة فى النجاح والازدهار وإيتاء خير الثمار .

وعلى ذلك فالكتاب الحالى لا شأن له بهذه الأصول النائية التى تحدثت عنها فى الكتاب السابق ، بل هو يحدثنا عن «الآداب الفارسية» بمعناها الفنى الضيق أى منذ أخذ الفرس يدونون آدابهم بـ « اللغة الفارسية » المعروفة حالياً ، ونقصد بها اللغة التى نشأت مع الفتح العربى واعتناق الفرس للاسلام فى القرن السابع الميلادى واستمرت مستعملة منذ ذلك الوقت حتى أيامنا هذه .

وسوف نتعرض فى هذا الكتاب لذكر بعض العوامل الخارجيـة والعقلية التى أثرت فى « التاريخ الفارسى » ، ولكن تعرضنا لهذه المسائل سيكون بالقدر الكافى الذى يعيننا على فهم ما يعترضنا من أمور متعلقة بهذا التاريخ .

ونحن حينما نتحدث عن « الآداب الفارسية الإسلامية » نقصد شيئاً واحـداً محدداً ، هو هذه الآداب التى نشأت تدريجياً بعد الإسلام وبعد ما فتح العرب « البلاد الفارسية» وتمكن الإسلام من التغلب على ديانة «زردشت» . وقد بدؤا يدونون هذه الآداب منذ ألف سنة تقريباً كما تشهد بذلك الأسانيد المكتوبة الموجودة فى أيدينا .

وقد تغيرت « اللغة الفارسية » فى هذه الفترة الطويلة تغيراً يسيراً لايكاد يذكر، حتى ليستطيع الرجل الفارسى المعاصر أن يفهم أشعار الشعراء الأقدمين من أمثال « حنظلة البادغيسى(١) » و « الرودكى(٢) » على قدر ما يفهم الإنجليزى المعاصر مؤلفات « شكسبير » .

ومن الواجب على طلاب « الأدب الفارسى » أن يتفهموا هذه الحقيقة جيداً ، وأن يذكروا دائماً أن « الفارسية » قد أصابها قليل جداً من التغيير خلال السنوات الألف الماضية ، ربما لا يبلغ فى مداه مدى التغيير الذى أصاب اللغة الإنجليزية خلال القرون الثلاثة الأخيرة . ولا شك أن أقدم الآثار الأدبية فى اللغة الفارسية الإسلامية لا تكاد تتميز عن الآداب الفارسية المعاصرة إلا ببعض الخصائص اللغوية المتعلقة بالمفردات والأساليب . وإنى لعلى يقين من أنه لا يوجد بين المشتغلين بالفارسية ، سواء منهم من كان وطنياً أو أجنبياً ، من يستطيع أن يعين لنا تاريخاً تقريبياً لكتاب من الكتب التى ألفت فى القرون الخمسة الأخيرة إذا لم يكن هذا الكتاب يحمل اسم مؤلفه أو يشتمل على إشارات تاريخية تعين على تحديد الفترة التى تم فيها تأليفه .

موضوع الجزء السابق :

ولست أستطيع فى هذا الكتاب أن أردد الحقائق التاريخية التى ذكرتها فى تفصيل عن تاريخ «البلاد الفارسية» فى عصرها السابق للاسلام وفى الفترة المبكرة من عهدها الإسلامى . فلقد ضمنت ذلك جميعه كتابى السابق الذى تحدثت فيه عن « تاريخ الأدب فى إيران منذ أقدم الأزمنة إلى عصر الفردوسى» فوصلت به إلى العصر الذى أخذت تضمحل فيه « الخلافة العباسية » فى بغداد بعدما بلغت ذروة المجد والعظمة على أيام « هارون الرشيد» وابنه «المأمون» (٧٨٦—٨٣٣ م = ١٧٠—٢١٨ هـ)

---

(١) المترجم : شاعر عاش فى القرن التاسع الميلادى (٨٢٠ — ٨٧٢ م) وقالوا إنه توفى سنة ٨٧٢ م (٢٢٠ هـ) .

(٢) المترجم : شاعرعاش فى أواخر القرن التاسع وبداية العاشر الميلادى وقالوا إنه توفى سنة ٣٢٩ هـ .

وقد بدت بوادر هذا الانحلال بانفصال الولايات المختلفة عن الحكومة المركزية فى بغداد ، حتى إذا أقبلت جموع المغول فى سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) وأغاروا على بغداد حطموا هذه الخلافة وقتلوا آخر خليفة من بنى العباس .

ويكفى الطالب العادى الذى يدرس «الآداب الفارسية » — إذاشاء معرفة شىء عن أصولها القديمة — أن يذكر أن اللغة التى سبقت «الفارسية» هى اللغة « البهلوية» وهذه اللغة الأخيرة هى اللغة الرسمية التى سادت فى « البلاد الفارسية » أيام « الساسانيين » (٢٢٦—٦٥١ م) وهى التى استمرت لغة الدين بين الموابذة الزردشتيين طوال القرنين أو الثلاثة اللاحقة لذلك .

وقد قدر « الدكتور وست [١] » أن « الآداب البهلوية » الموجودة فى أيدينا تبلغ فى حجمها حجم التوراة وأنها فى الغالب تتعلق بموضوعات دينية أو فقهية ، يضاف إليها بعض النقوش البهلوية المكتوبة على الصخور أو النقود أو المجوهرات التى يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثالث الميلادى .

وعلى الطالب أن يذكر أيضاً أن « اللغة البهلوية » ما هى إلا تطور متأخر للغة « الفارسية القديمة » التى لا نعرف من أمرها إلا بقدر ما بقى مسجلا منها فى هذه النقوش المنحوتة فى الصخر فى « پرسپوليس[٢] » و « بهستون » ومواضع أخرى أمر بكتابتها داراً الأكبر ومن لحقه من ملوك الدولة الأكمينية .

كما أن عليه أن يذكر أخيراً أن اللغة التى تعرف باسم «لغة الأفستا» ـ أو خطأ باسم الزند ـ وهى اللغة التى كتبت فيها تعاليم «زردشت» هى لغة شقيقة للغة « الفارسية القديمة » وكذلك للغة « السنسكريتيه » وأنها بناء على ذلك لا تتصل بالفارسية الحديثة وإن كانت لاتزال تتمثل فى بعض اللهجات المحلية فى فارس وكذلك فى اللغة الأفغانية المعروفة باسم الـ« پشتو » كما يزعم المستشرق « دار مستتر » .

---

(١) المقصود به : E. W. West وهو من أكبر المستشرقين الذين تخصصوا فى اللغة البهلوية وآدابها .

(٢) المترجم : مدينة تعرف فى الفارسية باسم « تخت جمشيد » وتقع إلى شمال مدينة شيراز الحالية بالقرب من موقع « اصطخر » القديمة .

ولو أننا شئنا أن نبين الحقائق السابقة فى جدول منسق لصورناها على هذا النحو:

أولا : « اللغة الفارسية القديمة » التى استعملت أيام الدولة الأكمينية (٥٥٠ — ٣٣٠ ق م) وتمثلها النقوش المنحوتة فى الصخر .

أما « لغة الأفستا » فهى اللغة التى كتب فيها كتاب « زردشت » المعروف بهذا الاسم ، ومن أقدم أجزائه التراتيل المعروفة باسم « گاتها » وينسبون كتابتها إلى « زردشت » نفسه أو إلى بعض تلاميذه (حوالى ٦٠٠ ق . م فيما يقررون) .

ثانياً : غزوة الإسكندر وفتحه لفارس فى سنة ٣٣٣ ق . م .

وتمتاز هذه الفترة بخلوها من الآثار الأدبية ، وقد استمرت خمسة قرون ونصف القرن وانتهت بقيام « الدولة الساسانيه » .

ثالثاً : الدولة الساسانيه ٢٢٦ — ٦٥١ م

أصبحت اللغة البهلوية على أيامها اللغة الرسمية للدولة وللدين الزردشتى . وهذه اللغة هى وليدة « اللغة الفارسية القديمة» وقد ولدت بدورها « اللغة الفارسية الحديثة » .

رابعاً : الفتح العربى ٦٤١ — ٦٥١ م .

وقد نتج عن هذا الفتح أن أسلم أكثر الفرس وحلت اللغة العربية محل الفارسية وأصبحت لغة الدولة والأدب .

خامسا : عصر النهضة الفارسية .

وهو العصر الذى يبدأ بالفترة التى نتحدث عنها فى هذا الكتاب . وهذا العصر يبدأ فى حوالى سنة ٨٥٠ م (٢٣٦ هـ) ثم يأخذ فى الوضوح كلما استطاعت « فارس » التحرر من ربقة الخضوع لخلافة بغداد وتحقيق استقلالها السياسى .

* * *

الفتح العربي وتأثيره في فارس :

هذه هى الحدود التى تبديها لنا النظرة العاجلة إلى تاريخ الآداب الفارسية ، ولكن الطالب المشتغل بهذه الآداب ، مهما أقنع نفسه بهذه الخلاصة التى ذكرناها لأحوال الأدب الفارسى قبل الفتح العربى ، لا يستطيع أن يمر سراعا على آثار هذه الحادثة الهامة ذات الأثر الخالد فى الأدب الفارسى . ومن أجل ذلك فسأسمح لنفسى بأن أعيد هنا قولا للمستشرق « نولدكه » ذكرته فى الكتاب السابق ، وهو قول كبير المعنى مؤداه « إن الحركة الهلينية لم تمس من الحياة الفارسية إلا السطح والقشور ، بينما استطاع الدين العربى والحياة العربية أن ينفذا إلى قرارة الحياة الإيرانية ولبابها . . . »

اللغة العربية ومركزها الفريد :

واللغة العربية تمتاز بأنها لغة دين عظيم . ونحن نختلف عن المسلمين فى كوننا نعتبر الإنجيل إنجيلا سواء أقرأناه فى اللغات الأصلية التى كتب بها أم فى لغتنا الحالية . أما المسلمون فيعتبرون « القرآن » كلمة الله وأنه تنزيل من رب العالمين . فإذا قرأنا مثلا « قل هو الله أحد » فإن الله وحده هو الذى يخاطبنا بهذا القول ولا يمكن أن يفسرها أحد بأن النبى هو الذى يحدثنا به ؟ ولذلك جرى المسلمون على أن يقولوا : « قال الله تعالى » إذا شاؤا الاستشهاد بآية من آيات القرآن ، بينما يقولون : « قال النبى عليه الصلاة والسلام » إذا استشهدوا بحديث من أحاديث النبى . وبناء على ذلك قالوا إن القرآن لايمكن ترجمته ترجمة صحيحة إلى لغة أخرى ، لأن المترجم مضطر إلى أن يورد فى ترجمته قدراً من التفسير يستعين به على إظهار معانيه وهذا القدر قد يفسد المعنى أو يمس الأصل . ولست أعلم إلا أن المستشرقين وحدهم هم الذين أقدموا على نشر ترجمات للقرآن لايصحبها الأصل العربى ، أما المسلمون فقد جروا على أن يكتبوا الترجمات « الفارسية » أو « التركية » أو « الأرديه » بين سطور الأصل

العربى وإن يقصروا همهم على الترجمة الحرفية للألفاظ والمفردات(١) .

بالإضافة إلى ذلك فإن المسلم سواءأ كان « فارسياً » أم « تركياً » أم « هندياً » أم « أفغانيا » أم من أهل « الملايو » عليه أن يؤدى الصلوات خمس مرات يومياً بالعربية ، وأن يتلفظ بالشهادة أوما فى حكم ذلك من الصيغ الدينية باللغة العربية أيضاً ، ولذلك وجب عليه أن يلم إلماماً ولو يسيراً بهذه اللغة ، فإذا تعمق فيها فقد استحق بين أهله وأبناء قومه مكانة رفيعة ومنزلة عاليه .

يضاف إلى كل ذلك أننا نجد أن لغات الشعوب التى اعتنقت الإسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية يتكون من العبارات الفنية المتعلقة بالدين والفقه ، ثم من مصطلحات العلوم الوضعية التى نشأت فى ظلال الحضارة الإسلامية ، ثم من مجموعة من الألفاظ العادية استطاعت أن تحل محل الكلمات الأصيلة فى لغات هذه الشعوب .

ولو أن أحداً أراد أن يكتب شيئاً « بالفارسية » بحيث تكون كتابته خلوا من الألفاظ « العربية » لتعسر عليه الأمر كما يتعسر على الذى يريد أن يكتب شيئاً بالإنجليزية بحيث تكون كتابته خالية من كل كلمة يرجع اشتقاقها إلى أصل « يونانى » أو « لاتينى » أو « فرنسى » . ولربما استطاع بعض الناس أن يفعلوا ذلك على نطاق ضيق ولكن كتاباتهم تظل عسيرة الفهم إذا لم يستعن القارىء على فهمها بمعجم من المعاجم اللغوية .

وقد وصلنى وأنا أكتب هذا الفصل نموذج لمحاولة من هذه المحاولات تضمنتها مقالة تقع فى مائة سطر نشرتها جريدة « اختر(٢) » فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٩٠ لجماعة من مجوس مدينة « يزد » وهى مقالة تتعلق بموضوع عادى ، قليلة الأفكار والمعانى التى تحتاج إلى بيان أو توضيح ، ومع ذلك فقد اضطر كاتبوها إلى أن يوضحوا

---

(١) يحتاج هذا القول إلى شىء من التحقيق لأن زميلى وصديقى « الحاج ميرزا عبد الحسين خان » عند عودته إلى انجلترا استطاع أن يجلب معه مخطوطاً نفيساً هو عبارة عن ترجمة فارسية للقرآن أمر بها « نادرشاه » وهذه الترجمة غير مصحوبة بالأصل العربى .

(٢) مجلة فارسية كانت تصدر فى استانبول ثم توقف صدورها .

فى الهوامش بمفردات غربية ، معانى مالايقل عن أربعة عشر لفظاً من الألفاظ التى استعملوها . ولربما اضطر القارىء العادى إلى تفسير مجموعة أخرى من الكلمات الواردة بهذه المقالة حتى يستطيع أن يدعى أنه ألم بموضوعها ومعناها .

فكلمة « آويژه » مثلا يجب أن تفسر بكلمة « خاص » .
و « دَرَد » » » » » « صوره » .
و « خهرْ » » » » » « وطن » .
و «فرهيخت» » » » » « أدب » .

إلى آخرهذه المجموعة من الكلمات التى لايمكن تفسيرها إلا بكلمات عربية خالصه.

وقد حاول « الأمير جلال » مثل هذه المحاولة ولكنه باء بالفشل عندما كتب كتابه المسمى « خسروان نامه » أى « كتاب الملوك » وهو تاريخ مختصر للدول التى قامت فى فارس قبل الإسلام وقد نشر فى مدينة ڤينا فى سنة ١٢٩٧ هـ = ١٨٨٠ م وعلق عليه المستشرق موردتمان فى الجزء الثامن والعشرين من مجلة « جماعة المستشرقين الألمان(١) » .

والشاهنامة نفسها وقد ألفها « الفردوسى » منذ ألف سنة تقريباً وقصد متعمداً — كما تدلنا على ذلك المقارنة بينها وبين الشعر المعاصر لها — أن يصوغها فى أقدم العبارات والأساليب ، لا يستطيع أحد أن يدعى أنها خالية من الألفاظ العربية كما يظن ذلك بعض الناس ممن لا قدرة لهم على التحقيق والتمحيص .

العلوم العربية :

قصرنا الحديث فيما سبق على التأثير اللغوى الذى أصاب « الفرس » على أيدى العرب ، ولكن تأثير العرب فى الفرس لم يقتصر على هذه الناحية وحدها بل تعداها إلى نواح مختلفة أخرى ؛ فبدا على أشده فى الأمور الدينية والفقهية ، كما امتد أيضاً إلى

---

(١) Zeitschritt der Deutschen Morgenlandischen Gesellshaft, pp. 506 — 508.

« النحو » و « البلاغة » و « الشعر » وكل العلوم التى اشتغل بها المسلمون . وهذه العلوم هى فى الغالب نتاج لأصول مشتركة أخذ يستعيرها العرب من أمم سبقتهم فى الحضارة كالفرس واليونان ، خاصة فى الفترة المبكرة من العصر العباسى أى ما يقابل النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى (أى الثانى الهجرى) .

ولقد أحسنوا تقسيمها فى كتبهم كما هو مذكور فى كتاب « مفاتيح العلوم » فجعلوها على ضربين ؛ الأول منهما عبارة عن العلوم الأصيلة فى العربية وتشمل « الفقه » و« التفسير » و « النحو » و« الكتابة » و« الشعر » و« العروض » و« التاريخ » والثانى عبارة عن العلوم الغريبة أو الأجنبية وتشمل « الفلسفة » و « المنطق » و « الطب » و « الحساب » و« الرياضة » و« النجوم » و« الموسيقى » و « الميكانيكا » و « الكيمياء » . وجميع هذه العلوم تضمنتها « الحضارة العربية الفارسية » أثناء الخلافة العباسية فى بغداد وأصبحت تعرف خطأ باسم « العلوم العربية » ، ويقصد بها فى الحقيقة مجموعة العلوم التى نشأت عن مصادر مختلفة متباينة ولكنها أصبحت «وحدة مركبة» معروفة لدى كافة المسلمين ، بحيث لا تزال تؤثر فيهم تأثيراً عميقاً يكاد يبلغ فى مداه تأثير الدين الإسلامى فى أنفسهم ، مما ساعد على توحيد العواطف توحيداً شديد الوضوح بين كافة المسلمين فى أرجاء الأرض قاطبة .

صلاحية العربية للأغراض العلمية :

والعربية فى الحقيقة من أصلح اللغات لتأدية الأغراض العلمية فهى غنية بالأصول وبالمشتقات الناتجة عن هذه الأصول . والمشتقات فيها كثيرة ، وهى تتفق مع الأصل فى اتصالها به من حيث المعنى وإن تحور معناها قليلا بحسب اشتقاقها أو صياغتها .

ولكى نبرهن على ذلك يحسن بنا أن نسوق المثلين الآتيين : فأما أولهما فمستمد من الاصطلاحات الطبيعية القديمة ، وأما الثانى فقياس عليه ليمثل لنا فكرة حديثة .

للفعل العربى صيغ تبلغ الاثنتى عشرة صيغة ، كل منها تمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلى ؛ فإذا أخذنا صيغة « الاستفعال » من « غفر » أمكننا أن نشتق كلمة

« استغفار » بمعنى طلب الغفران ، وكلمة « مستغفر » بمعنى طالب الغفران ؛ وكذلك يمكننا أن نشتق من كلمة «كمل» كلمتى «استكمال» و «مستكمل» وهكذا فى بقية الأفعال . فلما ظن أطباء العرب أن مرض الاستسقاء ناتج من كثرة الشرب ، أسموه بهذه التسمية التى اشتقوها من كلمة « سقى » وأسموا المريض به « مستسقى » . فلما بدت الحاجة فى العصور الحديثة إلى مرادف لكلمة «أرينتاليست Orientalist » لجأوا فى العربية إلى مادة « شرق » وصاغوا منها قياساً على ذلك كلمة « مستشرق » بمعنى « الرجل الذى يطلب الشرق » أو « يجد المتعة فى دراسته » . وهذان المثلان فيهما الكفاية للتدليل على مقدار اليسر الذى يصادفه الكاتب العربى إذا شاء التعبير عن أفكار جديدة أو مستحدثة ، فما عليه إلا أن يلجأ إلى أنواع الصيغ والمشتقات ، وإن يختار منها ما يناسب التعبير عن فكرته ، وسيكون فى كل الأحيان موفقاً فى حسن الأداء ورعاية الدقة حتى ولو لم تكن الكلمة التى اختارها قد استعملها أحد من قبله .

اعتزاز العرب بلغتهم :

والعرب أنفسهم ، وكذلك كل الشعوب التى تتحدث بلغتهم ، يعتزون باللغة العربية أشد الاعتزاز ، وهم محقون تماماً إذا رددوا فى فخر قولهم المشهور : « الحمد لله الذى خلق اللسان العربى أحسن من كل لسان » وسواء أصدقناهم فى هذا القول أم لم نصدقهم ، فمما لا مراء فيه أن معرفة العربية ضرورية لكل من يحاول أن يتفقه فى لغات البلاد الإسلامية أو آدابها كالفارسية والتركية والأردية أو أية لغة أخرى يتحدث بها المسلمون فى أنحاء الأرض ؛ ومن المحقق قطعاً أنه كلما ازدادت معرفتنا بالعربية كلما ازداد مقدار تذوقنا لما نعرض له من آداب اللغات الإسلامية الأخرى .

عود إلى الجزء الأول من كتاب « تاريخ الأدب فى إيران » :

فى الكتاب السابق الذى جعلته بعنوان «تاريخ الأدب فى إيران منذ أقدم الأزمنة إلى عصر الفردوسى» كتبت مقدمة عن تاريخ الأدب الفارسى تحدثت فيها عن اللغات الثلاث القديمة فى البلاد الفارسية . وهى : « الفارسية القديمة » و « لغة الأفستا »

و «البهلوية». وكذلك عن بعض اللهجات الحالية المتصلة بها. ولقد شرحت المذاهب الدينية التى انتشرت فى إيران كالزردشتيه والمانويه والمزدكية ؛ ثم تحدثت عن تاريخ دولة آل ساسان العظيمة ، فلما انتقلت بعد ذلك إلى « العرب » الذين فتحوا البلاد الفارسية فى القرن السابع الميلادى وأثروا فيها كل هذا التأثير البالغ الذى شمل الدين واللغة والأدب والحياة والفكر ، تحدثت عنهم حديثاً مختصراً تناولهم فى أيام جاهليتهم قبل ظهور الدعوة الإسلامية ثم ذكرت شيئاً عن « معلقاتهم » وأشعارهم التى ينسبونها إلى القرن الخامس الميلادى والتى ما زالت المثال الأوحد الذى يحتذيه الشعراء والناظمون حتى اليوم ؛ ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن الدعوة النبوية ثم عن الإسلام ثم عن فوز المسلمين فى حروبهم وغزواتهم ثم عن الخلفاء الراشدين الأربعة ثم عن نشأة الشيعة والخوارج ، وتحدثت بعد ذلك عن حكم « الأمويين » وعن الحركات الثورية التى قامت بها الشعوب الخاضعة للدولة الإسلامية وخاصة الفرس وهى الحركات التى تمثلت فى منتصف القرن الثامن الميلادى (= الثانى الهجرى) فى الثورة الكبرى التى قام بها الخراسانيون بقيادة « أبى مسلم الخراسانى » وانتهت بموقعة « الزاب » وتحطيم الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية التى استمرت قائمة ما يقرب من خمسة قرون حتى أصابتها الطامة الكبرى على أيدى المغول الذين حطموها فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى[1] (= السابع الهجرى) .

العصر الذى تحدث عنه فى هذا الكتاب :

أما العصر الذى نتحدث عنه فى هذا الكتاب فيبدأ بعد فترة طويلة من انقضاء العصر الذهبى الذى عاش فيه « هارون الرشيد » . وقد استطاع الخلفاء العباسيون الأوائل أن يفسحوا رقعة الإمبراطورية التى أنشأها خلفاء النبى الذين سبقوهم ، ولم يكن ينقصهم إلا الاستيلاء على « أسپانيا » لتنضم إلى ملكهم الفسيح الذى امتد من « مراكش » إلى « السند » ومن « عدن » إلى « خوارزم » (أوخيوه) وكان

---

(١) بقى أثر من هذه الخلافة ممثلا فى « الخلفاء العباسيين فى مصر » حتى دخل السلطان سليم مصر فى سنة ١٥١٧ م = ٩٢٣ هـ وأعلن نفسه خليفة على المسلمين بعد حصوله من الخليفة العباسى الأخير على ألقاب الخلافة وشعائرها .

يشمل شمال أفريقيا ومصر وسوريا وبلاد العرب والعراق وأرمينيا والبلاد الفارسية وبلاد الأفغان وبلوچستان وجزءاً كبيراً من تركستان وجزءاً صغيراً من بلاد الهند وجزيرتى كريت وقبرص .

ويمكن أن يقال أن أول خطوة اتخذت لإضعاف هذه الإمبراطورية الكبيرة وزلزلة أركانها هى الخطوة التى خطاها المأمون بن هارون الرشيد فى سنة ٨٣٠ م = ٢٠٥ هـ عندما كافأ قائده طاهر بن الحسين المعروف بـ« ذى اليمينين » بولاية خراسان وجعل حكومتها له ولأولاده من بعده فاستمروا يتوارثونها حتى كانت سنة ٨٧٢ م = ٢٥٩ هـ حينما نجح « الصفاريون » فى التغلب عليهم وتأسيس دولتهم « الصفارية » . وتعتبر الدولة « الطاهرية » أولى الدول الفارسية التى قامت بعد الإسلام . ومن الثابت أنهم أنفسهم لم يحاولوا الاستقلال التام عن خلافة بغداد ولم يفصموا كل علاقة بينهم وبين الخلافة ، ولكنهم مع ذلك يمتازون عن سائر الحكام والولاة بأن ولاية خراسان بقيت لهم يتوارثونها فيما بينهم ، بينما كان الوالى العادى حتى ذلك الوقت معرضاً للنقل من ولاية إلى أخرى وفقاً لما تراه الحكومة المركزية فى بغداد .

ولقد تدرج الأمر بعد ذلك فتطورت هذه « الولاية المتوارثة » إلى « إمارة » مستقلة تمام الاستقلال[1] ولكن هذا التدرج كان بطيئاً غير متصل الحلقات ؛ فالدولة « الصفارية » مثلا كانت فى أيامها الأولى أقل خضوعا وأكثر استقلالا من الدولة « السامانية » التى أعقبتها . وكذلك كان الحال مع أكبر حكام الدولتين « الغزنوية » و « السلجوقيه » فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم منذوبين عن الخليفة وينظرون إليه نظرة السيد المتسلط الذى تستمد منه الألقاب ومراتب التشريف .

ولقد حدثت مع ذلك بعض الأحداث التى أدت إلى ثورات مكشوفة على الخلافة وخروج ظاهر عليها ، فسار « يعقوب بن ليث الصفار » وهجم على بغداد واشتبك مع قوات الخليفة المعتمد[2] فى سنة ٢٦٢ هـ = ٨٧٥—٨٧٦ م ، كما حاول « ملكشاه

(١) أول من تلقب بلقب « سلطان » هو محمود الغزنوى .

(٢) تفصيل ذلك موجود فى كتاب « سياست نامه » تأليف « نظام الملك » أنظر طبعة « شيفر » ص ١١ — ١٤ .

السلجوقى » فى سنة ١٠٨٠ م = ٤٧٣ هـ إن يضطر الخليفة « المقتدى » إلى أن ينقل عاصمته من بغداد إلى دمشق أو الحجاز[١] ؛ بل أظهر من ذلك كله ، هذا العراك الذى نشأ بين « سنجر » و « المسترشد » فى سنة ١١٣٣ م = ٥٢٨ هـ وانتهى أمره بحبس الخليفة وقتله فى محبسه فى سنة ١١٣٥ م = ٥٣٠ هـ على أيدى « الإسماعيليه » بتحريض من « سنجر » نفسه فيما يقولون وكما يخبرنا « البندارى » فى كتابه عن السلاجقه[٢] .

ومع ذلك فقد بقى أمراء المسلمين من أهل السنة — فيما عدا أمراء أسپانيا — يعترفون بالسلطة الإسمية لخليفة بغداد وقد استمروا على ذلك منذ تأسيس « الخلافة العباسية » حوالى سنة ٧٥٠ م = ١٣٢ هـ إلى تحطيمها فى سنة ١٢٥٨ م = ٦٥٦ هـ وقد استتبع ذلك أن ظلت « بغداد » طوال هذه القرون الخمسة تعتبر عاصمة العالم الإسلامى ومركز حضارته وثقافته ، كما ظلت اللغة العربية تعتبر لغة السياسة والفلسفة والعلم والأدب والحديث المهذب .

العباسيون وخصومهم من أهل الشيعة :

كان « الفاطميون » فى مصر هم أكبر خصوم العباسيين من الناحيــة الدينية والسياسية ، وكانوا يمثلون فريقاً واحداً من الفريقين العظيمين اللذين انقسم إليهما المتشيعون لعلى . فأما الفريق الأول فهم « السبعية » أو « الإسماعيلية » الذين إليهم ينتسب الفاطميون وقد ذكرنا نشأتهم وتاريخهم فى الجزء الأول من هذا الـكتاب حينما تحدثنا عنهم وعن المنضمين إليهم من « القرامطة » . وأما الفريق العظيم الآخر من فرق الشيعة فهم « الاثنا عشريه » وكان الفرس دائماً يميلون إلى مذهبهم حتى اتخذوه مذهباً رسمياً لهم عند قيام « الدولة الصفويه » على يد « الشاه إسماعيل » فى

---

(١) أنظر تاريخ السلاجقة للبندارى طبعة « هوتسما » ص: ٧٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٨٧ .

سنة ١٥٠٢ م = ٩٠٨ ﻫ [1] وقد ظلت الغلبة السياسية فى « البلاد الفارسية » حتى الفتح المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى فى أيدى « الإسماعيلية » الذين كانوا يتحصنون بقلعة « الموت » والذين كانوا يعرفون أيضاً باسم « الحشاشين » .

الفتح المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) :

أظهر حادث أصاب العصر الإسلامى فى آسيا هو « الفتح المغولى » فقد أصاب الحضارة الإسلامية بلطمة قاصمة لم تستطع أن تفيق من شدتها حتى الآن . فهم بتحطيمهم للخلافة العباسية فى بغداد قد قضوا نهائياً على وحدة العالم الإسلامى . وقد بدأ الفتح المغولى بغارة «چنگيزخان» فى بداية القرن الثالث عشر الميلادى وانتهى بالغارة على بغداد وقتل الخليفة العباسى « المستعصم » على يد « هولاكوخان » فى سنة ١٢٥٨ م = ٦٥٦ ﻫ . وكان الخراب الذى أصاب « إيران » شديداً فقد كانت جموع المغول كالذئاب المتعطشة إلى الدماء ، فأخذوا يقتلون كل من يصادفهم ويحرقون ويدمرون كل ما يعترض سبيلهم دون أن تأخذهم فى قسوتهم رحمة أوشفقة ، حتى أثر عنهم هذا القول المشهور بأنهم « جاءوا وخربوا وحرقوا وقتلوا وسلبوا وذهبوا [2] » وقد نطق بهذا القول واحد من القليلين الذين نجوا بحياتهم عند ما أغاروا على « بخارى » وقتلوا من أهلها ثلاثين ألفاً . ولم تكن « بخارى » وحدها هى المدينة التى أصابها هذا البلاء المستطير بل ما أكثر المدن التى أصابها ما هو شر من ذلك وأنكى . وغارة « تيمور » رغم ما امتازت به من شدة وقسوة لم تبلغ فى حدتها المبلغ الذى وصلت إليه غارة هؤلاء المغول ، ولعل السبب فى ذلك أن « تيمور » كان مسلماً يحس فى قرارة قلبه بشىء من التقديس للمساجد وأماكن العبادة وبشىء من التقدير للمكتبات ورجال العلم ، بينما كان « چنگيزخان » و « هولاكوخان » لا يدينان بدين من الأديان ويتعطشان إلى سفك الدماء وإهدارها بحيث إذا اعترض سبيلهما معترض أو قتل واحد من قوادهما فى المعركة

---

(١) انتشر هذا المذهب من قبل فى طبرستان وكذلك اعتنقه حكام البويهيين .

(٢) أصل العبارة بالفارسية كما هى مذكورة فى كتاب « تاريخ جهان كشا » هى :
«آمدند وكندند وسوختند وكشتند وبردند ورفتند.»

فالطامة كبرى ، والبلاء شامل ، والفتك الذريع نصيب للصغير والكبير والقوى والحقير والعالم والجاهل . ولقد كان من دأبهما أن يعلفا الخيول فى المساجد وأن يحرقا المكتبات ، وأن يجعلا الكتب الثمينة طعاماً للنيران والمواقد ، وأن يخربا المدن العامرة حتى تستوى أعاليها بأسافلها ، وأن يقتلا كل كائن فيها حتى تصبح خراباً يباباً لا تصلح لزرع أو ضرع .

ومن رأيى أن هناك فجوة تفصل بين ماسبق هذه الكارثة وماتلاها ، فقد أنزلت بالحضارة الإسلامية والعلوم والآداب كثيراً من الانحطاط الذى لم يمكن إصلاحه حتى الآن . ومن أجل ذلك فلا غرابة إذا احتجنا فى دراسة فترة القرنين والنصف القرن التى سبقت هذه الكارثة إلى مثل الجهد والنطاق اللذين نحتاج إليهما فى دراسة القرون السبعة التى أعقبتها (١) .

النهضة الفارسية :

بحثنا فى الجزء الأول كيف نشأت «النهضة الفارسية» وكيف تطورت حتى انتهت إلى ظهور «الفردوسى» وأقرانه من الشعراء المعاصرين ، ولابأس من أن نعيد هنا فى إجمال ما سبق لنا شرحه فى تطويل وتفصيل .

المعروف وفقاً لما ذكره « عوفى » وهو أقدم من ترجم لشعراء الفرس فى القرن الثالث عشر الميلادى (أوائل القرن السابع الهجرى) أن أول من أنشأ قصيدة فارسية هو شخص يسمى « العباس » ، أنشأها ليستقبل بها المأمون عند قدومه إلى « مرو » فى سنة ١٩٣ هـ = ٨٠٨ — ٨٠٩ م وقد أخذ الدكتور « ايتيه » هذه النبذة المستقاة من « لباب الألباب » وفيها أربعة أبيات من هذه القصيدة فترجمها ونشرها فى مقال ممتع عنوانه : « السابقون واللاحقون للرودكى (٢) » .

ولكنى أختلف معه فى الرأى فيما يتعلق بهذه القصيدة وأتابع رأى « كازمرسكى (٣) »

---

(١) المترجم : فى الأصل القرون الستة ونصف القرن وقد أضفت إليها نصف قرن مضى منذ كتابة هذا الكتاب .

(٢) عنوانه بالألمانية: Rûdagî's Vorlaüfer und Zeitgenossen; pp36-38

(٣) المقصود به : A. de Biberstein Kazimirski

الذى يرى أن هذه القصيدة زائفة منتحلة(١) .

ولعل من أقدم الأشعار الفارسية التى وصلت إلينا هى هذه الأبيات التى حدثنا بها « نظامى عروضى سمرقندى » فى كتابه « چهار مقاله » (أو المقالات الأربع)(٢) فقال إنها أوحت إلى « أحمد الخجستانى » أن يثور فى وجه الدولة الصفارية فى سنة ٢٦٢ هـ = ٨٧٥ — ٨٧٦ م عندما قرأ البيتين الآتيين :

مهترى گر بكام شير در است
شو خطر كن ز كام شير بجوى
يا بزرگى وعــز ونعمت وجاه
يا چو مردانت مرگ رويا روى

ومعناها :

— إذا كانت العظمة فى أشــــداق أسد كاسر
فالتمسها من أشــــداقه وتقدم إليه وخاطر
— فإما وصلت إلى العظمة والعز والنعمة والجاه
وأما لاقيت حتفك فى رجولة وعدمت الحياه

وقد ذكر « نظامى العروضى السمرقندى » هذين البيتين عندما أراد أن يبرهن لنا على أن الشعر عبارة عن «صناعة يتمكن الشاعر بواسطتها من أن يسوق المقدمات الخيالية والوهمية وأن يجعلها تتفق وتلتئم مع القياسات المنتجة العملية ، بحيث يجعل من المعنى الصغير معنى كبيراً ، ومن الكبير معنى صغيراً ، وبحيث يلبس الجميل صورة القبيح أو القبيح صوره الجميل ، فإذا أثار قوى النخوة أو الشهوة فى سامعيه استطاع أن يوحى إليهم بالسرور أو الانقباض وأن يحدث كثيراً من عظائم الأمور فى هذا العالم » . .

---

(١) أنظر ديوان منوچهرى ص ٨ — ٩ وأظن أن المستشرق الإيطالى Pizzi يرى نفس هــذا الرأى ؛ وأنظر أيضاً مقالا ممتعاً بقلم الأستاذ « مارجليوث » نشره فى مجلة الجمعية الملكية الأسيوية فى أكتوبر سـنة ١٩٠٣ ص ٧٤٧ بعنوان « مستند فارسى يهودى من ختن » .

(٢) طبع هذا الكتاب فى سلسلة أوقاف جب التذكارية وقد نشر الأستاذ براون ترجمة إنجليزية له فى عدد أكتوبر سنة ١٨٩٩ من مجلة الجمعية الملكية الأسيوية .

ثبات اللغة الفارسية :

بدأ الشعراء ينظمون الشعر بالفارسية منذ أكثر من ألف سنة من الزمان[١]. وقد شملهم بالرعاية حكام الدويلات المستقلة أو الشبيهة بالمستقلة التي نشأت مع اضمحلال الخلافة وانحلالها ، ولم تتغير اللغة الفارسية خلال هذه المدة الطويلة إلا قليلا ، وربما لا يلاحظ هذا التغيير إلا في أمثلة قليلة لبعض الكلمات المهجورة أو الإملاء القديم . وقد ترتب على ذلك أننا نستطيع أن نفهم أقدم الأشعار الفارسية الباقية في أيدينا دون أن نحس بشيء من العسر أو الغرابة أو البعد عن الأساليب الفارسية المستعملة في الوقت الحاضر . ومع ذلك فهناك في رأيي شيء من الاختلاف يمكن إحساسه فيما يتعلق بالذوق الأدبي وبالشعور الذي توحي به هذه الأشعار القديمة . فالأشعار التي نشأت في عهد الدولتين « الصفارية » و « السامانية » هي في الحقيقة أشعار بسيطة خالية من الصناعة البديعية وهي أقرب إلى الطبع وأدنى إلى سلامة الأداء وتصوير الموضوع .

تطور الذوق الأدبي وقواعد النقد :

ولا يمكن أن يكون هناك ما هو أدل على تطور الذوق الأدبي في مدى ثلاثة قرون ونصف القرن من أن نقارن نقدين لقصيدة واحدة شهيرة أنشأها الشاعر المعروف « رودكي » الذي تتفق الآراء على اعتباره أكبر شعراء الفرس في الفترة السابقة لقيام الدولة « الغزنوية » . فأما أحد هذين النقدين فهو الذي تضمنه كتاب « چهار مقاله » لمؤلفه « نظامي العروضي السمرقندي » (حوالي سنة ١١٥٥ م = ٥٥٠ هـ) وأما ثانيهما فهو المذكور في كتاب « تذكرة الشعراء » لمؤلفه دولتشاه (حوالي سنة ١٤٨٧ م = ٨٩٢ هـ) .

والقصيدة التي كانت موضوعا للنقد في هاتين المرتين هي التي مطلعها :

---

(١) أثرت في الجزء الأول مسألة الشعر وهل كان له وجود في عهد الدولة الساسانية .. ، وقلت إننا بفرض القول بوجوده فقد ضاع جملة ولم يبق شيء من أمثلة في أيدينا ، وكل ما بقي من الأشعار الفارسية هي هذه الأشعار التي قيلت في العصر الإسلامي .

بوی جوی مولیان آید همی　　بوی یار مهربان آید همی(١)

ومعناها بالعربية :

روائح « موليان(٢) » تهب دوما　　بذكر أحبتى ومنى زمانى
ولمسى رمله العاتى خير　　لدىّ من الحرير الخسروانى
يفيض النهر كى يلقاك بشراً　　ويضحك ماؤه والشاطئان
فعيشى يا « بخارى » فى نعيم　　أميرك مقبل واليمن دانى
فأنت سماؤه يأتيك « نصر(٣) »　　كبدر التم يبسم للأمانى
وأنت رياضه يأتيك « نصر »　　شبيه السرو فى أبهى مكان(٤)

وقد تحدث الناقد الأول عن الأثر الشديد الذى أحدثته هذه الأبيات فى نفس الأمير «نصر بن أحمد السامانى» فقال إنها أثرت فيه تأثيراً شديداً بحيث أجزل لقائلها العطاء واختصه بكثير من النعم ، وبدا ذلك شيئاً طبيعياً فى نظر الناقد « لأن الرودكى رجل قد برز على من عداه فى قول الشعر ولا يستطيع أحد أن يدانيه فى الجزالة والعذوبة ويكفى دليلا على ذلك البيت الآتى :

آفرين ومدح سود آيد همی　　گر بگنج اندر زيان آيد همی

ومعناه :

مديح الناس مكسبة وفخر　　وأما المال آخره الضياع(٤)

---

(١) المترجم فيما يلى بقية هذه الأبيات وفقاً لما ورد فى « چهار مقاله » ص ٣٨ طبع برلين سنة ١٩٢٧ :

ريگ آموی ودرشتى راه او　　زير پايم پرنيان آيد همی
آب جيحون از نشاط روی دوست　　خنگ مارا تاميان آيد همی
أی بخارا شاد باش ودير زی　　مير زی تو شادمان آيد همی
مير ماهست وبخارا آسمان　　ماه سوی آسمان آيد همی
مير سرو است وبخارا بوستان　　سرو سوی بوستان آيد همی

(٢) « موليان » نهر بالقرب من بخارى أوهو نهر جيحون .

(٣) المترجم : هوالأمير نصربن أحمد السامانى .

(٤) المترجم : هذه الأبيات من نظمى .

وقد استشهد الناقد بهذا البيت فقال « إنه يتضمن فى أصله الفارسى سبع صناعات بديعية » هى الآتية :

١ — المطابقة ٢ — التضاد ٣ — الترديف ٤ — بيان المساواه
٥ — العذوبة ٦ — الفصاحة ٧ — الجزالة

واختتم الناقد نقده بهذه العبارة : « ويستطيع كل أستاذ له تبحر فى علوم الشعر أن يفكر قليلا ليرى أننى مصيب فيما قلت »[١] وأنا شخصياً إذا أتيح لى أن أبدى رأيى فى هذا الأمر أجد نفسى ميالا إلى تصديقه وموافقته . فالمطابقة ظاهرة وواضحة لأن الشاعر يريد من الأمير شيئاً من العطاء وأشارته إلى ذلك هينة ولكنها واضحة ؛ وأما التضاد فقد عبر عنه الشاعر وأجاد عند ما ذكر « ضياع المال » و « كسب الفخر » ؛ وأما الرديف فظاهر فى جزئى البيت وإن كان الأمر لا يقتضيه عادة إلا فى الشطرة الأخيرة منه ؛ وأما « المساواة » فظاهرة أيضاً مما يناله الأمير لقاء سخائه ؛ وأما « العذوبة » و « الفصاحة » و « الجزالة » فكلها ظاهرة وواضحة من قراءة البيت الفارسى .

دولتشاه وفساد ذوقه الأدبى :

فإذا جئنا إلى « دولتشاه » وقرأنا نقده الذى كتبه عن هذه الأبيات بعينها حوالى سنة ١٤٨٧ م = ٨٩٢ هـ وجدناه يقول ما يأتى[٢] :

« هذه القصيدة طويلة جداً بحيث لا يمكن إيرادها برمتها فى هذا الكتاب . وهم يقولون إنها أطربت الأمير ووقعت موقعاً حسناً فى نفسه بحيث أن الأمير امتطى جواده قاصداً الذهاب إلى «بخارى» دون أن يتنبه إلى وضع حذائه فى قدميه . وإن العقلاء لاشك ليدهشون إلى هذه الحالة التى انتابت الأمير ، لأن هذه الأبيات بسيطة

---

(١) أنظر ص ٣٩ من « چهار مقاله » .
(٢) أنظر ص ٣٢ من « تذكرة الشعراء » طبع ليدن سنة ١٩٠٠ م .

للغاية ليس فيها شيء من المتانة أو الصناعة ؛ ولو أن أحداً من الشعراء فى هذه الأيام أقدم على عرض أشعار شبيهة بهذه الأبيات فى مجلس الأمراء والسلاطين لاستوجب إنكار الجميع له ولأقواله . ولكن من الجائز أن نقول أن الأستاذ « الرودكى » كان خبيراً بالأوتار والموسيقى فاستطاع أن ينشىء لحناً عرض فيه هذه الأبيات على وقع الأغانى والأنغام فحلت محل القبول والإعجاب . ومع ذلك فلا يجوز لنا أن نستخف بشأن الرودكى بسبب هذه الأبيات ، فمما لاجدال فيه أنه كان خبيراً بسائر العلوم والفنون والفضائل كما كان يجيد القول فى سائر ضروب الشعر وخاصة «القصائد» و«المثنويات» مما جعله عظيم الشأن مقبول القول لدى الخاص والعام .

الأسلوب الفارسى والصناعة البديعية :

يتصور كثير من الناس أن « الآداب الفارسية » تمتاز بأنها مصطنعة متكلفة تمتلىء بالصناعات البديعية وتزخر بالمجازات والاستعارات ؛ ولكن هذا الرأى ليس صحيحاً إلا فيما يتعلق بمجموعة من الآداب نشأت فى ظروف خاصة وبيئات خاصة كالتى نشأت فى كنف الفاتحين الأجانب من « المغول » أو « الأتراك » . فتاريخ المغول الذى ألفه[1] « الوصاف » حوالى سنة ١٣٢٨ م = ٧٢٩ هـ هو من أكبر الأمثلة على هذا الأسلوب المصطنع الملىء بالمحسنات البديعية . وكذلك نجد أن « روضة الصفا[2] » و « أنوار سهيلى »[3] وكذلك طائفة من التأليفات المعاصرة التى نشأت فى رعاية الأمراء التيموريين فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر (= القرن العاشر الهجرى) كلها تقوم دليلا على صدق هذا الرأى الذى ذهبنا

---

(١) هذا التاريخ عنوانه « تجزية الأمصار وتزجية الأعصار » ويعرف اختصاراً باسم « تاريخ الوصاف » ومؤلفه هو أبو عبد الله بن فضل الله الشيرازى .

(٢) من تأليف محمد بن خاوند شاه المعروف بـ « مير خواند » المتوفى سنة ٩٠٣ هـ = ١٤٩٧ م .

(٣) عبارة عن كتاب « كليلة ودمنه » بلغة فارسية كثيرة المحسنات البديعية ؛ وهو من إنشاء « حسين واعظ كاشفى » المتوفى سنة ٩١٠ هـ = ١٥٠٤ م .

إليه[1] . ومع ذلك فلم يصل هذا الأسلوب المصطنع الـكرية إلى نهاية مداه إلا فى عصر الأتراك العثمانيين كما تشهد بذلك كتابات « ويسى » و « نركسى » . ولعله من الخير أن نذكر أن ناقداً تركياً حديثاً تناول بالنقد ما كتبه هذان الشاعران فقال : «إن الفارسى إذا قرأ أشعارهما يستطيع أن يتبين أنهما لم يكونا يحاولان الـكتابة بالفارسية ، وكذلك إذا فعل التركى فإنه يعجز أن يتخيل أنهما كانا يكتبان بالتركية أيضا .. !! »

خصائص الأشعار الفارسية المبكرة من حيث الصياغة والأسلوب :

فى الجزء السابق من « تاريخ الأدب فى إيران » الذى نشرته فى سنة ١٩٠٢ أوردت أمثلة شعرية من أقوال سبعة عشر شاعراً عاشوا فى العصر السابق للدولة الغزنوية . وهذا القدر كاف — فى نظرى — لتكوين فكرة عن خصائص هذه الأشعار المبكرة . ولـكن من الأسف أننا إذا استثنينا الألف بيت من الشعر التى أنشأها «الدقيقى» وأبقاها «الفردوسى» فى شاهنامته فإننا لا نجد مثلا آخر للمثنويات أو القصائد المطولة التى يمكن نسبتها إلى العصر السامانى أى العصر السابق لهذا العصر. وليس من شك فى أنهم أنشأوا فى ذلك الوقت بعض القصائد القصصية المطولة كالترجمة المنظومة التى قام بها « الرودكى » لـكتاب « كليلة ودمنه » وهى الترجمة التى بقى منها ستة عشر بيتاً من الشعر محفوظة فى كتاب « أسدى » المعروف بـ«لغت فرس» وهو المعجم الفارسى الذى جمعه « أسدى » حوالى سنة ١٠٦٠ م = ٤٥٢ هـ ونشره « بول هورن » فى طبعة أنيقة جميلة .

أما ما بقى فى أيدينا من أمثلة هذه الأشعار المبكرة فلا يعدو بعض « المقطعات » و « الرباعيات » و « الغزليات » بالإضافة إلى « المثنويات » و « القصائد » التى لاشك فى أنها قيلت فى ذلك الوقت والتى بلغت ذروة رفعتها فى أيام الفردوسى حوالى سنة ١٠٠٠ م = ٣٩١ هـ وهى السنة التى نبدأ بها العصر الذى نحن فيه .

و « القصـيدة » و « القطعـة » هما ضربان من ضروب النظم استعارهما

---

(١) انتقلت هذه الآداب إلى الهند عند تأسيس « بابر » للدولة المغولية فى الهند .

الفرس من العرب ، وقد وضعوها على نسق المعلقات الجاهليـة من حيث الصياغة والأسلوب وإن كان قد أصابهما شيء من التعديل على أيدي الفرس كما فعلوا أيضاً بـ « بالغزل » .

أما « الرباعى » و « المثنوى[١] » فهما ضربان من النظم ابتكرها الفرس ابتكاراً . وفى رواية معروفة عن أول ما قيل من الشعر الفارسى أن « الرباعى » أو الـ « دوبيت » هو أول ضروب النظم التى نشأت فى إيران[٢] .

وأما « الشعر الصوفى » الذى نصادفه بكثرة من القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) فأمثلته قليلة نادرة فى فاتحة هذا العصر الذى ندرسه .

فنون الشعر والبديع لدى الفرس:

لعله من الخير ــ لكى نتفادى كثرة التفريعات والتفسيرات فى الفصول التالية ــ أن نستعرض أنواع الأساليب الأدبية التى يتبعها الفرس ، وأن ننظر إلى فنونهم البلاغيه التى يستعملونها فى أقوالهم ، وإلى أوزانهم الشعرية التى يصوغون فيها أشعارهم . وقد أغنانى عن الإفاضة فى مثل هذه الموضوعات ما كتبه صـــديقى المرحوم « إ . ژ . و . جب » فى أبحاث قيمة ألحقها بمقدمة كتابه الخالد « تاريخ الأشعار العثمانية[٣] » فقد تحدث فى الجزء الأول من هذا الـكتاب عن الفكر الشرقى وعالج فنون الشعر والبلاغة والأدب التى يطبقها « الأتراك » و « الفرس » وكذلك « العرب » وسائر الشعوب التى تتحدث بلغة من اللغات الإسلامية الأخرى . وهذه

---

(١) المترجم : المثنوى عبارة عن النظم المؤلف من أزواج من الأشطر كل اثنين منها متفقان فى الروى مستقلان عما عداها .

(٢) أنظر ص ٣٠ — ٣١ من « تذكرة الشعراء » وكذلك ص ٨٨ — ٨٩ من « المعجم فى معايير أشعار العجم » .

(٣) إسمه بالإنجليزية Gibb : History of the Ottoman Poetry .

المقدمات التى ساقها « جب » تعتبر من أهم الموضوعات التى يجب أن يبدأ بدراستها كل من يريد أن يشتغل بالآداب الإسلامية . فقد تحدث فى الفصل الثانى من الكتاب الأول عن الفقه والفلسفة والتصوف . كما تحدث فى الفصل الثالث عن ضروب الشعر والعروض والبلاغة .

كذلك يحسن الرجوع فى هذه الموضوعات إلى مصادر أخرى أهمها :

١ — كتاب « أبحاث فى البلاغة والعروض والقافية لدى الفرس » تأليف «جلادوين[١]» .

٢ — كتاب « النحو والشعر والبلاغة عند الفرس » تأليف « روكرت[٢] »

٣ — كتاب « العروض الفارسى » تأليف « بلوخمان[٣] » .

٤ — كما يحسن الرجوع إلى الكتاب الآتى فيما يتعلق بالمقارنات بين شعراء الغزل: وهو ترجمة « أوبار[٤] » لكتاب « أنيس العشاق » من تأليف « شرف الدين رامى[٥] » .

أما الكتب الفارسية التى تناولت هذه الموضوعات فكثيرة ومن أهمها :

١ — كتاب « ترجمان البلاغة » من وضع « فرخى » وهو من الشعراء المعاصرين للفردوسى . وقد ذكر دولتشاه اسم كتابه فى ص ٩ و ٥٧ من تذكرة الشعراء كما ذكره أيضاً حاجى خليفة (طبعة فلوجل . ج ٢ ص ٢٢٧) .

---

(١) Dissertaitions on the Rhetoric, Prosody and Rhyme of the Persians : by Gladwin, Calcutta 1801.

(٢) اسمه بالألمانية Grammatik, Poëtik und Rhetorik der Perser من تأليف Rückert وقد نشره فى مجلدين سنة ١٨٢٧ — ١٨٢٨ ضمن الـ Wiener Jahrbucher وأعاد طبعه Pertsch فى سنة ١٨٧٤ م .

(٣) إسمه الأصلى بالإنجليزية : Prosody of the Persians : by Blochmann

(٤) C·Huart

(٥) المترجم : هو من رجال القرن الثامن الهجرى وذكروا له تأليفاً آخر اسمه « حقائق الحدائق » .

٢و٣ — كتاب « غاية العروضين » وكتاب « كنز القافية » وكلاهما من وضع « بهرامى السرخسى » وكان معاصراً للفردوسى أيضاً . وقد امتدح كتابيه كثيراً صاحب كتاب « چهار مقاله » .

وجميع هذه الكتب الثلاثة مفقودة وليس فى أيدينا نسخة منها[١]. وأما الكتب الفارسية الباقية فى أيدينا حتى الآن فأهمهما وأقدمها كتابان هما :

٤ — «حدائق السحر فى دقائق الشعر» من تأليف «رشيد الدين الوطواط[٢]» المتوفى سنة ١١٨٢ م = ٥٧٨ هـ .

٥ — « المعجم فى معايير أشعار العجم » من تأليف « شمس قيس الرازى » . وضعه أثناء القرن الثالث عشر الميلادى (بعد سنة ٦١٤ هـ = ١٢١٧ — ١٢١٨ م) .

علم البديع :

وفيما يلى سأتحدث عن « علم البديع » مراعياً أن أختار أكثر شواهدى من كتاب « حدائق السحر » دون أن أتقيد بالنظام الذى سار عليه « الوطواط » إذ بدا لى فى بعض المواضع أنه لم يحسن التنظيم والترتيب . وسأجتهد فى أن أسوق بعض الأمثلة الإنجليزية التى تساعد القارىء الإنجليزى على تفهم الفنون البلاغية المختلفة وتقريبها من ذهنه[٣] .

---

(١) المترجم : نشر من هذه الكتب أخيرا فى تركيا كتاب « ترجمان البلاغة » .

(٢) المترجم : يقول البعض أن وفاته كانت فى سنة ٥٧٣ هـ وقد نقلت هذا الكتاب إلى العربية ونشرته فى سنة ١٩٤٥ بعنوانه الأصلى الذى عرف به فى الفارسية .

(٣) المترجم : سأعرض عن ذكر هذه الأمثلة لأن القارىء العربى ليس فى حاجة إليها .

١ — النـثر

النثر على ثلاثة أنواع :

(ا) النثر العارى : وهو مالا وزن له ولا قافية .

(ب) النثر المرجز : وهو ماله وزن وليس له قافية .

(ج) النثر المسجع : وهو ماله قافية وليس له وزن .

ولسنا فى حاجة إلى أن نتحدث عن النوع الأول فشأنه ميسور بسيط ؛ أما النوع الثانى فيحتاج إلى شىء من الدراسة لأن الاعتراف به كنوع مستقل من أنواع النثر يعتمد على مانسميه بالمذهب الفقهى ؛ أما النثر المسجع فقد نزلت كثير من آيات القرآن على نمطه ، ولكننا نعثر فى بعض الأحيان على آية من الآيات تقع موزونة على وزن من الأوزان الشعرية المعروفة كما ورد فى سورة البقرة فى الآيتين ٧٨و٧٩ حيث قال تعالى :

« ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون » .

فهاتان العبارتان موزونتان على بيت من « الرمل » مكون من « فاعلاتن » ست مرات مع جعل التفعيلة الأخيرة من كل مصراع على « فاعلات » . ولما كان خصوم النبي قد اعتادوا أن يتهموه بأنه « شاعر مجنون » وهو ينفى التهمة بكل ما يملك من قوة ، اضطر اتباعه إلى أن يصوغوا تعريفاً للشعر لا ينطبق على أية آية من آيات القرآن أو على أية عبارة من عباراته فلما وجدوا أن بعض آياته — كما رأينا — موزونة ومقفاة أضافوا إلى شرط « الوزن » و« القافية » شرطاً ثالثاً هو « القصد » أى أن يقصد القائل أن يقول شعراً . وعلى ذلك قالوا إن « النثر المرجز » هو عبارة عن شعر صدر عفواً فى وسط كلام منثور ولم يقصد قائله أى يجعله شعراً :

ومن أمثلة هذا النثر المرجز قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث نبوى :

الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم

فهذه العبارة موزونة على الرمل المثمن .

والنوع الثالث من النثر وهو « المسجع » يعرض كثيراً فى كتابات اللغات الإسلامية المختلفة وهو على ثلاثة ضروب :

(ا) المتوازى : وذلك إذا وجدت فى جملتين أو أكثر كلمات متفقة فى الوزن وعدد الحروف والروى ؛ ومثاله من القول النبوى :

« اللهم اعط منفقا خلفا ، واعط ممسكا تلفا » .

(ب) المطرف : وذلك إذا وجدت فى آخر جملتين أو أكثر كلمات متفقة الروى ولكنها مختلفة من حيث الوزن والعدد .

ومثاله قوله تعالى: «مالكم لاترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً» .

(ج) المتوازن : وهذا النوع يرد فى النثر والشعر معا ، ويكون بأن ترد فى أول الجملتين أوآخرهما ، أوفى أول المصراعين أو آخرهما كلمات تتفق مع بعضها من حيث الوزن ولكنها تختلف فى حروف الروى .

ومثاله من القرآن الكريم : «وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم» .

وأجمل تقليد فى اللغات الأوربية للنثر المسجوع موجود فى اللغة الألمانية ومن أحسن أمثلته ماورد فى الترجمة الألمانية لبعض مقامات بديع الزمان الهمذانى (المتوفى سنة ١٠٠٧ — ١٠٠٨ م = ٣٩٨ هـ) وهى الترجمة التى نشرها « فون كرامر » فى الجزء الثانى من كتاب « تاريخ الثقافة[١] » .

٢ — النظم

ذكر « روكرت » أن ضروب النظم فى الفارسية عبارة عن أحد عشر ضرباً كما أوردها صاحب كتاب «هفت قلزم» (أو البحار السبعة) وهى على الترتيب الآتى :

(ا) الغزل	(هـ) الرباعى	(ط) التركيب بند
(ب) القصيدة	(و) الفرد	(ى) المستزاد
(ج) التشبيب	(ز) المثنوى	(ك) المسمط
(د) القطعة	(ح) الترجيع بند	

(١) أنظر ص ٤٧١ — ٤٧٥ من كتاب Culturgeschichte

المترجم : أعرضت عن ذكر المثل الألمانى الذى أورده « براون» من ترجمة المقامات كما أعرضت أيضاً عن ذكر المثل الإنجليزى الذى نقله براون من كتاب :

Arte of English Poesie, by George Puttenham. 1589

ويمكن أن نضيف إلى هذه الضروب « المربع » و « المخمس » و « المسدس » و « المسبع » و« المثمن » و« المتسع » و«المعشر» .

كما يمكن أن نضيف إليها أيضاً « الموشح » وإن كان نادر الاستعمال لدى الفرس ولم يستعمل بكثرة إلا فى الأندلس وبلاد المغرب .

أما الشعر « الملمع » وهو الشعر الذى يتكون من أبيات أو مصاريع منظومة فى لغتين أو أكثر فلا يتقيد بصياغة خاصة ؛ ومن أجل ذلك فمن الخير أن نرجىء الحديث عنه إلى أن نعرض للكلام على « موضوعات القصيد » .

. . . والتقسيم الذى ذكره كتاب « هفت قلزم » يشوبه الخفاء وعدم الإقناع . فالتشبيب مثلا ما هو إلا هذا الجزء الذى يصف فيه الشاعر فى مطلع قصيدته « أيام الشباب وما يراه من جمال وما يحس به من حب وهيام » ويجعله مقدمة لما يريد أن يسوقه من أغراض . وكذلك « الفرد » و « القطعة » و « البيت » لا يصح أن تعتبر من ضروب النظم المختلفة لأن « الفرد » أو « البيت » ما هو إلا الوحدة التى تقوم عليها سائر ضروب النظم بينما « القطعة » ما هى إلا جزء من قصيدة طويلة أو جملة أبيات نظمت على حدة ولم يقسم لها أن تطول لتبلغ مبلغ القصائد كما نشاهد فى آثار بعض الشعراء وعلى الخصوص أشعار « ابن يمين » المتوفى سنة ١٣٤٤ م = ٧٤٥ هـ ، فإنها برمتها من هذا النوع الذى يعرف بالمقطعات .

وكذلك النوعان المعروفان باسم « بند » يمكن اعتبارهما ضرباً واحداً سواء رجع بيت بعينه بين أقسامها أم ذكرت أبيات مختلفة بعد كل قسم من الأقسام ، بحيث تكون متفقة القافية فيما بينها وإن كانت لا تتفق مع سائر أقسام البند . وكذلك الحال مع « المربع» و « المخمس » و « المسدس » . . الخ فإنها تعتبر نوعاً واحداً .

أما « الموشح » و « المسمط » و « المرصع » فلا تعدو أن تكون « قصائد » مصطنعة أو « غزليات » من نوع خاص .

وقبل أن نحاول تقسيم « الشعر الفارسى » تقسيما علمياً يكون أقرب إلى طبيعته بحيث تظهر لنا ضروبه المختلفة ، نجد لزاماً علينا أن نتحدث أولا عن عناصره التى يتركب منها .

البيت والمصراع

والبيت هو الوحدة التى تتركب منها كل منظومة من المنظومات ؛ وهو يتركب بدوره من قسمين متساويين كل منهما يسمى « مصراعا » . ويشتمل البيت على عدد معين من التفعيلات تبلغ الثمانى إذا كان البيت « مثمناً » أو الست إذا كان البيت «مسدساً» وتقل عن ذلك فى بعض الأحوال .

ولسنا فى حاجة إلى بيان الأجزاء التى تتركب منها التفعيلة الواحدة وكيف أنها تتركب من « الأوتاد » و « الأسباب » و « الفواصل » ولكننا نكتفى بأن نقول إن هذه التسميات الفنية التى اصطلح عليها عروضيو العرب ، وتابعهم فيها أصحاب العروض من الفرس والترك وأهل الأمم الإسلامية الأخرى ، كلها قد بنيت على قياس خاطىء فى تشبيه « البيت من الشعر » « بالخيمه » أو « بيت الشعر » الذى يسكنه الأعراب . فقالوا إنك إذا نظرت إلى الخيمة أو « بيت الشعر » من قدام وجدت أن بابها يتركب من مصراعين ، فاستعمل العروضيون كلة «مصراع » للدلالة على كل قسم من القسمين اللذين منهما يتركب « بيت الشعر » . وقد ذكر « بلوخمان » فى كتابه « العروض الفارسى[١] » جملة من الأسباب والتفصيلات التى أدت إلى هذه المقايسة الغريبة بين « بيت الشعر » و « بيت الشَعر » لعل أغربها وأجملها هو قولهم أن «بيت الشعر» يضم فى أرجائه الغيد الحسان من نساء القبيلة وكذلك الحال مع « بيت الشعر» فإنه يشتمل على إبكار الأفكار التى تجول فى خاطر الشاعر.

وقد اصطلحوا فى الإنجليزية على ترجمة كلة « بيت » بكلمة « Couplet » وعلى ترجمة « مصراع» بكلمة « Hemistich »، ولاشك أن ترجمة هاتين الكلمتين على هذا النحو مما يؤسف له ، لأن الكلمة الإنجليزية الأولى توحى لنا بأن « البيت » مكون من وحدتين ، كما أن الكلمة الثانية توحى لنا بأن « المصراع » عبارة عن نصف وحدة ، ويترتب على ذلك بالطبيعة أن أربعة مصاريع لازمة لإنشاء البيت الواحد من الشعر . ولذلك أجد أنه من الخير أن تترجم كلة « بيت » بالكلمة

---

(١) أنظر : Persian Prosody; by Blochmann. pp. 20—21

الإنجليزية « Verse » وكلمة مصراع بكلمة « Half — verse » وإن كان لا اعتراض لدى على الاستمرار فى تسمية « المصراع » بكلمة « Hemistich » بشرط أن نصطلح من الآن على تسمية البيت بكلمة « Verse » أو « Stichos » . وفى هذه الحالة يصبح الرباعى مكوناً من أربعة مصاريع أو من بيتين وتنطبق كذلك تسميته فى الانجليزية على تسميته التى عرف بها فى الفارسية حيث اصطلحوا على تسميته باسم « دوبيت » .

وعلى كل حال يجب ألا يغيب عن بالنا أن « البيت » هو الوحدة فى كل المنظومات . وإن قولنا بيت مسدس أو مثمن لايدل على شىء إلا على عدد التفعيلات التى يشتمل عليها . كما يجب ألا يغيب عن بالنا أيضاً أن جميع أبيات المنظومة يجب أن تكون متساوية فى عدد تفعيلاتها فلا يجوز مطلقاً الجمع فيها بين « المثمنات » و « المخمسات » كما نجد عادة فى الأشعار اللاتينية .

ومن الملاحظ فى بعض الكتب المنثورة من قبيل « گلستان » أن الكاتب يسوق « البيت » أو « المصراع » للاستشهاد به على قول معين أو حادثة بعينها وربما نظم هذا « البيت » أو هذا « المصراع » لهذه المناسبة وحدها ؛ وفى هذه الحالة يسمون « المصراع » باسم « الفرد » .

ضروب النظم الفارسية :

ويحسن بنا وقد فهمنا الأشياء التى ذكرناها فيما سبق أن نتقدم لدراسة ضروب النظم الفارسية المختلفة ، فنقول إن أول تقسيم لهذه الضروب مبناه القافية . فهناك نوع من الأشعار تكون القافية فيها مستلزمة بين مصراعى البيت الواحد دون تقيد بما يسبقه أو يليه من الأبيات . وهناك نوع آخر تستلزم فيه القافية فى نهاية الأبيات جميعها دون تقيد بتقفية المصاريع الأولى منها إلا فى بيت المطلع دون سواه من الأبيات .

والنوع الأول من هذين القسمين يمثله « المثنوى » ويمكن تسميته بالقسم الذى تتعدد فيه القوافى . أما النوع الثانى فموحد القافية وأمثلته واضحة فى « القصيدة » و « القطعة » و « الغزل » و « الترجيع بند » و « التركيب بند » وكذلك « الرباعى »

أما « المربع » و « المخمس » و « المسدس » إلى « المعشر » فيجب فصلها عن هذين النوعين ووضعها فى قسم خاص قائم بذاته .

المثنوى :

لسنا فى حاجة إلى الإفاضة فى القول عن هـذا الضرب من ضروب النظم لأن أكثر الشعر الأوروبى الذى له قافية يقع على غراره . والقافية فيه تكون فى جزئى البيت الواحد وتتغير بعد ذلك بتغير الأبيات . ومن أجمل أمثلته فى الإنجليزية قصيدة الشاعر تنسون Tennyson التى عنوانها Locksley Hall فهى كثيرة الشبه بما يعرف فنياً فى العروض الفارسى باسم « مثنوية على وزن الرمل المثمن المحذوف[١] » .

— u — | — — u — | — — u — | — — u —

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

وكل المنظومات الطويلة فى اللغة الفارسية ـ سواء أكانت قصصية أم تعليمية ـ تقع فى هذا الضرب من النظم ، ومن أمثلتها :

الشاهنامه : « كتاب الملوك » من نظم الفردوسى

پنج گنج : « الكنوز الخمسة » « « نظامى الگنجوى

هفت اورنگ : « العروش السبعة » « « جامى

المثنوى المعنوى . . . . « « جلال الدين الرومى

وهذا الضرب فارسى النشأة لم تعرفه الأشعار العربية القديمة ، وإن كان بعض الشعراء الذين كانوا من أهل فارس قد استخدموه فى نظم الأشعار العربية المتأخرة التى عرفت باسم « المزدوج » منذ نهاية القرن العاشر الميلادى (أواخر الرابع الهجرى[٢]) .

---

(١) المترجم : أورد براون بيتين من المنظومة الإنجليزية على سبيل المثال ولم نر حاجة إلى كتابتهما بنصهما .

(٢) أنظر مثلاً لهذه المزدوجات فى ج ٤ من يتيمة الدهر ص ٢٣ من طبعة دمشق ومنها :

من مثل الفرس ذوى الأبصار الثوب رهن فى يد القصار

إن البعير يبغض الخشاشا لكنه فى أنفه ما عاشا =

الغزل :

إذا أتينا الآن إلى ضروب النظم الموحدة القافية وهى التى تتقيد بوحدة القافية فى جميع أبياتها دون تقيد بتقفية المصاريع الأولى منها إلا فى بيت المطلع ، وجدنا أن أهم هذه الضروب ضربان هما «الغزل» و «القصيدة» وفيهما يمكن استعمال سائر الأوزان الشعرية المعروفة ؛ ويمكن أيضاً تقفية مصراعى المطلع ؛ ولكن يجب أن تقفى أواخر الأبيات جميعاً على قافية واحدة .

و « الغزل » لا يختلف عن « القصيدة » إلا من حيث الموضوع وعدد الأبيات فهو لا يتعلق إلا بموضوع غزلى أو صوفى وكذلك لا تزيد أبياته عن الإثنى عشر بيتاً إلا فى القليل النادر من الأحوال ؛ أما القصيدة فقد يتعلق موضوعها بالمديح أو الهجاء أو التعليم أو الفلسفة أو الدين .

وقد تعود الشعراء فى أزمنة متأخرة (بعد الفتح المغولى فيما أظن) أن يذكروا تخلصهم أو لقبهم الشعرى فى البيت الأخير أو « بيت المقطع » من الغزل . ولكنهم لم يتعودوا أن يفعلوا ذلك فى قصائدهم .

وفيما يلى ترجمة لغزلية معروفة من غزليات « حافظ الشيرازى » مطلعها :

اگر آن ترك شيرازى بدست آرد دل مارا
بخال هندويش بخشم سمرقنــــد وبخارا را

ومعناها بالعربية[1] :

لك الدنيا وما فيها . . . أيا تركى شـــيراز
«سمرقند» لك الأخرى وتتلوها « بخارا» ها

= نال الحمـــار بالسقوط فى الوحـــل   ماكان يهـوى ونجا من العمـــل
فى المثـــل السائر للحمـــار   قد ينهق الحمـــار للبيطار
والعــنز لا يسمن إلا بالعلف   لا يسمن العــنز بقــول ذى لطف

(١) المترجم : أنظر ص ٥٤ من الجزء الأول من كتابى « أغانى شيراز » المطبوع فى القاهرة سنة ١٩٤٣ وسنة ١٩٤٧ .

فيا ساقى . . لنا الباقى فنى الجنـــات لا تمشى
على حافات «ركنا باد» أو روض «مصلاها[١]»
ويا حزنى . . وقد عاشـــوا على سلبى منى قلبى
كفعل الترك قد عاشت على أســـلاب قتلاها
جمال الخل تغنيـــه عن التدليل فى عشقى
خـــدود لونها صاف بلون الورد سواها
ويوسف من كمال الحسن والإعراض فى تيـــه
« زليخا » تلك أحياها على وجـــد وأضناها
رعاك الله أن تمضى بإيلامى وتجريحى
فمر القول لا يجرى ثغر رشفناها
فيا روحى.. استمع نصحى، فنصح الشيخ مقبول
لدى الشبان ردده وقل : ذكرى وعيناها
حديث المطرب اسمعه ، وسر حياتنا دعـــه
فما حـــلوا من الأيام والدنيا معماها
تعال أنظم لنا شعـــراً وهيىء نظمه درا
فقد شـــدت لك الأبراج فى عقد ثرياها

القصيدة :

وطول القصائد الفارسية يجعل من العسير على أن أؤدى إحداها نظما بالإنجليزية بحيث أحتفظ بوحدة القافية فى سائر أبياتها . وقد بذنى فى ذلك صديقى المرحوم « جب » حينما ترجم بعض القصائد التركية فى كتابه الـكبير « تاريخ الأشعار العثمانية » .فقد كان من دأبه أن يترجم هذه القصائد بحيث يحتفظ بوزنها الأصلى وبحيث تكون موحدة القافية أيضاً . وإنى أعترف بأنى أقل مهارة منه فى صياغة النظم ، ومن أجل ذلك اضطررت اضطراراً عند ترجمة «القصائد» وبعض« الغزليات»

---

(١) « ركناباد » نهر بشيراز و « المصلى » محلة بها ، كان يقيم فيها حافظ .

إلى أن ابتعد عن خطته هذه وأن أترجمها كما لو كانت من نوع «المثنوى» ، فتجاسرت بذلك على أن أحدث بها شيئاً من التغيير فى القافية والوزن كما يفعل الشرقيون أنفسهم فى أغلب الأحوال ، وقد سبق لى أن ذكرت فى ص ٤٦٤ من الجزء الأول من «تاريخ الأدب فى إيران» إن العرب والفرس كانوا إذا شاؤا إظهار براعتهم فى الترجمة نظما من الفارسية إلى العربية أو من العربية إلى الفارسية فإنهم كانوا يؤدون الترجمة فى وزن مخالف للوزن الأصلى . أو يؤدون « المثنوية الفارسية » فى « قصيدة عربية[1] » . فإذا راعينا أن هاتين اللغتين يستعملان طريقة واحدة فى العروض لا تستعملها اللغة الإنجليزية ، وراعينا كذلك أن أهل هاتين اللغتين قد أباحوا لأنفسهم عند الترجمة عدم التقيد بالأصل من حيث الوزن والقافية وجدنا أنفسنا — وقد حرمنا من هذه الميزات التى مهدت لهم — معذورين حقاً إذا تابعنا مثالهم ولم نحرص عند الترجمة على الاحتفاظ بالوزن أو القافية .

ولما كان الحديث فى هذا المكان مقصوراً على ضروب النظم فسأسوق أمثلة قليلة لهذا النوع من القصائد الموحدة القافية التى لم أستطع المحافظة على قافيتها فى ترجمتى لأن « القصيدة » عادة تتركب من أبيات عديدة تزيد كثيراً على ما يتركب منه « الغزل » وقد تزيد فى أغلب الأحوال على المائة بيت .

وأول أمثلتى التى أسوقها للقصيدة عبارة عن ستة أبيات من مرثية « الشيخ سعدى الشيرازى » لمدينة بغداد عندما أغار عليها المغول وقتلوا الخليفة العباسى الأخير « المستعصم بالله » وأهل بيته . ولهذه القصيدة أهمية خاصة لأنها تصور لنا الأثر الذى تركته هذه الغارة المفزعة فى نفس واحد من المسلمين المعاصرين . وقد نقلت هنا الأبيات الستة الأولى منها كما هى مذكورة فى الجزء الأول من كتاب «خرابات» تأليف « ضيا پاشا[2] » والقصيدة برمتها تبلغ الواحد والعشرين بيتاً وهى من نوع الرمل المثمن المحذوف .

---

(١) كما فعل « البندارى » أحياناً فى ترجمته العربية للشاهنامه .

(٢) أنظر ص ١٥٦ من الجزء الأول من « خرابات » طبع القسطنطينية سنة ١٢٩١ هـ .

ومطلعها :

آسمان را حق بود گر خـــون بريزد بر زمين

بر زوال ملك مستعصم أمـــير المؤمنين(١)

والأبيات الخمسة التالية للمطلع هى الآتية :

أى محمد گر قيامت مى بر آرى سر ز خاك

سر بر آور وين قيامت در ميان خلق بين

نازنينان حـــرم را موج خون بى دريغ

ز آستان بگذشت ومارا خون دل در آستين

زينهار از دور گيتى وانقـــلاب روزگار

در خيال كس نگشتى كانچنان گردد چنين

ديده بردار اى كه ديدى شوكت بيت الحرام

قيصران روم سر بر خاك وخاقان بر زمين

خون فرزندان عم مصطفى شـــد ريخته

هم بر آن خاكى كه سلطانان نهادندى جبين

ومعناها:

— للسماء حق إذا بكت دما على وجه الأرضين ،

لزوال « ملك المستعصم » أمير المؤمنين .

— ويا « محمد » إذا أخرجت رأسك من أطباق الثرى فى يوم الدين

فارفعها الآن حتى ترى هذه القيامة التى نزلت بقومك من المسلمين

— وانظر إلى أمواج الدماء وقد فاضت على أعتاب الحرم الأمين

وانظر إلى دماء الفؤاد وهى تقطر من أكمام الأردية والقفاطين

— ويا صاحبى . . . الحرص الحرص من دورات الفلك وتقلبات الأيام والسنين

---

(١) المترجم : للسعدى قصيدة عربية فى هذا المعنى مطلعها :

حبست بجفـنى المدامع لا تجـرى   فلما طغى المـاء استطال على السكر

نسـيم صبا بغداد بعد خـرابها   تمنيت لو كانت تمر على قـبرى

فلم يجل بخاطر أحد أن يحدث مثل هذا الحدث اللعين . . .

— ويا من رأيت شوكة البيت الحرام ارفع بصرك الحزين

ثم أغمضه عن هذا المكان الذى كانت تسجد عنده القياصرة والخواقين

— فدماء أولاد عمومة المصطفى أخذت تجرى وتتدفق فى الطين

وتسيل على هذا الثرى الذى كانت تسجد عليه جباه السلاطين . . . !!

وهذه القصيدة لا تمثل تماما القصائد القديمة التى كانت تبدأ عادة بالتشبيب ثم تنتقل إلى المدح ببيت يعرف فنياً باسم «گريزگاه» أى «بيت الانتقال» . وربما كان خير مثل للقصائد القديمة هو قصيدة «منوچهرى» الشاعر المعاصر للفردوسى . فهذه القصيدة تحتوى على اثنين وسبعين بيتاً سأقتصر على ذكر طائفة منها اخترتها دون مراعاة لترتيبها الأصلى ، ولكنى سأذكر إمامها أرقاماً تبين موضعها فى القصيدة الأصلية . وهذه القصيدة من نوع الهزج المسدس المحذوف .

u — — — | u — — — | u — — |

مفاعيلن مفاعيلن فعولن

ومطلعها :

ألا ياخيمگى خيمه فرو هل که پيش آهنگ بيرون شد ز منزل

ومعنى الأبيات الخمسة الأولى منها كما يلى(١) :

١ — ألا يا أيها الخيام . . . أنزل خيمتك

فقد تقدم دليل القافلة وخرج عن هذا المنزل

٢ — وقد دق صاحب الطبل طبله

وأخذ الجمالون يعقدون الرحال

٣ — وقد قربت صلاة العشاء

وها أنذا أرى الشمس والقمر يتقابلان فى هذه الليلة

---

(١) المترجم : فيما يلى النص الفارسى لهذه الأبيات :

ألا يا خيمگى خيمة فرو هل كه پيش آهنگ بيرون شد زمنزل

تبيرة زن بزد طبل نخستين شتر بانان همى بندند محمل

نماز شام نزديك است وامشب مه وخورشيد را بينم مقابل

٤ — ولكن القمر يصعد فى كبد السماء
بينما تغيب الشمس وراء جبال بابل
٥ — فكأنهما الميزان ذو الكفتين الفضيتين ؛
تميل إحدى كفتيه إلى أسفل ، والأخرى تشيل إلى أعلا

ثم يذكر الشاعر بعد ذلك فراقه لمعشوقته فيقول :(١)

٦ — ولم أكن أعرف . . . يا صنوبرتى الفضيه
إن النهار سيعجل بالزوال على هذا النحو . . . !!
٧ — وكلانا غافل . . . ولكن الشمس والقمر
لا تأخذهما غفلة فى دورة هذا الفلك . . . !!
٨ — فتعالى إلى . . . يا حبيبتى . . . ولا تبكى
فأمل العاشقين لا يتم ولا يتحقق . . . ! !
٩ — والأيام حبالى بالهجر والفراق
ولابد للحامل أن تضع حملها فى يوم من الأيام .
١٠ — فلما شاهدتنى حبيبتى على هذه الحال من الحزن
أمطرت من خلال أهدابها وابلا من الدموع
١١ — وكأنما كانت تمسك بالفلفل المسحوق فى أصابعها
ثم أخذت تنثره فى أجفانها ومآقيها . . . !!

= وليكن ماه داره قصد بالا   فرو شد آفتاب از كوه بابل
چنان دو كفه سيمين ترازو   كه اين كفه شود زان كفه مايل

(١) المترجم : فيما يلى نص الأبيات الفارسية :

ندانستم من أى سيمين صنوبر   كه گردد روز چنين زود زائل
من وتو غافليم وماه وخورشيد   بر اين گردون گردان نيست غافل
نگارين منا بر گرد ومگوى   كه كار عاشقان را نيست حاصل
زمانه حامل هجر است ولا بد   نهد يك روز بار خويش حامل
نگار من چو حال من چنين ديد   بباريد از مژه باران وابل
تو گوئى پلپل سوده بكف داشت   پراكند از كف اندر ديده پاپل

١٢ — ثم أقبلت على قائمة قاعدة
كأنها الطير الذبيح قد بسملوا عليه
١٣ — وطوقت عنقى بساعديها كحمائل السيف
واستلقت على صدرى كما تتدلى الحمائل
١٤ — وقالت لى : إنى أقسم لك ... أيها الغادر
لقد اطربتَ فىَّ الحاسد وأفرحت العاذل
١٥ — ولست أدرى إذا كنت ستعود إلىَّ ثانية
فى الوقت الذى تعود فيه القوافل
١٦ — ولطالما رأيتك كاملا فى كل الأمور
ولكن من أسف أنك لست كاملا فى العشق ... !!

ثم يحاول الشاعر بعد ذلك تهدئة معشوقه حتى ينصرف عنه ويتركه وحيداً فينظر حول المنازل فلا يرى إنسياً أو جنياً ولا راكباً أو قاعداً ولا يجد إلى جانبه إلا بعيره وهو « يزمجر كالشيطان المقيد بالسلاسل » فيضع عليه رحله وينهض به فى نفس الطريق التى سلكتها القافلة ، ويأخذ فى عد الخطى حتى يدخل الصحراء المقفرة فيصفها بأنها « قاحلة موحشة لا يستطيع داخلها أن يخرج منها » ثم يأخذ فى وصف رياحها العاصفة فيقول « أنها تجعل الدم يتجمد فى العروق » ثم يأخذ فى وصف الثلج فيصفه بأنه رقائق الفضة قد نثرت على الرمال الذهبية المنبسطة فى هذا الفضاء الفسيح . فإذا ما انبثق الفجر بصفائه عشى الشاعر بنوره وضيائه ، ثم تأخذ الثلوج فى الذوبان كما يذوب العليل المسلول ، وتنشأ من ذوبانها أوحال لزجة تتعلق بأقدام بعيره كأنها الغراء المصنوعة من عظام الأسماك . ثم تبدو له فى النهاية القافلة التى كان يريد الوصول إليها ، فيقدم عليها ، ويدنو من مخيمها «فيرى الوادى وما به من رماح

= بيامد أوفتان خيزان بر من — چنان مرغى كه باشد نيم بسمل
دوساعد را حمايل كرد با من — فرو آويخت از من چوت حمايل
مرا گفت اى ستمكاره بجانم — بكام حاسد م كردى وعاذل
چه دانم من كه باز آئى تو يا نه — بدان گاهى كه باز آيد قوافل
ترا كامل همى ديدم بهر كار — وليكن نيستى در عشق كامل

وحراب كأنه ملىء بالسنابل والأعواد » وترن فى أذنه أصوات الخلاخيل كأنها أصوات الجلاجل ، وتتجاوب الأجراس بمختلف الحكايات وكأنها أهازيج العنادل والبلابل .

ثم يستمر الشاعر فيقول (١) :

٤٨ — ثم التفت إلى بعيرى النجيب ، وقلت له : خفف من سرعتك
يا معين الأفاضل . . . . ولا تسرع فى مشيتك

٤٩ — وكل فى هذا المرعى ... وليجعل الله مرعاك فى هذا العنبر النضير
وتبختر . . . وليجعل الله مفاصلك من الحديد المتين

٥٠ — واطو الفيافى . . . واجتز الجبال العالية
ودق المنازل . . . واقطع المراحل القاصية

٥١ — ثم أنزلنى على أعتاب الوزير الكامل
كما نزل الأعشى ببابل

ثم يأتى الشاعر إلى بيت الانتقال « گريزگاه » فيقول(٢) :

٥٢ — على أعتابه الرفيعة العالية ؛ فقد ملك المعالى عاليها وسافلها

ثم يذكر إسم ممدوحه فى البيت الأول من الأبيات الآتية فيقول :

٥٦ — وهو يرتع فى نعم الحياة على عهد الأمير مسعود(٣)
كما نعم النبي على عهد أنو شيروان العادل

---

(١) المترجم : النص الفارسى لهذه الأبيات كما يلى :

نجيب خويش را گفتم سبك تر ... ألا يا دستگير مرد فاضل
بچركت عنبرين بادا چراگاه ... بچم كت آهنين بادا مفاصل
بيابان در نورد وكوه بگذار ... منازلها بكوب وراه بگسل
فرود آور بدرگاه وزيرم ... فرود آوردن أعشى ببابل

(٢) المترجم : نصه بالفارسية :

بعالى دركه دستور كورا ست ... معالى از اعالى واز أسافل

(٣) يقصد به الأمير مسعود بن محمود الغزنوى الذى حكم من سنة ١٠٣٠ — ١٠٤٠م = ٤٢١ — ٤٣٢ هـ ونص الأبيات الفارسية كما يلى .

همى نازد بعهد مير مسعود ... چو پيغمبر بنو شروان عادل

٥٧ — وبدرة المال تدخل عليه فينثرها كقارون
والسائل يدخل عليه وكأنه من أصحاب الجاه والمال
٥٨ — فيخرج السائل وقد بطنت بالذهب حواشيه
وأما كيس الأمير فيخلو مما كان يشتمل عليه ويحتويه(١)

وفيما يلي الأبيات السبعة الأخيرة من هذه القصيدة وهي التي يسعى فيها الشاعر إلى إثارة مخدومه واستجلاب رضاه والحصول على منحه وهداياه . وإذا استطاع الشاعر أن يذكر لممدوحه ما يطلبه منه بطريقة حلوة وأسلوب لطيف سمى ذلك بـ « حسن الطلب » .

أما الأبيات الثلاثة الأخيرة من هذه الأبيات السبعة فتمثل لنا الصنعة المعروفة بـ « حسن المقطع » وهو أن يجعل الشاعر آخر أبيات القصيدة مستملحة مستعذبة وأن يختمها بألفاظ فصيحة ومعاني لطيفة ، لأن أقرب أبيات القصيدة إلى سمع السامع إنما هي أبياتها الأخيرة ، فإن كانت مليحة بقيت لذتها وأصبحت الأبيات السابقة ، مهما قلت جودتها أو كانت رديئة ، نسياً منسياً .

٦٦ — فيا مولاي . . لقد أقبلت عليك(٢) ، وكلي أمل فيك وفي عطاياك
٦٧ — وفي بحبوحة عيشك يرتع الأفاضل
لأن الفاضل لايقصد إلا فاضلا مثله
٦٨ — فإذا رزقتني وأنا في خدمتك
قلت فيك المديح كما قال « الأعشى » و « دعبل »
٦٩ — أما إذا حرمت في خدمتك ، فسأحرق قلمي وامزق أناملي

= در آيد پيش أو بدره چو قارون   در آيد پيش أو سايل چو عاهل

(١) المترجم : لم أعثر على نص هذا البيت بالفارسية .

(٢) المترجم : النص الفارسي لهذه الأبيات :

خداوند من اينجا آمدستم   باميد تو واميد مفضل
أفاضل نزد تو نازند همـوار   كه زى فاضل بود قصد أفاضل
گرم مرزوق گرداني بخدمت   همان گويم كه أعشى گفت ودعبل
وگر از خدمتت محروم مانـدم   بسوزم كلك وبشكافم أنامل

٧٠ - وإنى أدعو الله . . . مادام الدراج والقمرى يغردان
وما دام اسم العنقاء واسم الصقر مقترنان
٧١ — إن يثبت كيانك وينير بصيرتك
وأن يطهر قلبك ويجعل حظك مقبلا
٧٢ — وأن يهبنى وأنا أنظم الشعر فى مدحك
قلب « بشار » وطبع « ابن مقبل »

القطعة :

هى كما يدل عليها اسمها عبارة عن قطعة من قصيدة كاملة انفصلت عنها لسبب من الأسباب ، وقد تكون أيضاً جزءاً من قصيدة لم يقدر لها أن تكمل ، كما قد تكون وحدة قائمة بذاتها أنشأها الشاعر من البداية ليصوغ فيها غرضاً من الأغراض ، فلما سجله فيها تركها على حالها ولم يفكر مطلقاً فى أن يضيف إليها أبياتاً أخرى ؛ وفى كثير من الأحوال يدل أسلوب القطعة وموضوعها على أن الشاعر قصد بها منذ البداية أن تكون وحدة قائمة بذاتها .

وفيما يلى ترجمة لقطعة من قول الشاعر « الأنورى » المتوفى سنة ١١٩١ م = ٥٨٧ هـ .

وهى تدل دلالة واضحة على أنها كاملة وأن الشاعر لم يفكر فى أن يضيف إليها أبياتاً أخرى :

— قال لى أحد الأصدقاء فى خفة واعتدال
عليك بالصبر . . . إذا شئت تحقيق الآمال
— وهذا هو الماء سيعود إلى النهر فتمتلىء به شطئانه
وهذه آمالك سيحققها الزمان وجريانه . . ! !

= ألا تا بانگ دراجست وقمرى — ألا تا نام سيمرغست وطغرل
تنت پاينده باد وچشم روشن — دلت پاگيزه باد وبخت مقبل
دهاد ايزد مرا در نظم شعرت — دل بشار وطبع ابن مقبل

— فنظرت إليه وقلت له : يا صاحبي . . ما الفائدة . . ؟ !
إذا عادت المياه . . وكانت الأسماك قد ماتت وأضحت هامدة[١] . . ؟ !

الرباعى :

الرباعى عبارة عن بيتين من الشعر ومن أجل ذلك أسموه فى الفارسية باسم الـ « دوبيت » واعتبره البعض أربعة شطرات من الشعر ، ومن أجل ذلك أسموه بالرباعى أو الرباعية .

وقد يكون الرباعى عبارة عن بيتين مأخوذين من مطلع «قصيدة» أو « غزل» ويشترط فيه دائماً أن يكون على وزن من الأوزان الخاصة المستخرجة من « الهزج » كما يشترط فيه أن يكون وافياً بالغرض الذى أنشئ من أجله .

ولست أجد نفسى فى حاجة إلى زيادة الإيضاح عن هذا الضرب من ضروب النظم فإن الترجمة الجميلة التى قام بها « فتزجرالد » لرباعيات الخيام جعلت هذا الضرب معروفاً لدينا معشر الإنجليز ؛ ومع ذلك فلى كلمة قصيرة أحب أن أدلى بها فى هذه المناسبة وهى أنى لاحظت أن بعض المعجبين بترجمة « فيتزجرالد » يتصورون أن الرباعيات يتصل بعضها ببعض ، بحيث تنشأ منها قصيدة واحدة ، فأود أن أؤكد لهم أن سبب «الوحدة» الظاهرة فى هذه الترجمة راجع فقط إلى الترتيب الذى اختاره «فيتزجرالد» للرباعيات التى انتقاها وترجمها على هذا النحو . أما هذه الرباعيات فى الأصل فيجب أن تكون كل واحدة منها منفصلة عما عداها وقائمة بذاتها ونحن نجد أن شعراء الفرس لا يرتبونها فى دواوينهم إلا على نحو واحد يتبعون فيه حرف القافية الأخير .

ويجب أن يكون الرباعى على وزن من الأوزان المستخرجة من الهزج ، ويجب أن تقفى مصاريعه الأول والثانى والرابع مع بعضها ، بينما يكون المصراع الثالث مقفى مع هذه المصاريع أولا يكون كما هو الغالب والأعم .

---

(١) المترجم : شبيه بهذا المعنى ما قاله الخيام فى رباعيته التالية :
بابط ميگفت ماهىء درتب وتاب باشد كه بجوى رفته باز آيد آب
گفتا : چو من وتو هر دو گشتيم كباب دنيا پس مرگ ما چه دريا چه سراب

وفيما يلى رباعيتان قالهما الشاعر « معزى » على البداهة للسلطان السلجوقى « ملكشاه » أسوقهما مثلا لهذا الضرب من النظم دون أن يكون لهما أهمية خاصة من الناحية الأدبية إلا فيما يتعلق بدلالتهما التاريخية فقد تحدث الشاعر نفسه إلى صاحب كتاب « چهار مقاله » فذكر له الأسباب والظروف التى قال فيها هاتين الرباعيتين ، فقال :

« ... وفى مدينة قزوين انتقل أبى أمير الشعراء برهانى رحمه الله من عالم الفناء إلى عالم البقاء ، وكان ذلك فى أوائل أيام دولة ملكشاه . وقد سلمنى أبى إليه ووكل إليه أمر تربيتى بمقتضى بيته المعروف :

من رفتم وفرزند من آمذ خلف صدق   أورا بخـــدا وبخـــداوند سپردم

ومعناه : إنى ذاهب وها هو ابنى قد جاء خلف صدق لى .

فإلى الله وإليك ... يا مولاى . . . أودعه وأسلمه .

«وقد حولوا إلىّ مرتب أبى ، وأصبحت بعد ذلك شاعر السلطان وبقيت فى خدمته سنة كاملة ، ولكنى لم أتمكن من رؤيته إلا عن بعد ، ولم أستطع أن أحصل على شىء من مرتبى ، وازدادت نفقاتى وثقل الدين فى عنقى حتى اضطربت الأمور فى رأسى . ولم يكن الوزير «نظام الملك » رحمه الله على حظ من معرفة الشعر ، ومن أجل ذلك فإنه لم يكن ليقدره أو ليقدر قائليه من أئمة الشعراء والمتصوفة .

«...وفى اليوم السابق لشهر رمضان وجدت نفسى لا أملك دانقاً واحداً من نفقات هذا الشهر أو من نفقات العيد ، فذهبت والحزن يملأ صدرى إلى الأمير علاء الدولة « على بن فرامرز » وكان صهراً للسلطان ونديماً خاصاً له ، وكان أميراً محباً للشعراء يمتاز بالجرأة فى القول وعلو المنصب وكان يتعهدنى برعايته ، فقلت له :

« أطال الله بقاء مولاى ... إن الولد لا يستطيع أن يفعل ما فعله والده أو أن يأتى بما أتى به أبوه ، وقد كان أبى رجلا نشيطاً جسوراً رزقه الله بصناعته رزقاً كثيراً . وكان السلطان الشهيد « ألب أرسلان » يقربه ويتعهده بعنايته . . ولن أستطيع أن أقوم بما قام به لأن حيائى يمنعنى من ذلك ولأن طبعى العاجز يساعد على ما أنافيه من ضنك ، وقد قمت بخدمة السلطان سنة كاملة ، أصبحت مديناً فيها بألف دينار ،

لم أحصل منها على دانق واحد ، فأرجو أن تلتمس لى الإذن فى العودة إلى مدينة نيسابور حتى أستطيع أن أؤدى ما على من دين وأن أعيش على ما يتبقى لدى من مال ، وإنى أدعو بعد ذلك للسلطان ولدولته القاهره».

«فقال لى الأمير على : لقد تحدثت صدقاً ، وقد قصرنا حقاً فى شأنك ، وسيخرج السلطان عند صلاة المغرب ليرى طلعة الهلال فيجب أن تكون حاضراً معنا حتى ترى ما يصنع الحظ لك . . . » .

« ثم أمر لى بمائة دينار لأعد بها العدة لشهر الصيام ، فأحضروها لى على الفور فى كيس مشتملة على مائة دينار نيسابورية ، فأخذتها ورجعت مسرور الخاطر ، وأخذت أعدّ العدة لشهر رمضان ، حتى إذا حانت صلاة العصر ، ذهبت إلى سرادق السلطان ، فوصلت إليه فى نفس اللحظة التى وصل فيها الأمير « علاء الدولة » فقدمت له احترامى . فالتفت إلىّ وقال : لقد أحسنت صنعاً وجئت فى موعدك . . ثم يرجل عن دابته وتوجه إلى السلطان » .

« فلما اصفرت الشمس ساعة الأصيل ، خرج السلطان من سرادقه وفى يده قوس وعلى يمينه « علاء الدولة » فجريت وأديت فروض الخدمة وشملنى الأمير على بعطفه ، ثم أخذ يتطلع إلى الهلال الجديد ، وكان السلطان أول من رآه وقد سر بذلك سروراً عظيما . عند ذلك التفت إلىّ الأمير على وقال : « يا ابن البرهانى . . . قل لنا شيئاً من الشعر فى هذا الهلال الجديد . . . »

فقلت على الفور هذا الـ « دوبيت » .

أى ماه چــو ابروان يا رى گوئى
يا نى چــو كمان شهريارى گوئى
نعــلى زده از زر عيـارى گوئى
در گوش سپهر گوشــوارى گوئى

ومعناها :

— أيها الهلال . . . كأنى بك حاجب عين الحبيب .
لا . . . بل كأنى بك القوس فى يد الملك المهيب .

ـــ أو كأنك حدوة الجواد صيغت فى خالص الذهب العجيب .

أو كأنك القرط ، تتدلى من أذن هذا الفلك الرهيب . . . ! !

« فلما فرغت من قول هذا الرباعى استحسنه «الأمير على» وقال لى السلطان : « اذهب وخذ من الاسطبل الجواد الذى يعجبك » . فلما اقتربت أنا والأمير على من الاسطبل أشار الأمير على إلى جواد خاص ، فاحضروه لنا ، وأعطوه لغلمانى ، وكان يساوى ثلاثمائة دينار نيسابورى ، ثم ذهب السلطان إلى المصلى فصلينا معه صلاة المغرب ، ثم جلسنا معه على مائدته ؛ فالتفت إلى الأمير على وقال : «يا ابن البرهانى ... لم تقل لنا شيئاً من الشعر فى شكر هذا التشريف الذى اختصنا به المليك . . فقل لنا على الفور رباعية فى هذا المعنى . . . » .

« فانتصبت على أقدامى وأديت فروض الطاعة وقلت على البديهة هذه الرباعية :

چـــون آتش خاطر مرا شـــاه بديد

از خاك مرا بر زبر ماه كشيد

چـــون آب يكى ترانه از من بشنيد

چـــون باد يكى مركب خاصم بخشيد

ومعناها :

ـــ عندما رأى المليك خاطرى فوجده «كالنار» المتقدة اللامعة .

رفعنى من حضيض « التراب » وجعل مقعدى على الأقمار الساطعة .

ـــ وسمع منى لحنا جميلا كالمياه الدافقة الرائعة .

فوهبنى جواداً كريماً كالرياح الشديدة المسرعة . . . ! !

« فلما فرغت من أداء هذه الرباعية أبدى الأمير على استحسانه الشديد لها وأمر لى السلطان بألف دينار . عند ذلك قال علاء الدولة : إن مرتبه لم يصل إليه وسأذهب إلى الوزير غداً فأجلس إلى جواره إلى أن يأمر له براتبه وأجره ، ويكتب بذلك إلى « إصفهان » . فقال الملك : عليك أن تفعل ذلك فلا قدرة لأحد عليه سواك وعليك أن تلقب هذا الشاعر بلقبى . . . » .

« وكان السلطان يتلقب بلقب « معز الدنيا والدين » فأسمانى الأمير على باسم « المعزى » ولكن السلطان أبى إلا أن يسمينى باسم « الأمير معزى » واختصنى الأمير على برعايته ، بحيث إذا أصبح الصباح وأذن المؤذن للفجر ، وجدت أنه قد بعث إلى بمنحة تشتمل على ألف دينار ؛ وكذلك بألف دينار ومائتين من راتبى ، كما أرسل إلى بألف حمل من القمح . فلما انتهى شهر رمضان استدعانى إلى مجلسه وجعلنى نديماً للسلطان . وأخذ حظى يتسنم معارج الإقبال ، وأخذ الأمير يتولانى دائماً بعطفه وعنايته . وجميع ما أمتلكه اليوم إنْ هو إلا من فيض كرمه وجوده ، فلينر الله قبره بأنوار رحمته وليشمله بمنه وبركته . . . » .

الارتجال وأثره :

والقصة السابقة تصور لنا مقدار الأثر الذى كان ينتج فى هذه العصور المبكرة من القدرة على الارتجال فى الشعر وقوله على البديهة . وهناك أمثلة أخرى شبيهة بهذه القصة نجدها مسجلة أيضاً فى كتاب « چهار مقالة » ومن بينها القصة المروية عن السلطان « محمود الغزنوى » عندما أمر — وهو سكران — بقطع طرة غلامه ومعشوقه « أياز » فلما أصبح الصباح أحس بالندم على فعلته واستولى عليه خمار الشراب حتى ساءت حاله ، فلم يستطيع أحد أن يدنو منه ، حتى أنشده الشاعر « عنصرى » هذا الرباعى الذى طار له خاطره وهو :

کی عیب سر زلف بت از کاستن است
چه جای بغم نشستن وخاستن است
جای طرب ونشاط ومی خواستن است
کاراستن سرو ز پیراستن است

ومعناها :

— متى كان فى قطع طرة الحبيب ما يعيبه . . . ! !
فلماذا إذن يقعد الملك ويقوم والحزن نصيبه . . . ؟ !
— والفرصة مواتية للطرب واللهو والشراب .
لأن جمال السرو إنما يكون بتشذيبه وتهذيبه . . . ! !

وكذلك نجد أن رباعياً آخر قاله الشاعر « أزرق » فاستطاع أن يهدىء به ثائرة مولاه الشاب الملك « طغانشاه » عنـد ما كان يلعب النرد فأراد ستتين ، ولـكنه عندما رمى بالـكعبتين حصل على واحدين . وهذا الرباعى هو الآتى :

گرشاه دو شش خواست دو يك زخم افتاد
تا ظن نبرى كه كعبتين داد نداد
آن زخـــم كه كرد راى شاهنشه ياد
در خدمت شاه روى برخاك نهـــاد

ومعناه :

— إذا شاء المليك ستتين انقلبت ضربته إلى الواحدين .
ولـكيلا تظن أنه لم ينل رغبته من الـكعبتين .
— فإن هذه الرمية جاءت وفقاً لرغبة المليك .
فوضعت وجهها على التراب خشوعا حتى لا تراه رأى العين .

وإذا نظرنا إلى الرباعيتين السابقتين وجدنا أنهما يشتركان فى أمرين :

أولا : إن المصاريع الأربعة فى كل منهما تجرى على قافية واحدة مع أن تقفية المصراع الثالث مع بقية المصاريع ليست مشترطة فى الرباعيات .

ثانياً : إن كليهما مثل للصنعة البديعية المعروفة بـ « حسن التعليل » حيث يعلل الشاعر حقيقة واقعة بسبب من الأسباب الخيالية الموهومة .

فلنمض الآن فى دراستنا للأنواع الباقية من ضروب النظم ، وهى عبارة عن نوعين من القصائد الموشحة يُعرفان باسم الترجيع بند والتركيب بند وكذلك الأنواع المختلفة من القصائد المركبة (كالمربع والمخمس والمسدس . . . الخ) والمسمط والمستزاد .

الترجيع بند و التركيب بند :

هذان النوعان من القصائد الموشحة يشتمل كل واحد منهما على عدد من الوحدات تكون فى العادة متساوية فى عدد أبياتها ، وتكون كل واحدة منها على قافية واحدة

ويفصل بين الوحدة والأخرى بيت مستقل من الشعر ليبين لنا نهاية الوحدة التى سبقته وبداية الوحدة التى تليه ؛ فإذا تكرر بيت بعينه بعد نهاية كل وحدة (بند) فإن المنظومة تسمى بـ « الترجيع بند » أما إذا تكررت أبيات مختلفة بعد نهاية الوحدات وكانت هذه الأبيات متفقة القافية مع بعضها ومختلفة عن سائر الوحدات فإن المنظومة تسمى فى هذه الحالة بـ « التركيب بند » .

ويجب أن تجرى المنظومة من هذين النوعين على وزن واحد فى جميع أبياتها .

وليس فى استطاعتى أن أترجم منظومة من هذين النوعين بحيث أحافظ على قوافيها كما هى فى الأصل الفارسى ولذلك سأكتفى بأن أترجم بعض الأبيات الواردة فى « ترجيع بند » مشهور من نظم الشاعر « هاتف الاصفهانى » الذى عاش فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى (نهاية الثانى عشر وبداية الثالث عشر الهجرى) .

(بنـد أول)

ای فـــدای تو هم دل وهم جان   وی نثـــار رهت هم این وهم آن
دل فدای تو چـــون توئی دلبر   جان نثار تو چون توئی جانان
دل رهاندن ز دست تو مشکل   جان فشاندن بپـــای تو آسان
راه وصـــل تو راه پر آسیب   درد عشق تو درد بی درمان
بندگانـــیم جان ودل درکف   چشم بر حکم وگوش بر فرمان
گر سر صلـــح داری .اینك دل   ور سر جنگ داری اینك جان
. . . . الخ

که یکی هست وهیچ نیست جـــز او
وحـــده لا إله إلا هو

(بنـد دوم)

از تو ایدوست نگسلم پیوند   ور به تیغم برند بنـــد از بند
الحق ارزان بود ز ما صـد جان   وز دهان تو نـیم شکر خنـد

ای پدر پنـد کم ده از عشقم كه نخواهد شد اهل این فرزند
پند آنان دهنـد خلق ای کاش كه ز عشق تو میدهندم پنـد
من ره کوی عافیت دا نم چکـنم کاوفتـاده ام بکمنـد
. . . . الخ

كه یکی هست وهیچ نیست جزا او
وحـده لا إله إلا هو

ومعنى هذه الأبيات :
— يا من فداء لك القلب والروح . . ويا من يكون نثاراً في سبيلك جميع ما نملك.
— والقلب فداؤك لأنك تسبي القلوب ، والروح نثار لك لأنك محبوب الروح .
— ومن الصعب تخليص القلب من قبضتك ، ولـكن من السهل التضحية بالروح تحت قدمك .
— وطريق وصالك طريق مشحون بالأذى ، وداء عشقك داء لا دواء له .
— ونحن عبيد . . . أرواحنا وقلوبنا في كفك ، وعيوننا تنتظر حكمك وآذاننا تنتظر أمرك .
— فإذا كانت لك رغبته في المصالحة فهذه قلوبنا ، وإذا كانت لك رغبة في المحاربة فهذه هي أرواحنا .
— . . . . الخ

— وانه واحد، ولا يوجد إلاه
وحـــده لا إله إلا الله

— ولن أستطيع . . يا صديق . . أن أخلف عهدى معك . . ولو قطعوا أوصالى بالنصال والسيوف .
— وفى الحقيقة أن آلاف الأرواح لترخص أمام ابتسامة صغيرة حلوة من ثغرك .
— فيا أبق . . أقصر نصحى عن العشق . . فلن يكون ولدك أهلا له .
— وياليت الخلق ... يارب .. ينصحون ويزجرون من ينصحنى ويزجرنى فى حبك .
— وإنى لأعلم طريق العافية ، ولـكن ماذا أصنع وقد وقعت فى فخك .
— . . . . الخ

وإنه واحد ، ولا يوجدإلاه
وحـده لا إله إلا الله

وهذه المنظومة تشتمل فى الأصل على ست وحدات يفصل بين الواحدة منها والأخرى بيت يتكرر بعينه والمنظومة برمتها (بما فى ذلك البيت الذى يرجع خمس مرات) تبلغ ١٤٨ بيتاً مقسمة على هذا النحو :

الوحدة الأولى = ٢٣ بيتاً + بيت الترجيع
الوحدة الثانيـة = ١٣ + بيت الترجيع
الوحدة الثالثـة = ١٧ + بيت الترجيع
الوحدة الرابعة = ١٥ + بيت الترجيع
الوحدة الخامسة = ١٨ + بيت الترجيع
الوحدة السادسة = ٥٧ بيتاً

ولو أن الشاعر أتى فى نهاية الوحدة الثانية ببيت من الشعر مختلف فى قافيته عن البيت الوارد فى نهاية الوحدة الأولى وكان مصراعاه على قافية واحدة لأصبحت هذه المنظومة من نوع الـ«تركيب بند[1] » . ويجب ألا يغيب عن بالنا إن كل « وحدة » تبدأ بمطلع يكون موحد القافية بين مصراعيه .

المسمط :

يقول «روكرت» أن المسمط عبارة عن مصطلح عام يشمل جميع أنواع القصائد المركبة ؛ ولـكن « رشيد الدين الوطواط » يجعله شبيها بما عرف لدى المغاربة باسم « الموشح » حيث يقسم الشاعر قصيدته إلى أجزاء أو أشطر تتفق أوائلها فى الروى وأما أواخرها فتـكون موافقة لنظائرها فى القصيدة كلها ومثاله قول الحريرى فى المقامات[2] :

---

(١) الأبيات التى تأتى بعد الوحدات فى التركيب بند يجب أن يكون مصراعا كل بيت منها على قافية واحدة ، ويجوز أحيانا أن تكون هذه الأبيات جميعها على قافية واحدة .

(٢) المترجم : المثل الأصلى الذى أورده « براون » عبارة عن ترجمة أربعة ابيات من قصيدة للشاعرة البابيه « قرة العين » ولم اعثر على اصلها الفارسى فاخترت المثاين اللذين اوردهما رشيد الدين فى كتابه « حدائق السحر فى دقائق الشعر » وقد ترجمنا هذا الـكتاب إلى العربية ونشرناه فى سنة ١٩٤٥ .

خل إدكار الأربع والمعهد المرتبع والظاعن المودع وعـد منه ودع
وأندب زمانا سلفاً سودت فيه الصحفا ولم تزل معتكفاً على القبيح الشنع
كم ليـلة أودعتها مآثماً أبدعتها لشهوة أطعتها في مرقد ومضجع

ومثاله من الشعر الفارسى قول أمير الشعراء « معزى » :

اى ساربان منزل مكن جـز بر ديار يار من
تايك زمان زارى كنم بر ربع وأطلال ودمن
ربع از دلم پر خون كنم أطلال را جيحون كنم
خاك دمن گلـگون كنم از آب چشم خويشتن
كز روى يار خـرگهى أيوان همى بينم تهى
واز قد آن سرو سهي خالى هى بيـنم چمن

ومعناه :

— أيها الحادى لا تنزل إلا بديار الحبيب حتى أتمكن من البكاء لحظة على الربع والأطلال والدمن .

— فاملأ الربع بدماء قلبي ، وأجعل الأطلال نهراً جارفاً ، واجعل التراب أحمر اللون ، بدموع عيني .

— فقد خلا إلا يوان كما أرى من وجه حبيبي ، وخلا البستان من قده الفارع المديد

ويظهر أن « منوچهرى » كان أكثر الشعراء المتقدمين غراماً بالمسمط كما أن « ميرزا داورى الشيرازى » كان أكثر الشعراء المتأخرين إحياء له[(١)] .

وللتمثيل على الصيغة العادية المسمط ، اكتفى بإيراد النبذتين الآتيين من مسمط لم ينشر للشاعر « داورى » .

أى بچـهٔ عرب صبحك الله بخـيرا صبح است صبوحى بده آن ساغر مى را
زان مى كه بقطب ار بدهى جرعهٔ ويرا بر پات بسايد سر إكليل جُدَى را
كردند بناتش بفـدا چـون تو بنى را
چون چـرخ زنى گرد خم باده جـدى وار

(١) المترجم : من شعراء القرن التاسع عشر الميلادى .

گر نيست ترا باده يكى شيشه ببركش . بر خيز وعبا را عربى وار بسر كش
همچو عربان دامن خـود تا بكمر كش يكدست عبا شيشه بدان دست دگر كش
با دامن تر منّت از آن دامن تر كش
وز خانه برو تا بدر خانهٔ خمـار

ومعنى هذه الأبيات :

— يافتى العرب . صبحك الله بالخير . إنه الصباح ، فاعطنى الصبوح ، وناولنى كأس الخمر

— من هذه الخمر التى لو أعطيت جرعة منها لقطب من الأقطاب لألقى بك إلى مدار الجدى

— ولقد تفتديك بناته . . أيها البنى . . حينما ترقص وتدور حول دن الشراب كما يدور الفلك .

— وإذا لم تتهيأ لك الخمر ، فاضمم الزجاجة إلى صدرك ، ثم انهض وارفع العباءة على رأسك كما يفعل العربى .

— ثم اربط حافة ثوبك على وسطك ، كما يفعل العرب ، وامسك بإحدى يديك العباءة وبالأخرى الزجاجة .

— وقدم الشكر وحافة ثوبك مبللة بالخمـر ، ثم أمض عن منزلك واذهب إلى حانوت الخمار .

وقافية هذا النوع من المسمط ، وهو أكثر أنواع المسمطات جريانا ، يمكن تصويرها على النحو الآتى :

ا ، ا ، ا ، ا ، ا ، س
ب ، ب ، ب ، ب ، ب ، س
ج ، ج ، ج ، ج ، ج ، س
الخ . . . .

وهناك نوع آخر من المسمطات جعله « منوچهرى » يشتمل على وحدات كل منها تشتمل على ستة مصاريع مقفاة على هذا النحو :

ا ، ا ، ا ، ا ، ا ، ا
ب ، ب ، ب ، ب ، ب ، ب
ج ، ج ، ج ، ج ، ج ، ج
الخ . . . . .

والنوع الأول من هذين النوعين الأخيرين شبيه بالمخمسات تماما ولا يفترق عنها إلا فى كون الوحدة الأولى من المخمسات تتألف من خمسة مصاريع مقفاة مع بعضها ثم تختلف القافية بعد ذلك فى سائر المصاريع ماعدا فى المصراع العاشر والخامس عشر والعشرين والخامس والعشرين ... الخ فإنها تكون متفقة مع قافية الوحدة الأولى .

والمنظومة « المركبة » يكون أساسها فى الغالب «غزلا» من الغزليات ، يأخذه الشاعر فيضيف إلى كل بيت منه مصراعين ليصنع منه « مربعاً » ... أو ثلاثة مصاريع ليصنع منه « مخمساً » ... أو أربعة ليخرج منه مسدساً ... وهكذا دواليك .

ومثال المخمس قول حافظ الشيرازى[1] :

در عشق تو اى صنم چنانم
كز هستى خويش در گمانم
هرچند كه زار وناتوانم
گر دست دهد هزار جانم
در پاى مباركت فشانم

***

كو بخت كه از سر نيازى
در حضرت چون تو دلنوازى
معروض كنم نهفته رازى
هيهات كه چون تو شاهبازى
تشريف دهد بآشيانم
. . . . الخ

و « المسدس » و « المسبع » و « المثمن » وسائر أنواع المنظومات المركبة تجرى على هذا النسق ولا حاجة بنا إلى سوق أمثلة لها .

المستزاد :

أما المستزاد فعبارة عن «رباعية» أو «غزلية » أو «قصيدة» يزاد بعد نهاية كل

---

(١) المترجم : مثل « براون » للمربع والمخمس بمثالين باللغة الإنجليزية صاغهما ترجمة لقصيدة منوچهرى التى سبق ذكرها فى هامش ص (٤٢ — ٤٧) ولم نر وجها لذكرها .

مصراع من مصاريعها زائدة موزونة لا يستلزمها المعنى أو الوزن ؛ وهذه الزوائد تفق مع بعضها ويكون معناها متصلا بحيث يمكن اعتبارها قصيدة منفصلة قائمة بذاتها:

[وللحريرى فى مقاماته قصيدة ربما أمكن أن يقال عنها إنها كانت محاولة للنظم على هذا الأسلوب فى الشعر العربى(١) :

يا خاطب الدنيا الدنية . . . إنها شرك الردى . . . وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت . . . فى يومها أبكت غداً . . . يا لؤمها من دار
. . . . . الخ]

ويجب ملاحظة أن معنى القصيدة وكذلك قافيتها تتوافران بغير الزيادة ، وإنه ليس من الضرورى أن تبنى القصائد المركبة أو المستزادة على منظومة أخرى سابقه ، فلقد أنشئت بعض القصائد أساساً فى ضرب أو آخر من هذه الضروب .

أقسام الشعر بحسب موضوعاته :

بالإضافة إلى التقسيم السابق الذى تناول الشعر بحسب ضروبه هنالك تقسيم آخر يتناوله بحسب موضوعه . ويتصل هذا التقسيم بالقصيدة أكثر مما يتصل بغيرها من ضروب النظم المختلفة التى رأيناها ، وربما انطبق أيضاً على القطعة و « المثنوية » .

وعلى ذلك يمكن تقسيم القصيدة بحسب موضوعها إلى الأقسام الآتية :

(ا) مديحه — إذا قصد منها المدح .
(ب) هجويه — إذا قصد منها الهجاء .
(ج) مرثيه — إذا قصد منها الرثاء .
(د) حكميه — إذا قصد منها الفلسفة والحكمة والتصوف .
(هـ) ربيعيه — إذا قصد بها وصف الربيع .
(و) شتائية — إذا قصد بها وصف الشتاء .
(ز) خزانيه — إذا قصد بها وصف الخريف .

---

(١) المترجم : أورد المؤلف مثلا للمستزاد بالإنجليزية ترجمة للقصيدة السابقة ولكننا وجدنا من الخير للقارىء العربى ان نستشهد بالمثل الذى اوردناه .

(ح) مناظره — إذا قصد منها المناظرة كمناظرات « أسدى » بين « الليل والنهار » أو بين « الرمح والقوس » أو بين « المجوسي والمسلم » أو بين « الأرض والسماء » .

(ط) السؤال والجواب — إذا نظمت القصيدة على طريق محادثة بصورة السؤال والجواب .

وقد يتبع الشاعر طريقه « السؤال والجواب » في الغزليات ، كما قد يتبع طرقا أخرى ربما كان أهمها « التلميع » . . . والشعر الملمع عبارة عن المنظومة التي تصاغ بعض أبياتها أو مصاريعها بالعربية وبعضها الآخر بالفارسية أو أية لهجة أخرى من اللهجات الإيرانية .

ولدينا نوع آخر من المنظومات يعرف باسم « الفهلويات » أنشأه الشعراء في لهجة من اللهجات الإيرانية الخاصة واستمروا يستعملونه حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم قل استعمالهم له بعد ذلك .

يبقى بعد ذلك أنواع أخرى من الشعر أهمها :

(ا) الموشح[1] (ب) اللغز

(ج) المعمى (د) النظيرة : وهي المنظومة التي يصوغها الشاعر قياساً على قصيدة أخرى أو تقليداً لها .

(هـ) التضمين : وهو أن يضمن الشاعر في منظومته قصيدة أخرى ليست من شعره.

والمثل الوحيد الذى أذكره لهذا النوع الأخير في اللغة الإنجليزية منحصر في القصيدة التي كتبها «لويس كاورل Lewis Carroll » في كتابه Phantasmagoria الذى أعيد نشره بعنوان Rhyme and Reason فقد ضمن فيها أبيات القصيدة المشهورة التي مطلعها « I never loved a dear gazelle »

وإليك الأبيات الأولى من قصيدته :

---

(١) الموشح العربي الذى كثر استعماله لدى أهل الأندلس والمغرب يشبه المسمطات الفارسية ولكنه يختلف عن الموشح الفارسي .

المترجم : انظر تعريف التوشيح لدى الفرس في ترجمتي العربية لحدائق السحر ص ١٦٠ .

I never loved a dear gazelle,
Nor anything that cost me much :
High prices profit those who sell,
But why should I be fond of such ..?

الشعر الخليط :

ويجب ألا ننسى الإشارة إلى «الشعر الخليط macaronic verse » وهو الذى يستعمل فيه الشاعر ألفاظاً فارسية ويعاملها معاملة الألفاظ العربية[1]، وأمثلة هذا الشعر موجودة فى أشعار الشيخ «سعدى» ولكن خير مثل لها موجود فى كتاب ابن أسفنديار المسمى « تاريخ طبرستان » (مؤلف حوالى سنة ١٢١٦ م = ٦١٣ هـ) ففيه قصيدة طويلة مكونة من أربعة وسبعين بيتاً من هذا النوع من الشعر كتبها القاضى « هشام » فى هجاء واحد من معاصريه . وقد أعدت نشر هذه القصيدة فى ص ٨١ — ٨٥ من ترجمتى الإنجليزية المختصرة لكتاب تاريخ طبرستان التى نشرتها فى سنة ١٩٠٥ فى « سلسلة جب التذكارية » .

ومطلع هذه القصيدة كما يلى :

أى بفرهنگ وعلم دارا ءُ   ليس مارا بجز تو همتاءُ
منم وتو كه لا حيا لنا   هزل را كرده ايم أحياءُ

وخير أمثلة للشعر الخليط فى اللغات الأوروبية منحصر فى مثلين :

الأول : القصيدة التى عنوانها Macaronicorum Poema التى نشرها فى سنة ١٥٢٩ م الشاعر « مرلينوس كوكايوس : Merlinus Coccaius » .

الثانى : القصيدة التى عنوانها Polemo—Meddinia وهى من نظم « وليم درموند William Drummond » ونشرت فى اكسفورد فى أكتوبر سنة ١٦٩١ م[2].

وهناك مصطلحات أخرى يستعملونها فى تسمية الأشعار بالنظر إلى موضوعها

---

(١) المترجم : ضرب المؤلف هنا مثلين فى الإنجليزية عوملت فيهما بعض الألفاظ الإنجليزية معاملة الألفاظ اللاتينية ولم نر وجها لذكرها .

(٢) المترجم : أورد المؤلف نبذة من القصيدة الأخيرة لم نر حاجة إلى إيرادها بنصها .

فهناك « الـكفريات » وهى القصائد التى تتعلق بالإلحاد والمروق من الدين ، وهناك « الخمريات » وهى التى تتعلق بالخمر ومجالس الشراب . . . وهناك أنواع أخرى كثيرة لا نجد أنفسنا فى حاجة إلى تعدادها لأنه لا يمكن ذكرها على وجه التحديد ولأنه لا خفاء فى معرفة موضوعها من التسميات التى أعطيت لها .

وفيما عدا ما ذكرناه ، هناك جملة كبيرة من الصناعات البلاغية التى يستعملها كتاب النثر المنمق والشعر المصنوع ؛ ومن الواجب على كل من يريد أن يدرك طبيعة الـكتابات الأدبية فى الفارسية أو العربيـة أو التركية أن يلم بها ولو إلمامة بسيطة حتى يتذوق هذه الـكتابات ويستسيغها . وكثير من هذه الصناعات لا تعرف فى الإنجليزية الآن ولـكن جماعة من كتاب القرن السادس عشر كانوا يستعملونها بكثرة ويهتمون بها اهتماماً كبيراً ، ومن أحسن أمثلتها ما كتبه « جورج پتنهام : George Puttenham » عن « فن الشعر الإنجليزى « Arte of English Poesie » ونشره فى سنة ١٥٨٩ م ثم أعيد طبعه فى سنة ١٨٦٩ وأغلب أنواع « التجنيس » يمكن الاطلاع على شواهدها فى كتابات «توم هود Tom Hood» وفى «Ingoldsby Legends» وما شابه ذلك من الـكتب .

قصيدة قوامى الـكنجوى:

وفى الفارسية قصيدة مصنعة تضم أهم أنواع الصناعات البلاغيـة التى استعملها البلاغيون والشعراء(١) . وهذه القصيدة من إنشاء الشاعر « قوامى الـكنجوى » شقيق الشاعر المشهور « نظامى الـكنجوى(٢) وهو من رجال القرن الثانى عشر الميلادى (أى السادس الهجرى) وقد ضمنها مائة بيت مذكورة برمتها فى الجزء الأول من كتاب « ضيا پاشا » المعروف باسم « خرابات » ص ١٩٨ — ٢٠١ وفيما يلى نص هذه القصيدة أورده بيتاً بيتاً مع ترجمة منثورة له وشرح يبين كنه الصناعة البلاغية التى تقصد به .

---

(١) المترجم : نعرف هـذه القصيدة فى الـكتب الفارسية باسم « بدايع الأسحار فى صنايع الأشعار » .

(٢) المترجم : هذا هو القول المشهور ولـكن هناك من يشك فى صحة هذا النسب .

١ — أى فلك را هواى قدر تو بار   وى ملك را ثناى صدر تو كار

ومعناه : يا من يكون هوى قدرك هو الحمل العسير للفلك .

ويا من يكون الثناء على فضلك هو الشغل للملك،

فهذا البيت يتضمن صنعتين معروفتين إحداهما تعرف بـ « حسن المطلع » وتكون كما يقول « جلادوين » بأن يجتهد الشاعر فى أن يجعل أول بيت من منظومته مطبوعا بحيث ترتاح الآذان لسماعه وتنشط الطباع لإدراكه ؛ وأما الصنعة الأخرى فهى « الترصيع » ومعناه اللغوى وضع الجواهر فى الذهب ومعناه البلاغى أن يقسم الكاتب أو الشاعر عبارته إلى أقسام منفصلة ثم يجعل كل لفظ منها فى مقابل لفظ آخر يتفق معه فى الوزن وحرف الروى وفيما يلى مثال بالإنجليزية له :

O Love who liest on my breast so light,
O dove who fliest to thy nest at night !

ومثال باللاتينية هو كما يلى(١) :

Quos anguis tristi diro cum vulnere stravit
Hos sanguis Christi miro tum munere lavit

[والترصيع فى البيت الفارسى ظاهر فى الألفاظ المتفقة فى الوزن والروى وهى « فلك » و « ملك » و « هواى » و « ثناى » و « قدر » و « صدر » و « بار » و « كار » .]

٢ — تير چرخت ز مهر ديده سپر   تير چرخت ز مهر ديده سپار

معناه :   إن سهم قوسك يرى فى السماء درعا

ونجم المشترى حبا فيك يثبت عينه عليك

فى هذا البيت أيضاً صنعتان هما « الترصيع » الذى سبق لنا ذكره وكذلك « التجنيس » . والتجنيس على سبعة أقسام كلها ممثلة فى هذا البيت والأبيات الستة التالية . أما الألفاظ التى تمثل النوع الأول من الجناس أو التجنيس التام فى هذا البيت فهى متشابهة من حيث الهجاء والنقط والنطق . فكلمة « تير » تكون بمعنى كوكب المشترى كما تكون أيضاً بمعنى « السهم » وكذلك كلمة « چرخ » تكون بمعنى

---

(١) أنظر ص١٠١ من كتاب: Morgan's 'Macaronic Poetry', New york 1872

الفلك كما تكون بمعنى « القوس » وكذلك كلمة « مهر » تكون بمعنى الشمس كما تكون بمعنى الحب وكذلك كلمة « ديده » تكون بمعنى « رأى » أو تكون بمعنى « العين » وكذلك كلمة « سپر » تكون بمعنى الدرع أوتكون « سپار » وهى المادة الأصلية من المصدر « سپردن » بمعنى أن يودع وكلمة « ديده سپار » فى نهاية البيت صفة مركبة بمعنى يودع العين أو «يثبت البصر ».

٣ — جود را برده از ميانه ميان   بخل را داده از كناره كنار

ومعناه : ولقد احتضنت الجود ، فأخذته من وسط الجميع

وطرحت البخل جانباً ، فانتحى إلى ناحية

والتجنيس الذى يمثله هـذا البيت هو من النوع الثالث الذى يعرف باسم « التجنيس الزائد » وله مثل آخر فى البيت الخامس وقد سمى كذلك لأن الكلمتين تتجانسان فى الحروف والحركات ولكن إحداهما تنتهى بحرف زائد كما نجد فى «ميان» و « ميانه » وفى « كنار » و « كناره[1] » .

٤ — ساعد ملك ورخش دولت را   تو سوارى وهمت تو سوار

ومعناه : وعلى ساعدالملك ، وعلى جواد الحظ والإقبال[٢]

أنت السوار ، وهمتك هى الراكب الفارس (السَّوارى)

فى هذا البيت مثل للنوع الثانى من التجنيس وهو « التجنيس الناقص » حيث تتفق الحروف فى الكلمات المتشابهة ولكنها تختلف فى الحركات[٣] .

[شاهده كلمة « سِوار » بكسر السين تكون بمعنى ما يلبس على المعصم . وأما كلمة « سَوار » بفتح السين فمعناها الراكب أو الفارس] .

٥ — پست با رفعت تو خانهٔ خان   تنگ با فسحت تو شارع شار

ومعناه : وبالقياس إلى رفعتك يكون قصر « الخان » حقيرا

---

(٢) المترجم : أورد المؤلف مثلا بالإنجليزية للتجنيس الزائد لم نر حاجة إلى إيراده .

(٢) المترجم : ترجمنا كلمة « رخش » بمعنى جواد لأن جواد رستم البطل الإيرانى عرف بهذه التسمية .

(٣) المترجم : أورد المؤلف مثلا بالإنجليزية للتجنيس الناقص لم نر داعيا لإيراده.

وبالقياس إلى فسحتك يكون شارع « الشار » ضيقا صغيرا(١)

فى هذا البيت نجد مثلا للنوع الثالث من التجنيس وهو التجنيس الزائد الذى سبق لنا الحديث عنه .

٦ — بى وفاى تو مهر جان نا چيز   با وفاى تو مهرجان چو بهار

ومعناه : وبغير الوفاء لك لا يكون حبي لروحى شيئاً مذكورا
وبوفائى لك يبدو لى الخريف ربيعا نضيرا

فى هذا البيت مثل للتجنيس « المركب » يوجد فى كلمة « مهرجان » الأولى بمعنى « حب الروح » وكلمة « مهرجان » الثانية بمعنى عيد الخريف(٢) .

٧ — صبح بدخواه ز احتشام تو شام   گل بد گوى ز افتخار تو خار

ومعناه : وبحشمتك يصير صباح من يتمنى السوء لك . . . ليلا
وبفخارك يصير ورد الذى يتحدث بالسوء عنك . . . شوكا

فى هذا البيت مثل للتجنيس « المكرر » [حيث يجعل الكاتب أو الشاعر فى نهاية الأسجاع أو أواخر المصاريع لفظين متجانسين متتالين ويجوز أن يكون فى صدر اللفظ الأول منهما زيادة] مثلما نجد هنا فى توالى اللفظتين « احتشام » و « شام » وكذلك فى اللفظتين « افتخار » و « خار(٣) » .

٨ — عدلت آفاق شسته از آفات   طبعت آزاد بوده از آزار

ومعناه : ولقد طهر عدلك الأفاق من الآفات
وتحرر طبعك من عناصر الأذى والإساءات

فهنا مثل للتجنيس « المطرف » موجودة فى كلمتى « آفاق » و « آفات » وفى كلمتى « آزار » و « آزاد » فالكلمتان تتجانسان فى جميع حروفهما ما عدا الحرف الأخير منهما(٤) .

---

(١) الخان أى الملك «والشار» لقب كان يتلقب به حكام ولاية غرجستان بالقرب من الغور.
(٢) المترجم : هنا أيضاً يورد المؤلف مثلا للتجنيس المركب ولم نر داعيا لايراده لأنه بالإنجليزية
(٣) المترجم : « « « « « المكرر « « « « «
(٤) المترجم: حذفنا المثل الإنجليزى الذى أورده المؤلف لهذا النوع .

٩ — از تو بیار ظلم را دارو وز تو أعدای ملك را تیمار

ومعناه : وبك يكون الشفاء لمن أصابه الظلم

وبك يكون الكفاء لأعداء الملك والدولة

والتجنيس هنا هو من نوع « تجنيس الخط » فكلمة « بيار » تشابه فى الكتابة كلمة « تيمار » ولا تختلف عنها إلا من حيث الأعجام أى النقط .

١٠ — جز غبار نبرد تو نبرد ديدهٔ عقل سرمهٔ ديدار

ومعناه : ولن تكتحل عين العقل إلا بغبار حروبك وستجعل منه الكحل لبصيرتها

فهنا مثل للاستعارة فى قوله « ديدهٔ عقل » أى عين العقل بمعنى العقل البصير أو المدرك للأشياء كأنه يراها .

١١ — در گل شرم يافت بى گل تو شانهٔ چرخ ماه آيينه دار

ولست أعرف معنى لهذا البيت وربما كان نصه مضطربا ولكن الشاعر يتمثل به للصنعة المعروفة بـ « مراعاة النظير » أو « التناسب » وتكون بأن يجمع الشاعر فى بيت من أبياته جملة أشياء من جنس واحد كالشمس والقمر ، والسهم والقوس ، والشفة والعين ، والوردة وزهرة اللعل(١) .

[ومراعاة النظير هنا واضحة فى ذكر أشياء متشابهة مثل « چرخ » وماه وشانه وآيينه] .

١٢ — آن كند كوشش تو با أعدا كه كند بخشش تو با دينار

ومعناه : وسعيك يفعل بالأعداء والخصوم

ما يفعله جودك بالدنانير والدراهم .

فهنا مثل « للمدح الموجه » فالشاعر يريد أن يمتدح شجاعة ممدوحه فى مواقع القتال والنزال فيقول له إن شجاعتك تودى بأرواح الأعداء كما يذهب جودك بالدراهم والدنانير .

---

(١) المترجم : حذفت المثل الإنجليزى الذى أورده المؤلف لهذه الصنعة .

١٣ — با هوای تو کفر باشد دین   بی رضای تو فخر باشد عار

هذا البيت يمثل لنا « المحتمل للوجهين » أى ما يمكن تفسيره على معنيين متضادين . ولما كان معنى هذا البيت يتوقف على تحديد الفاعل والمفعول فإنه يمكن ترجمته بإحدى هاتين الترجمتين :

(ا) وبهواك يكون الكفر ديناً ، وبغير رضاك يكون الفخر عاراً
(ب) وبهواك يكون الدين كفراً ، وبغير رضاك يكون العار فخراً

ويرى « پتنهام Puttenham » فى كتابه « فن الشعر الإنجليزى » ص ٢٦٦ أن هذه الصفة تعتبر من عيوب الأسلوب إلا إذا كانت متعمدة كما يفعل الشرقيون عادة عندما يريدون المدح ظاهراً ويقصدون فى الحقيقة القدح والهجاء . ولقد ذكر موريير Morier فى كتابه « حاجى بابا » حديثاً ورد على لسان الشاعر « عسكر » قال فيه « فكتبت قصيدة جعلتها على وجهين انتقمت فيها لنفسى مما لاقيته من صاحب الخزانة من سوء معاملة وكذلك حرصت على أن تكون على ظاهرها مبدية لمحاسنه ومفاخره فكانت برمتها من ذات المعنيين ، ولقد اعتقد لجهله أنى قصدت المدح بينما أنا فى الحقيقة لم أقصد إلا القدح ، وظن أنى أعنى بالكلمات العربية الفخمة كثيراً من الحمد والثناء ، بينما هى فى نفسها لا تشتمل إلا على أشد عبارات الفحش والهجاء ، ولقد أخفيت المعانى التى أردتها بحيث لم يكن أحد ليستطيع الوصول إليها بغير مساعدتى له بالشرح والبيان . . »

ولقد روى « رشيد الدين الوطواط » فى كتابه « حدائق السحر » حكاية عن أحد الظرفاء من أهل الفضل قال لحائك ثياب اسمه « عمرو » كانت له عين واحدة : « لو أنك استطعت أن تحيك لى ثوبا بحيث لا يقدر أحد أن يتبين إن كان قباء أو جُبّة فإنى سأقول فيك بيتاً لا يستطيع أحد أن يتبين منه إن كان مدحا أو هجاء . »

فحاك له « عمرو » هذا الثوب ، وقال الشاعر فيه هذا البيت :

خاط لى عمـرو قبـا   ليت عينيـه سـوا

فى هذا البيت تمنى الشاعر لو كانت عينا عمرو سواء وليس يعلم أحد أيريدهما

سواء فى الأبصار أم فى عدم الإبصار . . . لأن الشطرة الأخيرة تحتمل المعنيين(١) .

١٤ ــ هست رايت زمانه راعادل ليك دستت خزانه را غدار

ومعناه : ورأيك هو الحكم العادل للزمان ،

لكن يدك غدارة بالخزانة ليس لها أمان .

هذا البيت يمثل لنا الصنعة المعروفة بـ « تأكيد المدح بما يشبه الذم » لأن المصراع الثانى يفيد تأكيداً للمدح الذى ذكر فى المصراع الأول وما غدر يده بالخزائن إلا دليلا جديداً على كرمه وسخائه وعدله .

١٥ ــ فلك افزون ز تو ندارد كس اى فلك نيك گير ونيكش دار

ومعناه : والفلك لا يرفع أحداً أكثر من رفعتك

فتمسك به أيها الفلك . . . واحفظه فى هناء

هذا البيت يمثل لنا صنعة « الالتفات » وهى عبارة عن انتقال الخطاب من شخص إلى آخر ، وتكون بانتقال العبارة من المخاطبة إلى الغاية أو من الغاية إلى المخاطبة . وقد ذكر جلادوين أمثلة كل نوع فى كتابه « البلاغة لدى الفرس » ص ٥٦ ــ ٥٨ (٢) .

١٦ ــ بخت سوى درت خزان آيد راست چون بت پرست سوى بهار

ومعناه : والحظ يزحف إلى بابك .

كما يفعل عابد الأصنام نحو معبد البهار .

هذا البيت يتضمن الصنعة المعروفة بـ « إلا يهام » وتكون بأن يذكر الكاتب أو الشاعر فى نثره أو نظمه ألفاظاً يكون لها معنيان أحدهما قريب والآخر بعيد ، فإذا سمعها السامع انصرف خاطره إلى المعنى القريب بينما يكون المراد منها هو المعنى البعيد أو الغريب .

---

(١) المترجم : حذفت المثل الإنجليزى الذى أورده المؤلف لهذه الصنعة .

(٢) المترجم : هذه الأمثلة موجودة فى كتاب « حدائق السحر » لرشيد الدين الوطواط ويمكن الإطلاع عليها فى الأصل الفارسى أو فى الترجمة العربيــة التى نشرتها فى سنة ١٩٤٥ لهذا الكتاب .

والإيهام هنا موجود فى كلة «خزان» فمعناها القريب هو «الخريف» ومعناها البعيد هو «زاحف» وكذلك فى كلة «بهار» فمعناها القريب هو «الربيع» ومعناها البعيد عبارة عن معبد من معابد الأصنام فى آسيا الوسطى انتسبت إليه أسرة البرامكة المشهورة .

وقارىء هذا البيت ينصرف ذهنه لأول وهلة إلى المعنى القريب لهاتين الكلمتين ولكن الشاعر فى الحقيقة لم يقصد إلا المعنى الآخر البعيد(١) .

والأبيات الثمانية التالية أوردها جملة لأن كل واحد منها شاهد على نوع من أنواع «التشبيهات» المختلفة التى تبلغ ثمانية أنواع ، هى الآتية بحسب ترتيب الأبيات :

(ا) التشبيه المطلق (ب) تشبيه التفضيل (ح) تشبيه التأكيد
(د) التشبيه المشروط (ه) تشبيه الإضمار (و) تشبيه التسوية
(ز) تشبيه الكناية (ح) تشبيه العكس

ولسنا فى حاجة إلى بيان كل نوع من هذه الأنواع فإن تسمياتها تكفى لإيضاح مدلولاتها . وفيما يلى الأبيات الثمانية التى تمثلها :

١٧ — تيغ تو همچــو آفتاب بنور سير دارد زمانه را ز نگار
١٨ — چرخ وماهى نه نيستى تو از آنك نيست اين هر دورا قوام وقرار
١٩ — بلكه از تست چرخ را تمكين بلكه از تست ماه را اظهـار
٢٠ — ما هى ار ماه ناورد كاهش چرخى ار چرخ نشكند زنهار
٢١ — گر تو چرخى عدو چراست نگون ور تو ما هى عدو چراست نزار
٢٢ — جاى خصمت چو جاى تست رفيع آن تو تخت وان خصمت دار
٢٣ — چون تو در روز شب كنى پيدا چون تواز خار گل كنى ديدار
٢٤ — شام گردد چو صبح سرخ لباس صبح گردد چو شام تيره شعار

ومعنى هذه الأبيات :

— وسيفك كالشمس المنيرة يجعل الزمان مليئاً بالجمال والبهاء .

---

(١) المترجم : حذفت هنا مثلين بالإنجليزية أوردهما المؤلف للتمثيل على هذه الصنعة فى لغته .

— وأنت الفلك والقمر ، لابل لست كذلك، لأن كلامنهما لاقوام له ولاقرار .
— بل الفلك يستمد تمكينه منك وكذلك القمر يستمد بهاءه من طلعتك .
— وأنت القمر لو استطاع القمر ألا يصيبه نقصان ، وأنت الفلك لو استطاع الفلك ألا يكسر وعده .

— وإذا كنت الفلك فلماذا عدوك هو المقلوب ، وإذا كنت القمر فلماذا عدوك هو الهزيل الآخذ فى النقصان .
— ومكان عدوك رفيع كمكانك ، ولكن مكانك هو العرش ، ومكانه هو المشنقة .
— وعندما تجعل النهار يبدو كالليل ، وعندما تجعل الورد يبدو من الأشواك[1] .
— يصبح المساء كأنه الصبح قد احمر لباسه ، ويمسى الصباح كأنه المساء قد أظلم شعاره .

والصنعة التالية تعرف بـ « سياقة الأعداد » وفيها يسوق الكاتب أو الشاعر عدداً من الأسماء المفردة على نسق واحد بحيث يكون كل واحد منها له معنى قائم بذاته ويكون كذلك تعليلا لشىء آخر كما يبدو من البيت الآتى :

٢٥ — دست برد است گاه عرض هنر بسخا ووفا وعدل ويسار

ومعناه : وقد فاز فى وقت عرض الفضل
بالسخاء والوفاء والعدل واليسار

٢٦ — نورت از مهر ، لطفت از ناهيد برّت از ابر ، جودت از كوهسار

معناه : ونورك من نور الشمس ولطفك من لطف « الزهرة »
وبرك من بر السحاب وجودك من فيض الجبال

هذا البيت فيه تمثيل لصنعة « تنسيق الصفات » عندما يذكر الشاعر شيئاً بجملة أسماء أو جملة صفات متوالية دون أن يراعى فيها الترتيب أو التنظيم .

---

(١) جعل النهار يبدو كالليل كناية عن الظلام الذى يصيب النهار بسبب ما يرتفع فى المعركة من غبار قاتم يحجب ضياء الشمس ، وجعل الورد يبدو من الأشواك كناية عن أهدار دم الأعداء بأطراف الرماح والسيوف .

والأبيات الثلاثة التالية تمثل لنا صناعة « الحشو » التى تكون بإضافة كلمات لا يستلزمها المعنى؛ والحشو أما «قبيح» إذا كان اللفظ الزائد لا محل له بحيث يفسد البيت بوجوده ؛ وإما «مليح» إذا حسن به الكلام وازداد رونقه ؛ وإما «متوسط» إذا تساوى ذكر اللفظة الزائدة وعدم ذكرها فلا تكون مستقبحة غاية القبح ولا مستحسنة غاية الاستحسان .

٢٧ — الحشو القبيح :

قهرت ار مجتهد شود ببرد آسمان را بسخره وبيگار

٢٨ — الحشو المتوسط :

ليك لطف تو اى هما يون راى بلطف دُرْ بر آورد ز بحار

٢٩ — الحشو المليح :

باغ عمرت كه تازه باد مدام چشم بد دور روضه ايست ببار

ومعنى هذه الأبيات :

— وقهرك إذا سعى ، فإنه يحمل السماء على أن تكون مسخرة لك وخاضعة .

— ولكن لطفك — يا صاحب الرأى الملكى — يستطيع أن يجلب الدرر من البحار .

— وبستان عمرك ، وإنى أدعو لك بالنضرة على الدوام ، هو روضة مثمرة ، أدعو الله ان يبعد عنها عين المسود .

والبيت التالى يمثل الصنعة المعروفة بـ « الاشتقاق » أو على الأصح « شبه الاشتقاق » وهى فى الحقيقة نوع من « التجنيس » تبدو فيه الألفاظ كأنها مشتقة من أصل واحد ولكنها فى الحقيقة ليست كذلك :

٣٠ — روز كوشش چو زير ران آرى آن قدَر پيكر قضا پيگار

ومعناه :

وفى يوم الجهاد عندما تركب جوادك
فلك صورة القَدَر وتصميم القضاء

هنا نجد أن كلمة « پيكر » وكلمة « پيگار » تبدوان كأنهما من أصل واحد ولكنهما ليستا فى الحقيقة كذلك ، والأولى بمعنى «صورة» والثانية بمعنى « عزم » أو « تصميم(١) » .

والأبيات الثلاثة التالية تمثل لنا أنواع « السجع » التى تسمى على التوالى :

(ا) السجع المتوازى : حيث تتفق الكلمات فى الوزن وعدد الحروف والروى .

(ب) السجع المطرف : حيث تتفق الكلمات فى الروى دون الوزن وعدد الحروف .

(ح) السجع المتوازن : حيث تتفق الكلمات فى الوزن دون الروى .

٣١ — السجع المتوازى :

در سجودت نوان شوند ز پيش بر وجودت روان كنند نثار

٣٢ — السجع المتوازن :

سر كشان جهان حادثه ور اختران سپهر آيينه دار

٣٣ — السجع المطرف :

آردت فتح در مكان إمكان دهدت كوه برفرار قرار

ومعنى هذه الأبيات :

— وفى السجود لك يأتون أمامك فى ذلة وخضوع

وعلى وجودك ينثرون الأرواح والأنفس .

— المتغطرسون فى هذا العالم الملىء بالحادثات

ونجوم هذا الفلك المسك بالمرآة .

— والفتح يجلب لك الإمكان فى كل مكان .

وعزمك الشبيه بالجبل يعطيك القرار والثبات لا الفرار .

والأبيات الأربعة التالية تمثل لنا أنواع « المقلوبات » الأربعة وهى :

(ا) مقلوب الكل : حيث تكون الكلمة مقلوبة الحروف لكلمة أخرى كما نجد فى « گرم » و « مرگ » .

(١) المترجم : حذفنا الأمثلة الإنجليزية التى أوردها المؤلف للاشتقاق .

(ب) مقلوب البعض : حيث يكون فى الكلمتين تقديم وتأخير فى بعض الحروف بحيث لا يشمل ذلك الحروف كلها على التوالى كما نجد فى « رشك » و « شكر » .

(ج) المقلوب المجنح : وهو عبارة عن « مقلوب الكل » ولكن الشاعر يضع إحدى الكلمتين فى أول البيت والثانية فى آخره .

(د) المقلوب المستوى : ويكون بأن تستطيع أن تقرأ جملة منثورة مركبة من بضعة ألفاظ ، أومصراعا من الشعر ، أو بيتاً كاملا منه ، بحيث إذا قلبت الجملة أو المصراع أو البيت كان كل واحد فى هذه الثلاثة متفق الأصل مع مقلوبه . وهذا النوع هو أصعب أنواع المقلوب ولكنه أكملها وأجملها .

٣٤ — مقلوب البعض :

رشك قدرت برد سپهر ونجـوم   شكر فتحت كند بلاد وديار

٣٥ — مقلوب الكل :

گرم دارد زتاب دل پيكان   مرگ بارد بخصم بر سوفار

٣٦ — المقلوب المجنح :

گنج نصرت دهد گزارش جنگ   راى دولت زند حمايت يار

٣٧ — المقلوب المستوى :

رامش مرد گنج بارى وقوت   توقوى را بجنگ در مشمار

ومعنى هذه الأبيات :

— إن الفلك والنجوم لتحسدك على قدرك .
وإن البلاد والديار لتشكرك على فتحك .

— وإنه ليشحذ طرف الرمح ويجلوه من نار القلوب
فيمطر سهمه الموت على خصمه وعدوه .

— وطريقة إنفاذه للحرب تجلب له كنوز النصر
وحمايته للأصدقاء تمهد له سبيل الملك .

— وراحة الإنسان فى جمع الكنز والقوت
فلا تعتبر القوى قويا فى الحرب والقتال .

والأبيات الثمانية التالية تمثل الأنواع المختلفة من « رد العجز على الصدر » وهى صنعة غير مستفيضة كما يدل عليها إسمها وتقتصر (كما يقول جلادوين) على ذكر كلمة بعينها فى أى جزء من شطرى البيت[1] :

٣٨ — كار عدل تو ملك داشتن است   عدل را خود جزاين نباشد كار
٣٩ — به يسار تو جود خورد يمين   شد يمين زمانه بر تو يسار
٤٠ — خصم تيمار دولت تو كشد   خصم نيكو تر است در تيمار
٤١ — در مقامى كه بار زر بخشى   ريزش ابر را نباشد بار
٤٢ — مى گذارى برمح وام عدو   كس نديد است رمح وام گذار
٤٣ — چرخ از آزار تو نيازارد   بندگان را كجا كنيد آزار
٤٤ — نارد از خدمت تو بيرون سر   ورچه بشكافيش به نيزه چو مار
٤٥ — دشمنان را بداورى وخلاف   با تقاضاى گنبد دوار
٤٦ — قهر وكينت به باد داده چو خاك   لطف وقهرت بآب گشته چو نار

ومعنى هذه الأبيات :

— وعد لك مشغول بامتلاك الملك ، ولا شغل للعدل إلا فى هذا الأمر .
— والجود يقسم يمينا صادقة على يسارك ، ويمين الزمان أصبحت يسارا لك .
— والخصم دائم العناء بسبب دولتك ، ومن الخير أن يبقى الخصم فى عناء .
— وعندما تهب أحمال الذهب والعطايا ،
لا يبقى للسحاب مجال لأن يسقط غيثه وأمطاره .

---

(١) المترجم : يذكر المؤلف أن هذه الصنعة قريبة بما يسمى فى الشعر الإنجليزى باسم Epanalepsis أو Echo sound أو باسم Epizeuxis أو Cuckoo—spell أو باسم Ploche أو the doubler وقد حذفت الأمثلة اللاتينية والإنجليزية التى وردت فى الأصل .

ـــ وبرمحك ، تستطيع ان تسدد الدين للعدو ،
ولم ير أحد من قبل أن الرمح يقوم بسداد الديون .
ـــ والفلك لا يتأذى بما تفعله فيه من ضرر ؛
وكيف يعقل أنك تؤذى خدمك وأتباعك . . . ؟!
ـــ ولن يحاول ان يخرج برأسه عن خدمتك ؛
ولو شققته برمحك كما تشق الأفعى . . . ! !
ـــ ولقد أودى القهر بأعدائك بما هم فيه من خوف وخلاف ،
قضت بهما أحكام هذه القبة الدائرة .
ـــ وقد أسلم قهرك وغضبك أعداءك للرياح ، فأصبحوا كالتراب ؛
وقتلهم ماء لطفك وقهرك ، كما تفعل الماء بالنار .

والبيت الأخير وكذلك البيت التالى يمثلان ما يعرف « بالمتضاد » حيث يذكر الشاعر فى البيت الواحد ألفاظا يكون الواحد منها مضاداً للآخر كما فعل عند ذكر العناصر الأربعة فى آخر الأبيات التى ذكرناها فيما سبق .

والبيتان التاليان يمثلان صنعة « الإعنات » حيث يتكلف الشاعر شيئاً لا لزوم له ليزين به كلامه ، كأن يلتزم فى آخر الأبيات حرفا قبل حرف الروى تستقيم القافية بدونه ، أو كأن يلتزم بتكرار كلمة أو أكثر فى جميع الأبيات[1] .

٤٧ ـــ اى نيكوخواه دولت تو عزيز وای بد انديش روزگار تو خوار
٤٨ ـــ هركه زنهار خوار عهد تو نشد بسپارش بعالم خونخوار

ومعنى هذين البيتين :

ـــ فيا من . . . يصبح مريد الخير لدولتك . . . عزيزا ،
ويا من . . . يصبح مريد السوء لأيامك . . . حقيرا .
ـــ إن من لا يرعى عهدك وميثاقك ؛
عليك أن تسلمه لهذا العالم الغادر .

وهذه الصنعة تسمى أيضاً بـ« لزوم ما لا يلزم» وتشتد صعوبتها (خاصة فى ثانى

(١) المترجم : أورد المؤلف ثلاثة أمثلة بالإنجليزية لهذه الصنعة لم أر فائدة من ذكرها .

صورها الموضحة فى البيتين الفارسيين السابقين) إذا أراد الشاعر أن يصطنعها فى قصيدة طويلة .

والبيت التالى يمثل « المزدوج » حيث يضمن الشاعر أبياته ألفاظاً مزدوجة يراعى فيها السجع وذلك بالإضافة إلى القافية .

٤٩ — گاه ريزه به نيزه برباثى چون كنى عزم رزم اينت سوار

ومعناه :

— وأنت تخطف قلامة القش بطرف رمحك ،

وعندما تعزم على الحرب . . . فيالك من فارس ماهر ...!!

والبيت التالى مثال « للمتلون » حيث يقول الشاعر بيتاً من الشعر تمكن قراءته على وزنين مختلفين .

٥٠ — اى بوده قدوهٔ وضيع وشريف وى شده قبلهٔ صغار وكبار

ومعناه :

— فيا من أنت قدوة للوضيع والشريف ؛

ويا من أنت قبلة للصغير والكبير .

فهذا البيت يمكن وزنه كسائر أبيات القصيدة على أحد الوزنين الآتيين :

(ا) الخفيف المخبون المقصور

— u — —	u — u —	u u —
فاعلاتن	مفاع لن	فعلان

(ب) السريع المطوى :

— u u —	— u u —	— u —
مفتعلن	مفتعلن	فاعلان

والصنعة التالية هى التى تعرف بـ «إرسال المثل» ويلحق بها صنعة أخرى هى « إرسال المثلين(١) » .

(١) المترجم : يذكر المؤلف أن هـذا شبيه بما يعرف فى الإنجليزية باسم : Proverlial Commission ويذكر أن « بتنهام » يقسمه إلى Gnome وParimia ويضرب مثلا للنوع الأخير بالإنجليزية لم نر حاجة إلى ذكره .

وقد امتاز بهذه الصنعة جملة من شعراء الفرس ربما كان أشهرهم «صائب الأصفهانى» المتوفى سنة ١٦٧٧ م = ١٠٨٨ هـ وقد أصبحت أشعاره نماذج يحتذيها عدد كبير من شعراء الأتراك ؛ وكذلك امتاز بها «أبو الفضل السكرى المروزى» الذى حدثنا عنه الثعالبي فى يتيمة الدهر فقال إنه[1] كان مولعاً بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية :

٥١ — نكُشد آب خصم آتش تو نشكند تاب نور مهرهٔ ماز
٥٢ — گر مهى فارغ از هواى خسوف گر مي ايمن از بلاى خمار

ومعناها :

— وماء خصمك لا يستطيع أن يطفىء نارك ،
كما أن حجر[2] الأفعى لا يستطيع أن يتغلب على وهج النور .
— وإذا كنت قمراً فإنك فارغ البال لا تفكر فى الخسوف ؛
وإذا كنت خمراً . . . فإنك فى أمن من بلاء الخمار .

والأبيات العشرة التالية أوردها الشاعر مثالا لصنعة « اللغز » :

٥٣ — چيست آن دور وأصل او نزديك چيست آن فرد وفعل او بسيار
٥٤ — خام او هرچه علم را پخته مستى او هرچه عقل را هشيار
٥٥ — دلشكن ليك درد دل پيوند خوش گذر ليك روز گار گذار
٥٦ — رنج او نزد بى دلان راحت خوار او نزد زيركان دشوار
٥٧ — چون دعا خوش عنان وبى مركب چون قضا رهنورد وبى هنجار
٥٨ — اندهش همچو لهو راحت بخش آتشش همچــو آب نوشگوار
٥٩ — نعره در وى شكنج موسيق ناله در وى نواى موسيقار
٦٠ — عشق أصليست كز منازعتش عقل غمگين بود روان غمخوار
٦١ — خاصة عشق بى كه در غزلش مدحت شاه مى كنم تكرار
٦٢ — شايد ار زان غــزاله بنيوشد زين نوا اين غــزل بنغمهٔ زار

---

(١) أنظر ج ٤ من يتيمة الدهر ص ٢٢ — ٢٥ .
(٢) يزعمون أن الأفعى تحمل حجرا شــديد البريق والضياء ، ويعتقد ذلك أهل الشرق والغرب على السواء .

ومعنى هذه الأبيات :

ــ ما الشيء البعيد وأصله قريب . . . وما الشيء الفرد وفعله كثير ...؟!

ــ ساذجه ينضج العلم ويزيده ، والسكر به يجعل العقل يفيق من نشوته .

ــ يحطم القلوب،ولكنه شفاء لآلام القلوب؛ بطيء المرور،ولكن مروره بالأيام سريع

ــ آلامه راحة لدى من لا قلوب لهم ، وذلته صعبة لدى المهرة الأذكياء .

ــ طيب كالدعاء . . لا عنان له ولا مركب ، واقع كالقضاء . . . لادافع له ولا راد .

ــ غمه شبيه باللهو الذى يجلب الراحة ، وناره شبيهة بالماء الصافى يطيب لشاربه .

ــ ونعرته شبيهة باللحن الموسيقى ، ونحيبه شبيه بألحان الموسيقار .

ــ والعشق أصل،يصبح العقل بمنازعاته محزونا،وتصبح الروح بثوراته أسيفة مغمومه.

ــ وعلى الخصوص عشق هذه الدمية ، التى أكرر فى التعزل بها مدائح المليك .

ــ فإذا استمعت الغزالة (أى الشمس) وبكت حزناً ،

لهذه النغمة التى أوردها فى هذا الغزل الحزين . . حق لها ذلك .

والألغاز تكون غامضة فى أغلب الأحوال ومن أجل ذلك يؤسفنى أن أعترف بأنى لم أوفق إلى معرفة حل هذا اللغز السابق . ولكن هناك طائفة أخرى مذكورة مع حلولها فى كتاب « روكرت » عن الشعر الفارسى والبلاغة الفارسية (أنظر ص ٣٣٦ — ٣٣٨) .

يأتى بعد ذلك «المطلع ذوالقافيتين» وهوعبارة عن مطلع توجد فىداخله قافيتان أو مطلع جديد تتفق فيه شطرته الأولى مع الثانية .

٦٣ — از دلم سوسنش ببرد قرار بسرم نرگسش سپرد خمار

ومعناه :

ــ وقد سلب سوسنها (صدرها الأبيض) الراحة من قلبى ،

وأودع نرجسها (عينها) الخمار فى رأسى

ويتلو ذلك التمثيل للصنعة المعروفة بـ « تجاهل العارف » وهى شبيهة بما يسميه يتنهام باسم Aporia . أو The Doubtful

٦٤ — ويحك . . آن نرگس است ياجادو   يارب آن سوسن است يا گلنار

ومعناه :

— ويحك . . . هل هذه نرجسة أم سحر مبين ...!!
ويارب هل هذه سوسنة أم هي زهرة الرمان ...!!

ويتلو ذلك التمثيل لصنعة « السؤال والجواب » .

٦٥ — گفتم : از جان بعشق بزارم   گفت عاشق ز جان بود بزار

— قلت : إنى مُعَنى بالحياة بسبب العشق ،
قالت : والعاشق يُعَنى بالحياة عادة ... !!

والبيت التالى مثال « للموشح » ويؤسفنى أن أعترف ثانية بأنى لم أوفق إلى حله(١) :

٦٦ — دوست ميد ار مش كه يار منست   دشمن آن به كه خود نباشد يار

— وإنى أحبها . . . لأنها صاحبتى وصديقتى ؛
ومن الخير الا يكون الصديق عدواً . . .

وفى البيت التالى تمثيل للشعر « الملمع » وقد ذكرناه فيما سبق وقلنا إن أمثلته الإنجليزية واللاتينية كثيرة الوجود فى Ingoldsby Legends(٢) .

٦٧ — سوخت در آتشم چه ميگويم   أحرقتنى الهـوى بغـير النـار

— أحرقتنى بالنار فما عساى أقول ؛
« أحرقتنى الهوى بغير النار . . . »

والأبيات الخمسة التالية تمثيل للصناعات التى تتعلق بالحروف العربية من حيث وصلها وفصلها . ومن حيث إعجامها أو إهمالها . ومن أجل ذلك لا يمكن التمثيل لها فى اللغة الإنجليزية ، وأول أنواعها : هو « المقطع » حيث لا تتصل الحروف ببعضها

(١) المترجم : التوشيح فى الفارسية صنعة يورد بها الشاعر فى أول الأبيات أو وسطها حروفا أو كلمات ، بحيث إذا جمعت بعينها أو مع تصحيفها ، خرج لنا منها بيت أو مثل أو اسم أو لقب .

(٢) المترجم : حذفت مثلين بالإنجليزية فى الأصل كان التلميح فيهما باللغة اللاتينية .

وثانيها : هو « الموصل » حيث تتصل جميع الحروف ببعضها ولا تقبل التقطيع ؛ وثالثها : هو « المجرد » وهو ضرب من الصناعة لم أستطع الحصول على تعريفه(١) فيما لدى من كتب البلاغة ؛ ورابعها : هو « المرقط » أو « الرقطاء » حيث يكون أحد الحروف منقوطاً والآخر عاطلا ؛ وخامسها : هو « الأخيف » أو « الخيفاء » حيث تكون كلمة برمتها منقوطة تتلوها كلمة أخرى عاطلة :

٦٨ — المقطع :

زار وزردم ز درد دورئ او   درد دل دار زرد دارد وزار

٦٩ — الموصل :

تن عيشم نحيف گشت بغم   گل بختم نهفته گشت بخار

٧٠ — المجرد :

چهرهٔ روشنش كه روز منست   زير زلفش مهيست در شب تار

٧١ — الرقطاء :

غمزهٔ شوخ آن صنم بگشاد   اشك خونم ز چشم خون آثار

٧٢ — الخيفاء :

دل شـد وهم نبيند ازوى مهر   سر شـد وهم نپيچد از تن كار

ومعنى هذه الأبيات :

— وأنا هزيل مصفر بسبب بعدى عنها ، والحزن على الحبيب يجعل المرء هزيلا معتلا.
— وقد هزلت حياتى بما أصابنى من غم ، واختفت وردة حظى بين الأشواك المتكاثرة.
— ووجهها الوضاء هو نهارى الواضح المنير ، وتحت ذؤابتها قمر أضاء فى وسط ليلها المظلم.
— وقد جعلت هذه الدمية الجميلة تفتح بغمزاتها الجسورة ، سيول الدموع من عينى الدامية.
— وذهب قلبي . . . ولم يظفر منها بآية من آيات الحب ،
وذهب عقلى . . . ولم ينثن عما هو فيه من غواية .

والبيت التالى تمثيل لصنعة « المعمى » ولست أستطيع حله أيضاً :

---

(١) المترجم : ربما يقصد به صنعة « الحذف » وهى التى يطرح بها الشاعر أو الكاتب حرفا من حروف المعجم فلا يستعمله فى شعره أو نثره .

٧٣ — موج ودود دل ودو ديده من برد دريا وابر را مقدار

ومعناه :

— وأمواج قلبي وأدخنته المتصاعدة وعيناى الغارقتان فى البكاء ،
قد فاقت البحار الواسعة والسحب الهامية . .

والصنعة التالية هى «التضمين» حيث يدخل الشاعر فى شعره بيتاً قاله شاعر آخر . ويشترط فى البيت المضمن أن يكون معروفاً متداولا على الألسن وإلا وجب على الشاعر أن يشير إشارة صريحة على تضمينه لهذا البيت خشية أن يتهم بالسرقة والانتحال[1] .

وفيما يلى مثال من « التضمين » تجاسرتُ على صياغته فى أشعار فارسية من نظمى ، وقد دعانى إلى نظمه أحد أصدقائى فقد كان يتعشق فتاة إسمها «مى: May » وهى كلمة تنطق كما تنطق كلمة « مى » الفارسية بمعنى « الخمر » . وقد أخذت البيت المضمن من قول « سعدى الشيرازى » فى كتابه « گلستان » :

مست مى بيدار گردد نيم شب مَست ساقى روز محشر بامداد

ومعناه :

— إن السكران بالخمر (مى) يصحو من نشوته فى منتصف الليل ،
أما السكران بالساقى فلا يصحو من نشوته إلا فى صبيحة يوم الحشر .

فصغت منه تضمينا احتوى على صنعتين أخريين هما « التجنيس التام » فى كلمة « مى » وكذلك « الإغراق » وهذا هو قولى :

مَست مى بيدار گردد نيم شب فرمود شيخ
آن اگرچه قول شيخ است نيست جاى اعتماد
من مي دانم كه هرگاه مست آن گردد كسى
سر ز مستى بر ندارد روز محشر بامداد

ومعنى هذين البيتين :

— قال الشيخ سعدى : إن السكران بالخمر (بـمى) يفيق فى منتصف الليل من خماره .

( ) المترجم : حذفت المثل الإنجليزى الوارد فى الأصل

وهذا القول من أقوال « الشيخ سعدى » صحيح ولـكن لا يجب تصديقه والاعتماد عليه .

— فإنى أعرف فتاة إسمها « مى » كلما سكر بحبها شخص ،

لا يستطيع أن يرفع رأسه ويتخلص من نشوته حتى صبيحة يوم الحشر .

٧٤ — وصل خواهم ندانم آنكه بكس رايگان رخ نمى نمايد يار

ومعناه :

— وأنا أريد الوصل ... فهلا علمت ، إن الحبيب لا يبدى طلعته لأحد مجاناً ...

وهنا يجب أن أعترف بحقيقة مزعجة ، وهى أننى لاأعرف الجزء المضمن منهذا البيت ، ولامن أىالشعراء استعارة ناظم هذه القصيدة ، وربماساعد ذلك كله على أن أتهم بالجهل ، ونسى النقاد اتهام الناظم بالسرقة لأنه لم يبين صراحة المكان الذى استقى منه تضمينه .

وفيما يلى تمثيل لصنعة « الإغراق » وهى نوع من أنواع « المبالغة » الثلاثة التى تشتمل على :

(ا) التبليغ (المبالغة): حيث تكون المبالغة ممكنة عقلا وعملا :

(ب) الإغراق : حيث تكون المبالغة ممكنة عقلا ولـكنها غيرمحتملة عملا .

(ج) الغـلو : حيث تكون المبالغة مستحيلة عقلا وعملا .

ومن أمثلة الغلو ما أورده « دولتشاه » فى صحيفة ٣٣ من « تذكرة الشعراء » فى البيتين التاليين من قول الشاعر «غضائرى الرازى» فى مدح السلطان محمود الغزنوى:

صواب كرد كه پيدا نكرد هر دو جهان يگانه ايزد دادار بى نظـير وهمال

وگرنه هر دو ببخشيدى او بروز سخا اميد بنـده نماندى بايزد متعـال

ومعناهما :

— وكان من الصواب إن الله الفرد العادل الذى لا نظير له ولا شبيه ؛

لم يُظهر للانسان كلا العالمين (الدنيا والآخرة) .

— ولو أنه فعل ذلك ... لجاد الملك بهما جميعاً فى يوم الجود والسخاء ؛

ولم يبق للعبد بعد ذلك مطمع آخر فى رب السماء ... ! !

وأبلغ من ذلك فى « الغـــلو » ما قال نبيل الزرندى (من بلدة زرند) فى « بهاء الله » رئيس البابية :

خلق گويند خدائى ومن اندر غضب آيم   پرده برداشته مپسند بخود ننگ خدائى

ومعناه :

— إن الخلق يقولون : إنك الله ، ولـكننى غاضب مما يقولون ... !!
فارفع الحجاب عن نفسك ، ولا ترض لنفسك بعار الألوهية[1]... !!

وفيما يلى البيت الذى ورد فى قصيدة « قوامى » تمثيلا للاغراق :

٧٥ — ور نمايد ز بس صفا كه در اوست   راز من در رخش بود ديدار

ومعناه :

— وإذا أظهرتْ وجنتها ... فلـكثرة الصفاء الذى يبدو فيها
تبدو أسرارى ظاهرة لعين الرائى ... !!

والأبيات السبعة التالية أوردها الشاعر أمثلة للصناعات التى تعرف باسم « الجمع » و «التفريق» و «التقسيم» والأبيات نفسها تكشف لنا عن الصنعة التى تشتمل عليها:

٧٦ — الجمع :

بر لبش زلف عاشق است چو من   لا جرم همچو منش نيست قرار

٧٧ — التفريق :

باد صبح است بوى زلفش نى   نبود باد صبح عنـــبر بار

٧٨ — جمع وتقسيم :

من وزلفين او نـگونساريم   ليك او بر گل است ومن بر خار

٧٩ — جمع وتفريق :

هست خطش فراز عالم رو   آن يكى ابر ، واين يكى گلزار

---

(١) أنظر ترجمتى « للتـاريخ الجديد : New History » ص ٣٩٥ . وذكر أننى سمعت أن هذا البيت قاله أصلا أحد غلاة الشيعة فى الحسين بن على رضى الله عنه .

٨٠ — تقسيم وتفريق :

غم دو چيز مرا دو چيز سپرد   ديده را آب ، وسينه را زنگار

٨١ و ٨٢ — جمع وتفريق وتقسيم :

همچو چشم توانگر است لبش   آن باشك ، واين بلولوى شهوار

آب آن تيره ، آب اين روشن   آن اين گريه ، وآن او گفتار

ومعنى هذه الأبيات :

— وطرتها عاشقة لشفتها ، كما انا عاشق لها

ومن أجل ذلك فهى مثلى ، لاتعرف الهدوء ولا الاستقرار

— ورائحة طرتها شبيهة بنسيم الصباح ،

غير أن نسيم الصباح لايكون محملا بالعنبر والعبير...!!

— وأنا وطرتها مقلوبان رأساً على غقب ، ولكن طرتها انقلبت على الورد (أى الخدود) وأما أنافقد انقلبت على الأشواك (اى الأحزان) .

— وقد علا الشعر فوق وجهها ، فكان كالسحاب ، وكان وجهها كروضة الورود

— ولقد حزنت على شيئين ، فأعطانى الحزن عليهما شيئين

ففاضت عينى بالماء ، وامتلأ صدرى بصدأ الأحزان . . !

— وأصبحت شفتها غنية مثل عينى ؛

فامتلأت عينى بالدموع ، كما امتلأ ثغرها باللآلىء والدرر الغالية

— واسود ماء عينى ، وصفا بالضياء ماء شفتها

فكان البكاء من نصيب عينى ، وكان الحديث الحلو من نصيب ثغرها ...

والأبيات الأربعة التالية تمثل للصنعة التى تعرف بـ « التفسير » وهى تنقسم إلى قسمين :

(ا) تفسير الجلى .

(ب) تفسير الخفى .

والنوع الثانى من هذين النوعين ممثل فى البيتين التاليين :

٨٣ــ جگر وجان وچشم وچهر منست در غم عشـــق آن بت فرخار
٨٤ــ هم بغم خسته ، هم بتن مهجور هم بخون غرقه ، هم ز زخم افـگار

ومعناها :

(١) (٢) (٣) (٤)
ــ وكبدى وروحى وعينى وطلعتى فى عشق تلك الدمية الجميلة .

(١) (٢) (٣) (٤)
أضناها الحزن ، وفارقت الجسد ، وغرقت فى الدماء ، وأثخنت بالجراح .

أما النوع الأول فمثل فى البيتين التاليين :

٨٥ــ خورد وخوردم بعشق آن ناكام هســت وهســتم ز هجر او ناچار
٨٦ــ او مرا خون ، ومن ورا اندوه او ز من شاد ، ومن ازو غمخوار

ومعناها :

ــ وتجرعتْ . . . وتجرعتُ . . . فى عشقها بغير رغبة أو حيلة .
وكانت ... وكنتُ ... من هجرها عاجز الأسباب والحيلة

ــ فتجرعتْ دمى ، وتجرعتُ الأحزان من أجلها
وكانت مسرورة بفراقى ، وكنتُ محزوناً لفراقها

والبيتان التاليان تمثيل لصنعة « الـكلام الجامع » حينما يحاول الشاعر أن يدخل فى أبياته شيئاً من الحـكمة أو الموعظة أو تجارب الزمان :

٨٧ــ مويم از غم سپيد گشت چو شير دل ز محنت ســياه گشت چو قار
٨٨ــ اين ز عكس بلا كشيد خضاب وان ز راه جفا گرفت غبـــار

ومعناها :

ــ وابيض شعرى ، فأضحى كاللبن الصافى بسبب حزنى عليها
واسود قلبى ، فأمسى كالقار الأسود بسبب محنتى التى أنا فيها

ــ فتخضب هذا بلون البلاء الذى أصابنى
وتغبر ذلك بغبار طريق الجفاء والهجر ... ! !

والصنعة التالية هى « حسن التخلص» أو « حسن المخلص » وهى عبارة عن أن ينتقل الشاعر عند ما يصل إلى بيت الانتقال أو الـ « گريزگاه » فى الغزل أو النسيب إلى مدح ممدوحه أو إلى أى قصد آخر يقصده بحيث يكون انتقاله على وجه مستطاب وطريقة مستملحة :

٨٩ — غم دل گر ببست بازارم مدح شه ميكشايدم بازار

ومعناه :

— وقد أغلقت أحزان قلبي الأسواق فى وجهى ،
ولكن مدحى للمليك يفتح لى الأسواق المقفلة .

والصنعة التالية هى « التزلزل » ويوصف الكلام بها فيقال « المتزلزل » وهى — كما قال جلادوين (ص ٣٢) عبارة عن أن يذكر الشاعر لفظا بحبث إذا غير حركة واحدة من حركات حروفه تحول الكلام من المدح إلى الهجو :

٩٠ — شاه قزل ارسلان كه دست ودلش هست خصمْ شمار وخصمِ شمار

ومعناه :

— والملك هو «قزل أرسلان»[١] الذى يده وقلبه
يحوطان بالأعداء ولا يحوطهما العطاء

والصنعة التالية هى « الإبداع » وهى فى أبواب البلاغة عبارة عن إبداع (أو أداء) معنى جديد من معنى آخر قديم قاله شاعر سابق أو كاتب متقدم بحيث لا يكون بين المعنيين خلاف إلا من ناحية الصياغة ، وهذا قريب جداً من «السرقات الشعرية» ولكنه لا يعاب على قائله ، بل يعتبر دليلا على فضله وتبريزه ؛ وهو فى هذا مخالف لسائر أنواع السرقات الشعرية التى تشمل « الانتحال » و « المسخ » و « السلخ »[٢].

ومن الضرورى أن يكون فى حوزتنا المعنى القديم حتى نستطيع أن نتبين مدى «الإبداع» فى المعنى الجديد ؛ ومن أسف أننى لا أعرف أصل البيت التالى :

---

(١) من أتابكة اذربيجان حكم مابين سنتى ١١٨٥ — ١١٩١ م = ٥٨١ — ٥٨٧ هـ .
(٢) أنظر كتاب « روكرت » ص ١٨٨ — ١٩١ .

٩١ — حزمش آورده باد را بسكون   عزمش افكنده خاك را بمدار

ومعناه :

— وحزمه ... يوقف الرياح ويجعلها فى هدوء وسكون

وعزمه ... يجعل الأرض فىدورة دائمة .

والبيت التالى يمثل صنعة «التعجب» :

٩٢ — جاى دُرّ گر ميانهٔ درياست   ازچه معنيست دست أو دُربار

ومعناه : ،

— ومكان الدر واللآلى كائن فى وسط البحر ،

ولكن ... يا عجباً ... لماذا تمطر يده الدر والجواهر ... ؟! .

والبيت التالى فيه الإجابة على السؤال السابق وهو تمثيل للصنعة المعروفة بـ « حسن التعليل » حيث يفسر الشاعر حقيقة واقعة بعلة خيالية أو شعرية :

٩٣ — رغم دريا كه بخل مى ورزد   او كند مال بر جهان إيثار

ومعناه :

— وبرغم البحر الذى يؤثر البخل ويضن بما فيه ، فإنه يؤثر الدنيا عاله وجزيل عطائه

فهنا نجد أن جود الملك سببه ما يشعر به من كراهية لبخل البحر وشحه ، والبحر فى العادة معروف بكرمه حتى أصبحوا يصفون الكريم بأنه « دريا دست » أى له يد تجود بالعطاء كالبحر .

ومع ذلك فالبيت التالى فى رأيى أجمل فى تمثيل هذه الصنعة من البيت السابق :

حسن ماه را با تو سنجيدم بميزان قياس   پلهٔ مه بر فلك شد ، وتوماندى بر زمين

ومعناه :

— لقد وزنت بميزان القياس حسن القمر مع حسنك ، فشالت كفة القمر وارتفعت إلى السماء ، بينما بقيت كفتك أنت على الأرض

والصنعة التالية هى « الطرد والعكس » وهى عبارة عن تغيير مواضع العبارات فى المصراع الأول وذكرها معكوسة فى المصراع الثانى :

٩٤ — چه شكار است نزد او چه مصاف   چه مصافست پيش او چه شكار

ومعناه :

— وسواء لديه الخروج للصيد أو الخروج لميادين القتال ، وسواء لديه ميادين القتال أو الخروج للقنص والصيد .

والبيتان التاليان تمثيل لصنعة « المكرر » وهى شبيهة بالصناعات التى أسماها « پتنهام » باسم Anadiplosis و Epanalepsis و Epizeuxis وخاصة النوع الأخير الذى من أمثلته قولهم :—

« It was Maryne , Maryne that wrought mine woe »

وقولهم :

« The chiefest staff of mine assured stay
With no small grief is gone, is gone away

وقول « السير والتر رالى » :

« With wisdom's eyes had but blind fortune seene
Then had my love , my love for ever beene. »

٩٥ — بدره بدره دهد بسائل زر دجله دجله كشد بزم عقار
٩٦ — گشته زان بدره بدره بدره خجل برده زان دجله دجله دجله يسار

ومعناها :

— وهو يعطى السائل بدرة بدرة ، ويجلب العقار إلى الحفل دجلة دجلة

— وقد أصبحت كل بدرة خجلة من بدراته . واغتنى دجله من فرط منحه وهباته

والأبيات الأربعة الأخيرة من القيصدة تمثيل للصنعتين اللتين تسميان بـ « حسن الطلب » و « حسن المقطع »

٩٧ — خسروا . . . با زمانه در جنگم كه بغم من گدازدم همـوار
٩٨ — چه بود گر كف تو بر گيرد از ميان من وزمانه غبار
٩٩ — تا عيان است مهر را تابش تانهان است چرخ را أسرار
١٠٠ — روز وشب جز سخا مبادت شغل سال ومه جز طرب مبادت كار

ومعناها :

— أيها المليك ... إننى دائم الكفاح مع الزمان ،
لأنه يذيبنى دائماً فى نار الغموم والأحزان .

— فماذا عليك لو استطاعت يدك القادرة ، أن ترفع ما بينى وبين الزمان من غبار ونقار

— وما دام ضياء الشمس مرئيا للعيان، ومادامت أسرار الفلك خافية عن التقرير والبيان

— فإنى أدعو الله ... ألا يكون لك شاغل طوال الليل والنهار سوى السخاء ، وألا يكون لك عمل تعمله طيلة السنين والشهور غير الطرب والهناء

وقد اشتملت القصيدة السابقة على أكثر أنواع الصناعات البديعية وأهمها ، ولكن هناك أنواعاً أخرى يمكن أن يطلع عليها الباحث المتعمق فيما كتبه «جلادوين» و « روكرت » ويجدر بنا أن نضيف إلى ما ذكرناه الأنواع الآتية :—

١ — التأريخ :

وهو عبارة عن أن يذكر الشاعر أو الكاتب تاريخ حادثة من الحادثات فى عبارة أو مصراع أو بيت بحيث إذا حسبت الحروف التى تتضمنها العبارة أو البيت بحساب «أبجد » أو الجمل خرج لنا التاريخ المذكور .

وربما كان خير أداء بالإنجليزية لمثل فارسى لهذه الصنعة هو ماقام به « هرمان بيكنل » مترجم حافظ حينما ترجم « التأريخ » المشهور الذى يذكر سنة وفاة حافظ فى البيت الآتى :

چودر خاك مصلى ساخت منزل بجو تاريخش از « خاك مصلى »

ومعناه :

— ولما كان قد جعل مقامه فى « أرض المصلى »

فابحث عن تاريخه فى عبارة « خاك[1] مصلى »

خ = ٦٠٠
ا = ١
ك = ٢٠
م = ٤٠
ص = ٩٠
ل = ٣٠
ى = ١٠

المجموع = ٧٩١ أى سنة ٧٩١ هـ = ١٣٨٩ م

(١) المترجم: كلمة « خاك » بالفارسية بمعنى أرض أو تراب و « المصلى » مكان فى شيراز به مدفن حافظ

وصعوبة «التأريخ» فى اللغة الإنجليزية أن سبعة من أحرفها فقط هى التى لها قيمة حسابية وهى الأحرف : X و V و M و L و I و D و C ومع ذلك فقد استطاع « بكنل : Bicknell» أن يتغلب على هذه الصعوبة وأن يؤدى البيت الفارسى بالعبارة الإنجليزية الآتية :ـــ

Thrice take thou from MUSALLA'S EARTH (M + L + L = 1100)
ITS RICHEST GRAIN (I + I + C + I = 103 × 3 = 309)

فإذا طرحنا ٣٠٩ من ١١٠٠ كان الناتج ٧٩١ وهو تاريخ وفاة حافظ[1].

٢ — التلميح

التلميح من أجمل الصناعات البلاغية وأحسنها ، وهو عبارة عن الإشارة إلى قول مأثور أو حكاية مشهورة أو بيت معروف من الشعر

وأمثاله فى الإنجليزية ماورد فى : Ingoldsby Legends حيث يقول :

Such a tower as o poet of no maen calibre
I once knew and loved poor, dear Reginald Heber,
Assigns to oblivion a den for a she - bear.

فالتلميح هنا فى قول « هبر » فى قصيدته « فلسطين » .

« And cold Oblivion midst the ruin laid,
Folds her dank wing beneath the ivy shade »

ومن أجمل أمثلته الفارسية ما ورد فى « بستان » الشيخ سعدى[2] حيث يقول:

چه حاجت كه نه كرسىء آسمان   نهى زير پاى قزل إرســـلان

ومعناه :

— وما الحاجة إلى أن تضع الـكراسى التسع للسموات، تحت أقدام قزل إرسلان .. !!

والتلميح هنا إلى قول « ظهير الفاريابى » :

---

(١) انظر جملة من التأريخات الأوربية فى ص ٢٣ — ٢٥ من كتاب:
Morgan's Macaronic Poetry. ومن أجمل وأبسط هذه التأريخات تسجيل وفاة الملكة اليصابات فى العبارة الإنجليزية الآتية : —
My day is closed in Immortality (MDCIII=A·D 1604).
وكذلك تأريخ وفاة « مارتن لوثر » فى عبارة لاتينية تسجل سنة ١٥٤٦ م

(٢) أنظر ص ٢٨ من طبعة جراف : Graf.

نه كرسى فلك نهاد انديشــه زير پاى   تابوسه بر ركاب قزل إرســلان نهاد

ومعناه : إن الفكر قد وضع تحت أقدامه كراسى الفلك التسعة حتى يقبل ركاب « قزل إرسلان » .

وكان « عبيد الزاكانى » من أشهر شعراء التهكم بين الفرس ، وقد توفى قبل « حافظ » بما يقرب من عشرين سنة . وله فيما نظم « مثنوية » لا زالت تدرس للأطفال فى إيران عنوانها « الفأر والقط : موش وگربه » وهو يصور فيها قطاً عجوزاً يلبس لبوس الصلاح والتقوى ليخدع الفئران ويتمكن من اصطيادها ؛ وقد ذهب الفئران إلى ملكهم يخبرونه إن القط قد تاب وأناب واشتغل بالتقوى والصلاح.

مژدگانا . . . كه گربه زاهد شد   عابد ومؤمن ومسلمانا . . . ! !

ومعناه :

— البشرى البشرى ... لقد تاب القط وأصبح زاهداً
عابداً . . . مؤمناً . . . مسلما . . . ! !

وقد اشتهرت هذه القصة بحيث أضحت عبارة « گربه زاهد شد » أى « لقد تاب القط وأصبح زاهداً » من العبارات التى يشيرون بها إلى كل أثيم زنيم يتظاهر بالتقوى والصلاح ليخدع من حوله ويستطيع جمع ما يشتهيه من مكاسب ومغانم ؛ ولقد لمح « حافظ » إلى هذا القول فى بيته المشهور :

أى كبك خوش خرام .. !! كجا ميروى .. ؟ بايست .. !
غـره مشو كه « گربهٔ عابد » نماز كرد ! !

ومعناه :

— فيا أيتها القطاة التى تختال فى مشيتها ... إلى أين تذهبين . .
قفى . . ولا تنخدعى إذا أصبح قط العابد بين المصلين[1] . . !!

صعوبة استعمال التلميح فى الأشعار الإسلامية :

والتلميحات من أصعب المسائل التى يصادفها الباحث الأوربى الذى يشتغل بآداب

(١) المترجم : أنظر الغزل ١١١ من « أغانى شيراز » .

اللغات الفارسية أو العربية أو التركية أو الإسلامية على العموم . ذلك لأن الثقافة التاريخية أو الأدبية التي يشترك فيها المتعلمون في البلاد الإسلامية ، تختلف تمام الاختلاف عن مثيلتها لدى الأوروبيين والأمم المسيحية . وقد نتج عن ذلك أن التلميح مثلا إلى آية قرآنية يكون ظاهر الدلالة والوضوح للرجل المسلم المتعلم ، بينما يتكلف القارىء المسيحي جهداً كبيراً للتحقق من مصدره والوصول إلى دلالته . وأنا أكتفي بمثل واحد لبيان هذه الصعوبة ، ربما كانت قصته منتحلة ولكن دلالته كافية فيما نريد . وخلاصة الخبر أن « الفردوسى » حينما غضب على السلطان « محمود الغزنوى » لعدم تقديره لملحمته الرائعة « الشاهنامه » كتب هجوية لاذعة[1] تركها لدى واحد من أصحابه وأخبره ألا يذيعها إلا بعد فترة من الزمن يتمكن فيها من الذهاب إلى طبرستان والاحتماء بحاكمها «الاصبهبذ شيرزاد[2]» ، فلما ذاعت هذه الهجوية وقرأها السلطان محمود امتلأ غيظاً وحنقاً على قائلها وأرسل إلى أمير طبرستان يطلب إليه تسليم الفردوسى ، وهدده بأنه سيزحف عليه بأفياله ويخرب بلاده ودياره ، ويقتل شعبه ورجاله ، إذا هو امتنع عن إجابته إلى مطلبه ، فلما وصلت الرسالة إلى الأمير اكتفى بأن يكتب على ظهرها الحروف الثلاثة « ا . ل . م . » ثم بعث بها ثانية إلى السلطان محمود . وقد قيل أن السلطان لم يفهم فى البداية قصده من كتابة هذه الأحرف ، ولكن وزراءه ورجال حاشيته تبينوا على الفور مقصده ، وعلموا أنه يشير تلميحا إلى ما أصاب « ابرهه » عند ما اعتمد على أفياله وأراد أن يعتدى على « مكة » فى نفس السنة التى ولد بها النبي (صلى الله عليه وسلم) وهى السنة التى عرفت فيها بعد بسنة الفيل . وقد نزلت فى « أصحاب الفيل » سورة قصيرة هى سورة الفيل وفى مطلعها هذه الأحرف الثلاثة ا . ل . م كما يبدو من آياتها القرآنية الآتية :

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

وقد كان التلميح إلى هذه الآيات القرآنية وافياً بالغرض حتى ليقال أن السلطان محمودا انثنى عن عزمه ورجع عن تهديده ... !!

---

(١) هذه الهجوية موجودة فى مقدمة النسخ المطبوعة من الشاهنامه .

(٢) بعض المصادر تسميه « شهريار بن شرزين » .

ولا شك أن إبداء المهارة فى اقتباس الآيات القرآنية أو التلميح إليها يعتبر من أجمل الصناعات التى يعجب بها المسلمون عامة والتى تحتل مكانة أثيرة فى قلوبهم . وستتهيأ لى الفرصة ثانية للحديث عن هذا الموضوع فى نهاية هذا الفصل .

٣ — التصحيف :

والتصحيف من أجمل الصناعات . وهو عبارة عن تغيير مواضع النقط التى تستعمل فى كثير من حروف الأبجدية العربية ، فإذا تغيرت مواضع هذه النقط وبقى بناء الأحرف على شكلها الأصلى تغير معنى العبارة « المصحفة » تغيراً تاماً . ومن أمثلته ما ورد فى « بستان الشيخ سعدى [1] » .

مرا بوسه گفته بتصحيف ده   كه درويش را توشه از بوسه به

ومعناه :

— إعطنى قبلة « بوسة » مع تصحيفها

فإن الزاد « توشه » خير للدرويش من القبلة « بوسه [2] »

ولا يمكن التمثيل لهذا الضرب من الصناعة إلا باستعمال الحروف العربية ، ولولا ذلك لاستشهدت بقصيدة رائعة أوردها «رشيد الدين» فى كتابه «حدائق السحر [3]» لو صحفت أبياتها لتغير معنى كل منها وانتقل مغزاها من المدح والثناء إلى القدح والهجاء . فمثلا لو أخذنا المصراع الذى يقول فيه :

* هست در أصلت بلندى بى خلاف *

ومعناه :

* والرفعة فى أصلك بلا خلاف *

ثم صحفناه لأصبح المصراع :

---

(١) صفحة ١٦٦ من طبعة جراف.
(٢) المترجم: كلمة « بوسه » فى الفارسية بمعنى قبلة ، وكلمة « توشه » بمعنى زاد أو قوت.
(٣) المترجم : أنظر ص ١٧٠ من ترجمتى العربية لكتاب « حدائق السحر » .

* هست در أصلت پليدى بى خلاف *

ومعناه :

* والضعـــة فى أصلك بلا خلاف *

٤ — الهجو والجواب :

ولقد يبدو فى هذه المرحلة أنه من الواجب علينا أن نتحدث فى إجمال عن الهجو « Satire » والجواب « Parody » .

أما الهجو فقد كان لدى العرب ، منذ جاهليتهم ، من أقوى الأسلحة التى يتزودون بها ، وكان الشعراء يذكرون فى قصائدهم المعروفة باسم « المثالب » كل ما ينسب إلى خصومهم من دواعى الخزى والعار وأسباب الشين والشنار ؛ وربما كانت هجوية « الفردوسى » فى السلطان محمود — وهى التى أشرنا إليها فيما سبق — من أوائل القصائد الفارسية التى قيلت فى الهجاء . وهذه القصيدة لاذعة حقاً ولكنها خالية من عبارات الفحش والإقذاع التى تشوه كثيراً من الهجويات العربية والفارسية على السواء وفيما يلى ترجمة الأبيات الخمسة الأولى من أبياتها :

— ولطالما بذلت فى إكمال الشاهنامه الجهود المضنية والسنين الطويلة
لكى يهبنى الملك نقوده الوفيرة وعطاياه الجليلة

— فلم يعطنى شيئاً إلا الضجر والعناء ، ولم أفز منه بشىء إلا التافه الهباء ... !!

— ولو كان والد الملك من أصل ملكى عزيز
لتوج رأسى بتاج من الذهب الخالص الإبريز ... !!

— ولوكانت أمه سيدة كريمة الأصل عالية القدر ،
لأغرقنى إلىّ ركبى فى ذهب وفضة بغير حصر ... !!

— ولكنه محروم من كل عظمة فى أصله ونجاره
ومن أجل ذلك لم يستطع أن يسمع أسماء العظماء فى أسماره (١) ... !!

(١) المترجم : فيما يلى النص الفارسى لهذه الأبيات نقلا عن تذكرة الشعراء ص ٥٣

ولمن شاء أن يعرف مثلا من أمثلة الفحش الذى يحط من قيمة كثير من الهجويات الفارسية أن يقرأ فى دقة وتمعن مجموعة الهجويات المنظومة التى تبودلت فى العراك الذى نشأ بين الشاعر خاقانى (المتوفى فى سنة ١١٩٩ م = ٥٩٦ هـ) وبين أستاذه ومعلمه « أبى العلاء الگنجوى » وهذه الهجويات منشورة مع ترجمتها فى المقال الممتع الذى نشره « خانيقوف » بعنوان « مقالة عن خاقانى الشاعر(١) الفارسى فى القرن الثانى عشر » ، وفيما يلى الرباعية التى قالها « أبو العلاء » فافتتح بها هذا النزاع المستطير الذى وقع بين الشاعرين ، وهذه الرباعية هينة يسيرة إذا قورنت بما تلاها من منظومات شديدة الفحش ، ومن أجل ذلك فالمقام يسمح لى بترجمتها ، أما نصها الفارسي فكما يلى :

خاقانيا گرچه سخن نيك دانيا ... يك نكته گويمت بشنو رايگانيا
هجو كسى مكن كه ز تو مه بود بسن ... باشد كه پدر بودت تو ندانيا

وأما ترجمتها فكما يلى :

— يا خاقانى . . . إنك ماهر فى صناعة الأشعار والكلام
ولكن دعنى أحدثك بمسألة دقيقة واستمعها منى مجاناً
— حذار أن تهجو بعد اليوم من يكبرك سنا ، فلعله أن يكون أباك وأنت لا تعلم ذلك ! !

أما الهجوية التى يتضمنها البيتان التاليان فربما كانت أفضل أنموذج صادفته للهجويات الفارسية المهذبة التى لا يبلغها اللوم ولا يصيبها التجريح ؛ وهذان البيتان منسوبان للشاعر « كمال بن اسماعيل الأصفهانى » الذى قتله المغول عند غارتهم على

= بسى سال بردم بشهنامه رنج ... كه تا شاه بخشد مرا تاج وگنج
بجز خون دل هيچ چيزم نداد ... لشد حاصل من ازو غير باد
اگر شاهرا شاه بودى پدر ... بسر بر نهادى مرا تاج زر
اگر مادر شاه بانو بدى ... مرا سيم وزر تا بزانو بدى
چو اندر تبارش بزرگى نبود ... نيارست نام بزرگان شنود

(١) أنظر .. Memoire sur Khâcânî. par N. de Khanikof ; Paris. 1865
وهذا المقال منشور أيضاً فى « المجله الآسيوية » عدد أغسطس سنة ١٨٦٤ .

أصفهان فى سنة ١٢٣٧ — ١٣٣٨ م = ٦٣٥ هـ ، ونصهما الفارسى كما يلى :

گر خواجه ز بهر ما بدى گفت ما چهره ز غم نمى خراشيم
ما غير نكوئيش نگوئيم تا هر دو دروغ گفته باشيم

ومعناها :

— إذا كان السيد قد تحدث فى شأنى بالشر وسوء الكلام
فإننى لن ألطم من أجل ذلك الخدود فى حزن واغتمام . . . ! !

— ولن أتحدث فى شأنه إلا بالخير والإحسان
حتى يصبح كل منا مشهوراً بالزور والبهتان . . . ! !

أما « الجواب » فقد يكون « معارضة » لقصيدة أخرى أو مجرد تقليد لها وفى هذه الحالة يسمى « نظيرة » .

وأشهر شعراء المعارضة الذين ظهروا فى إيران هم :

١ — عبيد الزاكانى : الشاعر الساخر الذى توفى حوالى سنة ١٣٧٠م = ٧٧٢هـ وقد نشرت جملة منتخبة من آثاره المنظومة والمنثورة فى مدينة القسطنطينية فى سنة ١٨٨٥ م = ١٣٠٣ هـ .

٢ — أبو إسحاق الشيرازى : ويعرف أيضاً باسم « بسحق الشيرازى » شاعر الأطعمة.

٣ — نظام الدين محمود القارى اليزدى : شاعر الألبسة .

وقد نشرت طائفة منتخبة من آثار الاثنين الأخيرين فى القسطنطينية أيضاً فى سنة ١٣٠٣هـ .

وليس من شك ، أن أول هؤلاء الشعراء كان أكثرهم تفوقا فى فنه بحيث يمكن أن يعتبر أكبر شعراء التهكم بين الفرس . وقد امتاز بعلو كعبه فى النثر والشعر ، وسيتسع المجال للحديث عنه فى تفصيل عندما نصل إلى الحديث على العصر الذى عاش فيه .

* * *

التشبيهات والاستعارات تسودها روح المحافظة :

والحديث عن البلاغة لدى المسلمين يطول ويتشعب ويتسع لأكثر مما أوردته فيما سبق من صفحات ، ولكن المجال يمنعني من أن أضيف إليه شيئاً الآن . وربما كان من الخير أن أرجع القارىء الذى يرغب فى مزيد من الإيضاح إلى الكتب التى كتبها فى هذا الموضوع « جلادوين » و « روكرت » و « جب » و « بلوخمان » وإلى كتاب المسلمين أنفسهم الذين ألفوا كثيراً فى مثل هذه الموضوعات .

ومع ذلك أرى لزاما علىّ أن أتحدث باختصار عن كتاب كبير الفائدة لكل مشتغل بالشعر الغزلى لدى الفرس وأقصد به كتاب « أنيس العشاق » تأليف « شرف الدين رامى » الذى عاش فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر الميلادى (= القرن الثامن الهجرى) وموضوع هذا الكتاب يقتصر على الحديث على التشبيهات التى يستعملها الكتاب فى وصف قسمات المعشوق ومعالم حسنه وقدترجمه إلى الفرنسية وعلق عليه الأستاذ « كليمان اوبار : Clement Huart » أستاذ اللغة الفارسية فى مدرسة اللغات الشرقية الحية وطبعه ، فى باريس سنة ١٨٧٥ م .

وهذا الكتاب يشتمل على تسعة عشر فصلا يتحدث فيها مؤلفه عن الموضوعات التالية بهذا الترتيب :

الشعر — الجبين — الحواجب — العيون — الأهداب —
الوجه — الصدغ — الخال — الشفاه — الأسنان —
الفم — الذقن — الرقبة — الصدر — السواعد —
الأصابع — القد — الوسط — الأقدام .

ويبدأ المؤلف فى كل فصل من فصول الكتاب بذكر الأسماء المختلفة التى يطلقها العرب والفرس فى تسمية العضو الذى يتحدث عنه ، ثم يفرق بين دلالات هذه التسميات كلما ساعده المجال على ذلك ، ثم ينتقل إلى ذكر الاستعارات التى يستعملها الكتاب والشعراء لهذا الجزء من الجسم ، وما يتصل به من أوصاف ، مراعياً فى ذلك أن يسوق الأمثلة والشواهد الكثيرة من أقوال الشعراء المختلفين .

فالحاجب مثلا يسمى فى الفارسية « ابرو » وهو إما متصل أى مقرون ، أو منفصل أى مفروق ؛ واتصاله يعتبر من دلالات الحسن والجمال ، وشعراء الفرس يستعملون فى الحديث عنه ثلاثة عشر تشبيهاً واستعارة ؛ فهم يصفونه بأنه « الهلال » أو « القوس » أو « قوس قزح » أو « العقـــد المقوس » أو « المحراب » أو « حرف ن » أو « حرف ك » أو « رأس الصولجان المعقوف» أو « الوسم » الذى يسمون به الخيل والماشية لمعرفة أصحابها أو « الطغراء » التى يتوجون بها مراسيم الحسن والجمال . فإذا تحدث المؤلف عن «الشعر» وجدنا أن الاستعارات والتشبيهات التى يجيزها الاستعمال تزيد على هذا العدد بكثير ، وقد ذكر المؤلف أنها تبلغ الستين فى الفارسية ولكن من الجائز أن تزيد على ذلك لأن « الشعر » كما يقولون يتصف بمائة صفة ، أوردها المؤلف فى تفصيل فائق جميل .

الشعر الإسلامى تسوده روح المحافظة .

والمحافظة فى الشعر لاتقتصر على أوزانه وقوافيه وإنما تمتد إلى صميم موضوعاته ، وإلى ما يشتمل عليه من مقابلات وتشبيهات واستعارات ومحسنات بديعية وما إلى ذلك من سائر الأمور التى تعارف عليها المسلمون منذ القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين (الخامس والسادس الهجريين) . وهذا القول ينطبق خاصة على « القصيدة » بمعناها الفنى ؛ ومن هنا نجد أن تقدير الأوروبيين للشاعر الفارسى وعظمته ، يختلف فى أغلب الأحيان عما ينعقد عليه الرأى لدى مواطنيه . ذلك لأن جمال الأفكار وحدها هى التى يمكن المحافظة عليها عند الترجمة ، بينما يختفى جمال الأسلوب مهما كان المترجم ماهراً أو قادراً . ومن هنا نجد أن « عمر الخيام » الذى لايرقى به مواطنوه إلى شعراء الدرجة الثالثة ، قد ذاع صيته فى أوربا أكثر من غيره من شعراء بنى جلدته ، بينما بقى شعراء القصائد مثل «الأنورى» و «الخاقانى» و « ظهير الفاريابى » مجهولين حتى بأسمائهم لدى أهل الغرب ، رغم مافازوا به من تقدير كبير لدى مواطنيهم من الفرس .

أساس النقد فى الموضوع والأسلوب :

وقد جرى شعراء العرب المبكرون الذين عاشوا فى العصر الكلاسيكى ، وأقصد به العصر الجاهلى وعصر النبى والخلفاء الراشدين والعصر الأموى ، على طبيعتهم وسليقتهم فلم يتأثروا بشىء من المؤثرات الخارجية ، وظلوا صورة صادقة للوسط الذى يعيشون فيه بحيث أن الصعوبة التى تقابلها فى فهم أشعارهم ترجع أساساً إلى عدم معرفتنا بهذا الوسط ، لا إلى ما تشتمل عليه أشعارهم من تشبيهات بعيدة أو استعارات خيالية خافية ؛ لأن هذه الأشعار فى الحقيقة سليمة التعبير ، تفيض على طبيعتها دون أن يفسدها عامل من عوامل التأثير والتعقيد .

ولو رجعنا إلى « العصر الأموى » لوجدنا أن قواعد النقد كانت تبنى على الأفكار والمعانى التى تشتمل عليها المنظومات لا على صياغتها وأسلوبها ، ويبدو لنا ذلك واضحاً من القصة المروية فى الكتاب الممتع الذى ألفه « الفخرى[1] » فى التاريخ وخلاصتها أن عبد الملك (الخليفة الأموى الذى حكم من سنة ٦٨٥—٧٠٥م = ٦٦ — ٨٦ هـ) التفت يوما إلى جلسائه فسألهم : ما تقولون فى قول القائل :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت   فوا حربا ممن يهيم بها بعدى

قالوا : « معنى حسن »

قال : « هذا ميت كثير الفضول . . . ! ليس هذا معنى جيداً . . . »

قالوا : « صدقت »

قال : « فكيف كان ينبغى أن يقول . . ؟ »

فقال رجل منهم : كان ينبغى أن يقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت   أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

قال عبد الملك : « ما أحسنت . . . ! ! »

قالوا : « فكيف ينبغى أن يكون . . ؟ »

قال : « كان ينبغى أن يقول :

---

(١) المترجم : أنظر ص ١١٤ من كتاب « الفخرى » فى « الآداب السلطانية والدول الإسلامية » طبع مطبعة المعارف بمصر سنة ١٩٢٣ .

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت … فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

قالوا : « أنت يا أمير المؤمنين أشعر الثلاثة . . . ! ! » .

فهذه القصة تدلنا دلالة قاطعة على أن الأمر كله كان وقفاً على الأفكار والمعانى لا على الألفاظ والأساليب .

ابن خلدون ورأيه فى الإسلوب :

والآن ... فلننظر إلى ماقاله أكبر مؤرخى العرب الفيلسوف الشهير «ابن خلدون» (المولود فى تونس سنة ١٣٢٢ م = ٧٢٢ هـ . والمتوفى فى القاهرة سنة ١٤٠٦ م = ٨٠٩ هـ) فهو يقول فى الفصل الثامن والأربعين من مقدمته تحت عنوان « فصل فى أن صناعه النظم والنثر إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى » ما نصه [١] :

« إعلم أن صناعة الكلام نظما ونثراً إنماهى فى الألفاظ لا فى المعانى ، وإنما المعانى تبع لها وهى أصل . فالصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر إنما يحاولها فى الألفاظ ، بحفظ أمثالها من كلام العرب ليكثر استعماله وجريه على لسانه ، حتى تستقر له الملكة فى لسان مضر ، ويتخلص من العجمة التى ربى عليها فى جيله ، ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ فى جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبى حتى يصير كأنه واحد منهم فى لسانهم ؛ وذلك أنا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات فى النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل له . والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، وأما المعانى فهى فى الضمائر . وأيضاً فالمعانى موجودة عند كل واحد وفى طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا تحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه ، وهو بمثابه القوالب للمعانى ؛ فكما أن الأوانى التى يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد فى نفسه ، وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء ؛ كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات

---

(١) المترجم : أوردت الأصل نقلا عن مقدمة ابن خلدون طبع بيروت سنة ١٩٠٠ م ، ص ٥٧٧ .

الـكلام فى تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد ، والمعانى واحدة فى نفسها ؛ وإنما الجاهل بتأليف الـكلام وأساليبه على مقتضى ملـكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن ، بمثابة المقعد الذى يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه» .

ويستمر « ابن خلدون » بعد ذلك فى دراسة مسهبة لهذه الأساليب التى نصوغ فيها أفـكارنا فنكتسب بها بهجة وجمالا ، ثم ينصح القارىء بأن يحتذى فى عبارته أساليب الشعراء الجاهليين من العرب ، وكذلك أساليب « أبى تمام » الشاعر الذى جمع ديوان الحماسة وتوفى فى منتصف القرن التاسع الميلادى (= منتصف الثالث الهجرى) و « كلثوم بن عمر العتابى » الذى نشأ على عهد « هارون الرشيد » و « ابن المعتز » الذى تولى الخلافة يوماً واحداً انتهى بمقتله فى سـنة ٩٠٨ م = ٢٩٦ هـ . و«ابى نواس» شاعر الرشيد المعروف بالعبث والدعابة و« الشريف الرضى» المتوفى سنة ١٠١٥ م = ٤٠٦ هـ . و « عبد الله ابن المقفع » المجوسى الأصل الذى قتل فى سنة ٧٦٠م=١٤٣ هـ . و«سهل بن هارون» المتوفى سنة ٨٦٠م=٢٤٦ هـ . و « وابن الزيات» الوزير الذى قتل فى سنة ٨٤٧ م = ٢٣٣ هـ . و« بديع الزمان الهمذانى » مؤلف المقامات المتوفى سنة ١٠٠٨م = ٣٩٩ هـ . و« الصابى » مؤرخ الدولة البويهية المتوفى سنة ١٠٥٦م = ٤٤٨ هـ .

ثم يستمر « ابن خلدون » فيقول إن الذى يحذو حذو هؤلاء ويحفظ مؤلفاتهم لابد بالغ بأسلوبه أجمل المراتب ، وسيبرز بغير شك عمن يحتذى حذو كتاب القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين (= السادس والسابع الهجريين) من أمثال « ابن سهل » و« ابن النبيه » و « البيصانى» و«عماد الدين الكاتب الأصفهانى». ثم يأخذ « ابن خلدون» بعد ذلك فى تعريف «الشعر» وفقاً لما أبداه من آراء فيقول(١) : « الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة به » .

وقبل ذلك بصحيفة تقريباً شبه « ابن خلدون » الناثر أو الشاعر بالمهندس

---

(١) انظر ص ٥٧٣ من مقدمة ابن خلدون طبع بيروت أو ص ٣٣٥ جزء ٣ من طبعة كاترمير فى باريس سنة ١٨٥٨ م .

أو النساج ، لأن حاله شبيهة بحالهما فى وجوب احتذاء كل منهم لنموذج أو قالب أو منوال يجعله نصب عينه وغاية أمله ؛ وهو من أجل ذلك يميل إلى اتباع رأى جماعة من النقاد يرون استبعاد « المتنبى » و « أبى العلاء المعرى » من زمرة أساطين العربية لا لشىء إلا لأن كلا منهما كان نسج وحده ولم يتقيد بأساليب العرب التى أقرها الاستعمال الطويل المستمر .

روح المحافظة فى أساليب الشعر والنثر فى الفارسية :

فإذا رجعنا بعد ذلك إلى الفرس — وهم تلاميذ العرب المخلصون — وجدنا أن ما ذكرناه فى هذا الصدد عن العرب ينطبق عليهم أيضاً تمام الانطباق . وصاحب كتاب « چهار مقاله[1] » يذكر أن : كاتب الديوان لا يبلغ شأواً عالياً فى صناعته حتى يأخذ بطرف من كل علم ، وحتى يتلقى النكات الرقيقة من أفواه الأساتذة المبرزين ، وحتى يستمع إلى لطائف الحكماء الماهرين ، وحتى يقتبس طرائف الأدباء القادرين» ومن أجل ذلك وجب على كل من يريد التبرز فى الكتابة أن يقرأ فى العربية كلام رب العزة وأخبار المصطفى وآثار الصحابة وأمثال العرب وكتابات « الصاحب إسماعيل ابن عباد » و « الصابى » و « قدامة بن جعفر » و « بديع الزمان الهمذانى » و «الحريرى» وجماعة آخرين من الكتاب ؛ وكذلك أشعار « المتنبى » و«الأبيوردى» و « الغزى » ... وعليه فى الفارسية أن يقرأ «قابوس نامه» الذى ألفه « كيكاوس» حاكم طبرستان من آل زيار فى سنة ١٠٨٢ م = ٤٧٥ هـ . و « الشاهنامه » من نظم الفردوسى وأشعار « الرودكى » و « العنصرى » .

وما زالت المغالاة فى المحافظة واتباع القديم تسيطر على كل الأمور الأدبية المتصلة بإيران دون أن يصيبها شىء من الضعف أو التراخى . ولكن المدرسة الحديثة فى تركيا استطاعت أن تنتصر عليها انتصاراً مؤزراً بفضل المجهودات التى بذلها « ضيا باشا » و « كمال بك » و « شناسى افندى » . وفى الحقيقة ، إن روح المحافظة هذه قد

---

(١) المترجم : انظر ١٣ من «چهار مقاله» طبع ليدن سنة ١٩٠٩م حيث يقول بالفارسية : «أما سخن دبير بدين درجه نرسد تا از هر علم بهرهٔ ندارد ، واز هر أستاد نكتهٔ ياد نگيرد ، واز هر حكيم لطيفهٔ نشنود ، واز هر أديب طرفهٔ اقتباس نكند » .

وقفت حجراً عثرة فى سبيل الخلق والإبداع ، وكانت سبباً فى التكرار الممل فى الموضوعات والأساليب وطرق الأداء ؛ ولكنها من ناحية أخرى كانت العامل الأكبر فى حفظ اللغة الفارسية وحمايتها من التبذل الذى أصاب أحياناً لغتنا الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوروبية بفعل العباقرة الشاردين الذين لم يتقيدوا بمراعاة القديم ولم يظفروا بقسط وافر من الدقة والمران .

التصنع صفة عارضة فى الأساليب الفارسية :

ومن الحق أن نقرر هنا أن الأساليب الفارسية كانت كالأساليب العربية تختلف وفقاً للأزمنة والأمكنة . وقد رأينا أن قواعد النقد التى اتبعها « دولتشاه » فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (أى التاسع الهجرى) تختلف كثيراً عما اتبعه صاحب « چهار مقاله » فى منتصف القرن الثانى عشر (أى السادس الهجرى) بينما نجد أن « ابن خلدون » قد منعه شغفه بالقديم من أن يعجب بالإغراق فى استعمال المحسنات البلاغية التى انتشرت فى كتابات أهل المشرق وكذلك فى كتابات بنى جلدته خلال القرون الثلاثة الأخيرة .

ومع ذلك كله فإننا لا نعدم أن نصادف البساطة واليسر فى كتابات القدماء والمحدثين من الفرس على السواء ، فيما كتبوه من نظم أو نثر على السواء ، فكتاب « الإيقان » وهو من كتب « البابية » الذى كتبه « بهاء الله » حوالى سنة ١٨٥٩م يمتاز بمتانة الأسلوب وقوته حتى ليشبه كتاب « چهار مقاله » الذى ألف من قبله بسبعة قرون ؛ وكذلك المنظومات التى ينظمها الشعراء المعاصرون فى « تعزية الحسين » أو الأغانى الشعبية التى تعرف باسم « التصانيف » كل هذه تبلغ فى سلامتها وعدم تكلفها مبلغ ما قاله « الرودكى » من أشعار جميلة رائعة . بينما نجد أن هذا الأسلوب المتصنع المشحون بالمحسنات البلاغية الذى يعرفه كل من قرأ « أنوار سهيلى » يأخذ فى السيطرة على « الآداب الفارسية » كلما كان رعاتها من أصل تركى أو مغولى ، حتى يبلغ هذا الأسلوب ذروة مداه على أيدى الكتاب والشعراء العثمانيين من أمثال « ويسى » و « نركسى » .

الفصل الثانى

عصر الدولة الغزنوية

منذ بدايته إلى وفاة السلطان محمود الغزنوى

حالة فارس في نهاية القرن العاشر الميلادى[1] :

عند ما أذن القرن العاشر الميلادى (= الرابع الهجرى) بالزوال كانت « البلاد الفارسية » مازالت تابعة إسمياً للخلافة فى بغداد ؛ وكان الخليفة فى ذلك الوقت هو « القادر بالله » وقد طالت مدة خلافته من سنة ٩٩١م إلى ١٠٣١ م (= ٣٨١ إلى ٤٢٢ هـ) . ولكن « البلاد الفارسية » فى الحقيقة كانت مقسمة فى هذه الفترة بين « السامانيين » وعاصمتهم فى « بخارى » وبين الديالمة من « آل بويه » الذين تسلطوا على الأقاليم الجنوبيـة والجنوبية الغربية وأصبح لهم الحكم المطلق فى بغـداد والسيطرة الفعلية على الخليفة بحيث أضحى فى الواقع آلة فى أيديهم يحركونها كيف يشاءون . يضـاف إلى هاتين الدولتـين إمارتان صغيرتان حكمتا على التتابع فى « طبرستان[2] » و « كردستان » وهما « آل زيار » و « آل حَسْنَويه » . والظاهر أن هذه الدول جميعها كانت من أصل إيرانى (فارسى أو كردى) والظاهر أيضاً أن حكامهم جميعاً لم يلقبوا بألقاب « السلاطين » وظل الواحد منهم يلقب بلقب « الأمير » أو « الإصفهبذ » أو « الملك » وفى هذا دلالة كبيرة على أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أمراء على الولايات أو حكاماً على الأقاليم لا تبلغ مرتبتهم مرتبة السلاطين .

---

(١) أى نهاية القرن الرابع الهجرى .

(٢) طبرستان القديمة تشمل حاليا مازندران وگيلان أى الإقليم الواقع جنوب بحر قزوين إلى جبال «البرز» .

وقد عاصر « البيرونى » هذه الدول التى نتحدث عنها واستطاع أن يذكر لنا فى تفصيل أصل الدول الثلاث الهامة منها[١]. فذكر أن «البويهيين» ينتسبون إلى الملك الساسانى « بهرام گور » ولكنه شك فى هذا النسب بعض الشك ، وقال إن بعض الناس يرجعونهم إلى أصل عربى ؛ ومع ذلك فانتسابهم إلى بيت الملك الساسانى أو عدم انتسابهم إليه لا يدعو إلى الشك مطلقاً فى جنسيتهم الفارسية الواضحة .

أما « آل سامان » فقد ذكر « البيرونى » عنهم إن الإجماع ينعقد على صحة نسبهم إلى « بهرام چوبين » الذى كان مرزبانا على بعض ولايات فارس أثناء حكم الملك الساسانى « خسرو پرويز » من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٢٧ م .

فلما تحدث عن « الزياريين » أرجع نسبهم إلى الملك الساسانى « قباذ » من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٥٣١ م . ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن شكوك « البيرونى» فى نسب بعض هذه الدويلات وتأكيداته فى نسب بعضها الآخر ، ربما كان مرجعه إلى بعض العوامل السياسية التى أملت عليه دائما أن يثبت لنا نبل الأصل الذى انتسب إليه مولاه الكريم وصاحب نعمته « قابوس بن وشمگير الزيارى » الملقب بـ « شمس المعالى قابوس » ؛ وربما كانت هذه العوامل السياسية نفسها هى التى أوحت إليه أن يرضى مولاه بالدأب فى الطعن فى نسب « آل بويه » . ويؤكد لنا صحة هذا الرأى ما ورد فى جزء آخر من كتابه[٢] ذكر فيه «البيرونى » أن البويهيين حقيقون بكثير من اللوم والتعنيف لإغداقهم الألقاب الفخمة على وزرائهم ، وأن هذه الألقاب ماهى إلا أكذوبة كبرى من أكاذيبهم الكثيرة ؛ فإذا انتهى من ذلك مدح مولاه « شمس المعالى قابوس » وذكر أنه لم يختر لنفسه إلا لقباً بسيطاً لا يتجاوز معناه ما اتصف به من صفات عالية رفيعة .

منزلة الأدب فى خراسان وطبرستان وجنوب فارس :

كان مقر السامانيين فى « خراسان » وكانت هذه الولاية فى ذلك الوقت أكثر

---

(١) أنظر « الآثار الباقية » وكذلك ص ٤٤ — ٤٨ من ترجمة «سخاو» لهذا الكتاب .
(٢) أنظر ص ١٣١ من ترجمة « سخاو » للآثار الباقية .

اتساعاً من الولاية التى تعرف بهذا الاسم حالياً ، لاشتمالها إذ ذاك على الأقاليم الواسعة من « آسيا الوسطى » ؛ وقد قلنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب إنها مهد الأدب الفارسى الإسلامى . وقد تحدث « الثعالبى » عنها فى حماس فائق فذكر إنها « مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ، وموسم فضلاء الدهر[١] » . ومع ذلك فلا يجب أن نتصور أنها فاقت الأقاليم الجنوبية من إيران فى الأدب والعلم وعلى الخصوص إقليم « فارس » لأن هذا الإقليم هو فى الواقع مهد العظمة الفارسية الحقيقية . والثعالبى نفسه يورد لنا بيتين من الشعر قالهما الشاعر « أبو أحمد بن أبى بكر » من أبناء الدولة السامانية الذين عاشوا فى نهاية القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) يتضح منهما أن منزلة « خراسان » كانت تالية لمنزلة العراق فى الفضل والعلم[٢] . بل ما زال يجرى على الألسنة فى إيران بيت تافه من الشعر يصم الخراسانيين بأنهم ماجنون مهرجون[٣] (الدَنگ) .

ورغم ذلك كله ، كان فى « خراسان » بعث اللغة الفارسية الأدبية بعد الفتح الإسلامى ، لأنها كانت أقصى ولايات الخلافة وأكثرها بعداً عن « بغداد » حاضرة « الثقافة الإسلامية » التى ظلت تستعمل اللغة العربية كلغة الأدب المعترف بها فى

---

(١) أنظر ص ٣٣ من الجزء الرابع من يتيمة الدهر — طبع دمشق وكذلك مقالة المستشرق « باربييه دى مينار » فى « المجلة الأسيوية » عدد مارس — ابريل سنة ١٨٥٤ ص ٢٩٣ بعنوان « صورة الأدب فى خراسان وماوراء النهر فى القرن الرابع الهجرى » وعنوانها الفرنسى .
Tableau Litteraire du Khorassan et de la Transoxiane au IVe siècle de l'Hegire.

(٢) المترجم : انظر يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣ ونص البيتين كما يلى :
لا تعجبن من عـراق رأيت له ... بحراً من العلم أو كنزا من الأدب
وأعجب لمن ببلاد الجهل منشاؤه ... إن كان يفرق بين الرأس والذنب
وانظر أيضا مقالة « باربييه دى مينار » التى أشرنا إليها فيما سبق .

(٣) أنظر كتاب « سنة بين الفرس » A Year Amongst the Persians, p. 232
ونصه بالفارسية .
از خـراسان مثل من ... الدنگ مى آيد برون
وكلمة « الدنگ » عند الخراسانيين بمعنى فاسق او فاجر او شرير .

الولايات الممتدة من إسپانيا إلى سمرقند حتى حطم المغول الخلافة فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) .

وكانت « طبرستان » أيضاً من الولايات البعيدة النائية التى استطاعت أن تحتفظ باستقلالها عن خلفاء بغداد وعن حكام السامانيين فى « خراسان » طوال المدة التى حكمها فيها قادتها المعروفون باسم « الإصبهبذ[١] » ثم البيت العلوى الشيعى ثم آل زيار . وكانت تزدهر فيها ثقافة أدبية رفيعة تدل عليها هذه النبذ الكثيرة التى وردت فى أسبق تواريخها الذى ألفه « ابن اسفنديار » فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) . فقد أشار فيه إلى طائفة كبيرة من التأليفات العربية . وكذلك نقل فيه مجموعة من الأشعار العربية التى أنشدها منشدوها فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين) وخاصة أثناء حكم أئمتها الزيديين[٢] (٨٦٤ — ٩٢٨م = ٢٥٠ — ٣١٦ هـ) كما ذكر فيه طائفة من الكتب الفارسية من بينها كتاب أو كتابين فى اللهجة « الطبرية » الخاصة[٣].

---

(١) هولاء ظلوا يحكمون طبرستان فترة طويلة بعد الفتح الإسلامى وزوال ملك سادتهم الساسانيين .

(٢) انظر القسم الأول — الفصل الرابع (ورقه ٤٢ ب وما يليها من المخطوط المحفوظ بإدارة الهند ، وكذلك صحيفة ٤٢ وما يليها من ترجمتى الإنجليزية) وفيه يذكر المولف ملوك طبرستان وأعيانها وأوليـاءها ورجالها المشهورين وكتابها وحكماءها ومنجميها وفلاسفتها وشعراءها ، وقد ذكر من بين شعرائها المشهورين « ابا عمرو » الذى كان يسمى « شاعر طبرستان » حوالى سنة ٨٧٠ م = ٢٥٧ هـ وكذلك « أبا العلاء السروى » و « السيد الأطروش » وقد نسب إلى « السيد أبى الحسين » طائفة من الكتب العربية المشورة ، وأورد أسماء خمسة من أهم مولفاته .

(٣) يذكر ابن اسفنديار طائفة كبيرة من الأشعار التى قيلت باللهجة الطبرية ومن بينها الأشعار التى قالها « خرشيد بن أبى القاسم المامطيرى » و « باربد الجريدى » . ولكن يظهر أن أقدم كتاب فى هده اللهجة هو كتاب « نيكى نامه » الذى أصبح فيما بعد أساساً للكتاب الفارسى « مرزبان نامه » (أنظر كتاب شيفر « مختارات فارسية — مجلد ٢ ص ١٩٥) : Schefer : Chrestomathie Persane, Vol. II, p. 195 وكذلك نقل « ابن اسفنديار » طائفة من الأشعار الطبرية التى قالها « على پيروزه » الملقب بـ « ديواروز » وكان من المعاصرين لعضد الدولة البويهى (منتصف القرن العاشر الميلادى والرابع الهجرى) .

وقد يكون مثارا للحيرة والتساؤل أن نرى أن قدراً قليلا جداً من الأدب الفارسى قد نشأ على أيام « البويهيين » رغم ما نعرفه عنهم من أنهم كانوا فرساً وكانوا شيعة وكانوا من كبار رعاة العلوم والآداب بحيث أضحى من أكثر الأمثلة جريانا على الألسن قولهم : «أبلغ من العبادين» أى من وزيرهم المعروف « الصاحب اسماعيل بن عباد » ومؤرخهم الكبير « الصابى » . فإذا لاحظنا أن جملة الأدب الذى نشأ فى أكنافهم كان عربياً ، لم يمكننا تفسير هذه الظاهرة بأكثر من أنها كانت نتيجة لازمة لعلاقاتهم التى احتفظوا بها مع « بغداد » مقر الخلافة وعاصمة الإسلام . ومع ذلك كله فلن يخامرنا أدنى شك فى أن الشعر الفارسى قد نما وترعرع فى قصور البويهيين كما نما وترعرع عندهم أيضاً الشعر العربى . وقد ذكر « محمد عوفى » وهو أقدم من سجل تراجم شعراء الفرس فى كتابه « لباب الألباب » إسمى شاعرين من الشعراء ، أنشدا الشعر بالفارسية وكانا محلا لرعاية « الصاحب اسماعيل ابن عباد » وهما « منصور بن على الرازى » الملقب بـ « المنطق » و « أبو بكر محمد بن على السرخسى » الملقب بـ «الخسروى» . وقد أخبرنا « عوفى» أن أولهما كان مقربا من « الصاحب » وقد قال فى مدحه القصائد الفارسية . ونقل لنا « عوفى » بعض أمثلتها ومن بينها الأبيات الثلاثة الفارسية التى طلب الصاحب من «بديع الزمان الهمذانى(١)» ترجمتها إلى العربية ليختبر قدرته فى الكتابة والإنشاء عندما قدم إليه وهو فى الثانية عشرة من عمره(٢) .

وأما ثانيهما وهو « الخسروى » فقد قال شعراً عربياً وفارسياً فى مدح الحاكم ازبارى فى طبرستان «شمس المعالى قابوس بن وشمكير» وكذلك فى مدح «الصاحب ابن عباد» . ونجد أيضاً شاعراً ثالثاً هو «قمرى الجرجانى» قد تغنى بأشعاره الفارسية فى مدح هذا الأمير .

السلطان محمود الغزنوى :

أما مجموعة الشعراء والمنشدين الذين كانت تزدان بهم قصور الفاتح العظيم

---

(١) هو مؤلف « المقامات » التى تعتبر كنزاً حاوياً لذخائر اللغة العربية ولا يفضلها إلا مقامات « الحريرى » .

(٢) أنظر « لباب الألباب » ج ٢ ص ١٦ — ١٩ .

السلطان محمود الغزنوى الذى تولى العرش بعد أبيه « سبكتكين » فى سنة ٩٩٨ م = ٣٨٨ هـ . فقد كانت أبعد شهرة وأقوى مكانة من كل من ذكرناه من الشعراء فيما سبق لنا من قول .

وقد ارتفعت الدولة الغزنوية إلى الأوج فى قليل من الزمن بفضل همة «محمود» وحسن قيادته ، ثم أسرعت بعد ذلك إلى حضيض الزوال أمام قوة « السلاجقة » المتزايدة . ويرجع أصلها فى الحقيقة إلى سنة ٩٦٢م = ٣٥١ هـ حينما أسسها عبد تركى اسمه « البتكين » من عبيد السامانيين فى مدينة « غزنه » فى وسط الهضاب الأفغانية المرتفعة . ولكن هذه الدولة لم يتم تكوينها سياسياً إلا بعد أربعة عشر عاما من هذا التاريخ عند ما تولاها « سبكتكين » والد « محمود » وكان هو أيضاً عبداً لمؤسسها الأول « البتكين » . وبذلك نجد أن محموداً الذى عرف فيما بعد بألقاب كثيرة من بينها « بطل الإسلام » و « فاتح الهند » و « محطم الأصنام »و« يمين أمير المؤمنين و « يمين الدولة » لم يكن فى الحقيقة إلا إبناً لعبد كان مملوكا لعبد آخر ؛ وقد استغل « الفردوسى » هذه الحقيقة فى هجائه لمحمود حينما خابت آماله فى الحصول على مكافأة جديرة بما لاقاه من نصب وعناء مدة ثلاثين سنة قضاها فى نظم ملحمته الخالدة «الشاهنامه» فاستطاع فى طرفة عين أن يمحو الشهرة العريضة التى حازها نصير الآداب « محمود الغزنوى » وأن يقلبها إلى أخبث أنواع الشين والشنار ، بحيث إذا جاء « جامى » بعد ذلك بخمسة قرون نجده يقول البيت الآتى مصداقا لهذا المعنى :

گذشت شوكت محمود و در فسانه نماند   جز اين قدر كه ندانست قدر فردوسى

ومعناها :

— لقد مضت شوكة « محمود » وطوتها الأساطير .

ولم يبق منها إلا أنه لم يعرف للفردوسى قدره الكبير . . ! !

ووفقاً للنهج الذى أنتهجناه فى الجزء الأول من هذا الكتاب لن يفوزمنا السلطان «محمود الغزنوى» إلا بإلمامة يسيرة للغاية ؛ وسنقصر جل عنايتنا على هذه الدائرة من النشاط الأدبى العلمى الذى ظهر على أيامه ، والذى استطاع محمود — بواسطة التخويف لاالترغيب — أن يجعل مركزه فى قصره بحيث كانت ترنو إليه الأبصار

وتشخص إليه الأنظار . أما أعماله فتدل على عبقرية حربية وسياسية فائقة . فقد استطاع أن يغلب السامانيين على أمرهم وأن يغزو الهند وينازل الهنود فى اثنتى عشرة معركة فى مدة أربع وعشرين سنة (١٠٠١ — ١٠٢٤ م = ٣٩٢ — ٤١٥ هـ) وأن يزيد حدود مملكته التى ورثها حتى امتدت من بخارى وسمرقند إلى كجرات وقنّوج وشملت فيما شملته أفغانستان وما وراء النهر وخراسان وطبرستان وسجستان وكشمير وجزءاً كبيراً من الولايات الواقعة فى الشمال الغربى من الهند . حتى إذا كانت سنة ١٠٣٠ م = ٤٢١ هـ أدركته الوفاة . وبعد ذلك بسبع سنين انتقل ملكه العريض فعلياً إلى أيدى السلاجقة الأتراك ، ولو أن دولته التى أسسها لم يقض عليها القضاء النهائى إلا فى سنة ١١٨٦ م = ٥٨٢ هـ عندما استولى « ملوك الغور » على آخر ممتلكاتها فى الهند وأوقعوا بها الواقعة القاصمة .

وطالما وصف الكتاب محموداً الغزنوى بأنه كان نصيراً كبيراً للأدب والفنون ، ولكنه فى رأيى أقرب إلى أن يوصف بأنه من كبار « الخاطفين » لرجال الآداب والفنون . وكثيراً ما كان يعاملهم فى النهاية معاملة تنطوى على كثير من الازدراء والامتهان كما يتضح لنا ذلك من قصته التى رويناها عن الفردوسى . ولم يكن بين رجال العلم فى زمانه من يفضل « ابن سينا » و « البيرونى » وقد كان أولهما حكيما فيلسوفا تتلمذ على « ارسطو » و « جالن » وأصبح بذلك أستاذاً للبلاد الأوروبية فى القرون الوسطى ؛ وأما ثانيهما فكان مؤرخا يشار إليه بالبنان . وكان مولد أولهما فى سنة ٩٨٠ م = ٣٧٠ هـ ومولد الثانى قبل ذلك بسبع سنوات تقريباً ؛ وكان الاثنان يعيشان عيشة هانئة[١] مع زمرة منتخبة من رجال العلم والأدب مثل الفيلسوف « أبى سهل المسيحى » والطبيب « أبى الخير الحسن بن الخمار » والرياضى « أبى نصر ابن العرّاق » لدى « مأمون بن مأمون » أمير خوارزم الذى اغتصب محمود أملاكه فى سنة ١٠١٧ م = ٤٠٨ هـ[٢] . ولقد أرسل محمود قبل ذلك إلى « مأمون » خطابا ، أنفذه على يد واحد من أتباعه المسمى « حسين بن على بن ميكائيل » يقول فيه : لقد سمعت أن جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خوارزم مثل فلان

---

(١) أنظر كتاب « چهارمقاله » القصة ٣٥ وكذلك ص ١١٨ — ١٢٤ فى الترجمة الإنجليزية .
(٢) انظر ترجمة « سخاو » لكتاب « الآثار الباقية » ص ٨ .

وفلان وكل واحد منهم قد أصبح نسج وحده وبرز فى علمه ، ومن الواجب عليك أن ترسلهم جميعاً إلى قصرى حتى يتشرفوا بلقائى ، فنحن نرجو أن ننتفع بعلمهم وفنهم ، ونرجو أن يحقق لنا أمير خوارزم هذه الرغبة التى أبديناها . . »

ابن سينا يفر من قبضة محمود :

وكان هذا الخطاب على ظاهره معتدل اللهجة ، ولكنه فى الحقيقة كان مجرد أمر من محمود إلى « مأمون » أن يبعث إليه بمن لديه من رجال العلم والأدب . وقد فهمه « مأمون » على هذا الوجه ، فأرسل يستدعى الرجال الذين وردت اسماؤهم فى سطوره ، فلما حضروا إليه قال لهم : « إن السلطان محموداً رجل قوى وقد جمع الجيوش الجرارة من خراسان والهند ، وهو يحرص على الاستيلاء على العراق (خوارزم) ولست أملك أن أخالف له أمراً أو أعصى له طلباً فما عساكم تقولون فى ذلك ..؟!» فأبدى ثلاثة من الرجال وهم « البيرونى » و « الخمار » و « العراق » رغبتهم فى الذهاب إليه ، مدفوعين فى ذلك بما سمعوه عنه من نخوة وكرم . ولكن «ابن سينا» و « المسيحى » آثرا الرفض واستطاعا بمعونة « مأمون » أن يعملا على الهرب والفرار . فأما « المسيحى » فقد هلك فى عاصفة رملية اجتاحته فى الصحراء ؛ وأما « ابن سينا » فقد استطاع بعد معاناة كثير من الشدائد أن يصل إلى «ابيورد» ثم ارتحل منها إلى « طوس » فـ « نيسابور » حتى وصل فى النهاية إلى «جرجان» وكان يتولاها فى ذلك الوقت رجل العلم والأدب «شمس المعالى قابوس بن وشمكير» (المقتول فى سنة ١٠١٢ م = ٤٠٣ هـ) .

وكان « ابن سينا » أول الرجال الذين طلبهم محمود ، فلما علم هذا الأخير بهربه أمر رجاله أن يصوروا صورته ، وأن يذيعوها فى أنحاء البـــلاد . وفى هذه الأثناء استطاع « ابن سينا » أن يشفى أحد أقارب « قابوس » فاستدعاه هذا الأمير ليعبر له عن إعجابه بحكمته ، فلما مثل بين يديه ، عرف أنه الرجل الذى يرغب فيه «محمود» ولكنه لم يشأ أن يسلمه إليه واستبقاه لديه مكرما مبجلا ، فبقى فى خدمته حتى سافر إلى « الرى » ودخل فى خدمة « علاء الدولة محمد » حتى أصبح وزيراً له .. وقد

تمكن « ابن سينا » طوال هذه الفترة — كما يحدثنا صاحب « چهار مقاله[١] » — من أن يكتب فى الساعات المبكرة من الصباح صفحتين يومياً من كتابه الفلسفى العظيم « الشفاء » .

البيرونى والسلطان محمود الغزنوى:

فإذا رجعنا الآن وهلة قصيرة إلى حياة «البيرونى» فى القصر الغزنوى كما وصفتها الحكاية الثالثة والعشرون من كتاب « چهار مقاله » فإننا نجد أن السلطان محمود الغزنوى جلس يوماً فى مدينته غزنة فى قصره الصيفى ذى الأبواب الأربعة ، وكان يتوسط حديقته ذات الألف شجرة ، فطلب من البيرونى أن يحسب النجوم ويخبره عن الباب الذى سيتخذه مخرجا من القصر ، وأذعن « البيرونى » لأمر مولاه ، وكتب إجابته على ورقة طواها ووضعها تحت وسادته . عند ذلك أمر السلطان بأن يحدثوا فى الحائط ثغرة جديدة لجعلها فى هذه المرة مخرجه من القصر ، ودعا بالورقة التى كتبها البيرونى فلما قرأها اشتدت دهشته لأن « البيرونى » كان قد كتب فيها العبارات التالية : « لن يخرج الملك من هذه الأبواب الأربعة ، ولكنه سيحدث ثغرة فى الحائط الشرقى يدلف منها إلى الخارج » . وكان السلطان محمود يريد أن يهزأ بالبيرونى ، فلما وجد إجابته على هذا النحو غضب غضباً شديداً ، وأمر رجاله فألقوه من فوق السقف ، ولكنهم تلقوه فى شبكة نصبوها فوق الأرض ، ثم أحضروه إلى الملك ثانية فسأله : « هل استطعت أيضاً أن تتنبأ بما حدث لك فى هذه المرة . . . ؟ » فأسرع البيرونى إلى أحد جيوبه وأخرج منه دفتراً قد كتب فيه : « اليوم سيلقى بى من مرتفع ، ولكنى سأصل الأرض سالماً ، ولن يصيب جسدى شيء من السوء . . !! » وكشر الملك عن نابه مرة ثانية ، وأمر رجاله فحبسوه فى القلعة فبقى فى محبسه ستة أشهر حتى استشفع له وزيره « أحمد بن الحسن الميمندى » الذى انتهز فرصة مواتية فقال لمولاه : « إن أبا ريحان البيرونى رجل مسكين حقاً ، فقد تنبأ مرتين بأمور صادقة ، ولكنك بدل أن تخلع عليه الخلع الجميلة قيدته بالقيود والأغلال الثقيلة . . »

---

(١) أنظر الحكاية السابعة والثلاثين .

فقال الملك لوزيره : «إننيأعلم أنهذا الرجل لانظير له إلاابن سينا ، ولـكن تنبؤاته جاءت على غيرمرامى ، والملوك كالأطفال الصغار ، لـكى تنال خيرهم يجب أن تتحدث بما يجول فى خواطرهم ، وكان من الخير له فى ذلك اليوم أن تفشل إحدى نبوءاته ؛ ومع ذلك أصدر أمرك فى الغداة أن يفرجوا عنه ، وأن يمنحوه جواداً مبطهماً ، وأن يخلعوا عليه خلعة غالية ، وأن يعطوه ألف دينار وعبداً وجارية جميلة » .

وبمثل هذهالمـكافأة المتأخرة عنأوانها ، أراد السلطان محمود (كما فعل مثل ذلك تماما مع الفردوسى) أن يكفر عن سيئاته التى ارتـكبها فى ساعة من ساعات الغضب الذى لامبرر له ، وفى ساعة من ساعات الشك الذى لا أساس له .

أبو الفتح البستى :

ومن بين رجال الأدب المعروفين بالمهارة فى الإنشـــاء العربى نظماً ونثراً « أبو الفتح البستى » وقد أخذه « سبكتـكين » والد محمود عندما تم له الاستيلاء على مدينة « بست » وهزيمة حاكمها « بايتوز » . وقد انتقل هذا الـكاتب البارع والشاعر المبدع إلى خدمة السلطان محمود ومات فى بخارى منفياً (١) فى سنة ٤٠٠هـ = ١٠٠٩ م . وقد كان ماهراً فى الصناعات البديعية ، وله قصيدة معروفة يخبرنا « المتنبى » بأنها كانت عالية الشأن فى زمانه يحفظها الناس عن ظهر قلب ، وما زال « المنشدون » ينشدونها إلى الآن فى مقاهى « القاهرة » ومطلعها (٢) :

زيادة المـال فى دنيـاه نقصـان ... وربحه غير محض الخير خسران

ونقل لنا « دولتشاه » من أشعاره العربية الأبيات التالية :

نصحتـكم يا ملوك الأرض لا تدعوا ... كسب المـكارم بالإحسان والجود

---

(١) انظر يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٠٤ — ٢٣١ وكذلك تاريخ اليمينى للعتبى طبع القاهرة سـنة ١٢٨٦ هـ ج ١ ص ٦٧ — ٧٢ مع شرح المنينى ، وكذلك ابن خلـكان ترجمة دى سلين « De Slane » ج ٢ ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) هذه القصيدة مذكورة فى كتاب « خرابات » لضيا بك ج ١ ٢٧١ — ٢٧٣ .

وانفقوا بيضكم والحمر فى شرف لا ينتهى باختلاف البيض والسود
هذى ذخائر « محمود » قد انتهبت ولا انتهـاب لنا فى ذكر محمود

وتاريخ وفاته مذكور فى بيتين من قول « ملك عماد الزوزنى » على هذا النحو :

شيخ عالى قدر مجد الدين أبو الفتح آنكه بود
مقتـداى اهـل فضل وسرور اهـل كلام
چار صد با سى چو از تاريخ احمد در گذشت
در مه شوال رحلت كرد تا دار السـلام

(أى فى شهر شوال سنة ٤٣٠ هجرية) .

رعاة الآداب وكثرتهم :

وقد امتاز هذا الزمان بتقدير الأمراء لرجال الأدب والسعى إلى إرضائهم وخطب ودهم ، فقد كان كل أمير يريد أن يتفوق على أقرانه وخصومه فى كثرة من يحوطه من رجال العلوم والفنون . وكانت المراكز الأدبية فى ذلك الوقت عبارة عن « غزنة » عاصمة السلطان محمود ، و « نيسابور » عاصمة أخيه « أبى المظفر نصر » فى ولاية خراسان ، و « بخارى» إلى أن انتهى أمر السامانيين حوالى سنة ١٠٠٠م = ٣٩١هـ والمدن المختلفة فى جنوب وغرب إيران تحت حكم البويهيين ، وقصور العلويين والزياريين فى ولاية طبرستان ، وقصور ملوك خوارزم الثلاثة المعروفين باسم «مأمون» فى مدينة « خيوه » .

ولقد يستطيع الكاتب أن يكتب بحثاً ممتعاً عن كل واحد من هذه المراكز الأدبية اللامعة ، وسيجد مادتها موزعة فى طيات الكتب ولكنها غزيرة وافية ، وسيجد أخباراً كثيرة عن الشعراء الذين أنشدوا بالعربية فى كتاب «يتيمة الدهر» لأبى منصور الثعالبى وفى ملحق اليتيمة وهو « دمية القصر » للباخرزى الذى لم ينشر حتى الآن[1] ، وسيجد أخباراً كثيرة عن شعراء طبرستان وكتابها فى المقالات التى

(١) المترجم : نشر هذا الكتاب فى مدينة حلب سنة ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م .

نشرها « دورن » عن تاريخ هذه الولاية فى سنة ١٨٥٠ — ١٨٥٨ م فى مدينة « سان بيترسبورج » وكذلك فى التـاريخ القديم الذى ألفه « ابن اسفنديار » ، ونشرت ترجمة مختصرة له فى المجلد الثانى من « سلسلة جب التذكارية » ؛ وسيجد أخباراً كثيرة عن « إصفهان » فى الرسالة التى نشرت مختصرة فى مجلة الجمعية الملكية الأسيوية عدد يوليه وأكتوبرسنة ١٩٠١ م ؛ وسيجد أخباراً كثيرة أخرى فى كتب التاريخ والتراجم العامة وعلى الخصوص كتب «ابن الأثير» و «ابن خلكان» و « العتبى » وغيرهم من الكتاب والمؤلفين .

أبو منصور الثعالبى :

وكان من عادة الشعراء ورجال العلم والأدب فى ذلك الزمان أن يتنقلوا بين القصور المختلفة ، وأن ينظموا القصائد أو يؤلفوا الكتب ويهدوها إلى الأمراء المختلفين . فنجد مثلا أن أبا منصور الثعالبى النيسابورى أهدى كتابه « لطائف المعارف » إلى الصاحب إسماعيل بن عباد (١) وزير فخر الدولة البويهى ؛ وأهدى « المبهج » و « التمثل والمحاضرة » إلى « شمس المعالى قابوس بن وشمكير » ؛ وأهدى «سحر البلاغة » و « فقه اللغة » إلى « الأمير أبى الفضل الميكالى » ؛ وأهدى « النهاية فى الكناية » و « نثر النظم » و « اللطائف والظرائف » إلى «مأمون بن مأمون» أمير خوارزم (٢) .

أبو ريحان البيرونى :

وكذلك فعل أيضاً العلامة الكبير أبو ريحان البيرونى (ولد سنة ٩٧٣م=٣٦٣هـ) فقد قضى الشطر الأول من حياته فى رعاية أمراء خوارزم أو خيوة من أسرة مأمون،

---

(١) أنظر ص ٢ من طبعة « دى يونج » فى ليدن سنة ١٨٦٨ م .

(٢) أنظر مؤلفات الثعالبى فى كتاب «بروكلمان» عن تاريخ الأدب العربى ج١ ص٢٨٤ إلى ٢٨٦ وكذلك فى ص ٩ وما يليها من مقدمة « زوتنبرج » على كتاب « غرر أخبار ملوك الفرس » وهو كتاب قدمه الثعالبى إلى شقيق السلطان محمود المعروف بأبى المظفر نصر .

ثم انتقل إلى قصر شمس المعالى « قابوس بن وشمكير » فى طبرستان ، وهنالك أهدى إليه كتابه « الآثار الباقية » حوالى سنة ١٠٠٠م = ٣٩١هـ ، ثم عاد إلى خوارزم ومنها نقلوه بأمر السلطان محمود إلى أفغانستان حوالى سنة ١٠١٧ م = ٤٠٨ هـ فبقى فى خدمته إلى أن أدركت السلطان محمود منيته فى سنة ١٠٣٠ م = ٤٢١ هـ وبعد ذلك بقليل نشر كتابه الثانى « تحقيق ما للهند من مقوله معقوله أو منقوله ». وقد نشره وترجمه « الدكتور سخاو » وأشار فى مقدمته إلى « أن الباحث الحديث فى أيامنا لو بدأ دراسة اللغات السنسكريتية والهندية وأعانته العلوم والآداب المختلفة على ذلك ؛ لبقى عدداً طويلا من السنين دون أن يتمكن من معرفة تاريخ الهند القديم بمثل الدقة والبراعة اللتين وصل إليهما البيرونى فى تاريخه عن الهند » .

وبعد ذلك بسنتين استطاع « البيرونى » أن ينشر كتابه الذى كتبه بالعربية والفارسية[1] «التفهيم فى صناعة التنجيم» وكتابه « قانون المسعودى » . وقد كتب أول هذين الكتابين للسيدة « ريحانه الخوارزمية » وكتب ثانيهما وأهداه للسلطان «مسعود بن محمود بن سبكتكين» . ثم أهدى بعد ذلك كتابه عن الأحجار الكريمة إلى « مودود بن مسعود[2] » .

مراكز الحضارة الأربعة فى إيران :

بالإضافة إلى « غزنه » كانت توجد فى إيران فى الفترة المبكرة من العصر الغزنوى مراكز أربعة تجتذب إليها رجال العلم والأدب وهى :

١ — قصر الصاحب بن عباد : وزير البويهيين؛ وكان يقيم عادة فى «إصفهان » أو « الرى » .

---

(١) أنظر كتالوج المخطوطات الفارسية جمع «ريو» ص ٤٥١ — ٤٥٢ وقد وصف فيه مخطوطا فارسيا لهذا الكتاب تاريخه ١٢٨٦م = ٦٨٥ هـ

المترجم: طبع الأستاذ جلال همائى النص الفارسى لهذا الكتاب أخيراً فى طهران سنة ١٣١٨ هجرية شمسية ، بعنوان : « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » .

(٢) أنظر قائمة بمؤلفات البيرونى فى كتاب بروكلمان جـ ١ ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .

٢ — قصر السامانيين فى « بخارى » .

٣ — قصر شمس المعالى « قابوس بن وشمكير » فى « طبرستان » على مقربة من بحر قزوين .

٤ — قصر ملوك خوارزم المعروفين باسم « مأمون » فى « خيوه » .

ولكن حدث فى فترة السنوات العشرين الواقعة بين سنتى ٩٩٧ م و ١٠١٧ م = ٣٨٧ — ٤٠٨ ه أن توفى «الصاحب بن عباد » فى سنه ٩٩٧م=٣٨٧ ه ؛ كما زالت الدولة السامانية من الوجود فى سنة ٩٩٩ م = ٣٩٠ ه ؛ ثم قتل بعد ذلك شمس المعالى « قابوس » فى سنة ١٠١٢ م = ٤٠٣ ه على يد جماعة من الأشراف الثائرين ؛ كما قتل أيضا «مأمون الثانى» ملك خوارزم عقب ثورة أعقبها ضم ممتلكاته إلى السلطان محمود فى سنة ١٠١٧ م = ٤٠٨ ه ؛ واستطاع السلطان محمود بواسطة ذلك وبواسطة الفتح والغزو أن يضم إليه رجال الأدب والعلم الذين كانوا يحوطون خصومه من الأمراء الذين ذكرناهم فيما سبق ؛ ومع ذلك لم يكن هو نفسه ليمتاز بما امتاز به هؤلاء الخصوم من ذوق فنى وخصال سليمه وشيم كريمة .

الصاحب بن عباد :

والثعالبي يتحدث فى يتيمته عن الصاحب بن عباد فيقول مايلى(١) :

« ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العلم والأدب ، وجلالة شأنه فى الجود والكرم ، وتفرده لغايات المحاسن ، وجمعه اشتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه . ولكنى أقول هو صدر الشرف ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان ، ومن لاحرج فى مدحه بكل مايمدح به مخلوق ، ولولاه ماقامت للفضل فى دهرنا سوق ... »

ويضيف ابن خلكان إلى ذلك العبارة التالية :

« واجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره ومدحوه بغرر المدائح ... »

---

(١) انظر يتيمة الدهر طبع بيروت ج ٣ ص ٣١ — ٣٢
المترجم : فى النص الذى اوردناه زيادة قليلة .

شمس المعالى قابوس :

أما شمس المعالى « قابوس بن وشمكير » حاكم طبرستان ، فيرجع نسبه إلى « آل قارن » (قارنوند) وهم إحدى الأسر السبع الرفيعة على أيام الساسانيين الذين كان العرب يسمونهم « أهل البيوتات » . والبيرونى يرجع نسبه إلى الملك الساسانى « قباذ » والد « انوشيروان[١] » ويقول « ابن اسفنديار » فى « تاريخ طبرستان » « إن من شاء أن يلمس عظمته ورفعته ، فعليه أن يقرأ ما كتبه عنه « الثعالبى » و« العتبى » فى كتبهما[٢] . وقد جمع « اليزدادى » أقواله وجعلها فى كتاب عنوانه : « قرائن شمس المعالى وكمال البلاغة » وقد نقل « ابن اسفنديار » مايقرب من ثلاثين سطرا من هذا الكتاب وعلق عليها بأن « قابوس » كان مبرزاً فى علوم البلاغة العربية ، ممتازاً فى الشجاعة وأوصاف البطولة ، متفوقا فى الفلسفة والنجوم . وقد كتب بالعربية رسالة عن « الاسطرلاب » أعجب بها كثيراً « أبو اسحاق الصابى » .

وكان « قابوس » يكلف كاتبه « عبد السلام » بمراسلة « الصاحب بن عباد » ووزيره « أبى العباس الغانمى » ؛ وكذلك كان يراسل « أبا نصر العتبى » مؤرخ السلطان محمود ، وقد نقل هذا المؤرخ عنه فى أعجاب شديد رسالة عربية قصيرة من تأليفه فى بيان ما امتاز به كل واحد من الصحابة[٣] .

ومن أسف أن « قابوس » رغم ما امتاز به من نبل الأصل وعلو العقل كان فظاً غليظ القلب كثير الظنون يتعطش فى بعض الأحيان إلى سفك الدماء ، وقد كانت حادثة إعدامه لأحد كتابه الـ« حاجب نعيم » بتهمة الاختلاس هى السبب المباشر والأخير الذى دعا رجاله إلى الثورة عليه وخلعه وقتله . فلما تم لهم ذلك نصبوا فى مكانه ابنه « منوچهر فلك المعالى » وهو الأمير الذى استمد منه الشاعر « منوچهرى » لقبه الشعرى (تخلصه) لرعايته له وتقريبه إياه .

---

(١) انظر الآثار الباقية ترجمة سخاو ص ٤٧ .

(٢) انظر يتيمه الدهر طبع دمشق ج ٣ ص ٢٨٨ وكذلك تاريخ العتبى طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ . ج٢ ص ١٤ — ١٧ وص ١٧٢ — ١٧٨ .

(٣) انظر تاريخ العتبى ج٢ ص ١٧ — ٢٦ .

السلطان محمود ، أخلاقه وألقابه :

أما الحكام الآخرون المعاصرون للسلطان محمود الغزنوى فيكفى أن نذكر منهم أن خليفة بغداد على عهده كان « القادر بالله » ؛ أما الخليفة الفاطمى فى مصر فكان «أباعلى المنصور» فى الثلثين الأولين من الفترة التى تولاها السلطان محمود ، والخليفة « الظاهر » فى الثلث الأخير من أيام حكمه .

والمأثور عن « محمود » أنه أول من تلقب بلقب « سلطان » . ويظهر أيضا كما يستفاد من «تاريخ العتبى[(١)]» أنه تلقب أيضاً بلقب «ظل الله فى أرضه » كمافعل بعد ذلك سلاطين آل عثمان . وكان محمود سنى المذهب يعترف بالسلطة الروحية العليالخليفة بغداد[(٢)] أما ألقابه الكاملة فكانت كما يلى[(٣)] :

« الأمير السيد ، الملك المؤيد ، يمين الدولة ، وأمين الملة ، أبو القاسم محمود بن ناصر الدين أبى منصور سبكتكين ملك الشرق بجانبيه » .

وأشهر وزرائه هو « أبوالقاسم أحمد بن الحسن الميمندى » . وكانوا يلقبونه بـ«شمس الكفاة » وهو الوزير الذى استشفع أكثر من مرة للبيرونى والفردوسى ، وقد مدحه كثير من الشعراء المعاصرين بكثير من القصائد الجميلة .

ويجب علينا عند هذا الحد أن ننصرف عن هذا المجمل الذى استعرضنا فيه صورة إيران السياسية فى هذا الوقت لندرس جملة من الكتاب والشعراء الممتازين الذين عاشوا فيه ، ولن نقصر دراستنا على من استعمل اللغة الفارسية وحدها من هؤلاء ، لأننا لو فعلنا ذلك لظلمنا العبقرية الفارسية كل الظلم ، لأن اللغة العربية ظلت طوال هذا العصر ولمدة القرنين ونصف القرن التالية ، لغة العلم ولغة السياسة والمراسلة والأدب الرفيع ، وعلى ذلك سنبدأ حديثنا عن أشهر كتاب الفرس الذين اتخذوا العربية وسيلة لكتاباتهم ومنشآتهم كلها أو جلها .

---

(١) انظر المرجع السابق ج١ ص٢١ .

(٢) انظر تاريخ ابن الأثير سنة ٤٢٠ هـ فهو يذكر أن محمودا فى نهاية حياته كان يأمر بصلب الإسماعيلية ونفى المعتزلة وبإحراق كتب الفلاسفة والعلماء .

(٣) انظر تاريخ العتبى ج ١ ص ٣١ .

أبو ريحان البيروني :

ومن أشهر هؤلاء على الإطلاق «أبو ريحانى البيرونى » مؤلف الكتب الآتية :

(ا) الآثار الباقية .

(ب) تحقيق ما للهند من مقولة معقولة أو منقولة .

(جـ) التفهيم فى صناعة التنجيم بالفارسية .

وله كتب كثيرة أخرى أغلبها مفقود ، وقد ذكرها جميعا ناشره ومترجمه المستشرق العلامة الدكتور « سخاو» . ولكى يدرك القارىء رأيا منصفاً عادلا عن مكانة البيرونى ومنزلته أجد نفسى مضطراً لدواعى الاختصار إلى أن أحيله إلى المقدمات التى ألحقها الدكتور « سخاو » بترجمته للكتابين الأولين وخاصة ماورد فيهما بالصفحتين السادسة والسابعة من مقدمة الكتاب الثانى . ولا شك أن البيرونى كان رجلا غزير المعرفة ، سمح الأخلاق ، يمتاز بدقة النقد كما نفهمه فى الوقت الحاضر ، وكان كما يقول « سخاو » حريصاً على تحرى الحقيقة ، ذا شخصية فردية عالية مليئة بالشجاعة والإقدام، لا يحجم عن كيل الضربات القاصمة إذا رأى الخير تجتاحه جائحة أو الحق تنزل به نازلة .

وقد ولد البيرونى فى «خوارزم» فى سبتمبرسنة ٩٧٣ م=٣٦٣ هـ ومن المحتمل أنه مات فى مدينة « غزنه » فى ديسمبر سنة ١٠٤٨ م = ٤٤٠ هـ .

ابن سينا :

رجل آخر من كبار الكتاب والمفكرين الفرس الذين عاشوا فى هذا العصر هو « ابن سينا » . وقد تحدثنا عنه بعض الحديث فما سبق من صفحات ، وقلنا إنه تتلمذ فى الفلسفة على تعاليم « أرسطو » كما تتلمذ فى الطب على تعاليم « بقراط » و « جالن » . ولم يقتصر تأثيره فى العصور الوسطى على الفكر الأسيوى بل تعداه إلى الفكر الأوروبى فأثر فيه أبلغ الأثر . ولو أننى حاولت أن أدرس نطاق فلسفته ومدى تجاريبه الطبية فى كتابى هذا لضاقت صفحاته عن استيعابها . وقد ذكر «بروكلمان»

فى كتابه «تاريخ الآداب العربية» (جـ ١ ص ٤٥٢ — ٤٥٨) جملة من مؤلفاته تبلغ المائة، قد عالجت شتى الموضوعات مابين فقه وفلسفة ونجوم وطب وعلوم مختلفة أخرى. ولا شك أن أشهر كتبه كتابان هما :

(ا) الشفاء : وهو يتعلق بعلوم الطبيعة وما وراء الطبيعة والرياضيات.

(ب) القانون : وهو يتعلق بالطب.

وأول هذين الكتابين يقع فى ثمانية عشر جزءاً [١].

ولمن شاء من القراء أن يعرف شيئاً عن حياة «ابن سينا» أن يرجع إلى ما كتبه عنه «ابن خلكان» فى «وفياته» وكذلك إلى ما كتبه «بروكلمان» فى كتابه الذى سبق ذكره، وكذلك فيما كتبه «الشهرستانى» فى كتابه «الملل والنحل» إما فى أصله العربى أو فى الترجمة الألمانية التى قام بها «هاربروكر [٢]» أوفيما كتبه عنه البارون «كارا دى ڤو [٣]».

وقد ولد «ابن سينا» فى مدينة «بخارى» فى سنة ٩٨٠م = ٣٧٠ هـ ومات فى «همدان» أو «أصفهان» فى سنة ١٠٣٧ م = ٤٢٩ هـ.

ويقول «ابن خلكان» : إنه «لما بلغ السنة العاشرة من عمره كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة ... الخ» ثم درس مع «الناتلى» الطبيب علوم المنطق ويوقليد والماجسطى، ودرس مع «إسماعيل الفقيه» الفقه والتصوف، وتخصص بعد ذلك فىفلسفة الطبيعة والحكمة وسائر العلوم الأخرى بما فيها الطب الذى درسه على يد الطبيب المسيحى

---

(١) المترجم : نشر الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور أجزاء من هذين الكتابين. كما نشر الأب جورج قنواتى بتكليف من جامعة الدول العربية بمناسبة العيد الألفى لابن سينا ثبتا بمؤلفاته بعنوان «مؤلفات ابن سينا» طبع القاهرة سنة ١٩٥٠، ونشرت جامعة الدول العربية أيضاً «الكتاب الذهبى للمهرجان الألفى لذكرى ابن سينا فى بغداد» سنة ١٩٥٢

(٢) كتابته بالحروف الرومانية : (Haarbrocker)

(٣) إسم الكتاب الأصلى: Avicenne: by Carra de Vaux. Paris. 1900.

« عيسى بن يحي » . فلما بلغ السابعة عشرة من عمره طبقت شهرته الآفاق فى الطب حتى استدعوه لمداواة الأمير « نوح بن منصور السامانى » وقد نجح فى معالجته نجاحاً تاماً ، فقربه ذلك الأمير ، وأغدق عليه من نعمه ، وسمح له أن يتردد على مكتبته الزاخرة بالمؤلفات ، وقد وصفها ابن سينا فقال إنها مكتبة غنيه بالكتب الكثيرة ؛ وكان بعض هذه الكتب مجهول الإسم لدى كثير من الناس ، كما كان بعضها غير معروف له من قبل ، ولم يصادفه فى غيرها فيما بعد ؛ ومن أسف أن هذه المكتبة احترقت بعد ذلك بقليل من الوقت ، فاتهمه جماعة من أعدائه بأنه أحرقها عامداً حتى يصبح وحده الواعى لما استفاده من كتبها النادرة ومخطوطاتها الفريدة .

وأدركت المنية بعد ذلك والده ، وانهارت الدولة السامانية بالقرب من نهاية القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) فكان ذلك سبباً فى أن يترك ابن سينا مدينة « بخارى » وأن يقصد إلى « خوارزم » . وقد فاز هنالك بتقريب أميرها «مأمون» له ، ولكن الظروف التى سردناها فيما سبق من صفحات ـ نقلا عن كتاب « چهار مقاله » ـ اضطرته كما روينا ، إلى الهرب من « خوارزم » إلى « نسا » و « أبيورد » و « طوس » حتى وصل أخيراً إلى « جرجان » حيث أحسن استقباله « شمس المعالى قابوس بن وشمگير » فنزل عنده مكرماً معززاً ، حتى إذا قتل هذا الأمير ترك ابن سينا « جرجان » وذهب إلى « الرى » و« قزوين » و«همدان» حتى انتهى به المطاف إلى مدينة « أصفهان » حيث التحق بخدمة الأمير البويهى « علاء الدولة ابن كاكويه » . ولقد تعرض أثناء حياته لكثير من الشدائد والمحن ولاحقته الأمراض والعلل ، وقضى فترة فى الحبس والمعتقل ، وكادوا يعدمونه فى وقت من الأوقات ، ولكنه ظل يكافح حتى اغتاله الموت فى النهاية فقضى فريسة لعلة أصابت أمعاءه فى صيف سنة ١٠٣٧م = ٤٢٩ هـ (١) .

---

(١) يرى ابن الأثير فى نهاية حوادث سنة ٤٢٨ هـ أن علاء الدولة كان متهماً فى دينه ، ومن أجل ذلك فقد التحق ابن سينا بخدمته حتى يستطيع أن يكمل مؤلفاته المليئة بالإلحاد دون أن يصيبه شيء من الأذى . فلما أصابت الهزيمة علاء الدولة على أيدى الغزنويين فى سنة ٤٢٥ هـ =

وبالإضافه إلى ما ذكرناه لابن سينا من كتب فلسفية وعلميــة نجد له جملة من الأشعار العربية والفارسية سنتحدث عنها بعد قليل. ونجد له أيضاً قصتين فلسفيتين هما :

(ا) حى بن يقظان :

ويجب ألا نخلط بينها وبين سميتها التى فازت بالشهرة وهى من إنشاء « ابن الطفيل» وقد طبعت فى أكسفورد فى سنة ١٦٧١ وسنة ١٧٠٠م . وترجمها إلى اللاتينية « پوكوك[١]» . [طبعت مراراً فى القاهرة]

(ب) سلامان وأبسال :

وقد جعلها الشاعر «جامى» فيما بعد موضوعاً لإحدى منظوماته وطبعها « فولكنر[٢]» فى سنة ١٨٥٠ م وترجمها « فيتزجرالد[٣]» إلى الإنجليزية ثم نشرها دون أن يلحق بها إسمه وأهداها للمرحوم الأستاذ « كوول[٤]» فى سنة ١٨٥٦ م .

قصائد ابن سينا الفارسية :

وقد استطاع الدكتور « إتيه » بدأبه وصبره على البحث ، أن يجمع من مصادر مختلفة خمس عشرة منظومة من أشعار ابن سينا الفارسية (قوامها اثنتا عشرة رباعية ومقطوعة واحدة من بيتين وغزليتان) يبلغ عدد أبياتها جميعاً الأربعين ، وقد نشرها مع ترجمة ألمانية لها فى مجلة « أخبار جوتنجن[٥]» سنة ١٨٧٥ م . ص ٥٥٥-٥٦٧ بعنوان « ابن سينا كشاعر فارسى غنائى » .

= كانت كتب ابن سينا من بين الأسلاب التى حملها الجيش الغزنوى إلى مدينة غزنة ، وقد حفظوها فى مكتباتها حتى أحرقت المدينــة جيوش الملك حسين الغورى الذى لقب بـ « جهان سوز » أى محرق الدنيا .

(١) إسمه بالحروف الرومانية : « Pococke »

(٢) » » » « Falkoner »

(٣) » » » « Fitz Gerald »

(٤) » » » ‘ Cowell ’

(٥) إسميا » » 'Gottinger Nachrichten'.

ويجب أن نلاحظ أن من بين الرباعيات المنسوبة إلى ابن سينا رباعيــة مشهورة ينسبونها عادة إلى «عمر الخيام» وهى الرباعية الثالثة مما نشره « إتيه » والثالثة بعد المائة الثالثة فى الترجمة التى نشرها « هونفليد » لرباعيات الخيام(١).

ونص هذه الرباعية بالفارسية كما يلى(٢):

از جرم حضيض خاك تا اوج زحــل
كردم همه مشكلات گردون را حل
بيرون جستم ز بند هر مكر وحيل
هر بند گشاده شد مگر بند اجل ... !!

ومعناها :

ما بين حضيض الأرض وأوج زحـــل
استطعت حل مشكلات الفلك بغير ثقل
ونجوت بنفسى من أحابيل المـكر والحيل
وحللت كل العقد ، ما عدا عقدة الأجل ... !!

رباعيات الخيام الجائلة :

ومن المسلم به ماهو معروف لدى جميع المهتمين بدراسة الفارسية من أن عدداً من الرباعيات التى تنسب إلى « عمر الخيام » وتشتمل عليها كثير من الطبعات الحديثة للرباعيات ، ينسب فى نفس الوقت إلى شعراء آخرين غير الخيام ، وربما كانت نسبته إلى هؤلاء تستند إلى أسانيد لا يصيبها الوهن أو الخلل ؛ وهذه «الرباعيات الجائلة»

---

(١) اسمه بالحروف الرومانية : Whinfield

(٢) المترجم : أورد براون هنا الترجمــة الإنجليزية لهــذه الرباعية لفتزجرالد ثم ترجــة هونفليد لها ثم الترجمة الألمانية للدكتور إتيه ، وقد رأيت الاستغناء عن هذه الترجمات بذكر الأصل الفارسى وترجمته العربية

قد قام بدراستها « ژوكوفسكى[١] » فى مقالته العلمية الهامة التى أرسلها إلى «المظفرية» ، وهى مجموعة من الدراسات الأدبية الشرقيه نشرت فى سان پيترسبورج سنة ١٨٩٧ م احتفالا بمرور خمس وعشرين سنة على حصول البارون «فون روزن» على الأستاذية فى هذه الدراسات .

وقد كتب « هونفيلد » عن هذه الرباعيات الجائلة ما يلى[٢] :

«وصعوبة أخرى متصلة بماذكرنا ، تعرض لنا عندما نجد أن كثيراً من الرباعيات التى تنسب لعمر الخيام ، تنسب أيضاً إلى غيره من الشعراء . ولقد ذكرت أمثلة قليلة منها فى تعليقاتى ، ولكن البحث الدقيق سيكشف لنا عن جملة أخرى غيرها . وربما يظن بعض الناس أن لغة الرباعيات وما امتازت به من خصائص تكفى وحدها للتفريق بين الأصيل منها وبين ما زيفه غيره من الشعراء بعد قرنين أو ثلاثة من الزمان ؛ ولكنى أذهب مع « چودزكو : Chodzko » فيما ذهب إليه من أن اللغة الفارسية الأدبية التى استعملت منذ ثمانمائة سنة لا تفترق عن مثيلتها التى تستعمل فى الوقت الحاضر إلا فى القليل الطفيف ، ولو صح الفرض وكان شعر الخيام يمتاز بميزات خاصة ، لأمكن القول بأنه يمكن التفريق بينه وبين غيره من الأشعار ؛ ولكن الحقيقة الماثلة هى أن الشعر الفارسى برمته يجرى على طرائق واحدة متماثلة ، ولم يشذ الخيام فى ذلك عن غيره من الشعراء . أما الشعر الثائر على التعاليم الدينية ، وهو ما ينسب عادة إليه ، فيمكن أيضاً العثور عليه فيما كتبه سلفه مثل «ابن سينا» وخلفه مثل «أفضل الدين الكاشى» وغيره من الكتاب اللاحقين له . ومن أجل ذلك فلم أستبعد من ترجمتى أية رباعية نسبوا قولها إلى الخيام وإلى غيره من الشعراء . وما دامت النسخة الخطية التى تقع فى يدى سليمة غير سقيمة فقد جعلت دأبى أن أورد ما بها من رباعيات ، لا لأنى على ثقة من أنها من مقولة الخيام ، ولكن لأن الاحتمال متكافىء فى نسبتها إلى الخيام أو إلى غيره من الناس» .

أما الغزليتان اللتان ضمنهما الدكتور « إتيه » فى مقالته ، فواحدة منهما فى

---

(١) اسمه بالحروف الرومانية « Zbukovski » .

(٢) أنظر ص ١٧ من مقدمة ترجمته الإنجليزية لرباعيات الخيام .

وصف الخمر، والأخرى فى ذكر بعض الحكم والنصائح ، وهما فى رأيى لايدلان على براعة فائقة ، ولا يسلمان من التجريح من حيث صحة نسبتهما إلى ابن سينا ؛ ومن أجل ذلك فإنى أعرض عن ترجمتهما وأحيل القارىء الحريص على المزيد إلى المقالة الممتعة التى كتبها الدكتور « إتيه » فى مجلة « أخبار جوتنجن » (١) .

قصيدة ابن سينا عن الروح :

وأجمل قصائد ابن سينا وأدعاها إلى الإعجاب هى قصيدته العربية المشهورة عن الروح ونصها كما يلى (٢) :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع (٣)
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها فى ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضع

(١) المترجم : فيما يلى بعض مؤلفات ابن سينا باللغة الفارسية : « دا نشنامهٔ علائى » ، « رساله در حقيقت وكيفيت موجودات » ، « معراجنامه » ، « رگ شناسى أو رسالهٔ نبضيه » ، « ظفرنامه » ، « قراضهٔ طبيعيات » ، « كنوز المعزمين » ، « رسالهٔ جوديه » ويشكون فى نسبة الرسائل الأربع الأخيرة إليه .

(٢) هذه القصيدة مذكورة فى كتاب ابن خلكان (طبع وستنفلد ج ١ رقم ٨٩) وكذلك فى خرابات ضيا بك ج ١ ص ٢٨٣ ، وقد اعتمدنا على الكتاب الأخير فى النص الذى نقلناه ، وهو يختلف فى نهايته عن النص المذكور فى ابن خلكان .

(٣) يظهر أن هذا البيت هو الذى أوحى لجلال الدين الرومى ببيته المشهور فى بداية المثنوى ، حيث يقول :

تن ز جان وجان ز تن مستور نيست ليك كس را ديد جان دستور نيست

انظر كتاب « أغنية الناى » للاستاذ پالمر :
Song of the Reed; by E. H. Palmer.

تبكى إذا ذكرت دياراً بالحمى — بمدامع تهمى ولما تقلع
وتظل ساجعة على الدمن التى — درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها — قفص عن الأوج الفسيح الأرفع
حتى إذا قرب المسير إلى الحمى — ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت — ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق — والعلم يرفع كل من لم يرفع
فلأى شىء أهبطت من شاهق — سام إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطها الإله لحكمة — طويت عن الفطن اللبيب الأروع
فهبوطها إن كان ضربة لازب — لتكون سامعة بما لم تسمع
وهى التى قطع الزمان طريقها — حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق بالحمى — ثم انطوى فكأنه لم يلمع

بديع الزمان الهمذانى :

ويجب أن نذكر من كتاب العربية المتازين الذين نشأوا فى إيران ، ذلك العبقرى البارع الذى اخترع ذلك الضرب من الإنشاء الذى يعرف بـ « المقامات » ونقصد به « أبا الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى » الذى اشتهر باسم « بديع الزمان » .

وقد أخبرنا الثعالبى فى يتيمته[١] أنه مات صغير السن فى الأربعين من عمره سنة ٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م والظاهر أنه لم يكن يحب بلدته « همدان » فقد قال فيها بيتيه المعروفين[٢] :

همذان لى بلد أقول بفضله — لكنه من أقبح البلدان
صبيانه فى القبح مثل شيوخه — وشيوخه فى العقل كالصبيان

وقال مثل هذا المعنى مرة أخرى فى بيت ورد بإحدى رسائله[٣] نصه :

---

(١) أنظر « يتيمة الدهر » جـ ٤ ص ١٦٨ .
(٢) أنظر ترجمة (پرستون Preston) للمقامات طبع لندن سنة ١٨٥٠ ص ١٢ — ١٣
(٣) أنظر « يتيمة الدهر » جـ ٤ ص ٢٧٩ .

لا تلمنى على ركاكة عقلى   إذ تيقنت أننى همذانى

وبناء على ذلك نجده فى سنة ٩٩٠ م = ٣٨٠ هـ يغادر بلدته الصغيرة «همدان» ولم يكن له من العمر فى ذلك الوقت أكثر من اثنتين وعشرين سنة ، وقد يمم وجهه فى البداية إلى رجل الآداب ونصيرها « الصاحب اسماعيل بن عباد » . وقد رأينا فيما مضى كيف أخذ «الصاحب» يختبر مقدرته بإعطائه أبياتا فارسية لينقلها على البديهة إلى شعر عربى (١). ثم قصد «بديع الزمان» بعد ذلك إلى «جرجان» وأخذ وفقاً لرواية الثعالبى — يرتاد مجالس « الإسماعيلية » الذين كان عددهم كبيراً فى هذا الإقليم ، حتى فى هذا الوقت المبكر الذى سبق ظهور شيخهم الخطير «الحسن بن الصباح» بما يقرب من قرن من الزمان حين اتخذه مقرا لـ « دعوته الجديدة » .

وفى سنة ٣٨٢ هـ = ٩٩٢ م وصل « بديع الزمان » إلى « نيسابور » فأتم هناك كتابة مقاماته ، وكانت تبلغ الأربعمائة مقامة كما يقول بذلك الثعالبى ، وطاف بعد ذلك بأمهات المدن فى «خراسان» و«سجستان» والإقليم المحيط بغزنه ، ثم انتهى به المطاف إلى مدينة « هرات » حيث استقر بها إلى أن أدركته الوفاة .

وكان بديع الزمان يمتاز بذاكرة حادة عجيبة ، فكان يسمع القصيدة التى تتألف من خمسين بيتا مرة واحدة ، ثم يأخذ فى إعادتها دون أن يتلعثم أو يتردد ، وكان يتصفح الكتاب المنثور بنظرة عاجلة فيحفظ عن ظهر قلب أربعا أو خمسا من صفحاته .

ولطالما أكثر الباحثون من المقارنة بين « بديع الزمان » ومقلده «الحريرى» وقد عقدوا الأبواب فى بيان ميزة كل منهما فى هذا الضرب من الإنشاء الذى امتازا به دون غيرهما . ومن أجل ذلك لانرى بنا حاجة إلى معالجة هذا الموضوع مرة أخرى فى هذا الكتاب ، ونحيل القارىء المتعمق إلى ما كتب بصدده فى مواضع أخرى (٢) .

---

(١) أنظر «يتيمة الدهر » ج ٤ ص ١٦٧ ومنها يبدو أن بديع الزمان كان مغرما بالنقل على البديهة من الفارسية .

(٢) أنظر مثلا ما كتبه « پرستون » فى مقدمته على ترجمة «مقامات الحريرى» ص ١٣ــ ١٤ من المقدمة و١٣ و٢٤ من الأصل .

ومع ذلك كله يجب أن نلفت النظر خاصة إلى قصيدة عربية أنشأها بديع الزمان فى مدح السلطان « محمود » ونقلها العتبى فى « كتاب اليمينى [١] » ومن بينها الأبيات الآتية :

تعالى الله ما شاء وزاد الله إيمانى
أأفريدون فى التا ج أم الإسكندر الثانى
أم الرجعة قد عادت إلينـــا بسليمان
أطلت شمس محمود على أنجم سامان
وأمسى آل بهرام عبيــداً لابن خاقان [٢]
إذا ما ركب الفيــل لحرب أو لميدان
رأت عيناك سـلطاناً على منكب شـيطان
فمن واســطة الهند إلى ساحة جرجان
ومن قاصــية السند إلى أقصى خراســان

مهيار الديلمى :

شاعر فارسى آخر اتخذ العربية لسانا هو « مهيار الديلمى » . وهو جدير منا بعناية خاصة لتلك الحقيقة الممتعة التى تتصل بحياته ، وهى أنه ولد وتربى على الدين « الزردشتى » ثم اعتنق بعد ذلك الإسلام فى سنة ١٠٠٣ م = ٣٩٤ ه على يد شاعر آخر هو « الشريف الرضى » الذى كان نقيباً للعلويين فى بغداد ، وأدركته الوفاة فى سنة ١٠١٥ م = ٤٠٦ ه .

ومهيار الديلمى مثل طيب يثبت لنا أن الديانة الزردشتية كانت تفوز بمكانة عظيمة فى الأقاليم المحيطة ببحر قزوين ، وأن المسلمين كانوا يتسامحون مع معتنقيها ويسمحون

---

(١) أنظر كتاب اليمينى طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ ه . ج ١ ص ٣٨٤ — ٣٨٦ .

(٢) « آل بهرام » أى « السامانيون » لأنهم ينسبون كما رأينا فيما سبق إلى « بهرام چوبين » . و « خاقان » هو لقب ملوك الترك منذ عهد الأساطير المتعلقة بـ « افراسياب » .

هم بأن يشتركوا معهم فى جميع العلوم والآداب التى اتخذت العربية لساناً ووسيلة للأداء .وقد تبدو هذه الحقيقة أكثر وضوحاً فى اطراد استعمال نسبة « المجوسى » إلى كثير من الأسماء الواردة بكثير من الكتب مثل كتاب «دمية القصر» للباخرزى وقد جعله صاحبه ملحقاً لكتاب « يتيمة الدهر » للثعالبى فى تراجم الشعراء .

المجوسى الطبيب :

وأشهر من عرف بـ « المجوسى » هو « على بن العباس المجوسى » طبيب « عضد الدولة البويهى » ومؤلف كتاب « كامل الصناعات » وقدتوفى فى سنة ٩٩٤م = ٣٨٤ هـ ، ووالده هو الذى ترك ديانته القديمة واعتنق الدين الإسلامى . ويحدثنا كتاب «چهار مقاله» فى الحكاية السادسة والثلاثين عن أحد الأدوية التى استعملها ذلك الطبيب الماهر .

* * *

وإلى العصر السابق مباشرة لهذا العصر الذى ندرسه يرجع كتاب «الفهرست» الذى تم تأليفه سنة ٩٨٨ م = ٣٧٨ هـ ، وكتاب « مفاتيح العلوم » الذى تم تأليفه سنة ٩٧٦ م=٣٦٦ هـ ، وقد تحدثنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب عن محتوياتهما حديثاً مستفيضاً .

ويجدر بنا الآن أن نتحدث عن طائفة من كتب التواريخ المحلية التى ظهرت فى هذا العصر ومن بينها :

« تاريخ بخارى » من تأليف « النرشخى » سنة ٩٤٢م = ٣٣١ هـ .

« تاريخ قم » وقد تم تأليفه للصاحب إسماعيل بن عباد حوالى سنة ٩٨٩ م = ٣٧٩ هـ .

« تاريخ أصفهان » من تأليف « المافروخى » .

« تاريخ طبرستان » من تأليف « اليزدادى » .

وقد كتبت هذه الكتب جميعاً فى الأصل باللغة العربية ، ولكن تراجمها الفارسية هى التى بقيت لنا حتى الآن[1] .

ومن بين كتاب الفرس الذين كتبوا بالعربية : المؤرخ « على بن مسكويه » المتوفى سنة ١٠٢٩ م = ٤٢٠ هـ وقد بقيت لنا طائفة قليلة من كتبه .

وقد ذكرنا فيما سبق تاريخ « العتبى » عن السلطان محمود الغزنوى وهو تاريخ انتهى بذكر سنة ١٠١٨ م = ٤٠٩ هـ ، ولو أن مؤلفه عاش إلى سنة ١٠٣٥ م = ٤٢٧ هـ .

كما ذكرنا أيضاً المؤلفات الكثيرة التى ألفها صاحب « يتيمة الدهر » أبومنصور الثعالبى المتوفى سنة ١٠٣٨ م = ٤٣٠ هـ .

أما الكتب المنثورة الفارسية فكانت قليلة العدد قليلة الأهمية ، وقد ذكرنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب جملة المنثورات التى ترجع إلى العصر « السامانى » مثل :

(ا) ترجمة البلعمى لتاريخ الطبرى حوالى سنة ٩٦٤م = ٣٥٣ هـ .

(ب) كتاب الأبنية عن حقائق الأدوية لـ « موفق الدين أبى منصور بن على الهروى » حوالى سنة ٩٧١م = ٣٦١ هـ .

(ج) تفسير فارسى للقرآن فى مخطوطة فريدة بمكتبة كامبردج .

(د) ترجمة البلعمى لتفسير الطبرى حوالى سنة ٩٨١ م = ٣٧١ هـ .

فإذا أضفنا إلى هذه الكتب :

كتاب « دانش نامهٔ علائى » من تأليف ابن سينا لعضد الدولة المتوفى سنة ١٠٤٢ م = ٤٣٤ هـ .

وكتاب « خجسته نامه » للبهرامى .

---

(١) المترجم : هذا الرأى يحتاج الى شىء من التمحيص لأن كتاب « المافروخى » موجود بالعربية ومطبوع فى مصر .

وكتاب «ترجمان البلاغة» للفرخي . وموضوع الكتابين الأخيرين علوم العروض والبلاغة وقد كتبا على وجه التقريب حوالى سنة ١٠٥٨ م = ٤٥٠ هـ ، فإننا نكون بذلك قد استوفينا قائمة الكتب الفارسية المنثورة التى بقيت بين أيدينا ، والتى تم تأليفها حتى منتصف القرن الخامس الهجرى .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن هناك قدراً كافياً من الأدلة يثبت لنا أن أدبا مستقلا باللهجة الطبرية (نسبة إلى طبرستان) كان موجوداً فى ذلك الوقت ، وكان منثوراً كما يدل على ذلك كتاب « مرزبان نامه » ومنظوما كما يدل على ذلك كتاب « نيكى نامه» ..وقد حفظ لنا « تاريخ طبرستان » لابن اسفنديار ، وهو كتاب استمده من كتاب « البزدادى » الذى سبق لنا ذكره ، طائفة كبيرة من أمثلة هذه الأشعار « الطبرية » التى أنشدها جماعة من الشعراء تجاهلهم كتاب التراجم العاديون مثل « الإصبهبذ خورشيد بن أبى القاسم المامطيرى » و «باربَد الجريدى» و «إبراهيم معينى » و « الأستاذ على پيروزه » وهو من المعاصرين للمتنبى والمادحين لعضدالدولة البويهى و « ديوارْوَز مَستمرد » وكان خصما للشاعر الأخير ، ومن أقرب المقربين إلى شمس المعالى « قابوس بن وشمگير » .

شعراء الفارسية :

بعد ذلك يجب أن ننصرف مباشرة إلى دراسة « شعراء الفرس » الذين ازدهرت على أيديهم الآداب الفارسية فى هذا العصر وعلى الخصوص الشعراء الذين ازدهت بهم القصور الغزنوية . ولا شك أن « الفردوسى » بإكماله العمل الجليل الذى بدأه « الدقيقى » المتوفى سنة ٩٧٥ م = ٣٦٥ هـ ، وذلك بنظمه لملحمته الخالدة وتضمينها الأساطير المتعلقة بوطنه ، لا يعتبر أكبر الشعراء فى عصره فحسب ، بل يعتبر من أكبر الشعراء الذين ظهروا فى الوجود حتى الآن ، ولقد قالت بهذا الرأى «مقطوعة» من الشعر الفارسى نصها :

در شعر سه تن پیغمبرانند هرچند که لا نبی بعدی
أوصاف وقصیده وغزل را فردوسی وأنوری وسعدی

ومعناها :

— للشعر ثلاثة أنبياء ، ولو أن الحديث النبوى يقول : «لانبي بعدى »

فأما الوصف فنبيه « الفردوسى » ؛ وأما القصيدة فنبيها « الأنورى » وأما الغزل فنبيه « السعدى » .

ويلى « الفردوسى » فى مكانته ، أصحاب المديح من الشعراء ومنشدو القصائد مثل : « عنصرى » شاعر السلطان محمود ؛ و « أسدى » صاحب الفردوسى ومن أهل بلدته ومخترع شعر المناظرة ؛ و « عسجدى » و « فرخى » و« منوچهرى » وجماعة آخرين من الشعراء لايرقون إلى منزلة هؤلاء من بينهم :

« بهرامى » الذى ألف كتابا مفقوداً فى العروض والشعر اسمه «خجسته نامه »

و « عطاردى » و «رافعى» و « غضائرى الرازى » و «منصورى» و «يمينى» الذى قيل عنه إنه ألف كتابا مفقوداً بالفارسية عن السلطان محمود الغزنوى و«شرف الملك » الذى ينسب إليه كتاب فارسى فى صناعة الكتابة اسمه « كتاب الاستيفا » و « زينتى العلوى المحمودى » والشاعرة « رابعه بنت كلب » التى تنسب إلى بلدة «قسدار» أو «قزدار» وجماعة آخرون كثيرون غير هؤلاء ، نجد أسماءهم وأشعارهم مذكورة فى الفصل التاسع من كتاب « لباب الألباب[1] » تأليف محمد عوفى .

وليس من الممكن أو الضرورى أن ندرس كل هؤلاء فى كتابنا الحاضر ، بل الخير كله فى أن نقصر دراستنا على نخبة مختارة منهم ممن فازوا بالشهرة وحسن الأداء .

وهناك بالإضافة إلى هؤلاء ثلاثة من الشعراء الممتازين الذين ينتسبون إلى هذا العصر وهم يختلفون بعض الشىء عمن سبق لنا ذكرهم وهم :

---

(١) أنظر « لباب الألباب» ج ٢ ص ٢٨ — ٦٧

(ا) الكسائى :

وقد بدأ حياته بقول المدائح ، ثم ندم على ذلك فى نهاية حياته ، لأن خدمة القصور تؤدى إلى الرياء والملق ، وقضى بقية حياته ينظم الأشعار الدينية .

(ب) أبو سعيد بن أبى الخير :

الشاعر الصوفى الذى أنشد الرباعيات .

(ج) بنـدار الرازى :

المنسوب إلى بلدة « الرى » وقد عرف بأنه من أصحاب اللجهات ، كما أنشأ أيضاً بعض أشعاره باللغتين العربية والفارسية .

وهناك شاعر آخر من أصحاب اللجهات ومنشدى الرباعيات وقد عده «إتيه[1]» من شعراء هذا العصر ، معتمداً فى ذلك على أن « رضا قلى خان » فى كتابه «رياض العارفين» قد حدد وفاته بسنة ٤١٠ هـ = ١٠١٩م . ولكنه فى الحقيقة ينتسب إلى إلى العصر السلجوقى المبكر لأن تاريخ السلاجقة المسمى بـ « راحة الصدور[2] » الذى تم تأليفه فى سنة ١٢٠٢م = ٥٩٩هـ يذكر لنا قصة مقابلته لـ « طغرل بك » فى همدان سنة ١٠٥٥ أو ١٠٥٨ م = ٤٤٧ أو ٤٥٠ هـ .

* * *

ولا يفوتنا قبل أن نتحدث عن شعراء السلطان محمود ، أن نذكر أنه هو نفسه

---

(١) أنظر مقالته التى عنوانها « الآداب الفارسية الحديثة » فى المجلد الثانى من « المفصل فى الدراسات اللغوية الإيرانية :

« Grundriss der Iranischen Philologie; p. 223 .

(٢) نسخته الخطية الوحيدة مؤرخة سنة ١٢٣٨م = ٦٣٦هـ . وكانت ملكا للاستاذ «شيفر» وهى الآن بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٣١٤ فى الملحق الفارسى . وقد نشرت وصفاً لها فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية فى سنة ١٩٠٢ م فى الصفحات ٥٦٧ — ٦١٠ و ٨٤٩ — ٨٨٧ .

(المترجم : وقد طبع هذا الكتاب ونشر ضمن مطبوعات سلسلة جب التذكارية) .

كان شاعرا فيما يقولون ، وقد ذكره «عوفى» فى « لباب الألباب » تاليا للأمير التعيس « اسماعيل بن نوح » آخر السامانيين ، وجعله ثانى من وردت أسماؤهم بين الملوك والأمراء الذين أثر عنهم قول الشعر أحيانا . ويذكر «إتيه» أن ست غزليات تنسب إليه ، ولكنه يشك فى صحة الأسانيد التى ذكرت ذلك ، وقد نقل « عوفى » مقطوعتين نسبهما إليه ؛ الأولى منهما من ثلاثة أبيات وهى فى رثاء فتاة اسمها « گلستان» (أى روضة الورد) كان يحبها ويتعلق بها ونصها[1] :

تا تو اى ماه زير خاك شدى   خاك را بر سپهر فضل آمد
دل جزع كرد گفتم أى دل صبر   اين قضا از خداى عدل آمد
آدم از خاك بود خاكى شد   هر كه زو زاد باز اصل آمد

ومعناها :

— منذ نزلت ... أيها القمر ... إلى مرقدك فى طيات التراب .
وقد أصبحت الأرض تعلو رفعةً على الأفلاك والقباب ...!!
— ولقد أحس قلبى بالجزع فقلت له : الصبر .. الصبر
فهذا قضاء الرحمن ، وإليه مرجع الأمر ...!!
— وكان آدم من تراب فصار إلى تراب ،
وسلالته لابد أن تلحق بأصلها عند المآب ... !!

أما المقطوعة الثانية فقوامها ستة أبيات ، وقد قيل إن السلطان محمودا أنشأها عندما أحس بدنو أجله ، وهى قطعة معروفة ومشهورة ، ولكن نسبتها إليه يشك فيها جدا ، وقد روى «دولتشاه[1]» ثلاثة أبيات منها ونسبها إلى السلطان «سنجر» السلجوقى وبذلك أصبح احتمال نسبتها إلى هذا أو ذاك جائزاً تقديراً ومتعادلا فرضاً وتفكيراً ، ونص هذه القطعة كمايلى :

---

(١) أنظر « لباب الألباب » ج ١ ص ٢٣ .
(٢) أنظر «تذكرة الشعراء» ص ٦٧ والأبيات التى ذكرها هى الأول والخامس والسادس مما رواه «لباب الألباب» ج ١ ص ٢٥ .

ز بيم تيغ جها نگير وگرز قلعه گشاى
جهان مسخر من شد چو تن مسخر راى
گهى بعز وبدولت همى نشستيم شاد
گهى ز حرص همى رفتمى ز جاى بجاى
بسى تفاخر كردم كه من كسى هستم
كنون برابر بينم همى أمير وگداى
اگر دو كلهٔ بوسيده بر كشى ز دو گور
سر امير كه داند ز كلهٔ كداى
هزار قلعه گشادم بيك إشارت دست
بسى مصاف شكستم بيك فشردن پاى
چو مرگ تاختن آورد هيچ سود سود نكرد
بقا بقاى خدايست وملك ملك خداى

ومعناها :

— خوفا من سيفى الذى يغزو العالم ، ومن محجنى الذى يفتح القلاع ،
انصاع لى العالم . . . كما انصاع الجسد للعقل وأطاع
— وبقينا وهلة نتمتع فى سرور بالعز والدولة والسلطان ،
وأثارنا الحرص أحيانا ، فأخذنا نتنقل من مكان إلى مكان .
— وكثيراً ما فخرت بأنى رجل الدنيا والدين
فإذا بى الآن أرى الأمير مساويا للسائل المسكين ... !!
— ولو أخذ أحد الناس جمجمتين مهشمتين من قبرين قديمين
وكانت إحداها لأمير والأخرى لفقير ، لما استطاع أن يفرق بين الاثنتين .
— ولقد فتحت كثيراً من القلاع بإشارة واحدة من يدى
وحطمت كثيراً من الجيوش بركلة واحدة من قدمى
— ولكن الموت يهاجمنى الآن ، وليس له من دافع
والله وحده له الملك والبقاء فى كل المواقع .

أما أخلاق السلطان محمود فإن(١) شعراءه ومؤرخيه لا يتحدثون عنها بالطبيعة إلا بكل ثناء يبلغ حد الإغراق والمبالغة . ولكن « ابن الأثير » عندما ذكر خبر وفاته فى سنة ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م أثنى عليه لمهارته وتدينه وتعففه وتقريبه للعلماء والأفاضل ومحاربته لأهل الكفر والإلحاد ، ولكنه عاد فقال إن نقيصة واحدة كانت تشينه هى حبه الجم للمال ، وعدم تحريه الطرق القويمة فى اكتسابه والحصول عليه ، وقد روى عنه الخبر الآتى :

« ولم يكن فيه ما يعاب إلا أنه كان يتوصل إلى أخـــذ الأموال بكل طريق ، فمن ذلك ، أنه بلغه أن إنساناً من نيسابور كثير المال عظيم الغنى ، فأحضره إلى غزنه وقال له : بلغنا أنك قرمطى . . . . . فقـال : لست بقرمطى ولى مال يؤخذ منه ما يراد وأعفى من هذا الاسم . فأخذ منه مالا وكتب معه كتاباً بصحة اعتقاده » .

ومع ذلك فكثير من المسلمين لا يستطيعون أن يجعلوا السلطان محمودا موضعاً لشبهاتهم وشكوكهم ، لأنه كان بطلا من أبطـال الدين ، وسوط عذاب على الكفار والملحدين ، ومحطما لعبادة الأصنام والتماثيل ، وهادماً للخرافات والأباطيل ؛ ولكن لاشك أن «ابن الأثير» استطاع أن يلمس بنظره النافذ نقطة الضعف فى أخلاقه ، وهى الطمع الشديد (ولا شك أن هذا كان سبباً فى دأبه على الغزوات والحروب فى بلاد الهند) وكان بالإضافة إلى ذلك شديد التدين قاسياً على الملاحدة وكفار الهنود ، وقد قتل منهم عدداً كبيراً لا يبلغه العد والإحصاء ، وكان سريع التغير والتبدل لا يثبت على حالة واحدة ، وكان أكثر من ذلك كله غازيا لا يقهر ، ولم يعرف طوال حياته أن يكون صديقاً مخلصا أو عدواً كريما .

وقد ولد فى العاشر من المحرم سنة ٣٥٠ هـ = ١٣ نوفمبر سنة ٩٧٠ م ، ومات فى سنـة ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م وله من العمر ستين سنة ميلادية ، وكان أقرب المقربين إليه غلامه «أياز» وقد روى كتاب الفرس كثيراً من الحكايات عنه ، ولا شك أن شخصيته

---

(١) فيما عدا من أغضبهم من أمثال « الفردوسى » .

تاريخية وحقيقية ، لأن ابن الأثير سجل تاريخ وفاته فى سنة ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م وذكر اسمه الـكامل على هذا النحو : « أياز بن ايماق أبو النجم » .

عنصرى :

وما دمنا قد فرغنا من ذكر السلطان محمود فقد آن لنا أن نتحدث عن شاعره : «العنصرى». وهو شاعر تال فى المرتبة للفردوسى ، ولـكن ذلك لم يمنع من بقاء ذكره السنين الطويلة بعد ما زال مجد الدولة الغزنوية وذهب ضياؤه . ويذكر «نظامى عروضى السمرقندى » فى كتابه «چهار مقاله » البيتين الآتيين مصداقا لهذا القول :

بسا كاخا كه محمودش بنا كرد　　كه از رفعت همى با مه مرا كرد
نه بينى زان همه يك خشت برپاى　　ثناى عنصرى ماندست برجاى

ومعناها :

— ما أكثر القصور التى شيدها « محمود » وأقامها بالبناء
فجعلها فى رفعتها تطاول أقمار السماء

— ولـكنك الآن لن تجد آجرة واحدة منها قائمة فى مكانها
وكل ما بقى هو ما أقامه له «العنصرى» من ثناء ...!!

أما حياة « العنصرى » فلا نـكاد نعرف منها شيئا ، وحتى تاريخ وفاته مختلف فيه تبعاً للمصادر المختلفة التى تجعله بين سنتى ١٠٤٠ و ١٠٥٠ م = ٤٣٢ و ٤٤٢ هـ . و «عوفى» كعادته يكيل له الثناء فى عبارات مملوءة بأنواع الجناس والمحسنات اللفظية ، وكذلك فعل « دولتشاه » فأغرق وبالغ فى الثناء عليه ؛ وقد ذكر كلا الرجلين أن اسمه الـكامل هو : « أبو القاسم حسن بن أحمد » وشهد بذلك أيضاً الشاعر المعاصر «منوچهرى» فأورد اسمه على هذه الصورة فى إحدى قصائده التى سنذكرها مع ترجمتها بعد قليل . وفيما يلى ترجمة ما كتبه « دولتشاه » عن «العنصرى» . قال : «أن مناقبه وعظمته أظهر من الشمس ، وقد كان كبير الشعراء على عهد السلطان محمود الغزنوى ، وله فضائل أخرى بالإضافة إلى ما امتاز به من شاعرية ، فقد كان بعض الناس يلقبه بالحـكيم ويقولون أن اربعمائه شاعر كبير كانوا يلازمون ركاب السلطان يمين الدولة محمود أنار

الله برهانه ، وكان الأستاذ العنصرى رئيساً لهؤلاء الشعراء جميعاً . وكانوا يقرون له بالأستاذية والتبريز . وقد تهيأ له أن يجمع فى مجلس السلطان بين منصب النديم ومنصب الشاعر ؛ وظل يسجل نظما مقامات السلطان وغزواته . وله قصيدة طويلة تبلغ مائة وثمانين بيتاً ، سجل فيها جميع غزوات السلطان وحروبه وفتوحه ، وقد انتهى الأمر بأن منحه السلطان لقب «ملك الشعراء» فى مملكته ، وأمر كل شاعر فى المملكة أن يعرض شعره على الأستاذ العنصرى حتى يميز بين غثه وثمينه ، ثم يعرضه بعد ذلك على السلطان . فأصبح مجلسه كل يوم مقصداً للشعراء ، واجتمع له من ذلك جاه ومال عظيمان[1] . والفردوسى يطريه ويمدحه فى منظومته الشاهنامه وسنذكر ذلك فى مكانه . والله أعلم» .

والعبارة الأخيرة مما قاله «دولتشاه» تنطبق على كثير من الأخبار التى يرويها ، وهى تصلح لكافة الظروف والأحوال ، وإن كانت فى العادة لا تسلم من الخطل وسوء التقدير . والمثل الذى اختاره من أشعاره هو قصيدته التى قالها على طريقة « السؤال والجواب » وهى كافية فى إعطائنا فكرة عن أشعاره عامة ؛ وقد قال « العنصرى » هذه القصيدة فى مدح الأمير « نصر بن سبكتگين » حاكم خراسان وأخى السلطان « محمود الغزنوى[2] » . وفيما يلى ترجمتها دون أن أحاول الاحتفاظ بوحدة القافية فيها كما هى العادة فى القصائد :

---

(١) ليس هناك سبب ظاهر يدعوه الى جمع هذه الثروة ، اللهم إلا إذا كان رضاه موقوفا على أسباب أخرى لا تتصل بجودة الأسلوب وبراعة الفن الشعرى ..!!

(٢) نص هذه القصيدة موجود فى « تذكرة الشعراء » ص ٤٥ — ٤٦ وكذلك فى الورقة الثالثة والرابعة من ديوان العنصرى المطبوع على الحجر فى طهران بدون تاريخ .

المترجم : وفيما يلى نص الأبيات العشرة الأولى من مطلعها :

هر سؤالى كز ان لب سيراب ... دوش كردم مرا بداد جواب
گفتمش جز بشب نشايد ديد ... گفت : پيدا بشب بود مهتاب
گفتم : از توكه برده دارد مهر ... گفت : از توكه برده دارد خواب
گفتم : آن زلف سخت خوشبوست ... گفت : زيرا كه هست عنبر ناب
گفتم آتش بر رخت كه فروخت ... گفت : آن كو دل تو كرد كباب =

ــ كل سؤال وجهته له بالأمس القريب ،
أجابتنى عنه شفتاه النديتان بجواب عجيب

ــ قلت له : ألا تجوز رؤيتك إلا فى الليل الساجى ....
فأجاب : وكذلك تبدو الأقمار فى الليل الداجى ....!!

ــ قلت : من الذى استطاع أن يسلب حبك ...
فأجاب : الذى استطاع أن يسلب النوم من جفنك ....!!

ــ قلت : إن طرتك تفوح بالعبير ازكى
فأجاب : لأنها مجدولة من العنبر الندى ....!!

ــ قلت : ومن الذى أشعل النار فى خدّك...؟!
فأجاب : هو الذى أحرق بالنار صميم قلبك ...؟!

ــ قلت : سوف لا أحول وجهى عن النظر إلى وجهك المستطاب
فأجاب : وهل يستطيع احد أن يتحول عن القبلة والمحراب ...؟!

ــ قلت : إن عشقك قد ابتلانى بالعذاب الدائم
فأجاب : وهذا حال العاشق الهائم ....!!

ــ قلت : وكيف السبيل إلى راحتى من العذاب ...؟
فأجاب : بالنظر إلى طلعة المليك الشاب ....!!

ــ قلت : اتعنى الأمير نصراً ناصر الدين ...؟
فأجاب : نعم فهو مالك لرقاب الملوك أجمعين ... !!

= گفتم : از روى تو تابم روى — گفت : كس روى نتابد از محراب
گفتم : اندر عــذاب عشق تو أم — گفت : عاشق نــكو بود بعذاب
گفتم : از چيست روى راحت من — گفت:هر دم ز روى خسرو شاب
گفتم : آن مير نصر ناصر دين — گفت : آن مالك ملوك رقاب
گفتم : اورا كفــايت أدبست — گفت : كافى ازو شدست آداب
. . . . . . الخ

— قلت : إن له فى الأدب كفاية ....!!

فأجاب : بل وصلت الآداب به إلى نهاية ...!!

— قلت : هل تستطيع أن تلم بأفضاله ...؟

فأجاب : خارجة عن الحساب جلائل أعماله ...!!

— قلت : ومن رسوله إلى الحرب الضروس والقتال الشديد ...؟

فأجاب : السنان من قرب ، والشهاب الثاقب من بعيد ...!!

— قلت : وهل هو لازم للزمان والأحباب ...؟

فأجاب: أكثر من لزوم العمر والشباب ...!!

— قلت : وهل رأيت له مثيلا فى هذه الدنيا أو هذه الرحاب ؟

فأجاب : لا ... ولم أسمع عن مثيله فى كتاب ...!!

— قلت : وماذا تقول عن كفه وجودها ... ؟

فأجاب : البحر سراب إذا قورن بها ...!!

— قلت : وهل يستجيب لأقوال السائلين . . . ؟

فأجاب : ويثيبهم بالنقود والثياب أجمعين ... ! !

— قلت : وبماذا يجزى الأحرار والأحباب ... :

فأجاب : بالجاه والجلال والإيجاب ... ! !

— قلت : وماذا تعرف عن سهامه القاتلة ... ؟

فأجاب : إنها شبيهة بالشهب والصواعق النازلة . . . ! !

— قلت : وماسيفه الغالب ...؟ ومن عدوه الهارب . .؟

فأجاب : الأول لهب واصب ... والثانى زئبق ذائب . . . ! !

— قلت : ومن الخارج عن حكمه المشهود له بالصواب . .؟

فأجاب : إذا وجد أحد ، فأمره زوال وخراب . . . !!

— قلت : إن أعداءه يديمون الكذب عليه والافتراء الزنيم...!!

فأجاب : أكثر من فعل «مسيلمة» الكذاب الأثيم ... !!

- قلت : سأعطيه ملك الإفاق أجمعين
فأجاب : هو جدير بكل ملك مبين . . . !!

— قلت : على من يقع العناء بسبب ما امتاز به من جود . . . ؟ !
فأجاب : على ناسج الأقمشة وضارب النقود . . . ! !

— قلت : إن جوده هو أشرف المذاهب والخصال
فأجاب : وهو هبة له ، اختصه بها الله المتعال . . . !!

— قلت : وكيف يقبض على كل هذا الملك الوسيع . . ؟
فأجاب : بجاهه المنيع وركابه السريع . . . !!

— قلت : سوف لا أسكت عن ترديد مدحه المستطاب . . .
فأجاب : هكذا يفعل أولو النهى والألباب . . .

— قلت : وماذا أطلب له من النعم الإلهية . . ؟
فأجاب : العمر الطويل ، والدولة الفتية . . . ! !

عسجدى :

وشاعرنا التالى ذكراً هو «العسجدى» واسمه أبو نظر عبد العزيز بن منصور ، والمعروف لنا عنه أقل بكثير مما عرفناه عن «العنصرى» . وقد ذكر «دولتشاه» أن ديوانه على أيامه لم يكن يسهل الحصول عليه ، وإن كانت تفاريق من أشعاره قد تضمنتها كتب المختارات ، ثم قال عنه إنه كان من تلاميذ العنصرى ، وجعله من بلدة «هرات» ولكن «عوفى» المتقدم عليه زمنا ، نسبه إلى بلدة «مرو» . وفيما يلى رباعية نسبها «دولتشاه» إليه :

از شرب مدام ولاف مشرب تو به
وز عشق بتان سيم غبغب توبه
دل در هوس گناه وبر لب توبه
زين توبهٔ نا درست يا رب توبه

ومعناها :

من شرب المدام والفخر بالشراب ... أنا اطلب التوبة
ومن عشق الدمى ذات الغبغب الفضى ... أنا اطلب التوبة[١]
والقلب غارق فى المعاصى ، وعلى شفتى كلمة التوبة
فيارب ... أعنّى على هذه التوبة الكاذبة ، وصحح منى التوبة

فرخى :

الفرخى هو أبو الحسن على بن جلوغ السجزى (نسبة إلى سجستان وإن كان دولتشاه يخطىء وينسبه إلى مدينة ترمذ) وهو ثالث الشعراء الذين التقى بهم الفردوسى — كما تقول القصة المشهورة — عند قدومه إلى غزنة . وأخباره معروفة لنا بعض الشىء . والفضل الأكبر فى ذلك راجع إلى الحكاية الطويلة المروية عنه فى كتاب « چهار مقاله[٢] » .

وللفرخى كتاب فى فنون الشعر اسمه « ترجمان البلاغة » وهو كتاب مفقود قد أودى به الزمان فيما نعلم[٣]، وربما استعمله « رشيد الدين الوطواط » فى تأليف كتابه « حدائق السحر » وقد ذكر فيه : « أن الفرخى لدى الفرس بمنزلة المتنبى لدى العرب » .

أما ديوانه فقد ذكر «دولتشاه» : إنه مشهور فيما وراء النهر ولكنه غير معروف فى خراسان » وتوجد منه الآن نسختان خطيتان إحداهما فى « المتحف البريطانى » والأخرى فى « إدارة الهند » . كما توجد منه طبعة على الحجر نشرت فى طهران سنة ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣ م .

وقد جاء فى كتاب « چهار مقاله » إن « جولوغ » والد الفرخى كان ملحقا

---

(١) المترجم : « الغبغب » هو الرقبة الممتلئة وكانت تعتبر من علامات الجمال .
(٢) أنظر الحكاية الخامسة عشرة من هذا الكتاب .
(٣) المترجم : طبع هذا الكتاب آخيراً فى تركيا .

بخدمة الأمير « خلف» من سلالة الصفاريين(١). أما « الفرخى» نفسه فقد استبقاه أحد الدهاقين فى خدمته لبراعته فى قول الشعر والعزف على العود ، ورتب له راتبا سنوياً مكوناً من مائة درهم ومائتى قفيز من القمح ، كل مائة منها تبلغ خمسة أمنان ؛ ثم تزوج «الفرخى» بعد ذلك بإحدى النساء اللائى كن فى قصر « خلف » فلم يكفه مرتبه ، وعلم بذلك الدهقان فزاد له من راتبه حتى أبلغه إلى خمسمائة درهم وثلثمائة من من القمح ، ولكن «الفرخى» لم يقنع بهذا الراتب ويمم وجهه شطر الأمير «أبى المظفر الصاغانى(٢)» لما سمعه عنه من كرم وثراء ، لعله يصيب لدى مولاه الجديد بعض الحظ الذى فاته لدى غيره كما يقول فى قصيدته التى مطلعها :

با كاروان حله برفتم از سيستان   با حلهٔ تنيده ز دل بافته ز جان

ومعناه :

ـــ خرجت من « سجستان » مع قافلة الحلة ، ومعى حلة مطرزة بدماء قلبى منسوجة من أشجان روحى .

فلما بلغ مقصده وجد أن الأمير « أبا المظفر » قد خرج من بلدته إلى بعض المراعى يشاهد فيها رجاله وهم يسمون جياده بالكى فى ميدان الوسم (داغگاه) ، والمأثور عن هذا الأمير أنه كان من أكبر محبى الخيل ، وأنه كان يمتلك — فيما يقول صاحب چهار مقاله — ثمانية عشر ألف رأس من الجياد والمهارى .

واستقبل الشاعر فى غيبة الأمير حاجبه « عميد أسعد » وكانت له معرفة بقول الشعر وإنشاده ، فما كاد «الفرخى» يسمعه بعض قصائده حتى أعجب بها كل الإعجاب ، ولكنه لم يصدق أن سجزيا مهلهل الثياب رث الهيئة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، تعلو رأسه عمامة كبيرة على شاكلة ما يلبسه أهل سجستان ، يستطيع أن يقول مثل هذا الشعر الذى سمعه ، وعلى ذلك التفت إليه قائلا :

---

(١) احتفظ هذا الأمير ببعض أملاك الدولة الصفارية حتى ذلك الوقت .

(٢) نسبة إلى «چغانيان» وهو مكان فيما وراء النهر يقع بين « ترمذ » و « قباديان » .

« إن الأمير في مكان الوسم وسألتحق بخدمته ، وسأصحبك معى ، فالمكان رائع جميل ، وهو دنيا متشابكة من الخضرة النضيرة والمراعى الوفيرة ، تملأه الخيام المنصوبة ، تنيرها الثريات المشبوبة ، وأغانى «الرودكى» تتردد فى الخيام على معانقة أهل الوجد والغرام ، وهم يتساقون كؤوس الخمر والمدام ، وينعمون بأهنأ الأمانى والأحلام ، والأمير قد نصب خيمته فى وسط المكان ، وأوقد أمامها ناراً كالجبل أو البركان ، ورجاله يقبسون منها الأقباس ، فيسمون بها الجياد والأفراس . وقد يقف الأمير أمام سرادقه والكأس فى يسراه ، والسوط فى يمناه ، فيتناول رشفة من الخمر ، ويصدر ما يشاء من أمر ... فما عليك لو نظمت لنا قصيدة فى وصف هذا المقام ، حتى أقدمك إلى الأمير فتحظى بالتقريب والإكرام .. ؟! » .

فقضى الفرخى ليلته وهو يروض القريض حتى استطاع أن ينشىء القصيدة التالية التى تعتبر بحق من أجمل ما قاله (١) :

تا پرند نيلگون بر روى پوشد مرغزار
پرنيان هفت رنگ اندر سر آرد كوهسار
خاكرا چون ناف آهو مشك زايد بى قياس
بيد را چون پر طوطى برگ رويد بيشمار
دوش وقت نيم شب بوى بهار آورد باد
حبذا باد شمال وفرخا باد بهار
باد گوئى مشك سوده دارد اندر آستين
باغ گوئى لعبتان جلوه دارد در كنار
نسترن لؤلؤى بيضا دارد اندر مرسله
ارغوان لعل بدخشى دارد اندر گوشوار
تا بر آمد جامهاى سرخ گل بر شاخ گل
پنجهاى دست مردم سر فرو كرد از چنار

---

(١) المترجم : لم يذكر المؤلف أصل هذه القصيدة ولكنى فضلت نقله عن النص المذكور فى «تذكرة الشعراء» ص٥٥ وكذلك «خرابات» ج ١ ص١٨٧ .

باغ بوقلمون لباس وشاخ بوقلمون نمای
آب مروارید رنگ وابر مروارید بار
راست پنداری که خلعتهای رنگین یافتند
باغهای پر نگار از داغگاه شهریار
داغگاه شهریار اکنون چنان خرم شود
کاندران از خرمی خیره بماند روزگار
سبزه اندر سبزه بینی چون سپهر اندر سپهر
خیمه اندر خیمه بینی چون حصار اندر حصار
هر کجا خیمه است خفته عاشقی با دوست مست
هر کجا سبزه است شادان یاری از دیدار یار
سبزه‌ها با بانگ چنگ ومطربان نغز گوی
خیمه ها با بانگ نوش وساقیان میگسار
عاشقان بوس وکنار ونیکوان ناز وعتاب
مطربان رود وسرود وخفتگان خواب وخمار
بر در پرده سرای خسرو فیروز بخت
از پی داغ آتشی افروخته خورشید وار
بر کشیده آتشی چون مطردی دیبای زرد
گرم چون طبع جوانان زرد چون زر عیار
داغها چون شاخهای بسد یاقوت رنگ
هر یکی چون نار دانه گشته اندر زیر نار
کودکان خواب نا دیده مصاف اندر مصاف
مرکبان داغ نا کرده قطار اندر قطار
خسرو فرخ سیر بر بارهٔ دریا گذر
با کمند اندر میان دست چون اسفندیار
همچو زلف نیکوان خورد ساله تاب خورد
همچو عهد دوستان سالخورده استوار

میر عادل بو المظفر شاه با پیوستگان
شهریار شهرگیر وپادشاه شهردار
هر کرا اندر کمند تاب خورده افکند
گشت نامش بر سرین وشانه ورویش نگار
هرچه زین سو داغ کرد از سوی دیگر هدیه داد
شاعران را با لگام وزایران را با فسار

ومعناها :

— منذ اكتست المروج بالحرير الأزرق
واتشحت قنن الجبال بالإبريسم ذى الألوان ...
— والأرض تؤتى من المسك والعبير ما لاشبيه له ولا حصرله من نوافج الغزلان
وأشجار الصفصاف تخرج ما لاحد له من الأوراق الشبيهة بأجنحة الببغاوات
— وليلة الأمس ، فاح الهواء بروائح الربيع فى منتصف الليل ...
فياحبذا نسيم الشمال ، وما أجمل روائح الربيع ... ! !
— وكأنما كانت أكمام الرياح محملة بفتات المسك
وكأنما كانت البساتين تحتضن العرائس فى أذرعتها ... ! !
— وانعقدت عقود اللؤلؤ الأبيض فى أعناق النسرين
وتدلت حلقات الياقوت « البدخشى » فى آذان الأرغوان (١)
— وأطلت كؤوس الورد الحمراء على الأغصان والأفنان ...
وحنت أوراق « الشنار » رؤوسها فى ذلة وإذعان (٢)... ! !

---

(١) المترجم: «الياقوت البدخشى» هوالمنسوب إلى «بدخشان» وهو أجود أنواع اليواقيت وأشدها حمرة ، والأرغوان زهرأحمراللون .

(٢) المترجم: «الشنار» تعريب للكلمة الفارسية « چنار» وهى شجرة مستقمية العود .

— ولبست الحدائق أبهى الألوان ، وازدهت الأغصان فى كل مكان . . .!!
وتلألأت المياه فى الغدران ، وأمطر السحاب دره الفتان ... !!

— حتى لتظن أن هذه الحدائق الجميلة قد فازت بالخلع الجليلة
وأن « مكان الوسم » الذى اختاره الملك قد أضبح أبهى خميلة ... !!

— وأصبح سرادق الأمير مليئاً بالبهجة والحبور ...
بحيث بدت الحيرة على وجه الزمان مما امتلأ به من غبطة وسرور ... !!

— نخضرته ... متصلة اتصال الأفلاك فى عليائها ... ! !
وخيامه ... متلاصقة تلاصق القلاع فى بنائها ... !!

— وفى كل خيمة ... يضطجع عاشق ثمل إلى جوار معشوقه الولهان ... ! !
وفى كل خميلة ... يسعد حبيب هائم برؤية حبيبه الهيمان ... ! !

— والخمائل ... تتجاوب بأنغام الأعواد والمغنين ...!!
والخيام ... تتردد فيها صيحات السقاة المخمورين ...!!

— والعشاق فى تقبيل ومعانقة ، والحسان فى دلال ومعاتبة ... !
والمطربون دائبون فى العزف والغناء ، والنشاوى غارقون فى غفلة الانتشاء ...!!

- ولقد اتقدت على باب خيمة الأمير السعيد نار أخذت فى التأجج
أشعلوها ليسم بها جياده ، فأصبحت كأنها الشمس ذات التوهج ... !!

— وارتفعت لهبها ، وكأنها الأعلام المصنوعة من الديباج الأصفر
واشتدت حرارتها كحرارة الشباب ، واصفرت طلعتها كالذهب الخالص ... !!

— واحمرت المياسم ، فأضحت كقطع الياقوت الدكناء ... !!
وبدت مصفوفة فى النار ، كأنها حبات الرمان الحمراء ... !!

— واصطف الغلمان الذين لم يذوقوا طعم النوم والكرى ... ! !
ووقفوا يمسكون بالجياد التى لم يسموها ... قافلة فى أثر قافلة ... !!

— والأمير السعيد قد امتطى صهوة سابح جميل ...
والأنشوطة فى قبضة يده وكأنه « اسفنديار » الجيل (١)

— وانثنت الأنشوطة فى يده ، فأصبحت كطرة الفتاة الحسناء
واستحكمت فى قبضته كما يستحكم عهد الأصدقاء القدماء

— وأحاط بالأمير العادل «أبى المظفر» جماعه من الأخصاء
ووقف بينهم ملكا مظفراً ، قد دانت له جميع الأنحاء

— فإذا وقع الجواد فى عقدة أنشوطته
وسمه بالكى فأصبح اسمه منقوشاً على وجهه ورقبته وعجزته

— ولكنه يسم الجياد ، ثم يجود بها بعد ذلك
فتصبح للشعراء أزمتها ، وللزائرين مقاودها وأعنتها ... !!

ويقول صاحب « چهار مقاله » : إن « العميد أسعد » عندما سمع هذه القصيدة بقى فى حيرة كاملة ، لأن أذنه لم تطرقها من قبل قصيدة أخرى فى مثل جمالها؛ فترك جميع أعماله ، وأمر للفرخى بجواد ركبه ، وتوجه معه إلى الأمير ؛ ووصل إليه والشمس آخذة فى المغيب ، وقال له : لقد أحضرت إليك يا مولاى شاعراً لم ير أحد نداً له منذ وارى «الدقيقى» وجهه فى نقاب التراب . ثم حكى له خلاصة ماسبق من أمره معه . فأذن الأمير بإحضار الفرخى إلى مجلسه ، فلما دخل عليه وحياه ، مد الأمير يده إليه ، وقربه من مجلسه ، وسأله عن حاله ، وتلطف إليه ، وأمله فى نواله وصلته ؛ فلما دار الشراب جملة دورات نهض الفرخى من مكانه وأخذ ينشد فى صوت حزين جميل قصيدته التى مطلعها :

با كاروان حله برفتم ز سيستان   با حله‌ء تنيده ز دل بافته ز جان

---

(١) بطل من أبطال الأساطير الإيرانية .

— خرجت من « سجستان » مزاملا لقافلة « الحلة »

ومعي حُلة مطرزة بدماء قلبي ، منسوجة من أشجان روحي

فلما فرغ من إنشادها ، وكان الأمير من قائلي الشعر والخبراء به ، تعجب من جودتها ؛ فالتفت إليه « العميد أسعد » وقال : تمهل قليلا . . . يا سيدي . . . حتى تمعن النظر فيما هو آت . . وسكت « الفرخي » قليـلا حتى إذا عمل الشراب في رأس الأمير ، وبلغ منه السكر مبلغه ، نهض « الفرخي » من مكانه وأخذ ينشد قصيدته التي يصف فيها مكان وسم الجياد . فملكت الحيرة لب الأمير ، والتفت إلى « الفرخي » قائلا : لقد أحضروا إليّ الآن ألفاً من المهاري الجيدة ، كلها بيضاء الغرة ، محجلة الأرجل ، وأنت رجل « سجزي »[1] ماكر ختال ، فأمسك منها ما استطعت يكن من نصيبك ...!!

وكان الشراب عند ذلك قد أثقل رأس « الفرخي » وبلغ به غاية النشوة ، فطوّح بعمامته عن رأسه ، ورمى بنفسه في وسط هذا القطيع ، واستطاع أن يقود أمامه عدداً منه ، سار به إلى ناحية السهل والفلاة ؛ ولـكن المهاري جرت يمينا ويساراً فلم يتمكن من أن يأخذ من بينها مهراً واحـــداً ، وبدا له في نهاية الأمر رباط خرب يقع إلى جوار المعسكر ، أخذت المهاري تدخل فيه ؛ وكان « الفرخي » قد بلغ غاية التعب والنصب ، فدخل إلى دهليز هذا الرباط ، واستلقى على الأرض واضعاً عمامته تحت رأسه ، ولشدة ما كان يحسه من تعب وسكر استغرق في نوم عميق .

وجاء رجال الأمير وعدوا المهاري الموجوده داخل الرباط فوجدوها اثنـــين وأربعين مهرا ، فتوجهوا إلى الأمير وأخبروه بما كان ؛ فضحك الأمير كثيراً ، وتعجب مما حدث وقال : إن « الفرخي » رجل حسن الحظ ، سيرتفع شأنه ، فاحتفظوا به ، واحتفظوا له بهذه المهاري ، فإذا ما صحا من غفوته أيقظوني أنا أيضا .

---

(١) أي من أهل سجستان .

فامتثلوا لأمره ؛ ونهض « الفرخى » من نومه فى اليوم التالى مع طلوع الشمس ، واستيقظ الأمير من تلقاء نفسه وصلى صلاة الصبح ، ثم أمر بإحضار « الفرخى » إليه ، وتلطف إليه كثيرا ، ثم سلم إلى تابعيه هذه المهارى ، وأمر له بجواد كامل العدة من جياده الخاصة ، كما أمر له بخيمتين وثلاثة بغال وخمسة من العبيد وبعدد من الملبوسات والمفروشات . وعلا أمر « الفرخى » فى خدمة الأمير علواً كبيراً ، وبلغ شأوا بعيدا من العظمة والجاه ؛ ثم التحق بخدمة السلطان يمين الدولة « محمود الغزنوى » ، فلما رآه على هذه الحال من العظمة والرفعه والجاه ، تولاه بما هوجدير به ، فمازال شأنه فى علو وارتقاء حتى بلغ عدد من يتبعه من الخدم إذا ركب عشرين غلاما يتمنطقون بمناطق من الفضة الخالصة . »

الفردوسى :

تروى قصة مشهورة[١] أنه بينما كان الشعراء الثلاثة الذين ذكرناهم فيما سبق يتحدثون يوما فى إحدى الرياض فى مدينة « غزنه » قصدهم غريب قادم من « نيسابور » يريد أن يلتحق بمجلسهم فاعترضه « العنصرى » وقد هاله فضول هذا الغريب القروى وقال له :

ــ إننا شعراء الملك ، ولا يدخل فى زمرتنا إلا شاعر ، فإن شئت أن تلحق بجماعتنا فما عليك إلا أن تجيزنا بشطرة رابعة لثلاث شطرات من الشعر ، سيقول كل واحد منا واحدة منها .

فأذعن « الفردوسى » وهو الغريب القادم لهذا الاختبار وعمد « العنصرى » إلى اختيار قافية صعبة ، يسهل بها تقفية ثلاث شطرات وتستعصى بها الرابعة ، فقال مبتدئاً :

« چون عارض تو ماه نباشد روشن »

---

(١) مروية فى « تذكرة الشعراء » لدولتشاه ص ٥١ ــ وقد ذكرها كل من أتى بعده من كتاب التراجم ، ولكن صاحب « چهارمقاله » وكذلك « محمد عوفى » لم يذكراها وهما أقدم اثنين من كتاب التراجم المعتمدة .

ومعناها : إن القمر لا يضيء كنور وجهك فى بهائه ... !!

ثم ثنى « العسجدى » فقال : « ما نند رخت گل نبود در گلشن »

ومعناها : وفى بهاء وجناتك ... لا يكون الورد فى رياضه ... !!

ثم أعقبه « الفرخى» فقال : « مژ گانت گذر همى كند در جوشن »

ومعناها : وأهدابك تنفذ من الجواشن الثقيلة ...!!

وأقبلت نوبة «الفردوسى» فقال الشطرة الآتية وفيها إشارة إلى قصة غير مشهورة فى أساطير الملوك الأقدمين :

« ما نند سنان گيو در جنگ پشن »

ومعناها : وكأنها سنان « گيو » فى حربه مع « بشن » ...!!

عند ذلك طلب الشعراء الثلاثة إلى « الفردوسى » أن يشرح لهم القصة التى أشار إليها فى « شطرته » ففعل لهم ذلك ، وأبدى كثيرا من الخبرة بأساطير ايران القديمة . وأخبر « العنصرى » مولاه « السلطان محمود » بأنه قد عثر فى النهاية على شاعر ماهر قمين بأن يكمل نظم الملحمة الوطنية التى بدأها « الدقيقى » لأحد ملوك السامانيين منذ عشرين أو ثلاثين سنة وأتم منهـــا ألف بيت نظمها فى قصة الملك « گشتاسب ، وظهور نبى الفرس زردشت[1] » ، ولـكن الموت اخترمه عند هذا الحد فاغتاله غلام تركى من غلمانه ، وقضى بذلك على هذا الشاعر التاعس الموهوب .

هذا هو جملة البيان الذى أورده « دولتشاه » وغيره من أصحاب التراجم عن الـكيفية التى اتصل بها « الفردوسى » بالبلاط الغزنوى ، ولـكنى قد بينت فى ملاحظة سابقة أن أقدم الـكتب التى كتبت عن هذا الشاعر وهى التى ترجع إلى منتصف القرن

---

(١) يذكر عوفى (ص ٣٣) إن «الدقيق» نظم عشرين ألف بيت من الشاهنامه بالإضافة إلى مانظمه «الفردوسى» وقوامه ستون ألف بيت . ولـكن «الفردوسى» نفسه يقصر عدد مانظمه «الدقيق» على ألف بيت ، وذهب إلى هذا الرأى أيضا المستشرق « نولدكه » فى ص ١٩ من مقالته : « الملحمة القومية الإيرانيه : Iran. Nationalepos »

الثانى عشر وبداية الثالث عشر الميلاديين لا تورد مثل هذه الرواية . ولاشك أن ذلك مما يؤيد وجهة نظر الأستاذ « نولدكه » فى أنها رواية مخترعة من أساسها . والضيق الحاصل لنا فى مثل هذه المواضع ليس ناتجا كما هو العادة من نقص التفاصيل التى يوردها أصحاب التراجم ، بل على العكس من ذلك ، عن كثرة الروايات الباطلة التى لا تؤيدها المصادر القديمة التى كتبت عن حياة الشاعر ، ولا النبذ القليلة المتفرقة التى رواها «الفردوسى» عن نفسه فى «الشاهنامه» ؛ وربما كانت هذه وتلك فى كثير من الأحيان تتعارضان تمام المعارضة وتبدوان على طرفى نقيض . ومن أجل ذلك وجب علينا فى مثل هذه الحالات أن نرفض رفضاً تاماً هـذه الروايات المتأخرة التى ترجع إلى النصف الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى (= منتصف التاسع الهجرى) وحسبنا أن نحيل القارىء المتفحص إلى ما أورده من نظائرها « أوزلى » فى كتابه « تراجم شعراء الفرس(١) » وماذكره « مول (٢) » فى مقدمته على طبعة ال« شاهنامه» المصحوبة بترجمتها الفرنسية ، وإلى غير ذلك من الكتب التى يتداولها بعض الناس من غير طائفة المستشرقين المتخصصين .

ولاخلاف بين أهل المشرق والمغرب فى أن « الفردوسى » شاعر عظيم الخطر ؛ ومهما اختلف تقديرنا الشخصى للملحمته «الشاهنامه» فلاخلاف فى أنه هو ومنظومته حقيقان بدراسة مفصلة موضحة ، ولكن الغرض الذى أجعله نصب عينى عند تأليف هذا الكتاب يدعونى إلى أن ألتمس الإجمال بقدر المستطاع ، لأن هدفى منذ البداية منصب على إعطاء القارىء الأوروبى صورة من الحيـاة الأدبية فى إيران تمده بالتفاصيل التى لا يجدها فى الكتب الأوروبية الأخرى .

وأهم المصادر المعتمدة التى فى أيدينا هى التالية : —

أولا : مؤلفات الشاعر نفسه ؛ وهى عبارة عن « الشاهنامه » وقصة « يوسف وزليخا » المنظومة وبعض الغزليات التى جمعها وترجمها الدكتور « إتيه »

---

(١) أنظر : Biographies of the Persian Poets, by Ouseley.

(٢) يكتب هذا الاسم بالحروف الرومانية هكذا : Jules Mohl.

في مقالته « الفردوسى كشاعر غنائى[١] »

ثانيا : الرواية التى أوردها « نظامى عروضى السمرقندى » فى كتابه « چهـــار مقاله » وقد زار قبر الفردوسى فى « طوس » سنة ١١١٦ م = ٥١٠ هـ أى بعد وفاته بما يقرب من قرن واحد واستطاع أن يضمن كتابه ما سمعه هناك من أخبار احتوتها الحكاية العشرون[٢] .

ثالثا : الرواية المقتضبة التى ذكرها « محمد عوفى » فى الجزء الثانى من كتابه « لباب الالباب » .

وقد تمكن الأساتذة الأوروبيين من أمثال « ترنر مكن » و « مول » و« روكرت » من أن يجعلوا « الشاهنامه » معروفة لدى الأوروبيين بعد ماطبعوها وترجموها ، ولكن لازالت أهم الدراسات التى كتبت عن الفردوسى هى تلك التى كتبها « إتيه » فى مقالته التى ذكرناها فيما سبق ، وكذلك فيما كتبه « نولدكه » فى مقالته البارعة التى عنوانها « الملحمة القومية الإيرانية » وهى التى نشرها فى كتاب « المفصل فى الدراسات اللغوية الإيرانية » والتى أعاد نشرها « تربنر : Trubner » فى كتيب منفصل سنة ١٨٩٦ نجعل عليه عمادنا فيما نحن مقدمون عليه من نقل .

---

(١) انظر :Firdusi als Lyriker فى « Munch Sitzung Sberichte أخبار جلسات المعهد العلمى بميونخ » سنة ١٨٧٢ ص ٢٧٥ — ٣٠٤ وسنة ١٨٧٣ ص ٦٢٣ — ٦٥٣ ، وكذلك « يوسف وزليخا » فى أعمال المؤتمر الدولى السابع للمستشرقين فى فينا سنة ١٨٨٩ القسم السامى ص ٢٠ — ٤٥ ، وكذلك ملاحظات نولدكه فى « الدراسات الفارسية » الجزء الثانى عدد ١٢٦ من « أخبار جلسات المجمع العلمى بفينا » : «Wiener Sitzungsberichte » وقد أورد الدكتور « إتيه » قائمة بأسماء الكتاب الإنجليز الذين استعانوا بالكتب السابقة لكتابة المقالات فى المجلات والجرائد . وهذه القائمة موجودة فى مقالته التى عنوانها « الأدب الفارسى الحديث » المنشورة فى الجزء الثانى من « المفصل فى الدراسات اللغوية الإيرانية » .

(٢) هذه الرواية مذكورة أيضاً بتمامها فى كتاب تاريخ طبرستان تأليف ابن اسفنديار وكان أول من استخرجها من ذلك الكتاب هوالدكتور إتيه ، لأن نص « چهار مقاله » لم يكن ميسراً له ، لافى النسخة المطبوعة على الحجر ولافى مخطوطة المتحف البريطانى ، وقد نشر هذا النص الذى اعتمد فيه على ثلاثة مخطوطات فى مجلة المستشرقين الألمان عدد ١٥٨ .

ولايفوتنا أن نذكر أننا مدينون لـ «نولدكه» خاصة بدراسة عميقة سليمة لحياة الفردوسى ، أظهر فيهامعالمها الحقيقية والمحتملة ، معتمداً فى ذلك على أحسن المصادر التى يعتمد عليها الباحث الناقد ، وأقصد بذلك أقوال «الفردوسى» نفسه وهى التى نجدها مبعثرة فى مختلف المواضع فى شاهنامته الشاسعة .

وقبل أن نخوض فى ذكر الأساطير الطويلة التى أشرنا إليها فيما سبق ، يحسن بنا أن ننتهى أولا من ذكر الروايتين القصيرتين اللتين أوردهما « عوفى » فى « لباب الألباب[1] » والمؤرخ «حمد الله المستوفى » فى كتابه « تاريخ گزيده » الذى ألفه فى سنة ١٣٣٠م= ٧٣١ هـ ؛ وقد ذكر الأخير منهما أن اسم «الفردوسى» الكامل هو « الحسن بن على الطوسى » وجعل وفاته فى سنة ٤١٦هـ=١٠٢٥م . أما صاحب « اللباب» فكعادته يكيل الثناء للشاعر ويعجب أشد الإعجاب بمتانة عباراته ، وقوة تراكيبه ، وبعد خياله ، وقدرته على المحافظة على هذه الأمور فى منظومة طويلة شغلته السنين الطويلة من عمره ؛ ثم يذكر بعد ذلك أن الشاعر « مسعود بن سعد » وهو من الشعراء المبكرين الذين عاشوا حوالى سنة ١٠٨٠م= ٤٧٣ هـ اقتبس منها بعض المختارات مما يدل دلالة واضحة على أن الشاهنامه قد فازت فى هذا الزمن المبكر بكثير من الإنتشار والذيوع .

رواية « جهار مقاله »

أما كتاب « چهار مقاله » — وهو أقدم المصادر وأجدرها بالإعتماد — فيذكر أن «الفردوسى» كان دهقانا (أى قرويا من أصحاب الأراضى) وأنه كان من قرية « باژ[2] » فى ناحية «طبران» بالقرب من «طوس» إحدى مدن خراسان التى كانت تقع فى مكان مدينة « مشهد» الحالية . وكان يعتمد فى معيشته على ما تغلة له بعض الضياع ، ولم يكن له من عقب غير ابنة واحدة ، أراد أن يحسن تجهيزها ، فدفعه ذلك

---

(١) انظر جـ ٢ ص ٣٢ـ٣٣

(٢) ذكر ابن اسفنديار فى تاريخه مثل هذه الرواية ولكنه لم يذكر اسم هذه القرية .

إلى نظم ملحمته الطويلة لعله يجد من أصحاب الجاه والسلطان من يهديها إليه فيجزيه الجزاء الأوفى على ما تجشم من تعب دائب وجهد طويل متصل . فلما فرغ منها بعد ثلاثين سنة (أو خمسة وعشرين وفقاً لبعض المصادر الأخرى) وكان ذلك فى سنة ٩٩٩م = ٣٨٩ هـ كما يقول «نولدكه» أعطاها لكاتبه «على ديلم» فنسخها ولراويه «أبى دلف» فأنشدها ؛ وقد ذكر «الفردوسى» هذين الرجلين فى إحدى مقاطع الشاهنامه وقرن بهما «الحسين بن قتيبة» حاكم طوس لأياديه الجميلة التى مدته بكثير من العون والتشجيع . وفيما يلى نص القطعة التى ذكر فيها أسماء هؤلاء الرجال (١) :

ازين نامه از نامداران شهر   على ديلم وبو دلف راست بهر
نيامد جز احسنتشان بهره ام   بكفت اندر احسنتشان زهره ام (٢)
حى قتيبة است از آز ادگان   كه از من نخواهد سخن رايگان
نيم آگه از أصل وفرع خراج   همى غلطم اندر ميان دواج

ومعناها :

— من مشاهير هذه المدينة ، الذين ذكروا فى هذا الكتاب
لـ«على ديلم» ، و «أبى دلف» نصيب من الفضل والثواب
— فلم أسمع منهما إلا أقوال الاستحسان والإعجاب
وقد كدت انفطر خجلا وعجزاً أمام أقوالهما العذاب

---

(١) المترجم : النص منقول عن «چهار مقاله» وليس موجودا فى الأصل .

(٢) هذا البيت مشكوك فى مبناه ومعناه وأننى أفضل نصه الذى ورد فى تاريخ «ابن اسفنديار» حيث وردت فى الشطرة الأولى «از بخنشان» بدل كلمة «احسنتشان» ولكنى مع ذلك أشك فى صحة ما ورد بالشطرة الثانية حيث ذكر « احسانشان » بدل كلمة « احسنتشان » ولو أننا اتبعنا هذه التعديلات وأصلحنا النص الذى ذكرناه فى صفحة ٧٩ من ترجمتى لكتاب «چهار مقاله» لأصبح معنى هذا البيت : — « لقد كادت كبدى تنفجر لما بذلا لى من خير وكرم؛ أى لقد هزنى كرمهما وحرك الساكن من قلبى . » ولاشك أن هذا الإصلاح يفض الصعوبة التى اعترضتنى فى ترجمة هذا البيت وأشرت اليها فى الهامش رقم ٤ من ترجمتى .

— وكذلك « حي قتيبة » فإنه من أحرار الرجال[١]
ولم يتطلب أن أقول فيه حسبة شيئا من الأشعار والأقوال ... !!

— فأعفانى من الخراج حتى جهلت بأصوله وفروعه
وأصبحت بذلك اتقلب فى الحرير ، بل فى الخير جميعه ...!!

ويذكر صاحب «چهار مقاله » فى تفسير البيت الأخير أن «حسين بن قتيبة» كان يتولى جباية الخراج فى «طوس» وأنه أعفى «الفردوسى» مما عليه ؛ ومن أجل ذلك فقد خلد الشاعر اسمه حتى القيامة وجعل الملوك يذكرونه ويرددونه .

ولما فرغ «على ديلم» من نسخ «الشاهنامه» فى سبعة مجلدات حملها «الفردوسى» ويمم وجه شطر «غزنه» مستصحباً معه راويته « أبا دلف» وسرعان ما تمكن من أن يجعل الوزير «أبا القاسم أحمد بن الحسن الميمندى[٢]» يشغف بمنظومته ويتولى تقديمها إلى السلطان محمود الذى سر بها سروراً عظيما . ويمضى صاحب «چهارمقاله» فى روايته فيقول : « إن الوزير كان له أعداء وكانوا دائماً يصبون تراب التخليط فى كأسه (أى يقدحون فيه) فشاورهم السلطان محمود فى مقدار العطاء الذى يعطيه للفردوسى ، فقالوا له : حسبه خمسون ألف درهم وهذا المبلغ كثير عليه ، لأنه رافضى ومعتزلى ؛ والدليل على اعتزاله قوله :

به بينندگان آفريننده را   نبينى مرنجان دو بيننده را

ومعناه :

— إنك لن يستطيع أن ترى الخالق بعينيك ، فلا تتعب إذن ناظريك[٣].

---

(١) هذا الإسم مذكور فى نسختى المتحف البريطانى لكتاب «چهار مقاله» على أنه «حى» أو «حيى» ولكن تاريخ ابن اسفنديار يذكره «حسين» وربما كان هذا هو الصواب .

(٢) فى « چهار مقاله» يذكر هذا الاسم على أنه « الوزير أحمد بن الحسن الكاتب » ولا شك أنه يقصد به « الميمندى » أما «ابن اسفنديار » فيذكر هذا الإسم هكذا «حسين بن أحمد » .

(٣) « رؤية الله » كانت سبباً فى نقاش طويل بين الفرق الإسلامية . والمعتزلة ينفونها ، والحنابلة يثبتونها .

والدليل على تشيعه قوله :

مرا غمز كردند كان پر سخن　　بمهر نبى وعلى شد كهن
اگر مهر شان من حكايت كنم　　چو محمود را صد حمايت كنم
پرستار زاده نيايد بكار　　وگر چند باشد پدر شهريار
ازين در سخن چند رانم همى　　چو دريا كرانه ندانم ناهمى
به نيكى نبد شاه را دستگاه　　وگرنه مرا بر نشاندى بگاه
چو اندر تبارش بزرگى نبود　　انست ندم بزرگان شنود

ومعناها :

— لقد عابونى فقالوا : إن هذا المتشدق الثرثار
قد شاب على حب النبى وعلىّ ، وتقدمت به السنون والأعمار ...!!
— ولو أنى أخذت أردد أقوالى فى حبهما وما يتصل بهما من أخبار
لحميت بذلك مئات من أمثال «محمود» وكل سلطان جبار..!!
— ولكننى أعرف أن ابن الأمة لا يصلح فى عمل من الأعمال
ولو كان أبوه ملكا من ذوى الخطر والجلال ...!!
— فإلام أسوق الحديث فى هذا الباب الواسع ...؟!
وهو كالبحر ، لا أعرف حداً لمداه الشاسع ...!!
— وليس فى طاقة هذا السلطان أن يفعل الخير والإحسان
ولو قدر له ذلك لأجلسنى على العرش فى أسمى مكان ... !!
— ولم يكن فى أرومته ما يتصل بالعظمة وكرم المحتد والانتماء ... !!
ومن أجل ذلك لم يعرف كيف يستمع إلى أسماء العظماء ...!! (١)

فإذا صحت هذه الرواية التى ذكرها صاحب «چهار مقاله» عن الفردوسى ـ ولست أحسبها إلا صحيحة فى أساسها ـ ، فإنى أميل إلى افتراض صلة بين ما أصاب الفردوسى من ضر وما أصاب سيده ومولاه «الميمندى» من شر انتهى به إلى الحبس كما خبرنا

---

(١) المترجم : لم يذكر «براون» هذه الأبيات فى هذا الموضع واكتفى بالإشارة إليها وإرجاع القارىء إلى ترجمته لكتاب «چهار مقاله» ص ٨٠ — ٨٩ .

بذلك ابن الأثير فى حوادث سنه ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م حيث ذكران « مسعود بن محمود الغزنوى » أفرج عنه وأعاده إلى منصبه .

ومع ذلك فليس من السهل التغلب على الإعتراضات التى توجه إلى هذا الفرض، لأن « نولدكه » على الخصوص ، يثبت لنا أن الفردوسى ولد غالباً فى سنة ٣٢٣ هـ أو ٣٢٤هـ = ٩٣٥ م أو ٩٣٦م وأنه فرغ من « الشاهنامه» نهائياً فى سنة ٤٠٠هـ = ١٠١٠ م ، وأن عمره فى ذلك الوقت قد نيف على الثمانين [١] ؛ وفى هذا الوقت دون غيره ثار النقاش على مسألة مكافأته على نظم «الشاهنامه» .

ويمضى صاحب « چهار مقاله » فى حديثه عن الفردوسى فيقول :

« وكان السلطان محمود رجلا شديد التعصب فأثرت فيه هذه الوشايات واستمع لها ، فلم يصل «الفردوسى» فى النهاية إلا بعشرين ألف درهم[٢] وغضب الفردوسى غضباً شديداً . وذهب إلى الحمام فاغتسل ثم خرج منه وشرب فقاعا[٣]، وقسم النقود بين صاحب الحمام وبائع الفقاع . وكان يعلم بقسوة محمود ، فخرج من مدينة « غزنه » ليلا ونزل بمدينة « هراة » فى دكان إسماعيل الوراق والد « الأزرقى[٤]» ؛ ثم توارى فى منزله مدة ستة أشهر حتى وصل رسل محمود فى طلبه إلى مدينة طوس وانصرفوا عنها . فلما أحس الفردوسى بالأمن والطمأنينة خرج من « هراة » وتوجه إلى طوس ، وحمل الشاهنامه معه ، وذهب إلى «طبرستان» ونزل عند ملكها «الإصبهبذ شهريار»

(١) يثبت « نولدكه » أن الفردوسى فرغ من نظم « الشاهنامه » قبل أن يقوم بأهدائها الى السلطان «محمود الغزنوى» بزمن طويل ويبرهن على ذلك بأن هناك نسخة أخرى أهديت الى «أحمد بن محمد بن أبى بكر الخالنجانى» بتاريخ ٣٨٩هـ = ٩٩٩ .

(٢) هذا الرقم مذكور فى النسختين المخطوطتين المحفوظتين فى المتحف البريطانى ، وكذلك فى تاريخ «ابن اسفنديار» أما النسخة المطبوعة على الحجر فتذكر أنه ستون ألف درهم . ومدار الجدل فى هذه الراوايات هو أن السلطان استبدل الدنانير الذهبية بـ «الدراهم» الفضية .

(٣) المترجم : نوع من الشراب المسكر كالجعة .

(٤) شاعر مشهور سنتحدث عنه فيما بعد .

الذى ينتسب إلى « آل باوند » وهم أسرة كبيرة يتصل نسبها بالملك « يزدجرد بن شهريار (١) » .

« ثم هجا الفردوسى محموداً فى منظومة من مائة بيت ، قرأها على « شهريار » وقال له : سأنقل هذا الكتاب من اسم محمود إلى اسمك فإنه عبارة عن أخبار جدودك ومآثرهم : فتلطف شهريار فى معاملاته وأبدى له أنواع الرفق والإحسان ، وقال له : يا أستاذ ... لقد حمل الوشاة محموداً على ذلك ، ولم يعرضوا عليه كتابك بما هو جدير به ، وقدحوا فى شأنك ، هذا بالإضافة إلى أنك رجل شيعى ، والمعروف أن كل من يتولى أهل بيت الرسول لا يستقيم له أمر من أمور الدنيا ، لأنهم هم أيضاً لم يستقم لهم أمر من أمورها ، وأنت تعرف أيضاً أن السلطان محمودا سيدى ومولاى ، فاترك الشاهنامه باسمه ، واعطنى هجاءه حتى أمحوه ، وسأعطيك فى مقابل ذلك عطاءا قليلا ، وسيدعوك محمود بنفسه ويطلب رضاك ، فلا يضيع بذلك ما تكبدته من جهد فى نظم هذا الكتاب .

« ثم أرسل إليه فى اليوم التالى مائة ألف درهم ، وقال : لقد اشتريت كل بيت من أبيات الهجاء بألف درهم ، فأعطنى هذه الأبيات المائة ، وطب حالا واهنأ قلباً مع السلطان محمود .

« فأرسل الفردوسى إليه هذه الأبيات . وأمر شهريار بمحوها ، ومحا الفردوسى أصولها . وبذلك اندرس هجاؤه للسلطان ؛ وقد بقيت ستة أبيات من بينها ، هى الآتية (٢) :

- لقد عابونى فقالوا : إن هذا المتشدق الثرثار . . .
قد شاب على حب النبى وعلى وتقدمت به السنون والأعمار (٣) . . . الخ

---

(١) آخر ملوك الساسانيين ، وقد فتح العرب بلاده أثناء حكمه ، وقد استعاض « ابن اسفنديار » العبارات التالية لكلمة «باوند» بالعبارات الآتية : « وكان خالا لشمس المعالى قابوس بن وشمكير وقد سجلت مآثره ونواحى عظمته فى كتاب اليمينى للعتبى » .

(٢) المترجم : ذكرت نص هذه الأبيات بالفارسية فى صحيفة ١٥٩ .

(٣) يقصد بذلك أنه أحب النبى وعلياً فقط ، ولم يذكر أبا بكر وعمر وعثمان ، وهم

— ولو أننى أخذت أردد أقوالى فى حبهما وما يتصل بهما من أخبار ...
لحيتُ بذلك مئات من أمثال محمود وكل سلطان جبار ... ! !
— ولكنى أعرف أن ابن الأمة لايصلح فى عملٍ من الأعمال ...
ولو كان أبوه ملكا من ذوى الخطر والجلال ... ! !
— فإلام أسوق حديثى فى هذا الباب الواسع ...
وهو كالبحر ، لا أعرف حداً لمداه الشاسع ... ! !
— وليس فى طاقة هذا السلطان أن يفعل الخير والإحسان .... !
وإلا لأجلسنى على العرش فى أسمى مكان .... ! !
— ولم يكن فى أرومته ما يتصل بالعظمة وكرم الانتماء ... !!
ومن أجل ذلك ، لم يعرف كيف يستمع إلى أسماء العظماء ... !!

« وفى الحق ، إن شهريار أدى بذلك خدمة جليلة للسلطان محمود ، واعتبرها محمود منّة كبيرة منه . ولما كنت فى نيسابور فى سنة أربع عشرة وخمسمائة سمعت عن الأمير « مُعزى »[١] أنه قال : سمعت عن الأمير « عبد الرزاق » بطوس أنه قال : كان السلطان محمود فى بعض الأوقات ببلاد الهند ، فلما كان فى طريق العودة إلى مدينة غزنه ، اعترض طريقه ثائر من الثوار تحصن فى قلعة منيعة . فنزل محمود فى اليوم التالى على باب قلعته ، وأرسل إليه رسولا يقول له إنه يجب عليه أن يأتى إلى السلطان فى الغداة ، ليقدم له فروض الخضوع والولاء وليلزم الأعتاب السلطانية حتى ينال من السلطان خلعة شريفة ، وله أن يعود بعد ذلك إلى قلعته . فلما كان الغد وركب السلطان محمود وعلى يمينه وزيره[٢] عاد الرسول وتقدم إلى السلطان فالتفت السلطان إلى وزيره وقال :

= الخلفاء الثلاثة الأوائل من الخلفاء الراشدين لدى أهل السنة . ويتضح من هذه الأبيات أن الفردوسى يريد أن يقول إن التهمة الوحيدة التى اتهمه بها خصومه وهى تهمة التشيع ، إنما مردها إلى هذا البيت الذى عبر فيه عن حبه الخالص الشديد لأهل البيت .

(١) هو شاعر السلطانيين السلجوقيين «ملكشاه» و «سنجر» وقد قتله مولاه خطأ برمية سهم خاطئة فى سنة ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م .

(٢) يذكر «دولتشاه» أن هذا الوزير هو «الميمندى» وهذا جائز ، لأن المعروف إن

— ترى أية إجابة أجاب بها هذا المتمرد ... ؟

فردد الوزير على الفور قول الفردوسى :

— إذا لم يكن وفقاً لإرادتى هذا الرد والجواب ... !!

فلا مفر من التجائى إلى السيف والميدان ومنازلة «افراسياب» ... !!

فقال محمود : لمن هذا البيت .. ؟ فإن الرجولة تتفجر من معانية[1] .. ؟!

وأجاب الوزير : إنه من شعر الرجل المسكين « أبى القاسم الفردوسى » وقد احتمل العناء خمسة وعشرين سنة كاملة ليتم كتاب الشاهنامه ، ولكنه لم يفز بشىء من ثماره ... ! !

فقال محمود : لقد أحسنت بتذكيرك إياى بأمره ، وقد أحسست بالندم عما بدر منى نحوه ، ولقد بقى هذا الرجل النبيل محروماً من نوالى ، فذكرنى بأمره بمجرد عودتى إلى غزنه حتى أرسل إليه شيئاً .

فلما وصل الوزير إلى مدينة غزنه ، ذكر محموداً بشأنه ، فقال السلطان له :

— مر لأبى القاسم الفردوسى بستين ألف دينار[2] تعطى له من أصباغ « النيلة » ولتحملها إليه فى طوس الإبل السلطانية ، ومر رجالى أن يسألوه المعذرة .

ومضت سنوات والوزير مشغول بهذا الأمر ، حتى استطاع فى النهاية تنفيذه ، ووضع الأحمال على ظهور الإبل ، ووصل العطاء سالماً إلى ناحية « طبران »[3] .

= هذا الوزير قد قبض عليه وحبس فى سنة ٤٠٣ هـ = ١٠٢١ — ١٠٢٢ م ، وأن الفردوسى مات فى الفترة الواقعة بين هذه السنة وسنة ٤١٦هـ = ١٠٢٥ — ١٠٢٦م .

(١) استبدل « ابن اسفنديار » هذه العبارة بعبارة « لمن هذا البيت فإنه يفيض بالشجاعة والنضال ».

(٢) استبدل «ابن اسفنديار» كلمة «دينار» بكلمة «درهم» ثم أكمل العبارة على النحو الآتى : « فلما جمعت الدراهم أرسلها على الإبل السلطانية إلى مدينة طوس » .

(٣) «طبران» ناحية من طوس . أنظر «معجم البلدان الفارسية» تأليف «باربيه دى مينار» ص ٣٧٤ : Dict. de la Perse, par B. de Meynard.

فلما دخلت الإبل من باب الـ « رودبار » كانت جنازة الفردوسى تخرج من باب «رزان»(١) . وكان فى «طبران» فى ذلك الوقت خطيب متعصب ، أخـذ يصيح ويقول : أنالاأجيز أن تصل جنازة الفردوسى إلى مقابر المسلمين فقد كان رافضياً...!! فأخذ الناس يجادلونه ، ويجتهدون فى إقناعه ، ولم تفلح مجادلاتهم فى التأثير فيـه . وكانت للفردوسى حديقة داخل هذه البوابة فدفنوه فيها (٢) . وما زال قبره هنالك حتى اليوم ، وقد زرت قبره فى سنة عشر وخمسمائة (٣) .

« ويقولون إن الفردوسى أعقب ابنة فاضلة ، فأرادوا أن يسلموها صلة السلطان ولـكنها رفضتها ولم تقبلها ، وقالت للرسل : لست فى حاجة إليها . فـكتب صاحب البريد(٤) بذلك إلى السلطان ، فلما عرض عليه الأمر ، أمر رجاله أن يخرجوا هذا العالم(٥)

---

(١) تابع « نولدكه » ابن اسفنديار فـكتب هذا الاسم «رزاق» ولـكن النسخة المطبوعة على الحجر من كتاب «چهار مقاله» وكذلك نسخه الخطية الثلاث التى تحفظ فى مكتبات لندن واستانبول تـكتب الـكلمة «رزان» . وقد ذكر « البلاذرى » أن إحدى محلات سجستان تسمى بهذا الاسم كما توجد ناحية فى خراسان بالقرب من مدينة « نسا ». تسمى «رذان» أنظر المرجع السابق .ص ٢٠٩ .

(٢) تختلف عبارة ابن اسفنديار قليلا فترجمتها كالآتى : «وكانت هناك حديقة تسمى حديقة (الفردوس) وكانت ملـكا للفردوسى فدفنوه فيها » .

(٣) كذلك يروى «دولتشاه» أن قبر الفردوسى كان موجوداً فى زمانه أى سنة ١٤٨٧ م = ٨٩٣ هـ وكان مزاراً يحج إليه المعجبون به . وقد وصف مكانه فقال إنه يقع بالقرب من مزار العباسية بمدينة طوس .

[المترجم : بمناسبة الاحتفال الألفى للفردوسى جددت الحـكومة الإيرانية فى السنوات الماضية قبر الفردوسى وأقامت له مقبرة فخمة تليق بمكانته] .

(٤) من أهم الواجبات التى كانت ملقاة على عاتق « صاحب البريد » أن يخبر مولاه بكل ما يحدث فى ولاياته مما يصل إليه علمه ، ويشمل ذلك إخبـاره بكل ما يفعله الوالى فى ولايته ، وقد شرح ذلك بالتفصيل كتاب «سياست نامه» .

(٥) يقصد به الخطيب المتعصب الذى ورد ذكره فى العبـارات السـابقة . وقد ذكر «دولتشاه» وجملة من أصحاب الـكتب المتـأخرة أن هذا الفقيه هو « الشيخ أبو القـاسم الجرجانى » فقـد رفض أن يصـلى على الفردوسى لأنه أمضى عمره فى مدح أبطال المجوس والزرادشة ويذهب الخبر إلى أنه عندما نام فى هذه الليلة ، رأى الفردوسى فى منامه يدخل

من « طبران » لقاء فضوله الذى أبداه ، وأن يبعدوه عن أسرته ، وأن يعطوا المال لأبى بكر بن إسحاق حتى يعمر به رباط « چاهه »(١) الواقع على رأس الطريق بين « نيسابور » و « مرو » فلما وصل أمر السلطان إلى « طوس » قاموا على تنفيذه فكان تعمير رباط « چاهه » من هذا المال .

رواية دولتشاه :

هذه هى أقدم نبذه وردت لنا عن « الفردوسى » ، وهى أقرب ماروى عنه إلى الصحة والتصديق ، لأننا على ثقة من أنه لو صح أنها ليست صادقة فى كل التفاصيل التى اشتملت عليها ، فإنها على الأقل تمثل لنا ماكان يعتقده بشأنه طائفة المثقفين من أهل بلده بعد قرن واحد من وفاته . وعلى ذلك فنحن نعلق عليها أهمية كبرى جعلتنا نفضل تقديمها على باقى الروايات .

ولاشك أن « دولتشاه » استقى بعض أخباره مما ورد بكتاب « چهار مقاله » (وقد ذكر ذلك صراحة فى بعض المواضع) ولكنه زخرف الحقائق المجردة المذكورة به وأضاف إليها من عنده بعض الأخبار الزائفة أو الخيالية .

وقد ذكر فيما ذكر ، أن اسم الشاعر هو « الحسن بن اسحاق بن شرفشاه »

= جنات عليين ، فسأله كيف استطاع أن يصل إلى هذه المرتبة العالية فأجابه : بفضل هذا البيت الذى قلته فى توحيد البارى جل شأنه :

جهان را بلندى وپستى توئى   ندانم چهٔ هرچه هستى توئى

ومعناه :

— إلهى ... !! إنك جميع مافى الكون من رفيع ووضيع ...
ولست أعرف كنهك ، ولكنك أنت كل ماهو كائن ... !!

(١) هكذا ورد هذا الاسم فى إحدى النسخ الخطية والمطبوعة من «چهار مقاله» ، وقد كتب «جاهه» فى نسخة أخرى من نسخ لندن ، وكتب «جامه» فى نسخة استانبول ، أما «ابن اسفنديار» فكتبه «رباط وچاهه» بمعنى : رباط وبئر ؟ وقد أسماه دولتشاه « رباط عشق» وقال إنه يقع إلى جوار خرائب «شقان» على الطريق بين «خراسان» و «استراباد»

وأنه تخلص فى بعض أشعاره بـ « ابن شرفشاه[1] » وأنه كان من قرية «رزان» بالقرب من «طوس» وأنه لقب نفسه بـ «الفردوسى» نسبة إلى حديقة هناك كانت تسمى «الفردوس» وكانت مملوكة لعميد خراسان « سورى بن المغيرة » وكان والد الفردوسى يشغل بستانيا فى هذه الحديقة .

والفردوسى وفقا لهذه الرواية رجل فقير معدم ، يجور عليه حاكم بلدته ، فيفر إلى « غزنه » ويعيش فيها فترة معتمدا على التكسب بأشعاره ، حتى تتهيأ له الفرصة التى ذكرناها فيما سبق ، ويتعرف إلى «العنصرى» فيأخذ هذا على عاتقه تقديمه إلى السلطان «محمود الغزنوى» ثم يقوم بعد ذلك فى بقية القصة بالدور الذى قام به الوزير « الميمندى » فى القصة السابقة ويبدو بعد ذلك على أنه راعيه ووليه .

ويقولون إن السلطان عند ما سمع قول الفردوسى :

چو كودك لب از شير مادربشست ز گهواره محمود گويد نخست

ومعناه :

— متى غسل الطفل شفتيه من لبن أمه ، فإن أول كلمة ينطق بها هى «محمود» .

قرّبه وأغدق عليه النعم فأنزله فى قصره ، ورتب له مرتبا يصرف له بانتظام . وتقول هذه الرواية دون ماعدها من الروايات[1] أن «أياز» غلام السلطان محمود قد ساءه ما رآه من انصراف «الفردوسى» عنه فأخذ يكيد له لدى السلطان ويتهمه بالزندقة والكفر حتى أعلنه السلطان بذلك صراحة وقال له: إن زنادقة هذا المذهب(أى القرامطة والإسماعيلية) يأتون من طوس ولكنى عفوت عنك على شريطة أن تقلع عنه .

وتقول هذه الرواية إن الشاعر اختفى بعد ذلك بضعة أشهر فى مدينة « غزنه » منتهزاً الفرصة ليسترد من مكتبة السلطان نسخة «الشاهنامه» فلم تم له ذلك لجأ إلى أحد الوراقين فى « هراة » ؛ ويتغير اسم هـذا الوراق فى هذه الرواية فتذكره على

---

(١) يذكر « نولدكه » فى مقالته ص ٢٢ أن مقدمة « بايسنقر» تذكر أن والد الفردوسى كان يسمى : « فخر الدين أحمد بن فرخ الفردوسى » .

(٢) أنظر مقالة « نولدكه» ص ٢٦ .

أنه « أبو المعالى » وليس « اسماعيل » ثم تمضى بقية رواية « دولتشاه » على هذا الحو وتذكر لنا بعض التفاصيل والأقاويل المختلفة ولكنها تتفق فى خلاصتها مع ماذكرناه فى الرواية السابقة .

أما الأخبار المستقاة من مؤلفات الفردوسى نفسه ، فهى إذا صح نصها[1] أهم المصادر عن تاريخ حياته ؛ وقد قلنا فيما سبق أن الأستاذ « نولدكه » والدكتور «إتيه» قاما على دراستها دراسة عميقة كلفتهما كثيراً من العناء والصبر ، ومن المستحيل على فى كتاب ضيق النطاق مثل كتابى هذا أن أذكر كل ما وصلا إليه من نتائج ، بل إن ذلك لايتحتم على لزاما ، لأن كل دارس متفحص للشاهنامه سيرجع بالضرورة إلى ما كتبه أولهما فى مقالته « الملحمة القومية الإيرانية » وإلى المقالات التى كتبها الآخر عن هذا الموضوع وألحقها بطبعته لمنظومة الفردوسى المعروفة «يوسف وزليخا» وكذلك إلى فصول مقالته التى كتبها بالألمانية بعنوان « الآداب الفارسية الحديثة » وهى المنشورة فى المجلد الثانى من « المفصل فى الدراسات اللغوية الإيرانية » .

وإذا تحرينا الإيجاز فإنه يبدو لنا أننا كنا على حق فى افتراض أن الفردوسى كان «دهقانا» من دهاقين «طوس» وأنه كان يعيش عيشة ميسرة لاضنك فيها ، وأنه ولد حوالى سنة ٩٢٠ م = ٣٠٨ ﻫ أو بعد ذلك بقليل من الزمن ، وأنه شغف بالأخبار القديمة والروايات الشعبية ، فقرأ فيها كتابا منثورا من تأليف « أبى منصور المعمرى » جمعه « لأبى منصور بن عبد الرزاق » حاكم خراسان فى سنة ٩٥٧م = ٣٤٦ ﻫ واستقى فيه أخباره من أقدم المصادر الفارسية ، فدفعه ذلك إلى نظم « الملحمة القومية » وفرغ من نسختها الأولى فى سنة ٩٩٩ م = ٣٩٠ ﻫ بعد خمسة وعشرين سنة من العمل المتصل ، ثم أهداها بعد ذلك إلى « أحمد بن محمد بن أبى بكر الخالنجانى[2] » كما أهدى نسختها الثانية التى تمت حوالى سنة ١٠١٠م = ٤٠١ ﻫ إلى السلطان «محمود» وأعقب ذلك مباشرة غضبه على السلطان وهربه من مدينة «غزنه» . ثم لجأ فترة قصيرة إلى أحد الأمراء البويهيين[3] وألف

---

(١) فى كثير من الأحيان يضطرب النص ويبدو سقيماً .

(٢) نسبة إلى خالنجان .

(٣) يرى «نولدكه» أن هذا الأمير البويهى هو «بهاء الدولة» أو ابنه «سلطان الدولة» الذى خلفه فى سنة ١٠١٢ م = ٤٠٣ ﻫ أما «إتيه» فيرى أن هذا الأمير هو «مجد الدولة أبو طالب رستم».

له منظومته الكبيرة الأخرى « يوسف وزليخا » وعاد بعد ذلك إلى بلدته «طوس» رجلا مسنا قد نيف على التسعين من عمره ، فمكث بها حتى أدركته منيته في سنة ١٠٢٠ أو ١٠٢٥ م = ٤١١ أو ٤١٦ هـ على وجه التقريب .

مؤلفات الفردوسي :

ولننتقل الآن إلى ذكر مؤلفات الفردوسي . وهي تشتمل كما هي بين أيدينا الآن على ما يلي :

١ — الشاهنامه .

٢ — المنظومة الروائية « يوسف وزليخا » .

٣ — عدد غير قليل من الغزليات حفظته لنا كتب التراجم والمختارات ؛ وقد جمعه ونشره وترجمه الدكتور «إتيه» فى مقالاته التى سبق ذكرها بعنوان «الفردوسى كشاعر غنائى» .

ولاشك أن شهرة «الفردوسى» فى قول الشعر راجعة إلى نظمه للشاهنامه ؛ ويكاد الناقدون الشرقيون والغربيون يجمعون على الإعجاب الشديد بهذه الملحمة الهائلة . ولكنى أنا شخصيا فى كثير من الخجل والتورط أعترف لهم بأنى لم أستطع مطلقا أن أشاركهم ماهم فيه من تحمس وإعجاب . فالشاهنامه — فى رأيى — لا يمكن أن ترقى إلى مستوى « المعلقات » العربية ، وهى وإن كانت المثال والقالب اللذين احتذتهما أشعار الملاحم فى أراضى الإسلام قاطبة ، إلا أنه لا يمكن من ناحية الجمال والعاطفة والذوق الفنى مقارنتها بأجود الأشعار التعليمية أو الروائية أو الغزلية التى قالها شعراء الفرس . ومن المسلم به أنه من المستحيل المناقشة فى الأمور المتعلقة بالذوق الفنى ، وخصوصاً ما تعلق منها بالأدب ، ولعل إخفاقى فى تذوق الشاهنامه ناشىء من نقص طبيعى فى حسى يجعلنى أمج أشعار الملاحم عامة ، ولا غضاضة على فى ذلك فكلنا معرض لمثل هذا النقص فى بعض النواحى ، خاصة فيما يتعلق بالموسيقى ، فألحان « واجنر » قد تطرب شخصا من الناس فتصل به إلى مرتبة التجلى والوجد ، بينما لا يهتم بها الآخرون أو يحسون عند سماعها بشىء من الضجر والتململ . وحتى إذا

أخذنا ذلك فى الحسبان ، فلا أستطيع إلا أن اعترف بأنى أشعر بأن « الشاهنامه » بها جملة من العيوب الثابتة المحددة . فطولها مبالغ فيه ، وقد اقتضاه بالطبيعة نطاق الموضوعات التى تحدثت عنها ، وهى تشمل كل التاريخ الخرافى الذى عرفته إيران منذ أقدم الأزمنة إلى الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ؛ والشاهنامه كذلك مملة من حيث الوزن الذى صيغت فيه هى وبقية المنظومات الحماسية الفارسية . وليت الأمر يقتصر على ذلك بل إن التشبيهات الكثيرة التى تتردد فيها تبدو لى مملة مضجرة للغاية ؛ فكل بطل فيها هو الأسد الرابض أو الفيل الهائج أو التمساح المائج ، وإذا تحرك فهو الدخان المتطاير أو الغبار المتناثر أو الريح الصافر ...!!

وإذا صح أن الأثر الأدبى إذا ترجم فقد ما امتاز به من جمال فى الأسلوب والتركيب ، ولم يستطع إلا المهرة المترجمين الاحتفاظ بجمال عباراته ومبانيه ، فإنه من المسلم به أيضاً أنه من اليسر بمكان أن نحتفظ فى الترجمة بجمال أفكاره وروعة معانيه . ومن أظهر الأمثلة على ذلك أن « فتزجرالد » استطاع أن ينقل لنا فى ترجمة رائعة « رباعيات الخيام » بما اشتملت عليه من جمال وروعة ؛ ولكن أمر الشاهنامه على النقيض من ذلك تماماً ، فهى تصمد فى وجه المترجمين جميعاً ، وتعجزهم عن أية ترجمة مقبولة لها ، لأن الروعة الموسيقية التى تطن بها ألفاظها تضيع بالضرورة عند الترجمة تاركة لنا الأفكار التى تشتمل عليها عارية جرداء .

ولست أدعى مطلقاً المهارة فى قول الشعر ، وأنا اعترف أن كثيراً من شعراء الفرس والعرب قد أصابهم شىء من الغبن بسبب ما نشرت من ترجمات لأشعارهم فى هذه الصفحات ؛ ولكنى مع ذلك استطيع أن أقطع فى اطمئنان بأن قليلا جداً من قرائى الإنجليز الذين سيقرأون القطع المختلفة التى ترجمتها من الشاهنامه فى هذا الجزء الحالى من كتابى أو الجزء الذى سبقه ، سيترددون فى الحكم بأنهاdون ما ترجمت من أقوال لشعراء آخرين .

---

(١) هذه الروعة لايمكن أن ينكرها كل من استمع للمنشدين المحترفين الذين ينشدون الشاهنامه ، وهم الذين يعرفون لدى الفرس باسم « شاهنامه خوان » .

وإذا صحت وجهات النظر هذه التى أبديناها ، وهى تخالف المألوف والمعروف فلماذا إذن فازت الشاهنامه بشهرة عريضة وذاع صيتها ذيوعاً عظيما لا مثيل له فى إيران وكذلك فى جميع البلاد التى يدرسون فيها اللغة الفارسية ..؟ أما ذيوعها فى إيران ، فأهم أسبابه أن الفرس يعتزون بها كسجل خالد لعظمتهم القومية التى اتصفوا بها منذ أقدم العصور ، والتى أخذت بعد ذلك للأسف فى التدهور والفتور . وقد انتقل رأى الفرس هـــذا إلى جميع المشتغلين بالفارسية فى كافة البــلاد الأسيوية والأوروبية واعتنقه فيمن اعتنقه المستشرقون الأوروبيون الأوائل ، واعتبروه رأيا صحيحاً جديراً بالتصديق والتسليم ، وجاء بعــدهم جماعة من المستشرقين أسلم رأيا وأكثر تدقيقاً ، ولــكن بعض العوامل الأخرى أثرت فيهم وجعلتهم لا يحيدون عن هذا الرأى لما وجدوه فى «الشاهنامه» من دراسة لغوية « فيلولوجية » باعتبارها من أقدم الـكتب الفارسية التى عرفت بحرصها الشديد على استبعاد الألفاظ العربية ، ولما لمسوه فيها من روح « هلينية » تميل إلى تمجيد العبقرية الآرية والحط من قـــدر الشعوب السامية ، ولما عرفوه من أهمية كبيرة لمحتوياتها فيما يتعلق بالأساطير والخرافات الشعبية ؛ فإذا أضفنا إلى ذلك كلــه أن الفردوسى فاز من مواطنيه بشهرة عظيمة بسبب نظمه للشاهنامه وحدها ، وعلمنا أن رأى هؤلاء هو العماد بغير شك فيما يذهبون إليه ، ووجدنا أن هـــذه الشهرة العريضة مازالت لاصقة به منذ البداية حتى هذه الأزمنة ، لا يعتريها وهن أو تغيير ، فإنه من العسير علىّ أنْ أفصح عن رأيى الشخصى أكثر مما ذكرت . ولكنى فى هذه المناسبة أحب أن ألفت نظر المستشرقين الأوروبيين إلى أنه لو صح لنا دائما أن نأخذ برأى الواطنين فى شعرائهم فإن « المتنبى[1] » يجب أن يفوز بما فاز به « الفردوسى » تماماً من شهرة عريضة وصيت ذائع ولو أن بعضهم قد أنكر عليه ذلك وقسا عليه فى حكمه .

وقــد ترجمت فى الجزء السابق من كتابى هــذا جملة من مقطوعات الشاهنامه المتصلة بقصة « اردشير » وبينت فيها كيف كان «الفردوسى» أميناً فى متابعة المصادر

---

(١) كان المتنبى معاصراً للفردوسى تقريباً فقد ولد سنة ٩٠٥ م = ٢٩٣هـ ومات مقتولا سنة ٩٦٥م = ٣٥٤هـ .

التى نقل عنها ، ثم اتبعت ذلك ببحث مطول عن الموضوعات والميزات التى اشتملت عليها هذه الملحمة الفارسية . ونطاق الكتاب الحالى لا يسمح لى بأن أعيد فى هذا هذا المكان ما سبق لى ذكره فيما مضى . ومن أجل ذلك فسأقتصر على إيراد مثل آخر منها هو عبارة عن ترجمة السطور الأولى من قصة « رستم وسهراب[1] » الشهيرة ؛ وهى أبيات يعترف الجميع بأنها من أروع ما جاء فى الشاهنامه ، ونصها موجود فى الجزء الأول من طبعة « ترنر مكن » ص ٣١٥—٣١٦ وهو[2]:

كنون رزم «سهراب» و «رستم» شنو
دیگرها شنیدستی این هم شنو
یکی داستان است پر آب چشم
دل نازك از « رستم » آید بخشم
اگر تند بادی بر آید ز کنج
بخاك افكند نا رسیده ترنج
ستم کاره خوانش ار دادگر
هنرمند گویش ار بی هنر
[٥] اگر مرگ دادست بیداد چیست
ز داد این همه بانگ وفریاد چیست
ازین راز جان تو آگاه نیست
بدین پرده اندر ترا راه نیست
همه تا در آز رفته فراز
بکس وا نشد این در آز باز
برفتن مگر بهتر آیدت جای
چو آرام گیری بدیگر سرای

---

(١) أصبحت هذه القصة معروفة لدى الإنجليز بفضل تلخيصها الرائع الذى نشره « ماثيو آرنولد » .

(٢) المترجم : نقل «براون» هذه الأبيات إلى الإنجليزية محاولا محاكاة الأصل بالمحافظة على الوزن والقافية . وقد أثبت هنا الأصل مع ترجمة منشورة له .

اگر مرگ کس را نیوباردی
ز پیر وجوان خاك بسپاردی
اگر آتشی گاه افروختن
بسوزد عجب نیست زو سوختن
بسوزد چو در سوزش آید درست
چو شاخ نو از بیخ کهنه برست
دم مرگ چون آتش هولناك
ندارد ز برنا وفرتوت باك
جوان را چه باید بگیتی طرب
که نی مرگ راهست پیری سبب
درین جای رفتن نه جای درنگ
بر اسپ قضا گر کشد مرگ تنگ
چنان دان که دادست بیداد نیست
چو داد آمدش بانگ وفریاد چیست
جوانی وپیری بنزد أجل
یکی دان چو در دین نخواهی خلل
دل از نور إیمان گر آگنده‌ٔ
ترا خامشی به که تو بندهٔ
پرستش همان پیشه کن با نیاز
همه کار روز پسین را بساز
برین کار یزدان ترا راز نیست
اگر دیو با جانت انباز نیست
بگیتی در ان کوش چون بگذری
سر انجام إسلام با خود بری
کنون رزم « سهراب » گویم درست
از ان کین که او با پدر چون بجست

ومعنـاها :

— استمع الآن إلى قصة « رستم » و « سهراب »
واصغ إليهـا كما اصغيت إلى غيرها من قصص عجاب ..!!

— فهى قصة مليئة بدموع العيون والأشجان
تثير القلوب الرقيقـــة ضد « رستم » سيد الشجعان

— وإذا هبت الرياح العاتية فى ركن من الأركان
أطاحت بالثمـار الفجة وأسقطتها عن الأغصان

— وإنى لأسميه ظالما ، ولو عرف بالعدل والإنصاف .
وإنى لأسميه فاضلا ، ولو عرف بالجهل والإسفاف

— وإذا كان الموت عدلا ... فماذا يكون الظلم والاعتساف ... ؟ !
وما كل هذا العويل والصياح طلبا للعدل والإنصاف ... !!

— ولن تعلم روحك شيئا من أمر هذا السر الدفين
ولن تـكشف طريقك ماوراء هذا الحجاب المـكين ... !!

— ولقد أسرع جميع الأنام حتى بلغوا باب الحرص والأمل
فلمـا بلغوه وأدركوه ... أنسد عليهم وانقفل ... ! !

— ومن يدرى ... ؟ فربما يطيب مقامك متى رحلت عن هذه الدنيا الفانية
وظفرت بالراحة والسكينة فى الدار الباقية ... ! !

— ولو لم يبتلع الموت بعض الأشخاص فى كل زمان
لامتلأت الأرض ، وازدحمت ساحتها بالشيب والشبان ...!!

— ومتى اتقدت النار ساعة إشعالها ، وسرى بها اللهيب
فليس عجيبا أن يزداد ضرامها الرهيب ... ! !

— ومتى اتقدت النار استمر ضرامها ، واتصلت لهبها العظيمة
ونبتت كما تنبت الأغصان النضيرة من الجذور القديمة ... ! !

— وما أشبه لحظة الموت بهذه النـار ذات الهول
فهى لا ترهب أحدا ، ولا تبقى على فتى أو كهل ... ! !

— وعلام يفرح الشبان بهذه الدنيا ، وعلام يطرب بها الشباب
وليست الشيخوخة وحدها علة الموت ... بل تنوعت الأسباب ... !!
— فإذا انقض عليك الموت ممتطيا جواد القضاء ، وضيق عليك الخناق
في هذه الدار العاجلة ... دار الرحيل والفراق
— فاعلم أن الموت حق على جميع الأرواح
وأن الأمر الحق متى جاء فلا يغني الصياح والنواح ... !!
— وإذا لم تشأ أن تصيب دينك بالفساد والخلل
فاعلم أن الشباب والشيب سواء أمام سيف الأجل ... !!
— وإذا كان قلبك مليئا بنور اليقين والإيمان
فخير لك الصمت ، فإنك عبد من عبيد الرحمن ... !!
— وثابر على التعبد والصلاة والضراعة
وهيء أمورك ، وأعدّ عدتك لقيام الساعة ... !!
— وليس هناك سر يخفى عليك من أمر ربك
مادام الشيطان لايكون قرينا لروحك وقلبك
— فأقصر سعيك على هذا ، في هذه الدنيا العابرة
فإذا مت ... فزادك الإسلام في الدار الآخرة
— واستمع إليّ الآن ... فسأقص عليك مباشرة حرب « سهراب »
وكيف نشأت الحرب بينه وبين أبيه ، وما كان بينهما من أمور عجاب .....!!

ويؤكد بعض النـاس أحيانا أن « الشاهنامه » لا تكاد تشتمل على شيء من الألفاظ العربية ، وهذا الرأي خاطيء كل الخطأ ، لأن « الفردوسي » حقيقة قد تحاشى بقدر ما يستطيع استعمال هـذه الألفاظ في ملحمته لما أحسه فيها من عدم انسجام مع موضوع منظومته ، ولكن كثيرا من الألفاظ العربية كان قد تأصل في اللغة الفارسية في هذا الوقت بحيث أصبح من المستحيل عليه أن يتحاشاها أو يتجنب استعمالها . والأبيات التي ذكرناها فيما سبق يبلغ عددها الواحد والعشرين بيتا وهي تشتمل على عدد من الألفاظ يبلغ (٢٥٠) لفظا ؛ نجد من بينها تسعة ألفاظ عربية الأصل هي :

عجب — طرب — سبب — قضا — عجل — خلل — نور — إيمان — إسلام ؛ كما نجد فيها لفظة نصف عربية هى « هولناك ».

وهذه النسبة هى السائدة فى صفحات الشاهنامه بحيث تبلغ الألفاظ العربية فيها أربعة أو خمسة فى المائة من مجموع ألفاظها .

يوسف وزليخا :

نأتى بعد ذلك إلى المنظومة الثانية من مؤلفات « الفردوسى » الشعرية ونقصد بها مثنويته التى موضوعها قصة « يوسف وزليخا » . وهذه القصة قد أضفوا على أصولها المجردة كثيرا من الزيادات والإضافات ، وأصبحت من أكثر الموضوعات التى يطرقها الشعراء الرومانتيكيون فى إيران وتركيا ، ولم يكن « الفردوسى » أول من طرقها كما أشار إلى ذلك الدكتور «إتيه» فقد سبقه إلى نظمها — كما ورد فى أحدى المخطوطات — شاعران آخران أحدهما من بلخ اسمه «أبو المؤيد» والآخر من الأهواز اسمه « البختيارى » وقد ضاعت منظومتاهما جميعا ولم يبق لنا إلا منظومة الفردوسى التى بقيت على الزمن بفضل مجهود الدكتور « إتيه » الذى لا يعرف الكلل . ونسخة هذه المنظومة نادرة فى بلاد المشرق ولكنها وفيرة فى مكتبات انجلترا وفرنسا ، ويوجد فيهما من نسخها على الأقل سبع نسخ ، من بينها نسخة لم يرها الدكتور « إتيه » وقد وجدها الدكتور « إ . دنيسون روس[1] » فى مجموعة المخطوطات التى كانت مملوكة للسير «وليم جونز » وهى المخطوطات التى تحفظ الآن بإدارة الهند .

وقد طبعت هذه المنظومة على الحجر ثلاث مرات فى الهند ومرة واحدة فى إيران ، ثم يسر لنا بعد ذلك الدكتور « إتيه » قراءتها بنصها فى طبعة سليمة من

---

(١) المترجم : السيردنيسون روس Sir E. Denison Ross. كان مديراً لمعهد الدراسات الشرقية بلندن ، وعليه تلقيت دراساتى الشرقية أثناء التحاقى بهذا المعهد فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٩٣١ و١٩٣٦ وقد أدركته الوفاة فى استانبول أثناء الحرب العالمية الأخيرة .

نشرياته ، كما ترجمها إلى الألمانية نظما « شلشتا وسرد : Schlechta-Wssehrd » فى مدينة ڤينا سنة ١٨٨٩ .

والدكتور «إتيه» هو مرجعنا فى هذه المنظومة ، فقد قام على دراستها ومقارنتها بالمنظومتين المتأخرتين اللتين نظمهما فى نفس هذا الموضوع الشاعران « جامى » ١٤٨٣ م = ٨٨٨ ﻫ و « نظامى الهروى (١) » ، ويرى « إتيه » أنهما جديرة بالإعجاب ، وهو يخالف فى هذا الرأى نقاد الفرس الذين يحطون من قدرها ويرون أن الفردوسى قد نظمها بعد ما غاض شبابه وذوى عنفوانه وانحطم قلبه بسبب النكد الذى استولى عليه لنظمه للشاهنامه ، ويرون كذلك أنه صاغها فى نفس الوزن والأسلوب اللذين صاغ فيهما ملحمته وهما فى الحقيقة لا يصلحان لنظم القصص الرومانتيكية .

غزليات الفردوسى :

وإذا نظرنا إلى الأمثلة التى بقيت لنا من غزليات الفردوسى فى كتب التراجم والمختارات وجدنا أن النقاد قد غمطوها حقها . وقد أشرت فيما سبق إلى المقالات التى نشرها الدكتور « إتيه » عن هذا الموضوع . ومن أجل ذلك فسأقتصر فى هذا المكان على إيراد مثلين من غزليات الفردوسى . الأول منهما مذكور فى كتاب « تاريخ گزيده (٢) » والآخر فى كتاب « لباب الألباب (٣) » لمحمد عوفى .

والغزلية الأولى نصها كما يلى :

شبى در برت گر بر آسود مى   سر فخر بر آسمان سود مى
قلم در كف تير بشكستمى   كلاه از سر مهر بربودمى
بقدر از نهم چرخ بگذشتمى   به پى فرق كيوان بفرسودمى

(١) منظومة «جامى» هى المعروفة من هاتين المنظومتين .

(٢) أنظر تاريخ گزيده طبع لندن سنة ١٩١٠ م ص ٨٢٤ وكذلك مقالتى عن شعراء الفرس المنشورة فى مجلة الجمعية الملكية الأسيوية عدد أكتوبر سنة ١٩٠٠ ويناير سنة ١٩٠١

(٣) أنظر «لباب الألباب» ج ٢ ص ٢٣ .

به بيچارگان رحمت آوردمى : بدرماندگان بر ببخشودمى

ومعناها :

— لو أنني هدأت ليلة واحدة فى صدرك ... !!
لشمخت برأسي إلى السماء فى فخر وازدهوت عجباً بك ...!!

— ولحطمت قلم « عطارد » فى كفه ... !!
ولنزعت تاج « الشمس » عن مفرقها ... !!

— ولنفذت من أطباق السماء التاسعة ...
ولذرعت مفرق « كيوان » بأطراف أقدامى .. !!

— ثم لجلبت الرحمة للبؤساء والمساكين ...
ولعفوت عن الخاطئين والمقصرين ... !!

أما القطعة الثانية فنصها :

بسى رنج ديدم بسى گفته خواندم	ز گفتــار تازى واز پهلوانى
بچندين هنر شست ودو سال بودم	چه توشه برم ز آشــكار ونهانى
بجز حسرت وجز وبال گناهان	ندارم كنون از جوانى نشــانى
بيــاد جوانى كنون مويه دارم	بر آن بيت بو طاهر خسروانى
جوانى من از كودكى ياد دارم	دريغــا جوانى دريغــا جوانى

ومعناها :

— ما أكثر ما رأيت من أهوال ، وما أكثر ما أنشدت من أقوال ... ! !
وما أكثر ما رددت من كلام عربى وپهلوى ... ! !

— ولقد بقيت اثنتين وستين سنة أنشر فنون الفضل والعرفان
فأى فائدة أفادتنى ، وماذا كسبت منها فى السر والإعلان ... ؟ !

— لم يبق لى من كل ذلك إلا الحسرة ، وإلا الوبال والذنوب ...!
ولم أعد أذكر من الشباب أثراً إلا ما أنا فيه من كروب ... ! !

ـــ وأصبحت أبكى الشباب بما تفيض به دموعى وأشجانى ...
وأصبحت أردد فى ألم بيت « أبى طاهر الخسروانى » ... ! !
ـــ وأقول كما قال : إننى أذكر الشباب وأيام الطفولة والصغر ...
فيا أسفا على الشباب ... ويا ويلتاه من الشيخوخة والكبر ... !!

اسدى :

الشاعر التالى الذى يستحق شيئاً من عنايتنا هو أسدى الكبير «أبو نصر أحمد ابن منصور الطوسى» . ويجب أن نفرق بينه وبين ولده «على بن أحمد الأسدى» مؤلف «گرشاسب نامه»، ومؤلف أقدم القواميس الفارسية(١)، وناسخ أقدم مخطوطة فارسية وصلت إلى أيدينا (٢) ، وهى المخطوطة التى أكمل نسخها فى سنة ١٠٥٥م = ٤٤٧ ﻫ وتوجد الآن فى مكتبة « ڤينا » وقد نشرها « زيلجمان » فى سنة ١٨٥٩ م .

وربما كان من الخير لو أننا قدمنا دراسة « أسدى الأكبر » على « الفردوسى » لأن الأخير منهما كان تلميذاً للأول فيما يقولون ، وكان كذلك من أصدقائه وأبناء بلدته ؛ ولكن يجب أن أشير إلى أنى لا ألزم نفسى بمتابعة الترتيب الزمنى الدقيق فى دراستى لمختلف العصور ، ولو فعلت ذلك لكان تاريخ وفاة « أسدى » ـ وقد مات بعد «الفردوسى» ـ مبرراً لى فى الترتيب الذى اتبعته ؛ خاصة وأن كتب التراجم الإسلامية لا تذكر إلا تاريخ الوفاة دون غيره من التواريخ ؛ ولدى بالإضافة إلى ذلك ما يقطع بأن «أسدى» كان أكبر الشاعرين .

ومعرفتنا بحياة «الأسدى» ضئيلة للغاية ، فلم يذكره «اللباب» ولا «چهار مقاله» أما كتاب «تاريخ گزيده» فذكر اسمه فقط مقترناً بكتاب « گرشاسب نامه » الذى لم يكن من تأليفه بل من تأليف ولده المعروف باسم « أســـدى الأصغر » . أما « دولتشاه » فيذكر لنا كعادته كثيراً من الأخبار والتفاصيل ، ولكنها على حالها

(١) المترجم : يقصد « فرهنگ اسدى » وقد طبعه المستشرق « پول هورن » .
(٢) المترجم : يشير إلى النسخة المخطوطة من كتاب « الأبنية عن حقائق الأدوية» للموفق ابن على الهروى .

تعتبر عديمة الفـائدة ، لأنه لم يعتمد فى سردها على أى مصـدر سابق جدير بالثقة والتصديق . ومن ادعاءاته مثلا قوله أنهم عرضوا على الأسدى نظم الشـاهنامه ، ولـكنه اعتذر من ذلك بتقدم سنه وكبر عمره ، ووكل إلى تلميذه « الفردوسى » أن يقوم بنظمها ، فلما رقد «الفردوسى» على فراش الموت فى «طوس» وأخذ يجود بأنفاسه الأخيرة كانت أربعة آلاف بيت من ملحمته ما زالت باقية لم يكملها فتولى «الأسدى» إكمالها فى يوم وليلة ، ثم قرأها عليه فى صبيحة اليوم التالى ، وبذلك استطاع أن يثلج صدر «الفردوسى» وهو فى النزع الأخير من عمره . ولا ينسى «دولتشاه» أن يعين لنا على وجه التحديد هذه الأبيات التى أكملها «الأسدى» فقال إنها الأبيـات التى تبدأ بالفتح العربى لإيران وتنتهى بانتهاء الـكتاب . وأضاف إلى ذلك قوله : « إن الفضلاء يجمعون على أنه يمكن بشىء من التدقيق التمييز بين الأبيات التى نظمها الفردوسى وبين تلك التى نظمها الأسدى» .

وفى مكتبة كامبردج مخطوط لـكتاب «دولتشاه[1]» على هامشه الملاحظة الآتية تعليقاً على ما جاء فى هذه الرواية الخيالية :

« إن الفردوسى كما سيذكر عنه فيما بعد هو الذى أكمل الشاهنامه بنفسـه، ومن الواضح الجلى أن أحداً لم يشترك معه فى نظمها ، لأنه بعد أن أكملها وأهداها إلى السلطان محمود استطاع بإحدى الحيل أن يستردها من خازن كتبه وأن يضيف إليها هجويته الشهيرة للسلطان ؛ ومن هذا يتضح أن ما ذكر آنفـاً يتنافى مع هذا الدليل » .

وقد اطلع شخص آخر على هذا التعليق السليم فوقع تحته بالفارسية «نيكو گفتى» أى « لقد أبدعت القول ... !! » .

وشهرة « الأسدى » راجعة إلى أنه هو الذى أكمل وأحكم « شعر المناظرة » وقد يقال إنه هو الذى أبدعه ؛ وقد درس الدكتور « إتيه » هذه المسـألة وضمن

(١) هذا المخطوط هو الرقيم : Add. 831 .

النتائج التى وصل إليها فى أعمال المؤتمر الدولى الخامس للمستشرقين الذى عقد فى برلين سنة ١٨٨٢ م تحت عنوان : « Uber Persische Tenzonen » .

والمعروف عن «الأسدى» أنه نظم خمس منظومات من هذا النوع من شعر المناظرة هى الآتية :

١ — مناظرة بين العربى والفارسى .

٢ — مناظرة بين السماء والأرض .

٣ — مناظرة بين الرمح والقوس

٤ — مناظرة بين الليل والنهار .

٥ — مناظرة بين المسلم والمجوسى (الزردشتى) .

وفيما يلى سألحق ترجمة كاملة للمناظرة الرابعة كما وردت فى كتاب « دولتشاه ». أما القارىء الذى يريد الاطلاع على فحوى المنظومات الأخرى وما اشتملت عليه من إشارات إلى حياة الشاعر وأعماله فإنى أحيله إلى ما كتبه « إتيه » فى مقالته التى سبق ذكرها ، وإلى الصفحات ٢٢٦ — ٢٢٩ من مقالته التى تضمنها كتاب « جيجر » و « كون[1] » الذى عنوانه « المفصل فى الدراسات اللغوية الإيرانية : «Grundriss der Iranischen Philologie

أما المناظرة بين « الليل والنهار » فنصها بالفارسية كما يلى[2] :

[مناظرهٔ شب وروز : از گفتار أسدى]

بشنو از حجت گفتار شب وروز بهم
سر گذشتى كه ز دل دور كند شدت غم

هر دورا خاست جدال از سبب بيشى فضل
در بيان رفت فراوان سخن از مدحت وذم

---

(١) يكتب هذان الاسمان بالحروف الرومانية هكذا : Kuhn & Geiger .

(٢) المترجم : لا يذكر « براون » نص أمثلته فى كتابه ولكنى ذكرتها دائماً فى هذه الصفحات ، ثم ترجمتها بالرجوع إلى الأصل الفارسى ومقارنتها بالترجمة الإنجليزية .

گفت شب : فضل شب از روز فزون آمد از آنك
روز را باز ز شب کرد خداوند قدم
نزد یزدان ز پرستنده واز عابد روز
ساجد وعابد شب راست فزون قدر وقیم
قوم را سوی مناجات بشب برد کلیم
هم بشب گشت جدا لوط ز بیداد وستم
قمر چرخ بشب کرد محمد بدو نیم
سوی معراج بشب رفت هم از بیت الحرم
هر مهی باشد سی روز وبقرآن شب قدر
بهتر از ماه هزار است ز بس فضل وشیم
ستر پوش است شب وروز نماینده عیب
راحت افزاست شب وروز فزاینده ألم
هست در روز ز أوقات که تهیست نماز
وز نماز همه شب فخر نبی بود وأمم
منم آن شاه که تختم زمی است ایوان چرخ
مه سپهدار وهمه أنجم سیاره خدم
هر مه سال عرب را عدد از ماه منست
بر سر منست از پر جبریل رقم
بر رخ ماه من آثار درستیست پدید
بر رخ وچهره خورشید تو آثار سقم
راست خورشید تو چندانکه بسالی برود
کم ز ماهی برود مه از کیف وز کم

* * *

روز از شب بشنید این وبر آشفت وبگفت
خامش کن چه در آئی سخن نا محکم

روز را عیب بطعنه چه کنی کایزد عرش
روز را پیش ز شب کرد ستایش بقسم
روزهٔ خلق که دارند بروزست همه
بحرم نیز بروزست حج از رب حرم
عید وآدینهٔ فرخ عرفه وعاشورا
همه روزست چو بینی بهم از عقل وفهم
روز خواهد بود بر خاستن خلق بحشر
روز شد نیز وجود همه مردم ز عدم
تو بعاشق نه برنجی وبأطفال نهیب
در تن دیو دلی بر دل بیمار ستم
بوم وخفاش بشب مرغ وسیه جنی ودیو
دزد اکثر همه شب کرد وهمه أهل تهم
من بأصل از خور چرخم تو بجنس از دل خاك
من چو تابان ضوء نارم تو چو تاریك فحم
روی آفاق ز من خوب نماید ز تو زشت
دیدهٔ خلق ز من نور فزاید ز تو نم
مر مرا گونهٔ اسلام وترا گونهٔ کفر
مر مرا جامهٔ شادیست ترا جامهٔ غم
تو بچهر از حبشی فخر بحسن از چه کنی
حبشی را چه رسد حسن اگر هست صنم
سپه وخیل نجوم چه باشند که بیاك
بگریزند چو خورشید من افراخت علم
چه زیان کت به نبی پیش ز من داشت خدای
در نبی نیز هم از پیش سمیعست أصم
خلق الموت بخوان گرچه حیات از پس اوست
به ز موتست بهر حال حیات آخر هم

گر ز ماه تو شناسند مه وسال عرب
ز آفتابم همه دانند مه وسال عجم
گرچه زرد آمده خورشید او به ز مهست
گرچه زرد آمده دینار هم او به ز درم
ماه تو از ضوء خورشید من افزاید نور
وز پی خدمت خورشید کند پشت بخم
گر ز خورشید سبکتر رود او پیك ویست
پیك البتة سبکتر نهد از شاه قدم
از فریضه سه نمازست بروز ودو بشب
ز ان نماز تو کم آمد که ز من هستی کم
ور بقولم نبوی راضی وخواهی که بود
در میان حکم کنی عدل خداوند حکم
یا پسند آر بگفتار . شه عادل زاد
یا رضا ده برئیس الوزرا کان کرم
راد بو نصر خلیل أحمد کرا نصرت وجود
افسر جاه وجلالست وسر ملك ونعيم

ومعناها :

ب س حجة إلى حديث الليل والنهار
لحديثهما حكاية ممتعة تبعد عن القلوب شدة الحزن والغم ... !!
— فقد نشأ بينهما جدال لمعرفة أيهما أكثر فضلا
فجرى بينهما حديث طويل بين المدح والذم ...!!
— قال الليل : إن الليل يفضل النهار لهذه الأسباب :
وهى إن الله أخرج النهار من الليل ... !!

— ولدى الله يكون الساجد والعابد أثناء الليل
أعلا قدراً من الساجد والعابد أثناء النهار ... !!

— وقد استصحب « موسى » قومه إلى المناجاة أثناء الليل
وكذلك فى الليل ابتعد «لوط» عن مواطن الظلم والإثم ...!!

— وفى الليل شق «محمد» القمر إلى نصفين
وفى الليل خرج إلى معراجه من بيت الحرم ...!!

— والليل ستار للعيوب ، والنهار فضاح للذنوب
والليل جلاب للراحة والهناء ، والنهار جلاب للألم والعناء ...!!

— وفى النهار أوقات تخلو من الصلاة
وأما صلاة الليل بأجمعه ففيها فخر النبى والأمم ... !!

— وأنا ملك اتخذت الأرض عرشاً ، والفلك إيوانا ،
والقمر حارساً ، والكواكب السيارة خدما .... !!

— وأشهر السنة العربية عبارة عن عدد من أقمارى
وعلى رأسى رقم من أجنحة جبريل ... ! !

— وعلى طلعة قمرى ... تبدو آثار الصحة والعافية
وعلى طلعة شمسك ... تبدو آثار السقم والهزال ... !!

— ودورة شمسك تستغرق سنة كاملة
ودورة قمرى تستغرق أقل من شهر واحد ... !!

* * *

— استمع النهار إلى حديث الليل هذا ، ثم ثار وقال فى استهزاء :
صمتا . صمتا ... وكيف جاز لك أن تهرف بمثل هذا الهراء ... !!

— وكيف جاز لك أن تطعن فى النهار .. وصاحب العرش المتعالى ،
قد اقسم بالنهار فقدمه على ذكر الليالى ...!!

— وصيام الناس جميعا مجعول فى وقت النهار
وكذلك الحج إلى البيت الحرام جعله الله فى هذا الوقت السار ... !!

— والعيد وصلاة الجمعة ووقفة عرفات وعاشوراء
كلها مجعولة نهاراً ... إذا نظرت بعين العقل والذكاء ....!

— وفى النهار سيكون بعث الناس وحشرهم
وفى النهار أيضاكان خلقهم ووجودهم ..!!

— وما أكثر رهبتك للأطفال ، وما أكثر آلامك للعاشقين
وأنت شيطان مريد ، تقسو على المرضى والمساكين . !!

— والبوم والخفاش وطيور الليل والجن الأسود والشياطين
جميعها تظهر بالليل ، وكذلك اللصوص والمجرمون ..!!

— وأصلى مشتق من فلك الجوزاء ، وجنسك مشتق من جوف الغبراء
وأنت مظلم كالفحم القاتم ، وأنا منير كالنار ذات الضياء ..!!

— وبى يزدان وجه الأفق ، وبك يبدو فى قبح شنيع ..!!
ويزداد النور بضيائى فى أعين الخلق ، وأماظلمتك فتكثر فيها الدموع ...!!

— ولى نور الإسلام ، ولك ظلمة الكفر والعصيان
ولى أردية الهناء ، ولك أردية الهموم والأحزان ... !

— وكيف تفخر بالحسن ولك وجه حبشى كثير الإظلام ..!!
وكيف يصل الحسن إلى حبشى ولو كان من أبهى الدمى والأصنام ..!!

— وماذا تكون جيوش نجومك وهى تفر من الشمس فى خوف ووجل
ومتى رفعت شمسى أعلامها ... هربت أمامها على عجل ..!!

— وأى ضرر يصيبنى .. إذا ذكرك الله قبلى فى القرآن
فقد جاء ذكر «الأصم» قبل «السميع» فى آيات الفرقان[1] .

---

(١) المترجم : إشارة إلى ماجاء فى سورة هود آية ٢٦ حيث قال تعالى (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون) .

— واقرأ فى الكتاب قوله : « خلق الموت » فقد ذكر «الحياة» من بعده[١]
وإن كانت « الحياة » على كل حال خير من « الموت » وحده ...!!

— وإذا كانت سنة « العرب » تعرف بأقمارك
فإن سنة «العجم» تعرف بشمسى كذلك ...!!

— والشمس وإن أصفرت ، خير من القمر فى بهائه
وكذلك الدينار وإن أصفر ، خير من الدرهم فى بياضه ...!!

— وقمرك يستمد نوره من ضوء الشمس
وينحنى فى خدمتها إجلالا وتكريماً ...!!

— وهو وإن أسرع عن الشمس فى دورته ، فما هو إلا رسولها ،
والرسول بغير شك يتقدم الملك فى سيره وخطاه ..!!

— وفى النهار ثلاث صلوات ، وفى الليل وقتان للصلاة
وقد انقصوا من صلواتك لأنك تنقص عنى فى قيمتك ...!!

— فإذا لم ترض بقولى ، وشئت الاقتناع والقبول
فاجعل الحكم العدل بينى وبينك هو الله الحكيم ...!!

— واقنع بقول الملك العادل الكريم
أو ارض برئيس الوزراء فهومنجم الجود والإحسان ...!!

— وهو أبو نصر الخليل بن أحمد الذى أصبح النصر
تاجا لجاهه وجلاله ، والجود أساسا لملكه ونعيمه ...!!

ولايفوتنا أن نذكر أن «الأسدى» أغضب السلطان «محمودا الغزنوى» بإحدى مناظراته هذه وهى التى جعلها بين « العربى والعجمى » وذلك لما أورده فيها من مدح لأميرين من خصومه من أمراء البويهيين هما «شمس الدولة أبو طاهر الهمدانى»

---

(١) المترجم : إشارة إلى ماجاء فى سوره الملك الآية الثانية حيث يقول تعالى (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا).

(٩٩٧—١٠٢١م=٣٨٧—٤١٢هـ) ومجدالدولة أبوطالب رستم(٩٩٧—١٠٢٩م = ٣٨٧—٤٢٠ هـ). وفى هـذا مثال آخر لما كانت عليه نفسية السلطان من حقد وحسد.

أبو الفرج السجزى :

أبو الفرج السجزى متقدم زمنا عمن ذكرناهم من الشعراء فيما سبق ، ولكنه نال لهم فى الأهمية والمكانة ، كما إنه لا يبلغ مبلغ تلميذه «منوچهرى» الذى سنتحدث عنه بعد قليل . ومن أهم الرجال الذين شملوا السجزى بالرعاية « أبو على سيمجور» وهو واحد من الضحايا الذين أودت بهم أطماع السلطان محمود الغزنوى ، وقد قيل إنه مات فى سنة ١٠٠٢م= ٣٩٣هـ . وتكاد حياة السجزى وظروفه تكون مجهولة لنا تماما ولو أن « دولتشاه » كعادته لا يضن عليه ببعض الأخبار(١) كما لا يضن عليه بذكر مقطوعة واحدة من أشعاره هى الآتية :

عنقاى مغربست درين دَوْر خرمى
خاص از براى محنت ورنجست آدمى
چندانكه گرد عالم صورت بر آمديم
غمخواره آدم آمد وبيچاره آدمى
هر كس بقدر خويش گرفتار محنتست
كس را نداده اند برات مسلمى

وترجمتها :

— إن السعادة فى هذا الزمان نادرة كعنقاء المغارب
وكأنما الحياة قد خصصت من أجل المكاره والنوائب ....!!
— ومهما طال طوافى حول عالم الصور والظواهر
فإننى لم أر فيها إلا قعيد الهموم والكروب الغوادر ....!!

---

(١) أنظر « تذكرة الشعراء » ص٣٩—٤٠ .

— وقد نزلت المحن على كل شخص بقدر طاقته
ولم يبرأ أحد براءة كاملة من نصيبه وحصته ..!!

منوچهری :

أما «منوچهری» فقد كان تلميذاً للسجزى . وقدعاش حتىسنة ١٠٤١ = ٤٣٣هـ أو بعد ذلك ؛ وقد ذكرناه فيما سبق وترجمنا له قصيدة من أشهر قصائده(١) وليس من السهل الحصول على نسخة ديوانه، ولكن الأستاذ «ا.دى بيرستين كازيميرسكى»(٢) قام على طبعه فى پاريس سنه ١٨٨٦ مع ترجمة كاملة له ، ألحق بها كثيرا من التعليقات والملاحظات والمقدمات التاريخية الرائعة . وقد طبع قبل ذلك بما يقرب من ست سنوات طبعة على الحجر فى مدينة طهران . وتحدث «دولتشاه» عن هذا الديوان فقال : « إنه مشهور معروف فى أنحاء إيران ». ويؤخذ من بيت من أبيات الديوان أن « منوچهرى » كان من بلدة «دامغان» التى تبعد بما يقرب من خمسين ميلا إلى جنوب « استراباد » على الطريق من طهران إلى مشهد . وفى هذا ماينتافى مع ما ذكره « دولتشاه » عن نسبته إلى « بلخ » أو « غزنه » .

ويذكر «عوفى»(٣) إن اسمه الكامل هو «أبوالنجم أحمد بن قوص(٤) بن أحمد المنوچهرى» ثم لا يجود عليه بعد ذلك بشئ من الأخبار إلا أنه كان على صغر سنه شديد الذكاء وقد أدركه الموت وهو فى شبابه وغض إهابه ، ويقولون إنه كان يلقب بلقب « شست كله » وهو تعبير يحتمل كثيراً من التفاسير(٥) ولكنهم فى العادة يفسرونه بمعنى « صاحب الستين قطيعا » إشارة إلى ماكان له من غنىً وثراء . ومن العجيب أن « عوفى » لا يذكر شيئاً عن هذا اللقب ؛ وقد عثرت على نبذه فى كتاب «راحة

(١) أنظر ص ٤٢ — ٤٧ من هذا الكتاب .
(٢) كتابة الإسم بالرومانية هكذا : A. de Biberstein Kazimirski.
[المترجم : طبع أخيراً ديوان منوچهرى فى تهران سنة ١٣٢٦ هـ.ش باهتمام «محمد دبيرسياقى»]
(٣) أنظر « لباب الألباب » ج ٢ ص ٥٣ — ٥٥
(٤) الدكتور (إتية) يستبدل (قوص) بـ (يعقوب) .
(٥) أنظر ص ٣ من طبعة (كازيميرسكى) .

الصدور » الذى ألفه «الراوندى» فى تاريخ السلاجقة(١) ، يستفاد منها أن اثنين من الشعراء كانا يعرفان باسم « منوچهرى » وأن الكتاب المتأخرين قد اختلط عليهم الأمر فجعلوهما شخصاً واحداً ؛ أما هذان الشاعران فهما :

(ا) أبو النجم أحمد منوچهرى : الشاعر الذى عاش فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى = الخامس الهجرى .

(ب) شمس الدين أحمد منوچهر : الشاعر الذى عاش فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى = السادس الهجرى وهو الذى كان يعرف باسم «شست كله» . وليس فى أيدينا الآن شىء من أشعاره ، وكل ما نعرفه عنه أنه أنشأ قصيدة عرفت باسم « قصيدة تماج » نسبة إلى قافيتها فيما يظن .

وفيما يلى ترجمة كاملة لقصيدة أخرى من قصائد « منوچهرى » الحقيق وصف فيها «الشمعة» وانتهى فيها إلى مدح «العنصرى» ؛ وهذه القصيدة مذكورة فى ديوان الشاعر وكذلك فى كتابى «عوفى» و «دولتشاه » .

وفيما يلى نصها فى كتاب « تذكرة الشعراء »(٢) :

أى نهاده بر ميان فرق جان خويشتن
جسم ما زنده بجان وجان تو زنده بتن

گر نهٔ كوكب ، چرا پيدا نگردى جز بشب
ور نهٔ عاشق چرا گريى همى بر خويشتن

كوكبى آرى وليكن آسمان تست موم
عاشق آرى وليكن هست معشوقت لگن

---

(١) أشرت إلى هذا الكتاب الهام فى مقال كتبته فى «مجلة الجمعية الملكية الأسيوية» سنة ١٩٠٢ ص ٥٨٠ — ٥٨١ .
المترجم : وقد طبع هذا الكتاب الأستاذ محمد اقبال سنة ١٩٢١ ضمن سلسلة جب التذكارية
(٢) المترجم : أنظر ص ٤١ — ٤٢ وكذلك توجد هذه القصيدة فيما عدا الأبيات الأربعة الأخيرة فى كتاب « لباب الألباب » ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥ .

پیرهن در زیر تن داری وپوشد هر کسی
پیرهن بر تن تو تن پوشی همی بر پیرهن
گر بمیری آتش اندر تو رسد زنده شوی
چون شوی بیمار خوشتر گردی از گردن زدن
تا همی خندی همی گریی واین بس نادرست
هم تو معشوقی وهم تو عاشقی بر خویشتن
بشکفی بی نوبهار وپژمری بی مهرگان
بگریی بی دیدگان وباز خندی بی دهن
تو مرا مانی بعینه من ترا مانم همی
دشمن خویشیم هر دو دوستدار انجمن
خویشتن سوزیم هر دو بر مراد دوستان
دوستان در راحتند از ما وما اندر حزن
هر دو گریانیم وهر دوزرد وهر دو در گداز
هر دو سوزانیم وهر دو فرد وهر دو ممتحن
آنچه من در دل نهادم بر سرت بینم همی
آنچه تو بر سر نهادی در دلم دارد وطن
روی تو چون شنباید بر شگفته بامداد
وآن من چون شنبلید نا شگفته در چمن
از فراق روی تو گشتم بدو آفتاب
وز فراق تو شب تاری شد ستم مفتتن
من دگر یاران خودرا آزمودم خاص وعام
نی طلبکاری ز یك تن نی وفا اندر دو تن
رازدار من توئی ای شمع یار من توئی
غمگسار من توئی من آن تو تو آن من

تو همی تابی چو نور ومن همی خوانم بمهر
هر شبی تا روز دیوان أبو القاسم حسن
اوستاد اوستادان زمانه «عنصری»
عنصر دین ودلش بی عیب وبی غش وفتن
شعر او چون فضل او هم بی تکلف هم بدیع
فضل او چون شعر او هم نازنین وهم حسن
زین فزونتر شاعری دعوی بود لاف وگزاف
این حکیمان دگر یکفن واو بسیار فن
در زغن هرگز نباشد فن اسب راهوار
گرچه باشد چون صهیل اسب آواز زغن
تا همی خوانی تو أشعارش همی خائی شکر
تا همی بوئی تو أبیاتش همی بوئی سمن

وترجمتها :

— يا مَن وضعتِ روحك فوق رأسك
إن أجسامنا تحيَ بالروح ، ولكن روحك تحي بجسدك ... !!
— إذا لم تكونى كوكبا ... فلم لا تظهرين إلا أثناء الليل ... !!
وإذا لم تكونى عاشقة ... فلم تدعين البكاء على نفسك ... !!
— نعم .. أنك كوكب ساطع .. ولكن سماءك مصنوعة من الشمع الناصع
وأنك عاشقة حقاً ... ولكن معشوقك هو هذا الوعاء الرائع ... !!
— ومن عجب .. أنك ترتدين قميصك تحت طيات جسمك (١)
وكل إنسان يلبس قميصه فوق جسده ، بينما أنت ترتدين جسدك فوق قميصك... !!
— ومن عجب .. أنك إذا مت واتصلت بك شعلة من نار ، دبت فيك الحياة ثانية
ومن عجب .. أنك إذا مرضت ، تحسن حالك بقطع رأسك ... !! (٢)

---

(١) قميص الشمعة هو ذؤابتها التى تشتعل ، وجسدها هو الشمع الذى صنعت منه .
(٢) المترجم : إذا قطعت فتيلة الشمعة وأصلحت زاد النور المنبعث منها .

— ومن العجب وأندر العجب .. أنك تضحكين وتبكين فى آن واحد
ومن العجب وأندر العجب .. أنك أنت العاشق والمعشوق فى وقت واحد ... !!

— ومن عجب ... أنك تزدهين بغير ربيع ، وتذوين بغير خريف
وتبكين بغير عين ، وتضحكين بغير ثغر أو فم ...!!

— وما أشبه حالى بحالك ، وما أشبه حالك بحالى
فكلانا يخاصم نفسه ، لكى يكون خادما للمجتمع ...!!

— وكلانا يحترق ، وكلانا يصيبه الهزال والاصفرار ، وكلانا يذوب وينصهر
وكلانا يديم البكاء ، وكلانا فى محنة الوحدة والعناء ... !!

— وها أنذا أرى فوق رأسك ما أخفيتة فى قرارة قلبى [أى النار]
وأرى النار التى توجت بها رأسك قد توطنت فى دخيلة نفسى ... !!

— وإن مدامعك لهى الذهب المصهور تذيبينه فوق خدودك الذهبية
وأما خدودى فهى الأزهار الصفراء الذابلة من بين أزهار الخمائل ... !!

— ولقد أصبح من عادتى النوم أثناء النهار ، لأنى من أجلك
أديم السهر طوال الليل ، وتثقل رأسى بالنوم طول النهار ... !!

— ولقد أصبحت خصما للشمس عندما افترق عن طلعتك
وأصبحت مفتتنا بوصالك طوال الليل البهيم ...!!

— ولقد جربت أصدقائى جميعا فى كل الأوقات والأحوال
فلم أر سرا يحفظ فى قلوبهم أو وفاءاً يستقر فى ربوعهم ... !!

— وأما أنت أيتها الشمعة ... فصديقتى الخالصة المؤتمنة على أسرارى
وأنت الملطفة لأحزانى ... وقد أصبحت ملكا لك كما أصبحت ملكا لى ... !!

— وما دمت تحترقين فإننى سأظل أقرأ على نورك فى حب وحنين
ديوان « أبى القاسم حسن » حتى مطلع النهار المبين[1] ... !!

---

(١) هذا هو اسم العنصرى ، ويعتبر هذا البيت هو بيت الإنتقال من التشبيب إلى المديح ويعرف فى الفارسية باسم « گريزگاه » .

ــ وهو « العنصرى » أستاذ الأساتذة فى هذا الزمان
وقد خلا عنصره من كل عيب ، وقلبه من الغش ، وروحه من الافتتان ... !!

ــ وشعره شبيه بفضله .. كلاهما بديع لا تكلف فيه
وفضله شبيه بشعره .. كلاهما ملىء بالرقة والروعة والحسن ... !!

ــ ومن العبث أن يدعى مدع أنه يتفوق عليه فى البلاغة ونظم الكلام
فإن الحكماء جميعا لهم فضل واحد ، وللعنصرى من الأفضال ألوان وفنون ..!!

ــ ولن يكون للغراب مهما نعب صوت يشبه صهيل الجواد الأصيل
ولو تشابه نعيب الغراب مع ما للجواد من صهيل ... !!

ــ وأنك لتمضغ فتات السكر عندما تأخذ فى إنشاد أشعاره
وأنك لتشم أريج الياسمين من عبيق ديوانه وأزهاره ....!!

يضاف إلى ذلك أن « منوچهرى » اختار لنفسه هذا التخلص نسبه إلى حاكم طبرستان الأمير الزيارى «منوچهر بن قابوس بن وشمگير» الملقب بفلك المعالى . وقد تولى حكم خراسان بعد قتل أبيه فى سنة ١٠١٢ م = ٤٠٣ هـ ، ومات فى سنة ١٠٢٨ م = ٤١٩ هـ

غضائرى :

تحدثنا فيما سبق عن هذا الشاعر الذى ينسب إلى مدينة الرى ويعرف باسم « غضائرى الرازى » واستشهدنا على صنعة « الإغراق » بقصيدته التى مدح بها السلطان محمودا الغزنوى وكيف فاز منه ــ كما يقولون ــ بسبعة أكياس من الذهب تبلغ قيمتها أربعة عشر ألف درهم ، وفى هذه القصيدة يقول بيتيه الآتيين :

صواب كرد كه پيدا نكرد هر دو جهان
يگانه ايزد دادار بى نظير وهمال
وگرنه هر دو ببخشيدى او بروز سخا
اميد بنده نماندى بايزد متعال

ومعناها :

— كان من الصواب أن الله الفرد العادل الذى لا نظير له
لم يكشف للانسان كلا العالمين (أى الدنيا والآخرة) ....!!
— ولو أنه فعل ذلك ، لجاد الملك بهما جميعا فى يوم السخاء
ولم يبق للعبد مطمع آخر يرجوه من رب السماء ... !!

وما أقل ما كتبه « عوفى » و « دولتشاه » عن هذا الشاعر بحيث يمكن أن نقول صادقين أننا لا نكاد نعرف عنه شيئا سوى أنه كان مبرزا فى إنشاء شعر المناظره والمديح .

بهرامى :

ذكرنا فيما سبق أيضا الشاعر « بهرامى السرخسى » وقلنا إنه قد ألف كتابا فى العروض والشعر اسمه « خجسته نامه » ، وقد ذكر صاحب « چهار مقاله » فى كثير من الإعجاب كتابين آخرين من تأليفه هما :

(ا) غاية العروضيين
(ب) كنز القافية

ويبدو أنه قد ألف كتبا أخرى منثورة فى فنون البلاغة والشعر ، ولكنها جميعا قد ضاعت مع الزمن ولم تسلم من غاراته .

ولم يذكر « دولتشاه » هذا الشاعر ولكن «عوفى» ذكره فى عبارة مختصرة وأورد له جملة من المقطوعات تبلغ الست أو السبع .

* * *

ولقد يمكن أن نطيل القائمة التى تشتمل على الشعراء الذين عاشوا فى هذا العصر لأن « عوفى » يذكر منهم عددا يزيد على أربعة وعشرين شاعرا ، يضاف إليهم من خصه بالذكر صاحب كتاب « چهار مقاله » ومن بينهم الشاعرة «رابعه بنت كعب» والشعراء « لبيبى » و « أمينى » و « أبو الفضل » و «الطالقانى» و « المنشورى » و « العطاردى » و « زينتى العلوى المحمودى » .

ويبدو من البيتين الآتيين وقد قالهما الشاعر الأخير فى مطلع إحدى قصائده وهما :

اى خـدا وند روزگار پنـاه   مطربان را بخوان وباده بخواه
تا بدان لعـل مى فرو شوئيم   كامهارا ز گرد وخشـكى راه

ومعناها :

— مولاى .. يا كهف الأنام والأيام
ادع المطربين ، ومر بكؤوس المدام .. ! !
— حتى نستطيع أن نغسل حلوقنا بهذه الخمر الياقوتية الحمراء
مما علق بها من غبار الطريق وجفاف الهواء ..!!

أنه كان فى رفقه السلطان « محمود الغزنوى » فى إحدى غزواته الكثيرة لبلاد الهند وقد أشار إلى ذلك أيضا فى مقطوعة أخرى ذكرها « عوفى » فى كتابه وهى:

زخون عـدو كرد فتنة نشـانى   بتيغت همـه زنـگ بدعت زدائى
مگر نذر دارى كه هر مه كه نو شد   شهى را ببندى وشهرى گشـائى
مگر عهد دارى كه همچون سكندر   ملوك زمين را تو قدرت نمـائى

ومعناها :

— فقد هبطت الفتنة بدماء الأعداء
ومحقت صدأ البدعة بسيفك القاطع .. !!
— فهل نذرت مع كل هلال يولد فى بداية الشهر
أن تأسر ملكا أو تفتح بلدة جديدة .. !!
— أو هل تعاهدت كما فعل « الإسكندر » من قبل
أن تظهر قدرتك وتقهر ملوك الأرض أجمعين .. !؟

* * *

وفيما عدا ذلك ما زال ثلاثة من الشعراء الذين لم نذكرهم فى هذا الفصل يتطلبون منا حتما شيئا من الحديث وهم :

(ا) بندار الرازى : المنسوب إلى مدينة «الرى» وهو من شعراء اللهجات الخاصة
(ب) كسائى المروزى : المنسوب إلى مدينة « مرو »

(ج) أبو سعيد بن أبى الخير : الشاعر الصوفى صاحب الرباعيات

وآخر هؤلاء الثلاثة هو أكثرهم شهرة وبعد صيت ، وقد عاش طويلا (من سنة ٩٦٨—١٠٤٩م ٣٥٨ — ٤٤١ هـ) وتخطى الفترة الفاصلة بين العصرين السامانى والسلجوقى ، ومن أجل ذلك فسنخصص له مكانا جديرا به فى الفصل التالى الذى سنطيل الحديث فيه عن الشعر الدينى والتعليمى بقدر ما نقلل فيه من الحديث عن أشعار الملاحم والمديح

ويبقى علينا أن نتحدث عن الشاعرين الآخرين « پندار » والـ « كسائى »

بندار الرازى :

أما «پندار» فيقال إنه كان يدعى بـ «كمال الدين» ولا نكاد نعرف من أمره شيئاً إلا أنه كان فى خدمة الأمير البويهى « مجد الدولة أبى طالب رستم » الذى كان يحكم مدينة الرى ، وأنه كان قبل ذلك فى خدمة الرجل العظيم «الصاحب إسماعيل بن عباد » .

ويقال إن «پندار» توفى سنة ١٠١٠م=٤٠١هـ وإنه كان قادراً على نظم الشعر باللغات العربية والفارسية والديلمية .

ولست أستطيع أن أجد شيئاً ذكر عن « پندار » أسبق مما ذكره «دولتشاه» فى كتابه[1]؛ أما «عوفى» و«ابن اسفنديار» فقد سكتا عنه سكوتا تاماً ، ومن عجب أن «دولتشاه» كان فى الحديث عنه مقلا على غير عادته ، واكتفى بأن يذكر مثلين من أشعاره ؛ أحدهما فى اللغة الفارسية ، والآخر فى اللغة الديلمية ، وقد وجه المثال الأخير منهما إلى أحد أصدقائه عندما نصحه بأن يتزوج ، ولغته مفهومة لنا بالقدر الذى يكشف عن مضمونه ، ولكننا لا نجسر على ترجمته ترجمة دقيقة صحيحة . أما المثال الأول فمعروف مشهور وهم ينسبونه إلى أكثر من واحد من الشعراء المشهورين .

---

(١) انظر « تذكرة الشعراء » ص ٤٢ — ٤٤ .

ونصه :

از مرگ حذر كردن دو روز روا نيست
روزى كه قضا باشد وروزى كه قضا نيست
روزى كه قضا باشد كوشش نكند سود
روزى كه قضا نيست درو مرگ روا نيست

ومعناه :

— لا يصح الحذر من الموت فى يومين على السواء
يوم يقع فيه القضاء ، ويوم يمتنع فيه القضاء ...!!
ـ فاليوم الذى يقع فيه القضاء ، لا يجدى معه كفاح الأقوياء
واليوم الذى لا يقع فيه القضاء ، لايجوز فيه الموت والفناء ..!!

وقد ذكر « دولتشاه» بالإضافه إلى ذلك بيتاً من الشعر قاله الشاعر المتأخر «ظهير الدين الفاريابى» ومدح فيه الشاعر «پندار» ونصه :

در نهان خانهٔ طبعم بتماشا بنگر تا ز هر زاويهٔ عرضه دهم پندارى

ومعناه :

— انظر إلى الأعماق الخافية فى طبيعتى ولو نظرةً واحدة فى اختصار
فسأعرض عليك فى كل ركن من أركانها شاعراً فى مهارة « پندار »

ولكنى أشك فى أن كلمة «پندار» المذكورة فى هذا البيت من أسماء الأعلام ، وربما كانت من أسماء المصادر بمعنى «الفكر» أو «الخيال»(١).

وفى مقابل الأخبار القليلة التى رواها دولتشاه عن « پندار » نجده يعوضنا عن قلتها بحكاية كبيرة الدلالة رواها عن والدة « مجد الدولة » وكانت تقوم بالوصاية عليه أثناء صغره ، ومجمل القصة أن « مجد الدولة » اعتلى العرش وهو صبى

(١) بعد ما انتهيت من كتابة هذا الفصل عثرت على هذا البيت فى كتاب « مجالس المؤمنين » وبذلك ينتفى ماعرض لى من شك ، ويتحتم أن يكون المقصود بلفظة «پندار» هو هذا الشاعر ، ولكنه ذكر هنا بالباء الموحدة هكذا : « بندار » .

صغير فى سنة ٩٩٧م =٣٨٧هـ فقامت أمه بالوصاية عليه وأمسكت بأزمة الأمور فى أيديها الحازمة . وقد قيل إن السلطان محمودا طالبهـا بالجزية والخراج فلما رفضت هددها بأن يرسل إليهـا ألفين من أفياله الحربية لتخرب مدينـة « الرى » وتحمل ركامها إليه فى مدينة «غزنه» . فاستقبلت الوالدة رسول محمود وأكرمت وفادته وأعطته هذه الرسالة ليبلغها إلى مولاه ، وقالت فيها :

« لا شك أن السلطان محمودا بطل من أبطال الإسلام . وهو من أقوى الأمراء والحكام ، وقد دانت له أكثر الأنحاء فى إيران وبلاد الهند ، ولطالما خشيت سطوته ومحاربته طوال السنوات الإثنتى عشرة التى عاشها زوجى «فخرالدولة». ولـكن منذ انتقل زوجى إلى جوار ربه وقـد انزاح عن قلبى هذا الخوف الذى ملك نواصيه ، لأنى أجد أن السلطان محموداً من أكبر الملوك وأعزهم شرفاً ، ولن يقدم على محاربة امرأة عجوز مثلى ؛ فأمّا إذا اختار الحرب والقتـال فمن المؤكد أنى لن أتردد عن الطعن والنزال ، فإن وفقنى الله إلى التغلب عليه فسيذكر لى هذا النصر إلى يوم الدين ، وأما إذا فاز بالنصر على فسيتحدث المتحدثون فيقولون : إنه لم يفز إلا على امرأة عجوز .. ! وإنى ليأخذنى العجب كيف يتيسر له فى مثل هـذا الحالة أن يعلن هذا الفوز ، وفى أى صوره يذيعه فى أنحاء ملـكه العريض ..؟ وقديماً قالوا «كيف يمكن أن يكون رجلا من نقصت همته عن همة النساء ...؟! » وإنى لأعرف أن السلطان عاقل حازم ، ولن يقدم على مثل هذا الأمر ، ومن أجل ذلك فإنى أنعم على أريكة الهدوء والراحة ، لا يأخذنى شىء من الخوف أو الشك فيما ستنتهى إليه عاقبة الأمور » .

ويقول «دولتشاه» إن هذا الخطاب أفاد الفائدة المرجوة منه فلم يقدم السلطان على محاربة هذه المرأة طوال حياتها ، ولم يهاجم شيئاً من أملاك ابنها . ومما يضفى على هذه القصة كثيراً من البهاء أن «ابن الأثير» ذكر أنه مالبثت هذه المرأة أن ماتت فى سنة ٤١٩هـ حتى أغار السلطان محمود فى السنة التـالية (٤٢٠ هـ = ١٠٢٩م) على مدينة الرى وخلع عنها ابنها «مجد الدولة» ثم دخلها أثناء الربيع وأخذ من أهلها ألف ألف دينار وما يساوى نصف هذا المقدار من الحلى والمجوهرات ، وستة آلاف ثوب من القماش

والخلع النفيسة ، ومقداراً كبيراً من مختلف الأسلاب والغنائم . ثم دعا إليه « مجد الدولة» وقال له : ألم تقرأ الشاهنامه وتاريخ الطبرى[١]..؟! فلما أجابه مجد الدولة بالإيجاب التفت إليه ثانية وقال له : يبدو لى من خلقك أنك لم تقرأ هذين الكتابين ، فهل تلعب الشطرنج ..؟! فأجابه مجد الدوله بالإيجاب مرة ثانية ، وهنا التفت إليه محمود وقال له : ألم يعرض لك مطلقاً كيف يدنو الملك من الملك الآخر فى رقعته..؟! فأجاب مجد الدولة فى هذه المرة بالنفى . عند ذلك سأله محمود : فلماذا إذن أبحتَ لنفسك أن تنازل من هو أقوى منك سبباً وأوسع سلطانا ..؟! ثم أمر بعد ذلك بنفيه فى خراسان ، وأتبع ذلك بصلب جماعة من الباطنية أو الاسماعيلية وتشريد المعتزلة وحرق كتبهم وكتب الفلاسفة والمنجمين ، فلما اشبع رغبته وشفى غلته حمل مئات الأحمال من الكتب الباقية ونقلها إلى مدينة «غزنه»[٢].

الكسائى :

ويجدر بنا فى نهاية هذا الفصل أن نذكر شيئا عن « الكسائى» ؛ وهو من أشهر الشعراء الذين ظهروا فى زمانه ، ولكننا لا نذكره فى هذا المكان من أجل ذلك فحسب ، بل من أجل العلاقات التى كانت تربطه بالرجل الخطير والشاعر العظيم «ناصر خسرو» الذى سنتحدث عنه بالتفصيل فى الفصل التالى من هذا الكتاب .

والكسائى يختلف عن «پندار» فى أن القدماء قد درسوه أكثر من المحدثين ، وقد خصص له «عوفى» أكثر من خمس صفحات من كتابه[٣] واعتبره صاحب «چهار مقاله» واحداً من كبار الشعراء السامانيين[٤]، ولكن «دولتشاه» أهمله تماماً ولم يذكر عنه شيئاً على الإطلاق .

---

(١) الظاهر أنه اختار هذين الكتابين خاصة لأن الأول به سير ملوك الفرس والثانى به سير ملوك المسلمين عامة .

(٢) انظر «تاريخ ابن الأثير» طبع القاهرة الجزء التاسع ص ١٢٨ .

(٣) انظر «لباب الألباب» ج ٢ ص ٣٣ — ٣٩ .

(٤) انظر چهار مقاله ص ٤٥ وقد سماه هنالك « أبا الحسن » لا « أبا إسحق » كما ذكر الدكتور « إتيه ».

وقد ولد في يوم الأربعاء ١٦ مارس سنة ٩٥٣م=٢٧شوال سنة ٣٤١ﻫ ، وذلك وفقاً لما قاله في إحدى قصائده التي نقلها عوفي في كتابه[١] والتي ذكر الشاعر فيها : « إنه نظمها في أواخر أيام حياته وفي أيام الوداع وساعات الفراق عند ما بلغ الخمسين من عمره . وقد كرر العبارة الأخيرة صراحة مرتين في هذه القصيدة . واستنتج الدكتور «إتيه» من هذا أن الكسائي مات في سنة ١٠٠٢ م=٣٩٣ﻫ (ذكر ذلك في مقالته[٢] التي نشرها عن هذا الشاعر سنة ١٨٧٤) ولكنه عاد بعد ذلك وعدل عن هذا الرأي في مقالته التي نشرها بعنوان «الآداب الفارسية الحديثة» في «المفصل في الدراسات اللغوية الإيرانية » ص ٣٨١ . واقترض أن هذا الشاعر عاش إلى أن بلغ أرذل العمر وأن الخصومة قامت حقاً بينه وبين « ناصر خسرو» الذي ولد كما يقول هو نفسه ، في سنة ٣٩٤ ﻫ=١٠٠٣ م .

ويرى الدكتور «إتيه» أن احتقار «ناصر خسرو» للكسائي كان مرجعه إلى الحقد وإلى الاختلافات الدينية التي فرقت بينهما ، وقد فسر هذه الاختلافات بطريقة لا أقره عليها ، لأنه قال ان الأول اعترض على الثاني إنكاره للخلفاء الراشدين الثلاثة ، وبمعنى آخر أن ميول الكسائي الشيعية كانت معادية لميول «ناصر» الذي كان بدوره من غلاة الشيعة كما تدلنا على ذلك قصائده الكثيرة ، وقد ظل هو نفسه بعض الوقت ، كما أخبرتنا بذلك كتب التاريخ ، شيخاً لدعاة الإسماعيلية في ولاية خراسان .

أما السبب الحقيقي في كراهية « ناصر خسرو » للكسائي فيرجع فيما أظن إلى أن الأول منهما كان تابعاً للاسماعيليه أي من فريق « السبعية » وأما الثاني فكان من فريق « الإثني عشرية » . وكلا الفريقين كما هو معلوم نشآ من أصل واحد ولكنهما اختلفا بعد ذلك كل الاختلاف فيما يتعلق بالبيعة وما نتج عن ذلك من أغراض سياسية ونظرية . يضاف الى ذلك أن «ناصر خسرو» كان يبغض السلطان محموداً بغضاً شديداً لأنه كان كما رأينا من ألد أعداء الإسماعيلية وغيرهم من الملاحدة ، بينما وقف «الكسائي»

---

(١) المترجم : انظر « لباب الألباب » ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) انظر مقالته بعنوان « غزليات الكسائي » وقد نشرها في « محاضر جلسات المعهد العلمي البافاري للفلسفة والعلوم » سنة ١٨٧٤ م ص ١٤٣ـ١٥٣ .

مواهبه — رغم تشيعه — لخدمة هذا السلطان وقول المدائح فيه . وفي هذين السببين — كما يبدو لى — الإيضاح الكافى الذى يفسر لنا سبب النفور الذى وقع بين هذين الشاعرين .

ومع ذلك فلم أجد فى ديوان « ناصر خسرو » إلا سبع قطع[1] أشار فيها إلى «الكسائى» وهى الواقعة فى الصفحات ١٩ و٢٨ و٣٨ و ٥١ و١٣٣ و٢٤٧ و٢٥١ من ديوانه المطبوع على الحجر فى مدينة تبريز سنة ١٢٨٠ هـ . وفيما يلى نصها وترجمتها:

الإستشهاد الأول فى ص ١٩ يقول البيت الآتى :

گر بخواب اندر كسائى ديدى اين ديباى من
سوده كردى شرم وخجلت مر كسائيرا كسا

ومعناه :

— لو رأى « الكسائى » فى منامه هذا الديباج المنمق من أشعارى . . .
لتمزق كساءه خجلا واستحياءاً من آثارى . . . ! !

الاستشهاد الثانى ص ٢٨ يقول البيت الآتى :

گر سخنهاى كسائى شده پيرند وضعيف   سخن حجت با قوت وتازه وبرناست

ومعناه :

— إذا كان للكسائى كلام ، فكلامه ضعيف قاصر ... ! !
أما كلام «الحجة»[2] فكلام قوى ممتع ناضر ... ! !

الاستشهاد الثالث فى ص ٣٨ يقول البيت الآتى :

ديبهٔ رومى است سخنهاى او   گر سخن شهره كسائى كساست

---

(١) المترجم : بالرجوع إلى « ديوان قصائد ومقطعات حكيم ناصر خسرو » المطبوع فى طهران سنة ١٣٠٤ — ١٣٠٧ هـ . ش نجد أن اسم الكسائى ورد تسع مرات فى أشعار « ناصر خسرو » . وقد أوردت نصوص الأبيات من هذه الطبعة .

(٢) يقصد لقبة الذى عرف به بين الاسماعيلية وهو «حجة خراسان» .

ومعناه :

ــ وكلامه (أى شعر ناصر خسرو) هو الديباج الرومى . . . ! !
إذا كان كلام الكسائى الشهير هو الكساء العادى ... !!

والرابع ص ٥١ يقول البيت الآتى :

كه ديباى رومى است اشعار من   اگر شعر فاضل كسائى كساست .

ومعناه :

ــ وأما أشعارى فهى الديباج الرومى ...
إذا كانت أشعار الكسائى الفاضل هى الكساء العادى ... ! !

والخامس ص ١٣٣ يقول البيت الآتى :

شَعر شــدى گر بشنيدى بشرم   شعر تو بر پشت كسائى كساش

ومعناه :

ــ فإن كساء الكسائى ليصبح شَعراً على ظهره . . . . ! !
إذا استمع فى خجل إلى شعرك وجمال أثره . . . ! !

والسادس ص ٢٤٧ يقول البيت الآتى :

تا تو بدل بندهٔ إمام زمانى   بندهٔ شعر تو ست شعر كسائى

ومعناه :

ــ ما دمت من صميم قلبك خادما لإمام الزمان[1]
فإن أشعار «الكسائى» ستكون خادمة لشعرك ... ! !

والسابع فى ص ٢٥١ يقول البيت الآتى :

با نو سخنان او كهن گشت   آن شهره مقالت كسائى

---

(١) يقصد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله .

ومعناه :

— وبالقياس إلى أشعاره (اى أشعار ناصر) الجديدة النضيرة ...
تقادم العهد على مقالة الكسائى الشهيرة ... ! !

وليس فى حوزتى للأسف هذه المادة الغزيرة التى كانت فى متناول الدكتور « إتيه » ولكنى مع ذلك لا أجد فى هذه الأبيات التى نقلناها عنه فيما سبق ، ولا فى سائر ديوان « ناصر خسرو » شيئاً يدل على تحقير الكسائى ، بل على العكس من ذلك نجده يمجده ويعظمه ، لأن الشاعر إذا أخذ يفخر على عادة الشرقيين المألوفه ، فإنه يذكر عن نفسه أنه أعلا شأناً وأكثر خطراً من كل عظيم سبقه أو عاصره ، ولو حاد عن هذه الطريقة لنزل من عليائه وارتضى بالخيبة والفشل .

وعلى ذلك فقد كان « الكسائى » بغير شك من الشعراء المشهورين فى زمانه ؛ ولقد ذكرنا أنه كان شيعياً يتغنى فى قصائده بمدح على وآل البيت ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يشيد بذكر السلطان محمود وكرمه ، كما لم يمنعه ذلك أيضاً من التغنى بالخمر والشراب . وخمره فى هذه الحالة كانت خمراً حقيقية لا مجازية كالتى تغنى بها أصحاب الصوامع والمتصوفون .

ولقد ذكرنا فيما سبق أنه نظم قصيدة وهو فى الخمسين من عمره ، وهذه القصيدة كما يقول « إتيه » وأنا معه فى الرأى ، تدل على أنه فى هذا الوقت أصابه شىء من التغيير فى حياته وتفكيره ، فأخذ يهجر حياة اللهو العابث ، ويروض نفسه على التعفف والتزهد فهو يقول فى هذه القصيدة (١) :

بسيصد وچهل ويك رسيد نوبت سال
چهار شنبه وسه روز باقى از شوال
بيامدم بجهان تا چه گويم وچه كنم
سرود گويم وشادى كنم بنعمت ومال

---

(١) المترجم: نقلت النص الفارسى من « لباب الألباب » ج ٢ ص ٣٨ .

ستور وار بدين سان گذاشتم همه عمر
که برده گشتهٔ فرزندم وأسير عيال
بکف چه دارم ازين پنجهٔ شمرده تمام
شمار نامهٔ با صد هزار گونه وبال
من اين شمار بآخر چگونهٔ فصل کنم
که ابتداش دروغست وانتهاش خجال
درم خريدهٔ آزم ستم رسيدهٔ حرص
نشانهٔ حدثانم شكار ذل سؤال
دريغ فرّ جوانی دريغ عمر لطيف
دريغ صورت نيكو دريغ حسن وجمال
کجا شد آن همه خوبی کجا شد آن همه عشق
کجا شد آن همه نيرو کجا شد آن همه حال
سرم بگونهٔ شيرست ودل بگونهٔ قير
رخم بگونهٔ نيلست وتن بگونهٔ نال
نهيب مرگ بلرزاندم همی شب وروز
چو کودکان بد آموزرا نهيب دوال
گذاشتيم وگذشتيم وبودنی همه بود
شديم وشد سخن ما فسانهٔ أطفال
ايا کسائی پنجاه بر تو پنجه گذارد
بکند بال ترا زخم پنجه وچنگال
تو گر بمال وأمل بيش ازين نداری ميل
جدا شو از أمل وگوش وقت خويش بمال

ومعناها :

— بلغتْ دورةُ الزمان السنة الواحدة والأربعين بعد الثلاثمائة . . .
فلما كان يوم الأربعاء ، وقد بقيت ثلاثة أيام من شوال ...

— أتيتُ إلى هذه الدنيا ، حتى أقول ما أقول وأفعل ما أفعل . . .
وحتى أنشد الأغانى ، وأفرح بالنعمة والمال ... ! !

— فقضيت العمر جميعه على شاكلة الدواب والأنعام ... !!
وأصبحت عبداً لأطفالى ، وأسيراً لأولادى وعيالى ... ! !

— فماذاعساى أملك الآن من السنوات الخمسين التى تم عددها . . . ؟
اللهم إلا سجلا مليئاً بمئات الآلاف من أنواع الوبال . . . ! !

— وكيف أستطيع أن أفصل فى النهاية هذا الحساب ... ؟
وكيف بدأ بالكذب والمين ... وكيف انتهى بالخجل والعار . . . ! !

- فأنا عبد اشترتنى الدراهم ، وضحية أودى بها الحرص . . . ! !
وأنا هدف للحادثات ، وفريسة لذل السؤال ... !!

— فيا أسفاً لبهجة الشباب ... ويا أسفاً لذلك العمر اللطيف . . .
ويا أسفاً لصورتى الجميلة . . . ويا أسفاً للحسن والجمال ... !!

— فإلى أين ذهب كل هذا الحسن .. ؟ وإلى أين ذهب كل هذا العشق ..؟
وإلى أين ذهب كل هذا العزم..؟ وإلى أين ذهبت كل هذه الأحوال الطيبة..؟!

— وقد أضحت رأسى فى لون اللبن ، وأضحى قلبى فى لون القار . . .
وأضحى وجهى فى لون النيلة ، وأضحى جسدى هزيلا على شاكلة البوص ...!!

— ويرعبنى خوف الموت والفناء فأظل فى رهبة طوال النهار وآناء الليل . . . ! !
كما تخيف المقرعة الأطفال الذين لا يجيدون التعلم ... ! !

— لقد فنينا الأيام ، ومضينا عن الحياة ، ووقع بها ما كان مقدراً لنا ...
وهذه أشعارنا قد أصبحت الأقاصيص يتسلى بها الأطفال ... !!

— فيا كسائى ... إن السنوات الخمسين تجثم على صدرك بمخالبها ... ! !
وهذه ضرباتها قد قصت جناحيك واقتلعت ريشك ... ! !

— فإذا لم يعد لك ميل إلى المال والأمل أكثر من ذلك ...
فحرر نفسك من كل أمل ، واعرك أذن وقتك ، وثنبه من غفلتك ...!!

بعد ذلك يروق لى أن أذكر مثلا آخر من قول « الكسائى » لأنه يبدو لى كثير الشبه بما يردده « الخيام» فى رباعياته التى يتعشقها كل المعجبين بترجمتها الرائعة التى قام بها « فيتز جرالد » ، والمعنى الذى يتردد فى قول «الخيام» هو :

— لشد ما تأخذنى الدهشة لحرص الخمار على شراء الكروم . . .

بينما هى أتفه بكثير مما يبيعه من عقار مختوم ... ! !

وفى مثل هذا المعنى قال « الكسائى » البيتين الآتيين:

گل نعمتى است هديه فرستاده از بهشت

مردم كريم تر شود اندر نعيم گل

اى گل فروش ... گل چه فروشى براى سيم

واز گل عزيزتر چه ستانى بسيم گل

ومعناها :

— الورد نعمة أهدتها لنا رياض الجنان ... ! !

وبيمن طلعته وبهائه يزداد ما فى الناس من جود وإحسان ... ! !

— فيا بائع الورد ... ! لماذا تبيع الورد بالدرهم الرنان ... ؟ !

وما عساك تشترى بثمنه ... وهل تجد ما يمتاز عليه بالرجحان ...!!

الفصل الثالث

العصر السلجوقي الأول

منذ ظهور «طغرلبك» إلى وفاة «ملكشاه»
ويتضمن الحديث عن مذهب الحشاشين ونشأتهم

يقول « ستانلي لين بول » في كتابه القيم « الدول الإسلامية »(١) : « إن ظهور السلاجقة الأتراك يعتبر فاتحة لفترة هامة من فترات التاريخ الإسلامي ، فقد ظهروا في وقت زالت فيه إمبراطورية الخلافة ، وأصبحت فيه هذه الدولة الموحدة التي كان يحكمها حاكم إسلامي واحد مجموعة من الدويلات المشتتة المبعثرة التي لا تملك من الحول ما يمكنها من السيطرة والسلطان ، اللهم إلا إذا استثنينا «الفاطميين» في مصر ، وهؤلاء كانوا على المذهب الشيعي كما هو معلوم . أما أسبانيا والممتلكات الإفريقية بما فيها ولاية مصر الغنية فكانت جميعاً قد خرجت من يد خليفة بغداد ؛ وأما شمال سورية وأرض الجزيرة فوقعتا في أيدي رؤساء العرب المتذمرين . واستطاع بعضهم أن ينشئوا لأنفسهم الإمارات والممالك ؛ وأما البلاد الفارسية (إيران) فكانت موزعة بين الحكومات المختلفة التي أسسها الأمراء البويهيون (وكانوا جميعاً من أصل شيعي لا يكنون كثيراً من الاحترام للخلفاء العباسيين الضعفاء) كما كانت موزعة أيضاً بين مجموعة من الدويلات التافهة التي كانت دائمة التعارك والتنازع فيما بينها مما أدى إلى انتشار الوهن وذيوع البلاء .

وكان انتشار المذهب الشيعي سببا في زيادة التفكك الذي أصيبت به الولايات المختلفة التي كانت تتكون منها الامبراطورية الزائلة .

---

(١) أنظر كتاب : Mohammedan Dynasties, by Stanley Lane-Pool

واقتضت هذه الحال المضطربة دواءا ناجعاً ، سرعان ما وجدته فى غزوة الأتراك السلاجقة . فقد كانوا بدوا سذجا لم تفسدهم حياة المدن ولا الخلافات المذهبية ؛ فاعتنقوا الإسلام بحماس بالغ ، ملك منهم قرارة النفوس والأرواح ، ولقد جاءوا لإنقاذ هذه الدولة المحتضره ، رجاء أن يدركوها فى ساعاتها الأخيرة ، فصح رجاؤهم ، واستطاعوا فعلا أن يردوا إليها القوة والحياة . واجتاحوا بجموعهم الكثيفه إيران والجزيرة وسوريا وآسيا الصغرى ، وخربوا البلاد التى وطأتها أقدامهم ، وحطموا الإمارات التى صادفوها فى طريقهم ، واستطاعوا بذلك أن يوحدوا مرة ثانية البلاد الإسلامية الأسيوية وأن يجعلوها تحت حكم واحد ، تخضع له من أطراف الحدود الغربية لبلاد أفغانستان إلى أطراف الحدود الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ؛ وتمكنوا أيضا من أن يجددوا العزم والحياة فى أرواح المسلمين بعد ما فترت عزائمهم وخمدت حماستهم ؛ فدفعوا البيزنطيين إلى ما وراء حدودهم ، وأنشأوا جيلا من المسلمين المحاربين المخلصين ، يرجع إليه وحده الفضل فيما أصاب « الصليبيين » من هزائم كثيرة متكررة . وهذه هى مجمل الأسباب التى تجعل للسلاجقة مكانا ممتازا فى التاريخ الإسلامى ... »

ولقد يجوز لنا أن نضيف إلى هذه العبارات السابقة ، أن « السلاجقة » كانوا الممهدين «للأتراك العثمانيين» الذين أسسوا ملكهم فى البداية فى آسيا الصغرى ثم زادوا فيه حتى شمل الشام ومصر والبحر الأبيض وأوربا وشمال أفريقيا ، ولا شك أن هذا الملك قد تأسس أولا على أكتاف الإمارات السلجوقية فى بلاد الروم (آسيا الصغرى) ، ثم تقرر مصيره نهائياً بقدوم المغول فى غزوتهم المعروفة وطردهم فى زحفهم الخاطف لجماعة من الأتراك أخذوا يولون وجوههم ناحية المغرب بقيادة «ارطغرل» و«عثمان» ، وإلى الأخير منهما ينتسب سلطان تركيا فى الوقت الحاضر(١) .

والحديث عن نشأة «السلاجقة » هو الأساس الذى ينبنى عليه الجزء التاريخى من هذا الفصل ، وأهم المصادر التى سأرجع إليها فى الموجز الذى سأسوقه فيما بعد هى الآتية :

---

(١) المترجم : هكذا كتب «براون» فى سنة ١٩٠٦ ، ومعلوم أن الحركة الكمالية قضت على الخلفاء العثمانيين بعد ذلك بما يقرب من ست عشرة سنة .

١ — تاريخ ابن الأثير: طبع القاهرة، الجزءين التاسع والعاشر وبعض الحادى عشر
٢ — تاريخ عماد الدين ، الذى نقله البندارى عن الرسالة العربية التى ألفها عن السلاجقة الوزير « أنو شروان بن خالد » المتوفى سنة ١١٣٧م = ٥٣٢ هـ . وهذا الكتاب هو عبارة عن المجلد الثانى من مجموعة المجلدات التى نشرها الأستاذ « هوتسما » بعنوان « مجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة » [١] طبع ليدن سنة ١٨٨٩ م . وسنشير أحياناً إلى الجزء الأول من هذه المجموعة عند الحديث على « سلاجقة كرمان » فقد اشتمل هذا الجزء على تاريخهم .
٣ — راحة الصدور : وهو عبارة عن مخطوطة فارسية فريدة [٢] اشتملت على تاريخ السلاجقة وتم تأليفها فى سنة ١٢٠٢ م = ٥٩٩ هـ ؛ وقد وصفت محتوياتها فى « مجلة الجمعية الملكية الآسيوية » سنة ١٩٠٢ فى الصفحات من ٥٦٧ إلى ٦١٠ ومن ٨٤٩ إلى ٨٨٧ .

وحرصاً على عدم الإطالة ، سأشير فيمايلى من حديث إلى المصدر الأول مكتفياً بذكر « ابن الأثير » متبوعا بذكر السنة التى ورد فيها ذكر الموضوع الذى نتحدث عنه ، وفى أحيان قليلة جداً سأذكر رقم الصحيفة وفقاً لطبعة القاهرة ؛ وسأشير الى « البندارى » و « سلاجقة كرمان » وفقاً لما جاء فى طبعة « هوتسما » لهذين الكتابين ؛ أما « راحة الصدور » فسأذكره بهذا الاسم واتبعه بكلمة « ورقة كذا » إذا أشرت الى مخطوطة « شيفر » أو بكلمة « صحيفة كذا » اذا أشرت إلى مقالى المنشور فى « مجلة الجمعية الملكية الأسيوية »

أصل السلاجقة :

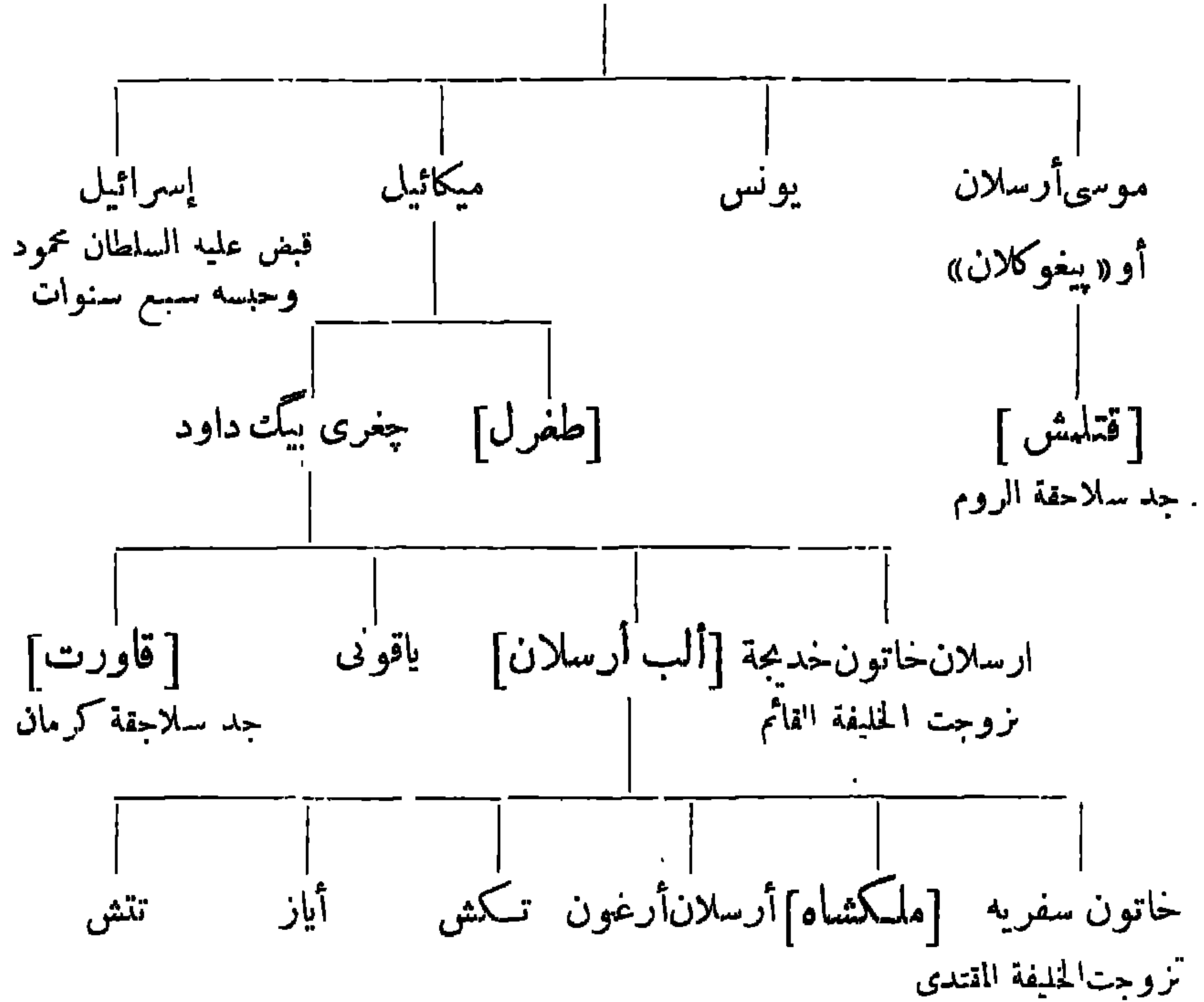
نشأت دولة السلاجقة فى سرعة عظيمة فائقة، ربما فاقت فى حدتها السرعة التى نشأت بها الدولة الغزنوية ، وكذلك دام بقاؤها ونفوذها فترة طويلة زادت على ما استغرقته

(١) أنظر: Recueil de textes relatifs à l'hisltoire des Seldjoucides, Par Houtsma

(٢) المترجم : طبع الأستاذ محمد إقبال هذه المخطوطة فى سنة ١٩٢١ ونشرها ضمن « سلسلة جب التذكارية » .

الدولة الغزنوية . والسلاجقة فرع من الأتراك الغز الذى أخذوا يغيرون فى سنة ١٠٢٩م = ٤٢ هـ على حدود إيران الشمالية والشرقية ، وأخذوا بذلك يسببون كثيراً من المتاعب والمصاعب للسلطان «محمود الغزنوى» . وقد ذكر ابن الأثير أن جدهم الأعلى كان يسمى « تقاق » (١) وهو والد « سلجوق » الذى كان أول من اتخذ الإسلام ديناً من بين جماعته . وقد أتى السلاجقة فى بداية الأمر من «تركستان» إلى ما وراء النهر ، فجعلوا مشتاهم فى « نور » بالقرب من بخارى ، ومصيفهم فى السغد بالقرب من سمرقند .

وفى الشجرة التالية بيان لأحفاد « سلجوق » ذكرنا فيه الأسماء الهامة منهم بحروف كبيرة واضحة بين الأقواس .



والفترة التى نتحدث عنها فى هذا الفصل تشمل حكم الملوك الثلاثة الأولين من ملوك السلاجقة وهم :

(١) فسروا كلمة (تقاق) بمعنى القوس .

١ ـــ طغرل : أعلن ملكا فى مدينة مرو فى سنة ١٠٣٧م = ٤٢٩ هـ ؛ وتوفى فى الرابع من سبتمبر سنة ١٠٦٣ م = ٤٥٥ هـ .

٢ ـــ ألپ أرسلان : ولد سنة ١٠٣٢م = ٤٢٥هـ[(١)] ؛ وتولى الملك سنة ١٠٦٣م = ٤٥٥ هـ ؛ وقتل فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٠٧٢ م = ٤٦٥ هـ .

٣ ـــ ملكشاه : تولى الملك سنة ١٠٧٢ م = ٤٦٥ هـ وتوفى فى ١٩ نوفمبر سنة ١٠٩٢ م = ٤٨٥ هـ .

وقد استغرق حكم هؤلاء الثلاثة فترة بلغت خمسة وخمسين سنة ، كانت فيها أزمة الأمور موكولة إلى رجل من أشهر الوزراء الذين أنجبتهم إيران ، وأقصد به الوزير الحازم « نظام الملك » الذى قتل قبل وفاة ثالث الملوك الذين قام على خدمتهم وهو «ملكشاه» بخمسة وثلاثين يوماً ، فكان مقتله إيذانا بانتهاء أكثر العصور ازدهاراً من عصور الحكم السلجوقى . وعلى ذلك يمكننا فى إيجاز وقبول أن نسمى هذه الفترة التى نتحدث عنها بـ «عصر نظام الملك» .

والسلاجقة كأغلب الأتراك اعتنقوا مذهب أهل السنة منذ اتخذوا الإسلام دينا ؛ وصاحب « راحة الصدور » يحدثنا أن الإمام «أباحنيفة » وهوأحد الأئمة الأربعة وصاحب المذهب الحنفى الذى انتشر أكثر من غيره من المذاهب ، دعا الله فى يوم من الأيام أن يوطد أركان مذهبه ويبقيه ، فسمع من عالم الغيب من يقول له « لن يضعف مذهبك مادام السيف فى يد الأتراك » ويعلق الراوندى على تلك العبارة بقوله : « ومن يمن الطالع أن السيف فى أيديهم الآن[(٢)] فى بلاد العرب وإيران والروم (آسيا الصغرى) وروسيا ، وقد ازدهرت دراسة الدين والعلوم والتصوف فى حمايتهم وخصوصاً فى بلاد خراسان ، وقد محقوا الكفر والإلحاد والتشيع والفلسفة والمذاهب المادية أو المتعلقة بالتناسخ ، ولم يبقوا على شىء من سائر المذاهب إلا ماوافق طريق الإسلام الصحيح » . ويقول ابن الأثير[(٣)] : إن ملك

---

(١) المترجم : تقول بعض المصادر ومنها ابن الإثير انه ولد سنة ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ م.
(٢) كتب الراوندى كتابه «راحة الصدور» فى سنة ١٢٠٢م = ٥٩٩ هـ .
(٣) انظر ج ١٠ ص ٧٣ .

السلاجقة قد اتسع على أيام « ملكشاه » فامتد من حدود الصين إلى حدود الشام ، ومن أقصى بلاد المسلمين شمالا إلى حدود اليمن جنوبا ، ودفع الجزية لهم أباطرة الروم (أى الإمبراطورية الشرقية) .

الخلفاء الفاطميون

ومع ذلك فلم يكن مذهب أهل السنة هو المذهب السائد فى ديار الإسلام دون أن تزاحمه المذاهب الأخرى ؛ فقد كانت مصر والجزء الأكبر من شمال إفريقيا وبلاد الشام فى أيدى الخلفاء الفاطميين الذين بلغوا أوج العظمة والجلال أثناء خلافة « المستنصر » الذى طال حكمه من سنة ١٠٣٥ م إلى ١٠٩٤ م = ٤٢٧ إلى ٤٨٧ هـ ، أى طوال الفترة التى نحن قائمون بدراستها فى هذا الفصل . فإذا تجاوزنا حدود الفاطميين وأتينا إلى إيران وجدنا مدى التأثير العميق الذى بلغه فيها « دعاة » الباطنية من أهل الشيعة . وسنعرض لشىء من أمثلته المتعة فى هذا الفصل وما يليه من فصول ، ولابد أن نذكر هنا أن اثنين من أشهر دعاتهم ، هما الشاعر « ناصر خسرو » و « الحسن الصباح » صاحب « الدعوة الجديدة » ومؤسس مذهب « الحشاشين » ، يتصلان اتصالا وثيقاً بجميع الأحداث الهامة التى حدثت فى هذا العصر الممتع وبجميع من اشتهر فيه من أسماء وشخصيات .

الدولة الغزنوية :

ولست فى الحقيقة فى حاجة إلى أن أتحدث فى هذا الفصل عن دول أخرى بجانب السلاجقة والفاطميين ، ولكنى أذكر فى إيجاز أنه سرعان ماتوفى السلطان محمود حتى نشأ الخلاف بين أولاده ، واستمروا فى عراك وقتال حتى استطاع أن يتغلب « مسعود » على إخوته ، فيتولى مكان أبيه ويكمل معاركه فى بلاد الهند ، ثم يأخذ « طبرستان » و « جرجان » من حاكمها الزيارى الأمير « دارا بن منوچهر » فى سنة ١٠٣٥ م = ٤٢٧ هـ . وبعد ذلك بثلاث سنوات هزمته جيوش السلاجقة بالقرب من بلخ وتمكنت من الاستيلاء على أفياله الحربية ؛ فلما كانت سنة ١٠٤٠ م = ٤٣٢ هـ خلعوه عن

العرش وقتلوه ، وولوا فى مكانه أخاه «محمداً» ثم ابنه «مودودا» . وبعد ذلك بسنة واحدة دخلت ولاية «طبرستان» فى حكم السلاجقة ؛ حتى إذا كانت سنة ١٠٤٤م = ٤٣٦ ه هزموا «مودودا» فى بلاد خراسان ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يطرد الأتراك الغز من مدينة « بُست » وأن يستمر فى معاركه فى بلاد الهند ؛ وبهذه الصورة انتهى حكم الغزنويين فى إيران وإن كانوا قد احتفظوا بملكهم الأصلى فى مدينة « غزنه » حتى سنة ١١٦١ م = ٥٥٧ ه عندما طردهم منها ملوك «الغور» وأصبح الحديث عنهم بعد ذلك مما يخص شئون الهند دون غيرها من البلاد .

الدولة البويهية :

أما آل بويه وقد كانوا أكبر أعداء الغزنويين فى سابق الأيام ، فقد انتهى حكمهم بدخول «طغرل» مدينة بغداد فى ١٨ ديسمبر ١٠٥٥ م ٢٥ رمضان ٤٤٧ ه ووضعه الخليفة العباسى تحت رقابته ووصايته . وما كادت تنقضى على تلك الحادثة ثلاث سنوات حتى مات فى مدينة «الرى» آخر أمرائهم المعروف باسم « الملك الرحيم » .

فإذا رجعنا الآن إلى الحديث عن السلاجقة وجدنا أن « البندارى» ومؤلف «راحة الصدور» يذكران أن السلطان محمودا دعاهم فى البدايه الى الإقامة فى الأقاليم المحيطة بمدينة بخارى ، ولكنه سرعان ما أحس بالوجل منهم لكثرة عددهم وازدياد نفوذهم فأمر فى سنة ١٠٢٩ م = ٤٢٠ ه بالقبض على واحد من أولاد «سلجوق»[1] وحبسه فى قلعة ببلاد الهند تسمى « كالنجار» فبقى فيها حتى مات بعد سبع سنوات . وفى قصة معروفة مذكورة فى كتاب «راحة الصدور » أن السلطان محموداً أحس منهم بالوجل عندما كان يتحدث إلى « إسرائيل بن سلجوق » فى يوم من الأيام ، فعرض له أن يسأله عن عدد الرجال المسلحين الذين يمكن له أن يمده بهم إذا عرضت له حاجة إليهم . فأجابه إسرائيل بقوله : إنه اذا أخذ سهما من جرابه

---

(١) يقول « ابن الأثير » إن الذى قبض عليه السلطان محمود من أولاد سلجوق هو « موسى ارسلان بيغو » أما المصادر الأخرى فتجمع على إنه « إسرائيل » . و يقول ابن الأثير ايضا انه فى السنة التى قبض فيها على موسى ارسلان ولد « الب ارسلان » .

وأرسله إلى قومه أمدوه بمائة ألف رجل ، فإذا أرسل اليهم قوسه أمدوه بمائتى ألف آخرين . وكان السلطان كما يقول مؤلف « راحة الصدور » قد نسى المثل القائل «لاتفتتح بابا يصعب عليك سده ، ولا ترسل سهما يصعب عليك رده» فلما استمع إلى قول اسرائيل أحس بالخشية تملأ صدره وقرر على الفور أن يسلك معهم طريق الخشونة والغلظة بالصورة التى ذكرناها فيما سبق .

هجرة السلاجقة جنوبا :

ولما مات « إسرائيل بن سلجوق » فى قيوده ومنفاه ، استطاع ابنه « قُتُلمش» أن يهرب إلى بخارى(١) حيث التحق بقومه وعشيرته مؤكداً لهم الإيمان بأنه لا بد منتقم من هذا السلطان الغادر . ولكن حدث فى سنة ١٠٣٥م = ٤٢٧ هـ أن أصاب السلاجقة غدر آخر على يد ملك خوارزم « هارون بن التونتاش » فاضطرهم ذلك إلى التحرك جنوبا والاستقرار فى الإقليم الواقع بين «نسا» و « باوَرْد » . ويقول صاحب «راحة الصدور» إن هذه الهجرة حدثت قبل ذلك التاريخ فى أيام السلطان محمود وبإذن صادر منه ، عارض فيه أشد المعارضة « أرسلان جاذب» حاكم طوس ، وطلب إلى مولاه أن لا يسمح لهؤلاء الجيران الأقوياء بهذه الهجرة ، وأوصاه بأن يبادر بأمر رجاله بأن يقطعوا الإبهام من يد كل سلجوقى يستطيعون القبض عليه حتى يتعذر على السلاجقة بعد ذلك استعمال القوس التى كانوا يبدون فى استعمالها ضروب المهارة والحذق(١)...!!

مسعود والسلاجقة :

وقد بدأت المتاعب الحقة بعد ما نجح مسعود فى هزيمة أخيه وتنصيب نفسه على عرش أبيه ، ويبدو أنه استطاع فى سنة ١٠٣٥م=٤٢٧هـ عندما كان قائماً بغزوته لطبرستان

---

(١) هكذا ورد فى كتاب «راحة الصدور» .

(٢) يبدو من هذا أن السلاجقة كانوا فى الرماية يتبعون طريقة «الرمية المغولية» وسنشير إلى هذه الطريقة فيما بعد عندما نعرض لمقتل الشاعر « كمال الدين اسماعيل » .

أن يصيب بعض النجاح وكاد يهزم السلاجقة ، ولكن ما كادت هذه الغزوة تقرب من نهايتها حتى تمكن السلاجقة من التغلب عليه ، لأن جنده كانوا متعبين ولأن أسلحته علاها الصدأ في جو هذه المناطق المليئة بالرطوبة والبلل . ولم يستمع «مسعود» لرأي مستشاريه الذين حذروه من عاقبة الاستهانة بما حدث وأوصوه بعدم ترك خراسان لهؤلاء الطغمة من المغامرين الجدد ؛ بل عمد إلى مصالحتهم بشروط سهلة هينة حتى يستطيع التفرغ بعد ذلك لإحدى غزواته في بلاد الهند؛ وكانت نتيجة هذا الاستخفاف أن أفلتت أزمة الأمور من يده كلية عندما عاد من الهند ؛ ولم يلبث أن أعلن «طغرل بن ميكائيل بن سلجوق » نفسه ملكا في صيف سنة ١٠٣٨ م = ٤٣٠ هـ فخطبوا باسمه في مدينة «مرو» ثم في مدينة «نيسابور» بعد ذلك التاريخ بقليل. وعند فتحهم لهذه المدينة الأخيرة نجد أن ابن الأثير ينسب إليهم الحكاية الشهيرة التي تدل على سذاجتهم وبساطة عقليتهم عندما اشتبهوا في الكافور وظنوه ملحاً ، وهي نفس الحكاية التي رواها تاريخ الفخري ونسبها إلى المسلمين الأوائل عند استيلائهم على المدائن[1].

تأسيس الدولة السلجوقية :

وقد ساعد خلع مسعود ثم قتله في سنة ١٠٤٠ م = ٤٣٢ هـ وما استتبع ذلك من اضطرابات في مدينة غزنه ، على تثبيت أقدام السلاجقة وتدعيم دولتهم . فتمكنوا في السنة التالية من الاستيلاء على طبرستان ، ولم تمض ثلاث سنوات على ذلك حتى استطاعوا التغلب على « مودود بن مسعود » في خراسان ، ثم بعثوا برسالة إلى الخليفة « القائم » ضمنوها شكواهم من البيت الغزنوي مؤكدين له ولاءهم ، ساعين إلى الحصول على رضاه عليهم واعترافه بهم . ثم أقدموا بعد ذلك على تقسيم الأراضي الواسعة التي دخلت بسرعة في حوزتهم ، فوقعت «بُست» و «هرات» و «سجستان» من نصيب موسى أرسلان بن سلجوق ؛ وأعطيت مرو إلى ابن أخيه «جغرى بيك

---

(١) انظر تاريخ الفخري طبع « الوارد Ahlwardt » ص ١٠٠ ، وكذلك الجزء الاول من « تاريخ الأدب في إيران » ص ١٩٩ من الأصل الإنجليزي .

داود » ؛ وأخذ ابن أخيه الآخر « طغرل » إقليم العراق ؛ واستولى « قاورت بن جغرى » على « كرمان » و « تون » و « طَبَس » ؛ ونال « ياقوتى » ولاية آذربيجان وأبهر وزنجان ؛ أما ابن جغرى بيگ الثالث وهو « الپ أرسلان » فقد اختاروه ليبقى مع عمه « طغرل » فى عاصمته التى اتخذها فى مدينة «الرى» ، وأعطيت مدينة « همدان » لابراهيم بن إينال بن سلجوق[1] ، كما أعطيت جرجان ودامغان لـ« قتلمش » بن موسى أرسلان .

الخليفة يعترف بطغرل :

ولما وصلت رسالة طغرل إلى الخليفة « القائم بأمر الله» أنفذ إليه فى مدينة الرى رسولا هو « هبة الله بن محمد المأمونى » وزوده برسالة تضمنت ردا جميلا ، أعقبها أمر الخليفة بأن يذكر اسم «طغرل» فى الخطبة وأن يضرب على النقود قبل اسم الأمير البويهى «الملك الرحيم» . وانتهى الأمر بعد ذلك فى ديسمبر سنة ١٠٥٥م = رمضان ٤٤٧ هـ بدخول «طغرل» مدينة بغداد فى موكب رسمى ، وهناك خلع عليه الخليفة مختلف الخلع والتشريفات وأجلسه على العرش إلى جواره ، وألبسه حلة جميلة ، وتحدث معه خلال ذلك ، وكان يقوم بالترجمة بينهما «محمد بن منصور الكندرى»[2] ولم تمض فترة طويلة حتى تزوج الخليفة « القائم » بابنة أخى طغرل المسماة « أرسلان خاتون خديجة » وهى أخت « ألپ أرسلان » فزفت إليه فى كثير من مظاهر العظمة والجاه ، ورأى طغرل النبى فى منامه يحذره من البقاء فى بغداد فتركها بعد أن أقام فيها ثلاثة عشر شهرا ، وربما كان السبب الرئيسى فى تركه لبغداد راجعا ، إلى حد ما ، إلى ما وقع فيها من شغب أحدثته فيها جيوشه التركية ، وإلى رغبته فى إخضاع الموصل وديار بكر وسنجار وبعض الأقاليم الغربية الأخرى . [3] ولكن لم يلبث أن عاد «طغرل» بعد ذلك إلى بغداد ، حتى تلقاه الخليفة شاكرا له أياديه فى نشر الإسلام

---

(١) قتله طغرل بتهمة الخيانة فى سنة ١٠٥٧ م = ٤٤٩ هـ .

(٢) أنظر البندارى ص ١٤

(٣) مما حدث فى هذه الفتوحات أن طغرل استولى على دير به اربعمائة راهب فقتل منهم مائة وعشرين ، وافتدى الباقون أنفسهم بدفع المبالغ الطائلة .

وخدمة المسلمين ، ودعا له أن يحسن استعمال ما أفاء عليه الرحمن من سلطة وقدرة ، ثم لقبه عند ذلك بـ « ملك المشرق والمغرب » .

موت طغرل :

ومع ذلك ، لم يكن طغرل قد شفى أطماعه واستوفى أمانية ، فلما ماتت زوجته فى سنة ١٠٦١ م = ٤٥٣ ﻫ تقدم إلى الخليفة وطلب تزويجه من ابنته (١) ، وكان الخليفة شديد الممانعة فى ذلك ولكنه اضطر فى النهاية إلى التسليم بسبب طلباته المتكررة التى سادتها صبغة من التهديد والوعيد . وخرجت العروس فى حفل يليق بمقامها قاصدة مدينة « تبريز » لتذهب من هنالك إلى « الرى » حيث كان زوجها يعد معدات الزواج ، ولكنها قبل أن تصل إليها بقليل ، مرض طغرل مرضا أودى به فى الرابع من سبتمبر سنة ١٠٦٣م = يوم الجمعة ثامن رمضان سنة ٤٥٥ ﻫ وقد أدركته الوفاه فى قرية « تاجرشت » فأعادوا عروسه بعد ذلك إلى بغداد . وكان طغرل عند وفاته فى السبعين من عمره وقد وصفه ابن الأثير فقال عنه إنه شديد الحزم ، دقيق فى تأدية واجباته الدينية ، حريص على أسراره ، يشوبه شىء من الغلظة والشدة عند الاقتضاء ، ولكنه كان فيما عدا ذلك شديد الكرم حتى على أعدائه من البيزنطيين (الروم) (٢) .

* * *

الب ارسلان :

تولى الملك بعد طغرل ابن أخيه « ألپ ارسلان » ، وكان له أخ اسمه سليمان ، حاول الوزير « الكندرى » المعروف بـ « عميد الملك » أن يأخذ البيعة له وينصبه على العرش ، ولكنه فشل فى مسعاه وأصابه بسبب ذلك كثير من البلاء الذى انتهى

---

(١) أما صاحب « راحة الصدور » فيقول إنها اخت الخليفة

(٢) انظر عبارة ابن الأثير فى نصها الأصلى فى ج ١٠ ص ٩ — ١٠

بالقبض عليه وإرساله إلى « مرو » حيث بقى فى الأسر سنة كاملة ، قتلوه بعدها قتلة شنعاء على يد خادمين ، أنفذهما إليه «ألپ ارسلان» للقضاء عليه ؛ فلما علم الكندرى بغرضهما أذعن لقضاء الله وودع أفراد أسرته ، وطلب أن يموت بحد السيف لا بالشنق بالحبال ، ثم أرسل قاصدا إلى « إلپ ارسلان » ووزيره « نظام الملك » بالرسالة الشهيرة الآتية : (١)

« قل للسلطان لقد خدمتنى خدمة جليلة . فقد أعطانى عمك ملك العالم الدنيوى لأتصرف فيه ، فلما أمرت بقتلى أعطيتنى ملك العالم الآخر جزاءاً لاستشهادى ، وبذلك تم لى على يديكما امتلاك الدارين الفانية والباقية . »

« وقل لنظام الملك بئسما عودت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان ، ومن حفر قليبا وقع فيه . وإنى أدعو الله أن يصيبك ويصيب ذريتك بما أصابنى . »

وكان هذا الوزير المنكود قد تجاوز الأربعين من عمره عند مقتله، وقد اشتهر عنه أنه كان عالما بالعربية ، ومن أجل ذلك فقد قام « الموفق النيسابورى » بتقديمه إلى طغرل الذى ألحقه بخدمته وجعله كاتبا له (٢) . ولقد نظم الكندرى جملة من الأشعار العربية الجميلة ذكر لنا طائفة منها ابن الأثير فى تاريخه ؛ وكان من المتعصبين للمذهب الشافعى ، وقد أمر بلعنة الرافضة والأشعرية (٣) فى المساجد والجوامع ، فلما جاء « نظام الملك » أمر الخطباء بالاستمرار فى لعنة الرافضة ولكنه منعهم من لعنة الأشعرية ، وأرضى بذلك جملة من كبار الفقهاء كان من بينهم « أبو المعالى الجوينى » و « القشيرى » مؤلف الرسالة المعروفة باسمه عن حياة الصوفية . والمشهور عن « الكندرى » أنهم خصوه فى صباه فى « خوارزم » حيث دفنوا بها ذكره ثم

---

(١) أنظر تاريخ ابن الأثير فى سنة ٤٥٦ ج ١٠ ص ١١ وكذلك «راحة الصدور» ورقة ٥١ ــ ١ .

(٢) ربما نشأت من هذا الخبر الحكاية المعروفة عن صلة نظام الملك بالموفق النيسابورى . والأشعار التى ينسبها الكتاب المتأخرون على أنها من قوله إنما هى فى الحقيقة كما نعلم من قول الشاعر « برهانى » .

(٣) مؤلف «راحة الصدور» يجعل هاتين الفرقتين المتعارضتين « من الملاحدة الذين يجب عليهم دفع الجزية والغرامة كاليهود . » أنظر مقالتى ص ٥٧٣ .

قتلوه فى «مرو» ثم أخذوا جسده إلى موطنه « كندر » فدفنوه بها ، وأخذوا رأسه إلى « نيسابور » فدفنوها بها . وحملوا قحف جمجمته إلى نظام الملك فى مدينة « كرمان » .

نظام الملك :

ومن المحزن حقاً أن رجلا كبيراً ووزيراً عظيما مثل « أبى على الحسن بن اسحق » الملقب بـ« نظام الملك » لا يبدأ اسمه فى الظهور على صفحات التاريخ إلا متصلا بهذه الفعلة الشنعاء التى أصابت « الكندرى » ؛ ولكن من عجب ، أنه قد جازت عليه لعنة سلفه المقتول ، فقضى حياة طويلة نافعة لا يدانيه فيها أحد من رجال السياسة الشرقيين ثم انتهى به الأمر أيضاً إلى قتله شنيعة دامية .

وقد ولد « نظام الملك » فى أسرة من الدهاقين فى مدينة «طوس» سنة ١٠١٧ م = ٤٠٨ هـ ، وماتت أمه قبل فطامه ، وأصيب أبوه بعد ذلك بكثير من الخسائر والأزمات المالية ، ولكنه رغم هذه الظروف العاتية ، استطاع أن ينال قسطاً كبيراً من التعليم ، فدرس العربية والعلوم الفقهية حتى استطاع أن يشتغل كاتباً فى مدينة « بلخ » لدى حاكمها « على بن شادان » وكان هذا الوالى منصباً على حكومة بلخ من قبل « چغرى بيگ » والد « ألب أرسلان » ، فلما أدركت « چغرى بيگ » الوفاة أوصى ابنه الصغير بنظام الملك فاتخذه وزيراً ودبيرا [١] ، حتى إذا اعتلى عرش السلاجقة جعله كبير وزرائه ، ووكل إليه تدبير الأمور فى مملكته الواسعة العريضة . وامتاز « نظام الملك » بأنه كان من أقدر رجال الإدارة وأقوى رجال السياسة ، وكان متديناً ، سنى المذهب ، شديد الوطأة على الملاحدة والكفار ، قاسياً أشد القسوة

---

(١) بالإضافة إلى ما ذكره هنا ابن الأثير (ج ١٠ ص ٧١ ــ ٧٢) عن نشأة نظام الملك فى صباه ، نجده يذكر رواية أخرى تتفق مع هذه فى أنها أيضاً تجعل فاتحة حياته العملية فى مدينة بلخ ، ولكنها تختلف عنها فى ذكر سيد آخر التحق نظام الملك بخدمته وهذه الرواية تتفق مع ما رواه « البندارى » فى النبذة الطويلة التى خصصها لنظام الملك وكال له فيها كثيراً من الثناء (ص ٥٥ ــ ٥٩) .

على أهل التشيع والإسماعيلية خاصة ، وكان بالإضافة إلى ذلك جواداً يكرم الأدباء ، ويقرب الفضلاء والعلماء (١) لا يضن بيذل جهوده الجبارة فى صيانة الأمن ، وإسعاد الخلق ، ونشر الدين والتعليم .

ومن أول الأعمال التى عملها « نظام الملك » عند توليه الوزارة ، تأسيسه للمدرسة « النظامية » الشهيرة فى بغداد ، ومدها بالأموال الطائلة ، وقد بدأ بنايتها فى سنة ١٠٦٥ م = ٤٥٨ ه وفرغ منها فى سنة ١٠٦٧م = ٤٦٠ ه . واستطاعت هذه المدرسة بعد ذلك أن تضم كثيراً من الأساتذة والمدرسين الذين امتاز بهم الزمان مثل الفقيه الكبير « أبى حامد محمد الغزالى » (١٠٩١ - ١٠٩٥ م = ٤٨٤ — ٤٨٨ ه) الذى وصفه السيوطى بقوله : لو أمكن أن يوجد نبى بعد محمد لكان الغزالى هو هذا النبى على وجه التأكيد .

ألب أرسلان

أما « ألپ أرسلان » فإن ابن الأثير (٢) يجعل مولده بين سنتى ٤٢٠ ه ٤٢٤ ه = ١٠٢٩ و ١٠٣٣ م ولكن صاحب « راحة الصدور » يجعله فى بداية سنة ٤٣١ ه = ٢٣ سبتمبر سنة ١٠٣٩ م ثم يقول : « إنه تولى الحكم اثنتى عشرة سنة بعد موت عمه « طغرل بگ » فى سنة ٤٥٥ ه = ١٠٦٣ م وكان يتولى خراسان قبل ذلك بسنتين منذ وفاة والده « چغرى بيگ داود » ثم يذكر إنه كان فى الرابعة والثلاثين من عمره عند وفاة أبيه ، ويقول « إنه كان طويل القامة ، له شاربان طويلان ، يعقد أطرافها إذا شاء الرماية ، ولم تخطىء سهامه هدفها على الإطلاق (٣) وكان يلبس على رأسه قلنسوة (كلاه) عالية ، يقول الناس إن المسافة بين قمتها وأطراف شاربيه كانت تبلغ الذراعين ؛ وكان حاكماً قوياً وملكا عادلا ،

---

(١) كان «عمر الخيام» من أقرب المقربين إليه وسنتحدث عنه فيما بعد .

(٢) « البندارى » أيضاً يجعل مولده فى سنة ٤٢٤ ه .

(٣) ومع ذلك فسنرى فيما بعد أنه مات نتيجة لرمية خاطئة .

كريم النفس قوى القلب ، سريعا إلى معاقبة العمال الجائرين وخصوصا من يرتكب منهم جريمة الاختلاس أو التزوير ، وكان براً بالفقراء حتى ليقال إنه كان يوزع عليهم فى نهاية رمضان خمسة عشر ألف دينار ، كما كان يمد المحتاجين والمعوزين فى جميع أرجاء مملكته الفسيحة بما يكفل لهم العيش وييسر لهم سبل الحياة . [1] ، وكان محباً لدراسة التاريخ ، يستمع فى شغف ومتعة إلى ما يقرأ له من سير الملوك الغابرين وإلى الكتب التى تكشف الغامض من أخلاقهم وقوانينهم وأساليب إدارتهم .

وقد أعقب « ألپ أرسلان » ذرية لايقل عددها عن خمسة أبناء وثلاث بنات . وقد زوج ابنه « ملكشاه » بابنة « الخاتون التركية » [2] وزوج ابنه « أرسلان أرغون » بأميرة من أميرات البيت الغزنوى ، كما زوج ابنته « خاتون سفريه » بالخليفة المقتدى .

أعمال ألب أرسلان

كانت المدة التى تولى فيها «ألپ أرسلان» الحكم قصيرة الأمد[3]، ولكنها كانت مليئة بجلائل الأعمال . ففى السنة الأولى من حكمه استطاع أن يخضع فى الشمال الشرقى « ختلان » و « هراة » و « صغانيان » كما استطاع أن يرد الروم إلى بلادهم فى آسيا الصغرى . وبعد ذلك بقليل استطاع فى سنة ١٠٦٥ م = ٤٥٨ هـ أن يستولى على « جند » [4] وأن يخمد الثورات فى « فارس » و «كرمان» وأن يحد من شوكة الخلفاء الفاطميين ويسترد منهم حلب ومكة والمدينة ، فلما كان صيف سنة ١٠٧١ م = ٤٦٣ هـ استطاع على رأس جيش قوامه خمسة عشر ألف رجل

---

(١) يقول ابن الأثير أن مملكة « ألب أرسلان » كانت تمتد من أقصى حدود ما وراء النهر إلى أقصى حدود الشام .

(٢) المترجم : زوجة « ملكشاة » هى « تركان خاتون » .

(٣) من سبتمبر سنة ١٠٦٣ إلى نوفمبر سنة ١٠٧٢ م = ٤٥٥ إلى ٤٦٥ هـ

(٤) كان جده الأعلى « سلجوق » مدفوناً بهذه المدينة وربما كان ذلك هو السبب فى اهتمامه بأمر الاستيلاء عليها .

من خيرة المحاربين أن يهزم البيزنطيين هزيمة منكرة عند « ملا زكرد» بالقرب من مدينة أخلاط (خلاط) فى غرب آسيا الصغرى ، وكان جيش البيزنطيين يبلغ على الأقل مائتى ألف [1] رجل ، بينهم اليونان والروس والأتراك وأهل جورجيا والقوقاز والفرنج والأرمن . وقد استطاع « ألب أرسلان » أن يأسر الامبراطور البيزنطى « ديوجينس رومانوس » .

وقد روى المؤرخون المسلمون [2] قصة عجيبة حدثت عند أسر هذا الامبراطور البيزنطى ، مجملها : أن أحد أمراء «ألب أرسلان» واسمه «سعد الدين كوهرآئين» كان يمتلك عبداً حقيراً صغير الجثة ، شاء أن يصحبه معه فى جيش المسلمين ولكن «نظام الملك» أبى عليه ذلك وقال له مداعباً : وأى خير ترجوه على يديه . . . ؟ أتظن أنه سيأتينا بامبراطور الروم أسيراً . . . ! ؟ وشاء القدر أن تحدث أعجب المصادفات وأن يتمكن هذا العبد من أن يأسر الامبراطور ، ولكنه لم يكن يعلم ما لأسيره من مكانة ممتازة وأهمية زائدة ، وكاد يقتله لولا أن كشف واحد من رفقائه عن شخصيته فأبقى عليه وأحضره إلى « ألب أرسلان » فلما مثل بين يديه لطمه « ألب أرسلان » بيده ثلاث مرات وقال له :

ألم أعرض عليك الصلح مراراً ولكنك رفضته . . . ؟ ! فأجابه الامبراطور المنكود قائلا : ما عليك من لومى وتعنيفى . . !! ونظر السلطان إليه ثانية وقال : وماذا كنت تصنع بى لو أنك أخذتنى أسيراً . . ؟ !

وأجاب الامبراطور اليونانى : كنت عاملتك بالقسوة وأخذتك بالعنف . . !!

وقال السلطان : وما تظن أننى صانع بك . . ؟!

أجاب رومانوس : واحدة من ثلاث : فإما أن تقتلنى ! وإما أن تطوف بى

---

(١) صاحب راحة الصدور يذكر أن الجيش السلجوقى كان عدده ١٢٠٠٠ رجل ، وأن الجيش البيزنطى كان عدده ٦٠٠٠٠٠ رجل ، أما البندارى فيجعل الجيش البيزنطى ٣٠٠٠٠٠ رجل ، ولكن ابن الأثير يجعله مائتى ألف .

(٢) انظر ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٥ ، وكذلك البندارى ص ٤٣ ، وكذلك راحة الصدور ورقة ٥١ .

مشهراً فى ديار المسلمين ، وإما أن تعفو عنى نظير الفدية والخضوع لك ، وهذه الأخيرة بعيدة المنال لا أمل لى فيها ولا رجاء .

فقال السلطان : بل هذه الأخيرة هى التى انعقد عليها عزمى . . . !!

وحدد السلطان الفدية التى اقتضاها من الإمبراطور بألف ألف دينار ، وعقد معه محالفة لمدة خمسين سنة ، اشترط فيها أن تكون جيوش البيزنطيين مستعدة لمعونته عند طلبه بالعدد الذى يقتضيه وفى الوقت الذى يحتاج إليها فيه ، كما اشترط أيضاً تحرير الأسرى المسلمين الذين وقعوا فى أيدى اليونان . وقبل الامبراطور « رومانوس » هذه الشروط فخلع عليه السلطان خلعة شريفة ، وخصص له سرادقاً كبيراً ، وأعطاه خمسة عشر ألف دينار لينفق منها أثناء إقامته ، ثم أفرج عن جملة من ضباطه وأمرائه ليقوموا على خدمته ، ولما حان موعد رحيله ركب السلطان معه مسافة فرسخ ثم أمر جماعة من رجاله أن يكونوا فى ركابه إلى أن يصل إلى دياره فى أمن وسلامة ؛ ولكن الهزيمة التى أصابت « رومانوس » أنزلته من عليائه ، فعمد رعاياه كما يقول البندارى « إلى إزالة اسمه من سجلات الملك قائلين عنه : لقد سقط من عداد الملوك وغضب عليه المسيح . !

موت ألب أرسلان

وبعد سنتين ، فى نوفمبر سنة ١٠٧٢م = ٤٦٥هـ كان «ألپ أرسلان» مشغولا فى فى الناحية الأخرى من مملكته بحربه مع الأتراك ، فوصل إلى نهر «جيحون» على رأس جيش عدده ٢٠٠٠٠٠ رجل[١] استغرق عبورهم إلى الضفة الأخرى من النهر أكثر من ثلاثة أسابيع . وبينما كان معسكراً هنالك ، جلبوا إليه أسيراً اسمه «يوسف نرزمى[٢]» كان قائداً على حصن من الحصون صمد فى وجه رجاله إلى أن استولوا عليه عنوة وبعد قتال عنيف . ويؤكد بعض المؤرخين أن « ألپ أرسلان » كان مغيظا من هذا الأسير وما جرى على لسانه من ردود خادعة زائفة ، فأمر رجاله أن

---

(١) انظر «البندارى» ص ٤٥ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٥ .

(٢) راحة الصدور يكتب « نرزمى » ، وتاريخ سلاجقة كرمان يكتبها «برزمى» ، وأما ابن الاثير والبندارى فيكتبانها «خوارزمى» .

يحضروه قريباً من عرشه وأن يبسطوه أمامه على الأرض ، وأن يشدوا رجليه ويديه إلى أربعة اوتاد مثبتة فى الأرض ، وأن يتركوه على هذا الحال حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة . واستمع الأسير إلى هذا الحكم القاسى فأرغى وأزبد وشتم السلطان بأبذأ العبارات وأردأ الشتائم ثم أخذ يصيح ويبكى قائلا : ما هكذا يموت مثلى هذه الميتة الشنعاء ...!! واستولى الغضب والحنق على « ألپ أرسلان » فأشار إلى رجاله أن يتعدوا عن الأسير وأسرع إلى قوسه ورماه بسهم يريد قتله فى التو والساعة ، ولكن المهارة التى امتاز بها فى الرماية خانته فى هذه اللحظة الحرجة ، فخاب سهمه ، وأخطأ هدفه ؛ وهجم الأسير وقد وجد نفسه طليقاً لا يمسك به أحد ولا يعوقه قيد على «ألپ أرسلان» فجرحه جرحاً مميتاً فى خاصرته بواسطة خنجر كان يخفيه فى طيات ثيابه ، وقد حدث كل ذلك فى سرعة خاطفة ، لم يستطع فيها أحد من الحراس أن يتدخل لإنقاذ السلطان ، وكان الحراس فى هذه اللحظة يبلغون الألفين من حوله . وأسرع « گوهر آئين » لنجدة سيده ولكنه أصيب أيضاً بجملة من الجراح ، وتمكن «فراش» فى النهاية من قتل هذا الرجل المستيئس بضربه على رأسه بعصاه التى كان يحملها . وانقضت على ذلك فترة طويلة ثم تعارك ابن هذا الفراش مع واحد من أتباع الخليفة فى بغداد فقتله تابع الخليفة واحتمى بحرم الخلافة حيث لا يمكن أن تمتد إليه يد ... وأتى الفراش إلى «ملكشاه» وطلب الثأر لابنه المقتول وقال له : « يامولاى ...! افعل بقاتل ابنى مثلما فعلت بقاتل أبيك ...!! » وشاء الخليفة أن يدفع لوالد القتيل فدية تبلغ عشرة آلاف دينار حتى يتخلص من تفتيش بيته ولكن « ملكشاه » رفض ذلك وأصر على المطالبة بالقاتل حتى سلم إليه فأمر بقتله .

وبقى «ألپ أرسلان» على الحياة يوماً أو يومين بعد جرحه ، وكانت هذه الفترة كافية لأن يملى على وزيره المخلص «نظام الملك» وصاياه التى يريدها ؛ وخلاصتها أن يتولى ابنه «ملكشاه» العرش فى مكانه ؛ وأن يتولى ابنه « أياز » ولاية بلخ ما عدا قلعتها فإنها تكون فى يد أمير من أمراء «ملكشاه» ؛ وأن يستمر أخوه «قاورت» حاكماً لكرمان وفارس [1] ومات بعد ذلك «ألپ أرسلان» مطمئن البال مستسلماً لقضاء الله . وأثر عنه أنه قال وهو يجود بأنفاسه الأخيرة :

---

(١) انظر «البندارى» ص ٤٧ .

« ما من وجه قصدته وعدو أردته إلا استعنت بالله عليه ، ولما كان أمس صعدت على تل فارتجت الأرض تحتى من عظم الجيش وكثرة العسكر ، فقلت فى نفسى : أنا ملك الدنيا ومايقدر أحد على ، فعجزنى الله تعالى بأضعف خلقه وأنا أستغفر الله تعالى وأستقيله من ذلك الخاطر »(١).

وقد دفن « ألپ أرسلان» فى مدينة « مرو » وكتب واحد من الشعراء على قبره هذا البيت :

سر ألپ أرسلان ديدى ز رفعت رفته بر گردون
بمرو آ ، تا بخاك اندر سر ألپ أرسلان بينى

ومعناه :

– لقد رأيت رأس «ألپ أرسلان» تعلو السماكين وتشمخ فوق السماء
فتعال الآن إلى «مرو» حتى تراها حبيسة فى جوف الأرض وبطن الغبراء

ملكشاه :

عندما دعى « ملكشاه » لتولى عرش المملكة العظيمة التى أسسها أبوه وعم أبيه ، لم يكن له من العمر أكثر من سبع عشرة أو ثمان عشرة سنة ؛ وما لبث أن تولى العرش حتى لاحت فى الأفق بعض المتاعب والشدائد ؛ فأسرع « التكين » خان(٢) سمرقند بالاستيلاء على « ترمذ » وقهر جيوش أخيه « أياز » ؛ وتمكن كذلك السلطان الغزنوى « ابراهيم » من القبض على عمه « عثمان » وأخذه مع أمواله وخزائنه إلى أفغانستان ، ولكن ما لبث أن تبعه الأمير « گمشتگين» وتابعه « انوشتگين » واستطاعا التغلب عليه وقهره(٣) . وأدهى من ذلك كله وأمر أن عم «ملكشاه » المسمى «قاورت» وهو أول ملوك السلاجقة فى « كرمان »

---

(١) انظر « ابن الأثير» ج ١٠ ص ٣٦ .
(٢) «خان» بمعنى ملك وهو لقب لملوك الأتراك مثل «خاقان» .
(٣) « انوشتگين » هو جد الدولة الناشئة التى عرفت باسم ملوك خوارزم «خوارزمشاه» وسنتحدث عنها فى فصل تال .

توجه إلى «الرى» على رأس جيشه ، يريد انتزاع الملك من ابن أخيه وجعله لنفسه ، وتلاقى الجيشان فى «الـكرَج» بالقرب من « همدان » ووقعت بينهما موقعة هائلة استمرت ثلاثة أيام بلياليها ، ثم انتهت بهزيمة « قاوُرْت » وأسره وقتله . ولقد وقع ابناه «اميرانشاه» و « سلطانشاه » فى الأسر أيضاً ، فأمر « ملـكشاه » بسمل أعينهما ، ولـكن الأخير منهما لم يفقد حاسة الإبصار كلية ، فتمكن فيما بعد من أن يعقب أباه على ولاية كرمان . وكان لنظام الملك فضل كبير فى التغلب على هذه الأزمة بما أسداه لمليكه من خدمات كثيرة جليلة ، فمنحه السلطان لقاء ذلك لقب « اتابك» ، وهو لقب كان من أرفع الألقاب فى ذلك الوقت ولـكنه أصبح فيما بعد كثير الشيوع والذيوع[١] .

وفى السنة التالية ، مات الخليفة «القائم» وأعقبه على الخلافة حفيده «المقتدى»؛ وبعد سنة أخرى، استطاع الخليفة الفاطمى استرداد « مكة » لمدة اثنى عشر شهراً ولـكنه فقد فى نظير ذلك مدينة « دمشق » ؛ وفى هذه السنة نفسها ١٠٧٥ م = ٤٦٧ هـ بنى «ملـكشاه» المرصد الذى اشتغل فيه « عمر بن ابراهيم الخيامى» وجماعة آخرون من أشهر رجال العـلم[٢] ، بوضع التقويم الجلالى الجديد الذى رغب السلطان فى عمله ، والذى يرجع تاريخه إلى يوم النيروز[٣] من سنة ١٠٧٩ م = ٤٧٢ هـ ؛ ولم تمض سنتان على ذلك حتى تمت خطبة الخليفة «المقتدى» لابنة السلطان « ملـكشاه» ولـكنه فقد فى تلك السنة نفسها ابنه «داود» فحزن لموته حزناً شديداً ولم يسمح لرجاله أن يحملوا جثته من أمامه لدفنها وكاد يقضى على نفسه كمداً عليه ، ولـكن الزمن شفى جراحه عند ماولد له بعد ثلاث سنوات ابن آخر أسماه «سنجر»

---

(١) أحيى «ناصرالدين شاه» وابنه «مظفر الدين شاه» هذا اللقب ومنحاه لوزيرهما «أمين السلطان» ولـكنه منذ سنة أو سنتين أبعد عن الوزارة وأقصى إلى المنفى .

(٢) ذكر ابن الأثير رجلين من زملاء «عمر» هما «ابوالمظفر الإسفزارى» و« ميمون بن نجيب الواسطى» انظر ج ١٠ ص ٣٤ .

(٣) المترجم: «نوروز» أو « نيروز » بمعنى اليوم الجديد وهو مطلع السنة الفارسية ويوافق الاعتدال الربيعى من كل سنة .

نسبة إلى مكان ولادته فى « سنجار » بالقرب من الموصل .

وحوالى سنة ١٠٨٣ م = ٤٧٥ هـ أخذت اللعنة التى صبها « الكندرى » على نظام الملك وأولاده تثمر وتفرخ . وكان أكبر أولاد هذا الوزير يسمى «جمال الملك» وكان شديد الزهو والغرور ، فسمع أن نديم السلطان المسمى «جعفرك » قد هزأ بأبيه فى إحدى دعاباته ، فأسرع إليه من مدينة « بلخ » حيث كان يتولى حكومتها وذهب إلى قصر السلطان وانهال على النديم يضربه فى حضرته ، ثم أمر رجاله بأن يشدوا لسانه إلى قفاه فمات فى الحال على هذه الصورة الشنيعة ، ولم يقل «ملكشاه» شيئاً فى ذلك الوقت ، ولكنه أصدر أمره أسراً إلى «ابى على» عميد خراسان أن يدس السم لـ«جمال الملك» ، ففعل ذلك على يد واحد من أتباعه وخدامه .

وزار «ملكشاه» مدينة بغداد مرتين أثناء حكمه . فأما الأولى فكانت فى ذى الحجة سنة ٤٧٩ هـ = مارس سنة ١٠٨٧ م ، واستصحب معه وزيره «نظام الملك» وتمكن من زيارة قبر الإمام السابع « موسى » وقبر الشيخ الصوفى « معروف الكرخى » وقبرى الإمامين «أحمد بن حنبل» و «أبى حنيفة» وقد حمل كثيراً من الهدايا إلى الخليفة « المقتدى » ولعب غداة وصوله لعبة الكرة والصولجان . وفى هذه الأيام زوج اخته « زليخا خانون » من «محمد بن شرف الدولة » وأقطعه « الرحبة » و «حرّان» و «سروج» و « الرقة » و « الخابور » وزوج ابنته من الخليفة المقتدى ؛ وحملت زوجته « تركان خانون » ولدا أسمته عند ولادته « محموداً » وقد كان له شأن فى الأيام المشئومة التى أعقبت موت أبيه ، لأن «ملكشاه » كان له ابن آخر اسمه « أحمد » جعله ولياً لعرشه ولكنه مات فى مدينة مرو فى الحادية عشرة من عمره بعد ولادة محمود بسنة واحده ؛ وقرابة هذا الوقت عقد «ملكشاه» محالفة مع البيت الغزنوى وزوج إحدى بناته بالملك الغزنوى الصغير مسعود الثانى .

اما الزيارة الثانية التى قام بها «ملكشاه» لمدينة بغداد فقد حدثت فى اكتوبر سنة ١٠٩١ م = رمضان ٤٨٤ هـ أى قبل وفاته بسنة واحدة . وقد تمكن فى الفتره الواقعة بين الزيارتين من الاستيلاء على «بخارى» و «سمرقند» وبلاد أخرى فيما وراء النهر ، وتلقى وهو فى مدينة «كاشغر» النائية الجزية التى بعث بها إليه من القسطنطينية الامبراطور

البيزنطى . وبذلك بلغت الإمبراطورية السلجوقية من علو الشأن مالم تبلغه فى وقت من أوقات حياتها عامة ، وكان من دلائل ذلك أن أصحاب القوارب الذين عبروا بـ«ملكشاه» ورجاله إلى الضفة الأخرى من نهر جيجون ، دفع لهم «نظام الملك» أجورهم بصكوك مستحقة الدفع فى «أنطاكية» حتى يتحققوا بأنفسهم من مدى الاتساع الذى شمله ملك وليّهم . وركب «ملكشاه» جواده وخاض به مياه البحر الأبيض المتوسط على شاطىء «اللاذقية» الواقعة على سواحل الشام وشكر ربه على هذا الملك الفسيح الذى أنعم به عليه . وقد كافأ أولياءه بالإقطاعات الواسعة فى الشام وآسيا الصغرى ، وبلغ جيشه النظامى ٤٦٫٠٠٠ رجل ، سجلت أسماؤهم فى سجل خاص بديوان الحرب ، وتمكن بواسطتهم من أن يمد نفوذه فى بلاد التتار والصين ، وأن يستولى على مدينة عدن على البحر الأحمر . وكان من دأبه أن يشرف على توزيع الصدقات على رعاياه ، وكان قريب المنال لكل مظلوم يظن أنه فى حاجة إلى ملاقاته والشكاية له . أما عنايته بالأمور الدينية فيشهد عليها هذه الآبار الكثيرة التى أمر بحفرها على طريق الحاج ، ثم اتفاقه مع أمير الحرمين على تخفيف الضرائب التى كان يقتضيها منهم ؛ وكان الصيد من أحب هواياته وأشدها سلطانا عليه ، وقد أمر رجاله أن يحفظوا سجلا يقيدون به عدد الصيد الذى يظفر به فى كل يوم ، وقد بلغ فى بعض الأيام سبعين غزالا .

وقد رأى صاحب «راحة الصدور[1]» سجلا من هذه السجلات (التى تسمى بالفارسية شكارنامه) كتبه بخط يده الشاعر «أبو طاهر الخاتونى» وهو الشاعر الذى ألف كتاباً من أقدم الكتب فى تراجم شعراء الفرس وجعله بعنوان «مناقب الشعراء[2]» . ومع ذلك فإن ابن الأثير يخبرنا أن «ملكشاه» كان يحس بشىء من الندم ووخز الضمير لإقدامه على قتل مثل هذا العدد الكبير من الكائنات البريئة والمخلوقات الضعيفة ، وقد حكى لنا هذا المؤلف[3] إنه «اصطاد مرة صيداً كثيراً ، فأمر بعده ، فكان عشرة

---

(١) انظر «راحة الصدور» ورقة ٥٦ .
(٢) من الكتب المفقودة التى ليست فى متناولنا الآن .
(٣) انظر تاريخ ابن الأثير ج ١٠ ص ٧٩ .

آلاف رأس ، فأمر بصدقة عشرة آلاف دينار وقال : إنى خائف من الله تعالى كيف أزهقت أرواح هذه الحيوانات بغير ضرورة ولامأكلة ، وفرق من الثياب بين أصحابه ما لا يحصى ، وصار بعد ذلك كلما صاد شيئاً تصدق بعدده دنانير ، وهذا فعل من يحاسب نفسه على حركاته وسكناته » .

وكانت «أصفهان» أحب مدن مملكته إلى قلبه (١) وقد اتخذها مكاناً لإقامته ، وزينها بجملة من المبانى الجميلة والحدائق الغناء ، وكانت قلعة «دژ كوه» مما استحدثه فيها ، وقد وقعت بعد سنوات قليلة من بنائها فى أيدى واحد من زعماء « الحشاشين » الخطرين هو الزعيم المعروف بـ «ابن عطاش» .

سقوط نظام الملك :

طوال هذه السنوات السعيدة المحفوفة بمطالع اليمن ومواكب الإقبال ، كان « نظام الملك» هو الساعد الأيمن للملك الشاب « ملكشاه» يدبر له الأمور ويصرفها بما عرف عنه من حكمة ورشاد . وقد بلغ الآن الثمانين من عمره . وكان خلال حياته الطويلة — إذا تيسر له شيء من فراغ الوقت — قضاه فى الإشراف على المدارس الكثيرة التى بناها فى بغداد وإصفهان ، مستمعاً إلى حديث الصفوة من العلماء والفضلاء ، أو مشتغلا بتأليف رسالته الكبيرة التى قام على تأليفها إطاعة لأمر « ملكشاه » عن تاريخ الحكم وفن الحكومة ، وهى التى عنونها على الأصح بـ «سياست نامه» وإن كان جماعة من كتاب الفرس يشيرون إليها عادة باسم « سير الملوك » . وهذه الرسالة تعتبر من أهم التأليفات المنثورة المفيدة التى تفخر بها الآداب الفارسية ، وقد نشرها « شيفر » أخيراً فجعلها بذلك فى متناول جميع المشتغلين بالفارسية ، وترجمها إلى الفرنسية فيسرها لمجموعة أكبر من القراء والمطلعين .

وكان أبناء «نظام الملك» الإثنا عشر يشغلون جلهم أو كلهم أعلى مناصب الدولة ،

---

(١) انظر «راحة الصدور» ورقة ٥٧ وكذلك مقالى الذى نشرته بعنوان «وصف مجمل لمخطوطة نادرة عن تاريخ اصفهان» ص ٦٦ .
Account of a Rare Manuscript History of Isfahân.

وقد بلغ هو وأسرته من علو الشأن ما يذكرنا بما بلغه «البرامكة» فى قديم الأزمان ، وربما فاق شأنهم شأن هـؤلاء وأربى عليهم ، ولـكن السبب الأبدى الذى أودى بالبرامـكة وغيرهم من كبار الوزراء الذين أخرجتهم إيران والذى سيودى دائماً بكل وزير تنجبه هذه البلاد ، وأعنى إثارة حفيظة الملوك عليهم بواسطة خصومهم الحاقدين ، كان يضيق الخناق على «نظام الملك» ويعمل على هدمه وتحطيمه. وكانت «تركان خاتون» ـ زوجة ملـكشاه المحبوبة ـ هى أعدى أعدائه وألد خصومه ، وكانت شديدة التأثير على زوجها ، مسموعة الـكلمة لديه ، وكان مطمعها الوحيد الذى تصبو إليه أن تضمن ولاية العهد لابنها الصغير «محمود» . وكان وزيرها « تاج الملك » يؤيدها فى تحقيق هذه الرغبة ، بينما كان المعروف عن «نظام الملك» أنه يؤيد الأخ الأكبر «بركيارق» الذى لم يتجاوز فى ذلك الوقت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره . أما السبب المباشر الذى أدى إلى نـكبة «نظام الملك» وأسرته فـكان مرجعه إلى السلوك الشائن الذى سلـكه واحد من أحفاده كان حاكما على مدينة مرو [(١)] فنال بالأذى واحداً من الناس ، أسرع برفع شكايته إلى ملـكشاه . فأرسل السلطان رسالة شديدة اللهجة إلى «نظام الملك» سأله فيها على سبيل التهـكم : هل هو يقنع بمنصب الوزارة أو يعتبر نفسه شريكا له فى الملك ؟! ثم أخبره أن أقرباءه « لا يقنعون بالمناصب العالية فى الدولة بل يظهرون كثيراً من التبجح والرعونة اللذين لا يمـكن الإغضاء عنهما . واستاء الوزير العجوز من هذه الـكلمات العنيفة التى كالها له «ملـكشاه» وأحس بأن مليـكه مدين له بكثير مما ناله من خير، فقال فى رعونة وغلظه : «إن الذى وضع التاج على رأسك قد وضع القلنسوة على رأسى ....!!» وأضاف إلى ذلك عبارات خشنة أخرى [(٢)]، نقلها الحاضرون إلى السلطان فى كثير من المبالغة والتهويل ، فأمر ملـكشاه بعزله وتوليه «أبى الغنائم تاج الملك» فى مكانه [(٣)]؛ وقد اقترنت هذه الحركة بكثير من التغييرات الوزارية الطائشة فاستبدل « كمال الدين أبو الرضا » بـ« سديد الملك أبى المعالى » كما استبدل

---

(١) هو ابن ابنه « جمال الدين » الذى أمر « ملـكشاه » بدس السم له قبل ذلك بعشر سنوات فمات مسموماً .

(٢) يورد ابن الأثير تفصيلات هذه الحادثة فى كثير من الإيضاح (ج ١٠ ص ٧٦ — ٧٧) ولـكنى رويت هنا ماورد فى «راحة الصدور» (ورقة ٥٨) فقد استرعت روايته أنظار جميع الـكتاب الذين تناولوا هذه الواقعة بالبحث .

(٣) كان « تاج الملك» من أقرب المقربين إلى « تركان خاتون » كما ذكرنا ذلك آنفا .

«شرف الملك أبوسعد» بـ «مجد الملك أبى الفضل القمى» . والمأثور عن هذا الأخير أن «أباطاهر الخاتونى» هجاه لبخله بمقطوعة فارسية تعتبر من أروع الأمثلة مما بقى من أشعاره[1]. وذكر «أبو المعالى النحاس» هذه التغييرات الوزارية فذمها فى أبيات ترجمتها كالآتى[2] :

— على عهد «أبى على» و «أبى الرضا» و «أبى سعد» .
كان الأسد يدخل حضرتك فى وداعة الحمل أو أشد . . !!
— وكان كل من يدخل إليك فى تلك الأيام
كأنه الرسول المزود ببشرى النصر والظفر والإقدام .
— وأما على عهد «أبى الغنائم» و «أبى الفضل» و «أبى المعالى»
فقد أصبح كل شىء يلسع حتى الحشائش النامية على أرضك . . !!
— فإذا كنت قد مللت خدمة «نظام الملك» و «كمال» و «شرف»
فتنبه إلى ماجره عليك «تاج الملك» و «مجد الملك» و «سديد الملك» ...!

قتل نظام الملك :

ولم يعش نظام الملك طويلا بعد عزله ، فبينما كان فى رفقة «ملكشاه» فى سفره من أصفهان إلى بغداد توقف فى العاشر من رمضان سنة ٤٨٥ هـ = ١٤ أكتوبر سنة ١٠٩٢ م بالقرب من «نهاوند» (ذلك المكان الخالد الذى أصيب عنده جنود الملك الساسانى الأخير بالهزيمة الماحقة على أيدى المسلمين فى منتصف القرن السابع الميلادى) فلما غربت الشمس وتناول «نظام الملك» طعام إفطاره هم بالذهاب إلى خيمة زوجه وأولاده ، فاعترض طريقه شاب ديلمى قد تزى بزى المساكين ثم أخرج خجأة

---

(١) انظر ص ٦٠٠ من «مجلة الجمعية الملكية الأسيوية» سنة ١٩٠٢ وتوجد أمثلة كثيرة أخرى من أشعار هذا الشاعر فى كتاب «المعجم فى معايير أشعار العجم» تأليف شمس قيس طبع بيروت ضمن «سلسلة جب التذكارية» .

(٢) انظر المرجع السابق ، وكذلك ص ٤ من ترجمة شيفر لكتاب «سياست نامة» وقد أورد «البندارى» ترجمة هذه الأبيات بالعربية ص ٦٣ .

خنجراً من طيات ملابسه وطعنه به طعنة قاتلة . ولم يكن هذا المسكين المزيف فى الحقيقة إلا عضواً فى جماعة « الفدائيين » أو « الحشاشين » الذين اجتمعوا فى ذلك الوقت حول « الحسن بن الصباح » وغيره من رؤساء « الدعوة الجديدة » (١) الاسماعيلية . ويقال إن هذه الحادثة كانت فاتحة لسلسلة أعمالهم المفزعة الجريئة ، ولكن ابن الأثير (٢) يذكر حادثة أخرى سبقتها ، تمثلت فى قتل أحد المؤذنين فى مدينة إصفهان ، ويقول إن « نظام الملك » عرض نفسه لانتقام هؤلاء الجماعة عند ما أمر بإعدام أحد النجارين بتهمة اشتراكه فى قتل هذا المؤذن . يضاف إلى هذه الأسباب ، وإلى ما عرف من عداء شخصى بين « الحسن بن الصباح » وبين هذا الوزير (كما تدلنا عليه قصتهما المتداولة المعروفة) أن نظام الملك كان يظهر كثيراً من الكراهية والبغض للرافضة أو الشيعة ، وخاصة فريق السبعية منهم الذى كان من أقوى معتنقيه الإسماعيليون والخلفاء الفاطميون فى مصر ؛ وهذا السبب الأخير يكفى وحده للكشف عن سبب قتله والقضاء عليه . وكذلك وجد فريق من الناس كان من رأيه أن « تاج الملك » الذى خلفه فى الوزارة ، كان المحرض الحقيقى على ارتكاب هذه الجريمة التى ظنها فى البداية ستساعده على تثبيت مكانته وتقوية نفوذه ، ولكنها أدت فى الحقيقة إلى قتله هو أيضاً (٣) بعد أربعة شهور من مقتل « نظام الملك » .

وقد أحست أغلبية ساحقه من الناس الذين حكمهم « نظام الملك » مدة السنوات الثلاثين الماضية بكثير من الحزن لمقتله ؛ ومن المعروف فى بلاد المشرق أن الشعراء قلما يمدحون وزيراً معزولا ، ولكن ابن الأثير (٤) يخبرنا أن كثيراً من المراثى قيلت

---

(١) ابن الأثير يسميها « الدعوة الأخيرة » انظر ج ١٠ ص ١٠٨ . ويجب أن نذكر أن المشرقيين يميلون دائماً إلى أن ينسبوا قتل العظماء إلى فرقة من فرق الملاحدة حتى يبرروا بعد ذلك اضطهادها ، ومن أمثلة ذلك أنه عند مقتل « ناصر الدين شاه » نسبوا قتله إلى « البابية » ولكن ثبتت بعد ذلك براءتهم من كل صلة بهذه الجريمة .

(٢) انظر ابن الأثير ج ١٠ ص ١٠٨ ، فهو يذكر أيضا أنه فى سنة ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م قتل « آق سنقر » بيد واحد من الباطنية أو الإسماعيلية .

(٣) قتله جماعة من أتباع « نظام الملك » فى فبراير سنة ١٠٩٣ م = ٤٨٦ هـ .

(٤) انظر ابن الأثير ج ١٠ ص ٧١ .

فيه ، من بينها المرثية العربية التى قالها «شبل الدولة»(١) وفيها البيتان الجميلان الآتيان :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة   يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها   فردها غيرة منه إلى الصدف

ويروى صاحب «چهار مقاله» (٢) أن منجما شهيراً اسمه «الحكيم الموصلى» أخبر «نظام الملك» أنه سيموت بعد موته «أى موت الحكيم الموصلى» بستة أشهر ، فلما وصلت الأنباء من نيسابور فى ربيع سنة ١٠٩٢ م = ٤٨٥ هـ بأن هذا المنجم قد مات ، وكان « نظام الملك » يعتقد فيما يقوله ويؤمن بصحته ، أخذته رجفة شديدة ، وأخذ يعد معدات جنازته ويتجهز لاستقبال الموت ، ولم يكد الخريف ينشر نسائمه فى الآفاق حتى حان حينه وتحققت هذه النبوءة العجيبة .

ويشير « ابن الأثير » (٣) إلى حكايات كثيرة كانت متداولة عن « نظام الملك » حتى زمانه (أى القرن الثالث عشر الميلادى والسابع الهجرى) وقد زخرت كتب المتأخرين بمثل الحكايات ، ومن بينها الحكاية المنتحلة التى يرويها بعض الناس على أنها من الأخبار التاريخية الموثوق بصحتها ، وخلاصتها أن «نظام الملك» بينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة إثر الجرح الذى أصابه ، كتب الأبيات الآتية وبعث بها إلى « ملكشاه »(٤).

سى سال بإقبال تو اى شاه جوانبخت
زنگ ستم از چهرهٔ آفاق ستردم
طغراى نيكو نامى ومنشور سعادت
پيش ملك العرش بتوقيع تو بردم

---

(١) هذا الشاعر هو الذى حدثنا عنه دولتشاه (ص٩) بأنه أنشأ قصيدة عربية من أربعين بيتاً فى مدح «مكرم بن العلاء» مطلعها :

دع العيس تذرع عرض الفلا   إلى ابن العلاء وإلا فلا

وقد أعطاه ابن العلاء كيساً مليئاً بالذهب لقاء هذه القصيدة وقال له : لو ساعدنى الغنى لجعلت لك كيساً من الذهب لقاء كل بيت من أبيات هذه القصيدة ..!!

(٢) انظر الحكاية السادسة والعشرين .

(٣) انظر ج ١٠ ص ٧٢ .

(٤) انظر تذكرة الشعراء ص ٥٩ ، وكذلك تاريخ گزيده طبعة گانتان ج ١ ص ٢٣٠ .

چون شد ز قضا مدت عمرم نود وشش
در حدّ نهاوند ز يك زخم بمردم
بگذاشتم آن خدمت ديرينه بفرزند
اورا بخـــدا وبخداوند سپردم

ومعناها :

— بإقبالك علىّ ... ثلاثين عاماً أيها المليك السعيد ...![1].
استطعت أن أصقل صدأ الظلم عن وجه الآفاق .

— ولقد حملت إلى «رب العرش» ممهورا بتوقيعك
منشور السعادة ، وطغراء الهناءة .

— فلما انقضى من أجلى ستة وتسعون عاماً
أصابتني ضربة قاتلة بالقرب من «نهاوند»

— فتركت تلك الخدمة الطويلة ليتولاها ولدى
وانى لأتركه وديعة فى يد الله ويد مولاى وسيدى الملك ...

ولقد سبق لى أن أشرت فى مكان آخر[2] إلى أن البيت الأخير من هذه الأبيات مروى بصورة تختلف قليلا عن النص الذى ذكرناه ، وأنه من غير شك من إنشاء الشاعر « برهانى » شاعر السلطان «ملكشاه» . وأنه قاله لمولاه عندما أوصاه بابنه « المعزى» الذى نال رضا مولاه وأعقب أباه على إمارة الشعر ؛ أما الأبيـات الثلاثة الأولى فمنتحلة للأسباب الآتية :

أولا : أن صاحب «چهارمقاله» حدثنا بأن « نظام الملك» لم يكن يقدر الشعراء ، لأنه لم يكن على شىء من الدراية بفنهم .

---

(١) قصـد التحديد على وجه الدقة بثلاثين عاماً لأنه تولى الوزارة من سنة ١٠٦٣ إلى ١٠٩٢ م = ٤٥٥ — ٤٨٥ هـ ؛ ولـكن «دولتشاه» يذكر بدل كلمة «سى» بمعنى ثلاثين كلمة «چل» بمعنى : أربعين .

(٢) ترجمة براون لـكتاب «چهار مقاله» ص ٦٧ .

ثانياً : أن «نظام الملك» كان له من العمر خمسة وسبعون سنة عند وفاته ، ولم يصل إلى السادسة والتسعين .

ثالثاً : أن أولاد « نظام الملك » الكثيرين نالوا جميعهم أرقى المناصب في مملكة « ملكشاه » بحيث لم يكن غيرهم يطمع فيما نالوه أو يفكر في ضرورة الحصول على ما فازوا به .

وإني أريد أن أذكر هذه الحقيقة لأنها من أقوى الأدلة التي تبرهن لنا عن ميل الشعوب وخاصة الفرس ، إلى نسبه الحكايات الشهيرة والأشعار الجميلة والأقوال المأثورة والحوادث الرائعة ، إلى الأشخاص المعروفين المشهورين ، ومن أجل ذلك ، وكما أشرت سابقاً ، نسبوا طائفة كبيرة من رباعيات الشعراء المغمورين إلى «عمر الخيام» ؛ ومن أجل ذلك أيضاً سنرى أنهم يحكون جملة من الحكايات عن «ناصر خسرو» و «الحسن بن الصباح» لم تكن في الحقيقة مما يتصل بهما ولكنهم اقتبسوها من سير أناس مغمورين غير معروفين .

موت ملكشاه :

لم يعش «ملكشاه» أكثر من شهر واحد بعد مقتل وزيره الذي جازاه جزاء سنمار ، فبعد أقل من ثلاثة أسابيع من موت « نظام الملك » ، خرج «ملكشاه» في السادس من نوفمبر سنة ١٠٩٢م = ٤٨٥ هـ للصيد فأصابه برد وأكل طعاما لم يناسبه فحجموه لعله يبرأ من علته ، ولكن الحمى لازمته حتى مات بعلته في التاسع عشر من شهر نوفمبر (الثالث من شوال) ، فرثاه الشاعر « معزى» بهذين البيتين المعروفين :

رفت در يك مه بفردوس برين دستور پير
شاه برنا در پى او رفت در ماه دگر
اى دريغا آنچنان شاهى ووزيرى اينچنين
قهر يزدانى به بين وعجز سلطانى نگر(١)

---

(١) انظر «تذكرة الشعراء» ص ٦٠

ومعناهما :

— فى شهر ... ذهب الوزير العجوز إلى جنة الخلد والمآب .
وفى الشهر التالى تبعه الملك مكتمل النضرة والشباب

— فواحزنا ... على الملك ... ويا أسفا على هذا الوزير
ويا عجباً ... لعجز السلطان وقهر الله وسطوة القادر ... !!

و « معزى » هو أيضاً نفس الشاعر الذى قال الرباعية الآتية عند عزل « نظام الملك » وتولية خصمه « تاج الملك» فى مكانه :

نشناخت ملك سعادت اختر خويش   در منقبت وزير خدمت گر خويش
بگماشت بلاى تاج بر لشكر خويش   تا در سر تاج كرد تاج سر خويش[1]

ومعناها :

— لم يستطع الملك أن يقدر ما لنجمه من سعد كامل
عندما أعطاه الله وزيراً خدوما ، يمتاز بكثير من الفضائل

— فوكل على عسكره «تاج الملك» فما زال يصب عليهم بلاءه
حتى جعل الملك تاجه على رأس «تاج الملك»...!!

وقد ذكر صاحب «راحة الصدور» أن ولادة ملكشاه كانت فى سنة ٤٤٥ = ١٠٥٣م ؛ أما «ابن الأثير» فقد جعلها بعد ذلك بسنتين ، وفى كلتا الحالين لم يبلغ ملكشاه الأربعين من عمره عند وفاته .

قصة نظام الملك والصباح والخيام :

تحدثنا إلى الآن عن «نظام الملك» ذاكرين الأخبار التى رواها عنه أقدم المؤرخين وأصدقهم ، ولكن هناك جملة من الأقاصيص التى تتصل به ، أشار إليها « ابن الأثير» فى تاريخه ، ونال بعضها كثيراً من الشهرة وبعد الصيت ، وأصبحت فى العصور الأخيرة

(١) انظر «تذكرة الشعراء» ص ٥٩ .

موضع الثقة والتصديق فى البلاد الأسيوية والأوروبية بحيث نجد من العسير علينا أن نتغاضى عن ذكرها فى كتاب مثل كتابنا هذا . وأروع هذه القصص وأكثرها ذيوعاً هى القصة (١) التى تربط بينه وبين الرجل الرهيب «الحسن بن الصباح» ، مؤسس «الدعوة الجديدة» الذى أجمعت الأدلة على أنه كان على صلة بمقتله فيما بعد . وهذه القصة يعرفها كل المعجبين بـ « عمر الخيام » ورباعياته(٢) وهى تشتمل على كثير من المصاعب المتصلة بالتواريخ المتناقضة التى لا يمكن التوفيق بينها ، لأن أهم المصادر التى ذكرتها هى «الوصايا» التى ينسبونها إلى « نظام الملك» وقد ثبت قطعا أنها منتحلة عليه(٣) ؛ ومن أجل ذلك فإن كبار النقاد لم يترددوا فى رفض هذه الرواية التى تفترض أن رجلين من أشهر الرجال هما « الحسن بن الصباح » و «عمر الخيام » [وقد ماتا فى سن غير معلومة فيما بين سنتى ٥١٧ و ٥١٨ هـ = ١١٢٣ و ١١٢٤م] كانا من زملاء « نظام الملك» فى الدراسة أيام الشباب . والمعروف عن « نظام الملك» أنه ولد فى سنة ٤٠٨ هـ = ١٠١٧م وعلى ذلك فليس من اليسير أن نتوقع أن هذين الشخصين بالذات يعيشان إلى أن يبلغا المائة من العمر ؛ حتى لو فرضنا احتمال ذلك لكانا أصغر سنا بكثير من « نظام الملك» الذى يبدو أنه فرغ من دراسته وتحصيله والتحق بالخدمه العامة فى سن مبكرة صغيرة(٤). وقد أثار هذا الاعتراض بشدة الأستاذ «هوتسما» فى مقدمته على «البندارى» وهو يرى فى دقة ورجحان ، أن « نظام الملك» لم يكن زميلا فى الدراسة للشاعر المنجم وصاحبه شيخ الحشاشين ، بل كان زميلهما فى الحقيقة هو « انو شيروان بن خالد »

---

(١) انظر «ابن الأثير» وغيره من الكتب والمصادر وكذلك «البندارى» ص ٦٧ .

(٢) هذه القصة مذكورة فى مقدمة الطبعات المختلفة لترجمة « فيتزجرالد» للرباعيات ، وكذلك ذكرها «هوينفلد» فى طبعته للرباعيات وترجمتها .

(٣) ذكر « إتيه » فى مقالته عن الأدب الفارسى الحديث (بالجزء الثانى من المفصل فى الدراسات اللغوية الإيرانية ص ٣٤٨) أن كتاب «الوصايا» يرجع تأليفه إلى ما بعد القرن الخامس عشر الميلادى ولكنه مع ذلك يرى أن أصوله ترجع إلى زمن أسبق من ذلك . ومن هنا نجد أن « إتيه» يعطيه شيئاً من الأهمية على عكس « ريو » . انظر كتالوج المخطوطات الفارسية ص ٤٤٦ .

(٤) هناك من الأدلة ما يرجح أن نظام الملك تعرف بالحسن بن الصباح قبل ذهاب الأخير إلى مصر انظر «ابن الأثير» تحت سنة ٤٩٤ هـ ج . ص ١١٠ .

الوزير اللاحق الذى وزر للأمير السلجوقى « محمود بن محمد بن ملكشاه » الذى حكم فيما بين سنتى ١١١٧ و ١١٣١ م = ٥١١ و ٥٢٦ هـ . وقد أشار هذا الوزير فى تاريخه[١] ، عند حديثه عن نشأة الحشاشين أو الملاحدة ، إلى أنه تعرف فى شبابه بجماعة من قادتهم ، وتلقى العلم على بعضهم « وخاصة رجل من الرى جاب المعمورة وطوّف فى آفاقها وكان يشتغل بالكتابة والإنشاء . » ولن نتردى فى خطأ إذا قدرنا أن هذا الرجل الذى أشار إليه «انو شيروان» فى هذه العبارة إنما هو «الحسن بن الصباح» بعينه . وإذا صح هذا الفرض العبقرى ، فلدينا مثل آخر لتلك الظاهرة التى تحدثنا عنها أكثر من مرة ، والتى تحدو الناس إلى نسبة الحوادث الرائعة إلى الرجال المتازين المعروفين . والتواريخ فى هذه الحالة الأخيرة لا تتعارض مع بعضها بل تتفق كثيراً فيما بينها ، فقد ورد فى كتاب « عيون الأخبار »[٢] أن « أبا نصر انوشيروان بن خالد بن محمد الكاشانى» ولد فى مدينة الرى (وبها ولد الحسن بن الصباح) فى سنة ٤٥٩ هـ = ١٠٦٦ م وأنه تولى الوزارة للأمير السلجوقى محمود ، وكان فى رفقته إلى بغداد فى سنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م ، ثم تولى الوزارة بعد ذلك للخليفة المسترشد فيما بين سنتى ٥٢٦ و ٥٢٨ هـ = ١١٣١ و ١١٣٣ م ، وتوفى فى سنة ٥٣٢ أو ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ أو ١١٣٩ م . وعلى هذا فمن المحتمل كما يستفاد من عبارته أنه هو الوزير الذى كان زميلا فى الدرس لمواطنه الخطير «الحسن بن الصباح »

ومع ذلك فهذه القصة التى درسناها تستند فى الحقيقة إلى مصدر آخر موثوق به ، يسبق جميع هذه المصادر المتأخرة التى ذكرتها من قبيل «الوصايا» و« روضة الصفا » و «تاريخ ألفى» . وقد ذكرت ذلك فى مقالتى التى نشرتها فى مجلة الجمعية الملكية الأسيوية بعنوان « أضواء أخرى تكشف عن الخيام »[٣] وقلت أن هذه القصة بعينها قد أوردها المؤرخ الكبير « رشيد الدين فضل الله » المتوفى سنة ١٣١٨ م = ٧١٨ هـ فى

---

(١) هذا التاريخ هو الأساس الذى اعتمد عليه «البندارى» فى كتابه ؛ انظر ص٦٦-٦٧ .

(٢) انظر مخطوطة كامبردج رقم Add. 2,922 ص(١٢٦ - ا) ولم يكن « هوتسما » يعرف بأمر هذه المخطوطة فقال : إن تاريخ ولادته غير معلوم .

(٣) انظر عدد ابريل سنة ١٨٩٩ ص ٤٠٩ — ٤٢٠

كتابه القيم « جامع التواريخ » وقد نقلت عن هذا الكتاب (١) نص هذه القصة ونشرته هو وترجمته فى مقالتى التى ذكرتها آنفا . والمصدر الذى ينسب إليه رشيد الدين هذه القصة هو كتاب من كتب الإسماعلية اسمه « سرگذشت سيدنا » أو « سيرة سيدنا » وهو كتاب عن تاريخ « الحسن بن الصباح » كان بين كتب الملاحدة التى وجدت فى قلعة الحشاشين الحصينة « ألموت » عند ما استولت عليها جيوش « هولاكوخان » المغولية فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) وقد رآه وفحص مشتملاته « عطا ملك الجوينى » كما حدثنا بذلك فى كتابه تاريخ « جهان گشا » (أو تاريخ فاتح العالم ويقصد به جنگيزخان) ، قبل أن يلقى به بعد ذلك فى النار لتلتهمه مع سائر الكتب التى اشتملت على تعاليم الإلحاد والملاحدة . ومما يثير الدهشة حقا أن صاحب «جهان گشا» قد اعتمد على هذه السيرة كثيرا فى كتابة الجزء الخاص بالاسماعليه أو «الحشاشين» ، وهو الموجود فى الجزء الثالث والأخير من تاريخه الكبير عن غزوة المغول ، ولكنه مع ذلك لا يشير إلى هذه القصة العجيبة على الإطلاق .

نشأة الحشاشين :

وللحشاشين مكان الصدارة فى تاريخ هذا العصر وتاريخ القرنين التاليين له ، وقد استطاعوا بواسطة الأعمال التى قام بها فرعهم الشآمى أيام الحروب الصليبية أن يجعلوا اسمهم مرهوبا فى أوربا حتى لنجد لزاما علينا فى هذا المقام أن نفصل الحديث عن نشأتهم وعن معتقداتهم حتى نيسر للقارىء فهم الإشارات الكثيرة التى تشير إليهم فيما يلى من فصول . وقد درست بالتفصيل فى الجزء الأول من هذا الكتاب (٢) مذهب الشيعة ونشأتهم وتعاليمهم ؛ كما درست الشعبتين الهامتين اللتين ينقسم إليهما هذا المذهب وهما فريق «السبعية» أو الاسماعلية ، وفريق «الاثنى عشرية» ومذهبهم

---

(١) نص هذه القصة وارد فى الورقة ٢٩٢ ب فى مخطوطة المتحف البريطانى رقم Add 7,628

(٢) انظر « تاريخ الأدب فى إيران ، منذ أقدم الأزمنة إلى زمن الفردوسى » ص ٢٢٠ — ٢٤٧ و ٢٩٥ — ٢٩٦ و ٣١٠ وما يتبعها (من الأصل الانجليزى) ، وعلى الأخص الفصل الثانى عشر عن الاسماعلية والقرامطة أو فريق السبعية

هو المذهب الرسمى لإيران فى الوقت الحاضر . ولا شك أن إعادة مختصرة لما ذكرته من حقائق فى الجزء السابق ستكون كبيرة الفائدة للقارىء الذى ليس فى متناوله الآن الحصول على ذلك الجزء .

الشيعة :

كلمة « شيعة » بمعنى جماعة أو حزب ، و « شيعة على » بمعنى جماعته أو حزبه . و«على» هوابن عم الرسول ، وزوج ابنته، ووالد الحسن والحسين وجد جميع الأئمة الذين يعترف بإمامتهم المتشيعون أو أهل الشيعة . وفى رأى أهل السنة من المسلمين (الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية) أن علياهو رابع الخلفاء الراشدين وآخرهم ، وهو لايمتاز فى شىء عن أسلافه الثلاثة الآخرين (أبى بكر وعمر وعثمان) كما لايمتازون هم أيضا عنه فى شىء . أما الشيعة فيرون أنه الشخص الوحيد الحقيق بخلافة الرسول لقرابته منه ولزواجه من ابنته ؛ وقد انتقل حقه هـذا فى الخلافة إلى أبنائه وذريته ؛ وفى بعض الناس منذ أقدم الأزمنه ميل إلى تعظيم «على» والارتفاع به إلى مراتب الآلهة ، ولازال هذا الاعتقاد موجودا فى طائفة كبيرة من الإيرانين يسمون أنفسهم بـ«العلى إلهيين» وهم يعتقدون ـ كما تدل على ذلك تسميتهم — بان عليا ماهو إلا تجسيد لله

ومنذ أقدم الأزمنة أيضا، والفرس يعتقدون اعتقادا جازما بالحق الإلهى،ويكرهون كراهية شديدة فكرة الانتخات الشعبي الديموقراطى التى تستولى على طبيعة العرب ومشاعرهم ، ومن أجل ذلك فقد كان طبيعيا أن يصبح الفرس عماد الحزب الشيعى؛ وهم يعتقدون فى أن والدة الإمام الرابع «علىّ زين العابدين» كانت أميرة من أمراء البيت الملكى الساسانى . ولاشك أن هذا المعتقد كان من أقوى العوامل التى دفعتهم إلى أخذ البيعة لهذا الإمام ولأعقابه من بعده .

والشيعة يتفقون فى أن علياً وأعقابه هم الخلفاء الوحيدون للرسـول ، وهم الناشرون لدينه وتعاليمه ، ولكنهم يختلفون فيما بينهم فى عدد الأئمة وأسمائهم ، ففريق «السبعية» وفريق «الإثنى عشرية» (وهما أهم فرقتين من فرق الشيعة نهتم بهما فى هذا البحث) يتفقان فى تسلسل الأئمـة حتى الإمام السادس «جعفر الصادق» ثم يفترقان

بعد ذلك ، فيرى فريق «السبعية» أن الامام السابع والأخير هو ابنه الأكبر «إسماعيل» بينما يرى فريق «الاثنى عشرية» أن الإمام الذى أعقب الإمام السادس هو ابنه الأصغر «موسى» ثم أعقابه حتى الإمام الثانى عشر أو « المهدى » الذى قالوا عنه أنه اختفى من الأرض عند « سرّ من رأى » فى سنة ٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م وأنه سيخرج من عزلته فى نهاية الزمان فيملأ الأرض عدلا وإحساناً بعد امتلائها بالظلم والعدوان ؛ ولا زال متشيعة الفرس إذا ذكروه فى أحاديثهم يتبعون عبارتهم بالدعاء له قائلين : « رد الله غربته وعجل عودته ورجعته ..!!» .

المعتدلون والغلاة :

ومعتدلو الشيعة قصروا معتقدهم على أن عليا وذريته هم أولى الناس بخلافة النبى ورئاسة المسلمين ، ومن أجل ذلك فقد كانوا مكروهين سياسيا من خلفاء دمشق وبغداد ، لأنهم كانوا فى نظرهم مغتصبين للخلافة ؛ يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يختلفون كثيراً مع أهل السنة فيما يتعلق بعدد من المسائل الفقهية الأخرى . وإلى هؤلاء المعتدلين تشير كتب التراجم والتاريخ التى كتبها رجال من أهل السنة بالعبارة التى تصادفنا كثيراً وهى : « تشيع وحسن تشيعه » أى أنه كان من المعتدلين فى آرائهم ومعتقداتهم . ولكن إلى جانب هؤلاء كان فريق آخر من الشيعة يعرفون بـ «الغلاة» لم يكتفوا بأن يعتقدوا أن علياً والأئمة قد تجسد الله فيهم ، ولكنهم تعدوا ذلك إلى الاعتقاد فى طائفة من المذاهب الأخرى كالرجعة والحلول وما شابه ذلك من الآراء التى تخالف تعاليم الإسلام تمام المخالفة ؛ وقد انطوت الأكثرية من هؤلاء الغلاة تحت لواء « السبعية » أو شيعة الإمام السابع «إسماعيل» .

الإسماعيلية :

وأهمية الإسماعيليين السياسية بدأت فى الظهور فى القرن العاشر الميلادى (= الثالث الهجرى) بتأسيس الدولة الفاطمية التى سميت كذلك، كما يقول مؤلف «جامع التواريخ » لاستناد خلفائهم فيما ادعوه من سلطة زمنية وروحية إلى نبل أصلهم وتسلسلهم من « فاطمة » بنت النبى ، ومن أجل فقد عرفوا بأسماء مختلفة تتساوى

فى مدلولاتها . فهم «علويون» نسبة إلى على ، وهم «فاطميون» نسبة إلى فاطمة ، وهم «إسماعيليون» نسبة إلى الإمام السابع إسماعيل ؛ ومع ذلك فإن سلسلة النسب التى أرادوا أن يستندوا إليها فى إثبات دعواهم العريضة كانت محلا لاعتراض خصومهم من الخلفاء العباسيين ، وقد طعنوا فيها مراراً فى سنة ٤٠٢ هـ = ١٠١٠ م وفى سنة ٤٤٤ هـ = ١٠٥٢ م وأعلنوا أنهم فى الحقيقة من ذرية الملحد الفارسى «عبد الله بن ميمون القداح»(١) الذى رأى فى فريق الإسماعيلية الذى ظل مسالما حتى ذلك الوقت ، وسيلة صالحة لنشر تعاليمه الباطنية وآرائه المتطرفة ، لكى يتسنى له بذلك الوصول إلى غاياته السياسية ومطامعه الدنيوية .

الدولة الفاطمية

والدولة الفاطمية التى نشأت فى شمال إفريقيا ومصر ، تحقق وجودها السياسى التى حافظت عليه(٢) ، بواسطة نشر الدعوة الدينية فى سائر ديار الإسلام وخاصة إيران ، على يد جماعة من أمهر « الدعاة » الذين كانت لهم خبرة عميقة بالنفوس البشرية وبالأساليب التى يمكن بواسطتها إغراء العقول المختلفة باعتناق مذاهبهم الغريبة . وإذا شئنا المقابلة بين هؤلاء الدعاة وأمثالهم من الأوروبيين أمكننا أن نشبههم بجماعة «الجزويت» كما أمكننا أن نشبه رؤساءهم من الإسماعليين بفريق «البابوات السود» الذين نشأوا فى المشرق فى هذا العصر . وكان من دأب الدعاة أن ينشروا «تعاليمهم» بأى وسيلة يرونها صالحة للوصول إلى أغراضهم ، وهم يجعلون « التعليم » مبنيا على تفسير الآيات القرآنية بطريق «التأويل» ويؤكدون أن أئمتهم دون غيرهم هم الحفظة والوارثون لهذه التأويلات ، ومن أجل ذلك فقد أسموهم أحيانا بـ « التعليميين » كما كانت تعاليمهم « باطنية » فأسموهم أيضا بـ « الباطنيين » ، حتى إذا تأسست « الدعوة الجديدة » عرفوا بعدها على الخصوص باسم « الملاحدة » .

---

(١) مات عبدالله بن ميمون القداح فى سنة ٢٦١ هـ = ٨٧٤ م وهى نفس السنة التى اختفى فيها الإمام الثانى عشر .

(٢) استمرت هذه الدولة من سنة ٩٠٩ م الى ١١٧١ م = ٢٩٧ هـ إلى ٥٦٧ هـ فلما كان الخليفة الفاطمى الرابع عشر تغلب عليه « صلاح الدين » واستولى منه على عرش مصر .

مذهب الإسماعيلية

ومذهب الإسماعلية مذهب فذ معقد ، وقد تحدثت عنه فى شىء من التفصيل فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، وحسبى أن أذكر هنا أنه يمتاز بغنى فى مراجعه ومصادره ، وقد أورد الكثير منها فى دقة وتمحيص «دى ساسى»(١) و«جويارد»(٢) و «دى جويه»(٣) فى مؤلفاتهم القيمة الفائقة ، ولكن لازالت بقية منها لم تطبع حتى الآن (٤) موجودة فى تاريخ « جهان كشا » و « جامع التواريخ »

العدد سبعة فى مذهب الإسماعيلية :

ومذهبهم فى جملته فلسفى باطنى ، قد استمد كثيرا من أسسه من المذاهب الإيرانية والسامية القديمه ، كما تطرقت إليه بعض تعاليم « الأفلاطونيه الجديثه » و « الفيثاغورية الحديثة » وهو مبنى فى كل تفاصيلة على العدد الخفى « سبعة » ؛ فهنالك سبع فترات فى فترات الأنبياء والرسل (آدم ، نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ، محمد بن اسماعيل) وكل واحد من هؤلاء الأنبياء السبعة أعقبه سبعة من الأئمة ؛ وأول كل سبعة من هؤلاء الأئمه هو الإمام الصادق وهو « صامت » ولكنه « ناطق » و « رئيس » و « أساس» و «أصل» أو « أس » ؛ وآخر كل سبعة من هؤلاء الأئمة يعقبه اثنى عشر « نقيبا » ، تنتهى الفترة النبوية بالأخير منهم لتبدأ بعدها فترة نبوية أخرى . فالفترة النبوة السادسة التى بدأت بـ « محمد » قد بلغت نهايتها على يد الإمام السابع « اسماعيل » ونقبائه ؛ وبدأت بعد ذلك الفترة النبوية السابعة على يد « محمد بن اسماعيل » الذى ادعى الخليفه الفاطمى الأول « عبيد الله المهدى » بأنه من حفدته وسلالته .

---

(١) أنظر De sacy: Exposé de la Religion des Druzes(Paris,1838)

(٢) أنظر Guyard ; Fragments Relatifs à la Doctrine des Ismailîs (Paris.1874.); Un Grand Maîtres des Assassins (Paris. 1877)

(٣) أنظر De Goeje : Memoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimide (Leyden . 1886)

(٤) المترجم : نشر أخيراً الجزء الثالث من تاريخ « جهسان كشا » ضمن سلسلة جب التذكارية وهو الجزء الذى يتضمن تاريخ الاسماعيلية وتم بذلك طبع هذا الكتاب برمته .

وهذه الفترات النبويه السبع ، تقابل ، من ناحية ، مراتب الوجود الخمس (١) التي إذا اضيف إليها «الله» و «الإنسان» تكونت منهم أجمعين « طبقات الكون السبع » ؛ وهي ، من ناحية أخرى ، تمثل « المقامات السبع » التي يجب على «المريد» أو العضو الجديد أن يجتازها حتى يصل إلى لب المذهب وقرارته . (١) . وكل هذه المراسم الدينية أو الظواهر الكونية ماهي في الحقيقة إلا تمثيل لهذه الخفايا الباطنية التي هي مظهر ديني رائع يجده رجل العلم والباحث المدقق خاوا من كل معنى ومنطق ، ولكنه لدى أتباعه ومعتقديه مشحون بمفاتن الجمال والسحر العجيب . وقد ذكر لنا «دي ساسي» في أبحاثه أن أول ما كان يهتم به « الداعي » في دعوته هو أن يثير التساؤل وحب الاستطلاع في نفس العضو الجديد فيجعله يتساءل عن الدلالات الباطنية لكل ما يعترضه من أمور ؛ وكان الداعي يصل إلى ذلك بأن يوجه إليه أسئلة على النمط الآتي . . . !

— لماذا خلق الله الكون في سبعة أيام . . ؟

— لماذا خلق الله سبع سماوات ، وسبع أرضين ، وسبع بحار ، ولماذا جعل «فاتحة» القرآن من سبع آيات . . . ؟

— لماذا كان العمود الفقري يشتمل على سبع فقرات في العنق ، واثنتي عشرة فقرة في الظهر (٢) .

أما اعتراض المعترضين بأن الأنبياء الذين ذكرهم «الإسماعيلية» لم يعلموا مثل هذا المذهب ولا أي مذهب آخر قريب منه ، فقد أجابوا عليه بأن الحكمة الإلهية قد اقتضت عند ظهور النبي محمد أن تخفي تعاليم مذهبهم ، فلا يكشف عنها إلا بعد موته .

---

(١) هذه المراتب مع ما يكشف فيها من تعاليم المذهب مشروحة بالتفصيل في كتاب « دي ساسي » ج ١ ص ٧٤ — ١٣٨ ، وقد ذكرتها في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤١١ — ٤١٥ .

(٢) فقرات العنق تمثل الأئمة السبع الذين يحملون الرأس في كل فترة من الفترات ، ويعينهم على ذلك النقباء الاثني عشر .

وكان الغرض الأساسى الذى يهدف إليه الداعى الإسماعيلى هو أن يغرى المريد بأن يقسم يمين البيعة له وللامام الذى يمثله ، وأن يؤيد ذلك بدفع إتاوة تؤخذ لحساب الإمام ، دليلا على طاعة المريد له ، ومساهمة منه فى تعضيد المذهب الذى انتسب إليه .

المستنصر :

فى هذه الفترة التى نتحدث عنها فى هذا الفصل كان المستنصر (أبو تميم معد) الخليفة الفاطمى الثانى الذى ولى الحكم من سنة ١٠٣٥ إلى ١٠٩٤م = ٤٢٧ إلى ٤٨٧هـ ، هو الرئيس الأعلى للاسماعيليين ، ولم يلبث أن مات حتى تنافس ابناه «المستعلى» و «نزار» فى وراثته مما أدى إلى انقسام الإسماعيلية إلى فريقين متنازعين ، أحدهما غربى انضم إليه أهل مصر والشام وشمال أفريقيا ، والآخر شرقى انضم إليه أهل إيران وما زال يمتد حتى شمل الشام فيما بعد ، ويتكون منه جماعة « الحشاشين » المعروفين .

وقد سبق «المستنصر» إلى الخلافة الفاطمية ، الخليفة المشكوك فى جنونه « الحاكم بأمر الله » وقد حكم مدة من ازمان امتازت بالجنون والظلم ثم انتهت بادعائه الألوهية واختفائه ذلك الاختفاء الذى لا شك فى أنه قتـــل فيه على يد واحد من ضحاياه المظلومين الذين غاظهم جوره واحنقتهم غلظته ، ومع ذلك فإن جماعة من أتباعه المعجبين به وهم أجداد الدروز الموجودين فى سوريا فى الوقت الحاضر ، يعتقدون أن اختفاءه ماهو إلا انسحاب واحتجاب عن نظرات العيون التى لا تستحق أن تتمتع بطلعته المقدسة (١) .

وقد زال الاضطراب الذى وقع إثر هذه الحادثة بعد ماتولى «المستنصر» العرش فى سنة ١٠٣٥م = ٤٢٧ هـ ؛ واستمر حكمه مدة طويلة بلغت ستين سنة تقريباً ،

---

(١) يذكر ابن الأثير تحت سنة ٤٣٤ هـ أن واحداً من الأدعياء ظهر فى القاهرة وأعلن أنه «الحاكم» وأنه عاد على ظهر الأرض ، وقد استطاع هذا المدعى أن يجمع حوله كثيراً من الخلق وهجموا وهو على رأسهم على قصر المستنصر ولكنهم سرعان ما قبضوا عليه وصلبوه هو وجماعة من أتباعه ثم ألقوا عليه وابلا من السهام حتى مات وكان اسمه « سكين » .

يمكن أن تعتبر بحق الأوج الذى وصلت إليه عظمة الإسماعيلية أو الدولة الفاطمية ؟ فقد امتد ما لكهم ، رغم الخسارة التى حاقت بهم فى مراكش والجزائر وتونس ، إلى شمال أفريقيا ومصر وصقليه ومالطة وأجزاء مختلفة من الشام وآسيا الصغرى وشواطىء البحر الأحمر ، ثم لم يلبث أهل «واسط» طويلا حتى اعترفوا فى سنة ١٠٥٦ م = ٤٤٨ هـ بالمستنصر الفاطمى خليفة عليهم ، ولم تمض على ذلك سنتان حتى تبعهم أهل بغداد ، ولقد فقد المستنصر ولاء أهل مكة والمدينة فترة من الوقت (من ١٠٧٠ ـ ١٠٧١ م = ٤٦٣ ــ ٤٦٤ هـ) ولكنه سرعان ما استعادها فى سنة ١٠٧٥م = ٤٦٨ هـ ، وفى هذه السنة نفسها فقد سلطانه على مدينة دمشق ولكن جيوشه سرعان ما عوضوا هذه الخسارة باحتلال صور وصيدا وعكا فى سنة ١٠٨٩ م = ٤٨٢ هـ .

ناصر خسرو :

وقد ترك لنا واحد من أعجب الرجال وأنبغهم ممن أخرجتهم إيران ولن يجود الزمان بمثلهم ، وأعنى به الشاعر الرحالة والداعى الإسماعيلى « ناصر خسرو » الملقب بين أتباعه بـ «حجة خراسان» ، ترك لنا وصفا رائعا لقصر المستنصر ، ولحكمه الحازم العادل ، وللأمن والرفاهية اللذين عاشت فيهما الرعية ؛ وقد ذكر اسم «ناصر خسرو » فى موضعين من « جامع التواريخ »[١] مقترنا باسم خليفته الذى أعقبه فى منطقة نفوذه[٢] « الحسن بن الصباح» . فأما أولى هذه القطع فترجمتها كما يلى :

« وسمع ناصرخسرو بصيت المستنصر وشهرته فأتى من خراسان إلى مصر[٣] وأقام بها سبع سنوات[٤] وكان يؤدى فريضة الحج فى كل سنة ثم يعود إلى مصر ، وجاء بعد الحجة السابعة إلى مدينة البصرة[٥] وخرج منها إلى خراسان ، حيث أخذ

---

(١) فى الورقة ٢٨٦ ـ ا والورقة ٢٩٠ ـ ا من مخطوطة المتحف البريطانى الرقيمة Add7.628

(٢) كان الاسماعيلية يسمون المنطقة التى يبث فيها الداعى دعايته باسم « البحر » .

(٣) أتى إلى مصر فى أغسطس سنة ١٠٤٧ م = ٤٣٩ هـ كما يستفاد من كتابه «سفرنامه»

(٤) لم يقم «ناصرخسرو» فى مصر إلا أربعة سنوات ونصف السنة ، ولكنه حج إلى مكة سبع مرات وقد غاب عن دياره سبعة أعوام هجرية بالضبط (من جماد الآخر سنة ٤٣٧ هـ إلى جماد الآخر سنة ٤٤٤ هـ = يناير سنة ١٠٤٦ م إلى أكتوبر سنة ١٠٥٢ م) .

(٥) كان ذلك فى شعبان سنة ٤٤٣ هـ = ديسمبر سنة ١٠٥١ م

يقوم فى بلخ بالدعاية للعلويين الذين فى مصر(١)، وقد حاول خصومه قتله فهرب منهم إلى مرتفعات «سمنگان» حيث بقى عشرين سنة يقتات بالعشب والماء، وخرج الحسن بن الصباح الحميرى اليمنى(٢) من إيران وذهب إلى المستنصر بالله (٣) وقد استخفى فى ثياب نجار ثم استأذنه فى الدعاية له فى الأراضى الإيرانية فإذن له المستنصر بذلك، وانتهز الحسن بن الصباح فرصة وسأله سراً عن الشخص الذى تكون له الدعاية بعد موته، فأجابه : لابنى الأكبر نزار . ومن أجل ذلك فإن الإسماعيلية [فى إيران] يعترفون بالإمامة لـ«نزار»(٤)، وقد اختار سيدنا [أى الحسن بن الصباح] أن يقوم بالدعاية له فى قلاع قُهستان ..» .

الحسن بن الصباح

أما القطعة الثانية فطويلة جداً، ولا لزوم لترجمتها كاملة فى هذا المكان . وهى مروية على أنها من أقوال « الحسن بن الصباح » نفسه التى ذكرها فى كتاب «سر گذشت سيدنا» ، وقد جاء فيها أن اسمه الكامل هو « الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن الحسين بن الصباح الحميرى » ولكنه لم يسمح لأتباعه بتسجيل نسبه وقال لهم : « إننى أفضل أن أكون الخادم المختار للامام عن أن أكون ابنه الذى لا خير فيه» أما والده فقد جاء من الكوفة إلى مدينة «قم» وهناك ولد له « الحسن» فلما بلغ السابعة من عمره شغف شغفاً شديداً بالدراسة والتحصيل ، حتى إذا بلغ السابعة عشرة من عمره كان قد استوعب جميع ما درسه وقرأه فى استغراق ونهم .

---

(١) يقصد بهم الخلفاء الفاطميين .

(٢) ادعى أنه من سلالة ملوك اليمن الحميريين ، وهو مولود فى مدينة « الرى » بالقرب من طهران الحالية ، وربما جاء أجداده إلى إيران قبل ذلك بقرون عديدة . أما « جامع التواريخ » فيذكر أن أباه جاء إلى إيران من الكوفة ، وأنه هو نفسه ولد فى مدينة «قم» .

(٣) كان ذلك فى سنة ٤٧٩ هـ وفقاً لابن الأثير (ج ٩ ص ١٥٤ تحت سنة ٤٢٧ هـ) أما «جامع التواريخ» فيقول إنه جاء إلى مصر فى يوم الأربعاء ١٨ صفر سنة ٤٧١ هـ (انظر الورقة ٢٩٠ ب)

(٤) أما الاسماعيلية فى مصر فقد اعترفوا بإمامة المستعلى ، ويمثل المستعليين الآن فى الهند جماعة البهورية (البهره) وأما النزارية فيمثلهم فيها الآن أتباع «آغا خان» .

وكان إلى ذلك الوقت كأبيه من أتباع « الإثنى عشرية » ولـكنه سرعان ما وقع تحت تأثيرواحد من الدعاة الفاطميين اسمه الأمير «ضراب» ؛ [وقد سبق هذا الاسم فى النص الكلمات : « ناصرخسرو حجة خراسان»(١) . مع عبارة أن الدعوة لم تصادف رواجاً على عهد السلطان محمود الغزنوى(٢) ، ولـكن أناساً كثيرين فى إيران قـد اعتنقوا المذهب الإسماعيلى من قبل مثل « أبى على بن سيمجور » والأمير السامانى « نصر بن احمد »(٣)]. وتناقش «الحسن بن الصباح» كثيراً مع الأمير «ضراب» غير أنه لم يقتنع بآرائه . ولـكن حدث فى هذه الأثناء أن مرض «الحسن» مرضاً شديداً ، لم يكن يرجو الشفاء منه ، فكان ذلك المرض سبباً فى ميله إلى مذهب الإسماعيلية ، فلما شفى منه أخذ يبحث عن دعاة إسماعيليين آخرين مثل «أبى النجم السـراج» وشخص آخر يدعى « المؤمن » كان موكلا بالدعوة من قبل الشيخ « احمد بن عبد الملك بن العطاش» وكان من أهم دعاة الإسماعيلية فى إيران كما ذكر ذلك البندارى(٤) وابن الأثير(٥) ، وقد انتهى أمر هذا الرجل بالقبض عليه وصلبه عندما تم الاستيلاء على

---

(١) النص هنا مضطرب وغير ظاهر ، ولست أدرى هل المقصود بذلك إن كلمة « ناصر » سبقتها عبارة « تحت تأثير » أو كلمة « كان » . ويخيل لى أن العبارة الأولى هى الأقرب إلى الاحتمال لأن «ناصرخسرو» رجع إلى إيران سنة ١٠٥٢ م = ٤٤٤ هـ ونحن نعلم من ابن الأثير (ج ١٠ ص ١١٠) أن الحسن بن الصباح كان متهماً بالتردد على مجالس « الدعاة المصريين » فى مدينة الرى ، وأنه اضطر فى ذلك الوقت إلى الهرب منها ، ومن الجائز جداً أنه تقابل مع ناصر خسرو هنالك . ولقد يساعدنا على فهم ذلك ما كان يحدث مع البـابية فى الأزمان الأخيرة ، فقد كان العضو الجديد المتحمس لهذا المذهب يقدم إلى واحد من أشهر الدعاة وأقـدرهم يـكون موفداً من مركز الحركة للتبشير بين أتباعها فى إيران .

(٢) يروى العتبى فى تاريخه (طبع القاهرة ج ٢ ص ٢٣٨ ـ ٢٥١) أن أحـد الدعاة الفاطميين واسمه «التاهرتى» ـ نسبة الى مدينة تاهرت فى مراكش ـ جاء الى السلطان محمود فى سنة ٣٩٣ هـ = ١٠٠٣ م

(٣) يروى «نظام الملك» فى كتابه «سياست نامه» (طبع شيفر ص ١٨٨ ـ ١٩٣) أن الأمير السامانى نصر الثانى كان باطنيا أى اسماعيليا ، ويذكر لنا كيف أدى إلحاده الى ضياع ملـكه وحياته . انظر كذلك الجزء الأول من هذا الـكتاب ص ٤٥٥ (من الأصل الانجليزى) .

(٤) أسماه البندارى فى ص ٩٠ و ٩٢ برئيس الباطنية .

(٥) انظر ج ١٠ ص ٩١ ـ ١١٠ حيث ذكر المؤلف أن الباطنية توجوه بتاج من الذهب ، وقد ورد ذكر الحسن فى الصباح على أنه واحد من تلاميذه .

حصن الإسماعيلية المنيع المسمى «شاه دژ» أو «دژ كوه» حوالى سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥م . وقد تمكن «مؤمن» بشىء من الحيلة والدهاء أن يأخذ البيعة من الحسن بن الصباح للخليفة الفاطمى ، وكان ابن العطاش يقوم بالدعوة فى أصفهان وآذربيجان فجاء فى رمضان سنة ٤٦٤ هـ (= مايو سنة ١٠٧٢م) إلى مدينة الرى حيث قدموا إليه «الحسن بن الصباح» ، فأعجب به كثيراً ، وأمره بالمسير إلى مصر وقصد عاصمة الخلفاء الفاطميين. وخرج الحسن بناء على ذلك ، إلى مدينة إصفهان فى سنة ٤٦٧ هـ = ١٠٧٤م فأقام بها سنتين يشتغل بالدعوة وكيلا لابن العطاش ، ثم خرج منها إلى مصر مجتازا طريق آذربيجان ، ميافارقين ، الموصل ، سنجار ، الرحبه ، دمشق ، صيدا ، صور ، عكا ، ثم ركب البحر إلى مصر فوصلها فى الثلاثين من أغسطس سنة ١٠٧٨م = ٤٧١ هـ ، واستقبله داعى الدعاة «أبو داؤود» استقبالا حافلا شاركه فيه جماعة من النبلاء والأعيان ، وسرعان ما شمله المستنصر برضاه وأغدق عليه نعمه ، ولكنه مع ذلك لم يتمكن من المثول بين يديه ورؤيته رأى العين ، وإن كان قد أقام بالقاهرة ثمانية عشر شهراً كاملا ، وكثرت دسائس «المستعلى» وأعوانه وخاصة قائد الجيش «بدر» للحسن بن الصباح ، فاضطر إلى مغادرة مصر وركب السفينة من الإسكندرية فى شهر رجب سنة ٤٧٢ هـ = يناير سنة ١٠٨٠م ، فما كادت تخرج به حتى تحطمت بالقرب من شواطىء الشام ، فأنقذوه ورجع إلى بلاده مجتازا طريق حلب وبغداد وخوزستان ، ووصل فى النهاية إلى أصفهان فى ذى الحجة سنة ٤٧٣ هـ = يونية سنة ١٠٨٠م . ومن ذلك الوقت أخذ يدعوا لنزار – أكبر أولاد المستنصر – وشملت دعوته يزد وكرمان وطبرستان ودامغان وولايات أخرى من إيران لم يدخل فى عدادها مدينة الرى ، لأنه كان يتجنبها اتقاء لشر «نظام الملك» الذى كان يتحرق إلى القبض عليه ، كما دلت على ذلك أوامره التى أصدرها إلى زوج ابنته «أبى مسلم» حاكم هذه المدينة (١) . وتمكن الحسن بن الصباح فى النهاية من الوصول إلى «قزوين» واستطاع بحيلة جريئة وصفها لنا صاحب «تاريخ گزيده»(٢) من الاستيلاء على الحصن

---

(١) أنظر ابن الأثير ج ١٠ ص ١١٠ .

(٢) انظر «تاريخ گزيده» طبع كاتش ج ١ ص ٤٨٨–٤٩١ ؛ وكذلك ورقة ٢٩١ – ا من «جامع التواريخ» .

الجبلى المنيع «ألموت» واسمه فى الأصل مكون من الكلمتين « آلُهْ آموت » ومعناه الصحيح هو «تعليم العُقاب» كما أورده ابن الأثير فى ص ١١٠ من الجزء العاشر من تاريخه ، وإن كان الأغلب تفسيره خطأ بمعنى «وكر النسر» (١). وقد لاحظ كثير من المؤرخين أن المصادفات العجيبة قد شاءت أن تجعل قيمة الحروف التى يتركب منها اسم هذه القلعة (١+٣٠+٥+١+٤٠+٦+٤٠٠=٤٨٣) هو التاريخ الصحيح الذى وقعت فيه هذه القلعة فى حوزة الحسن بن الصباح وهو سنة ٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ م .

وقد تبع سقوط قلعة « ألموت » فى أيدى الحسن بن الصباح سقوط كثير من الأماكن الحصينة فى قبضته وقبضة أتباعه مثل «شاه دز» و «خالنجان» بالقرب من إصفهان ؛ و«طبس» و «تون» و«قائن» و«زَوْزَن» و «خور» و «خُوسْف» فى قهستان ؛ و «وشمكوه» بالقرب من أبهَرْ ؛ و « اسْتوناوَنْد» فى مازندران ؛ و « اردهان » و «گردكوه» ، و«قلعة الناظر» فى خوزستان ؛ و« قلعة الطنبور» بالقرب من ارّجان ؛ وقلعة «خلاّدخان » فى إقليم فارس .

• وكان استيلاء « الحسن بن الصباح » وأتباعه على هذه القلاع والأماكن الحصينة بداية ما نالوه من سلطة سياسيه ، فلم يكد يموت « المستنصر » حتى انفصلوا نهائيا عن الإسماعيلية فى مصر ، وأصبحت لهم أغراض أخرى غير أغراض هؤلاء ، لأنهم أخذوا يدافعون عن قضية «نزار» ضد أخيه المستعلى الذى خلف المستنصر فى الخلافه الفاطميه فى القاهرة . ومن أجل ذلك نجد أن كتب التواريخ الفارسية جميعها من قبيل « جامع التواريخ » و « تاريخ گزيده » تفرد فصولا خاصة « الاسماعيلية فى مصر والغرب ، وفصولا أخرى الاسماعيلية فى إيران» وهولاء الأخيرون هم أتباع نزار أو «الحشاشون» على حد التسمية التى اشتهروا بها .

وقد اختلفوا طويلا فى اشتقاق كلمة « الحشاشين» وزعموا أنها مشتقة من أصول

---

(١) « آله » كلمة فارسية صحيحة موجودة فى البهلوية ، وهى بمعنى «نسر» أو «عقاب» و « آموت » هى إحدى اللهجات المحلية فى كلمة « آموخت » بمعنى تعليم ، ولست أذكر أية كلمة فارسية قريبة من هذه الكلمة بمعنى « وكر » أو « عش » .

عجيبة غريبه ، فقال بعض الباحثين إنها مسخ لكلمة «الحسنيين» أى اتباع الحسن ؛ وقال «كازانيڤ»(١) إنها متصلة بالكلمة الإنجلو سكسونيه «Seax» بمعنى «سكين» ؛ وزعم «جبلان»(٢) إنها مشتقة من كلمة «شاهنشاه» بمعنى ملك الملوك ، وحاول آخرون تخريجها مثل هذه التخريجات المستحيلة ، وبقيت الكلمة غامضة حتى استطاع العلامة «سلفستر دى ساسى» أن يثبت أن الكلمة التى نقلها الصليبيون إلى أوروبا ومسخوها إلى «أساسينى» أو ماشابه ذلك من الصـــور القريبة (٣) ، هى بعينها الكلمة التى أوردها المؤرخون اليونان بصورة «خَـزِسْـيُـوِىْ» وقد ذكرها على وجهها الصحيح الربى بنيامين التيوديلى(٤) فكتبها «حشيشين» وهذه الكلمة تقابل الكلمة العربية «حشيشى» التى تجمع على «حشيشيين» و «حشيشية»(٥) وقد أطلقوها على هذا الفريق من الإسماعيلية لاستعمالهم للمخدر المعروف باسم «الحشيش» وهو مايعرف لدينا باسم الـ «بنج» أو القنب الهندى . وهذا المخدر قد انتشر استعماله حالياً فى البلاد الإسلامية جميعاً من حدود مراكش إلى أقاصى الهند . وقد أشار إليـه شعراء من الفرس مثل «جلال الدين الرومى» و «حافظ الشيرازى» مما يدلنا على أنه كان معروفا لدى الإيرانيين منذ القرن الثالث عشر الميلادى على أقل تقدير ، ولـكن يظهر أن الأسرار المتعلقة بخواصه كانت معروفة فى الوقت الذى نتحدث عنه لعدد قليل جدا من النـاس ، ربما لم يتجاوزوا الحسن بن الصباح ونفرا قليلا من أخلص خلصانه ، نذكر منهم على سبيل المثال : الطبيب الذى ذكرناه سابقا باسم «احمد بن عبد الملك بن العطاش» . والمجال لا يسمح لى هنا بالتحدث عن خصائص هذا المخدر وقد ذكرت ذلك بالتفصيل فى مكان آخر(٦) بينت فيه أنه اقترن بشهرة سيئة فى إيران لم يبلغها غيره من المخدرات

---

(١) يـكتب اسمه بالحروف الرومانية هـكذا : Casaneuve
(٢) يـكتب اسمه بالحروف الرومانية هـكذا : Gébélin
(٣) كتبوها هكذا assassini أو Assessini أو Assissini أو Heissessini
(٤) يـكتب اسمه بالرومانية هكذا : Rabbi Benjamin of Tudela
(٥) لا يستعمل المؤرخون الفرس هذه التسمية إلا نادراً ويذكرونهم باسم الملاحدة وقــد استعملها البندارى فى ص ٥٦٩ .
(٦) القيت بحثا عن ذلك فى ١٤ يناير سنة ١٨٩٧ بعنوان «فصل من تاريخ الحشيش» وقد نشرته فى عدد مارس سنة ١٨٩٧م فى «مجلة مستشفى سان بارتلميو» .

كالأفيون ، بحيث لا يكاد يذكر فيها الآن إلا على سبيل المجاز فيشيرون إليه بعبارة «الببغاء الخضراء» أو «الخبايا الغامضة» أو «السيد» أو ماشابه ذلك من التسميات المجازية ؛ وقد بينت أن سبب ذلك لا يرجع إلى مضاره بقدر مايرجع إلى اقترانه بهذا الفريق المرعب من الملاحدة . ومن الواجب أن نشير إلى أن «شيخ الجبل» لم يشجع أتباعه على استعمال الحشيش وإدمانه ، لأن إدمانه يؤدى إلى التراخى والإهمال والضعف العقلى ، وكلها صفات تحرم أصحابها من آداء الواجبات الدقيقة التى تلقى على عواتقهم، ومن أجل ذلك فقد كان استعماله بين هؤلاء القوم مقصورا على مرتبة واحدة من مراتب الإسماعيليـة ودرجاتهم .

مراتب الحشاشين :

ذكرنا فيما سبق أن فريق الإسماعيلية كان مقسما منذ أقدم الأزمنة إلى مراتب ودرجات ، وقد تبدلت هذه المراتب بظهور « الدعوة الجديدة » فعدلها « الحسن بن الصباح » على هـذا النحو . ففى مكان الرئاسة يـكون « داعى الدعاة » وهـو خاضع مباشرة للامام [1] ، ويعرف خارج أتباعه عادة باسم « شيخ الجبل » وقد أخذ الصليبيون هذه التسمية وأخطأوا فهمها فنقلوها إلى لغتهم وإلى غيرها من اللغات بمعنى « الرجل العجوز » أو « رجل الجبل العجوز » ؛ ويتلو داعى الدعاة فى مرتبته «الداعى الـكبير» وكانت هذه المرتبة تشتمل على عدد من «الدعاة الـكبيرين» يتكون منهم ما يشبه مجلس الأساقفة ، ولـكن كل واحد منهم كان يوكل إليه على حدة أمر ولاية من الولايات أو مقاطعة من المقاطعات ؛ ويأتى بعد هؤلاء الدعاة الـكبيرين « الدعاة العاديون» وكانت المراتب العالية تتـكون من هؤلاء جميعاً ، وكانوا كلهم على علم تام بأصول المذهب وأغراضه وسياسته ؛ أما المراتب المنخفضة فكانت تشتمل على :

١ ـــ مرتبة الرفيق : وهو الذى يكون قد سلك بعض المدارج فى أصول هذا المذهب

---

(١) بعد موت المستنصر لم يـكن الخليفة الفاطمى هو الإمام بل كان الامام ولداً من أولاد « نزار » الذى حرم من ولاية العرش ثم قتل بعد ذلك .

٢ — مرتبة اللاصق : وهو الذى يكون قد أخذ البيعة للامام دون أن يتبين ما تتضمنه هذه البيعة من معان وواجبات .

٣ — مرتبة الفدائى : وهؤلاء هم الموكلون بالثأر والانتقام وأعمال العنف وقد كانوا مصدراً لكثير من الرعب الذى كان يهز الملوك على عروشهم ويلجم أهل السنة فلا يجسرون على لعنهم وذمهم .

ولا يسعنى فى هذه المناسبة إلا أن أعيد الوصف التصويرى الممتع الذى كتبه فى القرن الثالث عشر الميلادى الرحالة « ماركو بولو » ووصف لنا فيه مراسم استقبال « الفدائى » وسيامته ، فى وقت كانت فيه قوة الحشاشين فى إيران (١) قد أوشكت على الزوال ، أو زالت فعلا على يد جيوش « هولاكو خان » المغولية ، وقد كتب هذا الرحالة ماترجمته :

« وكان شيخهم يسمى بلغتهم علاء الدين (٢) وقد أمر بإقامة سور على أخدود بين جبلين ، ثم غرسه بالأشجار وحوله إلى حديقة غناء ، هى أجمل مارأته الأعين ووقعت عليه الأبصار ، وهى مليئة بمختلف الفواكه وأطيب الثمار ؛ وأقام فيها القصور والجواسق مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وقد طلاها بالذهب ونقشها بأجمل النقوش ، وجعل بها قنوات تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء ، ووضع فيها جملة من أجمل نساء العالمين وأرق الفتيات وجعلهن يعزفن على مختلف الآلات ، ويغنين بأعذب الأصوات ويرقصن أروع الرقصات ؛ وقد شاء شيخ الجبل بذلك أن يجعل الناس يعتقدون أن حديقته هذه ماهى إلا الجنة بعينها ، فأنشأها على النمط الذى صوره لهم الدين الإسلامى وجعلها روضة غناء ، تجوس خلالها أنهار تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء ، وملأها بالجميلات الفاتنات من النساء ، اللائى لا هم لهن إلا الترفية عمن بها من نزلاء ، ومن

---

(١) أما فرعهم فى الشام فلم يصبه شىء من السوء ، وما زال موجوداً هنالك إلى الآن ولكنه مسالم لا ينال أحداً بالأذى .

(٢) وهو يشير كما هو معلوم إلى سابع مشايخ الجبل فى « ألموت » وهو « علاء الدين محمد بن الحسن » الذى أعقب أباه « جلال الدين » فى رمضان سنة ٦١٨ هـ = نوفمبر سنة ١٢٢١ م ، وقد أعقب علاء الدين ابنه « ركن الدين خورشاه » وهو آخر مشايخ الجبل فى ألموت ، وقد قبض عليه المغول وأعدموه .

أجل ذلك فإن الأعراب الذين يقطنون هذه الأرجاء ، يعتقدون أنها حقا الجنة التى وعد بها الأتقياء ... !!»

«ولم يكن يسمح لأحد من الناس أن يدخل هذه الحديقة إلا من شاء أن يجعلهم من حشاشيه (١). وكان على بابها حصن منيع يستطيع أن يرد هجمات الناس أجمعين . ولم يكن لها مدخل سواه ، وكان يحتفظ فى قصره بعدد من الغلمان تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ، ممن يلمس فيهم حب الجندية والقتال ، وكان من دأبه أن يقص عليهم أقاصيص عن الجنة كالتى كان يقصها محمد على أتباعه (كذا) فيصدقونه فيما يقول ، كما صدق العرب نبيهم . ثم يأذن لهم بعد ذلك فى دخول الحديقة أربعة أربعة أوستة ستة أوعشرة عشرة ، ولكنه يسقيهم قبل ذلك مزيجا من شراب خاص يناموون على أثره (٢) ، فاذا انطبقت جفونهم وغلبهم السكرى أمر أتباعه أن يحملوهم ويضعوهم فى داخل الحديقة ، فإذا أفاقوا وجدوا أنفسهم داخل هذه الروضة الغناء» .

«ومتى أفاقوا من غفوتهم ووجدوا أنفسهم فى هذا المكان الرائع ، ظنوا أنهم فى جنة الخلد ، ثم يقبل النساء والفتيات بعد ذلك على هؤلاء الفتيان فيلاعبنهم ويشفين رغباتهم ، ويظفر الرجال منهن بما يرغبون ، فلا يشاءون بعد ذلك أن يتركوا هذا المكان المشحون بالفتن واللذائذ».

«وكان هذا الأمير الذى نسميه بـ « الشيخ » يقوم بتنظيم قصره بشكل رائع جميل ، وقد تمكن من أن يجعل رجال الجبال السذج الذين يحوطونه يعتقدون اعتقادا جازما بأنه نبى عظيم ، فإذا شاء أن يبعث واحدا من هؤلاء «الحشاشين» فى فى أية رسالة ، فإنه يسقيه من هذا المزيج الذى تحدثنا عنه ، فإذا غلبه السكرى حملوه إلى القصر ، حتى إذا أفاق الشاب لم يجد نفسه فى تلك الجنة التى شفى فيها غلته وأشبع فيها نهمته ، بل يجد نفسه داخل القلعة ، ثم يدخلونه بعد ذلك على «شيخ الجبل» فينحنى أمامه فى احترام بالغ كأنه فى حضرة رسول كريم ونبى عظيم . فيسأله

---

(١) يقصد بذلك « الفدائيين » وهم الذين يسمون دون غيرهم بالحشاشين .

(٢) هذا الشراب كان عبارة عن محلول من الحشيش ، ومن أجل ذلك فإن شيخ الجبل كان يسمى أحياناً بـ« صاحب الحشيش »

الأمير من أين أتى . . ؟ ويجيب الفتى بأنه أقبل من الجنة ، وإنها لشبيهة بما أنزل على «محمد» فى القرآن ، ويستمع الآخرون الذين لم يؤذن لهم فى دخول هذه الحديقة إلى هذا الحديث ، فيتحرقون شوقا إلى الدخول فيها والتمتع بمابها .... !! »

«فإذاشاء «الشيخ» أن يقتل أى أمير من الأمراء فما عليه إلا أن يقول لواحد من هؤلاء الشبان : « إذهب واقتل فلانا؛ ومتى عدت فسيأخذك جماعة من ملائكتى إلى الجنة ، أما إذا مت فسأبعث إليك بهم ليحملوك إليها ». وكانوا يصدقونه فيما يقول ، ومن أجل ذلك فقد كانوا يلقون بأنفسهم فى أشد المخاطر وأكثرها تهلكة لكى ينفذوا جميع أوامره ولكى يعودوا بعد ذلك إلى الجنة التى تتحرق إليها أنفسهم ، واستطاع الشيخ بذلك أن يجعل رجاله يقتلون أى شخص يريدون التخلص منه ؟ واستطاع أيضاً بواسطة الرعب الذى ينزله فى أنفس الأمراء أن يجعلهم جميعاً يدفعون له الجزية عن طيب خاطر حتى يكون معهم فى سلام ووئام » .

ويبدو من هذا النص أن الفدائيين كانوا يختارون وفقاً لما يبدونه من طاعة عمياء فى تنفيذ أوامر شيخهم، وكانوا يمتازون أيضاً بصفات الشجاعة والصلابة ، ولا يطلب إليهم أن يتفقهوا فى تعاليم المذهب كما يفعل غيرهم من أصحاب المراتب العالية . ويصور ذلك كله القطعة الآتية التى رواها لنا «فرا بيبينوا» و«مارينو سانوتو»[1]. حيث قالا:

« فى فترة من فترات الهدنة ذهب هنرى (ملك بيت المقدس) لزيارة الشيخ فى الشام ، فخرجا ذات يوم للنزهة فرأيا فى مسيرهما شباناً قد ارتدوا الملابس البيضاء وجلسوا فوق قمة عالية . فالتفت الشيخ إلى هنرى وسأله عما إذا كان لديه شبان يمتازون بالطاعة العمياء مثل هؤلاء الشبان ولم ينتظر جوابه بل أومأ إلى اثنين من هؤلاء الفتيان بإشارة خاصة فقفزا إليه من قمة القلعه ولقيا حتفهما فى التو والساعة . . !! » .

ورغم أن الفدائيين لم يكونوا يتفقهون فى التعاليم الخفية التى تضمنها مذهبهم الدينى ، إلا أنهم كانوا على أتم تدريب فى استعمال الأسلحة ووسائل القتال ، وفى تجشم المصاعب والقدرة على الصبر والاحتمال ، وفى التفنن فى أساليب التنكر والتخفى والاستتار ، بل لقد أظهروا فى بعض المناسبات قدرتهم الفائقه فى التحدث باللغات

---

(١) بالحروف الرومانية هكذا : Fra Pipino and Marino Sanuto

الأجنبية والأوروبية بحيث استطاع الفدائيون الذين كلفوا بقتل « كونراد » مركيز مونتفرات[1] أن يتحدثوا بلغة الفرنج وأن يقلدوهم فى سائر عاداتهم تقليدا بارعا ظهروا فيه بمظهر الرهبان المسيحيين ، فتمكنوا بواسطة ذلك من أن يقيموا فى معسكر الصليبيين ستة أشهر كاملة ينتظرون الفرصة السانحة لتنفيذ المهمة الدامية التى بعثوا من أجلها .

وكان من النادر بالطبيعة أن ينجو الفدائى بعد قتل فريسته ، لأن الفدائيين كانوا فى الغالب يميلون إلى تنفيذ خططهم فى جرأة زائدة وشجاعة بالغة ، فيقضى الواحد منهم على الأمير المسلم وهو قائم بالمسجد يؤم الناس لصلاة الجمعة ، أو يندفع إلى الأمير المسيحى فيقتله دون خوف أو وجل فى وسط الكنيسة فى يوم الأحد وهو واقف يصلى بين جماعة المصلين من قومه وعشيرته . فإذا قتل الفدائى بعد أداء المهمة التى كلفه بها « شيخ الجبل » فإن ميتته كانت تعتبر بين أتباع « الحسن بن الصباح » من أشرف الميتات التى تضمن له السعادة المقبلة والحياة الهانئة الخالدة ، حتى لقد نقرأ أعجب الأخبار عن أمهات بعض الفدائيين وقد أخذن فى البكاء والانتحاب لأن أولادهن عادوا إليهن على قيد الحياة ولم يظفروا بمرتبة الاستشهاد والخلود ....!!

وكان من دأب الفدائيين فى بعض الأحيان أن يكتفوا بالتهديد والوعيد إذا وجدوا فى ذلك ما يحقق مآربهم ويضمن غاياتهم ، وكثيرا ما حدث أن هاجمهم قائد من القواد يبغى تذليل معقل من معاقلهم ، فإذا به يصحو فى أحد الأيام ليجد فى خيمته وبالقرب من مضجعه خنجرا مغروسا فى الأرض ، وقد علقت عليه رسالة من رسائل التهديد والوعيد تجعله فى الغالب ينصرف عن معركته ويقنع من الغنيمة بالإياب ؛ وقد حدث مثل ذلك فيما يقولون للسلطان «ملكشاه» ول «لصلاح الدين» وإن كنت شخصياً أظن أن الروايات التى رويت عن هاتين الحادثتين لا يجب الاعتماد عليها اعتمادا كلياً لا يتطرق إليـه شىء من الشك أو الريبة .

وقد ذكروا أن فقيها أخـذ فى ذم ملاحدة « ألموت » فتصدى له واحد من أتباعهم وأخذ يحضر مجالسه على أنه طالب راغب فى الاستماع إلى محاضراته وتتبع آرائه ، حتى إذا استرعى التفاته خيره بين كيس مملوء بالذهب أو خنجر مسنون الحد

---

(١) بالحروف الرومانية هـكذا Conrad, Marquis of Montferrat

ليكف عن التعرض لهم والتنديد بمعتقداتهم ، فاختار الفقيه الذهب وكفى نفسه شر البلاء ... ! ! فكانوا إذا اجتمعوا حوله بعد ذلك وسخروا منه لكفه عن التعرض لآرائهم، أجابهم فى شىء من السخرية اللاذعه بأنه قد اضطر إلى ذلك اضطرارًا بعد ماقدموا له من « حجج قاطعة وبراهين ساطعة » جعلته يقتنع بأنه كان على خطأ فيما تفوه به قبل ذلك من أقوال خاسرة ... !!

وقد استمر نشاط « الحشاشين » كبيرا وبالغا منذ نشأتهم إلى أن تمكن « المغول » من تحطيم معاقلهم فى إيران وقتل آخر شيوخهم وثامن أئمتهم « ركن الدين خورشاه » فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) أى فى نفس الوقت الذى استطاعوا فيه تحطيم الخلافة فى بغداد . وسيعرض لنا ذكرهم كثيرا فيما يلى من صفحات ؛ ولأجل ذلك فإنى أنبه القارىء بأن يلم منذ الآن إلمامة كافية بمبادىء مذهبهم، وطرائق تكوينهم ، وبيان صلتهم بمذهب الإسماعيلية الرئيسى فى مصر؛ لأن أهم فتره فى تاريخ هؤلاء الإسماعيليين هى الفتره التى أسس فيها «الحسن ابن الصباح » دعوته الجديدة بما اقترن بها من عناصر الرهبة والرعب . أما فرعهم الشآمى ، فقد كان له الفضل فيما ناله « الحشاشون » من شهرة عريضة فى ربوع أوروبا ، كما كان له الفضل فى تزويد معجمنا بكلمة جديدة للدلالة على تسميتهم . وقد استطاع هذا الفرع أن يثبت مكانته السياسية منذ استيلاء رجاله على قلعة « بانياس » فى سنة ١١٢٦ م = ٥٢٠ هـ .

ولكننا للأسف سوف لا نجد مجالا للإفاضة فى الحديث عن هذا الفرع فيما يلى من صفحات ؛ ومن أجل ذلك فإننا على ثقة من أن القارىء الذى يهمه تتبع هذا الموضوع سوف لايتأخر عن الاطلاع على المقال القيم الذى كتبه «ستانسيلاس جويار» فى «المجلة الأسيوية» سنة ١٨٧٧م بعنوان «شيخ من شيوخ الحشاشين»(١). ويشتمل هذا المقال على سيرة صادقة ممتعة للشيخ « رشيد الدين سنان » الذى استطاع فى وقت من الأوقات أن يجعل الفرع الشآمى ينفصل عن الفرع الإيرانى . وسيرة هذا

---

(١) عنوان هذا المقال بالفرنسية هو: Un Grand Maître des Assassins, par Stansilas Guyard, Journal Asiatique 1877.

الرجل تفوق فى غرابتها وغرابة وقائعها كثيرا من الروايات الخيالية الرائعة ؛ وهى تمدنا بكثير من التفاصيل عن تاريخ الاسماعليين وأعمالهم وأساليبهم . وقد اضطررت اضطرارا لضيق المجال أن أصدف عن ذكرها فى هذا المقام. وما زال بقايا الإسماعيلية موزعين أشتاتا حتى يومنا هذا فى أنحاء المشرق بين ربوع سوريا وإيران وشرق أفريقيا وأواسط آسيا وبلاد الهند حيث يدينون الآن بالطاعة لـ «آقاخان» باعتباره رئيسا لهؤلاء الجماعة من الإسماعيلية . و« آقاخان» هذا من أحفاد « ركن الدين خورشاه » الذى كان آخر شيوخ الجبل فى « ألموت » وقد ادعى ركن الدين أنه من سلالة « نزار» ابن الخليفة الفاطمى «المستنصر» وأنه ينتسب بهذه الواسطة إلى الإمام السابع « اسماعيل » ابن حفيد حفيد « على بن طالب » ابن عم الرسول وزوج ابنته .

ناصر خسرو

وقد اضطرتنا دراسة حياة « الحسن بن الصباح » وما قام به من أعمال إلى أن نبتعد عن ذكر زميله « ناصر خسرو » الذى يفوقه من الناحية الأدبية كثيرا ، فأما الحسن بن الصباح فليس فى أيدينا من كتاباته إلا النبذ المنقولة من « سرگذشت سيدنا » فى كتاب تاريخ « جهان گشا » وكتاب «جامع التواريخ» ، وأما «ناصر خسرو » فله بين أيدينا جملة من المؤلفات القيمة الممتعة كتبها نثرا وشعرا وقام على دراستها جماعة من أنبه العلماء مثل « بلاند » و « دورن » و «إتيه» و « فانيان » و« نولدكه » و « پرتش » و « ريو » و « شيفر » (١)

ونقوم بدراسة هذه المؤلفات ونترجم لصاحبها (وهو من خيرة الشخصيات اللامعة فى تاريخ الأدب الفارسى) فى الفصل التالى الذى أفردناه لدراسة الحركة الأدبية خلال هذه الفترة التى أجملنا الحديث عنها وصورناها سياسيا فى هذا الفصل الذى انتهينا منه .

---

(١) تكتب هذه الأسماء بالحروف الرومانية هكذا :
Bland, Dorn , Ethé , Fagnan , Noldeke, Pertsch, Rieu,Schefer.

الفصل الرابع

الأدب فى العصر السلجوقى الأول

نظام الملك ومعاصروه

نظام الملك وكتاب «سياست نامه» :

من الخير عند استعراض هـــذا العصر الممتع الهام ، أن نبدأه بالحديث عما تركه «نظام الملك» نفسه من آثار أدبية ، لأنه كان أهم شخصية ظهرت فى إيران فى ذلك الوقت . وآثاره الأدبية لا تزيد على كتاب واحد هو «سياست نامه» أو «كتاب السياسة»(١) وقدنشر أصله الفارسى المرحوم الأستاذ «شارل شيفر» فى سنة ١٨٩١م ، كما نشر أيضا ترجمة فرنسية له ، علىها كثير من التعليقات التاريخية الهامة فى سنة ١٨٩٣م ، وقد أتبع الأصل والترجمة بملحق نشره فى سنة ١٨٩٧م يشتمل على ملاحظات متصلة بحياة «نظام الملك» والعصر الذى نشأ فيــه استقاها من مختلف المصادر الفارسيــة والعربية . وقد كان من الصعب الحصول على كتاب «سياست نامه» قبل ظهور هذه الطبعة التى نشرها «شيفر» لأن النسخ المخطوطة منه كانت نادرة كل الندرة ، وقد استعان الأستاذ «شيفر» بثلاث نسخ مخطوطة كانت إحداها ملكا له وهى الآن فى المكتبة الأهلية بباريس ، والثانية نسخة المتحف البريطانى ، والثالثة نسخة برلين . وقد قابل هذه النسخ فى بعض المواضع بنسختين أخريين فى مكتبة سان پيترسبورج .

وتوجد من هذا الكتاب نسخة سادسة موجودة فى مجموعة «پُوت» المحفوظة فى مكتبة «كلية الملك» بجامعة كمبردج(٢) وهذه النسخة حديثة العهد نسبيا ولكنها

(١) أما كتاب «الوصايا» الذى ينسبونه إليه فزائف كل الزيف .

(٢) اسم المجموعة بالإنجليزية هكذا :
Pote Collection in the Library of King's College, Cambridge.

أفادتنى فائدة كبرى فى تصحيح بعض الأخطاء التى وقعت فى النسخة المطبوعة . ويشتمل كتاب « سياست نامه » على خمسين فصلا تبحث فى شئــون الملك وحقوق الملك وواجباته ومايتصل بالإدارات المختلفة التى يعتمد عليها فى إدارة البلاد ؛ وقــد أخذ «نظام الملك» يكتب هذا الكتاب فى سنة ٤٨٤ هـ (= ١٠٩١ — ١٠٩٢ م) أى قبل وفاته مقتولا بسنة واحدة ؛ كتبه استجابة لرغبة أبداها «ملكشاه» أمام أهل الرأى من مستشاريه[١] بأن يضع كل واحد منهم رسالة فى الحكم يبين فيها أنواع المفاسد والعيوب التى انتشرت فى أرجاء بلاده ونواحى إدارتها ، ويبين فيها كذلك أنواع البدع المستحدثة الضارة التى أخذت فى الظهور ، وأنواع العادات الحسنة القديمة التى أصابها الإهمال وعفا عليها الزمان . وقد استجاب جملة من أهل الرأى إلى طلب «ملكشاه» فأنشأوا الرسائل فى هــذه الموضوعات التى اختارها ؛ ولــكن الرسالة الوحيدة التى حازت إعجابه واستحسانه هى رسالة « نظام الملك » وقد أثر عنه أنه قال بصددها : لقد عالج « نظام الملك » جميع الموضوعات وفقاً لرغبة قلبى ، ولم يترك شيئاً لباحث يضيفه إلى كتابه ، ومن أجل ذلك فإنى اتخذه هاديا ومرشداً يهدينى سواء السبيل .

وقد انتهى «نظام الملك» من كتابة هذا الكتاب فى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ — ١٠٩٣ م) وكان فراغه منه قبيل مقتله بفترة قصيرة كما يؤخذ من هذه النبذة الغريبة التى اشتملت على نبوءة عجيبة نجدها قرب الخاتمة ، حيث يقول :

« هذا هو كتاب السياسة وقد تم لى تحريره وجمعه بناء على أمر أصدره مليك العالم لهذا المولى الحقير بأن يكتب فى هذه الموضوعات التى اختارها ، وقد كتبت منها على البديهة تسعة وثلاثين فصلا[٢] ثم قدمتها إلى حضرته العالية ، فنالت استحسانه وإعجابه . وقــد كانت مختصرة مجملة ، ولــكنى أضفت إليها بعد ذلك بعض الزيادات وألحقت بكل فصل منها مايناسبه من الملاحظات والنكات ، مبيناً كل ذلك بلغة سهلة جزلة وألفاظ واضحة بينة . فلما كانت سنة ٤٨٥ هـ وأردت الخروج إلى بغداد أعطيتها

---

(١) من أهم هؤلاء بالإضافة إلى « نظام الملك » نجد أسماء « شرف الملك » و « تاج الملك » و « مجد الملك » .

(٢) يظهر أن الفصول الأحد عشر الباقية أضيفت إلى هذا الكتاب عند مراجعته .

إلى ناسخ المكتبة الملكية «محمد المغربى» وأمرته أن يكتبها بخطه الجميل حتى إذا قدر لى ألا أعود من هذه الرحلة أسرع بعرضها على ملك العالمين ...»[١].

وفعلا ، لم يقدر لهذا الكتاب أن ينشر إلا بعد موت مؤلفه بفترة من الزمن . وربما تأخر ظهوره قليلا بسبب المتاعب القومية والحروب الأهلية التى نشبت مباشرة بعد موت «ملكشاه»[٢] .

وكتاب «سياست نامه» يعتبر فى رأيى من أهم الكتب الممتعة القيمة التى كتبت نثراً فى الفارسية ؛ ذلك لأنه من ناحية يشتمل على قدر كبير من الأخبار والروايات التاريخية ، ولأنه من ناحية أخرى يشتمل كذلك على الآراء السياسية التى كان يراها واحد من أنبغ الوزراء الذين ظهروا فى المشرق ، والذين بلغوا مبلغا من القوة والحكمة لانستطيع تقدير مداه إلا بالنظر إلى الفوضى المتصلة والحروب الداخلية المستمرة التى أعقبت مقتله . وقد كتب «نظام الملك» كتابه هذا فى لغة سهلة يسيرة خالية من كل المحسنات البلاغية ؛ ولقد تنحط عبارته أحياناً إلى مرتبة العبارات السوقية العامية ، أو قد يشوبها بعض الصيغ المهجورة التى كانت مستعملة فى ذلك ازمان المبكر . وليس من السهل علينا فى هذا المجال الضيق أن نستعرض محتويات هذا الكتاب الواسع الكبير ؛ بل لو أننا افترضنا فرضاً إمكان المحال ؛ لأحسسنا بعدم الحاجة إلى ذلك ، لأن مثل هذا العرض يستطيع أن يظفر به القراء الأوروبيون فى الترجمة الرائعة التى أخرجها الأستاذ « شيفر » لهذا الكتاب . يضاف إلى ذلك أن الانظار يجب أن تتجه فى هذا الموضوع أيضا الى مقالة قيمة كتبها الأستاذ « نولدكه » بجامعة ستراسبورج فى الجزء السادس والأربعين (ص ٧٦١—٧٦٨) من «مجلة المستشرقين الألمان » الصادرة فى سنة ١٨٩٢ م .

وقد خصص «نظام الملك» سبعة فصول من كتابه (من الفصل ٤١ إلى ٤٧ . صفحة ١٣٨ — ٢٠٥) لمحاربة الملاحدة والمظنون فى دينهم وخاصة فريق «الإسماعيلية والباطنية» . وهو يشكو مر الشكوى (فى صحيفة ١٣٩) من أن اليهود والمسيحيين والمجوس

---

(١) المترجم : هذا هو نص هذه العبارة الأخيرة بالفارسية « اگر بنده را باز آمدن نباشد ازين سفر اين دفتر را پيش خداوند عالم برد ..» .

(٢) انظر ما كتبه الناشر الفارسى فى نهاية فهرس الموضوعات بالصحيفة الخامسة من الأصل.

والقرامطة يوظفون بكثرة فى أعمال الدولة والديوان ، ثم يثنى على الخطة الصالحة التى أتبعها «ألب أرسلان» أثناء حكمه فى منع هؤلاء من تولى هذه الوظائف ومعاملتهم بشدة وغلظة بالغتين . ثم يأخذ فى مهاجمة مذهب «الشيعة» على العموم ومذهب «السبعية» على الخصوص ، ويجتهد فى البرهنة على أن مذاهبهم مشتقة فى أساسها من مذهب المتنبى الاشتراكى «مزدك» الذى أمر بإعدامه الملك الساسانى «انوشيروان» فى القرن السادس الميلادى[1]، ثم يورد فصلا مطولا عن مزدك (ص ١٦٦ — ١٨١) يبين فيه أنه بعد القضاء عليه وعلى أتباعه انبعث مذهبه من جديد على يد «الخرمّية» المعروفين باسم «خرّم دينان[2]» ثم على يد «سنْباد المجوسى[3]» ثم على يد «عبدالله بن ميمون القدّاح»[4] الذى إليه يرجع الفضل فى تقوية مذهب الإسماعيلية ، والذى إليه ينتسب خلفاء مصر الفاطميون أو العلويون كما يقول خصومهم . ويشتمل هذا الجزء من الكتاب — فيما عدا ذلك — على مقال بين فيه الكاتب مدى الشرور التى تنشأ من تدخل النساء فى شئون الدولة والحكومة ، وكذلك على بيانٌ الصفات التقليدية التى يشترط وجودها فى الوزير العظيم . وبه أيضاً كثير من الأخبار عن مدى النشاط الذى قام به دعاة الإسماعيلية فى أيام السامانيين وعلى الخصوص أثناء علو شأنهم على أيام الأمير التعيس «نصر بن أحمد» (٣٠١ — ٣٣١ هـ = ٩١٣ — ٩٤٢ م) ، ولم يذكر هذا الكتاب إلا القليل الأقل عن «الدعوة الجديدة» ولم يشر أية إشارة صريحة عن منشئها «الحسن بن الصباح» ولكنه مع ذلك يشتمل على أخبار هامة عن ازدياد نفوذ «الباطنية» وهى أخبار كثيرة متعددة تقطع بغير شك بأن هذا الجزء من الكتاب إنما خصصه كاتبه لمهاجمة «الحسن بن الصباح» وأتباعه كما يبدو واضحا من العبارات الأولى من المقال الثالث والأربعين[5] حيث يقول فى افتتاحه ما يلى :

---

١) فصلنا الحديث عن «مزدك» فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٦٦ — ١٧٢ (من الأصل).

(٢) انظر ماورد عنهم فى الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٣١٢—٣١٣ ، ٣٢٣ ومايتبعها).

(٣) انظر نفس المرجع ص ٣١٣ — ٣١٤ (من الأصل) .

(٤) انظر نفس المرجع ص ٣٩٣ — ٣٩٨ (من الأصل).

(٥) المترجم: رقم هذا المقال فى الحقيقة هو ٤٤ لأن الطابع جعل المقالين ٤١ و ٤٢ برقم واحد هو ٤١ . وبذلك أصبح كل مقال ينقص واحدا ، وقد تداركت الترجمة الفرنسية هذا السهو وأعطته رقمه الصحيح ؛ وهو فى الأصل الفارسى موجود فى صفحة ١٦٤ من طبعة «شيفر» بباريس سنة ١٨٩١ .

« مقال فى بيان أحوال أصحاب المذاهب السيئة »

« أعداء الملك والإسلام »

« أريد أن أذكر فى هذا الصدد جملة فصول فى معنى خروج الخوارج ، »
« حتى يعلم الناس مقدار الشفقة والعطف اللذين أبديتهما للدولة السلجوقية »
« ومقدار الحب والشغف اللذين أحس بهما نحوها ، وعلى الخصوص »
« ما أحسه من حب بالغ لمليكها سيد العالم خلد الله ملكه ، وما »
« أكنه من إخلاص سابغ لأولاده وأسرته ؛ وقى الله أيامه من عين »
« السوء وشر الحاسدين . . ! ! »
« وجد الخوارج فى جميع الأزمنة والعصور ؛ وقد خرجوا منذ عهد آدم »
« عليه السلام حتى الآن ، فى جميع أقاليم الدنيا ، وثاروا على الملوك »
« والأنبياء ، ومع ذلك فما من جماعة أكثر شؤماً ولؤماً وأسوأ مذهباً »
« ودينا ، وأردأ عملا ونهجا من هؤلاء القوم .. فليكن معلوماً أنهم »
« يدبرون من وراء أسوارهم نكبة هذه المملكة ، وإفساد مذهبها »
« ودينها ، فما تزال آذانهم تتسقط الأنباء وعيونهم تتربص الفرص حتى »
« إذا أصابت هذه الدولة القاهرة ـ ثبتها الله تعالى ـ مصيبة جديدة أو »
« نزل بها سوء والعياذ بالله ، خرج هؤلاء الكلاب من مكامنهم لنشر »
« الدعوة الشيعية . . وهم فى الحقيقة أقوى شأناً من الرافضية والخرمية »
« لا يدعون وسيلة ممكنة دون أن يلجأوا إليها ، فيجتهدون اجتهاداً فى »
« إفساد العقول ونشر الشائعات والبدع . . وهم يدعون قولا أنهم مسلمون »
« ولكنهم يأتون أفعال الكفرة ؛ وباطنهم لعنهم الله بخلاف ظاهرهم ، وقولهم »
« بخلاف عملهم ، وليس لدين محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم عدو أشأم ولا »
« أنكد منهم ، وليس لدولة الملك خصم ألد وأشد منهم ؛ وينضوى تحت علمهم »
« اليوم جميع الأشخاص الذين لا قوة لهم الآن فى شئون الدولة ، ويدعون »
« ظاهراً أنهم شيعيون وهم فى الحقيقة يهيئون أمورهم فى الخفاء ، ويزدادون »
« قوة ونفوذاً ، ويجتهدون فى نشر دعوتهم ويسعون لدى مليك العالم لكى »

« يقنعوه بأن يهدم بيت « بنى العباس » .. ولو تهيأ لى أن أكشف الغطاء »
« عن الوعاء فما أكثر ما يتكشف من خبائثهم ومخازيهم . . . ! ! »
« ولكن من أسف أن مليك العالم استطاع أن يجنى بعض الأموال من وراء »
« بعض حركاتهم ، ومن أجل ذلك فهو يريد بسبب الأموال الكثيرة (التوفيرات) »
« التى جناها أن يشرع فى عمل يرضيهم ، وقد استطاعوا أن يغرسوا فى نفسه »
« حب المال والحرص عليه واتهمونى لديه بأنى مغرض استهدف صالحى ، »
« بحيث أصبح نصحى له غير مقبول ولا ممكن ، ولن يعلم مقدار فسادهم »
« ومكرهم إلا بعد ما أكون قد رحلت عن هذا العالم ... !! عند ذلك فقط »
« يستطيع أن يتحقق من مدى حبى لدولته القاهرة ، وأننى لم أكن غافلا عن »
« أحوال هذه الطائفة وخططهم التى دبروها ، وأننى كنت فى جميع الأوقات »
« أعرضها على رأيه العالى [أعلاه الله] ولا أخفيها عنه ، ولكنى لم أحاول إعادتها »
« على مسامعه والإصرار على تكرارها أمامه لأنى رأيت أن أقوالى لم تظفر »
« لديه بالحظوة والقبول . . »

والإشارة التى يشير إليها « نظام الملك » فى هذه الفقرة الأخيرة تتفق تماما مع ما جاء فى الورقة « ١٤ ـ ا » من النسخة الخطية لكتاب « راحة الصدور » (١) حيث يضج المؤلف بالشكوى من أن هؤلاء الملاحدة يكثرون فى أنحاء البلاد وهم السبب فيما تقاسيه من ضيق وعناء وما تتحمله من الضرائب الكثيرة المفروضة . وهو يحتج على ذلك أشد الاحتجاج ويقول إن كثرة من هؤلاء الملاحدة يوجدون فى « قم » و « كاشان » و « الرى » و « آبا » و « فراهان » وهم يرقون إلى شغل المناصب العامة بعدما يعدون الملك أن يهيئوا له « التوفيرات » الكثيرة من المال (٢). وهى عبارة يسترون بها الضرائب الباهظة التى يفرضونها على الناس . وهنا نجد بعض الدليل على صحة الواقعة التى نستطيع أن نسميها بالقصة القديمة المتناقلة عن المشاحنة التى وقعت

---

(١) المترجم : طبع هذا الكتاب ضمن سلسلة جب التذكارية وقام على نشره الأستاذ إقبال .

(٢) المترجم : نلاحظ أن كلمة « التوفيرات » هى نفس الكلمة التى استعملها نظام الملك .

بين « نظام الملك » و « الحسن بن الصباح » وكيف أن الأخير منهما أراد أن يوجه إليه أنظار الملك فأخذ يطعن فى النظم المالية التى يتبعها وزيره « نظام الملك »(١).

ولا بد لى ــ وقد فرغت من إبداء ملاحظاتى المقتضبة على هــذا الكتاب الثمين الممتع ــ أن أعترف بأنى فى محاضراتى لم أجد بين الكتب الفارسية المنثورة ماهو أمتع وأنفع لنفسى ولمن أستمع لى من هــذا الكتاب ، ومع ذلك فيجب الإشارة بأنه يجب التحرز من قبول أخباره التاريخية على علاتها ؛ ويجب التنبيه إلى أنه تكثر به الأغلاط أيضا ، فمثلا فى صفة ١٢ من النص الفارسى يروى المؤلف أن « يعقوب بن الليث » هــدد الخليفة « المعتمد على الله » بأنه سيحضر الخليفة الفاطمى من « المهدية » ويجلسه مكانه ، والمعروف أن الخليفة « المعتمد » حكم فى سنة ٢٥٧ — ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ — ٨٩٢ م وأن مدينة المهدية لم تبن إلا فى سنة ٢٩٨ هـ = ٩١٠ م (على أقل تقدير) أو ربما بعد ذلك بعشر سنوات على القول الأرجح .

وأمثال هذه الأخطاء كثيرة فى الكتاب ، وعلى الخصوص فيما يتعلق بالملاحدة ؛ فالظاهر أن المؤلف قد شغل نفسه بهم حتى استطاع أن يتنبأ بنهايته على أيديهم وحتى أنساه ذلك كل ما يتصل بالتحقيق والتدقيق فى رواية الأخبار التاريخية عنهم . ومن الجائز المتوقع أن مطاعنه الكثيرة التى كالها لمذاهبهم وأعمالهم وأغراضهم كانت أكبر العوامل التى دفعتهم إلى قتله والقضاء عليه .

ناصر خسرو :

أشرت فى الفصل السابق إشارة مختصرة إلى رجل من أعلام هذه الفترة هــو « ناصر خسرو » الشاعر الرحالة ، وأحد دعاة الإسماعيلية المعروفين ؛ وقــد آن الأوان الآن لأن نمضى فى دراسة آثاره الأدبية . ومن الخير أن نذكر أن كثيراً من الخرافات والأقاصيص قد نسجت حول شخصه ، وجميعها مستمدة من السيرة الزائفة التى قيل إنه وضعها عن نفسه ، وهى السيرة التى توجد فى مقدمة ديوانه طبع تبريز.

---

(١) هــذه القصة موجودة فى كتاب « تاريخ گزيده » لحمدالله مستوفى ص ٤٤٠ طبع لندن سنة ١٩١٠ ، وكذلك ص ٢٠٨ ـــ ٢١١ من الجزء الأول من طبعة Jules Gantin

وهى برمتها عبارة عن نسيج واه من الخرافات والأوهام ، اختلطت به بعض الأخبار المتعلقة بغيره من مشاهير الرجال ، ثم انتهت بحكاية نسبوها إلى شقيق « ناصر » ورووها على لسانه ، تذكر أن « ناصرا » قد مات فى الأربعين بعد المائة من عمره وأن الجن قد تولت حمل جنازته ودفنه . . ! ! وقد ذكر « إتيه » (١) أن هذه السيرة وردت فى ثلاث روايات ، أطولها وأكثرها تفصيلا هى تلك التى أوردها « تقى الكاشى » فى كتابه « خلاصة الأشعار » ، وأقصرها هى المذكورة فى الكتابين « هفت إقليم » وال « سفينه » ، أما تلك التى ذكرها « لطفعلى بيك » فى كتابه « آتشكده » فهى متوسطة الطول والتفاصيل ، وقد ترجم هذه الرواية الأخيرة « ن . بلاند » فى المجلد السابع من « مجلة الجمعية الملكية الأسيوية » ص ٣٦٠ وما يليها . وأورد « شيفر » خلاصة هذه الرواية (بعدما حذف منها الخوارق التى لا يقبلها العقل) فى المقدمة التى قدم بها كتاب « سفر نامه » حينما نشره ونشر ترجمته الفرنسية (ص ٨ — ١٧ من المقدمة) . ويغلب على الظن أن هذه الرواية — كما يفترض « إتيه » — ما هى إلا من نتاج القرن التاسع أو العاشر الهجرى (أى الخامس عشر أو السادس عشر الميلادى) ذلك لأن أول كتاب ذكرها فيما نعلم هو كتاب «هفت إقليم» وهو كتاب من تواليف سنة ١٠٠٢ هـ = ١٥٩٣ — ١٥٩٤م. ومع ذلك فمن المعلوم أن كثيراً من الخرافات قد حيكت حول «ناصرخسرو » قبل ذلك التاريخ ، ويمكننا التحقق من ذلك بالاطلاع على المقال (٢) الذى تضمنه كتاب « القزوينى » المعروف بـ « آثار البلاد » وهو كتاب جغرافى تم تأليفه فى سنة ٦٧٥ هـ = ١٢٠٦م فقد ذكر الكتاب أن «ناصرا» كان ملكا على مدينة «بلخ» فخلعه رعاياه وطردوه ، فلجأ إلى مدينة « يمگان » وأخذ فى تزيينها ، وأقامة الحمامات الجميلة فيها وإنشاء الحدائق الغناء بها ، ونصب التماثيل الرائعة فى أرجائها ، وكانت هذه التماثيل مطلسمة توحى بالروعة والخوف ، لا يستطيع أحد أن يطيل النظر فيها دون أن يفقد رشده وصوابه. وقد وصف « القزوينى » هذه الحمامات فى كثير من التفصيل وقال إنها ما زالت قائمة حتى زمانه ...!!

---

(١) انظر مقاله المهتم عن كتاب « روشنائى نامه » فى المجلد ٣٣ ن « مجلة المستشرقين الألمان » سنة ١٨٧٩ ص ٦٤٥ — ٦٦٥ .

(٢) انظر ص ٣٢٨ من هذا الكتاب تحت مادة « يمگان » .

وإليك الآن مثلا لحادثة رائعة تضمنتها هذه السيرة الزائفة ، وهي برمتها مذكورة في مخطوطة يرجع تاريخها إلى سنة ٧١٤ هـ = ١٣١٤ — ١٣١٥ م موجودة في « مكتبه إدارة الهند » (١) وخلاصتها مايلي :

« وبعد عناء طويل وصلنا إلى مدينة نيسابور . وكان في صحبتنا واحد من »
« تلاميذي له خبرة في الطب والحكمة . ولم يكن أحد يعرفنا في هذه المدينة »
« فلجأنا إلى مسجد من المساجد لنقيم فيه . ولما سرت في أرجاء المدينة كنت »
« أسمع الناس يسبونني أمام أبواب المساجد التي مررت عليها ، ويتهمونني بأني »
« كافر ملحد ، ولم يكن تلميذي ليعلم شيئا عن آراء الناس في . وذات يوم »
« بينما كنت أجتاز السوق عرفني رجل من مصر فالتفت إلي وقال : ألست »
« أنت ناصر خسرو .. ؟! وأليس هذا أخاك أبا سعيد ... ؟! فخشيت افتضاح »
« أمري ، وأمسكت على يده بشدة وشغلته بالحديث ، ثم أخذته إلى حيث »
« أقيم وعرضت عليه أن يأخذ ثلاثين ألف مثقال من الذهب على ألا يفضح »
« أمري أو يكشف سري . فلما قبل رجائي أعددت له المبلغ وناولته إياه وأخرجته »
« من مسكني . ثم خرجت إلى السوق في صحبة « أبي سعيد » وتوقفت لدى »
« إسكافي ليصلح لي نعلي حتى أستطيع الرحيل عن هذه المدينة . وفجأة سمعت »
« صياحا وصخبا إلى جواري ، وهب الإسكافي من مكانه وهرع إلى مكان »
« الصخب ليستطلع الأمر ثم عاد إلى بعد برهة وجيزه وعلى مخرازه قطعة من »
« اللحم الآدمي . فسألته عن سبب هذه الجلبة ، وماهذه القطعة من اللحم الذي »
« يرفعها على مخرازه ... ؟ فأجابني بأن واحدا من أتباع « ناصر خسرو » قد ظهر »
« في المدينة وأخذ يناقش علماءها في المسائل الدينيه فلم يتقبلوا آراءه مستندين »
« في معارضتها على الكتب المعتمدة والمصادر الموثوق بها ، وأخذ يجادلهم فيها »

---

(١) هذه المخطوطة تتعلق بمختارات من دواوين ستة من شعراء الفرس ، وهي برقم ١٣٢ وقد أخذنا عنها الصورة المنشوره في مطلع هذا الكتاب . أما الحكاية التي أنقلها هنا فهي ترجمة لما ورد في الديوان طبع تبريز ص ٦ — ٧ وقد سبق لي نشرها في كتاب « سنة بين الفرس » ص ٤٧٩ — ٤٨٠

« يقولون ويذكر لهم أبياتا من أشعار ناصر خسرو ، فأمر العلماء بتمزيقه »
« إربا إربا فلما فعلوا ذلك أخذت بدورى قطعة من لحمه لتنالنى بعض المثوبة »
« وحسن الجزاء ... فلما علمت بما وقع لتلميذى لم استطع أن أملك نفسى »
« وقلت للاسكافى : أسرع وأعطنى نعلى ، فما عاد لمثلى أن يبقى فى هذه المدينة »
« التى ينشدون فيها أشعار ناصر خسرو ...!؟ فلما أخذت نعلى أسرعت بالخروج »
« أنا وشقيقى من مدينة نيسابور .. »

وهناك رواية خرافية أخرى مذكورة فى هذه السيرة الزائفة ، تمثل لنا ناصرا وقد هرب من مصر إلى بغداد ، وكيف أن الخليفة العباسى « القادر بالله » نصبه وزيرا له ثم أرسله فى بعثة إلى ملاحدة « گيلان » من الحشاشين فلما تعرفوا عليه وتبينوا أنه الحكيم الذى طالما أعجبوا بآرائه ، أكرموا وفادته واحتجزوه لديهم ولم يسمحوا له بمغادرتهم ، فلما ضاق به الأمر وأراد الخلاص ، قتل شيخهم بتعاويذه السحرية ثم خرج هاربا وتبعه فريق من الجيش فسلط عليهم الريح فقتلهم عن آخرهم ... !! ولست أدرى أى الأمرين أدعى إلى العجب فى هذه الروايه .. ؟ أهى الخوارق التى اشتملت عليها .. أم هذه الأغاليط التاريخيه الواضحة التى تضمنتها ...؟! فقد مات الخليفة القادر فى سنة ٤٢٣ هـ = ١٠٣١ م ولم يقم للحشاشين قائمة فى « گيلان » إلا فى سنة ٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ م . ويبدو لى أن جزءا من هذه القصة الخرافية قد نسبوها خطأ إلى « ناصر خسرو » بينما هى فى الحقيقة متصلة بحياة حكيم آخر متأخر عنه هو « ناصر الدين الطوسى » الفيلسوف المعروف الذى أهدى كتابه « أخلاق ناصرى » إلى حاكم « قهستان » الإسماعيلى المسمى « ناصر الدين عبدالرحيم بن أبى منصور » .. ولاشك أن تشابه الأسماء وما اقترن به من جهل الكاتب بعلاقة « ناصر خسرو » بالاسماعيلية ، كل ذلك قد أدى بجامع هذه السيرة الزائفة إلى أن ينسب إلى « ناصر خسرو » أنه هو الذى كتب تفسيرا للقرآن يتفق مع آراء جماعته الإلحادية ، فكان هذا العمل الخاسر الذى قام به سببا فى النكبة التى حدثت له فى نيسابور ، وهى النكبة التى ذكرناها آنفا .

آثار ناصر خسرو

فإذا فرغنا من هذه السيرة الزائفة ، وجب علينا أن نمضى قدما إلى دراسة آثاره الصحيحة وهى عبارة عن : -

١ — « سفرنامه » أو كتاب رحلاته التى قام بها ، وقد نشره وترجمه المستشرق « شيفر » فى باريس سنة ١٨٨١ م

٢ — « الديوان » : وهو مجموعة ماقال من أشعار ، وهو مطبوع على الحجر فى تبريز سنة ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٤ م (١)

٣ — « روشنائى نامه » أو كتاب الضياء .. وقد نشره « إتيه » وترجمه وعلق عليه فى « مجلة المستشرقين الألمان » سنة ١٨٧٩ — ١٨٨٠ م جزء ٣٣ ص ٦٤٥—٦٦٥ وجزء ٣٤ ص ٤٢٨ —٤٦٨ وكذلك ص ٦١٧—٦٤٢

٤ — « سعادتنامه » : أو كتاب السعادة وقد نشره « فانيان » فى جزء ٣٤ من « مجلة المستشرقين الألمان» ص ٦٤٣ — ٦٠٤

٥ — « زاد المسافرين » وهذا الكتاب محفوظ لنا فى نسخته الخطية (٢) التى كان يمتلكها « شيفر » والتى انتقلت الآن إلى «المكتبه الأهلية» بباريس

وسأبدأ الحديث عن هذه الكتب بكتاب « سفرنامه » لأنه يشتمل على أدق التفاصيل التى يمكن أن نصوغ منها صورة صحيحه لحياة هذا الشاعر (٣)

كتاب سفرنامه

هذا الكتاب شبيه بكتاب « سياست نامه » مكتوب بلغة سهلة خالية من الصنعة

---

(١) المترجم : طبع هذا الديوان اخير فى طهران سنة ١٣٠٤ — ١٣٠٧ الهجرية الشمسية
(٢) المترجم : طبع هذا الكتاب أخيرا فى برلين سنة ١٣٤١ هـ
(٣) المترجم: طبع أخيرا فى القاهرة كتابان من الكتب المنسوبة إلى ناصرخسرو، هما : «خوان الاخوان» و « شش فصل » كما ترجم « سفرنامه » الى العربية .

والمحسنات . ويذكر مؤلفه أن اسمه الكامل هو « أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي » (١) ويقول إنه كان يشتغل فى خراسان مدة من الزمن بأعمال الإنشاء وجباية الأموال أيام « چغري بيگ داود السلجوقى » .

وفى خريف سنة ٤٣٧ هـ = ١٠٤٥ م رأى فى منامه رجلا يحذره من شرب الخمر فأقلع عنها ، وكان من قبل شغوفا بها يرى « أنها الوسيلة الوحيدة التى يستطيع بها أن ينسى هموم الدنيا ومتاعب الحياة » ثم عزم على الحج إلى مكة ، وكان عمره إذ ذاك يقرب من الأربعين ، فاغتسل وتطهر وذهب إلى جامع « جزجانان » حيث كان يقيم فى ذلك الوقت ، ودعا الله أن يتقبل توبته ، وأن يعينه على ترك المعاصى والسيئات ، ثم خرج فى رحلته فى يوم الخميس السادس من جماد الآخر سنة ٤٣٧ هـ = ١٩ ديسمبر سنة ١٠٤٥ م فتوجه بطريق « شبورغان » إلى مدينة «مرو» وطلب إعفاءه من العمل الذى كان يتولاه ؛ ثم سار إلى مدينة « نيسابور » وخرج منها وفى رفقته السيد « الموفق » (٢) فزار الشيخ الصوفى « بايزيد البسطامى » فى مدينة « قومس » . ثم خرج منها مارا بمدينة « دامغان » حتى وصل إلى مدينة « سمنان» فتعرف هناك على شاب اسمه « الأستاذ على النسائى » من تلاميذ «أبى على سينا» كان يحاضر الطلاب فى الحساب والهندسة والطب ، ولكنه أساء الرأى فيه وفى علمه على مايظهر، ثم اجتاز مدينة «قزوين» ووصل إلى تبريز فى يوم ٢٠ صفر سنة ٤٣٨ هـ = ٢٦ أغسطس سنة ١٠٤٦ م وهناك تعرف بالشاعر «قطران» وفسر له جملة مقطوعات صعبة من أشعار الشاعرين « الدقيقى » و «منجيك» ثم خرج من تبريز إلى «وان» ثم « أخلاط » ثم «بطايس» ثم «أرزن» ثم « ميافارقين » ثم « آمد » ومنها إلى «حلب» ثم إلى «معرة النعمان» حيث تلاقى بالشاعر العربى الفيلسوف « أبى العلاء المعرى » وقد ذكره فى رحلته فأطراه وأثنى عليه وعلى أخلاقه وفضائله ثناء جميلا . ثم خرج من «معرة النعمان» إلى مدينة «حماه» ثم إلى «طرابلس» ثم إلى «بيروت»

---

(١) المترجم : نسبة إلى مدينتى « مرو » و «قباديان» والأخيرة منهما مدينة وولاية بالقرب من ترمذ على نهر جيحون .

(٢) هو فى الغالب نفس الشخص الذى نصادفه فى قصة عمر الخيام حيث ذكر أنه أستاذ الرفاق الثلاثة : الخيام ونظام الملك والحسن الصباح .

ثم إلى «صيدا» ثم إلى «صور» ثم إلى «عكا» ثم إلى «حيفا» . وبقى فى الشام فترة تمكن فيها من زيارة الأراضى المقدسة وقبور الأنبياء وبيت المقدس وبيت لحم ثم استطاع الوصول إلى مكة وتأدية فريضة الحج للمرة الأولى فى ربيع سنة ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧ م . ثم عاد من مكة إلى «دمشق» ثم إلى «بيت المقدس» وعزم على أن يغادرها إلى «مصر» بطريق البحر ولكن الرياح لم تساعده على السفر بحرا فسار إليها براً ووصل فى النهاية إلى القاهرة فى يوم الأحد السابع من شهر صفر سنة ٤٣٩ هـ = الثالث من شهر أغسطس سنة ١٠٤٧ م

ناصر خسرو فى مصر

وبقى «ناصر خسرو» فى مصر مدة سنتين أو ثلاث سنوات ؛ وهذه فترة هامة من فترات حياته، لأنه استطاع أن يتحقق فيها من عظمة الخليفة الفاطمى « المستنصر بالله » وما اتصف به من عدل وإدارة حكيمة متزنة ؛ ولأنه كان فى مصر انضمامه إلى الإسماعيلية وتبحره فى مذاهبهم الباطنية بحيث انتدبوه ليكون داعيهم وحجتهم فى خراسان . وهو فى كتابه « سفرنامه » متحفظ فيما يختص بالمسائل الدينية ، لأنه فيما يبدو قد كتبه للعامة ولم يشأ أن يفيض لهم فى هذه الأمور ، ومع ذلك يبدو لنا فى وضوح من نبذتين وردتا به (ص ٤٠ و ص ٤٢) أنه لا يشك مطلقاً فى صحة نسب الفاطميين وأنه شديد التحمس لهم ، لما امتازوا به من إدارة بارعة وثروة طائلة وما ضمنوه لرعاياهم من سعادة سابغة وأمن شامل .

وصف القاهرة فى كتاب سفرنامه

وقد أجاد وصف القاهرة وجوامعها (بما فى ذلك الجامع الأزهر) وحاراتها المثمرة وحدائقها ومبانيها وضواحيها إجادة تبلغ حد الإعجاب . فأما الأخبار التى رواها عن الإدارة الفاطمية للبلاد فهى بالغة الأهمية والقيمة التاريخية . والظاهر أنه أعجب كل الإعجاب بنظام الجيش وترتيبه ، وكيف أن رواتب الجند تدفع إليهم بانتظام مما اقتضى إحساس الأهلين بالطمأنينة إلى سلامة أموالهم من غارة الجند وعدوانهم. وقد بلغ عدد الجيش ٢١٥،٠٠٠ جنديا موزعين كالآتى :

الفرسان :	٢٠،٠٠٠	قيروانى ... وهم من القيروان
	١٥،٠٠٠	باطلى ... وهم رجال من المغرب (شمال افريقيا الغربى)
	٥٠،٠٠٠	بدوى ... من الحجاز
	٣٠،٠٠٠	من المأجورين ، البيض والسود .
المشاة :	٢٠،٠٠٠	من المصامدة السود (من شمال أفريقيا الغربى)
	١٠،٠٠٠	من المشارقة وهم ترك وعجم
	٣٠،٠٠٠	عبيد الشراء
	١٠،٠٠٠	من حراس القصر يسمون بـ « السرائيين » ولهم قائد خاص
	٣٠،٠٠٠	من الزنوج والأحباش
	٢١٥،٠٠٠	جملة الجيش

ولقد أدهشه مقدار الثراء الذى تزخر به الأسواق ، وهو يقول : إن الأمن بلغ حداً كبيراً بحيث لم ير التجار حاجة إلى إغلاق أبواب حوانيتهم ومخازنهم . وفيما يلى فحوى عبارته(١) .

« وبينما كنت هناك فى سنة تسع وثلاثين وار بعمائة هجرية (١٠٤٧–١٠٤٨م) »
« رزق السلطان بولد ، فأمر الناس بإقامة الأفراح العامة ، فأسرعوا إلى تزيين »
« المدينة والأسواق زينة رائعة ، لو أخذت فى وصفها لما صدقنى بعض الناس »
« ولما اعتمدوا قولى ، فقد امتلأت حوانيت البزازين والصرافين وغيرهم »
« بالذهب والجواهر والنقود والبضائع والملابس الموشاة بالذهب والقصب بحيث »
« لم يعد فيها متسع لمن شاء الجلوس . وجميع الناس يحسون بالأمن والسلامة »
« فى ربوع السلطان ، لا يخشى أحد منهم وقيعة الجواسيس والغمازين لأنهم »
« يثقون أن السلطان لا يظلم أحداً ولا يطمع فى مال أحد . »
« ولقد شاهدت أموالا يعلكها بعض الناس ، لو أننى أخذت فى التحدث عنها »
« أو وصفها لما صدقنى رجال العجم ولأنكروا روايتى ، لأنى أنا شخصياً لم أستطع »

(١) انظر ص ٥٣ من سفر نامه طبع «شيفر» بباريس سنة ١٨٨١ .

« أن أعدها أو أحصيها . وأما الرفاهية التى لاحظتها هناك فلم أشاهد مثلها »
« فى أى مكان آخر . فلقد رأيت هنالك نصرانياً من أثرياء مصر ، قالوا إن »
« سفنه وأمواله وأملاكه لايمكن عدها أو حصرها . وحدث فى سنة من »
« السنين أن النيل لم يفض إلى درجة الوفاء بالحاجة واشتد غلاء الغلال »
« فاستدعى الوزير هذا النصرانى وقال له : إن هذه السنة عجفاء وليست من »
« سنى الرخاء ، وإن السلطان ليحس بالهمّ فى قرارة قلبه إشفاقا على الرعية ، »
« فما مقدار ما تستطيع أن تعطيه من الغلال وتقتضى ثمنه نقداً أو قرضاً ..؟! »
« فأجاب النصرانى : أسعد الله السلطان والوزير ، إن لدى من الغلال »
« الحاضرة ما أستطيع أن أطعم به مصر ست سنوات كاملة ...!! وليس هناك »
« من شك فى أن أهل مصر فى ذلك الوقت كانوا كثيرين بحيث أن سكان »
« نيسابور كانوا لايبلغون خمسهم مهما بالغنا وأسرفنا فى التقدير . وليس هناك »
« من شك أيضا فى أن كل خبير بالأرقام يستطيع أن يدرك مدى الأملاك التى »
« ينبغى أن يملكها شخص من الأشخاص حتى تبلغ غلاله هذا الحد والمقدار..؟! »
« وكيف كانت الرعية آمنة والسلطان عادلا حتى تيسرت مثل هذه الأحوال »
« والأموال فى أيامهم ...؟! فلا السلطان يجور على أحد أو يظلمه ، ولا الرعية »
« تخفى شيئا أو تكتمه » .

وقد استغرقت رحلة «ناصر خسرو» منذ خروجه من موطنه إلى وقت رجوعه سبع سنوات كاملة ؛ فقد ابتدأت فى يوم الخميس السادس من جماد الآخر سنة ٤٣٧ ﻫ وانتهت فى يوم السبت السادس والعشرين من جمادى الآخر سنة ٤٤٤ ﻫ (أى من ١٩ ديسمبر سنة ١٠٤٥م إلى ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٥٢م) وقد تمكن فى خلال هذه المدة من أداء فريضة الحج خمس مرات ، عاد بعدها فى النهاية من الحجاز إلى موطنه الأصلى، ماراً بتهامه واليمن والإحساء والقطيف فالبصرة ، وأقام بالبصرة مايقرب من شهرين ثم غادرها إلى مرو ، ماراً بـ «ارّجان» و«إصفهان» و«نائين» و «طبَس» و«تون» و«سرخس» .

ديوان ناصر خسرو :

والآن يجب علينا أن نترك كتاب «سفرنامه» وأن ننتقل إلى دراسة «الديوان» ؛ ولكن من الضروري لنا قبل أن نقدم على ذلك ، أن نشير إلى نظرية دافع عنها العالم الكبير المرحوم الدكتور «ريو»[١] وكذلك العلامتان «پرتش»[٢] و«فانيان»[٣] ولكنها أصبحت بعد ظهور الأبحاث الجديدة التي قام بها على الأخص «شيفر» و «إتيه»[٤] واجبة الترك . ومقتضى هذه النظرية أنه كان يوجد شخصان متمايزان يسمى كل منهما باسم «ناصر خسرو» ويكنى بـ «أبي معين» ؛ فأما أحدهما فشاعر ساحر فيلسوف ؛ وأما الآخر فرحالة جوّاله .

ويورد الدكتور «ريو» هذه النظرية في وضوح تام فيقول :

« إن أموراً قليلة تكشف لنا أننا نواجه في دراستنا شخصين متمايزين . فأما الحكيم »
« ناصر كما كان يسمى الشاعر فقد ولد في إصفهان ووصل نسبه بالإمام « علي »
« ابن موسى الرضا» واشتهر بكونه شاعرا قبلما يتم تأليف هذا الكتاب (أي »
« سفرنامه) وقبلما تتم المنظومة المعروفة باسم «روشنائي نامه» المؤرخه بتاريخ »
« ٤٢٠ هـ (انظر «پرتش» فهرست الكتب بمكتبة جوتا ص ١٣ ، أما التاريخ »
« الذي ذكرته نسخة ليدن على أنه سنة ٣٤٣ هـ فخاطئ في أغلب الظن . انظر »
« الفهرست ج ٢ ص ١٠٨) . أما ناصر الرحالة مؤلف «سفرنامه» فعلى العكس »
« من ذلك يذكر لنفسه نسبتين : إحداهما تشير إلى قباديان وهي بلدة بالقرب من »
« بلخ حيث كان مولده ، والأخرى تشير إلى مرو حيث كان مستقره وهو لا يدعى »
« مطلقا أنه ينتسب إلى أصل عظيم أو أنه حاز شيئا من الشهرة إلا ما كان »

---

(١) انظر فهرست الكتب الفارسية ص ٣٧٩ — ٣٨١ .

(٢) انظر فهرست الكتب الفارسية في برلين ص ٧٤١ — ٧٤٢ .

(٣) انظر « مجلة المستشرقين الألمان » مجلد ٣٤ سنة ١٨٨٠ ص ٦٤٣ — ٦٧٤ وكذلك «المجلة الأسيوية» المجموعة الثانية مجلد ١٣ سنة ١٨٧٩ ص ١٦٤ — ١٦٨ .

(٤) انظر كذلك ملاحظاتي التي أبديتها في مقالي المنشور بمجلة الجمعية الملكية الأسيوية سنة ١٨٩٩ ص ٤١٦ — ٤٢٠

« من أمر اشتهاره بالصيرفة والأعمال المالية . أضف إلى ذلك أن الحكيم »
« ناصر ولد في سنة ٣٥٨ هـ كما يقول كتاب « حبيب السير » (طبعة بمباى »
« المجلد ٢ جزء ٤ ص ٦٧) أو في سنة ٣٥٩ هـ كما هو مذكور في كتاب «دبستان» ».
« بينما يذكر الرحالة مؤلف « سفر نامه » في إحدى عباراته ما يفيد أنه »
« بلغ الأربعين من العمر في سنة ٤٣٧ هـ ».

وهناك مشاكل أخرى تعترضنا إذا شئنا التثبت من شخصية الشاعر والرحالة ، ومنشؤها جميعا يرجع إلى الأخطاء التي وقع فيها بعض الكتاب المتأخرين ؛ ومن حسن الحظ أنه يمكن التغلب عليها جميعا بمراجعة دقيقة لكتاب «سفر نامه» وللديوان ، ومقارنة ما جاء فيهما من أخبار . فإذا فعلنا ذلك وجدنا أن الرحالة كان فيما يظهر يسمى بالحكيم ، لأن الهاتف الذي ناداه في المنام قال له في معرض الرد على دفاعه عن نفسه لاحتساء الخمر : «أن الراحة لا تكون بفقد العقل والصواب ، ولا يمكن أن يقال لشخص إنه حكيم بينما يقود الناس إلى فقدان الصواب ....!!» .

أما «دولتشاه» الذي اشتهر بأغاليطه فعليه وحده تقع تبعة القول بأنه ينتسب إلى «إصفهان» وهو قول ينفيه أساساً هذان البيتان الواردان في الديوان(١) :

گرچه مرا أصل خراسانى است   از پس پيرى ومهى وسرى
دوستىٔ عترت وخانهٔ رسول   كرد مرا يمگى ومازندرى

ومعناها :

— ولو أنني أصلا من خراسان ،
ولكنني بعد ما بلغت المجد والعظمة والسلطان ...

— جعلني حبي لآل الرسول وعترته
انتسب إلى «يمگان» و «مازندران» ....!!

---

(١) انظر الديوان ص ٢٤١ .

وفيما يتعلق بتاريخ ولادة هذا الشاعر ، لدينا تصريحه [١] الوارد فى صفحة ١١٠ من الديوان ، حيث يقرر أنه ولد فى سنة ٣٩٤ هـ = ١٠٠٣ — ١٠٠٤م ؛ وفى نفس الصحيفة ونفس القصيدة يقول بعد أربعة أبيات إنه بلغ الثانية والأربعين من عمره «حينما أخذت روحه الواعية تبحث عن الحكمة » ؛ وفى مكان آخر من صحيفة ٢١٧ يستعمل الأعداد التقريبية فيقول ماقاله فى كتاب «سفرنامه» من أنه بلغ الأربعين من عمره حينما تحولت حياته إلى هذه الناحية . وعلى هذا فلا يمكن أن تكون هناك مطابقة تامة فى رواية الأخبا أكثر مما هو مشاهد فى المطابقة بين فى رواية «سفرنامه» وبين ماورد فى «الديوان» . فإذا تعمقنا فى دراسة هذين الكتابين تبين لنا فى وضوح وجلاء أن مؤلفهما واحد . أما ذكر الأربعين فعلى سبيل التقريب لأن هذه السن قد وردت فى أمكنة أخرى على أنه بلغ الثانية والأربعين . ولو أنعمنا النظر ودققنا قليلا لتبين لنا أن الشاعر قد بلغ الثالثه والأربعين حينما بدأ رحلاته (٤٣٧ — ٣٩٤ = ٤٣ سنه) ، وأنه بلغ الخمسين حينما عاد من مصر إلى خراسان ، ويبدو أنه قد نظم جميع القصائد التى يشتمل عليها الديوان بعد هذا التاريخ . وفيما عدا ذلك ، فبالإضافة إلى الإشارتين اللتين تتعلقان بعمره حينما نحا نحو الحكمة ، لدى سبع عشرة مقطوعة ذكر فيها الشاعر عمره وقت كتابتها وبيانها كالآتى :

يذكر أنه بلغ الخمسين فى الصفحات ٢٠ و٢١٩ و٢٣٠ و٢٦٣

ويذكر أنه تجاوز الخمسين فى صفحة ٨٧

ويذكر أنه بلغ الستين فى الصفحات ٢٤ و ٧٩ و ١٠٢ و ١٦٤ و ١٧٣ و١٧٩ و١٩٩ و٢٠٧ و٢٤٤

ويذكر أنه تجاوز الستين فى صفحة ٧٠

ويذكر أنه بلغ الثانية والستين فى صفحتى ١٦٦و١٧١

---

(١) المترجم : ورد ذلك فى قصيدته التى يقول فيها .

بگذشت زهجرت پس سيصد نود وچار بنهاد مرا مادر بر مركز اغبر

(أنظر ص ١٨٣ من طبعة طهران)

وقد أشار فى أمكنة أخرى إلى ازدياد ضعفه وشيخوخته فى الصفحة الخامسة ؛ والى دنو أجله فى الصفحتين السادسة والسابعة ، ومع ذلك فليس لدينا من الأخبار مايقطع بتاريخ وفاته على وجه التحقيق .

دراسة الديوان

ومنذ سنتين تقريبا قرأت الديوان برمته فى طبعة تبريز ، وهى تشتمل على ٢٧٧ صحيفة ، تتضمن وفقاالإحصائى ٧٤٢٥ بيتا من الشعر ؛ وكنت آمل حينئذ أن أكتب مقالا عن هذا الشاعر فأخذت أدون آرائى فيما يتعلق بخصائصه النحوية واللغوية والبلاغية ؛ ودونت كذلك إشاراته إلى الأماكن والأشخاص والحوادث ، وسجلت بعض المقطوعات التى يكشف لنا الشاعر فيها عن آرائه الدينية والفلسفية وخصوصا مايتصل منها بعلاقته بالإسماعيلية والخلفاء الفاطميين ، ولكنى لمأجد متسعا من الوقت لنشر هذه الملاحظات فى مكان آخر ، فكان لزاما على أن أذكرها باختصار فى هذا المقام [(١)]..

أما فيما يتعلق بلغته ، فالأمر دقيق جدا بحيث لا يمكننى التحدث عنها فى استفاضة فى هذا الكتاب الذى لم يقصد به المتخصصون فى دراسة الفارسية وحدهم ؛ ومع ذلك يمكننى أن أقول فى إيجاز أن المؤلف ـ من حيث الخصائص اللغوية والنحوية ـ استعمل المهجور القديم من الألفاظ ، وأن أسلوبه يشبه إلى حد كبير أسلوب «التفسير الفارسى القديم للقرآن» الذى أطلت الحديث عنه فى « مجلة الجمعية الملكية الأسيوية » [(٢)] فى شهر يوليه سنة ١٨٩٤م (صحيفه ٤١٧ — ٥٢٤) فى مقال حاولت البرهنة فيه على أن هذا التفسير قد كتب فى خراسان فى زمن السامانيين ؛ فكلا الكتابين يشتمل على مايقرب من أربعين كلمة نادرة الاستعمال أو ذات معان مهجورة ، وهما بالإضافة إلى ذلك يشتملان على تعبيرات وصيغ نحوية شاردة .

---

(١) منذ كتبت هذا المقال نشرت فى « مجلة الجمعية الملكية الأسيوية » فى سنة ١٩٠٥ ص ٣١٣ — ٣٢٥ مقالا بعنوان « ناصر خسرو الشاعر والرحالة والداعى ». وقد اشتمل هذا المقال على بعض الملاحظات التى ذكرتها وكذلك على بعض الأشعار التى ترجمتها فى هذا الفصل

(٢) أنظر An Old Persian Commentary, J. R. A. S. July 1894

أما الأماكن المذكورة فى الديوان فتتضمن « بغداد » و « بلخ » و «مصر» و «جرجان» و «غزنه» و «الهند» والمدينتين الوهميتين « جابلقا » و «جابلسا» وكذلك «خاوران» و «ختلان» و «خراسان» و « مازندران » و « جيحون » و«وادى القبچاق» و «الرى» و«السند» و «سجستان» و« سپاهان أو إصفهان » و «ششتر» و«لوت» و«طراز» و «تون» و«يمگان» و «زابلستان». وقدأكثر الشاعر من ذكر موطنه « خراسان » (ص ٢٤١،٢٣) وهى البلاد التىأرسلإليها فى أواخر حياته علىأنه « حجتها » الإسماعيلى (ص ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٢١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦) . وذكر أنه كان هناك كسفينة نوح (ص ١٦٩) بين الأنعام (ص ٢٦٦) من أهلها الأشرار (ص ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤١) الذين أساء الحكام حكمهم (ص ٢٤٣) . وهو يشير إليها فى تحفظ (ص ٤٨ ، ٤٩) فيصورها بأنها صحراء روحية مالحة (ص ٢٠٣) اضطر إلىالانزواء والاختفاء بها (ص ١٨٥) . ويصادف القارىء بعد ذلك بكثرة اسم مدينة « يمگان » وهى البلدة التى استقر فيها الشاعر فى النهاية ؛ ويتحدث الشاعر خلال ديوانه عن رحلة قام بها استغرقت خمسة عشر عاما (ص ١٦٧) وعما أحس به من الوحدة والاغتراب (ص ١٦١ ، ١٧٠، ٢٢٧) وهو فى إحدى المراتيتحدث عن نفسه كأنه أسيرسجين (ص ٢٤٣) ولكنه فى مرة أخرى يدعو نفسه ملكا وشهريارا (ص ١٥٩ ، ١٦١) . أما بقية الأماكن التى ورد ذكرها فىأشعاره فقد وردذكرها مرة واحدة ، ماعدا «بلخ» فقد ذكرت سبع مرات و «بغداد» فقد ذكرت أربع مرات ، وفماعداذلك فقدوردت إشارة واحدة عن «الترك» و «الغز » (ص ٧)

أما الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى الديوان فأكثر عددا .فقد ذكرمن أنبياء التوراة ورسلها أسماء « آدم» و«حواء» و «نوح» و«سام» و «حام»و«ابراهيم» و «ساره» و «موسى» و «قارون» و «يونس» و«دانيال» . أما « المسيح » فقد ذكره فى صفحة ١٧٨ وقرن اسمه باحترام زائد فجعله « الابن الذى لا أب له» و«أخا لشمعون ، استطاع بفيض الله وروحه أن يرد الحياة إلى الأموات» . وقدذكر من بين رجال اليونانأسماء «سقراط» و«أفلاطون» و«يوقليدس» و«قسطنطين». وذكر من بين ملوك الفرس الأقدمين الذين تحدث عنهم القصص الفارسىأسماء « جمشيد »

و « الضحاك » أو « أژدها كا » و «فريدون» . وذكر من بين الساسانيين اسمى « سابور الثانى بن اردشير » واسم الأمير « قارن » . وذكر من بين شعراء العرب وبلغائهم أسماء « النابغة » و « سحبان بن وائل » و « حسان بن ثابت » و «البحترى» . وذكر من بين شعراء الفرس أسماء « الرودكى » فى صفحة ٢٧٣ و «العنصرى» فى الصفحات ١١ ، ١٢ ، ١٧٢ ، و « الكسائى » فى الصفحات ١٩ ، ٢٨ ، ٣٨ ، ٥١ ، ١٣٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، و «الأهوازى» فى صفحة ٢٤٩ و « الشاهنامة للفردوسى » فى الصفحتين ١٨٣ ، ١٩٠

ولست أعرف الدليل الذى اعتمد عليه الدكتور «إتيه» (١) ليؤكد أن « ناصر خسرو » لا يشارك « الكسائى » كراهيته للخلفاء الثلاثة الراشدين « أبى بكر » و « عمر » و « عثمان » ويجمع بينهم وبين «على» قائلا أن فكرة « الحلول الإلهى » انتقلت منهم إليه . ولو أننا رجعنا إلى الديوان لوجدنا ست إشارات لى «عمر» اقترن فيها اسمه باسم «أبى بكر» مرتين (٢) ولكننا لا نجد ذكرا لـ«عثمان» على الإطلاق . ولاشك أن بعض هذه الإشارات ليس فيها شيء من التحقير أو الامتهان لشأن «عمر» ولكننا نلاحظ أن الأمثلة الآتية تخالف ذلك تمام المخالفة :

يقول فى صفحة ٦٢ :

— ومما لا مراء فيه أن عمر سيهيء لك مكانا فى جهنم ، إذا اتبعت طريق المعجبين بعمر ورفاقه ... !! (٣)

ويقول فى صفحة ٢٦٣ :

— وحذار الأسى ... إذا تركت وبقيت فى يمكان وحيدا أسيرا ..!!(٤)

---

(١) أنظر مقالته الموجودة فى ج ٢ ص ٢٨١ من «المفصل فى الدراسات اللغوية الإيرانية» بعنوان : « الأدب الفارسى الحديث : Neupersische Litteratur »

(٢) المترجم : لو رجعنا إلى الديوان المطبوع فى طهران سنة ١٣٠٤ — ١٣٠٧هـ ش لوجدنا أن اسم عمر ذكر خلاله ست عشر مرة .

(٣) المترجم : نص هذا البيت بالفارسية كما ورد فى طبعة طهران ص ١٠١ هو :

عمر اندرسقرت جاى دهد بى شك اگر   بروى بر ره اينها كه رفيق عمرند

(٤) المترجم : أصل هذين البيتين كما جاء فى ص ٤١٦ من طبعة طهران هو :

دلتنگ مشو بدانكه در يمگان   ماندى تنها وگشته زندانى

از خانه عمر براند سلمان را   امروز برين زمين تو سلمانى

— فقد أخرج عمر سلمان من دياره ، وأنت الآن سلمان هذه الديار ...!!

ويقول فى صفحة ٢٦٢ :

— وكيف يجوز لى أن أكثر اللجاج والمجادلة فى شأن عمر وأبى بكر ...!![1]

وشبيه بذلك مايقوله فى صفحة ٢٤١ بشأن «عائشة» و «فاطمة» :

— كانت عائشة زوجة لوالد فاطمة ، وأنت بالنسبة لى من شيعة زوجة الأب

— فياسىء الطالع ...!! مادمت من شيعة زوجة الأب ، فمن الطبيعى أن تكون عدوا لابنة الزوج ... !! [2]

والشاعر يبالغ فى إطراء «على» وشيعته و «فاطمة» و «الأئمة» و «الأئمة الفاطميين» وخاصة «المستنصر» و «سلمان الفارسى» و «المختار» الذى انتقم لموقعة «كربلاء» . أما الخليفة العباسى فيذكره الشاعر باسم «الشيطان العباسى أو ديو عباسى» كما ورد فى ص ٢٦١ . وهو يذم أهل السنة ويسميهم «الناسبيين» ، كما يتحدث عن ثلاثة من أئمة المذاهب السنية وهم «أبى حنيفة» و «مالك» و «الشافعى» فى الصفحات ١١٥ و ١١٩ و ٢٠٩ فيقول إنهم يجيزون لعب الميسر وشرب الخمر وغير ذلك من الآثام ؛ وهو يزدرى فقهاء أهل السنة ويذكرهم بامتهان فى الصفحات ٥٨ و ٨٢ و ١٨١ ؛ ويعرض أحيانا (فى الصفحات ٩٥، و ٢٣٧ و ٦٤). لذكر ثلاثة من مشايخ الصوفية هم «بايزيد البسطامى» و «ذو النون المصرى» و «إبراهيم بن أدهم» ولكنه يطريهم ويمدحهم . أما الحكام المسلمون فيذكر من بينهم «السامانيين» فى صفحة ١٩١ ويقرن ذكرهم بذكر «الجماعة المستذلين المستضعفين» (قومى زيردستان) إشارة فيما يظن إلى ملوك الغزنوين الأرقاء الذين أعقبوهم على حكم خراسان . وهو يشير كذلك (صفحة ٧) إلى «آل فريغون» أو الأسرة الأولى من ملوك خوارزم المعروفين باسم الـ «خوارزمشاه» ، ويذكر

---

(١) المترجم: هذه ترجمة الشطرة الأولى من البيت التالى الوارد فى ص ٢٩١ من طبعة طهران:

هيچ با بو بكر وبا عمر لجاج نيست امروز ونه روز محشرم

(٢) المترجم : أصل هذين البيتين كما جاء فى ص ٤١٦ من طبعة طهران هو :

فاطمه را عايشه ما يندر است پس تو مرا شيعت ما يندرى

شيعت مايندرى اى بد نشان شايد اگر دشمن دختندرى

« طغرل السلجوقى » فى صفحة ١٤٣ . ويذكر كذلك «محموداً الغزنوى » أربع أو خمس مرات ، وقد وردت بديوانه (فى صفحة ٢٦٣) إشارة واحدة إلى الوزير السامانى «أبى الفضل البلعمى » الذى ترجم تاريخ الطبرى الى الفارسية .

وفيما عدا الإسلام يذكر «ناصرخسرو» من الأديان الأخرى ما يأتى :

يذكر « اليهود » فى الصفحات ٥٣ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١٣٨

ويذكر « المسيحيين » فى الصفحات ١٤ ، ١٥ ، ٦٧ ، ٢٤٢

ويذكر « المجوس » فى الصفحات ٥٢ ، ٧٠ ، ٧٩

ويذكر « الهنود » فى صفحتى ٣٣ ، ٢٠٤

ويذكر « الثنويه» فى صفحتى ٢٨ ، ٢٧٥ .

ويذكر « المانوية » فى صفحتى ١١١ ، ٢٦٩

ويذكر « الصابئة » فى صفحة ١١١

ويذكر « الزنادقة » فى صفحة ٥٨

ويذكر « الفلاسفة » فى صفحتى ١١١ ، ٢١٦

أما أصحاب المذاهب الإسلامية ، فيما عدا من سبق لنا ذكرهم من « الحنفية » و«المالكية» و «الشافعية» وغيرهم ، فيذكر منهم « الحرورية » و « الكرامية » و « الليالية » (ص ٢٣٩) كما يذكر « القرامطة » فى ص ٢٥٤ . وهو يستعمل لفظ « الباطنى » استعمالا حسنا فى مقابل لفظ « الظاهرى » ؟ أما « الملحد » فيعرفه الشاعر فى صفحة ١١٨ بأنه الرجل الذى يريد أن يتعمق فى فهم العقائد الدينية . ويبدو مما جاء فى بعض أشعاره أنه كان ملما بمحتويات « الإنجيل » ومما يؤيد ذلك العبارات الإنجيلية الآتية التى وردت فى أقواله مثل :

كمن يلقى بالجواهر أمام الخنازير (ص ١١)

أجب الجاهل بقدر جهالته (ص ٦٧)

لقد نضب الزيت فى سراجك (ص ١٣٨)

أنا ذاهب إلى الأب (ص ١٣٩).

ستخرج من الدنيا عاريا كما دخلتها عاريا (ص ١٤٥)

ونستطيع أن نستخلص من الديوان كثيرا من الأمور التى رواها الشاعر عن حياته بالإضافة إلى ما ذكرناه منها آنفا . وأغنى القصائد فى هـذا الصدد هى قصيدته السادسة والسبعين التى ذكرفيهاتاريخ ولادته . وهو يحدثنا فىالديوان (صفحة ١١٢) عن رغبته الجامحة فىإدراك المعانىالباطنية للأوامر الدينيه ؛ ويشكرالله فى (صفحة ٥) على هدايته إلى اتباع الحق ؛ ويشـير (فى صفحة ٩١) إلى أن اعتناقه للمذهب الإسماعيلى إنماحدث فى فترة متأخرة من حياته ؛ ويصف لنا (فى ص ١٨٢) مراسم إدخاله فى مـذهب الإسماعيلية ويمين الولاء التى أقسمها (ص ١١١ — ١١٢) وكيف أنه أصبح مكروها بسبب حبه لأهل البيت (ص ٦) وكيف أن أهل السنة يضطهدونه (ص ٢٢ ، ١٢٧ ، ٢٢٧) ويتهمونه بأنه شيعى (ص ٢٢٣) ورافضى (ص ١١٥) وملحد ، وكيف أنهم يلعنونه على المنابر (ص٢٢٣) . ولا يستطيع أحد أن يذكر إسمه على لسانه . وهو يتحدث عن نفسه بأنه «حجة خراسان» (ص ٣٣) ؛ وأنه «حجة المستنصر » (ص ٢٣٩) ، ويشير أحياناً إلى غيره من «الحجج» وأنه يعتبر واحداً من نقباء الإسماعيلية الإثنى عشر (ص ٢٠٩) ؛ ويلقب نفسه بأنه «مختار على» (فى صفحة ١٥٩) وأنه «أداة الإمام المختارة» (فى صفحتى ١٥٨ ، ١٦٢) ويفخر بعد ذلك بحياة الزهد والعفاف التى عاشها (انظر صفحتى ٩ ، ٢٥٢) وبمقدار العلوم التى حصلها (الصفحات ٥ ، ١٠ ، ١٢٧ ، ١٥٨) وبمقدار الآداب والأشعار التى برّز فيها (انظر صفحتى ٢٢ ، ٨٠) ؛ ثم يشير إلى كتبه الكثيرة (الصفحات ٥،٩،٢٣٣) وإلى أشعاره العربية والفارسية (صفحة ١٧١) وإلى كتابه المعروف بـ «زاد المسافرين» (صفحة ١٩٥)؛ ولـكن ما أقل الأخبار التى رواها عن ذوى قرابته ، وإن كنا نصادف إشارات عابرة عن ابنه (انظر صفحتى ٦ ، ١٨٥) وعن والده ووالدته وأخيـه (صفحة ٢١٩) .

آراؤه الدينية :

وآراؤه الدينية والفلسفية مصورة أبدع تصوير فى ديوانه ، وهى تعتبر فى حقيقة الأمر المدار الأصلى الذى تدور عليه سائر اشعاره ، ويمكن إجمال الحديث عنها بأنها جميعاً أفكار إسماعيليه أو باطنية صميمة . وهو يمعن إمعاناً فى إتباع مذهبهم

المعروف بمذهب «التأويل» ، ويقول إنه بغير التأويل يصبح نص القرآن غير مستساغ الطعم شبيهاً بمـاء البحر الأجاج (صفحة ٣) ويختفى معناه كما تختفى المياه فى كومة من التبن والقش . وقد اتبع هذا المذهب فى تفسير «الجنة» و «الجحيم» و «يوم القيامة» و «عذاب القبر» و «المسيخ الدجال» و «شروق الشمس من المغرب» ، وقال إن تفسيرها على هذا النحو واجب وضرورى (صفحة ٣٩) بل هو أساسى لفهم الدين وروحه (صفحة ٣٣) ولم يعهد الله لأحد بالمفاتيح التى يفتح بها هذه المغلقات إلا لأئمة أهل بيت الرسـول (الصفحات ١٢ ، ٣٠ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ١٢٤ ، ١٤٢) فهم وحدهم المؤتمنون عليها (صفحة ٤) وهو يقـول أيضاً إن « التنزيل » واجب وضرورى (ص ٢٩) وإن اللغة العربية اكتسبت مجدها الخالد من كونها لغة القرآن والتنزيل (صفحة ٢٤٩) ومع ذلك فلا فائدة من ترديد القرآن كما تفعل الببغاوات (صفحة ٢١٤) ولا جدوى من تقى لا يصحبه فهم وإدراك (صفحة ٣٧) ومرتبة العلم عالية رفيعـة ولـكنه مع ذلك خادم للـدين (انظر صفحتى ١٥٠ ، ٢٣٥) والدين بدوره روح العالم وريحانه (صفحة ١٨٨) ولاوجود لشىء فى الـكون إلا لله (صفحة ١٩٣) وهو لا يعرف التأبيد ولا التوقيت (صفحة ١٦٦) وكل الظواهر ماهى إلا أصداء من وجوده (صفحة ١٠٦) ومع ذلك فهى مشحونة بالمعانى والدلالات (ص ١٩٧) لأن العقل الـكلى كامن فيها (ص ١٤) والإنسان هو وحدة الوجود (٢٣٢) ولاحدّ للزمان والمـكان ، وليس للسماوات نهاية أو زوال (صفحة ٤) ومع ذلك فالعالم زائل وليس أبديا (صفحة ١٢ ،٣٩ ، ٤٠) وفيما يلى مثلان من أقواله يُؤيدان ترجيحه لمذهب « الاختيار » وعدم أخذه بمذهب « الجبر » .

يقول فى صفحة ٥٦ :

— إن الله يخلق الأم والثدى واللبن

ولـكن الطفل عليه أن يمتص اللبن من ثدى أمه ... !! (١) .

---

(١) المترجم : نص هذا البيت وارد فى صفحة ٩٤ من طبعة طهران هكذا :
گرچه يزدان آفريند مادر وپستان وشير كودكان را شير مادر خود همى بايد مكيد

ويقول فى صفحة ١٤٩

— إن روحك هى السجل ، وأعمالك هى الـكتابات التى تـكتب فى هذا السجل
فلا تسطر فى سجلك إلا كل ماعز وجل

— وا كتب فى كتابك كل طيب وجميل من أعمالك
فالقلم .. يا أخى ... طوع لما تخطه يدك ويكتبه بنانك ... !!

وهو يقرر أن الخلفاء الفاطميين هم وحدهم الخلفاء الشرعيون للمسلمين (ص ٢١٠) وهم الحفظة للجنة (ص ٢١٣) وفى كل بقعه من بقاع الأرض «باب» للامام (ص ٧٧)

وهناك إشارات كثيرة للعدد « سبعة » (أنظر صفحتى ٨٨ ، ١٣١) ولمذهب «الأساس» وهو من صميم عقائد الاسماعيلية (الصفحات ١٧٦ —١٧٨) ويجدر بنا فى النهاية وقبل أن نعرض لأمثله مترجمة من أشعاره أن نشير إلى أن «ناصرخسرو» كان يزدرى الملوك ازدراءا شديدا (ص ٦) ويزدرى ملازميهم من الحاشية (صفحتى ١٥١ ، ٢٣٠) ، ويحتقر كذلك مداحيهم من الشعراء والـكتاب (الصفحات ٧ ، ١١ ، ٨٠، ١٢٤، ١٤١ ، ١٤٤) بل وكل اديب (ص ٢٢٨) وعلى الخصوص شعراء الغزل (صفحات ١٠٨ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٧١)

مترجمات من أشعاره

وفيما يلى مائة بيت ترجمناها [١] من أشعاره ، اخترناها من القصائد الخمس الأولى من ديوانه ، أى من الصفحات العشر الأولى منه ، وقد راعينا أن نضع نقطا صغيره فى مكان الأبيات التى أسقطناها من الأصل :

---

(١) المترجم : عدد الأبيات هو تسعة وتسعون بيتا على وجه الدقة

المثل الأول (صفحة ٢ — ٤ من طبعة تبريز) [1]

— أن كلام هو الله بحار الكلام الزاخرة
قد امتلأت بالجواهر الكريمة واللآلىء الباهرة ...!!

— وظاهر « التنزيل » مالح كماء البحر المرير
ولكن باطن « التأويل » حلو كاللآلىء لدى أصحاب التفكير ..!!

— والجواهر واللآلىء مستقرة فى جوف البحر وأعماقه
فلا تقنع بالسير على شواطئه ، والتمس غواصا ماهرا يصل إلى أعمق أطباقه

— وهل تعرف لأى سبب وضع الله فى قاع البحر والماء
مثل هذه الجواهر واللآلىء ذات الرونق والبهاء ..؟!

— وضعها هكذا لأجل «الرسول» وكأنما قال له : هذا المثل واجب الاحتذاء
فاعط «التأويل» للحكماء واعط «التنزيل» للغوغاء ...!!

— وإذا لم يعطك الغواص غير العكر والماء المالح والطين
فلأنه لم ير منك غير الحنق والكره والعداء الدفين

— فاطلب المعنى الحقيقى لظاهر «التنزيل» وكن كالرجال الأصفياء
ولا تكن كالحمير ، فتقنع بالنهيق والأقوال الهراء ...!!

— وهاك «دارا» صاحب الخيل والحشم
قد غادر الحياه مجردا وحيدا ، بلا خيل ولا خدم ...!!

---

(١) المترجم : أنظر صفحة ٣ من طبعة طهران سنة ١٣٠٤ــ١٣٠٧ الهجرية الشمسية ونص لأبيات كما يلى :

دريای سخنها سخن خوب خدايست — پر گوهر باقيمت وپر لؤلؤ لالا
شور است چو دريا بمثل ظاهر تنزيل — تأويل چو لؤلؤست سوی مردم دانا
اندر بن درياست همه گوهر ولؤلؤ — غواص طلب كن چو روی بر لب دريا
اندر بن شوراب ز بهر چه نهاد است — چندين گهر ولؤلؤ ارزنده وزيبا
از بهر پيمبر كه بدين صنع ورا گفت — تأويل بدانا ده وتنزيل بغوغا
غواص ترا جز گل وشوراب نداد است — زيرا كه نديد است ز تو جز معادا
معنی طلب از ظاهر تنزيل چو مردم — خرسند مشو همچو خر از قول بآوا
دارا كه هزاران خدم وخيل وحشم داشت — بگذاشت همه پاك وبشد با تن تنها =

— والزمان ألعوبة خاطفة تلتقف جميع الأنام
ولا ينجو منها أرفع الأسياد ولا أحقر الخدام ... !!
— وبعد ذلك اليوم ، لا يستطيع فرد من الكماة
أن يجد لدى الحاكم العادل ملجأ أو منجاة ...!!
— وينال جميع الناس ما يستحقون من مجازاه
ويستوى فى ذلك الظالم والعادل بغير محاباه .. !!
— وفى ذلك اليوم سأتقدم فى وسط الهول والفزع والدعاء
فأتعلق أمام الشهداء ، بأذيال الزهراء (أى فاطمة الزهراء)
— حتى ينتصف لى الله من أعداء أولاد الرسول
ويعطينى حقى كاملا ، وأنال منه الرضا والقبول ....!!

المثل الثانى (ص ٤ — ٥ من نسخة تبريز) (١)

— كيف يمكن للسماء أن تجود عليك بالراحة والاستقرار
بينما هى نفسها لا تعرف الراحة ولا السكينة ولا القرار ...!!
— يا سيدى ... إن هذا العالم سلم للعالم الآخر وساحته
فإذا شئت بلوغ النهاية فعليك أن ترقاه إلى غايته ...!!
— وتأمل مليا فى هذا الفلك الدائر وهذه الأرض الساكنة
ففيها صنعة عالم الغيب ، وحكمته البالغة الكامنة ...!!

بازيست رباينده زمانه كه نيابد زو خلق رها هيچ نه مولا ونه مولا
روزيست از آن پس كه در آنروز نيابند خلق از حكم عدل نه ملجأ ونه منجا
آنروز بيابند همه خلق مكافات هم ظالم وهم عادل بى هيچ محابا
آنروز در آن هول وفزع برسر آنجمع پيش شهدا دست من ودامن زهرا
تا داد من از دشمن أولاد پيمبر بدهد بتمام ايزد دادار تعالى

(١) المترجم : يقابلهما صفحة ٥ فى نسخة طهران ونص الأبيات المترجمة كما يلى :
چگونه كند با قرار آسمانت چو خود نيست ازين قرار آسمانرا
سرا آنجهان نردبان اينجهانست بسر بر شدت بايد اين نردبانرا
درين بام گردان واين بوم ساكن ببين صنعت وحكمت غيبدانرا

وتأمل كيف أمكنه بغير حاجة ولا معونة من أى قبيل
أن يجعل الروح الخفيفة قرينة لهذا الجسد الثقيل ...!!
— وكيف استطاع أن يعلق فى قبه الفلك الخضراء
هذه الكرة الكبيرة المعتمة السوداء ...!!
— وما هذا الذى تقوله ...؟ من أن هذا الفلك الدائر المكين
سيبليه ما لا يمكن حصره من الأيام والسنين ..!!
— كلا ... فهذا الفلك غير قابل للبلى والزوال
لا هو .. ولا الرياح الذارية ... ولا الماء الجارى الزلال ...!!
— والمكان والزمان ... كلاهما دليل على قدرة الرحمن
ومن أجل ذلك ، ليس للمكان حد ... ولا للزمان ...!!
— ولو أنك قلت لى : إن هذا لا يوجد فى القرآن
لقلت لك إنك لم تحسن فهم معانى الفرقان ...!!
— وقد جعل الله خازنا وحارسا على القرآن
وأحال إليه جميع الخليقة من إنس وجان ...!!
— ولكنك بدل أن تتبع من اختاره الله والرسول
فضلت أن تتابع فلانا وكل إمعة مجهول ... !!
— فهلا تحققت أن زاد الإنسان لا يليق إلا للرجال والأصحاب
وأن طعام الكلاب لا يليق إلا للكلاب ...!!

نگه كن كه چون كرد بى‌هيچ‌حاجت   بجان سبك جفت جسم گرانرا
كه آويخت اندرين سبز گنبد   مرين تيره گوى درشت كلانرا
چه گوئى كه فرسايد اينچرخ گردان   چو بيحد ومر بشمرد سالیانرا
نه فرسودنى ساختست اين فلكرا   نه آب روان ونه باد بزانرا
مكان وزمان هر دو از بهر صنع است   ازين نسيت حدى زمين وزمانرا
اگر گوئى اين در قران نيست گويم   همانا نكو مى ندانى قرانرا
قرانرا يكى خازنى هست كايزد   حوالت بدو كرد مر إنس وجانرا
تو بر آن گزيده خدا وپيمبر   گزيدى فلان وفلان وفلانرا
بمردم شود آب ونان تو مردم   نبيى كه سگ سگ كند آب ونانرا

المثل الثالث (ص ٥ — ٧ طبعة تبريز) [١]

— لو كانت دورة الدهر تجرى وفقا لفضلى ومداه
لما كان لى مستقر إلا على قمة القمر فى علاه ...!!
— ولكن من أسف أن الفلك والدهر لايعرفان قيمة الفضل والصواب
وهكذا قال لى أبى فى وقت الصبا والشباب ...!!
— والعلم خير من الضياع والمال والملك والجاه
وقد أفتانى بذلك عقلى ، كما أفتت به الحياة ..!!
— وخاطرى يزدهى ، أكثر من القمر ، بالنور والضياء
ولا يصلح مقر القمر ... لمقامى .. فى أوج السماء ...!!
— وفى مدافعتى لجيوش الزمان وسيوفه المصلته القاطعة
اكتفى بالدين مجناً ، والعقل ترسا من غوائله الواقعة ...!!
— . . . .
— وفكرى شجرة مورقة طيبة الثمرات
أوراقها العفة ، وثمارها العلم والطيبات ...!!
— وإذا شئت أن تعرف حالى على الحقيقة وفى جلاء
فانظر إلىّ بعين البصيرة ... كما يفعل العقلاء ...!!
— ولا تنظر إلى جسدى الضعيف الواهن ... وانظر إلى أقوالى ذات الرواء
فلى آثار كثيرة ... يزيد عددها على نجوم السماء ...!!

---

(١) يقابله الأبيات الواردة فى ص ٦ — ٧ من طبعة طهران ونصها كالآتى :

كر بر قياس فضل بگشتى مدار دهر   جز بر مقر ماه نبودى مقر مرا
نى نى كه چرخ ودهر ندانند قدرفضل   اين كفته بود كاه جوانى پدر مرا
دانش به ازضياع وبه ازجاه ومال وملك   اين خاطر خطير چنين كفت مرمرا
با خاطر منور روشن تر از قمر   نايد بكار هيچ مقر قمر مرا
با لشكر زمانه وبا تيغ تيز دهر   دين وخرد بس است سپاه وسپر مرا
انديشه مرمرا شجر خوب پرور است   پرهيز وعلم ريزد برگ وبر مرا
گر بايدت همى كه ببينى مرا تمام   چون عاقلان بچشم بصيرت نگر مرا
منگر بدين ضعيف تنم زانكه در سخن   زين چرخ پر ستاره فزونست أثر مرا

ـــ وقد أعفانى الله من كل ماتمس إليه الحاجة والضرورة
وجعلنى فى غنى عن كل شىء أثناء اجتيازى لهذه الحياة القصيرة ...!!
ـــ وشكراً لله ... إنه هدانى إلى طريق العلم والدين
وفتح لى .. على مصاريعها ... أبواب الرحمة واليقين ..!!
ـــ وجعلنى أشهر من الشمس فى أوج السماء
لأنى عرفت بحبى لآل الرسول والأئمة الأصفياء ...!!
ـــ فياجسدى الحقير ... إنك فى هذا العالم نفاية الأشياء
ولم أجد قرينا أسوأ لى منك بين القرناء ...!!
ـــ وقد كنت أظنك دائما من أخلص الخلصاء
ولم يكن لى صديق غيرك فى البر والبحر والأرض والماء ...!!
ـــ ولكنك نصبت لى الشراك ... وناصبتنى العداء
ولم يكن لى علم بما نصبت لى من أحابيل المكر والدهاء ...!!
ـــ فلما وجدتنى غافلا عنك ... مستأمنا لك فى صفاء
قهرتنى بمكرك وغدرك ، وغلبتنى بتلك الوفاء ...!!
ـــ ولو لم تنجدنى رحمة الله ويدركنى فضل الرحمن
لأوقعنى مكرك ، واكتسحتنى حادثات الزمان ...!!

از هرچه حاجتست بدو مرمرا خدای ... کرد است بی نیاز درین رهگذر مرا
شکر آن خدیرا که سوی علم و دین خویش ... ره داد سوی رحمت وبکشاد در مرا
اندر جهان بدوستی خاندان حق ... چون آفتاب کرد چنین مشتهر مرا
ای ناکس ونفایه تن من درین جهان ... همسایه نبود کس از تو بتر مرا
من دوستدار خویش گمان بردمت همی ... جز تو نبود یار ببحر وببر مرا
بر من تو کینه ورشدی ودام ساختی ... وز دام تو نبود أثر نه خبر مرا
تا مر مرا تو غافل وایمن بیافتی ... از مکر وغدر خویش گرفتی سحر مرا
گر رحمت خدای نبودی وفضل او ... افکنده بود مکر تو در جوی وجر مرا

— والآن . . وقد تبين لي أنك خصمي وعدوي الألد
لم أعد استسيغ السكر من يديك أو الشهد ...!!
— وأنت أيها الجسد الجاهل ... ليس لك عمل إلا النوم والطعام
ولكن العقل لدىّ خير من الأكل الطيب وطول النام...!!
— وفي رأي العقلاء أن لا عمل للحمير ... إلا النوم والغذاء
ومن العار أن يكون حالي كالحمار ، مع مالي من عقل وذكاء ...!!
— وأنت يا جسدي... سوف لا أقيم معك في هذه الدنيا الفانية
لأن الله يدعوني إلى داره الثانية ... ! !
— حيث يعتبرون المجد بالأعمال والفضائل ، لا بالنوم والأكل
فليكفك النوم والأكل..وليكفني الفضل والعقل...!!
— وقد ذهب قبلي مالا يعد من الناس والأنام
ومهما طال بقائي..فاعتبرني ممن أودت به الأيام...!!
— وسأطير بجناح الطاعة ذات يوم...فأخرج من هذه القبة العالية
وكأني الطائر يضرب بجناحيه في أطباق الهواء الخالية ...!!
— وجميع الناس يحذرون ضربات القضاء والقدر
ومع ذلك فهما دليلا طريقي في هذا السفر ...!!
— و «القضاء» أسمه «العقل» ؟ و «القدر» أسمه «الكلام»
فبهذا حدثني ، وذكرني، وحد من الرجال العظام ...!!

اكنون كه شد درست كه تو دشمن منی — نیز از دو دشت توانگوارد شه ربر
خواب وخور است كار تو ای بیخرد جسد — لیكن خرد به است زخواب وزخور مرا
كار خر است سوی خردمند خواب وخور — ننگست ننگ با خرد از كار خر مرا
من با تو ای جسد ننشینم در این سرای — كایزد همی بخواند بجای دگر ، مرا
آنجا هنر بكار وفضایل نه خواب وخور — بس خواب وخور ترا وخرد با هنر مرا
چون پیش من خلایق رفتند بیشمار — گرچه دراز مانم رفته شمر مرا
روزی بپر طاعت ازین گنبد بلند — بیرون پریده گیر چو مرغ بپر مرا
هر كس همی حذر ز قضا وقدر كند — وین هر دو رهبرند قضا وقدر مرا
نام قضا خرد كن ونام قدر سخن — یاد است این سخن ز یكی نامور مرا

— وقد أصبح عقلي ونفسي أفصح من يحدثني الآن بأمري
فلم الحذر والخوف من نفسي ، وما يجيش به صدري ...؟!

— ويا من قنعت من القضاء والقدر بالاسم والكلام
إذا ظننت نفسك دابة .. فلا تظنني أيضا من الأنعام...!!

المثال الرابع (ص ٧–٨ من طبعة تبريز) (١)

— يا رياح الصبا .. ! تحملي مني إلى « خراسان » السلام
إلى أهل الفضل والعقل منها . . لا إلى العوام والطغام ..؟!

— وكما حملت أخباري الصحيحة إليهم
إحملي إليّ ثانية أخبارهم ، وحدثيني عنهم ...!!

[٥٥] — وقولي لهم : إن الدنيا قد حنت عودي المستقيم
وحطمتني بمكرها المعروف وغدرها اللقيم . .!!

— فحذار أن تدع عهودها توقعك في الغرور والآثام
فإنها لا ترعى لأحد عهدا .. ولا تعرف الوفاء والدوام ... !!

— . . . .

— وانظر إلى خراسان ، وكيف صارت كالطاحون
ووقعت في يد هذا وذاك ... وتناوبها المتناوبون ... !!

واكنونكه عقل ونفس سخنگوى خود منم   از خويشتن چه بايد كردن حذر مرا
اى گشته خوش دلت ز قضا وقدر بنام   چون خويشتن ستور گمانى مبر مرا

(١) المترجم: يقابله ص ٨ – ١٠ من طبعة طهران ونص أبيات الاستشهاد كما يلي :

سلام كن ز من اى باد مر خراسانرا   مر اهل فضل وخردرا نه عام ونادانرا
خبر بياور از ايشان بمن چو داده بوى   ز حال من بحقيقت خبر مر ايشانرا
٥٥ بگويشان كه جهان سرو من چو چنبر كرد   بمكر خويش خود اينست كار گيهانرا
نگر كتان نكند غره عهد وپيمانش   كه او وفا نكند هيچ عهد وپيمانرا
. . . .
نگه كنيد كه در دست اين وآن چو خراس   بچند گونه بديديد مر خراسانرا

— فلماذا غرورك بملك الأتراك السلجوقيين ...!؟
واذكر محمودا وجلال دولته فى «زابل» أيام الغزنويين ... !!
— وأين الذى خشى بأسه « الفريغونيون » ؟
فتركوا له «جوزجانان» وأعطوها له طائعين .!
— وقد حطمت حوافر خيوله « الهندستان »
بينما وطئت أقدام أفياله بلاد «الختلان» !!
— . . . .
— وأنتم أيها المخادعون ... لطالما أتيتم أمامه قائلين :
ليطل عمر السلطان .. وليبق آلاف السنين ....!!
— فإن من يعتمد على عظمة دولته ، وينوى تحطيم السندان
يجد السندان كالشمع بين أسنانه ، قد ذاب ولان ...!!
— وقد كانت « زابل » بالأمس قبلة الأحرار
وكان حالها كحال « الكعبة » بالنسبة لأهل الإيمان والأخيار ..!!
— فأين الآن ذلك الرجل ، وما كان له من جلال وجاه ..؟
وقد كان يرى ... تحت موطىء أقدامه ... برج السرطان فى علاه ...!!

بملك ترك چرا غره ايد ياد كنيد　　جلال ودولت محمود زاولستانرا
كجاست آنكه فريغونيان ز هيبت او　　ز دست خويش بدادند گوزگانانرا
چو هندرا بسم اسب ترك ويران كرد　　بپاى پيلان بسپرد خاك ختلانرا
. . . .
شما فريفتگان پيش او همى گفتيد　　هزار سال فزون باد عمر سلطانرا
بفر دولت او هركه قصد سندان كرد　　بزير دندان چون موم يافت سندانرا
پرير قبله أحرار زاولستان بود　　چنانكه كعبه است امروز أهل ايمانرا
كجاست اكنون آن فر وآن جلالت وجاه　　كه زير خويش هميديد برج سرطانرا

(١) الفريغونيون او آل فريغون هم الأسرة الأولى من حكام خوارزم . يقول رضا قلى خان فى معجمه «فرهنگ ناصرى» : أن فريغون على وزن فريدون أسم لرجل استطاع تولى الحكم فى خوارزم وبقى الملك فى أولاده وأحفاده ويعرفون بـ« آل فريغون » وهم حكام خوارزم ومن بينهم على بن مأمون الفريغونى وهو من المعاصرين للسلطان محمود الغزنوى ومن أنسبائه وقد قتله بعض غلمانه فأتى السلطان محمود إلى خوارزم وأمر باعدام قاتليه (انظر أيضا تاريخ اليمينى للعتبى طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ جزء ٢ ص ١٠١ — ١٠٥)

— وها هو الآن قد انتثرت أنامله ، وبليت أنيابه الناصعة
حينما انقض عليه الموت بأنيابه ومخالبه القاطعة ...!!

— . . . .

— وإذا سهلت الأمور ... فاخش الشدائد والنكبات
فسرعان ما يجعل الفلك أسهل الأمور من أصعب العقبات ...!!
— ومتى غضب الزمان فإن سورته كفيلة فى دورانه
أن تخرج « القيصر » من « قصره » و « الخان » (١) من «خوانه»
— ولم يقدر للقمر الوضاح ... والشمس ذات الضياء
أن يكونا بمنجاة من الخسوف والكسوف فى كبد السماء ...!!
— وكل شىء مهما هان أو رخص وقلت قيمته
فلا تحقر أمره ، واعتبره غاليا ... فربما زادت بهجته ...!!
— واطلب أواسط الأمور ولا ترغب فى الوصول إلى الكمال
فإن القمر متى تم أخذ فى النقصان والزوال ...!!

— . . . .

— وإذا أسكرت الدنيا بشرابها جموع الخلق والأنام
فتجنبهم .. كما يتجنب الفيق ... من لعبت برأسه المدام ...!!

بريخت چنگش وفرسوده گشت دندانش   چوتيز كرد بر او مرگ چنگ ودندانرا
. . . .
بترس سخت ز سختى چوكار آسان شد   كه چرخ زود كند سخت كار آسانرا
برون كند چو در آمد بخشم گشت زمان   ز قصر قيصر واز خوان خويشتن خانرا
برآسمان ز كسوف سيه رهايش نيست   مر آفتاب درخشان وماه تابانرا
زچيزهاى جهان هرچه خوار وارزان شد   گران شده شمر آنچيز خوار وارزانرا
ميانه كار همى باش وبس كمال مجوى   كه مه تمام نشد جز ز بهر نقصانرا
. . . .
اگر شراب جهان خلق را چو مستان كرد   تو شان رها كن چون هوشيار مستانرا

(١) الخان بمعنى الملك ، والخوان مستعمله فى العربية بمعنى السماط أو المائدة ، ويقصد بها هنا القصر الكبير الذى تمد به الموائد الفخمة

— وانظر كيف تهلك الطواويس بما ينصبون لها من شباك الحيلة
لـكى يحصلوا على ريشاتها البهيجة الجميلة ....!!

— . . . .

— والجسد هو قيدك ، والدنيا هى سجنك المقيم
فحذار إن تحسب مقرك فى هذا القيد وهذا المحبس الأليم ....!!
— وقد ضعفت روحك ، وأصبحت ... من العلم والطاعة ... خالية
فاجتهد فى العلم ، واكس به روحك الضعيفة العارية..!!

— . . . .

[٧٥] — ودنياك هى الحقل ، وكلامك هو البذر ، وروحك هى الدهقان
ويحب على الدهقان أن يشتغل دائما بزراعة هذا الحقل والمكان ....!!

— . . . .

— ولم لا تجتهد الآن ... والربيع يملأ أطباق الهواء
فى أن تحصل على رغيف صغير تستعين به إذا أقبل الشتاء ....!!

— . . . .

— وقد أصبح نصيبى من العمر وحظى من الزمان
أن أصوغ أشعارى فأنظمها عقدا من الذهب واللؤلؤ والمرجان ...!!

نگاه کن که بحیات همه هلاك کنند ز بهر پر نـکو طاوسان پرانرا

. . . .

ترا تن چه بنداست واین جهان زندان مقر خویش مپندار بند وزندانرا
ز علم وطاعت جانت ضعیف وعریانست بعلم کوش وبپوش این ضعیف عریانرا

. . . .

٧٥ جهان زمین وسخن تخم وجانت دهقانست بکشت باید مشغول بود دهقانرا

. . . .

ترا کنون که بهار است جهد آن نکنی که نانکی بکف آری مگر زمستانرا

. . . .

ز عمر بهره همین گشت مر مرا که بشعر برشته میکشم این زر ودر ومرجانرا

المثال الخامس (ص ٨ — ١٠ طبعة تبريز) (١)

— من الحق ألا يكون لى على أعتاب الملوك مقام ومكان
وألا يكون مقرى إلا على باب الله وأعتاب الرحمن
— وما دمت لا أظلم بأفعالى أحدا من العباد
فهل تنفعنى عظمة العظيم . وهل احتاج إلى أياديه الشداد ...؟!

— . . . .

[٨٠] — وأربعة أشياء هى التى تؤنس روحى طوال الزمان
وهى : الزهد، والعلم ، والعمل ، وترتيل القرآن ..!!
— وعينى ، وقلبى ، وأذنى ، أثناء الليل الطويل
تكرر النصح والموعظة لجسدى الضعيف الهزيل ....!
— فتقول العين : بربك احفظنى من التطلع إلى كل أمر حرام
وصننى من الوقوع فى الشرور والخطايا والآثام ...!!
— وتقول الأذن : أسدد على السبيل ، وأغلق على الطريق
حتى لا استمع للأكاذيب والأباطيل المليئة بالتلفيق ...!!
— ويقول القلب : بربك احفظنى من التردى فى المطامع والأهواء
وصننى من نزعات الهوى ... كما يفعل الرجال الأصفياء ..!!

---

(١) المترجم : يقابلها الصفحات ١١ — ١٣ من طبعة طهران ونص الأبيات كما يلى :

شايد اگر نيست بر در ملكى جز بدر كردگار بار مرا
چون نكنم بر كسى ستم كه نبود حشمت آن محتشم بكار مرا
. . . .

٨٠ خواندن فرقان وزهد وعلم وعمل مؤنس جانند هر چهار مرا
چشم ودل وگوش هريكى همه شب پند دهد با تن نزار مرا
چشم هميگويد از حرام وحرم بسته هميدار زينهار مرا
گوش هميگويد از محال ودروغ راه بكن سخت واستوار مرا
دل چكند گويدم همى ز هوا سخت نگهدار مردوار مرا

— وأما العقل فيقول لى : لقد وكل الله إلىّ أمر روحك وجسدك
وجعلنى مسيطرا عليك ، وموكلا على شأنك ...!!
— ولا شأن لك بجيوش المطامع والأهواء ،
فأنا الموكل على محاربتها لألتمس لك النجاء . . . ! !
— وكيف أستطيع أن أخرج رأسى من أنشوطة العقل الدّراك .. ؟!
وقد فضلنى الله على الحمير بالتميز والعقل والإدراك ..!!
— وقد ربط « الشيطان » رأسى إلى قطاره وقافلته
ولكن « العقل » هو الذى خلصنى من ركابه ومتابعته ...!!
— ولو لم يدركنى « العقل » ليأخذ بأعنتى من يد الشيطان
لاستمر « الشيطان » ممسكا بزمامى ، قابضاً على العنان . . . ! !
— وهذه الدنيا مغارة ضيقة شديدة الحلوكة والظلام ،
وحسبى منها أن يكون « العقل » هو رفيقى فى هذا الغار والمقام [١] . .
— ويا ولدى . . . ! ! حذار أن تشكو من الدهر ودورانه
فما أكثر النعم التى نلتها من تسياره وجريانه . . . ! !
— ولطالما طوفت به وأكثرت من التجوال ...!!
ولم يكن لى معين على الطواف إلا اللسان والحديث والأقوال . . . ! !

عقل همی گویدم موکل کرد بر تن وبر جانت کردکار مرا
نیست ز بهر تو با سپاه هوا کار، مگر حرب وکارزار مرا
سر ز کمند خرد چگونه کشم فضل خرد داد بر حمار مرا
دیو همی بست بر قطار سرم عقل برون کرد از آن قطار مرا
گرنه خرد بستدی مهارم ازو دیو کشان کرده بد مهار مرا
غار جهان گرچه تنگ وتار شداست عقل پسند است یار غار مرا
هیچ مکن ای پسر زدهر گله کز وی شکر است صد هزار مرا
هست بدو گشتم وزبان وسخن هر دو بدین گشت پیشکار مرا

(١) يشير الى « غار نور » وهو الذى نزل به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعه «أبوبكر » فاختفيا فيه ممن كانوا يطلبونهما بعد هجرتهما من « مكة » وقد سمى «أبوبكر» من أجل ذلك بـ « رفيق الغار » وأصبح هذا التعبير يدل على كل صديق مخلص أمين .

— وها هو الدهر يقول لى : إننى مقبل على السفر والارتحال ،
فحذار أن تضيق على الضم والعناق ... وانفض منى الأذيال . . . ! !
— وقد كان «العقل» دليلى ومرشدى فى هذه الديار ؛
حتى جعلنى أتميز بالحكمة وأفوز بالاشتهار ...!!
[٩٥] — ووضع « العقل » على رأسى تاج التقوى والدين
وزيننى « الدين » بالفضل وزودنى بالحق واليقين .. !!
— . . . .

— وكيف يمكننى ألا أجعل روحى القربان والفداء ...؟!
لمن يسهل حسابى يوم الحشر واللقاء . . ! !
— ولا غرو إذا أضحت الدنيا الآن صيدى الحلال
فلطالما كنت صيداً لها ووقعت فى الحبال . . . ! !
— وهى إذا استطاعت أن تردى سائر الناس والأنام
لا تستطيع أن تصيبنى بالجراح والآلام . .. !!
— فقد أضحت روحى أرفع من الدهر وحادثاته
ومن أجل ذلك لست أخشى وقعاته وضرباته . . ! !

وقد كان بودى أن يسمح لى المجال بذكر أمثلة أخرى من ديوان « ناصر خسرو » فإنه يزخر بالأمثلة التى تكشف عما انطوى عليه هذا الشاعر من إبداع وعلم

دهر همیگویدم که بر سفرم — تنگ مکش سخت در کنار مرا
پیشرو عقل بود تا بجهان — کرد بحکمت چنین مشار مرا
٩٥ بر سر من تاج دین نهاده خرد — دین هنری کرد و برد بار مرا
. . . . — . . . .
چون نکنم جان فدای آنکه بحشر — آسان گردد بدو شمار مرا
لاجرم اکنون جهان شکار من است — گرچه همیداشت او شکار مرا
گرچه همی خلق را فگار کند — کرد نیارد جهان فگار مرا
جان من از روزگار برتر شد — بیم نیاید ز روزگار مرا

وأمانة وحماس ديني واحتقار للمنافقين والخادعين وشجاعة منقطعة النظير ، لا نكاد نصادفها – فيما أعلم – في أي شاعر فارسي آخر . وأود بصفة خاصة أن ألفت نظر قراء الفارسية إلى قصيدته الرائعة الرقيمة ١٠٢ المنشورة في صفحتي ١٤٦ و١٤٧ من ديوانه طبع تبريز . وقد كان بودي أن أنقل إليهم ترجمتها لولا أنها – لسوء الحظ – مشحونة بالمصطلحات الفنية المتعلقة بمراسم الحج بحيث يصعب ترجمتها أو فهمها مالم يستعان على ذلك بقدر كبير من الشرح والتفسير . وقد أخذ « ناصر خسرو » في هذه القصيدة يصف خروجه لاستقبال الحجاج الراجعين من مكة وترحيبه بمقدم صديق بينهم ؛ فلما تبادل الصديقان تحية اللقاء قال « ناصر خسرو » لصاحبه :

— خبرني . . . كيف مجدت هذا « الحرم » المقدس . . . ؟!

وعلى أي شيء عقدت نية « التحريم » عندما لبست ملابس «الإحرام» . ؟

وهل حرمت على نفسك الخطايا بأنواعها وكل ما يفصل بينك وبين الله . ؟

وأجابه صاحبه بالنفي ، فالتفت إليه « ناصر خسرو » واستمر يقول :

— ألم تسمع صوت الله عندما أخذت في «التلبية» وألم تجب كما أجاب موسى ربه . . ؟

وأجاب صاحبه ثانيه بالنفي ، فاستمر « ناصر خسرو » يقول :

— وعندما وقفت على جبل عرفات وأخذت في السعي ، ألم تصبح « عارفاً » بالله ومنكراً لذاتك . ؟ وألم تصل إلى مشامك نفحة من نفحات المعرفة . . ؟

وأجاب صاحبه مرة ثالثة بالنفي ، واستمر « ناصر خسرو » على هذا المنوال يسأله عن مدى فهمه للمعاني الرمزية التي تنطوي عليها مراسم الحج ، واستمر صاحبه يجيب بالنفي حتى انتهى «ناصر خسرو» إلى قوله :

— « اعلم إذن . . يا صديقي . . أنك لم تؤد الحج بمعناه الصحيح ، ولم تصل إلى مقام إنكار الذات ، وكل ما فعلت أنك ذهبت إلى « مكة » وعدت منها بعد ما تجشمت مشاق الطريق ووعثائه لقاء ما أنفقت من مال ودراهم ، فإذا شئت بعد الآن أن تؤدي فريضة الحج فما عليك إلا أن تسترشد بما علمتك وأن تتبع ما أخبرتك به » .

ولاشك أننا نصادف فى هـذه الطريقة مثلا رائعاً لتطبيق المـذهب الإسماعيلى، المعروف بمذهب « التأويل » أو التفسير الرمزى لمعانى القرآن .

أشعار الإلحاد المنسوبة إلى ناصر خسرو

وعلى النقيض من أشعار التقوى والصلاح التى تملأ الديوان ، نجد أن جملة من الأشعار التى تمتاز بحرية التفـكير حتى تبلغ مبلغ الإلحاد ، توجد فى نسخة الديوان المطبوعة على الحجر ، وكذلك فى أكثر النسخ المخطوطة التى تنسب إلى « ناصر خسرو » . وهذه القطع معروفة جداً فى إيران حتى أيامنا الحاضرة ؛ وتشتمل عليها بعض المخطوطات التى تتضمن آثاره الشعرية ، وقـد ترجمت فى صفحة ٤٨٠ من كتابى « سنة بين الفرس » قطعتين من أشهر هذه القطع ، ويسرنى أن أعيد نشرهما فى هذا المـكان. فأما القطعة الأولى فواردة فى المقالة القصيرة التى كتبها « جامى » عن « ناصر خسرو » فى كتابه « بهارستان » وخلاصتها كما يلى :

— يا إلهى ...! أنا من خشيتك لا أستطيع أن اجرؤ فأقول لك
إن جميع هذا البلاء الذى نحن فيه صادر منك ...!!

— ومادام نعلاك خاليين من الحصى والرمال
فلماذا أنظرت « الشيطان » ورضيت بالقبول والاحتمال ... ؟!

— ويا ليتك لم تخلق لفاتنات الترك هذا الحسن والجمال
وتلك الشفاه الحمراء والثغور الناصعة التى تسبى الرجال ...!!

— ولـكنك أنت الذى تأمر الصائد أن يحمل على صيده فى القفار
وأنت كذلك الذى تأمر الصيد أن يسرع إلى الهرب والفرار ...!!

وأما القطعة الثانية فيغلب عليها روح التمرد والشرود ويقول فيها :

— خرج « ناصر خسرو » ليتنزه فى يوم من الأيام
مثقل الرأس ، ولـكن بغير الكاس والمدام ...!!
— فمر بمزبلة إلى جوارها جملة من القبور
فنادته المزبلة وقالت له : لا تنظر إلى فى فتور ...!!

— وتأمل حال الدنيا ... وما أعدت من نعم لضحاياها المساكين

فقد اشتمل جوفى على نعمها ، واشتملت القبور على الآكلين الجاهلين ...!!

وهناك قطعة ثالثة تنسب إلى « ناصر خسرو » وهو يهزأ فيها بفكرة البعث والنشور . وقد أورد «شيفر» هذه القطعة فى مقدمته التى نشرها لكتاب « سفر نامه » ، كما أورد أيضاً بيتين من الشعر قيل إن «ناصرالدين الطوسى» قالهما رداً على هذين البيتين ، وقد سمعت بنفسى هذه القطعة الثالثة ينشدها بعض المنشدين فى إيران ، وخلاصتها كما يلى :

— رأيت فى الفلاة رجلا ، مزقت جسده الذئاب

فنهش النسر لحمه ، وطعم منه الغراب ... !!

— وتبرز النسر ، فتبرز فى قنن الجبال والقفار

وتبرز الغراب ، فتبرز فى قاع الينابيع والآبار ... !!

— فهل يستطيع أن يحيي مثل هذا الرجل فى يوم الحشر والنشور ...؟!

ألا فاهزأ بذقن كل جاهل يقول بإمكان هذه الأمور .. !![1]

وقد رد عليه « ناصر الدين الطوسى » بهذين البيتين[2] :

— نعم أن مثل هذا الرجل سيحيي فى يوم البعث والنشور

ولو تحللت عناصره ، وأصبحت كفتات الشعير ...!!

— فبعثه ليس أصعب من خلقه أول مرة ، وما هو بعسير

فاهزأ بذقن « ناصر خسرو » ذلك الجاهل الحقير . .!!

---

(١) المترجم : فيما يلى نص هذه الأبيات بالفارسية نقلا عن مقدمة « شيفر » :

مردكيرا بدشت كرگك دريد — زو بخوردند كركس وزاغان
اين يكى ريد بر سر كهسار — وآن ديگر ريد در بن چاهان
اين چنين كس بحشرزنده شود — تيز در ريش مردك نادان

(٢) المترجم : فيما يلى نص هذين البيتين بالفارسية نقلا عن مقدمة « شيفر » :

اينچنين كس بحشر زنده شود — گر نمايد عنصرش چو جو
ز اولين بار نيست مشكلتر — تيز بر ريش ناصر خسرو

بقية آثاره :

ويجب علينا الآن أن نتحدث باختصار عن بقية كتبه ومؤلفاته . وقد أبقى لنا الزمن منها ثلاثة كتب ؛ طبع منها اثنان هما : « روشنائى نامه أو كتاب الضياء » و « سعادت نامه أو كتاب السعاده » ، وأما الثالث وهو كتاب « زاد المسافرين » فلا توجد منه إلا النسخة المخطوطة المحفوظة الآن بالمكتبة الأهلية بباريس وقد كانت ملكا للاستاذ «شيفر»(١) وقد ذكر «حاجى خليفة» كتابا آخر من كتب « ناصر خسرو » هو كتاب « الإكسير الأعظم » ؛ كما ذكر جماعة آخرون من المؤلفين الذين لا يوثق بهم كتبا أخرى نسبوها له ، فنسب له «دولتشاه» فى تذكرته وكذلك لطفعلى بيك فى «آتشكده» أنه ألف الكتب الآتية :

« كنز الحقائق » و « القانون الأعظم » و كتاب فى « علم اليونان » و « رسالة فى السحر » و « الدستور الأعظم » و«المستوفى» و « تفسير القرآن » وقد ورد الخبر عن هذا الكتاب الأخير فى ترجمة حياة ناصر خسرو الزائفة، وقيل إنه وضعه خصيصاً للملاحدة الإسماعيلية(٢) .

ولا يمكن القطع على وجه اليقين بعدد الكتب التى وجدت فعلا من بين هذه الكتب التى ذكرناها أخيراً ، لأن جميع المؤلفات التى كتبت فى مدى القرون الأربعة التالية لموت « ناصر خسرو » لم تذكر عنها شيئا على وجه الإطلاق(٣) .

روشنائى نامه :

وكتاب الضياء أو « روشنائى نامه » عبارة عن مثنويه تشتمل على ٥٧٩ بيتا

---

(١) المترجم : طبع هذا الكتاب بمطبعة « كاويانى » ببرلين سنة ١٣٤١ هـ .

(٢) المترجم : يضاف إلى هذه الكتب كتاب « خوان الاخوان » وقد طبع بالقاهرة سنة ١٩٤٠ م . وكذلك « رسالة شش فصل يا روشنائى نامهٔ نثر » طبع القاهرة سنة ١٩٤٨ باهتمام « ايوانف W. Ivanow. » .

(٣) أنظر المقالة التى كتبها « فانيان Fagnan » بعنوان « مقال عن ناصر بن خسرو» وقد نشرها فى « مجلة الجمعية الآسيوية » المجموعة الثانية ، مجلد ١٣ ، ص ١٦٤ — ١٦٨ وخاصة ما ورد بالصحيفة الأخيرة .

منظومة فى بحر الهزج المسدس[١] . ويوجد من هـذه المثنوية نسختان مخطوطتان محفوظتان فى « المكتبة الأهلية» بباريس، إحداهما كانت ملكا للأستاذ «شيفر» ؛ كما توجد منها نسخة مخطوطة فى « ليدن » وأخرى فى « جوتا » وثالثة فى « إدارة الهند » .

وبالرجوع إلى البيت الرقيم ٥٥٥ من طبعة « إتيه » نجد أنه يشتمل على تاريخ إنشاء هذه المثنويه، وهذا البيت هو أكبر دليل ، بل هو الدليل الوحيد ، القائل بأنه كان يوجد شخصان مختلفان يتسمى كل منهما باسم «ناصر خسرو» . فأما قراءة «إتيه» لهذا البيت فتجعل تاريخ إنشاء هذه المنظومة هو سنة ٤٤٠هـ = ١٠٤٨ — ١٠٤٩م وقد استند فيها على تخمين مقبول ، أيده بجملة من الأسانيد القوية ، يمكن الاطلاع عليها فى « مجلة المستشرقين الألمان » بالمجلد ٣٣ صفحة ٦٤٦ —٦٤٩ والمجلد ٣٤ صفحة ٦٣٨ . ومع ذلك فهذا التاريخ تختلف فيه النسخ المخطوطة الأخرى التى ذكرناها آنفا . فنسختا «ليدن» و «پاريس» تذكران سنة ٣٤٣هـ = ٩٥٤ — ٩٥٥م ، ونسخة «جوتا» تذكر سنة ٤٢٠هـ = ١٠٢٩م ، وأما نسخة «إدارة الهند» فتذكر سنة ٣٢٣هـ = ٩٣٤ —٩٣٥ م . ويجب أن نلاحظ أن البيتين اللذين ورد بهما التاريخان الأولان لا يستقيمان وزناً ، وعلى هـذا فهما من هذه الناحية مرفوضان لدينا ، وأما البيت الذى ذكر التاريخ الأخير فيتنافى ما ورد به مع كل الحقائق التى نعرفها عن «ناصر خسرو» . ذلك لأنه من المحقق الأكيد أن مؤلف «سفرنامه» و «الديوان» شخص واحد ، عرفت تفاصيل حياته وتواريخها معرفة جيدة تبلغ مبلغ اليقين ، فقد ولد — كما ذكر صراحة فى « الديوان » وتلميحا فى « سفرنامه » — فى سنة ٣٩٤ هـ = ١٠٠٣ — ١٠٠٤ م ، وعلى ذلك لا يمكن أن يتصور أنه كتب الـ «روشنائى نامه » فى سنة ٣٢٣ هـ أو ٣٤٣ هـ ؟ كذلك لا يمكن لأحد أن يفترض فرضا غير مقبول عقلا ، فيقول بإمكان وجود شاعرين ، يتسمى كل منهما باسم « ناصر » ، ويكنى كل منهما بكنية « أبى معين » ، ويتلقب كل منهما بلقب «الحجة » ، وينتسب كل منهما إلى أصل واحد ، ويعيش كل منهما فى «يمگان» من

---

(١) هذا هو عدد أبياتها وفقاً لطبعة « إتيه Ethé »

ولاية خراسان ، ويستطيع كل منهما أن يكتب شعراً أخلاقيا وتعليميا على نمط واحد وبأسلوب واحد...!! ويبدو لى من كل ذلك أن الدكتور «إتيـه» كان مصيباً فى نظرته وتخمينه وأن الـ « روشنائى نامه » كما يقول قد تم تأليفها فى القاهرة فى خلال عيـد الأضحى من سنة ٤٤٠ هـ = ٩ مارس سنة ١٠٤٩ م . وإذا شاء القارىء الاستزادة من بحث هـــذه المسألة فإنى إحيله إلى المقـــال المستفيض الذى كتبه الدكتور « إتيه » .

وقد طال بنا الحديث عن « ناصر خسرو » واستغرق منا كل هـــذه الصفحات الكثيرة ، بحيث يتعذر على الآن ، لضيق المقام ، ولاحتياجى إلى الصفحات الباقية للحديث عن غيره من كبار الكتاب المعاصرين له ، أن استعرض كما ينبغى كتابيه « روشنائى نامه » و « سعادت نامه » ، ومع ذلك فلا ضير على القارىء إذا أوقفت حديثى عند هـذا الحـد ، لأن القارىء الأوروبى يستطيع أن يقرأ الكتاب الأول فى ترجمته الألمانية المنظومة التى قام بها الدكتور « إتيه » ، كما يستطيع أن يقرأ الكتاب الثانى فى ترجمته الفرنسية المنشورة التى قام بها « فانيان Fagnan » .

ويجب الإشارة إلى أن كلا من هذين الكتابين فى أصله الفارسى عبارة عن مثنوية تعليمية أخلاقيه نظمت فى بحر الهزج ، وأن كلا منهما لا يبلغ من الناحية الفنية الشعرية مبلغ القصائد الموجودة فى الديوان . وينقسم «سعادت نامه» إلى ثلاثين فصلا قصيرا ، تشتمل على ٢٨٧ بيتا من الشعر ، وتتعلق جميعها تقريبا بالحديث عن المبادىء الأخلاقية العملية ؛ اما ال «روشنائى» فتتحدث بالإضافة إلى ذلك عن جملة من المسائل المتعلقة بما وراء الطبيعة وطائفة أخرى من المسائل المتعلقة بنشأة الكون وهى تتضمن أبياتا رائعة (من ٥١٣ إلى ٥٢٣) فى ذم شعراء المديح الدنيويين الذين لا غرض لهم من قول الشعر الا التكسب به وجمع الدراهم والدنانير

شعراء الرباعيات :

فإذا تركنا الآن «ناصر خسرو» وجب علينا أن نمضى مباشرة إلى دراسة أربعة شعراء ، امتاز كل منهم بالتبريز فى قول «الرباعى» وهو ذلك الضرب من ضروب النظم التى قلنا فيما سبق إنها ترجع إلى أصل فارسى خالص .

فأما هؤلاء الشعراء الأربعة فهم :

١ — «عمر الخيام» : الشاعر المنجم المشهور الذى ينسب الى« نيسابور»

٢ — «بابا طاهر الهمدانى» : الشاعر الذى أنشد رباعياته فى لهجته الخاصة

٣ — «ابو سعيد بن أبى الخير» : الشاعر الصوفى المعروف

٤ — «الشيخ الأنصارى : أو كما يعرف فى الفارسية « پيرأنصار» وهو الرجل الورع التقى الذى قال عنه الدكتور « إتيه » (١) : انه امتاز فى كتاباته العديدة بخلط التصوف بالأخلاق ، وقد جعل بعض منشآته منثورة مسجعة، كما جعل بعضها الآخر منثورا تختلط به بعض «الغزليات» و «الرباعيات» ويعتبر فى الحقيقة صاحب الفضل الأكبر فى الامتزاج التدريجى الذى حدث بين «الشعر الصوفى» و « الشعر التعليمى» بحيث يمكن أن نجعله أول من مهد الطريق فى ذلك للشاعر العظيم «سنائى»

عمر الخيام

ولنبدأ الآن بدراسة عمر الخيام (أو الخيامى كما يسمى فى العربية) . وقد فاز هذا الشاعر، بفضل العبقرية التى أبداها «فيتزجرالد» فى ترجمة رباعياته إلى الانجليزية، بشهرة عريضة فى انجلترا وأوروبا وأمريكا ، لم يفز بمثلها فى بلده إيران، حيث اقتصرت شهرته على ما كتبه متعلقا بالرياضة والنجوم ، ولم تتعدها إلى ما كتب من أشعار .

وأقدم ما فى حوزتنا من أخبار عنه ، ورد فى كتاب « چهار مقاله » أو « المقالات الأربع » من تأليف « نظامى عروضى السمرقندى » . ويجب أن نلاحظ أن الأخبار التى وردت عنه فى هذا الكتاب ، لم ترد فى المقالة المتعلقة بالشعر والشعراء ، وإنما وردت فى المقالة المتعلقة بعلم النجوم والمنجمين . وقد كتب نظامى العروضى (٢) هذا الكتاب فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى). ومما كتبه عن عمر الخيام ما رواه فى الحكاية السابعة والعشرين (٣) حيث يقول ما ترجمته :

« ... فى سنة ست وخمسمائة نزل الإمام عمر الخيامى والإمام المظفر الاسفزارى»

---

(١) أنظر ص ٢٨٢ من كتابه « الأدب الفارسى الحديث « Neupers. Litt.:

(٢) يجب ألا نخلط بينه وبين الشاعر المعروف « نظامى الگنجوى » .

(٣) أنظر أيضا ترجمة « براون » إلى الانجليزيه ص ١٠٠ — ١٠١ .

« في سراي الأمير أبي سعد بمدينة بلخ بمحلة «بائعي العبيد» وكنت قد التحقت »
« بخدمتهم هنالك . فسمعت في مجلس من مجالس المنادمة والمؤانسة حجة الحق »
« عمر يقول : إن قبري سيكون في موضع تهب عليه ريح الشمال في فصل »
« الربيع فتنثر على مرقدي الورود والأزهار ؛ فبدا لي استحالة هذا الحديث ، »
« ولكني كنت أعلم أنه لا يقول الكلام جزافاً . فلما كانت سنة ثلاثين وخمسمائة »
« وصلت إلى نيسابور ، وكانت قد مضت بضع سنوات[1] منذ مات هذا الرجل »
« العظيم وانطوت صفحة وجهه في نقاب الثرى والتراب ، وتيتم بفقده العالم الأسفل؛ »
« وكانت له حقوق الأستاذية علي . فذهبت في إحدى الجمعات[2] لزيارة قبره »
« واصطحبت معي واحداً من الناس ليدلني على ثراه ، فأخذني إلى مقبرة الحيرة . »
« فلما درت إلى ناحية اليسار ، وجدت قبره في أسفل جدار إحدى الحدائق ، »
« وقد أطلت عليه من وراء هذا الجدار، أشجار الكمثرى والمشمش، ونثرت »
« عليه قدراً كبيراً من أزهارها ، كان كافياً لتغطية قبره وإخفائه . عند ذلك »
« تذكرت الحكاية التي سمعتها من فمه في مدينة بلخ فاستولى علي البكاء لأني »
« لم أر له نظيراً في مكان قط من أرجاء هذا العالم وربوعه المسكونة . جعل الله »
« مقره في الجنة ... بمنه وكرمه . »[3] .

وأما الحكاية الثانية الواردة عن عمر الخيام في كتاب « چهار مقاله » فهي الحكاية الثامنة والعشرون منه ، وترجمتها كما يلي :

« رأيت الحكيم حجة الحق عمر ، ولكني لم أر له اعتقاداً في أحكام النجوم ؛ »

---

(١) أي ثلاث عشرة سنة لأن «عمر الخيام» مات سنة ٥١٧ = ١١٢٣ م .

(٢) يقصد بذلك « ليلة الجمعة » أو يوم الخميس مساء . لأن المسلمين يجعلون بداية اليوم مع مغرب الشمس . ويخصص الفرس ليلة الجمعة أو كما يسمونها « شب جمعه » لزيارة موتاهم من الأقارب والأصحاب .

(٣) المترجم : يجب أن تنتهي هذه الحكاية عند هذا الحد ، ولكن الأصل الانجليزي يضيف إلى ذلك أربعة سطور ، اختلط فيها الأمر على المؤلف، فجعلها تكملة أو خاتمة لهذه الحكاية . والواقع أنها مقدمة للحكاية الثانية وقد تداركنا ذلك عند الترجمة . كما أن المؤلف عندما قام بطبع النص الفارسي لكتاب «چهارمقاله» ميز كل حكاية من الحكايتين بمقدماتها وخواتيمها على الوجه الأصوب .

« وكذلك لم أر كبيراً من الكبراء ولم أسمع من واحد منهم أنه كان يعتقد فى »
« هذه الأحكام . ففى شتاء سنة ثمان وخمسمائة أرسل السلطان [1] شخصاً إلى »
« مدينة مرو ، توجه إلى الوزير الكبير صدر الدين محمد بن المظفر وأمره »
« أن يخبر الإمام عمر : أن اختر لنا وقتاً يصلح لخروجنا للصيد والقنص بحيث »
« لا تمطر الدنيا ولا تثلج خلال الأيام القليلة التى تختارها . وكان السيد الإمام »
« عمر مقيما فى قصر الوزير فأرسل إليه الوزير شخصاً يستدعيه ، وحكى له ما جرى »
« من حديث . فذهب عمر وأعمل فكره يومين كاملين ؛ فلما أحسن الاختيار »
« ذهب بنفسه وحضر ركوب السلطان وفقاً للوقت الذى اختاره ، ولم يكد »
« السلطان يركب ويذهب مقدار صيحة من الأرض حتى تجمعت السحب وارتفعت »
« الرياح ، وهبط الثلج وتكاثر الضباب . فضحك الحاضرون . ! ! وأراد »
« السلطان أن يرجع ، ولكن الإمام عمر قال له . لِيهدأ قلب السلطان »
« فسينكشف السحاب فى التو والساعة ولن يكون فى الأيام الخمسة التالية »
« أثر للرطوبة أو البلل . فركب السلطان وانقشع السحاب ولم يعد أحد »
« يرى أثراً له ، وخلت الأيام الخمسة التالية من المطر والبلل . »
« والواقع أن أحكام النجوم صنعة معروفة ولكن لا يجوز لأحد الاعتماد »
« عليها ، ويجب على المنجم ألا يعتمد عليها اعتماداً كلياً ، وأن يرجع كل حكم »
« يستنبطه إلى أحكام القضاء والقدر . . » .

هذه الأخبار المبكرة التى رويت عن «عمر» تدلنا بوضوح على أنه كان حياً يرزق فى سنة ٥٠٨ هـ = ١١١٤ – ١١١٥ م ، وأن قبره كان موجوداً فى مدينة «نيسابور» وأن الفكرة التى سادت بين أعضاء « جمعية عمر الخيام » من أنه دفن تحت شجيرات الورد إنما هى فكرة خاطئة ، مبعثها أن كلمة « گل » الفارسية لها معنيان : أحدهما بمعنى الزهرة على وجه الإطلاق ، والآخر بمعنى الوردة على وجه التخصيص . وقد رأينا أن سياق الحكاية التى رويت عنه فى كتاب « چهار مقاله » وهى التى ترجمناها فيما سبق ، تقطع صراحة بأن المقصود هو أزهار المشمش والكمثرى وليس أوراق الورد .

---

(١) هو فيما يظن السلطان «محمد» أخ السلطان «سنجر» السلجوقى .

أحدث الأبحاث عن حياة عمر الخيام

جميع السير التي نشرت في أوروبا عن « عمر الخيام » حتى سنة ١٨٩٧ م ، اعتمد فيها كاتبوها على كتب فارسية متأخرة ليس لها نصيب من الأهمية في قليل أو كثير ؛ لأن هـؤلاء الـكتاب كانوا يهدفون إلى خلق القصص الخيالية عن هـذا الشاعر ، أكثر مما يهدفون إلى تحرى الحقائق التاريخية الثابتة . فلما كانت هـذه السنة نشر الأستاذ « ڤالنتين ژوكوڤسكى » مقاله البديع الرائع عن « عمر الخيام والرباعيات الجائلة » [1] فوضع بذلك حـدا للمقالات الزائفة التى نشرت عنه قبل ذلك التاريخ . وقد كتب هذه المقالة باللغة الروسية ونشرها فى المجموعة التذكارية التى طبعت تخليداً لمرور خمسة وعشرين عاما على اشتغال «البارون ڤيكتور روزن» [2] بأستاذية اللغة العربية فى جامعة « سان بطرسبورج » وقـد سموها بـ « المظفرية » نسبة إلى المعنى الذى يتضمنه اسمه « ڤيكتور » . وقد كان من حسن الحظ ، لعدم انتشار اللغة الروسية فى غرب أوروبا ، أن يقوم المستشرق العبقرى الدكتور «إ. دنيسون روس » الذى يتولى الآن عمادة المدرسة الإسلامية بمدينة كلكتا [3] ، بترجمة هذه المقالة الهامة ونشرها فى « مجلة الجمعية الملـكية الأسيوية» سنة ١٨٩٨م (مجلد ٣٠ ص ٣٤٩ ـ ٣٦٦) وقد أعقب ذلك بتلخيصها ونشر أهم النقط التى دارت عليها فى المقالة التى كتبها بعنوان « عمر الخيام وعصره » وجعلها مقدمة لطبعة « مثوين: M thuen » للترجمة الانجليزية التى نشرها « فيتزجرالد » للرباعيات ، كما أضاف إليها شرحاً وافياً كتبته السيدة « هـ . م . باتسون » ونشرته فى سنة ١٩٠٠ م [4].

وقد نقل « ژوكوڤسكى » الأخبار المروية عن « عمر الخيام » فى لغتها الأصلية، وألحق بها ترجمة روسية لها ، ثم ترجم هذه الأخبار إلى الانجليزية الدكتور «دنيسون

---

(١) أنظر: Prof. Valentin Zhukovski: 'Umar Khayyam and the Wandering Quatrians.

(٢) اسمه بالحروف اللاتينية هو : Baron Victor Rosen

(٣) المترجم : هو المستشرق الـكبير المرحوم Sir. E. Denison Ross وقد تتلمذت عليه أثناء دراستى فى « معهد اللغات الشرقية » بلندن وكان فى ذلك الوقت مديرا لهذا المعهد ، وأدركته الوفاة فى سنه ١٩٤٢ م .

(٤) اسمها بالحروف اللاتينية هو : Mrs. H.M. Batson

روس ». وهى فى جملتها عبارة عن أربعة أخبار استمدها على التوالى من كتاب ألف فى القرن الثالث عشر الميلادى (= السابع الهجرى) ، وخبر منقول من كتاب تم تأليفه فى القرن الرابع عشر الميلادى (= الثامن الهجرى) ، وخبر آخر منقول من كتاب تم تأليفه فى القرن الخامس عشر الميلادى (= التاسع الهجرى) ، وخبر أخير منقول من كتاب يرجع تأليفه إلى أواخر القرن السادس عشر (= العاشر الهجرى) أو مطلع القرن السابع عشر الميلادى (= الحادى عشر الهجرى) .

والخبران الأخيران متأخران تاريخياً ، ولكنه ذكرهما فى مقاله لما اشتملا عليه من أهمية بالغة . وقد يمكننا أن نضيف إلى هذه القائمة مجموعة أخرى من الأخبار التى رواها أصحاب التراجم المتأخرون ، ولكننا نعرض عنها ، لأنها فى الغالب لا تفعل أكثر من أنها تكرر أقوال السابقين فتنتقصها من أطرافها أو تضيف إليها ما ليس فيها .

ويجب فى هذه المناسبة أن نذكر أن « عوفى » صاحب « لباب الألباب » وهو أقدم كتاب من كتب التراجم الفارسية وقد تم تأليفه فى بداية القرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى ، لم يذكر شيئاً بالمرة عن « عمر الخيام » وكذلك فعل « دولتشاه » فى كتابه « تذكرة الشعراء »[(١)] فلم يخصص للخيام مقالة مستقلة مفردة بل تحدث عنه عرضاً [(٢)] عندما أخذ يترجم لأحد أحفاده المسمى « شاهفور أشهرى » [(٣)] .

كتاب « مرصاد العباد »

يظهر أن أقدم الأخبار المروية عن « عمر الخيام » بعد الخبرين اللذين رويناهما فيما سبق عن كتاب « چهارمقاله » هو الخبر الوارد فى كتاب « مرصاد العباد » الذى ألفه « نجم الدين الرازى » فى سنة ٦٢٠ هـ = ١٢٢٣ م [(٤)] وقد أشار « ژوكوفسكى » إلى أن أهمية هذا الخبر محصورة فى أن مؤلف هذا الكتاب يعتبر من كبار الصوفية المخلصين ، وقد كتب عن « عمر الخيام » فوصفه بأنه « فيلسوف ودهرى وطبيعى »

---

(١) تم تأليف هذا الكتاب سنة ٨٩٢ هـ = ١٤٨٧ م وقد طبع فى ليدن سنة ١٩٠٠م
(٢) أنظر ص ١٣٨ من المرجع السابق .
(٣) الشاعر الفارسى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ .
(٤) هذا الخبر منقول فى ص ٣٤١ من مقالة « ژوكوفسكى » وكذلك ص ٣٦١ من مقالة « روس » .

واستشهد على ذلك برباعيتين . يبدو فى الأولى منهما كفر الخيام وإلحاده ، بينما الثانية تشتمل على توجيه اللوم للخالق لخلقه للكائنات الشريرة وإهلاكه للكائنات الخيرة . . ! ! وقد علق « نجم الدين الرازى » على هذه الأقوال بأنها: «دالة على غاية الحيرة ومنتهى الضلال . » [1] .

كتاب « تاريخ الحكماء » للقفطي :

وقد ورد الخبر التالى لذلك فى كتاب « تاريخ الحكماء » تأليف « القفطى[2] » (ص٢٤٣-٢٤٤) طبعة الدكتور «يوليوس ليبرت: Dr Julius Lippert »فى ليبزج سنة ٣ ١٩ ، وهو كتاب باللغة العربية تم تأليفه فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى (= السابع الهجرى) وقد نشر هذا الخبر وترجمه إلى الفرنسية المستشرق «وپكه: Woepcke» فى كتابه عن رسالة الجبر لعمر الخيام L'Algebre d'Omar Khayyami المنشورة فى باريس سنة ١٨٥١ م (أنظر ص٥ من المقدمة وص٥٢ من النص) وقد أعاد « ژوكوڤسكى » نشر هذا الخبر (ص ٣٣٣ — ٣٣٥) وترجمه إلى اللغة الروسية ، كما ترجمه إلى الإنجليزية « روس » (ص ٣٥٤ — ٣٥٥) . وهذا الخبر فى جملته يصور «عمر الخيام » بانه واحد من حملة العلوم اليونانية أى الحكمة والفلسفة ، كما بين ذلك الصوفى الكبير « جلال الدين رومى » عندما قال فى كتابه «المثنوى» بيته المشهور الذى ترجمته :

إلى متى ..؟ إلى متى ؟ فى حكمة اليونان .!!
أما تفيق وتمضى فى حكمة القرآن ..!!

---

(١) المترجم : فيما يلى نص الرباعيتين بالفارسية :
ا ــ در دايرهٔ كامدن ورفتن ماست آنرا نه بدايت نه نهايت پيداست
كس مى نزند دمى در اين عالم راست كاين آمدن از كجا ورفتن بكجاست
ب ــ دارنده چو تركيب طبايع آراست باز از چه قبل فكند اندركم وكاست
گر زشت آمد پس اين صور عيب كراست ورنيك آمد خرابى از بهر چراست
والرباعية الأخيرة هى الرقيمة ١٢٦ من ترجمة «هونفيلد Whinfield ».
(٢) المترجم : توفى القفطى سنة ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م .

يقول القفطى : « وقد وقف متأخرو الصوفية على شىء من ظواهر شعره فنقلوها إلى طريقتهم ، وتحاضروا بها فى مجالساتهم وخلواتهم ، وبواطنها حيات للشريعة لواسع ، ومجامع للأغلال جوامع » .

ثم يمضى القفطى فيقول : « إنه كان عديم القرين فى علم النجوم والحكمة ؛ به يضرب المثل فى هذه الأنواع ، لو رزق العصمة » ويختم القفطى مقاله عن الخيام بذكر أربعة أبيات من إحدى قصائده العربية ، سنرى أن ثلاثة منها ترد أيضا ضمن مقطوعة من ستة أبيات(١) استشهد بها صاحب الكتاب التالى الذى سنتحدث عنه مباشرة .

كتاب « نزهة الارواح » للشهرزورى :

والكتاب التالى الذى تحدث عن « عمر الخيام » هو كتاب « نزهة الأرواح وروضة الأفراح » تأليف « الشهرزورى » فى القرن الثالث عشر الميلادى (بداية السابع الهجرى) ويوجد من هذا الكتاب نسختان ، أحداهما عربية ، والأخرى فارسية . وقد نشر « ژوكوفسكى » فى مقالته الخبر الوارد عن « عمر » وفقاً للنص العربى والنص الفارسى ، ثم اختار النص الأخير فترجمه إلى اللغة الروسية على خلاف مافعل «روس» فقد ترجم النص العربى إلى اللغة الإنجليزية . وكلا النصين يستشهد بأشعار فارسية أو عربية من أشعار الخيام وفقاً للغة التى كتب بها هذا النص ،

---

(١) المترجم: فيمايلى نص هذه الأبيات وهى سبعة أبيات وليست ستة كماجاء فى كلام المؤلف

إذا رضيت نفسى بميسور بلغة — يحصلها بالكد كفى وساعدى
أمنت تصاريف الحوادث كلها — فكن يازمانى موعدى أو مواعدى
ولى فوق هام النيرين منازل — وفوق مناط الفرقدين مصاعدى
أليس قضى الأفلاك من دورها بأن — تعيد إلى نحس جميع المساعد
فيا نفس صبراً عن مقيلك إنما — تخر ذراها بانقضاض القواعد
متى ما دنت دنياك كانت بعيدة — فواعجبى من ذا القريب المباعد
إذا كان محصول الحياة منية — فسيان حالا كل ساع وقاعد

فيستشهد النص الفارسى بالرباعيتين الرقيمتين ١٩٣ و ٢٣٠ من طبعة «هو نفيلد» ، وأما النص العربى فيستشهد بمقطوعات ثلاث من أشعاره العربية ، تشتمل أولاها على أربعة أبيات ، وثانيتها على ستة أبيات ، وثالثتها على ثلاثة أبيات[1] وقد رأينا أن المقطوعة الثانية من هذه المقطوعات هى من نفس القصيدة التى استشهد الكتاب السابق الذى تحدثنا عنه بثلاثة أبيات من أبياتها .

والخبر الذى رواه «الشهرزورى» أكمل وأوفى من الخبر الذى رواه «القفطى» ؛ فهو يتحدث عن عمر الخيام فيقول عنه إنه : « كان تلو أبى على سينا فى أجزاء علوم الحكمة ؛ إلا أنه كان سىء الخلق ، ضيق العطن . وقد تأمل كتابا بإصفهان سبع مرات وحفظه ، وعاد إلى نيسابور فأملاه ، فقوبل بنسخه الأصل فلم يوجد بينهما كبير تفاوت » .

ثم يقول إنه كان عالما بالفقه واللغة والتواريخ والقراءات السبع ، ويقول إن الفقيه المعروف « أبا حامد محمد الغزالى » أحس له بكثير من البغض والكراهية بعدما تباحث معه فى مسألة من المسائل ، وكذلك فعل السلطان «سنجر» ؛ وأما السلطان «ماكشاه» فكان يحبه ويقربه وينزله منزلة الندماء .

وحكى «الشهرزورى» أن الخيام قبيل وفاته « كان يتأمل الإلهيات فى الشفاء ، فلما وصل إلى فصل الواحد والكثير وضع الخلال بين الورقتين وقام وصلى وأوصى ولم يأكل ولم يشرب ؛ فلما صلى العشاء الأخيرة سجد وكان يقول فى سجوده :

---

(١) المترجم : فيما يلى نص المقطوعتين الأولى والثالثة :

يقول فى المقطوعة الأولى :

تدين لى الدنيا بل السبعة العلى ... بل الأفق الأعلى إذا جاش خاطرى
أصوم عن الفحشاء جهراً وخفية ... عفافا وأفطارى بتقديس فاطرى
وكم عصبة زلت عن الحق فاهتدت ... بطرق الهدى من فيضى المتقاطر
فإن صراطى المستقيم بصائر ... نصبن على وادى العمى كالقناطر

ويقول فى المقطوعة الثالثة :

زجيت دهراً طويلا فى التماس أخ ... يرعى ودادى إذا ذو خلة خانا
فكم ألفت وكم آخيت غير أخ ... وكم تبدلت بالإخوان إخواناً
وقلت للنفس لما عز مطلبها ... بالله لا تألفى ما عشت إنسانا

« اللهم إنى عرفتك على مبلغ إمكانى ، فاغفرلى ، فإن معرفنى إياك وسيلتى إليك » .

كتاب « آثار البلاد » للقزوينى :

يلى ذلك تاريخيا الخبر الوارد فى كتاب « آثار البلاد » للقزوينى فقد تحدث ذلك الكتاب عن « عمر الخيام » عند كلامه عن مدينة « نيسابور » فى صفحة ٣١٨ من طبعة « وستنفلد Wustenfeld » فقال إنه «كان حكيما عارفا بجميع أنواع الحكمة سيما النوع الرياضى» وإنه كان مقربا من السلطان «ملكشاه» السلجوقى ، وإن الفضل يرجع إليه فى اتخاذ تمثال من الطين لزجر الطير عن الوقوع فى بعض الربط وتنجيس أهله بذرقه .. ثم حكى فى النهاية الوسيلة التى اتخذها عمر فى فضيحة فقيه من الفقهاء ، اعتاد أن يذكره بالسوء ، ويقول عنه أنه كافر ملحد ، بينما كان ذلك الفقية يغشى إليه كل يوم قبل طلوع الشمس ويقرأ عليه درساً من الحكمة(١) .

* * *

وبالانتهاء من ذكر هذا المرجع ننتهى من الكلام عن الكتب التى تحدثت عن «الخيام» حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (= السابع الهجرى) ويجدر بنا — قبل أن نمضى فى دراسة غيرها من الكتب المتأخرة — أن نشير إلى أن جميع الكتب المبكرة التى سبق لنا الحديث عنها قد أجمعت على الإشارة إلى «عمر الخيام» بأنه «فيلسوف ومنجم ورياضى» وأنه عندما وصف بأنه «صوفى» انبرى للرد على ذلك الصوفى الكبير «نجم الدين الرازى»

---

(١) المترجم : فيما يلى نص هذه القصة كما وردت فى كتاب « آثار البلاد » :

« وحكى إن بعض الفقهاء كان يمشى إليه كل يوم قبل طلوع الشمس ويقرأ عليه درساً من الحكمة ، فإذا حضر عند الناس ذكره بالسوء ، فأمر عمر بإحضار جمع من الطبالين والبوقيين وخبأهم فى داره ، فلما جاء الفقيه على عادته لقراءة الدرس ، أمرهم بدق الطبول والنفخ فى البوقات ، فجاءه الناس من كل صوب ، فقال عمر : يا أهل نيسابور . . ! هـذا عالمكم يأتينى كل يوم فى هذا الوقت ، ويأخذ منى العلم ، ويذكرنى عندكم بما تعلمون ، فإن كنت أنا كما يقول ، فلأى شىء يأخذ علمى ..؟! وإلا فلأى شىء يذكر الأستاذ بالسوء..؟! »

فقال عنه أنه « فيلسوف ودهرى وطبيعى» بينما نرى «القفطى» يقول إن جماعة من متأخرى الصوفيه قد وقفوا « على شىء من من ظواهر شعره ، فنقلوها إلى طريقتهم وتحاضروا بها فى مجالساتهم وخلواتهم ، وبواطنها حيات للشريعة لواسع ومجامع للأغلال جوامع ..!! »

كتاب « جامع التواريخ » :

وأهم مرجع من مراجع القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) هو كتاب « جامع التواريخ » تأليف « رشيد الدين فضل الله» وهو عبارة عن موسوعة فى تاريخ « المغول » وبعض أبواب التاريخ العام ، تم تأليفها فى الربع الأول من القرن الرابع عشر الميلادى (فى سنة ٧١٠هـ) وما زالت لسوء الحظ غير مطبوعة ، برغم مالها من أهمية كبيرة محققة[١] .

وأول مانصادفه فى هـذا الـكتاب هو « قصة الأصـدقاء الثلاثة » التى سبق لنا الحديث عنها[٢] وقد سبق لى أن ضمنت جزءا من هذا الحديث فى مقال قصير بعنوان « ضوء جديد يكشف عن عمر الخيام » نشرته فى «مجلة الجمعية الملـكية الأسيوية» شهر أبريل سنة ١٨٩٩ م (ص ٤٠٩ — ٤١١) ولما كان نص هـذه القصة كما ذكرها كتاب « جامع التواريخ » هو أقدم نصوص هذه الأسطورة التى أثارت كثيراً من الجدل والاهتمام بين المعجبين بهذا الشاعر المنجم وبين مترجمه

---

(١) طبع الأستاذ « كاترمير » جزءاً صغيراً منها يتعلق بتاريخ هولا كوخان (باريس سنة ١٨٣٦ م) كما أن الموكلين بأمر سلسلة جب التذكارية يعنون بنشر أجزاء أخرى من هذه الموسوعة .

المترجم : أصدرت سلسلة جب التذكارية جزءاً من هذه الموسوعة نشره «المسيو بلوشيه» فى المجلد الثامن عشر وهو يتعلق بتاريخ المغول من تولى «أوكتاى» حتى وفاة «تيمور الجايتو» حفيد «قبلاى خان» . كما نشرت جزءاً آخر عن « غازان خان » بعنوان « تأريخ مبارك غازانى » نشره « كارل يان » سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٤٠ م .

(٢) عند الحديث على « نظام الملك » ص ٢٣٦ـ٢٣٩ من هذا الـكتاب

«فيتزجرالد» فإني أرى لزاما على أن أنشر في هـذا المقام ترجمه الجزء المتعلق منها بالخيام ، وخلاصته كما يلي[١] :

« وأماسبب النفور والعداء اللذين وقعا بين «نظام الملك» و«الحسن الصباح» »
« فمرجعه إلى أنهما كانا يحضران الدرس مع «عمر الخيام» في مدرسة في مدارس »
« نيسابور ؛ وكما يفعل الصبية في أثناء الطفولة ، أحس كل منهم بصداقة بالغة »
« لصاحبيه ، ارتبط فيها ثلاثتهم برباط الدم وأقسموا أغلظ الإيمان على أن »
« من يصل منهم إلى مركز رفيع في الدولة يجب عليه أن يحمي صاحبيه ويقدم »
« لهما كل معونة لازمة . »
« وتتابعت الحوادث كما بين ذلك صاحب كتاب «تاريخ آل سلجوق» وانتهى »
« الأمر بنظام الملك فأصبح وزيراً للسلاجقة . فاتصل به عمر الخيام وذكره »
« بالإيمان التي أقسموا عليها والعهود التي ارتبطوا بها أثناء طفولتهم ؛ فاعترف »
« نظام الملك بهذه العهود والمواثيق وقال له : إني أهب لك أعمال نيسابور »
« وتوابعها . ولكن عمر كان رجلا عظيما وفيلسوفا حكيما فرفض ما عرض »
« عليه قائلا : إن رغبتي لا تنصرف إلى حكم ولاية من الولايات أو التحكم في أهلها »
« ولا طاقة لي بالسياسة وأمر العوام ، وإنما تنصرف رغبتي إلى أن تجرى على »
« معاشاً أو راتباً أرتزق منه . فأجرى عليه نظام الملك معاشا يبلغ عشرة آلاف »
« دينار ، يصرف له سنويا من دخل نيسابور دون أن يقتطع منه شيء للضرائب »

وتستمر القصة بعد ذلك فتذكر وصول « الحسن الصباح » إلى « نظام الملك » ومطالبته إياه بنصيبه من المغانم . فلما عرض عليه حكومة « الري » أو « أصفهان » رفضها ، ولم يقبل إلا أن يلحق بمنصب من المناصب الرفيعة في بلاط السلطان . فلما تم له ذلك أساء استعمال منصبه ، وحاول أن يوقع بصاحب الفضل عليه ، وأن يتولى

---

(١) هذه ترجمة فيها شيء من التصرف ولكنها لم تهمل شيئاً من الأمور الأساسية التي وردت في الأصل وأما المقال الذي نشرته في « مجله الجمعية الملكية الأسيوية » فيتضمن ترجمة حرفية لهذه النبذة .

الوزارة فى مكانه ؛ ولكن تدبيره أخفق وناله كثير من الخزى والعار ، فآثر الهرب إلى «خراسان» ثم إلى «إصفهان» ثم التحق بخدمة الخليفة الفاطمى «المستنصر» بمدينة القاهرة ، حيث تزعم قضية «نزار» ثم عاد إلى إيران ينشر باسمه «الدعوة الجديدة» وقد سبق لنا أن ذكرنا كل هذه الأمور فى مكانها من الفصل السابق ، ولمن شاء الاطلاع على تفاصيلها أن يرجع إلى ما ذكر عنها فى كتاب « تاريخ گزيده[1] » وكتاب « تذكرة الشعراء » لدولتشاة[2] وغيرها من الكتب المتأخرة .

كتاب «فردوس التواريخ» :

والخبر التالى الذى رواه « ژوكوفسكى » عن عمر الخيام منقول عن كتاب « فردوس التواريخ» الذى تم تأليفه فى سنة ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥—١٤٠٦م ؛ وهذا الخبر يتضمن رباعيتين من رباعيات الخيام ، ويصف المناظرة التى وقعت بينه وبين «أبى الحسن البيهقى» فى تفسير بيت عربى من الأبيات الواردة فى «ديوان الحماسه[3]» ثم ينتهى بذكر قصة موته وفقاً لما ذكره « الشهرزورى » فى كتابه « نزهة الأرواح » .

كتاب « التاريخ الألفى » :

وآخر الأخبار التى نقلها «ژوكوفسكى» عن الخيام هو الخبر الذى نقله عن كتاب « تاريخ ألفى » أو التاريخ الألفى[4] ، وهو مؤلف حديث جداً ، سمى بهذه التسمية لأن مؤلفه قصد أن يتحدث فيه عن تاريخ السنوات الألف الأولى من سنى الهجرة

---

(١) أنظر ص ٤٨٦ — ٤٩٧ من هذا الكتاب طبع «جانتن Gantin» .
(٢) أنظر ص ١٣٨ — ١٤١ من تذكرة الشعراء طبع «براون» بمدينة ليدن سنة ١٩٠٠
(٣) المترجم : البيت المقصود هو قول الشاعر .
ولا يرعون أكناف الهوينى إذا حلوا ولا أرض الهدون
(٤) المترجم: مؤلف هذا الكتاب هو «أحمد بن نصر الله التتوى» من أهالى السند وقد ألفه باسم «أكبر شاه» ملك الهند .

أى إلى سنة ١٥٩١ — ١٥٩٢ الميلادية . ولكنه فى الحقيقة لم يصل به إلا إلى سنة ٩٩٧ هـ . والخبر الوارد فى هـذا الكتاب هو فى الحقيقة تكرار لما ذكره « الشهرزورى » مع شىء من الاقتضاب والاختصار ، ولكنه ينتهى بهذه النبذة الغريبة :

« ويؤخذ من أكثر الكتب أنه (أى الخيام) كان يدين بمذهب التناسخ . »
« وحكى أنه كان فى نيسابور مدرسة قديمة استخدموا فى إصلاحها الحمير ، فكانت »
« تحمل الآجر إليها . فحدث فى يوم من الأيام أن الحكيم (أى عمر الخيام) »
« كان يمشى مع جماعة من الطلبة فى صحن المدرسة ، فما كان من أحد الحمير »
« إلا أن امتنع بتاتا عن الدخول فلما رأى الحكيم ذلك تبسم ، ثم توجه إلى »
« ناحية الحمار وقال له على البديهة هذا الرباعى . »
« اى رفته وباز آمده بل هم گشته »
« نامت ز ميان نامها گم گشته »
« ناخن همه جمع آمده وسم گشته »
« ريش از پس كون در آمده دم گشته »
« ومعناه : »
« — يامن ذهبت .. ثم عدت كالأنعام بل أضل من الأنعام »
« — لقد انمحى اسمك ، وضاع من بين أسماء الأنام ... !! »
« — واجتمعت أظافرك ... فأصبحت حوافر الأقدام ...!! »
« — والتصقت ذقنك بعجيزتك ... فصارت هذا الذيل التام ..!! »
« عند ذلك دخل الحمار ...!! فالتفتوا إلى الحكيم وسألوه السبب فيما كان..؟ »
« فقال لهم : إن الروح التى تقمصت جسد هذا الحمار كانت روح أحد المدرسين »
« بهذه المدرسة ، لهذا لم تشأ دخولها حتى تبينت الآن أن زملاءه قد عرفوها »
« فاضطرت إلى الدخول ..!! »

وليس من الممكن فى هذا المجال أن نمضى فى ذكر الأخبار المتأخرة الواردة عن « عمر الخيام » فإنها فى الغالب عبارة عن حكايات ظاهرة الانتحال ، وضعت لتفسير بعض الرباعيات التى تنسب إليه . ومن الغريب أن صاحب السير المشهور « ابن

خلكان » قد تجاهل «الخيام» تجاهلا كلياً وكذلك فعل « ابن شاكر » رغم أنه حاول فى كتابه « فوات الوفيات » أن يتـدارك ما نسبه سلفه صاحب « وفيات الأعيان » . أما الكتبى التركى « حاجى خليفة » فذكره ثلاث مرات[١] ؛ الأولى بمناسبة علم الجبر ، والثانية بمناسبة زيج ملكشاه ، والثالثة والأخيرة على أنه معاصر لواحد من المؤلفين الذين تحدث عنهم[٢] ولكنه نسى أن يعين تاريخ وفاته ، مما يدل دلالة ظاهرة على أنه كان يجهل هذا التاريخ . وقد حددوا هـذا التاريخ عادة بسنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ — ٤ ١١م ولكنى لا أستطيع أن أجد سندا قويا استند إليه فى تحديد هذا التاريخ[٣] وكل ما هنالك أنه من المحقق ـ استنادا إلى ماجاء فى كتاب « چهار مقاله » أنه مات فى الفترة الواقعة بين سنة ٥٠٩ هـ = ١١١٥م وسنة ٥٣٠ هـ ـ ١١٣٥م وأنه مات قبل السنة الأخيرة «ببضع سنوات» ، وأن أباه كان يسمى «ابراهيم»

وقد وصف بأن له ضنة بالتأليف والتعليم ، ولكن الدكتور «روس» استطاع أن يخرج لنا قائمة بمؤلفاته التى ذكرت فى مختلف المصادر ، فإذا بها تبلغ عشرة كتب بما فى ذلك رباعياته المعروفة وزيج ملكشاه الذى اشترك فى استنباطه . وأغلب هذه الكتب عبارة عن رسائل علمية أو فلسفية مكتوبة باللغة العربية . وقد طبع الأستاذ « ويكه » رسالته عن الجبر ونشر ترجمتها بالفرنسية فى سنة ١٨٥١م وما زالت فى مكتبة ليدن نسخة مخطوطة من إحدى رسالاته «فى شرح ما اشكل من مصادرات كتاب إقليدس » .

(١) ج ٢ ص ٥٨٤ ، ج ٣ ص ٥٧٠ ، ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) المترجم : عندما تحدث عن كتاب « مهجة التوحيد » لعلاء الدولة الملك بالرى .

(٣) أنظر ما كتبه « ريو » فى « فهرست الكتب الفارسية » ص ٥٤٦ وكذلك ما كتبه الدكتور « روس » فى مقدمته على ترجمة « فيتزجرالد » للرباعيات المطبوعة فى لندن سنة ١٩٠٠ م ص ٧١ ـ ٧٢ .

(٤) المترجم : الكتب المنسوبة إلى الخيام هى التالية :

« الرباعيات » . « زيج ملكشاه » . « رسالة فى براهين الجبر والمقابلة » . « رسالة فى شرح ما أشكل من مصادرات كتاب اقليدس » . « رسالة فى الطبيعيات » . « رسالة فى الوجود » . « رسالة فى الكون والتكليف » . « رسالة فى الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما » . « رسالة فى لوازم الأمكنة » . «نوروزنامه » . « رسالة فى جواب القاضى أبى نصر محمد بن عبدالرحيم النسوى » «رسالة فى الجواب عن ثلاث مسائل» .

من المقطوع به أن أغلب القراء يتركز اهتمامهم فى « الرباعيات » ، وقد كانت الترجمة الرائعة التى أصدرها «فيتزجرالد» لهذه الرباعيات سببا فى صدور جملة كبيرة من الكتب والرسائل حول الخيام ورباعياته ، أخذت تنتشر فى أوروبا وأمريكا وتكثر كثرة هائلة بحيث أصبح من المستحيل علينا أن نتناولها بالبحث فى صفحات هذا الكتاب . ومن الملاحظ أن بعض هذه المؤلفات يرقى إلى أجود أنواع التأليف ، وأن بعضها ينحط إلى أسفل مدارك الكتابات الرخيصة التى صادفتها أثناء حياتى ؛ ولا شك أن القائمة الطويلة التى يشتمل عليها الملحق التاسع والأربعون من الطبعات الجميلة المختلفة التى نشرها[1] «ناثان هسكل دول» للرباعيات فى مدينتى بوسطون ولندن سنة ١٨٩٨ ، تكفى لإشباع نهم كل معجب بالخيام متعطش إلى آثاره وأخباره . ومع ذلك فقد اضطر هذا الرجل الدؤوب جامع هذه القائمة إلى الاعتراف[2] بأن «مجرد جمع ما كتب عن عمر الخيام فى سائر اللغات يقتضى من المرء أن يتفرغ لذلك طوال حياته الكاملة ، وأن مجموع المؤلفات التى كتبت عنه تكفى بلاشك لإنشاء مكتبة عامرة حافلة» [3] .

ومع حرصى على مراعاة الاقتضاب والاختصار ، أجد لزاما على أن أفصل الكلام قليلا عن مسألة «الرباعيات الجائلة[4]» التى تناولها بالبحث «ژوكوفسكى» ؛ وكذلك عن المقارنة الدقيقة والتحليل العميق اللذين أجراها «هرون ألن Heron Allen » لترجمة «فيتزجرالد» ومقابلتها بأصول الرباعيات الفارسية .

---

(١) أنظر ص ٣٤٨ ــ ٥٩٤ من الطبعات المختلفه للرباعيات من نسخة
Nathan Haskell Dole, Boston and London 1898.

(٢) أنظر ص ٥٩٤ من المرجع السابق .

(٣) المترجم : ربما كان من المفيد أن نذكر للقارىء العربى أن أهم مترجمى الرباعيات إلى اللغة العربية هم السادة :

« وديع البستانى » و « محمد السباعى » و « محمد الهاشمى » و « أحمد الصافى النجفى » و « جميل صدقى الزهاوى » و « أحمد حامد الصراف » و « أحمد رامى » و « أحمد زكى أبو شادى » و « توفيق مفرج » و « حسين مظلوم رياض » و « عبدالحق فاضل » .

وترجم « إبراهيم عبدالقادر المازنى » بعض الرباعيات فى « حصاد الهشيم » .

(٤) يقصد بـ « الرباعيات الجائلة » الرباعيات التى تنسب عادة إلى عمر الخيام ولكنها فى أوثق المصادر وأقدمها منسوبة إلى غيره من الشعراء .

الرباعيات الجائلة :

وقد وجد «ژوكوفسكى» أن الرباعيات التى تشتمل عليها طبعة «نيكولاس M Nicolas» تتضمن مالا يقل عن اثنتين وثمانين رباعية يمكن نسبتها، اعتماداً على أوثق المصادر، إلى واحد من الشعراء الآتين :

« أبوعبد الله الأنصارى » . «أبوسعيد بن أبى الخير» . « أفضل الكاشى » . « عا كف». «علاء الدولة السمنانى». « الأنورى». «العسجدى». « أثير الدين». « العطار » . « ابن سينا» . « أوحدى الكرمانى » . « بديهى السجاوندى ». «سيف الدين الباخرزى». «فخر الدين الرازى». «الفردوسى». «أحمد الغزالى». «حافظ الشيرازى» . «جلال الدين الرومى». « جمال الدين القزوينى » . «الخاقانى الشروانى ». « كمال الدين اسماعيل» . « مجد الدين همكر ». « المغربى » . « الملك شمس الدين». « نجم الدين الرازى ». «ناصر الدين الطوسى». « نعمة الله الكرمانى ». « رضاء الدين» . «سعد الدين الحموى ». « سلمان الساوجى ». « شاهى». « سراج الدين القمرى». «طالب الآملى».

ولو أننا تكلفنا قليلا من التعب ، لزدنا على هذه القائمة أسماء غيرهم من الشعراء ، فقد لاحظت وجود أمثلة أخرى يمكن أن نضيفها إلى الأمثلة السابقة ؛ من ذلك أن الرباعيتين اللتين نشرهما «هوينفلد» برقم ١٤٤ و١٩٧ ونشرهما «نيكولاس» برقم ١١٦ و ١٨٢ ونسب قولهما إلى عمر الخيام ، نشرهما « ژوكوفسكى » برقم ٢٦و٢٧ ونسب قولهما إلى « ناصر الدين الطوسى» و«طالب الآملى» . ومع ذلك فقد وجدت فى « تاريخ گزيدة » [١] أن الأولى منهما تنسب إلى « سراج الدين القمرى» وأن الثانية تنسب إلى « عز الدين الكراتشى ».[٢] ومن الواضح أنهما يتناقضان من

---

(١) كتاب فى التاريخ تم تأليفه سنة ٧٣١ = ١٣٣٠ م

(٢) أنظر مقالتى عن « شعراء الفرس الذين ذكرهم صاحب تاريخ گزيده » وقد نشرتها فى « مجلة الجمعية الملكية الأسيوية » . عدد أكتوبر سنة ١٩٠ وعدد يناير سنة ١٩٠١ (رقم ٣٨ ، ٥٠) .

حيث المعنى تناقضا تاما ، بحيث لا يمكن بداهة نسبتهما إلى شاعر واحد . وقد ألحق الدكتور « روس Ross » بترجمته لمقالة « ژوكوفسكي » جدولا قيما للمقابلة بين الرباعيات وفقا لترتيبها فى نسخة « هوينفلد » ونسخة « نيكولاس » ونسخه « المكتبة البودلية Bodlian » .

وخلاصة هذا البحث وزبدته ، أنه يمكننا من أن نقطع على وجه التأكيد بأن «عمر الخيام » قد كتب بغير شك كثيرا من الرباعيات ، ولكن من غير الممكن — فيما عدا أمثلة قليلة نادرة — أن نجزم على وجه اليقين بأنه كتب رباعية بعينها من هذه الرباعيات الكثيرة التى تنسب إليه .

وأقدم نسخه مخطوطة من «رباعيات الخيام» هى النسخة الموجودة فى «المكتبه البودلية » تحت رقم ٥٢٥ ؛ ويرجع تاريخها إلى سنة ٨٦٥ هـ = ١٤٦٠ م أى أنها نسخت بعد موته بما يقرب من ثلاثة قرون ونصف القرن . وهذه النسخة تشتمل على ١٥٨ رباعية ؛ وقد نشرها وترجمها نثرا وعلق عليها المستر « إدوارد هرون ألن » فى لندن سنة ١٨٩٨ م ، ثم نشر فى السنة التالية كتابا فى الموضوع نفسه بعنوان «المقابلة بين ترجمة فيتز جرالد لرباعيات عمر الخيام مع أصولها الفارسية[1]» وقد أحصى فيه (ص ١٥ — ١٦) عدد النسخ الخطية والمطبوعة من الرباعيات ومقدار الرباعيات التى تشتمل عليها كل نسخه من هذه النسخ . والفرق كبير بين عدد الرباعيات فى مختلف النسخ . فبينما يقتصر عددها على ٧٦ رباعية فى نسخة خطية قديمة فى مكتبة باريس يرجع تاريخها إلى سنة ٩٣٧ هـ = ١٥٣٠ م ، إذا به يبلغ ٦٠٦ رباعية فى نسخة خطية بمكتبة بانكيبور ، وإذا به يرتفع إلى ٧٧٠ رباعية فى النسخة المطبوعة على الحجر فى مدينة لكنو سنة ١٣١٢ هـ = ١٨٩٤ م ، ثم إذا به يصل إلى ٨٤٥ رباعية فى الترجمة المنظومة التى نشرها «جون باين John Payne » ثم إذا بنا فى النهاية نجد أن الآنسة « جيسى كادل Jessie E. Cadell» استطاعت بالرجوع إلى مختلف المصادر أن تجمع ما يزيد على ألف ومائتين من الرباعيات المنسوبة إلى عمر الخيام .

---

(١) اسمه بالانجليزية: **Edward Fitz Gerald's Ruba 'iyyat of Omar Khayyam with their Original Persian Sources, London, 1899.**

وقد يمكن فى يوم من الأيام بالتنقيب فى خبايا المكتبات الأسيوية العثور على نسخة خطية قديمة من الرباعيات ، يستطاع الاعتماد عليها والوثوق من مشتملاتها . ولكننا كما أوضحنا آنفا لا يمكننا قبل العثور على مثل هذه النسخة أن نجزم على وجه اليقين — إلا فى أمثلة قليلة نادرة — بمقدار الرباعيات التى تصح نسبتها إلى عمر . ومن أسف أن فحص الرباعيات من حيث مبانيها أو معانيها لا يمكن أن ينتهى بنا إلى شىء ؛ فمبانى الرباعيات من حيث لغتها وألفاظها لا تفيدنا فى شىء ، لأننا لا نملك حتى الآن نسخة منها قريبة التاريخ من زمن الشاعر نفسه ؛ وكذلك لا يجدينا أسلوبها نفعاً ، لأن جميع الرباعيات تتشابه فى الغالب من حيث الصيغة والوزن والتركيب والمحسنات البلاغية ؛ وهى بالإضافة إلى ذلك قصيرة المدى ، تميل إلى معالجة الأمور « العامة » دون « الخاصة » ، وتمتاز بسهولة المحاكاة والتقليد حتى ليصعب — باجتماع كل هذه الأمور — على أى أديب إيرانى ، مهما بلغ شأوه فى دراسة الآداب الفارسية ، أن يعتمد على أسلوبها ، فيجزم ارتكانا على ذلك بتعيين قائلها ومنشديها .

أما فيما يتعلق بالمقابلة بين ترجمة «فيتزجرالد» للرباعيات وبين أصولها الفارسية فقد وفى المستر « إدوارد هرون ألن » هذه المسألة حقها بكل أمانة وإخلاص فى ثانى كتابيه اللذين سبق لنا ذكرهما فى الصفحات الماضية ، ونحن نكتفى بأن نعيد هنا نتيجة أبحاثه التى وصل إليها بعد كثير من التعب والنصب ، حيث يقول فى مقدمة ذلك الكتاب (ص ١١ — ١٢) ما يلى :

« نجد بين الرباعيات التى ترجمها فيتزجرالد تسعاً وأربعين رباعية ترجمها »
« فيتزجرالد بأمانة أو حاكاها بإخلاص ، ويوجد الأصل الفارسى لكل »
« رباعية من هذه الرباعيات فى مخطوطة « أوسلى Ouseley » أو مخطوطة »
« كلكتا أو فيهما معا . »

« وفى هذه الترجمة أربعة وأربعون رباعية أخرى يمكن إرجاع كل منها إلى »
« أكثر من رباعية واحدة فارسية ، ويمكن أن نسميها بالرباعيات المركبة . »
« وهناك رباعيتان أوحى بهما إلى فيتزجرالد بعض الرباعيات التى لا توجد إلا »
« فى نسخة نيكولاس . »

« كما أنه صاغ رباعيتين جعلهما ترديدا للروح العامة التى توحى بها الرباعيات . »
« وفى الترجمة كذلك رباعيتان يمكن إرجاعهما إلى تأثير فريد الدين العطار »
« وكتابه : منطق الطير . »
« وهناك رباعيتان من إنشاء عمر أصلا ولكنهما تأثرتا فى الترجمة بغزليات »
« حافظ الشيرازى . »
« . وكانت هناك ثلاث رباعيات ، تضمنتها الطبعتان الأولى والثانية من الترجمة ، »
« وقد حذفها فيتزجرالد نفسه بعد ذلك ولم أجد لها ـ رغم البحث الدقيق ـ »
« أصلا باللغة الفارسية . ولاشك أنه تأثر فيها بشعراء آخرين ليس يعنينا فى هذه »
« المناسبة تحقيق هويتهم أو معرفة شخصيتهم » .

ولست فى حاجة بعد ذلك كله إلا أن أذكر المبتدئين ، دون غيرهم ، بأن الرباعية فى الأدب الفارسى تعتبر وحدة مستقلة قائمة بذاتها ، وأنه لا يوجد فى ذلك الأدب منظومة طويلة تتركب من عدد من الرباعيات ، وأن الترتيب الذى يراعى فى مجموعات الرباعيات هو الترتيب الأبجدى وفقا للحرف الأخير من الشطرات الثلاث المقفاة من الرباعية .

***

بابا طاهر الهمدانى

الشاعر الثانى من شعراء الرباعيات الأربعة هو « بابا طاهر الهمدانى » الملقب بـ « العريان » . وسيكون حديثى عنه مختصراً لأن رباعياته طبعت مرتين : الأولى مع ترجمة فرنسية محشاة بواسطة الأستاذ « كليمان أويار » فى « المجلة الأسيوية » عدد نوفمبر وديسمبر من سنة ١٨٨٥ م (المجموعة الثامنة ، مجلد ٦) ؛ (١) والثانية مع ترجمة انجليزية منشورة مصحوبة بكثير من التعليقات بواسطة المستر « إدوارد هرون

---

(١) أنظر مقالة « أويار Huart » فى : « المجلة الأسيوية سنة ١٨٨٥ »
Journal Asiatique, Nov. - Dec. ,1885 (ser. VIII, vol. 6)

ألن » فى كتابه « أشجان بابا طاهر » [١] المنشور فى سنة ١٩٠٢ م . وقد تضمن هذا الكتاب أيضاً ترجمة أخرى منظومة للرباعيات كتبتها السيدة « إليزابث كورتيس برينتون » [٢]. يضاف إلى ذلك أنه قد سبق لى أن خصصت بضع صفحات من الجزء الأول من هذا الكتاب [٣] للحديث عن اللهجات الفارسية والأشعار التى صيغت فيها ، وتحدثت بوجه خاص عن أشعار « بابا طاهر » ؛ وقد أوردت هنالك ثلاث رباعيات من أشهر رباعياته بنصها الفارسى ثم أعقبتها بترجمة منظومة بالإنجليزية [٤].

ورباعيات « بابا طاهر » تتفق مع كثير من الرباعيات التى كتبت فى لهجة خاصة ، من حيث كونها لا تجرى على أوزان الرباعى المعروفة ، بل تجرى على وزن الهزج المسدس المحذوف ، فتتكرر « مفاعيلن » ست مرات فى البيت الواحد ولكن التفعيلة الثالثة والسادسة منها تقتضب إلى « مفاعل » أو « فعولن » . ولما كانت هذه الرباعيات من صياغة رجال سذج من رجال الريف ، فإنها بالضرورة لاتبلغ من حيث الصياغة اللفظية أو المعنوية مبلغ الرباعيات التى كتبها رجال فنانون من أمثال « عمر الخيام » .

حياة « بابا طاهر »

والمعروف لنا عن « بابا طاهر » قليل جدا ، وقد اختلف كتاب الفرس اختلافا كبيرا فى تحديد زمنه ، بحيث جعله بعضهم من الرجال الذين عاشوا فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى (أوائل الخامس الهجرى) ، وجعله بعضهم الآخر من رجال النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر السابع الهجرى) . وأقدم ما صادفت

---

(١) أنظر : Lament of Baba Tahir, by Mr. Eduard Heron Allen (Quaritch 1902)

(٢) اسم هذه السيدة بالانجليزية هو : Mrs. Elizabeth Curtis Brenton

(٣) المترجم : انظر الصفحات ٧٣ ــ ٧٨ من الأصل الانجليزى للجزء الأول من هذا الكتاب المتعلق بالآداب الفارسية منذ أقدم الأزمنة إلى عهد الفردوسى .

(٤) لست أظن قارىء الإنجليزية يستفيد كثيراً بالمقالة التى كتبها « ژوكوفسكى » بالروسية فى المجلد الثامن ص ١٠٤ ــ ١٠٨ من تقارير القسم الشرقى للجمعية الامبراطوريه الروسية للآثار ، سنة ١٩٠١ م

من الكتب التي ذكرت شيئا عنه هو كتاب « راحة الصدور » فقد ورد في الورقة ٤٣ من المخطوطة الوحيدة المحفوظة بمكتبة باريس ماترجمته : (١)

« وقد سمعت أنه عندما قدم السلطان طغرل بك إلى مدينة همدان كان بها »
« ثلاثة من شيوخ الصوفية هم : « بابا طاهر » و « بابا جعفر » والشيخ »
« «حمشا» ، وكانوا يقفون عند مقدمه على جبل يسمى : جبل الخضر بالقرب »
« من باب همدان ، فلما وقعت عليهم عين السلطان أمر رجاله بالوقوف ، وترجل »
« عن جواده ، وتقدم إليهم ، وقبل أيديهم ، وكان باباطاهر مجذوبا ؛ فقال له : »
« أيها التركي . . . !! ماذا نويت فعله بعباد الله . . ؟ فأجابه السلطان : سأفعل »
« ما تأمرني به . . !! عند ذلك قال له بابا طاهر : بل افعل ما يأمرك به الله ، »
« والله يأمر بالعدل والإحسان . (٢) »
« عند ذلك بكى السلطان وقال : سأفعل ذلك إن شاء الله. فأخذ بابا طاهر بيده »
« وقال له : هل تقبل مني هذه الهدية . . ؟ وأخرج من أصبعه رقبة إبريق »
« مكسور كان يستعمله في الوضوء مدة طويلة ، ثم وضعها في إصبع السلطان »
« وهو يقول : أني أضع في يدك ملك العالم كما أضع هـذا الخاتم في أصبعك »
« فكن عادلا ...!! فظل السلطان بعد ذلك يحتفظ بها . فإذا خرج لموقعة »
« من المواقع وضعها في إصبعه . وهذا كله يدل على ماااتصف به السلطان من نقاء »
« العقيدة وصفاء الطويه ، ولم يكن يدانيه في ذلك أحد من المسلمين . . »

ومن المحتمل أن تكون المقابلة التي ذكرت في النبذة السابقة قد حدثت بين « طغرل بك » و «باباطاهر» في سنة ٤٤٧هـ أو ٤٥٠هـ = ١٠٥٥م أو ١٠٥٨م . وعلى ذلك يمكننا في اطمئنان أن نرفض التاريخ الذي حدده «رضا قلي خان» لوفاة «باباطاهر» حين ذكر في كتابه «رياض العارفين» أنه توفي سنة ٤١٠هـ = ١٠١٩م . أما النبذة التي كتبها « ژوكوفسكي » في مقاله الذي سبقت الإشارة إليـه في هامش من هوامش الصفحات الماضية ، وذكر فيها أن « بابا طاهر » تحدث مع « ابن سينا »

---

(١) المترجم : قام بطبع هذا الكتاب الاستاذ « محمد اقبال » ونشره ضمن «سلسلة كتب حب التذكارية»

(٢) سورة النحل آية ٩٢

المتوفى سنة ٤٢٨هـ = ١٠٣٥م فمحتملة التصديق عقلا وليس فيها ما يتنافى مع الجائز المقبول . ولا شك أن النبذة التى نقلناها عن كتاب « راحة الصدور » تتفق أنباؤها مع الأخبار القليلة التى ذكرتها كتب المصادر الأخرى، من حيث تصوير « باباطاهر » وإبراز شخصيته، ومن حيث إظهار الاحترام والتبجيل اللذين يفوز بهما « المجاذيب » و «الأولياء» فى البلاد الإسلامية عامة ؛ وقد رأيت بعينى رأسى جماعة من هؤلاء يتنقلون بحرية تامة فى مكاتب الحكومة التركية ، فيلاقيهم الموظفون دائماً بمنتهى الحفاوة والتكريم (؟)

* * *

أبو سعيد ابن أبى الخير :

ننتقل الآن إلى الحديث عن ثالث الشعراء المشهورين بكتابة الرباعيات ، وهو « أبوسعيد بن أبى الخير » المولود فى قرية « مهنة » من أعمال « خاوران » فى السابع من ديسمبر سنة ٩٦٧ م والمتوفى فى الثانى عشر من يناير سنة ١٠٤٩ (= ٣٥٧ هـ إلى ٤٤١ هـ) . وقد اعتبره « إتيه » : « أول من أبدع الشعر الصوفى ، وأول من زوج «الرباعيات » وجعلها وسيلة صالحة لأداء الأفكار الدينية والصوفية والفلسفية بحيث تتركز فيها وتصدر عنها جميع التجليات الصوفية الرائعة ؛ وهو كذلك أول من أضفى على الرموز والتعبيرات الصوفية هذا الجمال الزاهر وهذا الخيال القاهر اللذين عرف بهما الشعر الصوفى منذ ذلك الزمان » .

وروى كذلك عن « أبى سعيد » أنه تمكن من الإجتماع بـ « ابن سينا » كما فعل « باباطاهر » . وقد ورد الخبر فى حكاية معروفة أنه عند ما انفض مجلسهما الأول قال أبوسعيد لابن سينا : « إننى أدرك ما تعرفه ...!!! » فأجابه ابن سينا بقوله : « وأنا أعرف ما تدركه ... !! »(١) .

---

(١) من بين الكتب التى ذكرت هذه القصة كتاب «أخلاق جلالى» المؤلف فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (أى التاسع الهجرى) ص ٢٨ من نسخته المطبوعة على الحجر فى مدينة لكنو سنة ١٢٨٣ هـ : ١٨٦٦ م وقد روى « تاريخ گزيده » هذه القصة بصورة أخرى كما ذكر ذلك الدكتور «إتيه» . فقد ورد فيه أن ابن سينا قال : « كل ما أعرفه يدركه أبو سعيد » فأجابه أبو سعيد بقوله: « أما ابن سينا فيعرف ما لا أدركه ..!! »

ومع ذلك فقد وضح الدكتور « إتيه » أن هذين الرجلين كانا على طرفى نقيض فى كثير من المسائل الدينية وأن العداوة كانت متأصلة بينهما [١] .

ومصادر تأريخ « أبى سعيد » — على خلاف العادة — واسعة كاملة ؛ فبالإضافة إلى ما نجده عنه من أخبار كثيرة ، تضمنتها تراجم الأولياء والشعراء ، نجد أن الدكتور « إتيه » قد كتب عنه، بماعهدفيه من دقة فى البحث وعمق فى الدرس ، مقالتين هامتين [٢] ، وكذلك قام « ژوكوفسكى » فى سنة ١٨٩٩ م بنشر مجلدين يحتويان نصوصا نادرة ، تتعلق كلها أو جلها بحياة هذا الرجل ، وبما أثر عنه من أقوال وأشعار . ولهذين المجلدين أهمية خاصة تدعونا إلى تفصيل القول عنهما بعض الشيء .

وأول هذين المجلدين يشتمل على النص الفارسى لكل من الكتابين الآتيين :

ا — « أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد » .

ب — « رسالهٔ حورائيه » أو رسالة الحور .

والكتاب الأول من هذين الكتابين أى « أسرار التوحيد » عبارة عن مؤلف مطول يقع فى ٤٨٥ صحيفة ، كتبها أحد أحفاد الشيخ أبى سعيد المسمى « محمد ابن المنور بن أبى سعيد بن أبى طاهر بن أبى سعيد بن أبى الخير المنسوب إلى قرية ميهنة » . [٣] وقد برهن « ژوكوفسكى » فى مقدمته الرائعة التى قدم بها هذا الكتاب ، على أن هذه الصفحات قد كتبها مؤلفها فيما بين سنة ٥٥٢ هـ وسنة ٥٩٩ هـ (= ١١٥٧ — ١٢٠٣ م) لأنها تتضمن إشارات إلى موت السلطان « سنجر » السلجوقى المتوفى فى أول هذين التاريخين ، كما إنها مهداة إلى ملك الغور « غياث الدين محمد بن سام » المتوفى فى ثانى هذين التاريخين . وقد نشر « ژوكوفسكى » نص هذا

---

(١) انظر ص ٥٢ — ٥٣ من المرجع المذكور فى الهامش التالى .

(٢) مجموعة مقالات نشرها الدكتور « إتيه » فى: Sitzungsb . d. Bayr . Akad philos- Philolog. سنة ١٨٧٥ ص ١٤٥ — ١٦٨ وسنة ١٨٧٨ ص ٣٨ — ٧٠ . وقد نشر فى هذه المقالات اثنتين وتسعين رباعية من رباعيات « أبى سعيد » مصحوبة بترجمة منظومة ، عليها كثير من الحواشى والتعليقات .

(٣) كما جاء فى « أسرار التوحيد » ص ٣ .

الـكتاب وفقاً لمخطوطتى « بطرسبورج » و « كوبنهاجن». وهو يقول إن أهميته تنحصر فى أنه يعتبر من المصادر الأصيلة التى اعتمد عليها « العطار » و « جامى » وغيرهما من « كتاب التراجم » ، كما إن الأخبار التى تضمنها تستند إلى روايات المعاصرين الذين نقلوها إلى المؤلف بطريق المشافهة أو بما خلفوه لأعقابهم من مذكرات ورسائل .

ويعتبر هذا الـكتاب من أقدم الرسائل التى كتبت عن « تراجم الأولياء» ومن أوضح الـكتب التى صورت لنا حياة « الدرويش » فى ذلك العصر ، وهو بالإضافة إلى ذلك يشتمل على كثيرمن المسائل اللغوية الهامة والصيغ المهجورة التى أبقاها الناشر لحسن الحظ على أصولها . وكلا النسختين اللتين اعتمد عليهما الناشر كتبتا فى خلال القرن الثامن الهجرى أو الرابع عشر الميلادى

أما ال«رسالهٔ حورائيه » فعبارة عن مقالة قصيرة تقع فى خمس صفحات ، كتبها « أبو عبدالله بن محمود » المنسوب إلى « الشاش » فى إقليم ما وراء النهر ، وقد فسر فيها إحدى رباعيات الشيخ « أبى سعيد » .

وثانى المجلدين اللذين نشرهما « ژوكوفسكى » يشتمل على النص الفارسى لمخطوطة قديمة فريدة، يرجع تاريخها إلى سنة ٦٩٩هـ = ١٢٩٩ م . وهذه المخطوطة محفوظة فى المتحف البريطانى ، والجزء الأكبر منها يتعلق بالحديث عن أسرار الشيخ أبى سعيد وتعاليمه الروحية . وقد طبعت هذه المخطوطة فى ثمان وسبعين صحيفة ، وهى سابقة فى تأليفها لـكتاب « أسرار التوحيد » ، وقد ألفها أيضاً واحد من أحفاد الشيخ أبى سعيد ، يظنه « ژوكوفسكى » من أبناء « أبى روح لطف الله » .

ولو أننا شئنا أن نتحدث عن هذه المصادر الزاخرة بالأخبار بما هى جديرة به من اهتمام وتقدير ، لاقتضانا الأمر تخصيص مجلد كامل لها ؛ ولـكننا نذكر أنه بالإضافة إلى هذه المصادر المستفيضة ، توجد أيضاً بين أيدينا طائفة كبيرة من أخبار هذا الشيخ تتضمنها كتب التراجم المتأخرة مثل كتاب «هفت إقليم »(١) وكتاب

---

(١) ذكره الدكتور « إتيه » واستشهد به

« تاريخ گزيده » وكتاب « نفحات الانس » (١) وغير ذلك من الكتب . كما أن رباعياته قد طبعت على انفراد جملة مرات فى البلاد الشرقية، أو ضمن مجموعات تشتمل على رباعياته مع رباعيات « عمر الخيام » ورباعيات « بابا طاهر » وما شاكل ذلك من الرباعيات .

وكانت حياة « أبى سعيد » خالية من الأحداث والوقائع ، وقد أمضاها كما يقول الصوفية فى « عالم الأرواح » لا « عالم الأشباح » ؛ وهو لهذا السبب يختلف اختلافاً كبيراً عن سائر الكتاب والشعراء الذين تحدثنا عنهم فى الصفحات السابقة من هذا الباب .

أبو سعيد والتصوف

وفى رأيى أن الفضل فى إثبات أهمية الشيخ « أبى سعيد » وأسبقيته بالنسبة لتاريخ التصوف الفارسى ، يرجع إلى الدكتور « إتيه » دون غيره من الكتاب ، فإن الإيرانيين أنفسهم ما زالوا ينكرون أهمية « أبى سعيد » من هذه الناحية ، ويتابعون القول المشهور الذى قاله أكبر متصوفيهم « جلال الدين الرومى » حينما اعتبر نفسه ثالث الثلاثة الكبار من الصوفية، كان « سنائى » أولهم، وكان « العطار » ثانيهم . ولو أننا راعينا الحق وتحرينا الصواب لوجدنا أن « أبا سعيد » متقدم على هذين من الناحية الزمنية . وقد أثبت الدكتور « إتيه » فى الرباعيات التى اختارها ونشرها من رباعيات الشيخ « أبى سعيد » أن جميع خصائص التصوف الفارسى والتعابير الصوفية الفارسية تبدو مجتمعة لأول مرة فى هذه الرباعيات ، وقد ظلت على حالها منذ ذلك الوقت ، وأجمع على اتباعها شعراء الصوفية من الفرس والأتراك والهنود (٢) .

وفيما يلى ترجمة لطائفة من الرباعيات اخترناها من مقالة الدكتور « إتيه » واتبعنا فيها الترقيم التى رقمت به هنالك ، وهى تكفى للبرهنة على صحة هذا الرأى (٣) :

---

(١) طبع « نساوليز Nassau Lees » ص ٣٣٩ ـ ٣٤٧

(٢) ينطبق هذا أيضا على أقواله التى أورد الكثير منها كتاب التراجم .

(٣) المترجم : لم أستطع الأسف الرجوع إلى أصل هذه الرباعيات بالفارسية لعدم عثورى على مقالة الدكتور « أتيه » فى دور الكتب الموجودة فى مصر .

(١)

— إدخالك السرور على قلب واحد ،
— خير لك من تعمير ألف من المساجد ...!!
— واستعبادك لحر واحد بما تسديه إليه من إحسان
— خير من تحريرك آلاف من العبيد والغلمان ..!!

(٢)

— يامن تملأ طلعتك العالم بالأضواء والأنوار ....!
— إننى أصلى من أجل وصلك آناء الليل وأطراف النهار.. !!
— فتباً لى . . . إذا شمل عطفك غيرى من الناس
— وتباً للناس . . إذا شاركونى اللهفة والحنين والإحساس . . . !!

(٥)

— يذهب الغزاة إلى حومات الوغى للموت والاستشهاد
— ويا ليتهم علموا حكمة الغزو وسر الجهاد ... !!
— فإنما يفوقهم شأنا ، قتلى العشق وصرعى الوداد
— لأن الأحبة هم الذين قتلوهم ... لا الأعداء الشداد ....!!

(٦)

— إنى أدعو للجميع : ألا يحرم أحد منهم من رحمتك الوسيعة
— فإن اللائذ بك يبلغ أوج المدارج الرفيعة ...!!
— ولو أضاءت شمسك فى ذرة من الذرات . . .
— لزاد بهاؤها على شموس الأفلاك والسموات . . . !!

(١٠)

ـــ مادام الجامع والمدرسة ... لا تتهدم منهما الأركان
ـــ وما دام الشك واليقين ... يتناوبان فى قلب الإنسان ،
ـــ فكيف يمكن لمذهب « القلندرية » فى هذا الزمان (١)
ـــ أن ينتشر ، فيخرج مسلما واحدا قوى الإيمان ...!!

(١٣)

ـــ لا تلمنى ... ياسيدى ...!! إذا احتسيت الخمر والشراب ... !!
وإذا قضيت فى الخمر والعشق أيام الشيب والشباب ... !!
فانا فى إفاقتى أعاشر الأحباب وغير الأحباب
ولكننى متى سكرت... لا أجالس غير الأصحاب .. !!

(١٧)

ـــ قلت : حدثنى عن جمالك . . من الذى يفوز ببهجته وسناه . . ؟
ـــ فقال : أنا وحدى الفائز به... مادمت فى الوجود والحياة ... !!
ـــ فانى أنا وحدى العاشق و المعشوق والعشق فى منتهاه
ـــ وإنى أنا وحدى العين المبصرة، والجمال الزاهى ، والمرآه ... !!

(١٨)

ـــ حدثت طبيبى عن آلامى الكثيرة الخافية
ـــ فقال لى : كف الحديث ... ولا تتكلم إلا عن صفاته العالية
ـــ وحذار ان تجعل لك زادا إلا من دماء قلبك الغالية ... !!
ـــ وحذار أن تفكر فى الدار الفانية أو الباقية ... !!

(١) «القلندرية» جماعة من الدراويش لا يهتمون بالمظاهر ولا بآراء غيرهم من الناس .

(١٩)

— هؤلاء الرجال الذين يغدقون على ألقاب التكريم
— لا يعرفون حقيقة ما انطوى عليه قلبي الكليم ...!!
— ولو كشفوا خبيثة ماتحتوى عليه ضلوعى ... من عذاب أليم
— لقضوا على بأن أحترق بنارى ... كما يحترق الهشيم .. !!

(٢٠)

— قدرت على الحب ... ثم تركت أحبتك فى اشتياق وحنين ...!!
— وحرمتنى من العقل والفكر فخلا منهما قابى الأمين ...!!
— وكنت عفيفا وقورا ... وكنت من أصلح الصالحين ،
— فأصبحت بحبك شريدا خليعا ... ومن أكبر المعربدين ...!!

(٢١)

— هذاك بدر التمام... مجلو فى بهاه ...!!!
— وهو فى أقل مراتبه ... عبارة عن الحسن فى منتهاه ... !!
— فأطل النظر إلى وجهه المشمس . . فإذا عشيت بسناه
— فانظر إلى شعره المجعد ... كيف يتألق فى دجاه ...!!

(٢٧)

— إذا ابيضت صفحة وجهى بنور الحق وضياء الإسلام
— بلغت غاية الشرف ، وظفرت بنهاية الاحترام ... !!
— ولكن ... من أسف ... أن العار يكسو وجهى بالسواد والقتام
— بحيث يخجل الجحيم ... مما ارتكبت من ذنوب وآثام ... !!

(٢٨)

— متى بلغت فى حبك مرتبة العشق والوصال ،
— لم أعد أتطلع إلى الجنة ، أو أغرق فى الأمانى والآمال ...!!
— فإن الجنة لا تعنينى . . . إذا لم أفز فيها بلقائك ...!!
— والنعيم والجحيم سواء . . إذا لم أظفر برضائك ... !!

(٣٠)

— من قبل أن يخلق الزمان والنجم والسماء ،
— ومن قبل أن يخلق النار والماء والأرض والهواء ،
— ومن قبل أن يخلق العقل والشكل والأصوات والأصداء ،
— أخذت أردد أسرار التوحيد فى العلانية والخفاء ... !!

(٣٢)

— أيها الهندى البرهمى ... !! أنظر إلى هذه الخدود الوردية الحمراء ،
— إنها تتقد بنارها المؤججة على وجه هذه الدمية الحسناء ....!!
— فإذا عميت بصيرتك عن أن تعبد الله صاحب الجمال والبهاء ،
— فاعبد هذه النار ... فهى خير لك من عبادة البقرة العجماء . ...!! (١)

(٣٣)

— ياإلهى ....! أنا فى عثرتى ... ارتجى عفوك ورضاك ... !!!
— وأنا فى ذلتى . . . أبتغى رحمتك ونداك . . . !!
— ولن أفعل كسائر الناس ... فاحتمى بهذا أو ذاك
— وليس لى من حام ولا واق فى العالمين ... سواك .. !!

(٣٨)

— بارك الله فى أقدامى . . . إذا سعت إلى لقياك ...!!
— وبارك الله فى كل ساع ... يسعى إلى رضاك ... !!
— وبارك الله فى كل من يمتع ناظره بالتطلع إلى بهاك
— وبارك الله فى كل لسان ... يسبح بحمدك وعلاك ... !!

---

(١) « گاو پرست » أى عابد البقرة ، ويطلق الفرس هذه الكلمة على الهندوكيين لتقديسهم البقر . والشاعر يشير هنا إلى أن حمرة وجه الحبيب شبيهة بالشمس المتقدة أو النار المؤججة ، وعلى ذلك شبهوا العاشق بعابد النار أو عابد الشمس ، لأنه دائما فى لهفة إلى ان يشرق عليه وجه الحبيب .

(٥٤)

ـــ ذلك «العارف» الذى سلك طريق الأسرار

ـــ قد اتحد بالله .. فأنكر الأثرة ... وآثر الايثار .. !!

ـــ فاتصل بالله ... وانكر نفسك كل الإنكار

ـــ فلا إله إلا الله . . وهو وحده الواحد القهار ... !!

(٥٥)

ـــ ليلة الأمس ... حدثت ، «الحبيب» أحاديث الحب والوصال ... !!

ـــ فأخذ ينقض العهود ، ويتجنى على فى دلال ... !!

ـــ وانقضت الليلة ، ولم أحك من قصة الحب الا البداية ... !!

ـــ ولا ذنب لليل ؛ ولكن «قصة الحب» ليس لها نهاية ... !!

(٦١)

ـــ أنا منذ كنت ... لم ابتعد لحظة واحدة عن وصالك ... !!

ـــ وقد خدمنى حظى السعيد ... فلم أغب عن مشاهدة جمالك ... !!

ـــ وفنيت فيك ... فلم يعد يشاهدنى أحد من الناظرين ... !!

ـــ وأضاء على نورك ... فظهرت مكشفا للعالمين ... !

ونذكر فيما يلى الرباعية التى نسبوها إلى « ابن سينا » ورد الشيخ « أبى سعيد » عليها :

قال ابن سينا : (١)

---

(١) المترجم : فيما يلى أصل هذه الرباعية بالفارسية

ما ئيم بعفو تو تولا كرده ور طاعت ومعصيت تولا كرده

آنجا كه عنايت تو باشد باشد ناكرده چو كرده كرده چون ناكرده

ـــ نحن اللائذون بعفوك
ـــ المجتنبون لطاعتك ومعصيتك .
ـــ وأينما تـكن عنايتك ولطفك ،
ـــ يصبح مالم نفعله كما لو فعلناه ، وما فعلناه كما لو لم نفعله ...!!

فأجاب « أبو سعيد » برباعية معناها :

ـــ أيها الغارق فى الإثم ... يامن خلت أعمالك من كل خير ... !!
ـــ أنك تجتهد فى أن تنجو بنفسك فتنـكر ما أتيت من شر ... !!
ـــ وهل يمكن محو الذنوب والآثام والشرور ... ؟!
ـــ إنما أنت تعتمد عبثا على عفو الله الغفور ... !!

وجميع هذه الرباعيات والأشعار تكفى لبيان أهم المسائل التى يدور عليها تفكير الصوفية ومقولاتهم فالفـكرة الأساسية لا تكتفى بتصوير « الله » على أنه قادر قاهر خـير فحسب ، بل تجعله المصدر الوحيد للـكون والجمال ، وتجعله الجمال الحق والـكون الحق ، وفيه ينطوى كل ما هـو غائب عن البصر ، وبنوره يتكشف كل ما يقع عليه النظر ؛ ويتصل بهذه الفـكرة كل التعبيرات اللغوية والرمزية التى اشتملت عليها هذه الأشعار والتى تشتمل عليها لغة الصوفية أجمعين ؛ فالله عندهم هو «الحبيب» وهو « المعشوق » وهو « المحبوب » ؛ والوجد الحاصل من التفكير فيه هو «الخمر» وهو «الخمار» ؛ والظاهر والباطن منه عبارة عن «طلعته المنيرة» أو «طرته السوداء القاتمة» ، وما إلى ذلك من التعبيرات الرمزية الـكثيرة . وفى الصوفية بالإضافة إلى ذلك رفع من شأن المثالية الذاتية على المتعارفات الموضوعية ، وفيها كذلك تأويل روحى للواجبات والمراسم الدينية كما هو ملاحظ بين فريق « الإسماعيلية » ، وربما استمد الصوفية منهم فـكرة هذه التأويلات وإن كانوا يختلفون عنهم فى كل شىء اختلافا بينا ظاهراً ، وفيها كذلك فـكرة لا تقل فى أهميتها عن جميع ما سبق ،وهى فكرة « التسامح » التى تجعل جميع المذاهب تمثل « الحق » تمثيلا يتفاوت كبراً أو صغراً ولـكنها تعترف جميعا بـ « أن طرق الله كعدد أنفاس بنى آدم » أو كما عبر «حافظ »

عن ذلك فيما بعد فقال : « إن كل قبلة يتوجه إليها الإنسان هى خير من عبادة النفس . . . ! ! »[1]

وكثير من أقوال « أبى سعيد » وحكاياته مرويه فيما سجله مؤرخوه ومترجموه . ونحن نكتفى فى هذا المقام بذكر أمثلة قليلة منها ؛ فقد سألوه أن يعرف لهم الصوفية فأجابهم : أن الصوفية عبارة عن أطراح ما فى يدك وعدم الجزع على ما يصيبك أو ينزل بك . . . ! !

وقال فى مناسبة أخرى : إن الحجاب الذى يحجب الله عن عبده ليس هو السماء ولا الأرض ولا العرش ولا الكرسى ، بل هو الغرور وحب النفس ، ومتى استطعت التغلب على هذين ومحوتهما من طبيعتك ، وصلت إلى الله وزال الحجاب الذى بينك وبينه .

وأخبره جماعة بأن أحد الأولياء كان يمشى على سطح الماء ، وأن آخر كان يطير فى أطباق الهواء ، وأن ثالثاً كان يتنقل فى طرفة عين من مدينة إلى مدينة ، فأجابهم بقوله : إن الضفدعة تستطيع أن تعوم فى الماء ، ويستطيع الخطاف أن ينزلق على سطحه ، ويستطيع الغراب أن يطير فى الفضاء ، ويستطيع الشيطان أن يتنقل فى طرفة عين بين المشارق والمغارب ، ولكن جميع هذه الأشياء لا أهمية لها فى رأيى ، لأن الرجل الجدير بأسماء الرجال هو الذى يعيش مع سائر الناس ، فيشترى منهم ، ويبيع لهم ويتزوج منهم ، ويتعامل معهم ، بشرط ألا يغفل لحظة واحدة عن ذكر الله . . . ! !

ويقال إن «أبا سعيد» كان يعجب إعجابا شديدا بهذا الشعر الذى ورد فى قصيدة عربية قالها « كثير » لمعشوقته « عزة »[2] :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ... على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صدى من جانب القبر صائح

---

(١) المترجم : عبارة حافظ فى الفارسية هى : « هر قبله كه باشد بهتر ز خود پرستى» .
(٢) المترجم : لم أعثر لـ« كثير » على شعر فى هذا المعنى ، وأما البيتان المذكوران فمن قول « توبة بن الحمير » وهما فى نفس المعنى الذى ورد فى الأصل الإنجليزى

وهذا القول يذكرنا بالأبيات الجميلة التالية التي قالها الشاعر «تنيسون» في «مود Maud»

" She is coming, my own, my sweet ;
Were it ever so airy a tread,
My heart would hear her and beat,
Were it earth in an earthy bed,
My dust would hear her and beat.
Had I lain for a century dead ;
Would start and tremble under her feet,
And blossom in purple and red "

وقد نقشوا على قبر « أبي سعيد » هذين البيتين باللغة العربية وهما (١) :

سألتك بل أوصيك إن مت فاكتبي   على لوح قبري كان هذا متيما
لعل شجيا عارفا سنن الهوى   يمر على قبر الغريب مسلما(٢)

* * *

عبد الله الأنصاري :

سيكون حديثي مختصرا عن الشيخ « أبي اسماعيل عبد الله الأنصاري الهروي » الذي اشتهر برباعياته و « مناجاته » .

هذا الشيخ ينتسب كما تدل على ذلك نسبته إلى أصل عربي، فهو من سلالة « أبي أيوب » . وقد ولد في مدينة هراة في اليوم الرابع من شهر مايو سنة ١٠٠٦ م = ٣٩٨ هـ وتوفي في سنة ١٠٨٨ م = ٤٨١ هـ

وينسبون إليه أيضا تاليف الكتابين المعروفين باسم « منازل السائرين » و « أنوار التحقيق » .

وإليك نبذة مترجمة من « مناجاته » :

« ياإلهي ... ! ما أعجب حكمتك .. ؟! هاتان قطعتان من حديد أخرجتا »
« من منجم واحد ، فأما إحداها فقد أصبحت جدوة يحدون بها الجياد ؛ وأما »
« الأخرى فقد أصبحت مرآة ينظر فيها الملك إلى طلعته ، ...!! يا إلهي ... »
« أما وقد استطعت بقدرتك أن تخلق نار الهجر والفراق ، فما حاجتك إلى نار »

---

(١) أنظر الصحيفة الأخيرة مما كتبه «ژوكوفسكي» في «حالات وسخنان شيخ أبي سعيد» طبع بطرسبورغ سنة ١٨٩٩ هـ = ١٣١٧ هـ

(٢) المترجم : وردت في الأصل كلمة «فسلما» .

« السعير والجحيم . . يا إلهى . . . ! لقد تخيلت أنى عرفتك ووصلت إليك »
« ولكننى الآن تحققت من أن أوهامى كانت كفقاعات الماء .. !! يا إلهى ..! »
« أنا عاجز حيران . . فلا أعرف ما أملك ... ولا أملك ما أعرف . . ! ! »

وفيما يلى ترجمة لإحدى الرباعيات المشهورة التى ينسبونها إليه :

— حذار حذار أن يأخذك التيه والعجب والدلال ،
— فتظن نفسك أعلا قدراً من سائر الرجال . . ! !
— واجتهد دائماً أن تتمثل إنسان عينك وقدرته ،
— فهو يرى كل شىء ... إلا نفسه وصورته . . . !!

والرباعية التالية تكفى مثلا لسائر رباعياته :

— أنا ثمل بك . ... فلا حاجة بى إلى الكأس والشراب ...!!
— وقد وقعت فى شراكك بعدما تحررت من سائر الشباك والأحابيل .
— وأنا دائم السعى وراءك ، ألتمسك فى الكعبة وفى سائر المعابد
— ولافرق عندى بين هذه وتلك ... ولاهدف لى إلا أن أفوز بلقائك ..!!

* * *

وقد ذكر « إتيه » أن الشيخ « أبا عبدالله الأنصارى » ألف الكتب الآتية :

١ — « نصيحت » أو النصيحة ... وقد أهداه لنظام الملك .
٢ — « إلهى نامه » أو الكتاب الإلهى
٣ — « زاد العارفين » .
٤ — « كتاب أسرار » أو كتاب الأسرار .
٥ — تهذيب لكتاب « طبقات الصوفية » للسلمى .
٦ — « أنيس المريدين وشمس المجالس » : وهو عبارة عن قصة « يوسف وزليخا » مكتوبة نثراً (١) .

---

(١) المترجم : يعتبر الأنصارى أول من استعمل النثر المسجوع فى الفارسية ، وقد كان قادرا على التأليف بالفارسية والعربية . ومن آثاره بالفارسية مايلى :
١ — رسالة أسرار : وهى مخطوطة بالمتحف البريطانى .
٢ — مناجات نامه : وقد طبعت فى طهران كما طبعت فى شيراز باسم « أنوار التحقيق » =

ومتى وصلنا إلى هذا الحد ، وجب علينا أن ننتقل إلى الحديث عن طائفة من شعراء هذا العصر الذين لم يشتهروا بالتصوف ، ولابد أن نذكر منهم على الأقل أربعة شعراء ... هم :

١ ـ « أسدى الأصغر » ... من شعراء طوس
٢ ـ « فخر الدين أسعد » ... من شعراء جرجان
٣ ـ « فصيحى » ... ... من شعراء جرجان
٤ ـ « قطران التبريزى » ... من شعراء تبريز

قطران التبريزى

ولنبدأ الآن بالشاعر الأخير من هؤلاء الأربعة ، فقد قابله « ناصر خسرو » وتحدث معه أثناء توقفه بمدينة تبريز فى الفترة الواقعة بين ٢٦ أغسطس و١٨ سبتمبر سنة ١٠٤٦ م = ٢٠ صفر سنة ٤٣٨ هـ – ١٣ ربيع الأول ٤٣٨ هـ .

وقد تحدث « ناصر خسرو » عن هذا الشاعر بما يلى : (١)

« وقد رأيت فى تبريز شاعراً ، اسمه « قطران » يقول شعراً طيباً ولكنه لا »
« يعرف الفارسية جيداً . وقد حضر إلى وأحضر معه ديوان منجيق وديوان »
« الدقيق وقرأ منهما أمامى ، وكلما أشكل عليه المعنى سألنى ، فأجبته ، فكان »
« يكتب شرح الأبيات والمعانى الصعبة ، ثم يقرأ على بعض أشعاره » .

وقد كتب عن هذا الشاعر كل من « عوفى » و « دولتشاه » فى كتابيهما

---

٣ — نصايح : وقد طبعت فى برلين سنة ١٣٤٢ هـ ومعها « مناجات نامه »
٤ — كنز السالكين : مخطوطة فى مكتبة المجلس الملى بطهران بعنوان « گنجنامه »
٥ — قلندر نامه : مخطوطة فى مكتبة المجلس الملى بطهران تاريخها سنة ٩١٠ هـ
٦ — محبت نامه : وقد طبعت فى شيراز باسم « مقالات »
ومن آثاره بالعربية كتاب « ذم الكلام » وكتاب « منازل السائرين »

(١) انظر ص ٦ من الأصل الفارسى لكتاب « سفر نامه »

« لباب الألباب » و« تذكرة الشعراء » (١) ولكن الأخبار التي أوردها عن تاريخ حياته هزيلة للغاية . ويرى « عوفي » أن « قطران » ينتسب إلى مدينة « تبريز » ولكن « دولتشاه » يعتقد أنه من أهالي « ترمذ » ويخالفهما « شيفر » فيرى أنه ولد في جبال الديلم فيما بين مدينة قزوين وبحر قزوين .

ويتحدث «دولتشاه» عن هذا الشاعر فيقول : أنه أنشأ مدرسة في الشعر كانت تضم جماعة من الشعراء الممتازين من أمثال « الأنوري » و « رشيدي السمرقندي» و « روحي الولوالجي » و «شمس سيمكش» و« عدناني » و « پسر خمخانه »(٢) ثم يضيف إلى ذلك قوله : «إن الكاتب الشاعر رشيد الدين الوطواط اعتاد أن يقول إنه يعتبر قطران سيد الشعراء جميعا في أيامه، وأما باقي الشعراء فهم شعراء عن طريق الطبع لا عن طريق العلم » .

ولا شك أن «الوطواط» كان محقا فيما قال ، لأن قطران كان أول من أكثر من إدخال الصنعة والمحسنات البلاغية في الشعر الفارسي بحيث بذ في ذلك أكثر الشعراء الذين سبقوه ، ولم ينس « دولتشاه » أن يقرر ذلك فيقول « أنه اجتهد في نظم الأشعار المشكلة مثل المربعات والمخمسات والقصائد ذات القافيتين » .

وقد امتاز «قطران» خاصة بنظم القصائد ذات القافيتين . وقد حاول شعراء متأخرون أن يقلدوه ، ولكن القليل منهم هو الذي استطاع أن يتفوق عليه في هذا المضمار ، ونحن نذكر جميعا أن « المعزي » شاعر السلطان « سنجر » كان بين مقلديه ، وأنه أنشأ قصيدة مشهورة ذات قافيتين مطلعها كما يأتي :

أي تازه تر از برگ گل تازه ببر بر پرورده ترا دايهء فردوس ببر بر

ومعناه :

— يامن أنت أينع من الورد النضير . . . هلا ضممتني إلى صدرك

لقد غذتك مرضعة الفردوس بثديها البار

ومن العسير تأدية هذه الصنعة البديعية في الإنجليزية ، ومن أجل ذلك فأنا أترك

---

(١) أنظر «لباب الالباب» ج ٢ ص ٢١٤ — ٢٢١ وكذلك «تذكرة الشعراء» ص ٦٧-٦٩

(٢) معناه الحرفي « ابن الحانة »

مجال الحكم على جمالها لمن شاء أن يقرأ أشعار « قطران» بأصلها الفارسى ، فأغلبها يمثل هذه الصنعة البديعية التى تقوم على المحسنات اللفظية أكثر مما تقوم على المحسنات المعنوية ؛ وقد عجزت ترجمتى للبيت السابق عن محاكاة هذه الصنعة ؛ لأن كل شطرة يجب أن تنتهى بكلمة تكون فى بنائها ونطقها مشابهة تماما للمقطع الأخير من الكلمة السابقة عليها ، كما نجد

فى كلمتى « فرسنگ » بمعنى الفرسخ و « سنگ » بمعنى الحجر
وفى كلمتى « نارنگ » بمعنى النارنج و « رنگ » بمعنى اللون
وفى كلمتى « آموى » بمعنى نهر جيحون و « موى » بمعنى الشعر

فإذا شئنا محاكاة هذه الصنعة فى الإنجليزية وجب علينا أن نصوغ شعرا تراعى فى كل بيت من أبياته المحافظه على الوزن والقافية وكذلك أن ينتهى بكلمتين مثل:

« recoil » و « coil »
« efface » و « face »
« refuse » و « use »

وإذا كان هذا عسيرا جدا فى الإنجليزية ، فإنه فى الفارسية يبدو برغم التكلف والتصنع الباديان فيه ، جميلا للغاية ، إذا أحسن الشاعر أداءه وصياغته (١) .

أسدى الأصغر

يجب علينا أن نفرق بين أسدى الأصغر الذى يسمى « عليا » وهو مؤلف « گرشاسب نامه » (٢) فى سنة ٤٥٩ هـ = ١٠٦٦ م وبين أبيه « أبى نصر أحمد » أستاذ الفردوسى ومخترع شعر المناظره الذى سبق لنا الحديث عنه والذى توفى أثناء حكم السلطان مسعود الغزنوى فى الفترة الواقعة قبل سنة ٤٣٣هـ = ١٠٤١ م

ومن أهم الأمور التى تتصل بأسدى الأصغر ، أنه ما زال فى حوزتنا مخطوط

---

(١) المترجم : انظر صنعة « ذى القافيتين » فى ترجمتى العربية لكتاب « حدائق السحر فى دقائق الشعر» طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥م وهناك ضرب آخر من هذه الصنعة تكون فيه للقصيدة قافيتان متجاورتان :

(٢) «گرشاسب نامه» هى إحدى المنظومات الفارسية التى نظمت تقليدا لشاهنامة الفردوسى

كامل كتبه بخط يده فى شوال سنة ٤٤٧ هـ = ديسمبر سنة ١٠٥٥ . ويعتبر هذا المخطوط أقدم المخطوطات الفارسـية المعروفة لنا حتى الآن وهو محفوظ فى مكتبة « ڤينا » وقد طبعه الدكتور «زيليجمان» (١) طبعة أنيقة فى « ڤينا » سنة ١٨٥٩م ثم ترجمة إلى الألمانية «عبد الخالق» (٢) وطبع هذه الترجمة بدون تاريخ فى مدينة « هاله Halle »

وموضوع هذا المخطوط هو دراسة الأدوية ، وقد أسماه مؤلفه باسم « كتاب الأبنية عن حقائق الأدوية » . ومؤلفه هو «ابو منصور الموفق بن على الهروى» وقد ذكر الناسخ اسمه فى خاتمة الكتاب على هذا النحو «على بن أحمد الأسدى الطوسى الشاعر »

أما « گرشاسب نامه » فعبارة عن ملحمة منظومة يصف فيها الشاعر أعمال «گرشاسب» ومخاطراته ؛ و«گرشاسب» هو أحد أبطال الأساطير فى ولاية «سجستان» وتشتمل قصته فى هذه المنظومة على تسعة آلاف بيت أو عشرة آلاف ، وأسلوبها شبيه جداً بأسلوب ال«شاهنامه» ويؤسفنى أننى لا أستطيع أن أذكر رأيى فيها لأننى لم أستطع أن أظفر بالاطلاع على إحدى المخطوطات العشر التى ذكرها « إتيه » لهذه المنظومة (٣) ، وكل ماوقع فى يدى هو هذه القطوعات المتناثرة التى نشرها « ترنر مكن » فى طبعته لكتاب «الشاهنامه» (٤)

وأهم من ذلك وأمتع فى رأينا ، هو معجمه اللغوى المسمى بـ«لغت فرس» أو «لغة الفرس» ومخطوطته محفوظة فى «الڤاتيكان» وقد طبع فى مدينة «توبنجن» سنة ١٨٩٧ م ، وقام على طبعه الدكتور «پول هورن» (٥) فاعتبر عمله هذا

---

(١) يكتب اسمه بالحروف الافرنجية هكذا : Dr Seligmann.

(٢) كتب اسمه بالحروف الأفرنجية هكذا : Abdul Chalig Achundow.

(٣) انظر مقالته (ص ٢٢٣ — ٢٢٥) من الجزء الثانى من كتاب « المفصل فى الدراسات اللغوية الإيرانية » وكذلك مقالته عن Persische Tenzonen فى صفحة (٦٢ — ٦٦) من المجلد الثانى من تقارير المؤتمر الدولى الخامس للمستشرقين .

(٤) انظر ص ٢٠٩٩ وما بعدها

(٥) يكتب اسمه بالأفرنجية هكذا : Paul Horn

أهم أعماله الكثيرة التى خدم بها الأدب الفارسى . . وقد عثر «إتيه» بعد ذلك التاريخ على نسخة أخرى من هذا المعجم فى «إدارة الهند» تحت رقم ٢٥١٦ المساوى لرقم ٢٤٥٥ من الفهرست الذى وضعه للمخطوطات الفارسية ، وقد أشار « إتيه » إلى الاختلافات الهامة التى توجد بين هاتين النسختين من المعجم . ونسخة «الفاتيكان» هى أقدم النسختين وتاريخ كتابتها هو ٣٠ سبتمبر سنة ١٣٣٢م = ٧٣٣هـ . ويبدو أن «أسدى» قد أخذ فى تصنيف هذا المعجم فى أواخر حياته [1] ولكن من العسير أن نحدد الفترة التى قام فيها بهذا العمل . وهذا المعجم لا يتناول بالشرح إلا الكلمات الفارسية المهجورة ، ولكن أهميته العظمى ترجع إلى أن كل كلمة من هذه الكلمات قد فسرت بشاهد من الشواهد التى قالها واحد من الشعراء الأقدمين ، ومن بين هؤلاء كثرة لم نكن نعلم عنهم شيئا من قبل . وجملة الشعراء المذكورين فى هذا المعجم هو اثنان وسبعون شاعرا ؛ وتتضمن شواهده مقطوعات من نظم «الرودكى» لكتاب «كليلة ودمنه» وهو كتاب مفقود ، وكذلك شواهد أخرى من جملة من القصائد التى لم تكن معروفة لنا بالمرة أو كانت معروفة باسمها فقط . ومن أهم الملاحظات التى تسترعى نظرنا فى هذا المعجم حذف المصنف لاسم «ناصر خسرو» وقد رأينا فيما سبق أن «عوفى» أيضا تجاهل هذا الشاعر تجاهلا كليا . ولا شك أن تفسير ذلك راجع – فى رأيى – إلى الكراهية الشديدة التى أحس بها أهل السنة للاسماعيليين وما اقترن بذلك من الخوف والفزع من أتباعهم .

فخر الدين الجرجانى

أما «فخر الدين أسعد الجرجانى» فليس معروفا لدينا إلا بوصفه ناظم القصة «ويس ورامين» . وهى قصة من أقاصيص الحب قيل إنها ترجع إلى أصل پهلوى [2] ويشبهها «إتيه» بقصة «ترستان وايزلت» . ومن المستغرب أن «عوفى» أيضا يقرر فى كتابه

---

(١) أنظر مقدمة « پول هورن » ص ٣١

(٢) انظر ص ١١ من الطبعة التى نشرها Nassau Lees فى مدينة كلكتا سنة ١٨٦٥ ضمن سلسله المكتبه الهنديه Bibliotheca Indica Series

نه لم يعثر (١) من أشعار هذا الشاعر إلا على خمسة أبيات هى جملة ماأ مكنه العثور عليها بالإضافة إلى أشعاره الواردة فى هذه المنظومة ، ويتناول الشاعر فى هذه الأبيات الخمسة الحديث عن مقدار ألمه وجزعه لما صادفه من مولاه « ثقة الملك شهريار » من عدم تقدير ورعاية ، رغم «الأشعار الكثيرة » التى أنشدها فى مدحه والإشادة بذكره ثم ينتهى فى البيتين الأخيرين من هذه الأبيات بالإقذاع فى شتمه وسبه وبأنه « لم ير أويسمع عن آدمى متصف بصفات الثيران والأبقار غيره ....!! » (٢)

أما «دولتشاه» فلا يذكر شيئا عن هذا الشاعر وينسب قصة « ويس ورامين» إلى «نظامى العروضى السمرقندى» أو إلى « نظامى الكنجوى » كما يقول بذلك آخرون على حد تعبيره فى ص ٣٠ و ١٦٠ من كتابه « تذكرة الشعراء »

وقد تم نظم قصة «ويس ورامين » فى سنة ٤٤٠هـ = ١٠٤٨م عقب تغلب « طغرلبك » على «الرومان» ، وقد أهداها الشاعر لوزير هـذا السلطان المسمى بـ «أمين الدين أبى الفتح المظفر النيسابورى»

وقد طبعت هذه المنظومة لأول مرة نقلا عن مخطوطة معيبة ، ونشرت ضمن « المكتبة الهندية » فى سنة ١٨٦٥م .

ويقول «إتيه» إن أهمية هذه المنظومة يرجع إلى شىء واحد ، هو أن هـذه المنظومة تعتبر أولى المنظومات التى انقسم بوجودها «الشعر المثنوى» إلى قسمين متمايزين : أحدهما الشعر المثنوى الذى صيغت فيه قصص الحب والغرام وقد خصصوا له وزن

---

(١) انظر ص ٢٤٠ من الجزء الثانى من « لباب الألباب »

(٢) المترجم : فيما يلى نص هذه الأبيات بالفارسية

بسيار شعر گفتم وخواندم برو زگار	يك يك بجهد بر ثقة الملك شهريار
شاخى تر از اميد بكشتم بخدمتش	آن شاخ خشك گشت ونياورد هيچ بار
دعوىء شعر كرد وندانست شاعرى	وآنگاه كرد نيز بنادانى افتخار
زو گاو تر نديدم ونشنيدم آدمى	در دولتش عجب غلطى كرد روزگار
اميد من دريغ بدان خام قلتبان	أشمار من دريغ بدان روسپى نبار

«الهزج» ، والآخر الشعر المثنوى الذى صيغت فيه قصص الملاحم والأبطال ، وقد خصصوا له وزن «المتقارب» . وفيما يلى أربعة أبيات من «أغنية رامين» نجدها فى ص ١٤٢ سطر ١١ — ١٤ :

خوشا ويسا نشسته پيش رامين چنان كبك درى در پيش شاهين
خوشا ويسا نشسته جام بر دست هم از باده هم ازخوبى شده مست
خوشا ويسا بكام دل نشسته اميد اندر دل موبد شكسته
خوشا ويسا بخنده لب گشاده لب انگه بر لب رامين نهاده

ومعناها :(١)

ـــ ما أبدع « ويس » وقد جلست أمام « رامين »
كأنها تدرجة الوادى أمام الصقر والشاهين ....!!
ـــ وما أبدع « ويس » وقد جلست وفى يدها الكأس والجام
وقد بدت مخمورة بالشراب وبالجمال التام ..!!
ـــ وما أبدع « ويس » وقد جلست هانئة البال
وقد انكسر قلب « الموبذ » وأصابه الوبال...!!
ـــ وما أبدع « ويس » وهى باسمة مفترة الثغر
قد انطبقت شفتها على شفة « رامين » بعد طول الهجر ....!!

قصة « وامق وعذرا »

أما قصة « وامق وعذرا » فأول من نظمها بالفارسية هو « العنصرى » ثم نظمها «فصيحى الجرجانى» بعد ذلك فى تاريخ متأخر عن سنة ٤٤١ هـ = ١٠٤٩م ويقولون أيضا أنها مستقاة من أصل پهلوى . وقد كتب عنها «دولتشاه » مايلى :(١)

---

(١) المترجم : ترجم المؤلف هذه الأبيات إلى الانجليزية ولم نر داعيا إلى إيراد ترجمته ، واستعضنا عن ذلك بإيراد أصل هذه الأبيات بالفارسية وترجمتها إلى العربية عن نسخه «ويس ورامين » طبع «مجتبى مينوى » سنة ١٣١٤هـ . ش بطهران

(٢) أنظر « تذكرة الشعراء » ص٣٠ سطر ٣ ـــ ١٢

« ويروون أيضا أن الأمير عبد الله بن طاهر أمير خراسان أثناء حكم الخلفاء »
« العباسيين (من سنة ٢١٣ هـ إلى سنة ٢٣٠ هـ = ٨٢٨ — ٨٤٤ م) كان »
« يجلس فى يوم من الأيام فى مدينة نيسابور ، فأحضر إليه شخص كتابا وقدمه »
« إليه على سبيل الهدية . فسأله الأمير : ماهذا الكتاب ؟ فأجابه : إنه قصة »
« وامق وعذرا ، وهى حكاية طيبة جمعها الحكماء لكسرى أنو شروان .. ! »
« فقال الأمير: إننا قوم لا نقرأ غير القرآن ، ولا نريد غير قراءته وقراءة أحاديث »
« الرسول ، ولا حاجة بنا إلى مثل هذا الكتاب لأنه من تواليف المجوس وهو »
« مردود لدينا . ثم أمر بهذا الكتاب فألقوه فى النهر ، وأمر الناس أن يحرقوا »
« تصانيف العجم وكتب المجوس أينما وجدت فى ولاياته ، ومن أجل ذلك لم توجد »
« أشعار فارسية حتى أيام السامانيين، وإذا وجدت أشعار فارسية قبل هذا الزمن »
« فإنها كانت تنشد دون أن تدون . »

وقد ذكر « إتيه » أن هذه القصة نظمت ست مرات فى الفارسية ، ولكن يبدو أن هذه المنظومات الست قد ضاعت جميعا ، ولم تصل إلينا ، ولم يبق مايدلنا على موضوعها إلا مانقله الينا الشاعر « لمعى » فى ترجمته التركية التى نقلها عن منظومة « العنصرى » وهى أولى هذه المنظومات من الناحية التاريخية ولو أن عوفى لم يورد عنها شيئا إلا مجرد الإشارة إليها (١) . أما « دولتشاه » فيذكر فى مقالته التى خصصها لترجمة حال « فصيحى الجرجانى » أنه رأى بضع أوراق متناثرة من منظومة هذا الشاعر لهذه القصة ، وقد نقل منها بيتا واحدا ، صياغته على وزن ال«شاهنامه» أى على وزن المتقارب المثمن (٢) . ثم يجتهد « دولتشاه » فى أن يعوضنا عن قلة الأخبار التى أوردها عن هذا الشاعر بكتابة مقال قصير عن سيده وراعيه « عنصر المعالى كيكاوس » حفيد « قابوس بن وشمكير » أمير « طبرستان » الذى امتاز بتفوق أدبى نادر مكنه من تأليف كتاب « قابوس نامه » وهو الكتاب الذى سنتحدث عنه مباشرة فى هذا المقام .

---

(١) انظر « لباب الألباب » ج ٢ ص ٣٢ سطر ١ — ٩

(٢) المترجم : هذا هو نص البيت الذى ذكره دولتشاه فى ٦٩ من تذكرة الشعراء :

چه فرخ وجودى كه از همتش بميرد بپاى ولى نعمتش

قابوس نامه :

هـذا كتاب يشتمل على موضوعات تتصل بمبادىء الأخلاق وقواعدها ؛ وقد ألفه « كيكاوس » فى سنة ٤٠٥ هـ = ١٠٨٣ م وكان له من العمر ثلاث وستون سنة ، ووجهه إلى ابنه « كيلانشاه»

ومخطوطات هذا الكتاب موجودة فى المتحف البريطانى (رقم Or. ٣٢٥٢) وفى ليدن وبرلين ؛ وقد طبع هذا الكتاب على الحجر فى مدينة طهران وتولى طبعه « رضا قلى خان » فى سنة ١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨ م ؛ وترجمه إلى الفرنسية الأستاذ « كويرى : Query » ونشر هذه الترجمة فى باريس سنة ١٨٨٦م ؛ وترجم الكتاب إلى اللغة التركية ثلاث مرات ذكرها الدكتور « ريو » فى الفهرست الذى صنفه للمخطوطات التركية ؛ وقد ضاعت على مايظهر أولى هـذه الترجمات [١] من الناحية التاريخية .

وفاز هذا الكتاب بشهرة عريضة ، وهو بغير شك قمين بها وأهل لها ؛ لأنه ملىء بالحكمة والبراعة ، غنى بالحكايات والأمثلة ؛ يضاف إلى هـذا كله أنه كتاب ملكى كتبه صاحبه بأسلوب صريح لا مواربة فيه ، مستمدا موضوعاته من تجاربه الكثيرة الناضجة وخبرته الطويلة الكاملة . وهو شبيه فى كل هـذه الأمور بكتاب « سياست نامه » الذى سبق لنا الحديث عنه فيما مضى من صفحات .

ويشتمل « كتاب قابوس » على أربعة وأربعين فصلا ومقدمة تشتمل على شكوى الأمير الذى ألفه من تناقص طاعة الأبناء لآبائهم ، وحث ابنه على أن ينهج فى حياته نهجا فاضلا ، مذكرا إياه بأنه ينتسب من ناحية أبيه إلى ملك « كيلان » القديم « ارغش فرها دوند » الذى ذكره « ابن المؤيد البلخى » فى شاهنامته ؛ وبأنه ينتسب من ناحية جدة أبيه إلى «مرزبان بن رستم بن شروين» مؤلف كتاب «مرزبان نامه » الذى يعتبر من الطبقة الثالثة عشرة من أحفاد « كيكاوس بن قباد » أخى

---

(١) أنظر ص ١١٦ من فهرست « ريو » للمخطوطات التركية

«كسرى أنو شيروان» الملك الساسانى ، وبأن أمه بالإضافة إلى ذلك هى ابنة السلطان «محمود الغزنوى»، كما أن والدة جدة أبيه هى ابنة «الحسن بن فيروزان» ملك الديلم .

ويتلو المقدمة مشتملات الكتاب على هذا النحو :

الفصول الأربعة الأولى	: فى الله والخليقة والرسل والطاعة والواجبات الدينية
الفصل الخامس	: فى معرفة حقوق الوالدين
الفصلان السادس والسابع	: فى التواضع والفضل وتنمية المدارك والمعارف
الفصل الثامن	: فى المواعظ المنقوشة بالپهلوية على مقبرة «أنوشيروان»
الفصل التاسع	: فى الشيب والشباب
الفصل العاشر	: فى فائدة الإقلال من الأكل وتنظيم الطعام
« الحادى عشر	: فى ترتيب الشراب وشرائطه
« الثانى عشر	: فى الضيافة والاستضافة
« الثالث عشر	: فى المزاح ، والنرد والشطرنج
« الرابع عشر	: فى العشق والحب
« الخامس عشر	: فى التمتع بالحياة
« السادس عشر	: فى فائدة الحمام الساخن وآدابه
« السابع عشر	: فى النوم والاستجمام
« الثامن عشر	: فى الصيد
« التاسع عشر	: فى لعبة الكرة والصوالج
« العشرون	: فى الحرب والقتال
« الحادى والعشرون	: فى الغنى وجمع المال
« الثانى والعشرون	: فى حفظ الأمانات والوفاء بالعهود
« الثالث والعشرون	: فى شراء العبيد
« الرابع والعشرون	: فى شراء العقارات والمنازل
« الخامس والعشرون	: فى شراء الخيول والدواب
« السادس والعشرون	: فى الزواج وشروطه

الفصل السابع والعشرون : في تربية الأطفال
« الثامن والعشرون : في اختيار الأصحاب
« التاسع والعشرون : في الحذر من الأعداء
« الثلاثون : في العفو والعقاب
« الحادى والثلاثون : في طالب العلم والفقه
« الثانى والثلاثون : في التجارة
« الثالث والثلاثون : في علم الطب
« الرابع والثلاثون : في علم النجوم والهندسة
« الخامس والثلاثون : في فن الشعر
« السادس والثلاثون : في فن الموسيقى
« السابع والثلاثون : في خدمة الملوك
« الثامن والثلاثون : في منادمة الملوك وآدابها
« التاسع والثلاثون : في الكتابة وأدب الكتاب
« الأربعون : واجبات الوزير
« الحادى والأربعون : في صفات القائد وواجباته
« الثانى والأربعون : في صفات الملك وواجباته
« الثالث والأربعون : في الزراعة والفلاحة وأصحاب الحرف
« الرابع والأربعون : في المروءة والشهامة .

ويحتوى كتاب «قابوس نامه» كما يحتوى كتاب « سياست نامه » على حكايات تبلغ إحدى وخمسين حكاية ، يسوقها المؤلف توضيحا لآرائه ، وهى جميعها مستقاة من تجاربه الشخصية ، وأغلب هذه الحكايات توجد في مجموعات الحكايات الفارسية (١) دون أن تنسب إلى شخص معين ؛ ولكننا إذا رجعنا إلى أصلها في كتاب «قابوس نامه» نجد أنها تنسب إلى أشخاص معينين معروفين ؛ ومع ذلك فهناك بضع حكايات في هذا

---

(١) توجد مثلا في كتاب النحو الفارسى الذى ألفه «فوربس»
Forbes' Persian Grammar.

الكتاب لم ينسبها المؤلف إلى أحد من الناس ، وإن كان بعض الكتاب المتأخرين قد نسبوها إلى جماعة من مشاهير الرجال .

وإنى أكتفى هنا بذكر مثل واحد من الحكايات المنسوبة ، وهو الحكاية المذكورة فى الصفحات ١٤٣ – ١٤٦ من طبعة طهران على الحجر ، وتتعلق بحكمة القاضى «أبى العباس الرويانى» وكيف استشهد فى إحدى القضايا المعروضة عليه بشهادة إحدى الأشجار ؛ وقد ذكرت هذه القصة مرة أخرى ونسبت إلى نفس الشخص فى الكتاب الذى ألفه «ابن اسفنديار» عن «تاريخ طبرستان» [١] فإذا أتينا إلى كتاب «فوربس» عن «النحو الفارسى» وجدنا نفس هذه الحكاية مذكورة فى باب الحكايات دون أن تنسب إلى شخص معين على وجه التحديد [٢] .

وأما الحكايات التى لم ينسبها صاحب «قابوس نامه» إلى أحد من الناس فإنى أكتفى بأن أذكر منها تلك الإشارة الواردة فى ص (٢١٠) عن العادة التى جرى عليها اليونان بعدم السماح لأحد من الناس أن يضرب شخصا سبق أن ضربه ملكهم ، احتراماً لما ناله من شرف المجازاة على يد ملكهم ، وأنه لا يستطيع أن يضربه إلا من كان مساويا فى مرتبته للملوك ، وقد ذكر «دولتشاه» أن هذا التقليد كان متبعا فى أيام السلطان «محمود الغزنوى» ونسبه إليه [٣] ومع ذلك فما لا شك فيه أن «دولتشاه» مدين فى اجتلاء هذا الخبر وغيره من الأخبار إلى كتاب «قابوس نامه» ولو أنه لا يذكره إلا مرة واحدة فى ص ٦٩ . ولا شك أيضا أنه استقى منه أخباره عن عزل قابوس بن وشمگير ومقتله [٤] وكذلك أخباره عن الإجابة الجريئة التى أجابت بها

---

(١) أنظر مخطوطة إدارة الهند رقم ١١٣٤ ورقة ٥٩ – ا

(٢) انظر الحكاية رقم ٧١ فى صحيفة ٢٨

(٣) المترجم: انظر ص ٧ من «تذكرة الشعراء» حيث يقول: «حكايت كنندكه سلطان محمود غزنوى هركس راكه بدست خود بزدى آن كسى را ديگر هيچ آفريده نتوانستى زدن وگفتندى كه همچون محمود كسى بايدكه اورا بزند»

(٤) انظر ص ٤٨ من المرجع السابق .

«السيدة» والدة «مجد الدولة» فاستطاعت أن تمنع السلطان «محمودا الغزنوى» من مهاجمة عاصمتها فى مدينة الرى.(١)

أما الحكاية الشهيرة عن الهديد الذى أرسله السلطان «محمود الغزنوى» لأحد أعدائه وكيف أجاب عليه هذا العدو بالحروف «ا . ل . م .» فترد فى الصفحات ١٨٥–١٨٧ من «قابوس نامه» ولكنها تنسب هذه الإجابة إلى الخليفة «القادر بالله» ولا تنسبها إلى ملك طبرستان، وتقول إن الشخص الذى استطاع أن يحل هذا اللغز هو «أبو بكر الكهستانى» وأنه رقى فى منصبه لقاء مهارته، وبذلك يستبعد اسم «الفردوسى» عن هذه القصة نهائيا.(٢)

وفيما يلى قائمة بالحكايات المروية فى «قابوس نامه» رأيت أن أوردها فى هذا المقام لما بها من نفع أو متعة لبعض القراء. وقد ذكرت أمام كل حكاية رقم الفصل والصحيفة وفقاً للنسخة المطبوعة على الحجر فى مدينة طهران سنة ١٢٨٥هـ

١ – حكاية الحاج الغنى وإجابته القاسية على سؤال فقير ... فصل ٤ صفحة ٢٠

٢ – حكاية الخليفة المتوكل وكيف نجا عبده الخاص «فتح» من الغرق . . . . فصل ٦ صفحة ٢٨

٣ – حكاية أفلاطون وكيف غضب عندما مدحه أحد الجهال فصل ٦ صفحة ٣٤

٤ – حكاية الطبيب محمد بن زكريا الرازى وكيف اضطرب عند ما ضحك إليه مجنون . . . . . فصل ٦ صفحة ٤٥

٥ – حكاية كسرى أنو شروان ووزيره بزرجمهر ... فصل ٧ صفحة ٣٧

٦ – حكاية عن الكف عن رواية الأخبار العجيبة ولو كانت صادقة مالم تكن مؤيدة بالبرهان الحاضر ... فصل ٧ صفحة ٣٩

٧ – حكاية عن أهمية التفسير متعلقة بحلم هارون الرشيد والرجلين اللذين عبرا له رؤياه . . . . فصل ٧ ص ٤٢

---

(١) انظر إلى ما سبق لنا ذكره عن هذه الأخبار ضمن أخبار «بندار الرازى» وانظر كذلك «قابوس نامه» ص ١٢٨ و «تذكرة الشعراء» ص ٤٣ — ٤٤

(٢) ارجع إلى خلاصة هذه القصة فى الصفحات السابقة عند ذكر صنعة «التلميح» فى الفصل الأول من هذا الكتاب (ص ٩٢ — ٩٣).

---

(١) تروى هذه القصة عادة عن «هرمزان الفارسى» والخليفة «عمر» . انظر تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٢٥٥٨ — ٢٥٥٩

٥١ — حكاية عما وقع بين دوريشين من أهل الصوفية . . . . . . فصل ٤٤ صفحة ٢٢٣

وأغلب هذه الحكايات جميل وأصيل ، يبلغ حد الروعة والإمتاع .

وتشتمل « قابوس نامه » بالإضافة إلى هذه الحكايات على جملة من الأشعار ، أكثرها عبارة عن « رباعيات » من نظم المؤلف نفسه . وقد استشهد المؤلف أيضا بأشعار من قول «أبي سعيد بن أبي الخير » و«أبي شُكُور البلخي » و « أبي سليك الجرجاني »(١) و «العسجدي» و «الفرخي» و « لبيبي » و « قمري الجرجاني » . وأورد المؤلف كذلك بيتاً منظوما في اللهجة الطبرية وقرنه بترجمة صاغها له باللغة الفارسية (٢) .

أما الأشخاص الذين ذكرهم المؤلف في حكاياته ، فمن بينهم جملة من حكماء اليونان هم: «فيثاغورث» و«سقراط» و «أفلاطون» و« بقراط » و« جالين» و«الأسكندر الأكبر » ؛ ومن بينهم جملة من ملوك الساسانيين ووزرائهم هم: «أنوشيروان » و «بزرجمهر» و «شهربانو» بنت يزدجرد الثالث التي وقعتْ أسيرة في أيدي العرب وتزوجت بالحسين ؛ ومن بينهم طائفة من آل الرسول كعلي والحسن والحسين ؛ وذكر المؤلف من الأمويين «معاوية» ؛ ومن العباسيين «هارون الرشيد» و «المأمون» و «المتوكل» و «القائم» كما ذكر طائفة من حكام فارس المسلمين ووزرائهم مثل «عمرو بن الليث » و«السلطان محمود» و «السلطان مسعود الغزنوي» و«أبي الفضل البلعمي » و « الصاحب اسماعيل ابن عباد » و « أبي علي سيمجور » و « طغرل السلجوقي » و « نوشتكين » و « الحسن بن الفيروزان الديلمي » و « شمس المعالي قابوس » و « شرف المعالي » وغيرهم ممن لا يبلغون مبلغ هؤلاء في الأهمية ووضوح الشخصية .

---

(١) ذكر عنه أنه مخترع لنوع من الألحان .

(٢) انظر ص ٨٦ من «قابوس نامه» .

ومؤلف « قابوس نامه » لايروى فى كتابه إلا القليل الأقل مما يتصل بحياته الشخصية ؛ وقد أوصل نسبه إلى «أنو شيروان» كما قالت بذلك أيضا كتب المصادر الأخرى ؛ ثم هو يذكر أنه أدى فريضة الحج إلى مكة المكرمة أثناء خلافه «القائم» وأنه اشتغل بالجهاد الديني وحارب أهل الهند وجورجيا وأرمينيا . ويذكر أحيانا بعض الأخبار المتصلة بأسلافه وأقاربه من « آل زيار » فيترك لنا تقريراً كاملا عن الأحوال التي عزل فيها وقتل بسببها «قابوس» وكيف قتل اثنان من أسلافه هما «وشمگير» و «شرف المعالى» بطريق القضاء والقدر بينما كانا يقومان بالصيد والطراد .

أسلوب « قابوس نامه » :

الأسلوب الذى كتب به كتاب «قابوس نامه» يعتبر من أجمل الأمثلة للنثر الفارسى البسيط الذى لاعوج فيه ؛ وهو من حيث الصنعة والتنميق يفضل كتاب «سياست نامه» ولكنه لا يبلغ مبلغ التزويقات البلاغية التى نصادفها فى كتب أخرى مثل كتاب «گلستان» . والكتاب مشحون بكثير من المعنويات والفكاهات والأمثال ذات المغزى الرائع ؛ وفيما يلى طائفة من الأمثال نسوقها على سبيل المثال :

« كل طائر يطير مع ما شاكله »	ص ٤٥
« المرء فى داره كالملك فى مملكته »	ص ٦١
« خير للبنت ألا تولد ، فإذا ولدت فزوجها أوفاقبرها » .	ص ١٢٠
« المنزل الذى يشتمل على سيدتين يبقى بغير كنس » . .	ص ١٧٩
« عصفور فى اليد خير من طاووس مرتقب » . . .	ص ١٧٩
« لا يموت أحد من الناس إلا إذا حان أجله ، ولن يحين أجله إلا إذا ذهب إلى بردع[1] فى أثناء الصيف » . . .	ص ١٧٩
« من أتعس الأمور أن يحتاج الرقيب إلى من يراقبه » .	ص ١٩٩

(١) بردع أو بردعه أو برذعه بلدة فى أذربيجان : انظر القاموس الجغرافى الذى وضعه المستشرق « باربييه دى مينار » ص ٩١ –٩٣ . ولم أظفر بما يؤيد أن هذه المدينة كانت موبؤة من الناحية الصحية .

« إذا أردت أن تدخل مكانا فانظر أولا كيف تخرج منه ». ص ٢٠٢
« مهما بلغ الأمر فلن يؤتمن القط على الشحم ....!! » . ص ٢٠٤

والمؤلف يعرض علينا أفكاره فى خليط عجيب من الصنعة والبساطة ، والشك والزهادة ، والاستخفاف والعفاف ؛ فنراه يعالج بعض الموضوعات الأخلاقية دون أن يتعرض لناحيتها الروحية ، فيكتفى ببيان فائدة الصلاة والصوم والواجبات الدينية الأخرى ، ويقرر أنها وسيلة لطهارة الأبدان والتواضع والتعفف ، ويقول بوجوب اتباع أحكام الإسلام لأنه لاتوجد حكومة أقوى من حكومة الإسلام ؛ وفى رأيه أن إلزام الأغنياء بتأدية فريضة الحج يعتبر من أحكم الوسائل التى اضطرهم الدين بواسطتها إلى السياحة والتجوال فى أنحاء الأرض ؛ ثم يختم حديثه عن هذه المسائل الدينية بأن ينصح ابنه بعدم التعمق فى بحث المذاهب الدينية لأن كثرة الأسئلة بشأنها والإكثار من قول « لماذا » و« كيف » بصددها لايبلغان بالسائل أى مبلغ . ومن أبدع ما كتبه أيضاً نصيحته التى نصحنا فيها بأن نقيس حالنا بحال جارنا الفقير لا بحال جارنا الغنى لأننا متى فعلنا ذلك شكرنا الله على سابغ نعمه ولم نحسد الغنى على غناه وثرائه .

والأمثلة التى يضربها لنا المؤلف عن آداب السلوك لاذعة ماهرة ، وهى فى بعض الأحيان تبلغ مبلغ الجديد المستحدث ؛ فنراه يفيض فى فائدة « الكلام المعسول » ويطلب إلى ابنه أن يتعلم الحكمة من الجهلاء ، ولكنه يحذره فى الوقت نفسه من الإغراق فى « التواضع » لأن كثيرا من الرجال قد اخفقوا فى نيل أوتارهم بسبب ما امتازوا به من أدب جم وتواضع كثير .

فإذا عرض المؤلف للحديث عن الحق والصدق ، فإننا نجده ممتعاً فيما أبدى من أقوال ، فهو يخاطب ابنه بقوله : « اجتهد يابنى فى المداراة ولكن لاتكن كذوبا ؛ واسع إلى أن تشتهر بين الناس بقول الصدق حتى إذا اضطررت فى وقت من الأوقات إلى الكذب ، صدقك الناس فيما تقول .. !! »

ثم هو يحذر ابنه أيضاً من الإدلاء بالأقوال الصادقة التى يحتمل تكذيبها ولاتسهل البرهنة على صحتها ، فيقول له : « ومن العبث أن يدلى الإنسان برأى يحوجه — رغم

صدقه — إلى السعى فى البرهنة على صحته طوال أربعة أشهر وإلى الاستشهاد بأربعمائة شخص من أعدل الشاهدين ...!!» .

أما الأمثلة التى يضربها لنا المؤلف عن آداب المجتمع فصحيحة سليمة ، فهو يقرر أنه من الواجب على المضيف ألا يكثر من الاعتذار لضيفه عن تفاهة ضيافته ، لأن هذا يشعر الضيف بالحرج وضيق الصدر ، كما يجب على المضيف أن لا يؤنب خدمه على ما يبدو منهم من تقصير فى حضور ضيوفه .

فإذا انتهى من ذلك أوصى ابنه ألا يلعب النرد والشطرنج بالدراهم والدنانير ، وأن يحذر اللعب مع المقامرين المشهورين ، وأن يتجنب القسم وحلف الإيمان ، وأن يمتنع عن إعارة النقود لأحد من أصدقائه مالم يكن مستعداً لأن يعتبر العارية هبة لصديقه إذا لم يستطع دفعها أو لم يشأ ردها إليه .

وقد اختلطت وصاياه عن الشراب بفكاهة لاذعة ، فهو يعترف من ناحية بأن شرب الخمر محظور حظراً باتاً من ناحية الدين ، ولكنه يعود فيقول لابنه : « إنى على ثقة من أنى مهما نصحتك فإنك لن تستمع لنصحى وتمتنع عن شرب الخمر ... !! » ولذلك فهو يقصر وصاياه على أن ينصح ابنه بعدم احتساء الخمر فى الصباح ، لأن ذلك يغريه بتفويت الصلاة ، ولأنه كذلك يجعل خمار الليل يجتمع بخمار الصباح فيلتقى الخماران فى رأسه ويسببان له فساد العقل والإدراك . ثم هو ينصح ابنه ألا يشرب الخمر إلا فى منزله تجنباً للفضيحة والعار ؛ وأن يمتنع عن الشراب ليلة الجمعة مراعاة لحرمة ذلك اليوم ، ولأن الناس إذا رأوه يفعل ذلك يغفرون له احتساءه الخمر فى الليالى الباقية من الأسبوع ...!! ثم يوصيه بأن لا يعربد أو يفحش إذا شرب الشراب فيقول له : « إن الشراب وحده رجس وإثم ، فإذا اضطررت إلى أن تأثم فلا أقل من أن تجعل إثمك لطيفاً مقبولاً هيناً ، وعليك أن تختار من الأشربة أحسنها فتشربه ، كما عليك أن تختار من الموسيقى أجمل الألحان فتستمع إليه ؛ وإذا مزحت مع أحد من الناس فاجعل مزاحك طيباً مستساغاً ، حتى إذا حوسبت عليه فى العالم الآخر لا تكن ملوماً مذموماً ...!!» وهو أيضاً ينصح الناس ألا يسألوا البخلاء والثقلاء حاجة إلا إذا لعبت الخمر برؤوسهم فإن ذلك يجعلهم أكثر استجابة واستعداداً لقضاء الحوائج .

ويمضى المؤلف فى إيراد الفصول الممتعة عن شراء العبيد والجياد ، ويذكر ميزة كل صنف من هذه الأصناف وعيوب كل واحد منها ؛ ويتحدث عن الصيد والطراد ثم يمضى بعد ذلك فى الحديث عن الزواج فيقول: إن الحب من أول وهلة عبث مستحيل ؛ ثم يذكر الخصال التى يجب اجتماعها فى الزوجة الصالحة ، وأهمية مصاهرة البيوتات القوية صاحبة النفوذ . وفى رأيه أنه لا يجب تعليم البنات القراءة والكتابة ، وأنه من الواجب ألا يبيعهن أولياؤهن بيعا للأزواج الأغنياء الذين لا يصادفون قبولا فى أنفسهن . ويجب ضرب الأطفال إذا تكاسلوا أو لم يتأدبوا ؛ فإذا أبدوا شيئا من الهمة وحسن التأدب وجبت مكافأتهم بقليل من الدراهم .

ويجب على اللبيب العاقل أن يدارى الأشخاص الذين لا يحبهم ، فيظهر لهم المودة والمحبة ؛ كما يجب عليه ألا يأمن صديقا من الأصدقاء فيعطيه كل أسراره خشية أن ينقلب ذلك الصديق عدوا ، فيتمكن منه ويتغلب عليه . ويجب على العاقل أيضا ألا يشمت لوفاة عدو من أعدائه ، لأنه هو نفسه لا يستطيع أن يضمن النجاة والسلامة . والأمانة هى رأس مال التاجر ، ومن الواجب على الشعراء أن يقتصدوا فى مدائحهم ، فإذا أرادوا المبالغة فمن الواجب عليهم ألا يصفوا الرجل الذى لم يتمنطق أثناء حياته بمبراة أو بسكين ، بأنه يستطيع بضربة سفيه أن يقضى على الأسود الضارية كما يستطيع بضربة حربته أن يزحزح جبل بيستون[١] عن مكانه العتيد ...!! ويجب عليهم ألا يصفوا الرجل الذى لم يمتط ظهر حمار فى حياته بأن له جوادا يشبه « دلدل » أو « البراق » أو « رخش »[٢] ...!! ومن الواجب عليهم ألا يشتغلوا بالهجاء فإن الجره لا تسلم فى كل مرة .[٣] ويجب على الشاعر ألا يكذب فى أشعاره وأن لا يبالغ فيها .

---

(١) جبل بالقرب من كرمانشاه عرف قديما باسم « باغستانا » أو « بهستون » وقد اشتهر بالنقوش الأكمينية التى نقشت على قمته .

(٢) « دلدل » هى بغلة على ؛ و « البراق » هو الذى امتطاه النبى فى الإسراء ؛ و « رخش » هو جواد « رستم » البطل الايرانى .

(٣) المترجم : يقول فى الأصل الفارسى : « وهجا گفتن عادت مكن كه هميشه سبو از آب درست برنيايد » وهذا القول مطابق للمثل العربى .

ويجب على العاقل ألا يتمادى فى متابعة العدو الهارب أو تضييق السبل عليه ، فإنه إن فعل ذلك هجم عليه العدو فى يأس وضراوة .

ويجب فى المكتوبات الفارسية أن تمتزج بشىء من العربية . فإن الفارسية الخالصة كريهة معيبة (١) .

ويجب كذلك على العاقل ، أن يزهد فى خدمة الملوك ، وأن يتجنب مصاحبة العسكر والجنود .

ومن الخير قبلما أختم حديثى عن هذا الكتاب أن أورد هنا ترجمة لبعض النبذ الواردة فى بداية الباب التاسع منه ، وهو الباب المتعلق « بالشيب والشباب » ولاشك أن هذه النبذة كافية فى التمثيل على أسلوب هذا الكتاب الممتع الشائق :

« يابنى . . . . كن كبير العقل وإن كنت صغير السن ، ولن أقول لك »
« لا تتمتع بالشباب ، ولكنى أقول لك أن تقضى شبابك فى الزهد والعفاف ، »
« وحذار أن تصبح من جملة الشبان الذين ذبل شبابهم بارتكاب الآثام ، فإن »
« الشباب نشاط وتوقد ، وهو كما وصفه ارسطاليس نوع من الجنون . وحذار »
« أن تنخرط فى سلك الشبان الجاهلين ، فإن البلاء لا يتأتى من النشاط والتوقد »
« ولكنه يتأتى من الجهل والتبلد ؛ واستوف حظك من الأيام ، فإنك متى »
« بلغت مبلغ الشيخوخة فلن تستطيع أن تفعل ذلك . وقد قال شيخ من الشيوخ : »
« قضيت السنين الطوال أتجرع الغصص والأحزان خوفا من أننى إذا كبرت فلن »
« يتطلع إلى صاحبات الوجوه النضيرة من الحسان . فلما بلغت مبلغ الشيخوخة »
« لم أعد أفكر فيهن أو أتطلبهن ...!! ولو أنه استطاع أن يطلبهن ، لما كان »
« هذا الأمر ليليق بشيخ هرم ، أو يحسن من رجل طاعن فى السن ...!! »
« ومهما بلغ بك شبابك . . . يابنى . . . فلا تنس إلهك عز وجل فى وقت »
« من أوقاتك . وحذار أن تأمن الموت فى لحظة من لحظاتك ، فإن الموت لا »

---

(١) المترجم : يقول فى الأصل الفارسى : « واكر نامه بود پارسى پارسى مطلق منويس كه ناخوش بود »

« صلة له بالشيب أو بالشباب كما يقول السعدى : »

« گر بجوانى وبه پيريسق .·. پير بمردى وجوان زيسق »

ومعناه

« — لو أن الموت كان متعلقا بالشيب أو الشباب »

« لمات العجوز الطاعن فى السن ، وبقى الشاب »

« ومما لاشك فيه أن كل مولود مصيره إلى الموت لا محالة »

« حكاية : »

« سمعت أن حائكا كان يقيم فى بلدة من البلدان ، وكان له حانوت على باب »
« المدينة ؛ فعلق فى حانوته كوزا ، دلاه فى مسمار ، وأخذ يقذف فيه حجرا »
« كلما خرجت من المدينة جنازة من الجنازات ، فإذا انقضى الشهر عد هذه »
« الأحجار ، وعلم عدد الأشخاص الذين خرجت جنائزهم. ثم يفرغ الكوز ويعلقه »
« ثانية ، ويأخذ فى إلقاء الحجارة فيه من جديد ، حتى إذا حان الشهر التالى فعل »
« مثلما فعل من قبل . وانقضت الأيام على هذا المنوال وإذا بيد القضاء تنزل بالحائك »
« فيرديه الموت ، وتصادف فى هذه الأثناء أن أقبل شخص يسأل عنه ولم يكن »
« يعرف بموته ، فوجد باب حانوته مغلقا ، فسأل واحدا من جيرانه عنه وعن سبب »
« غيابه . فقال له الجار .. أما تعلم أن الحائك قد انطوى عليه الكوز ....!! »
« فكن متنبها ... يابنى .. ولا يأخذك بالله الغرور .. واذكره أينما كنت فى »
« طاعة أو معصية ، واسأله العفو والغفران ، وخف الموت حتى لاتقع فجأة فى »
« هذا الكوز....!! ... . وارع للشيوخ حرمتهم ، ولا تحدثهم بجزاف »
« القول ، فإن أجوبتهم مسكتة قاطعة ملجمة ....!! »

« حكاية : »

« سمعت أن عجوزا محدودب الظهر ، قد بلغ المائة من عمره ، فتقوس ظهره جدا وكان »
« يتكئ على عكازة ويسير ، فاعترضه شاب ، أراد مداعبته فقال : أيها الشيخ..! »
« بكم اشتريت هذه القوس الجميلة ... حتى اشترى لنفسى واحدة مثلها..؟! فأجابه »
« الشيخ إذا امتد بك العمر ، وطال بك الصبر ، فسيمنحونك واحدة بالمجان..!!... »
« وأنصف الشيوخ أكثر مما تنصف الشباب ، فإن الشبان لهم أمل فى »

« الشيخوخه ، وأما الشيوخ فلاأمل لهم إلا فى الموت، ومحال عليهم أن يفكروا »
« إلا فيه .. !! ومثلهم مثل الحنطة إذا ابيضت ولم يسرعوا إلى حصادها ؛ فإنها »
« تتساقط على الأرض من تلقاء نفسها ؛ وكذلك مثلهم مثل الفاكهة الناضجة فإنهم »
« إذا لم يسرعوا إلى قطفها فإنها تتساقط من أشجارها دون أن يهزها أحد ... ... »
« وقد قالوا بالعربية : »

« إذا تم أمر دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل : تم »

« واعلم ... يابنى ...! إنهم لن يسمحوا لك بالبقاء إذا تعطلت حواسك ؛ وإنه »
« متى استغلقت عليك أبواب النطق والبصر والسمع واللمس والذوق فإنك »
« نفسك لن تتمتع بالحياة ، كما أن أحدا غيرك لن يتمتع بحياتك ، بل تصبح »
« وبالا وشرا مستطيرا ، ويصبح موتك خيرا من حياتك ؛ فإذا بلغت مبلغ »
« الشيخوخة فحذار من محالات الشباب ، وابتعد عن أفعالهم ، فإن أقرب الناس »
« إلى الموت يجب أن يكون أبعدهم عن محالات الشباب . لأن عمر الناس شبيه »
« بالشمس متى حلت بالأفق الغربى فإنها تؤذن بالزوال والمغيب . وقد قلت »
« فى ذلك القطعة الآتية : »

« — تنبه ...يا كيكاوس ... فقد أصبحت عاجزا فى قبضة شيخوختك »
« ودبر لنفسك أمر ذهابك ... فقد بلغت الثالثة والستين من عمرك »
« — وقد انتهى يومك إلى صلاة العصر »
« وسرعان مايدخل الليل متى انتهيت من هذه الصلاة ...!! (١) »

« ومن أجل هذا لايجوز للشيخ الهرم أن يتصف بعقل الشبان ، أو يقتدى »
« بأفعالهم . وكن دائما ... يابنى ... رحيما شفوقا بالشيوخ ، فإن الشيخوخة »
« مرض لايعود المريض فيه أحد ، وهى علة لاعلاج لها عند الطبيب إلا بالموت ، »

---

(١) المترجم : فيما يلى نص هذين البيتين بالفارسية :

كيكاوسا در كف پيرى شده عاجز تدبير شدن كن چو بشصت وسه در آمد
روزت بنماز دگر آمد بهمه حال شب زود در آيد چو نماز دگر در آيد

« لأن العجوز لايستريح من آلام الشيخوخة إلا بالفناء . وهى مخالفة لسائر »
« العلل والأمراض ، لأن سائر العلل إذا أصابت الإنسان ولم يمت بسببها فإن »
« الأمل يقوى فى شفائه وبرئه منها ، وأما الشيخوخة فبخلاف ذلك على »
« خط مستقيم ، فإن المريض بها تسوء حاله يوما بعد يوم ولا أمل له فى »
« الشفاء والعافية . وقد قرأت فى كتاب من الكتب أن الإنسان يستمر »
« فى الزيادة يوميا من حيث القوة والتركيب حتى يبلغ الرابعة والثلاثين »
« من عمره ، فإذا بلغ ذلك العمر لايزيد ولا ينقص ، ويبقى كالشمس فى »
« وسط السماء ، تبطىء فى سيرها حتى تأخذ فى الزوال والمغيب ؛ فإذا كان »
« الإنسان بين الأربعين والخمسين من عمره ، أصابه من النقص فى كل سنة »
« مالم يكن ليدركه فى السنة السابقة ؛ فإذا كان بين الخمسين والستين من »
« عمره شاهد فى كل شهر شيئامن النقص يصيبه فى جسده ، لم يكن ليشهده فى »
« الشهر الفائت؛ فإذا كان بين الستين والسبعين من عمره شاهد فى كل أسبوع »
« بعض النقص ينزل بجسده ولم يكن له وجود فى الأسبوع الفائت ؛ فإذا كان »
« بين السبعين والثمانين من عمره شاهد فى كل يوم بعض النقص يصيب جسده »
« ولم يكن له وجود فى اليوم السابق ؛ فإذا قيض الله له تجاوز الثمانين فإنه »
« يشاهد فى كل ساعة شيئا من الألم والعناء ، لم يكن ليعانيه فى الساعة »
« الماضية . .!! ولذة الحياة موجودة فى السنوات الأربعين الأولى من العمر . »
« فإذا صعدت أربعين درجة فى سلم الحياة ، فأنك لامحالة آخذ فى الهبوط بعد »
« ذلك لتعود إلى المكان الذى أخذت فى الصعود منه . وما اتعس الشخص »
« الذى يصيبه فى كل ساعة ألم جديد لم يكن يحس به فى الساعة الماضيه ...!! »
« فيا ولدى وقرة عينى ... لقد أطلت عليك شكوى الضعف والشيخوخة لأن »
« شكواى من الكبر أليمة مريرة ، وليس فى هذا مايستغرب ، فإن الشيخوخة »
« عدو لدود ، ولابد من شكوى الأعداء والخصوم ...!! »

* * *

كتب أخرى منثورة

ويجب علينا قبل أن نفرغ من الحديث عن كتاب الفرس الذين نشأوا فى هذا العصر ، أن نذكر بعض الكتب المنثورة الأخرى التى لم أوفق إلى الحصول عليها فى الوقت الحاضر ، والتى لو أنها وقعت فى يدى لما خصصتها كذلك إلا بأشارة يسيره حرصا على الإختصار ومراعاة لضيق المقام .

« نزهت نامه »

ومن بين هذه الكتب كتاب « نزهت نامهٔ علائى » وهو عبارة عن موسوعة ألفها « شهمردان بن أبى الخير » فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى (نهاية القرن الخامس الهجرى) لأمير طبرستان « علاء الدولة خاص بگ» وقد وصف « پرتش : Pertsch » مشتملاتها وصفاً كاملا فى ص ٣٠-٣٦ من «فهرست الكتب الفارسية فى مكتبة جوتا » (١) كما ذكر « إتيه » محتوياتها باختصار فى الأعمدة الرقيمة ٩٠٦ — ٩٠٨ من فهرست الكتب الفارسية فى « المكتبة البودلية » (٢) .

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن كتاب آخر شبيه بهذا الكتاب ولكنه أسبق منه زمناً ، وهو كتاب «دانش نامهٔ علائى » الذى قام بتأليفه « ابن سينا » . . . أما كتاب «بيان الأديان » الذى كتبه « أبو المعالى محمدبن عبيدالله» فى سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م فقد عرفنا به « شيفر » فى المجلد الأول من مختاراته الفارسية (٣) .

. . . وهناك كتاب تاريخى آخر كبير الأهمية فما يتصل بخراسان خاصة وهو كتاب «زين الأخبار » الذى ألفه « الكرديزى » فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى (أى القرن الخامس الهجرى) ولا توجد من هـذا الكتاب إلا نسخة وحيدة معيبة وصفها لنا « إتيه » فى الأعمدة الرقيمة ٩ — ١١ من فهرست الكتب

---

(١) أنظر : Gotha Persian Catalogue.

(٢) أنظر: Bodleian Persian Catalogue.

(٣) راجع المجلد الأول من Chrestomathie Persane: ص ١٣٢ ـ ١٨٩ وكذلك الصفحات ١٣٢ ـ ١٧١ من النصوص الفارسية .

الفارسية فى « المكتبة البودلية » . وشبيه بهذا الكتاب من حيث الأهمية الكتاب النادر الذى لم يطبع بعد وهو كتاب « كشف المحجوب » الذى ألفه « عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى » فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى (أى أواسط الخامس الهجرى) وتحدث فيه عن حياة رجال الصوفية ومذاهبهم (١) .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير إلى رسالة أخرى عن الصوفية ، ألفها بالعربية فى سنة ٤٣٨ هـ = ١٠٤٦ م « أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى » المتوفى فى سنة ٤٦٥ هـ = ١٠٧٠ م . وهذه الرسالة تشتمل على أربعة وخمسين بابا . وقد طبعت مرتين على الأقل فى مطبعة « بولاق » ولها ترجمة بالفارسية موجودة فى المتحف البريطانى تحت رقم ٤١١٨ ، وهذه الترجمة لا يعرف تاريخها على وجه التعيين ، ولكنها من غير شك ترجمة مبكرة ، لأن مخطوطة المتحف البريطانى مؤرخة سنة ٦٠٢ هـ = ١٢٠٥ م .

ويبقى علياً بعد ذلك أن نذكر ثلاثة آخرين من مشاهير الكتاب ، لهم أهميتهم الكبرى ، بحيث يستحيل علينا فى هذا المقام أن نوفيهم حقهم من الحديث .

الماوردى

وأول هؤلاء هو « أبو الحسن على الماوردى » المتوفى سنة ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨م وقد وضعناه أولا لأننا سنكتفى بإشاره بسيطة إليه ، نذكر فيها أن « بروكلمان » قد ذكر له تسعة مؤلفات (٢) ربما كان أهمها كتابان اثنان ؛ أولها : كتاب « الأحكام السلطانية » (٣) ويتناول الحديث عن النظرية المثلى للنظم الإسلامية ، وفيه آراء لم يحدث أبدا أن طبقت عملياً فى زمن من الأزمنة وعلى الخصوص فى زمن المؤلف نفسه ؛ وثانيهما كتاب « أدب الدنيا والدين » وهو كتاب فى الأخلاق ما زال يدرس

---

(١) المترجم : طبعت ترجمة هذا الكتاب إلى الانجليزية ضمن سلسلة جب التذكارية فى سنة ١٩١١ وطبع الأصل « ژوكوفسكى » .

(٢) أنظر ص٣٨٦ من الجزء الأول من كتابه: تاريخ الأدب العربى، Gesch.d.Arab. Litt.

(٣) طبع هذا الكتاب فى مدينتى بون Bonn والقاهرة .

في المدارس الثانوية والعالية في تركيا ومصر (١) .

أبو العلاء المعرى

وثاني هؤلاء الرجال لا صلة له بإيران على الإطلاق ولكنه شخصية رائعة جداً في عالم الفكر والأدب الإسلاميين بحيث لا يمكننا أن نمر عليه في صمت وسكون . وهذا الرجل هو الشاعر الضرير والفيلسوف الشاك « أبو العلاء المعرى » وقد سمى بالمعرى نسبة إلى قرية صغيرة من قرى سوريا هي « معرة النعمان » وهي القرية التي ولد بها وقضى فيها الشطر الأكبر من حياته ، وقد زاره الرحالة « ناصر خسرو » عندما توقف بهذه القرية ثلاثة أيام نهايتها ١٥ رجب سنة ٤٣٨ هـ = ١٥ يناير سنة ١٠٤٧م وتحدث عنه في كتابه « سفر نامه » على هذا النحو : (٢) .

« وكان في هذه المدينة رجل يسمونه « أبا العلاء المعرى » وكان ضريراً ورئيساً »
« للمدينة وصاحب نعمة كثيرة ، يمتلك كثيراً من العبيد والعمال . وفي الحق كان »
« أهل المدينة جميعاً خدماً له . ولكنه اختار حياة الزهد ، فكان يلبس أحقر »
« الملابس ، ويلزم مسكنه ، ولا يأكل طوال اليوم إلا نصف من من خبز الشعير . »
« وقد سمعت أنه كان يترك باب قصره مفتوحاً على مصراعيه ، وأن نوابه وملازميه »
« يتولون تدبير أمور المدينة ولا يرجعون إليه إلا في جلائل الأمور . وهو »
« لا يمنع نعمه عن أحد من الناس ، ويصوم الدهر ، ويقوم الليل ، ولا يشغل »
« باله بأمر من أمور الدنيا . وقد بلغ هذا الرجل مرتبة عالية في الشعر والأدب ، »
« جعلت أفاضل الشام والمغرب والعراق يقرون له بها ويعترفون بأن أحداً في »
« هذا العصر لم يبلغ منزلته ، ولن يصل إلى درجته أحد . وقد ألف كتاباً أسماه »
« الفصول والغايات ، جعل كلامه فيه مرموزاً ، وأورد فيه كثيراً من الأمثال »
« الفصيحة العجيبة التي لا يقف على سرها أحد من الناس اللهم إلا النفر القليل »

---

(١) المترجم : لم يعد هذا الكتاب يدرس في تركيا ومصر إلا دراسة خاصة .
(٢) أنظر ص ١٠ — ١١ من طبعة « شيفر » .

« الذين يقرأونها عليه ، مما دعا جماعة من الخلق إلى اتهامه بأنه صاغ هذا »
« الكتاب معارضة للقرآن [١] . ويقبل عليه دائماً من مختلف الأنحاء ما يزيد »
« على مائتي رجل يقرأون عليه الأدب والشعر . وقد سمعت أن له من الأشعار »
« ما يزيد على مائة ألف بيت . وقد سأله أحد الأشخاص السؤال الآتي : »
« — إن الله تبارك وتعالى قد أجزل لك كل هذا المال والنعيم فلأي سبب »
« تعطيهما للناس ولا تتمتع بهما في معيشتك ... ؟! »
« فأجابه المعري : »
« — إنني لا أستحق منهما إلا ما أحتاج إليه في مأكلي !! »
« وقد كان المعري على قيد الحياة عندما وصلت إلى المعرة . [٢] »

ويرجع إلى « البارون فون كريمر » الفضل الأول في تعريف علماء أوربا بالمعري وإظهارهم على نواحي عظمته وعبقريته ، وقد خصص للحديث عنه تسع صفحات من الجزء الثاني من كتابه الرائع عن « تاريخ الحضارة في الشرق » [٣] كما نشر عنه سلسلة من المقالات والرسائل الرائعة [٤] .

وقد أورد « دولتشاه » في مقالته القصيرة التي كتبها عن هذا الشاعر ثلاث مقطوعات من أشعاره هي التالية : [٥] .

---

(١) حفظت لنا قطعة من هذه المعارضة القرآنية ، نشرها لنا جولدزيهر في سنة ١٨٧٥ في مجلة المستشرقين الألمان مجلد ٢٩ وقد قرنها بملاحظات ممتعة عن المعري في الصفحات ٦٣٧ — ٦٤١ . أنظر أيضاً هذه المجلة مجلد ٣٢ ص٣٨٣ وكذلك المجلد ٣١ ص ١٧٦ وكذلك كتاب جولدزيهر المسمى دراسات إسلامية مجلد ٢ ص ٤٠٣ Muhamedanische Studien .

(٢) مات بعد ذلك بعشر سنوات في سنة ٤٤٩ هـ = ١٠٧٥ م وقد بلغ من العمر ثمانين سنة .

(٣) أنظر ص٣٨٦ — ٣٩٤ من الجزء الثاني من كتاب Culturgeschichte des Orients

(٤) أطول هذه المقالات هي المنشورة في Sitzungsberischte d. Wiener Akad سنة ١٨٨٨ م مجلد ١١٧ . وقد سبقت هذه المقالة مقالات أخرى في « مجلة المستشرقين الألمان » في السنوات ١٨٧٥ و ١٨٧٦ و ١٨٧٧ و ١٨٨٤ . المجلد ٢٩ ص ٣٠٤ — ٣١٢ والمجلد ٣٠ ص ٤٠ — ٥٢ والمجلد ٣١ ص ٤٧١ والمجلد ٣٨ ص ٤٩٩ — ٥٢٩ .

(٥) أنظر « تذكرة الشعراء » ص ٢٥ .

القطعة الأولى :

أبا العلاء ابن سليمانا   عماك قد أولاك إحسانا
إنك لو أبصرت هذا الورى   لم ير إنسانك إنسانا

والقطعة الثانية :

ألا إنما الأيام أبناء واحد   وهذى الليالى كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة   خلاف الذى مرت به السنوات

والقطعة الثالثة :

من راعه سبب أو هاله عجب   فلى ثمانون حولا لا أرى عجبا
الدهر كالدهر والأيام واحدة   والناس كالناس والدنيا لمن غلبا

وقد نشر «جولدزيهر» القطعة التالية من أشعاره فى مقالة له « بمجلة المستشرقين الألمان » مجلد ٢٩ ص ٦٣٧

فى القدس قامت ضجة   مابين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق   وذا بمئذنة يصيح
كل يمجد دينه   ياليت شعرى ما الصحيح..؟!

وطبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية يعاقب السارق الذى يسرق ماتزيد قيمته على ربع دينار بقطع يده ، بينما يعوض الشخص الذى يفقد يده فى أحوال أخرى بخمسمائة دينار كاملة وفى هذا المعنى يقول المعرى :

تناقض مالنا إلا السكوت له   وأن نعوذ بمولانا من النار
يد بخمس مئين عسجد فديت   مابالها قطعت فى ربع دينار ؟!

وفيما يلى بيتان يذكرهما « فون كريمر » على سبيل المثال فى « مجلة المستشرقين الألمان » ج ٢٩ ص ٣٠٥

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة   وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا   زجاج ولكن لايعاد لنا سبك

وقد ذكرت أن «المعرى» لاصلة له بإيران ، لامن ناحية مولده ، ولامن ناحية إقامته ، ولم يدفعنى إلى ذكره فى هذا الكتاب إلا كونه شاعرا كبيرا ومفكرا عبقريا . يضاف إلى ذلك أن الابحاث المستقبلة ربما تكشف لنا أنه كان ذا أثر محسوس نستطيع

لمسه فى آراء شعراء الفرس الشكاكين المتشائمين . ولا شك أن آراءه الخاصة تذكرنا بعض الشىء بـ « عمر الخيام » وإن كان يمتازعنه بأنه أعلا منه شأنا وأبلغ منه منطقا من حيث كونه شاعرا وفيلسوفا شاكا .

وأهم مؤلفات المعرى هى التالية :

١ — سقط الزند : هو ديوان من الشعر يتضمن منظوماته المبكرة

٢ — اللزوميات أو « لزوم مالا يلزم » وهو ديوان من الشعر يتضمن أشعاره المتأخرة التى تشتمل على فلسفته وتشاؤمه .

٣ - الرسائل : وقد نشرها وترجمها الأستاذ « مارجوليوث » بجامعة اكسفورد فى سنة ١٨٩٨ م [١] .

٤ — رسالة الغفران : وهى رسالة كتبها نثرا فى وصف الجنة والنار . وتحدث فيها عن زيارة خيالية للعالم الآخر وما جرى بينه وبين شعراء العرب والكافرين من حديث . وقد نشر الأستاذ « ر . ا . نيكولسون » وصفا لهذه الرسالة مع مقتطفات منها فى « مجلة الجمعية الملكية الأسيوية » سنة ١٩٠٠ (ص٦٣٧-٧٢٠) وسنة ١٩٠٢ (ص ٧٥ - ١٠١ ؛ ص٣٣٧ — ٣٦٢ ، ص ٨١٣- ٨٤٧) وهذا المؤلف ممتع حقا ولكنه ملىء بالصعوبات والمسائل المعقدة ، خاصة فى فصوله الأخيرة التى تحدث فيها عن الكفار والزنادقة ، وقد اضطر المؤلف مراعاة للحكمة والمصلحة أن ينتقد هؤلاء الطائفة ، ولكننا مع ذلك لانستطيع أن نبرئه من أنه كان يعطف عليهم عطفا كبيرا .

٥ — الفصول والغايات : وهذا هو أبعد كتبه إغراقا فى الزندقة كما تذهب إلى ذلك آراء المسلمين . وهو عبارة عن معارضة للقرآن كالتى صاغها « المتنبى » وقد نشر فصولا منه المستشرق «جولدزيهر» فى مقالته التى نشرها فى سنة ١٨٧٥ م فى المجلد ٢٩ من مجلة المستشرقين الألمان [٢] (ص ٦٣٧ — ٦٤١) بعنوان :

« أبو العلاء المعرى كمفكر حر Abul ʻAla al Maʻarri als Fréidenker »

---

(١) أنظر: Anecdota Oxoniensia, 1898.

(٢) المترجم : طبع هذا الكتاب فى القاهرة فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

وقد رسم الأستاذ « مرجوليوث » صورة ممتعة لحياة المعرى جعلها مقدمة لطبعته التى نشرها لـ«رسائل المعرى» ؛ كما أن المقالات العديدة التى نشرها « فون كريمر » وضمنها كثيرا من أشعاره المترجمة إلى شعر ألمانى تمد الباحث الأوروبى بكثير من الزاد الذى يساعده على دراسة هذا المفكر العبقرى القوى .

الغزالى :

أرجأت إلى نهاية هذا الفصل الحديث عن رجل آخر له تأثير كبيرا فى هذا العصر ، ويعتبر بحق من كبار المفكرين الذين ظهروا فيه ، وأقصد به « الإمام أبا حامد محمد الغزالى » (١) وهو الفقيه الذى كان له الفضل الأول فى إنهاء عصر الفلسفة فى الإسلام ، وفى إقامة عصر «التصوف» الذى يعتبر أبلغ تعبير وأوضح تحديد للمذهب السنى الإسلامى .

يقول الدكتور « ت . ژ . دى بور » فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » (٢) « إن التصوف منذ ظهور الغزالى أصبح الدعامة التى قام عليها صرح المعرفة فى العالم السنى الاسلامى ، وأصبح كذلك التاج الذى انعقد على مفرق هذا الصرح »

وقد أورد الدكتور «دى بور» فى كتابه العلمى الرائع ما فيه الكفاية عن الغزالى ومذهبه بحيث أجد لزاما على ألا أطيل الحديث عن هذا الفقيه النابه الذى خدم الدين خدمات جليلة ، جعلته يكسب لقاءها اللقب الذى عرف به أبدا وهو «حجة الإسلام» .

وله الغزالى فى بلدة طوس من مدن خراسان فى سنة ٤٥٠هـ = ١٠٥٨م ، وعلى قول آخر فى سنة ٤٥١هـ = ١٠٥٩م وقد صادف مولده تولى «الپ ارسلان» عرش

---

(١) يقال له أيضا الغزالى بتشديد الزاى وقد سبق لى كتابة اسمه على هذا النحو فى مؤلف سابق فانتقدنى على ذلك المستشرق الكبير «جولدزيهر» ؛ ومع ذلك فيجب أن أذكر أن هذه التسمية تبعها عدد كبير من كتاب المسلمين منذ القرن الثالث عشر الميلادى (= السابع الهجرى) انظر : الفخرى وكذلك كتاب « بروكلمان» فى «تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ٤١٩ »

(٢) انظر: ص ١٥٥ من الترجمة الانجليزية من كتاب :
History of Philosophy in Islam, by Dr. T. J. de Boer.

السلاجقة . ومات أبوه وهو صغير ، فقام على تربيته وتربية أخيه رجل صوفى من أصدقاء أبيه ، ثم التحق بعد ذلك بإحدى المدارس الموجودة فى بلدته . واعتاد أن يقول :

« طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله »

وقد تلقى الدرس فترة فى «جرجان» على يد الإمام « أبى نصر الإسماعيلى » وبينما كان فى طريق عودته إلى طوس سطا عليه جماعة من قطاع الطريق وسلبوه كل أمتعته ، وقد تبعهم لـكى يسترد منهم مذكراته ، وقال لمقدمهم أنه ترك الأهل والوطن لأجل تحصيلها وهى تستوعب جميع علومه ومعارفه . فضحك مقدم اللصوص وقال : « كيف تدعى أنك أدركت مافيها من علم فلما أخذناها منك تجردت من معرفتها وبقيت بلا علم...؟!» . ثم انتهى الأمر بأن استرد الغزالى مذكراته وأقبل على الاشتغال بها حتى حفظ جميع ما فيها بحيث لو قطع عليه اللصوص الطريق مرة أخرى لم يتجرد من علمه !!

ثم ذهب الغزالى إلى «نيسابور» وجد واجتهد وأحسن التأليف وأجاد الوضع والتصنيف حتى علم به الوزير العظيم «نظام الملك» فولاه فى سنة ٤٨٤هـ = ١٠٩١م التدريس فى مدرسته «النظامية» التى أسسها فى بغداد قبل ذلك التاريخ بخمس وعشرين سنة . وظل الغزالى أربع سنوات فى المدرسة النظامية يقوم « على التدريس وتعليم العلم ، عظيم الجاه ، زائد الحشمة ، عالى الرتبة ، مشهور الإسم ، تضرب به الأمثال ، وتشد إليه الرحال ، إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا ، فرفض ما فيها من التقدم والجاه ، وترك كل ذلك وراء ظهره ... فاستناب أخاه فى التدريس . » وقصد بيت الله الحرام فحج ، ثم ذهب إلى الشام حيث ألف كتابه الـكبير « إحياء علوم الدين »

وهذا الـكتاب مكتوب بالعربية ، ولـكنه نقل بعـد ذلك باختصار إلى الفارسية بعنوان « كيمياى سعادت » أو « كيمياء السعادة » .

فلما عاد الغزالى إلى بغداد جعل هذا الـكتاب أصلا لمجموعة من المراسم الدينية التى أخذ يبشر بها فى هذه المدينة ، ثم عاد بعد ذلك إلى نيسابور ودرس بالمدرسة النظامية مدة يسيرة ، ثم رجع إلى بلدته طوس حيث توفى فى يوم الأثنين ١٤ جمادى الآخر سنة ٥٠٥هـ = ١٨ ديسمبر سنة ١١١١ م .

ومؤلفات الغزالى كثيرة ، أحصى منها «بروكلمان» قرابة السبعين ، وهى تشتمل ، فيما عدا ما ذكرناه على : « رسالة فى الرد على الباطنية أو الإسماعليه » و «المنقذ من

الضلال » و « تهافت الفلاسفة » . والكتاب الأخير هو الذى أوحى ، فيما بعد ، لابن رشد القرطبى بتأليف كتابه « تهافت التهافت » .

وفيما يلى قطعة نقلها من «المنقذ» وهى كبيرة الفائدة فى الدلالة على مقدار مابلغه الغزالى من التعمق فى الدين قبلما يبلغ مرتبة الصفاء النفسى التى ظفر بها فى النهاية(١) :

« ولم أزل فى عنفوان شبابى — منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين — أقتحم لجة هـذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوضَ الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ؛ وأتوغل فى كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة : لأميز بين محق ومبطل ، ومتبن ومبتدع ؛ لاأغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولاظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد لوقوف على كنه فلسفته ، ولامتكلما إلاوأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله ، وضعتافى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا .. » .

وقداستطاع «الغزالى» بعد هذه المجاهدات المبكرة فى البحث عن الحق ، والخروج به من مغاور الشك القاتمة ، أن يكسب الدين البين قدرة ورسوخا ، يستطيع بواسطتهما سائر الناس أن يبلغوا المرساة المطمئنة التى رسا إليها هو نفسه بعد جهود بمضنية ومشاكل شائكة ؛ وقد فازلقاء هذه الجهود باللقب الرائع الذى عرف به وهو «حجة الإسلام». كما استطاع أن يجعل عالما معروفاً كالسيوطى يقول فى شأنه : إنه لو قيض للاسلام رسول بعد محمد ، لما كان هذا الرسول غير الغزالى .. !.

---

(١) المترجم: نقلنا النص من طبعة «المنقذ» المنشورة فى القاهرة سنة ١٩٥٢م (أنظر ص٥١)

الفصل الخامس

عصر السلطان سنجر واخوته

(٤٨٥ — ٥٥٢ هـ = ١٠٩٢ — ١١٥٧ م)

الفترة التى نقدم على دراستها فى هـذا الفصل تستغرق خمسا وستين سنة ، تبدأ بموت « ملـكشاه » كما فصلنا الخبر عن ذلك فى نهاية الفصل الثالث من هذا الـكتاب وتنتهى بموت ابنه « سنجر » .

والمعروف عن « سنجر » أنه لم يكن مطلق الحـكم فى إمبراطورية السلاجقة إلا فى خلال الفتره الواقعة بين سنتى ٥١١ و ٥٥٢ هـ = ١١١٧ و ١١٥٧ م ؛ ومـع ذلك فقد كان قبل توليه ملك السلاجقة حاكما على ولاية خراسان، وكان أروع شخصية ذات نفوذ بين آل سلجوق منذ سنة ٤٩٠هـ =١٠٩٦م. وقد نجت خراسان بفضل حكومته المستتبة القادرة من شر الحروب الطاحنة التى وقعت بين إخوته ، واستطاع بإدارته الماهرة أن يجنبها ويلات هذه الشرور الدائرة ؛ حتى إذا كانت غارات «الأتراك الغزّ » أصيبت هذه الولاية الآمنة فى السنوات الأخيرة من حكمه بكثير من الأذى والتخريب ، بحيث بدا الدمار الذى نزل بهذه الديار شاملا وفظيعاً ومخيفا ؛ ولـكن هذا البلاء الذى وقع على أيدى «الغز» سرعان ما اغتفر خطره وهان أمره ، عندما قورن بما أنزله «المغول» من رعب وفزع خلال غاراتهم التى وقعت بعد ذلك بما يقرب من سبعين سنة .

وعلى ذلك يمكننا ، على سبيل التجاوز ، أن نسمى هذه الفترة التى ندرسها بـ« عصر سنجر » وأن نعتبر موته نهاية لعهد « السلاجقة العظام » فى إيران .

وقد فاق « سنجر » ــ كما جاء فى كتاب «راحة الصدور» للراوندى [1] ــ جميع

---

(١) أرجع إلى مقالتى عن هذا الـكتاب فى «مجلة الجمعية الملـكية الأسيوية » سنة ١٩٠٢ ص ٤٨٩ .

ملوك السلاجقة الآخرين من حيث طول عمره وكثرة الأعمال الجليلة التى قام بها . فمنذ تولى الحكم من قبل « بركيارق» على ولاية خراسان تمكن فى فترة السنوات الأربعين التى تولاها من أن يقوم بتسع عشرة غزوة من الغزوات المظفرة . فاستطاع أن يستولى على « غزنه » وأن ينصب عليها « بهرامشاه » بشرط أن يدفع إليه جزية يومية مقدارها ألف دينار ، كما استطاع أن يأسر ملك سمرقند المسمى «أحمدخان» وهو الملك الذى ثار عند موت « بركيارق » فى سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م وأخضع ولايتى «سجستان » و« خوارزم » . ومع ذلك كله ، لم يعد لآل سلجوق من الناحية السياسية ما كان لهم من القوة والنفوذ أثناء حكم « ألپ أرسلان » و « ملكشاه» لأننا لو تجاوزنا فرضاً عن الأثر البالغ الذى أحدثته الحروب التى وقعت فى بداية هذه الفترة بين أبناء « ملكشاه » ، وكذلك عن المصائب الكثيرة التى نتجت عن الغارات المتتالية التى قام بها بعض أمراء المقاطعات الثائرين ، فإننا نجد أن إيران فى ذلك الوقت كان يقوم بها إلى جانب « السلاجقة العظام » بيوت ملكية أخرى تنازعهم السيطرة والسلطان .

وكان أهم هذه البيوت وأكثرها خطرا بيت « الغوريين » أو « ملوك جبال الغور » فى الشمال الشرقى من إيران ، وهو البيت الذى ورث « الغزنويين » فى هذه الولاية ، ثم « دولة ملوك خوارزم » أو حكام « خيوه » وهى الدولة التى أصبحت أكبر خصم للسلاجقة ، عند تولى « أتسز » فى سنة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م وكذلك « سلاجقة كرمان » الذين كانوا يحكمون غير منازعين فى الولايات الجنوبية الغربية من إيران .

وربما كان فريق «الإسماعيلية» أو «ملاحدة ألموت» أشد خطراً من هؤلاء جميعا ، لانتشارهم فى مختلف الولايات وسيطرتهم على سائر الأنحاء ،وقد استطاعوا رغم المقاومة الشديدة العاتية التى تصدوا لها من آن إلى آخر ، أن يقوموا بكثير من الأعمال التى أصبحت مصدر فزع ورعب فى إيران ، مالبث أن امتد خطرها حتى شمل الشام أيضا .

عصر سنجر من الناحية العلمية والأدبية

يمتاز هذا العصر من ناحيته الأدبية والعلمية بكثير من البهاء الذى امتاز به العصر السابق عليه والعصر اللاحق له ؛ فقد ازداد عدد الأدباء الإيرانيين من كتاب النثر والشعر ، وتم خلاله تأليف عدد من أمهات الكتب العربية التى أخرجتها إيران .

وقد عاش خلال عهد « سنجر » عدد من كبار شعراء الفرس، وولد فيه شاعران كبيران هما :

«الشيخ فريد الدين العطار » المولود سنة ٥١٤ هـ = ١١٢٠ م

و« نظامى الكنجوى » المولود سنة ٥٣٥ هـ = ١١٤٠ م

وتوفى به جملة من الشعراء المشهورين مثل :

« عمر الخيام »	المتوفى	سنة	٥١٥ هـ = ١١٢١م
« أزرقى »	»	»	٥٢٥ هـ = ١١٣٠ م
« مسعود بن سعد »	»	»	٥٢٦ هـ = ١٠٣١ م
«أديب صابر »	»	»	٥٣٨ هـ = ١١٤٣ م
« معزى »	»	»	٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م
« عمعق البخارى»	»	»	٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م

وعاش به طائفة أخرى من كبار الشعراء والكتاب مثل :

« سنائى » و«نظامى عروضى السمرقندى» و « رشيد الدين الوطواط » و « سوزنى » الشاعر الهجاء . ووجـــد به أيضا بالإضافة إلى هؤلاء جماعة آخرون ، لايبلغون منزلتهم من حيث الفضل وبعد الصيت .

أما أهم المؤلفات المنثورة التى كتبت بالفارسية فى هذا العصر فهى التالية :

١ — «ذخيرهء خوارزمشاهى»: أو«ذخيرة ملوك خوارزم» وهى عبارة عن موسوعة طبية ، تمّ تأليفها سنة ٥٠٤ = ١١١٠ م

٢ — ترجمة كليلة ودمنه : التى قام بها نصر الله بن عبد الحميد سنة ٥٣٨هـ = ١١٤٣ م

٣ — مقامات القاضى حميد الدين أبى بكر البلخى ، التى أنشأها حوالى سنة ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م

٤ — كتاب « چهار مقاله » : أو المقالات الأربع التى ألفها « نظامى عروضى السمرقندى » حوالى هذا التاريخ .

وهذا الكتاب الأخير هو من أهم هذه المؤلفات المنثورة ، ومن أجل ذلك سنستشهد به غالبا فى هذا الفصل كما فعلنا فى الفصول السابقة ؛ ويمكننا أن نعتبر «الغزالى» من أهم كتاب هذا العصر الذين كتبوا بالعربية دائما أو غالبا ، فقد توفى فى سنة ٥٠٥ هـ = ١١١١ م كما ذكرنا آنفا .

ومن أهم الشخصيات التى نلاقيها فى هذا العصر ثلاثة من علماء اللغة ، هم : «الزوزنى» « والتبريزى » و « الجواليقى » ؛ والجغرافى المعروف « البكرى » ؛ والشاعران الكبيران « الأبيوردى » و « الطغرائى » صاحب لامية العجم ؛ والمؤرخ « ابن منده » مؤرخ أصفهان ؛ والكاتب المتصوف « القشيرى » ؛ وكاتب المقامات « الحريرى » وقد كتبها استجابة لأمر وزير السلاجقة ومؤرخهم « خالد بن أنوشيروان » ؛ والمفسران : « الفراء البغوى » و « الزمخشرى » ؛ وجامع الأمثال العربية «الميدانى» ؛ ومؤلف كتاب الملل والنحل «الشهرستانى» ؛ وجماعة آخرون غير هؤلاء لايتسع المقام لذكرهم وتعدادهم .

* * *

ووفقا للنهج الذى اتبعناه فيما سبق من فصول ، سنتحدث أولا على الوضع السياسى لإيران والبلاد المجاورة لها خلال هذا العصر ، حتى إذا فرغنا من ذلك انتقلنا إلى الحديث عن النواحى الأدبية والعلمية فيها ، فنقول إنه عندما توفى « ملكشاه » كان له أربعة أولاد ، هم :

١ — بركيارق : وكان فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره

٢ — محمد : ويصغر عن أخيه الأكبر بستة شهور .

٣ — سنجر : وكان فى الثامنة من عمره

٤ — محمود : وكان طفلا فى الرابعة من عمره

وكان « بركيارق » عند وفاة أبيه فى بلدة أصفهان مع أمه « زبيدة » التى كانت هى أيضا تنتسب إلى أصل سلجوقى . أما « محمود » فكان مع أمه المتغطرسة الطامحة « تركان خاتون » فى « بغداد » ، فحاولت هذه السيدة أن تنتهز فرصة وجودها فى دار الخلافة لتضمن الملك لابنها الصغير ، ولم يشأ الخليفة « المقتدى » فى البداية أن يجاريها على ماتريد ، ولكنه سرعان ماوافق على طلبها أمام إلحاح ابنه « جعفر » الذى رزقه من الأميرة « ماه ملك » أخت ملكشاه ، وأمام مابذلته له من هدايا ورشى للوصول إلى غايتها . فلما تم لها ذلك أرسلت الأمير « بغا » إلى أصفهان فبلغها بعد أسبوع واحد ليقبض على « بركيارق » ، ولكن جماعة من أبناء « نظام الملك » استطاعوا عند ذلك أن ينقلوه خفية أثناء الليل من إصفهان إلى « ساوه » ثم إلى « آبه » ثم إلى « الرى » حيث نصبوه ملكا على عرش السلاجقه . وقالوا إنه لم يكن قد بلغ الثالثة عشرة من عمره عندما احتفلوا بتتويجه فأشفقوا أن يضعوا التاج الكبير على رأسه ، وعلقوه من فوقه مخافة أن ينوء بحمله (١) . وقد ترأس حفلات التتويج حاكم الرى المسمى « أبومسلم » وأحاط بأبواب المدينة عشرون ألف جندى يحرسون ملكهم الصغير الجديد .

وفى هذه الأثناء كانت « تركان خاتون » قد احتلت أصفهان معتمدة على مناصرة « مجد الملك القمى » و « تاج الملك أبى الغنائم » والأمير « أنروبلكا » وغيرهم من أعداء « نظام الملك » وقاتليه . وسار « بركيارق » بجيشه إلى « إصفهان » وشاء أن يحاصرها ولكنه عدل عن ذلك لقاء خمسمائة ألف دينار دفعت إليه لينفض عنها ويذهب إلى « همدان » . ولكن سرعان ماتم ذلك حتى عادت « تركان خاتون » إلى تدبير المكائد ضده ، فوعدت خاله « ملك إسماعيل » بأنها تقبل الزواج منه ، ودفعته بذلك إلى محاربة « بركيارق » فى سنة ٤٨٦هـ = ١٠٩٣م بالقرب من الكرج . ولكن الهزيمة كانت من نصيب هذا الخال فدارت عليه الدائرة فى اليوم الثالث

---

(١) أنظر « سيرة ابن هشام » طبع « وستنفلد » ص ٤٢

من فبراير سنة ١٠٩٤م (= ٤٨٧هـ) وأعلن «بركيارق» عند ذلك ملكا في بغداد . ولكنه لم يكد يتم له الأمر حتى ثار أحد أعمامه «تتش» (١) ثورة عنيفة تمكن بواسطتها من هزيمة «بركيارق» وأخذه أسيرا إلى مدينة «اصفهان» حيث استقبله أخوه الأصغر «محمود» استقبالا تبدو عليه مظاهر العطف وحسن المعامله ، ولكنه في الحقيقة لم يلبث أن وكل أمره إلى «انروبلكا» فأمر بحبسه في «كوشك ميدان» وعزم على سمل عينيه حتى لا يكون أهلا بعد ذلك لمطالبة بالملك .

ومن حسن حظ «بركيارق» أن أخاه الأصغر «محمودا» مرض في نفس الأسبوع بالجدرى ومات ، فلم ينفذوا فيه هذه العقوبة الشنعاء التى دبرت له ، واجتمع الأمراء عند ذلك ونصبوا «بركيارق» مرة أخرى على العرش ، ثم مالبثت «تركان خاتون» أن قتلت في خريف سنة ٤٨٧هـ = ١٠٩٤م فصفا لـ «بركيارق» الجو وسهلت أمامه الأمور .

ومرض «بركيارق» بعد ذلك بنفس المرض الذى أودى بأخيه ، ويئسوا من برئه ولكن الله قدر له الشفاء في النهاية . فلما كان العام التالى نهض لمحاربة عمه «تتش» واستطاع هزيمته وقتله .

وقتل في هذه الأثناء أيضا عمه «أرسلان أرغون» وقد كان خارجا عليه . قتله أحد أتباعه في مدينة «مرو»

ونجا «بركيارق» نفسه من القتل على يد أحد ملاحدة «ألموت» . وبعد ذلك بفترة وجيزة نصب أخاه «سنجر» حاكما على خراسان في سنة ٤٩٠هـ = ١٠٩٦م ثم عاد إلى العراق .

فلما كانت سنة ٤٩٣هـ = ١٠٩٩م ثار أخوه «محمد» ثورة عنيفة ، ناصره فيها أكبر أولاد نظام الملك وأقدرهم «مؤيد الملك» ، وكان «بركيارق» قد طرده من منصبه فاستحق بذلك خصومته العنيفة الدائمة . وقد كانت هذه الثورة من أعظم المخاطر التى تعرض لها «بركيارق» ؛ واستمرت الحرب دائرة بينه وبين أخيه ، تهدأ أحيانا ، وتشتد أحيانا أخرى ، ويكسبها هذا أو ذاك حتى سنة

---

(١) المترجم : يكتب هذا الاسم أحيانا هكذا «تكش»

٤٧٩هـ =١١٠٣م وقد وقعت بينهما خلال ذلك خمس معارك حامية ، ثم اتفقا على الهدنة قبل موت «بركيارق» بسنة أوسنتين . وقدارتكبت خلال هذه الحروب كثير من الفظائع والشنائع ، فقد أسر «محمد» أم بركيارق المساة «زبيدة» وأمر بخنقها فى سنة ٤٩٣هـ=١٠٩٩م وكانت فى الثالثة والأربعين من عمرها ؛ وثار الجند فأخذوا «مجد الملك القمى» الذى أصبح وزيرا لـ«بركيارق» بعد « مؤيد الملك » ومزقوه إربا إربا بتهمة ميله إلى مذهب اللاحدة والحشاشين ؛ وأمر «بركيارق» بالقبض على « مؤيد الملك » ثم اغتاله غيلة شنعاء بقطع رأسه وفصلها عن جسده . وعقد الصلح بعد ذلك بين الأخوين فى سنة ٤٩٧ هـ = ١١٠٣م . فلما بلغت هذه السنة نهايتها ، أصيب «بركيارق» بالمرض الذى أودى بحياته فى مدينة «بروجرد» ، وكان له من العمر خمس وعشرون سنة ، وقد أوصى قبل وفاته بتنصيب ابنه الصغير «ملكشاه الثانى» ملكا على عرش السلاجقة ، ولم يكن هذا الطفل قد بلغ الخامسة من عمره ، فبقى على العرش بضعة أشهر ثم خلع عنه ، وسملت عيناه كما كانوا يفعلون عادة فى هذا الوقت بكل من يريدون إقصاءه عن العرش .

محمد بن ملكشاه :

وقد أصبح عند ذلك «محمد بن ملكشاه» الملقب بـ «غياث الدين» الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى ملك السلاجقة ، فظل متربعا على العرش أكثر من ثلاث عشرة سنة من سنة (٤٩٩ إلى ٥١٢هـ =١١٠٥-١١١٨م) وقد عمل بهمة خلال هذه المدة على مقاومة نفوذ «الحشاشين» المتزايد ؛ وسنتحدث بعد قليل عن تطور حركتهم وما أحدثوه من أمور خلال هذا العصر . وفيما عدا ذلك فقد امتاز حكم «محمد بن ملكشاه» بهدوء نسبى لم تتخلله إلا معركة موفقة ، فاز فيها على الأمير العربى الكريم «صدقة بن مزيد » أمير الحلة فى سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨م وقد ذكر لنا « نظامى العروضى السمرقندى » حكاية غريبة تتعلق بهذه الموقعة فى المقالة التى خصصها للنجوم والمنجمين (١) .

---

(١) أنظر الحكاية التاسعة والعشرين من كتاب «چهارمقاله» وكذلك «مجلة الجمعية الأسيوية الملكية» سنة ١٩٠٢ م ص ٦٠٥

محمود بن محمد

وتولى الملك بعد محمد ابنه « محمود » وكان صبيا فى الرابعة عشرة من عمره ، فحكم فترة وجيزة ، أساء فيها الحكم [(١)] ، ثم ساقه حمقه إلى محاربة عمه «سنجر» حاكم خراسان القوى . فوقعت الموقعة بينهما فى مدينة «ساوه» فى سنة ٥١٣ هـ = ١١١٩ م وأصابت الهزيمة محموداً ، ولكن « سنجر » لم يعاقبه العقوبة المتعارف عليها فى هذه الأيام ، وقبل شفاعة أمه ، فعفا عن ابن أخيه المغلوب وتجاوز عن خطئه وحماقته . ونصبه واليا على العراق [(٢)] ثم زوجه من ابنته « ماه ملك خاتون» فظل حاكما على العراق مدة السنوات الأربع عشرة التالية . ولكن هذه الأميرة سرعان ما اغتالها الموت ، وكان « سنجر » يكن لها كثيرا من الحب ، فحزن عليها حزنا شديدا ، وظل فترة لا يتسلى بشىء عن ذكرها ، وقد قيل إنه استدعى عند موتها الشاعر العجوز « عمعق البخارى » وطلب إليه أن ينظم الشعر فى رثائها [(٣)]

سنجر

أعلن فى بغداد تنصيب «سنجر» ملكا على عرش السلاجقة فى السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥١٣ هـ الموافق الرابع من سبتمبر سنة ١١١٩ م وقد ذكرنا فيما سبق أنه تولى قبل ذلك حكم خراسان مدة السنوات الأربع والعشرين الماضية . وقد كان حكمه على العموم موفقا ناجحا ، لم تشبه إلا سحب قاتمة ، عكرت صفو سمائه فى

---

(١) أنظر ص ١٢١ — ١٢٤ من « البندارى » طبع « هوتسما » فقد ذكر الاتهامات العشرة التى وجهت إليه .

(٢) أنظر تذكرة الشعراء لـ « دولتشاه » ص ١٣٠ حيث ذكرت هذه الحادثة بالتفصيل وقد تكون روايه دولتشاه خيالية فى بعض وقائعها . وقد نسبها إلى تاريخ يسبق الذى ذكرناه بأربع سنوات .

(٣) المترجم : أنظر المرجع السابق ص ٦٥ حيث جعل مطلع مرثيته البيتين الآتيين :
هنگام آنكه گل دمد از صحن بوستان   رفت آن گل شگفته ودرخاك شد نهان
هنگام آنكه شاخ شجرنم كشد ز ابر   بى آب ماند نرگس آن تازه بوستان

الأيام الأخيرة من حياته ويقترن باسمه وبقصره جماعة من كبار شعراء الفرس الذين عاشوا فى هذا العصر وأهمهم : « أنورى » و « المعزى » و « أديب صابر » .

وقد ولد « سنجر » فى سنة ٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م (١) فى مكان من آسيا الصغرى اسمه « سنجار » فنسب إليه (٢) ؛ أما وفاته فكانت فى سنة ٥٥١ هـ أو سنة ٥٥٢ = ١١٥٦ — ١١٥٧ م وقد بلغ من العمر اثنتين وسبعين سنة قمرية؛ وامتد حكمه كما يقول « الراوندى » إحدى وستين سنة ، منها عشرون سنة تولى فيها حكم خراسان ، وإحدى وأربعون سنة تولى فيها حكم العالم ، وبمعنى آخر دولة السلاجقة .

أما الأحداث المؤلمة التى عكرت صفو أيامه الأخيره فقد بدأت بالثورة التى أعلنها ملك خوارزم « آتسز » وأعلن فيها استقلاله التام فى سنة ٥٣٥ هـ = ١١٤٠ م. وفى السنة التالية قهره جماعة من كفار الأتراك وأخذوا زوجته أسيرة ، وقتلوا من رجاله مائة ألف رجل ، واستولوا منه على « مرو » و « سرخس » و « نيسابور » و « بيهق » فظلت هذه المدن فى أيديهم فترة من الزمان .

أما هزيمته المنكرة على أيدى « الأتراك الغز » فقد حدثت فى صيف سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م ؛ فأغار هؤلاء القوم على « طوس » و « نيسابور » ونهبوها ، وقتلوا كثيرا من سكانهما ، وذبحوا كثيرا من الرجال الذين اشتهروا بالفضل والصلاح . وقد وقع « سنجر » نفسه أسيرا فى أيديهم ، فعاملوه ظاهريا بشىء من الإجلال والإكرام ، ولكنهم حظروا عليه حرية التنقل ومنعوه من مساعدة رعاياه المنكوبين وأبقوه فى أسرهم حتى خريف سنة ٥٥١ هـ = ١١٥٦ م . فاستطاع « المؤيد » وجماعة من خلصاء أتباعه السابقين أن يرشوا حراسه من « الغز » وأن ينجوه من

---

(١) هذا التاريخ مذكور فى « ابن الأثير » وفى « راحة الصدور » أما البندارى فيذكر أن تاريخ ولادته هو سنة ٤٧٢ هـ = ١٠٧٩ م .

(٢) إذا تحرينا الدقة وجب علينا أن نقول إنهم اختاروا له هذا الاسم التركى لمقاربته ومشابهته لاسم المكان الذى ولد به ، فكلمة «سنجر» التركية بمعنى «صقر» أو طائر من طيور الصيد ، والمعروف عن الأتراك السلاجقة وغيرهم أنهم كانوا يسمون أولادهم بأسماء الحيوانات والطيور ، ومثلا «طغرل» معناها الصقر أو الباز ، و«أرسلان» معناها الأسد .

الأسر وأن يبلغوه مدينة « مرو » سالما آمنا . وحاول «سنجر» فى هذه المدينة أن يجمع جيشا لينتقم به من « الغز » ؛ ولـكن الأسى الذى أصاب قلبه ، والخراب الذى أصاب بلاده ، والشيخوخة التى هدمت شبابه ، اجتمعت كلها فسببت موته فى الشهور القليلة التى أعقبت خلاصه . وقد دفن مع عمه « ألپ ارسلان » فى مدينة « مرو » فى البناء الذى بناه هنالك وأسماه « دولت خانه » .

سلاجقة كرمان :

ويقترن الحديث عن هذا العصر الذى درسناه فى الصفحات السابقة باسم أربعة من سلاجقه كرمان هم :

١ — تورانشاه : المتوفى سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م .

٢ — إيرانشاه بن تورانشاه : المقتول فى سنة ٤٩٥ هـ = ١١٠١ م . بتهمة ميله إلى مذهب « الإسماعيليه » أو « الملاحدة » .

٣ — أرسلانشاه : وهو ابن عم «إيرانشاه» وتوفى سنة ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م

٤ — مغيث الدين محمد بن أرسلانشاه : وهو الذى اشتهر بأنه افتتح عصره بسمل أعين عشرين أميرا من أخوته وأبناء إخوته؛ وقد توفى سنة ٥٥١ هـ = ١١٥٦ م

الخلفاء العباسيون المعاصرون

مات « المقتدى » عند بداية هذا العصر فى سنة ٤٧٨ هـ = ١٠٩٤ م ومات «المقتفى» قرب نهايته فى سنة ٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م . أما الخلفاء الثلاثة الذين تولوا الخلافة فى الفترة الواقعة بين هذين الخليفتين فأولهم « المستظهر » وقد مات فى سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ م ، وثانيهم «المسترشد» وثالثهم ابنه «الراشد» . وقد قتل هذان الخليفتان على أيدى الإسماعيلية ، وقيل إن «سنجر» هو الذى حرض على قتل «المسترشد» عندما كان أسيرا فى بلدة «المراغة» فى أيدى السلطان « مسعود السلجوقى » فقتلوه فى يوم الأحد السابع عشر من ذى القعدة سنة ٥٣٠ هـ الموافق التاسع والعشرين من شهر

أغسطس سنة ١١٣٥م . أما «الراشد» فقد خلعه السلطان «مسعود السلجوقى» وقتله بعد سنتين من خلعه فى أصفهان فى يوم الثلاثاء السابع من سنة ٥٣٣هـ = ١١٣٨م

ويلاحظ أن الخلفاء العباسيين لم يكونوا فى هذا العصر أكثر من ألاعيب فى أيدى السلاجقة ، وقد حكوا عن «المسترشد» إنه قال فى خطبة الجمعة فى «كرمانشاه» عند ما كان فى طريقه لمحاربة السلاجقة فى الحرب التى أودت بحياته ، قال العبارة الآتية : —

« فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق ، فبرزوا علينا ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثر منهم الفاسقون»[١]

الغوريون والغزنويون :

أما الغزنويون فقد خبا نجمهم منذ أمد بعيد ، ثم استؤصلت شأفتهم فى النصف الأخير من هذا العصر الذى ندرسه ، على أيدى «ملوك جبال الغور» هؤلاء المحاربين الأشداء من الأفغانيين الذين يعيشون فى «فيروزكوه» .

وكان يتولى ملك الغزنويين فى بداية هذا العصر ملكهم «ابراهيم» . وقد وردت عنه فى كتاب «سياست نامه» حكاية تدل على ما امتاز به من قوة شخصية وعلو همة[١] . فقد حكوا : إن مدينة «غزنه» أقفرت فى وقت من الأوقات من الخبز ، فأغلق الخبازون حوانيتهم ، وشكا الفقراء والغرباء شدة الضائقة لملكهم ، فأمر باستدعاء الخبازين وسألهم عن السبب الذى أدى إلى نقص الخبز فى المدينة ، فأخبروه بأن خبازه الخاص يجمع كل مايوجد من قمح ودقيق حتى يرتفع سعرهما . فلما علم السلطان بذلك أمر رجاله أن يلقوا بخبازه الخاص تحت أقدام الفيلة ، فلما مات ربطوه على أنياب فيل منها وطافوا به على هذه الصورة فى أنحاء البلدة ، وأخذ المنادى ينادى بأن هذا المصير سيكون نصيب كل خباز لا يبادر بفتح حانوته ، فما حانت صلاة العشاء

---

(١) ارجع إلى الحكاية السابعة من كتاب « چهار مقاله » .

(٢) أنظر ص ٤٢ من كتاب « سياست نامه » طبع شيفر سنة ١٨٩١م .

حتى كان كل حانوت من حوانيت الخبازين يعرض على بابه خمسين مناً من الخبز لا تجد من يشتريها ...!!

وقد مات السلطان إبراهيم الغزنوى فى سنة ٤٩٣هـ = ١٠٩٩م ، فخلفه ابنه « مسعود الثالث » فبقى على العرش حتى مات سنة ٥٠٨هـ = ١١١٤م وتبعه على العرش ثلاثة من أولاده على التعاقب، هم : «شيرزاد» المتوفى سنة ٥٠٩هـ = ١١١٥م ثم «أرسلان» ؛ ثم «بهرامشاه» ! وقد أمر هذا الأخير بخنق أخيه « أرسلان» فى سنة ١١١٨م واستولى بذلك على العرش لنفسه وظل متربعا عليه حتى نهاية هذا العصر الذى ندرسه أى حتى سنة ٥٤٧هـ = ١١٥٢م

ويقترن اسم «بهرامشاه» عادة باسم الشاعر الأول من كبار شعراء الصوفية فى إيران وأعنى به «سنائى» مؤلف «حديقة الحقائق » فى سنة ٥٢٦هـ = ١١٣١م

وقد انتهى حكم « بهرامشاه» بنكبة كبيرة ، ففى خريف سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥م اتهمه «سنجر» بالخيانة فسار إليه بجيشه ، واضطره إلى الخضوع ودفع الجزية ، وظل « سنجر فى غزنه بضعة شهور ثم عاد فى صيف السنة التالية إلى بلخ(١) ؛ وبعد اثنتى عشرة سنة من هذا التاريخ رأى « بهرامشاه » أن يقتل صهره « قطب الدين محمد » من أمراء الغور ، فلما فعل ذلك أسرع أخوا القتيل « علاء الدين حسين» و «سيف الدين سورى» إلى الثأر لأخيهما وتمكنا فى سنة ٥٤٣هـ = ١١٤٨م من طرد «بهرامشاه» من مدينة « غزنه » حيث نصب « سيف الدين» نفسه حاكما على هذه المدينة من قبل أخيه « علاء الدين» ؛ ولكن سرعان ما أقبل الشتاء وأغلقت الطرق بالثلوج المتراكمة عليها ، حتى دبرت المكائد ضده واستدعى الثائرون «بهرامشاه» ونصبوه على غزنه ثانية ، وقبضوا على «سيف الدين» وطافوا به فى هذه المدينة راكبا على بغل وقد لطخوا وجهه بالسواد ، ثم أخذوه فشنقوه وصلبوه ، وقد كان من نتيجة هذه الفعلة الشنعاء أن انتقم « علاء الدين حسين »

---

(١) أما الجوينى فيروى فى كتابه « تاريخ جهانگشا » أن « بهرامشاه » فر من أمام سنجر ، ويقول إن هذا الملك السلجوقى أشار عند فراره إلى رجاله وقال عبارته المشهورة: «هذا ظهر مدبر ليس له وجه يبدو بعد الآن ..!! »

لنفسه انتقاما شنيعا فى سنة ٥٥٠ هـ = ١١١٥ م أى بعد ثلاث سنوات من موت « بهرامشاه » وتولية ابنه « خسروشاه » فأقبل هذا الغورى الكاسر على مدينة « غزنه » وأنزل سخطه ثلاثة أيام متوالية على أهلها المتعجرفين بحيث لقبوه بلقب «جهان سوز » أى « محرق العالم »

ومع ذلك، يجب علينا أن نلاحظ مدى التقدير الذى كان الأدب يفوز به فى هذه الأيام . فقد روى لنا صاحب چهار مقاله : « إن علاء الدين حسين عندما أغار على غزنه وأخذ يحطم جميع المبانى والمنشآت التى أنشأها محمود ومسعود وابراهيم ، أخذ فى نفس الوقت يشترى القصائد التى قالها الشعراء فى مدحهم ثم يأمر بوضعها فى مكتبته الخاصة . ولم يعد أحد من الجند أو سكان المدينة يجرؤ على أن يلقبهم بألقاب السلاطين مع أن علاء الدين نفسه كان يقرأ الـ « شاهنامه » حيث قال الفردوسى فى مدح السلطان محمود[1] :

— عندما تفطم شفاه الصبى عن لبن والدته
فإن أول ما ينطق به فى المهد هو لفظ « محمود » يجرى على شفته
— ومحمود فيل بجسده ... وهو جبريل بروحه
وهو كالمزن بكفه ... وهو كنهر النيل بقلبه
— وهو الحاكم والملك القادر الكبير الشان
الذى جعل «الشاة» تستقى مع «الذئب» من حوض واحد... فى أمان...!

ملوك خوارزم أو الخوارزمشاه :

هؤلاء الملوك أهم أثراً وأبلغ دلالة فى تاريخ إيران من دولتى الغزنويين والغوريين . وهم يعرفون باسم الـ «خوارزمشاه» أو «ملوك خيوه» وأول ملوكهم هو «أنوشتكين» وكان يشتغل ساقيا للسلطان « ملكشاه » السلجوقى ؛ وقد بدأ ملكه فى سنة

(١) المترجم : فيما يلى أصل هذه الأبيات بالفارسية :
چو كودك لب از شير مادر بشست   ز گهواره محمود گويد نخست
بتن زنده پيل وبجان جبرئيل   بكف ابر بهمن بدل رود نيل
جهاندار محمود شاه بزرگ   بآبشخور آرد همى ميش وگرگ

٤٧٠ هـ = ١٠٧٧ م (١) ثم استطاع خلفاؤه بعد ذلك التخلص من كل صلة لهم بملوكهم الأقدمين من السلاجقه ، وظلوا يحكمون حتى انتهى أمرهم بالبطل الشجاع «جلال الدين المنكبرنى» آخر بطل إسلامى صمد فى وجه الجموع الفاتكه من جيوش المغول الكافرة من سنة ٦١٧ هـ إلى سنة ٦٢٩ هـ = ١٢٢٠ — ١٢٣١ م .

وقد بدأت قوة هذه الدولة فى العلو والارتفاع سنة ٥٢١هـ=١١٢٧م عندما تولى عرشها الملك الماهر الطموح «آتسز» ، فلما شاعت الشائعات عن أطماعه وبلغت آذان «سنجر» اضطر إلى أن يوجه جيوشه إلى خوارزم لمحاربته هنا لك فى سنة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م

وقد استطاع «سنجر» فى هذه المرة أن يهزم «أتسز» هزيمة كبيرة ، كلفته كثيرا من الخسائر ، كان من جملتها ابنه الذى فقده فى هذه الموقعة وعز خطبه فيه(٢) ، وكان من نتيجة هذه الموقعة أن استولى «سنجر» على «خوارزم» وأقطعها من قبله لابن أخيه «غياث الدين سليمان شاه» ولكن لم يلبث أن عاد «سنجر» إلى «مرو» حتى عاد «أتسز» واستولى على عاصمته ، ثم دبر الثأر لنفسه من «سنجر» بأن حرض عليه الكفرة من الأتراك «الخطائين» فهاجموه وهزموه هزيمة منكرة فى صيف سنة ٥٣٦ هـ = ١١٤١ م ، وقتلوا مائة ألف من جنده وأخذوا زوجته أسيرة فى أيديهم واضطروه إلى الهرب إلى «ترمذ» و «بلخ» .

وفى هذه الأثناء أعلن «آتسز» استقلاله ، ثم تقدم إلى مدينة «مرو» فاحتلها ، وأسر جملة من أفاضل رجالها ، كان من بينهم الفقيه «أبو الفضل الكرمانى»(٣).

---

(١) يقول «الجوينى» فى كتابه «جهان گشا» إنه كان متعارفا لدى السلاجقة أن يكافئوا أتباعهم من السقاة والحجاب وحراس الملابس الخاصة بإقطاعات من الأرض

(٢) يقول «الجوينى» إن اسمه «إيليغ» وروى أنهم عندما قبضوا عليه أحضروه إلى «سنجر» فأمر بقطع جسده بمنشار فشقوه إلى نصفين .

(٣) يبدو مما رواه ابن الأثير فى أخبار سنة ٥٣٦ هـ أن «أتسز» لم يكن ينوى التعرض لمدينة «مرو» كما فعل بمدينة «سرخس» ولكنه اضطر فى نهاية سنة ٥٣٦ هـ = ١١٤١ م إلى مهاجمتها وإنزال البلاء بها عند ما علم بقتل جماعة من أتباعه .

وكانت هذه الموقعة كما يقول « ابن الأثير » أول موقعة خسرها «سنجر» وقد رأينا أنها كانت فاتحه لسلسلة أخرى من النكبات المتلاحقة .

وتمكن «أتسز» بعدذلك من احتلال مدينة «نيسابور» وظل بها فترة لم يتعرض لها بشيء من السوء ، وأمر بحذف اسم «سنجر» من الخطبة فحذفوها ثلاثة أشهر من صيف سنة ٥٣٧هـ = ١١٤٢م . وبعد ذلك بما يقرب من سنة واحدة حاول «سنجر» محاصرة «خوارزم» ولكنه عجزعن ذلك فقبل الصلح مع «أتسز» . ثم مات «أتسز» عقب ذلك في التاسع من جمادى الآخر سنة ٥٥١هـ الموافق ٣٠ يوليه سنة ١١٥٦م قبل موت خصمه « سنجر » بفترة وجيزة[١] .

شعراء سنجر وأتسز :

ويقترن باسمي «سنجر» و «أتسز» ولا يكاد ينفصل عنهما ، أسماء أربعة من كبار الشعراء الإيرانيين ، سندرس آثارهم بعد قليل وهم :

١ — معزى   ٢ — أنورى

٣ — أديب صابر   ٤ — رشيد الدين الوطواط

أما «المعزى» فكان شاعر السلطان «سنجر» وكذلك كان من قبله ، أبوه «برهان» . وقدفاز بمكانة عالية جعلت الخطب فيه عظما عند ماقتل على يد مولاه بواسطة سهم أخطأ الهدف وأصابه في مقتل سنة ٥٤٢هـ = ١١٤٧م .

وربما كانت وفاة «الأديب صابر» أكثر إيلاما ؛ فقد روى دولتشاه[٢] إن سنجر أرسله إلى خوارزم ليتجسس على «أتسز» أو كما قال «الجويني» في كتابه تاريخ «جهان كشا» ليكون سفيرا له لدى ملك خوارزم . وكان «أتسز» قداستأجر اثنين من الملاحدة وأمرهما بالذهاب إلى مرو وقتل السلطان سنجر . فكتب «الأديب صابر» يخبر مولاه بذلك النبأ ، وضمن رسالته وصفا دقيقا لهذين الرجلين ؛ وحملت هذه الرسالة امرأة عجوز ، سارت بها إلى «مرو» وقدأخفتها في حذائها . فلما بلغت «سنجر» هذه الرسالة

---

(١) المترجم : مات «سنجر» في ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ

(٢) أنظر : «تذكرة الشعراء» ص٩٣

تعرف على الرجلين وأعدمها ؛ فلما علم «أتسز» بذلك أمر رجاله أن يقيدوا « الأديب صابر » ، فربطوا يديه وقدميه بالسلاسل والقيود ثم أغرقوه فى نهر جيحون . وقد أخبرنا « دولتشاه » أن هذه الحادثة وقعت فى سنة ٥٤٦ هـ = ١١٥١ م ، ولكن صاحب تاريخ «جهان گشا» وهو أصدق منه ، أخبرنا أنها وقعت قبيل سنة ٥٤٢هـ = ١١٤٧م، ويرى «إتيه» ـ وربما كان محقافيما يراه ـ أنها وقعت سنة ٥٣٨هـ = ١١٤٣م .

وسأكتفى فيما يتعلق بـ «الأنورى» و« رشيد الدين الوطواط »[1] بأن أذكر عنهما فى هذا المكان مايتعلق بأخبارهما بصدد المعارك التى تحدثنا عنها فيما سبق .

والمعروف أن «الوطواط» كان كاتباً للسلطان «أتسز» كما كان شاعره الخاص، وقد أثار نقمة «سنجر» عندما كتب قصيدته التى مطلعها :

چون ملك أتسز بتخت ملك برآمد

دولت سلجوق وآل او بسر آمد

ومعناه :

ـ عندما ارتقى الملك « أتسز» عرش الملك ،

انتهى أمر دولة سلجوق وآله ...!!

فلما كان «سنجر» فى خريف سنة ٥٤٢هـ = ١١٤٧ م يحاصر «أتسز» فى قلعة « هزار اسب » أمر شاعره « الأنورى» وكان يصحبه ويرافقه ، أن ينشىء بضعة أبيات لكى يكتبها على سهم من سهامه ، يقذف به إلى داخل المدينة المحاصرة ؛ فكتب « الأنورى » هذه الرباعية :

أى شاه ! همه ملك زمين حسب تراست

واز دولت واقبال جهان كسب تراست

امروز بيك حمله « هزاراسب » بگير

فردا «خوارزم» وصد «هزاراسب» تراست..!!

---

(١) سمى كذلك لضآلة جسده ونحافته .

ومعناها :

— أيها المليك ..! إن ملك العالمين رهن لإشارتك
— والعالم كسب لك بفضل إقبال حظك ودولتك
— فخذ اليوم بحملة واحدة قلعة «هزاراسب»
— وغداً تكون لك «خوارزم» ومائة «هزاراسب»[١] ...!!

وليس فى هذه الرباعية شىء يستحق الذكر إلا اللعب على لفظ «هزاراسب»؛ وقد أجاب عليها «الوطواط» بالبيت التالى فكتبوه على سهم وقذفوا به إلى سنجر[٢] :

گرخصم تواى شاه شود رستم گرد   يك خر ز هزار اسب تو نتواند برد

ومعناه :

— فلو قدر ... وصار خصمك هو البطل المعروف «رستم»
فإنه لن يستطيع أن يأخذ حماراً واحداً من جيادك الألف : «هزار اسب»[٣]

وسعى «سنجر» عند ذلك سعياً حثيثاً إلى القبض على «الوطواط» حتى تمكن فى النهاية من ذلك ، فأمر رجاله بأن يقطعوه إلى سبعة أجزاء . ويقول راوى هذه الحكاية وهو «منتخب الدين بديع الكاتب[٤]» أحد أجداد «الجوينى» مؤلف «تاريخ جهانگشا» إن الوطواط استطاع أن يهدىء ثائرة السلطان وأن يضحكه

---

(١) هذه الكلمة مركبة من «هزار» بمعنى ألف و «اسب» بمعنى حصان ، وعلى ذلك فمعناها «ألف جواد» .

(٢) يبدو أن قذف السهام المزودة بالرسالات المنقوشة عليها كان عادة قديمة متبعة فى إيران فيقذفون بها إلى داخل المدن المحاصرة او الى خارجها .
أنظر ما كتبه نولدكه بعنوان «تاريخ اردشير بن بابك»
Geschichte des Artachshir-i-Pâpakân, Gottingen 1879.

(٣) المترجم : «هزار اسب» كما أنها اسم مكان فإن معناها فى الفارسية أيضاً «ألف جواد» .

(٤) المترجم : اسمه «منتجب الدين» بالجيم وليس «منتخب الدين» بالخاء . وهو خال للجد الأعلى لعطا ملك الجوينى .
وترجمة حياته موجودة فى «لباب الالباب» لمحمد عوفى ج ١ ص ٧٨ .

عندما التفت إليه وقال : « لدى رجاء يامولاى ... وهو أن الوطواط طائر هزيل لا يحتمل جسده أن يمزق إلى سبعة أجزاء ، فهل لك أن تكتفى بتمزيقه إلى نصفين ...!! » .

وبهذه الوسيلة استطاع الوطواط أن يحصل على عفو « سنجر » لأنه تمكن من إضحاكه ...!!

الإسماعيلية في ألموت أو الحشاشون :

فإذا رجعنا الآن لاستعراض الأحوال السياسية فى إيران فى هذه الفترة ، فإنه يتبقى علينا أن ندرس أحوال طائفة أخرى من الناس ، لم يقدر لهم أن يبلغوا مبلغ الدولة السلجوقية . ولكنهم كانوا من حيث اتساع نفوذهم ورهبة جانبهم أقوى من السلاجقة والغزنويين والغوريين والخوارزمشاهيين ، ونقصد بهم جماعة الحشاشين أوالاسماعيلية فى «ألموت» . وقد وصفنا فى فصل سابق الظروف التى أدت إلى نشأة هذه الطائفة فى إيران وما أصابها من تغيير بسبب « الدعوة الجديدة » التى تولاها « الحسن بن الصباح» . وقد كان هذا الزعيم المخيف حيا على أيام « سنجر » لأنه لم يمت إلا فى سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م وقد ظل سنوات طويلة لايخرج من قلعة « ألموت » بل لا يغادر منزله الخاص ، ومع ذلك فقد بلغت سطوته أرجاء الشام وأصبح اسمه مرهوبا فى الأنحاء الغربية من آسيا ، وكان بالغ القسوة فى حياته ، فأدى به ذلك إلى إعدام ولديه بتهمة الزنا واحتساء الخمر ، ثم عين واحداً من أتباعه ليخلفه فى رئاسة هذه الطائفة وهو « كيا بزرگ اميد » فلما مات هذا الأخير فى سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧م خلفه ابنه « محمد » الذى توفى فى سنة ٥٥٨ هـ = ١١٦٢م .

ومن العبث ، بل من المستحيل ، أن نحاول فى هذا المؤلف تفصيل الحديث عن تاريخ « الحشاشين » أو « الاسماعيلية فى ألموت » فى هذه الفترة التى ندرسها ، ولكن يجب علينا أن نعترف بأن هذه الطائفة أصبحت من أقوى العوامل المميزة لهذا العصر ، بحيث نجد لزاما علينا أن نبين فى هذا المجال بعض نواحى نشاطهم لكى نتمكن من تصوير هذا العصر على حقيقته ، وقد أورد « ابن الأثير » ذكر هذه الطائفة المخيفة

فى كل سنة تقريباً من السنين التى تحدث عنها فى موسوعته التاريخية ، ومن المحقق أنهم قد فصموا كل علاقة تربطهم بالشعبة الأساسية فى مصر وشمال إفريقيا عندما أدركت الوفاة الخليفة الفاطمى «المستنصر» وأنهم بدأوا قوتهم السياسية بالاستيلاء على القلعة الجبلية الحصينة « ألموت » (١) فى سنة ٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ م . ومن عجيب المصادفات التى تنبه إلى ملاحظتها أغلب مؤرخى الفرس فى هذه الفترة ، أن هـذا التاريخ يتفق مع القيمة العددية التى تدل عليها الحروف التى تتركب منهاهذه الكلمة . وكان أول حدث سياسى أحدثوه هو أنهم تمكنوا بعد ذلك بعامين من قتل « نظام الملك » ، ثم تتابلت بعد ذلك الأحداث على فترات قصيرة ، فقتلوا وزير والدة «بركيارق» المسمى «عبدالرحمن السميرامى» فى سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧م(٢)، ثم «أنروبلكا» فى سنة ٤٩٤هـ = ١١٠٠م ؛ ثم «جناح الدولة» فى مسجد حمص فى سنة ٤٩٦ هـ = ١١٠٢ م ثم القاضى « أبا العلاء سعيد النيسابورى» فى سنة ٤٩٩هـ = ١١٠٥ م ، ثم « فخر الملك » وهو من أبنـاء « نظام الملك » فى سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ ، ثم القاضيين فى إصفهان ونيسابور، ثم «عبدالواحد الرويانى» فى طبرستان سنة ٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م ؛ ثم «مودود » فى مسجد دمشق سنة ٥٠٧ هـ = ١١١٣م ؛ و«أحمد ابن وهسودان » فى بغداد سنة ٥١٠ هـ = ١١١٦ م ؛ ثم القاضى « سعد الهروى» فى همدان سنة ٥١٩ هـ = ١١٢٥م ، ثم «عبداللطيف بن الخجندى» فى سنة ٥٢٤ هـ = ١١٢٩ م ؛ ثم الخليفة الفاطمى « الآمر بأمر الله » فى سنة ٥٢٥ هـ = ١١٣٠م ثم «أبا على بن أفضل» وزير الخليفة «الحافظ» وابن عمه فى سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٢م ثم الخليفة العباسى المسترشد فى سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥م ؛ ثم ابنه وخليفته «الراشد» فى سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م ؛ ثم أحد خواص أتباع سنجر المسمى « جوهر » فى سنة ٥٣٤ هـ = ١١٣٩ م ؛ هذا بالإضافة إلى عدد كبير آخر من الرجال الذين لا يبلغون مبلغ هؤلاء أهمية وخطراً .

---

(١) هذه الكلمة مكونة من « آله آموت » بمعنى « تعليم العقاب »

(٢) يحوط هذا التاريخ بعض الشك ، وتشير بعض المراجع إلى أن هذه الحادثة وقعت فى سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢ م

وقد استتبعت هذه الاغتيالات بالضرورة سلسلة من سلاسل الأخذ بالثأر ، قام بها أهل السنة ، فنقرأ فى كتب التاريخ عن « اضطهاد الملاحدة والمفكرين الأحرار » فى مدينة نيسابور فى سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م . ثم عن « مذبحة الباطنية » التى أمر بها «بركيارق» فى سنة ٤٩٥هـ = ١١٠١ م ، وعن صلب الوزير «سعد الملك» وأربعة من الباطنية ، وعن الزعيم الأثيم « ابن عطاش » وبعض أتباعه فى سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م . وعن المذبحة التى قتل فيها سبعمائة من الباطنية فى مدينة « آمد » فى سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م ؛ ثم عن مذبحة أخرى أكبر وأهم وهى المذبحة التى أمر بها « سنجر » فى سنة ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م لينتقم بها لمقتل وزيره «معين الملك» ، ثم عن مقتل «عباس الرازى » فى سنة ٥٤١ هـ =١١٤٦م وكان من ألد أعدائهم ، واعتاد أن يبنى الأهرامات من جماجمهم .

وقد أشرنا فيما سبق ، إلى أن الحروب الأهلية التى كثرت فى الفترة الأولى من هذا العصر قد ساعدت « الحشاشين » كثيراً على تثبيت أقدامهم وتقوية نفوذهم ، ولولاها لما استطاعوا أن يصلوا إلى ذلك بأية طريقة من الطرق ، وقد اتهم «بركيارق» بالعطف عليهم ، أو على الأقل بالتسامح الشديد معهم ، لقاء أن يمدوه بمعونتهم أو يقفوا موقف المحايد منه ، ويروى «ابن الأثير» فى أخبار سنة ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م أنه عندما أسر «مؤيد الملك بن نظام الملك» سبه «بركيارق» لانتسابه إلى مذهب الباطنية ثم قتله بيده [1] . وفى نفس السنة سار «بركيارق» لمحاربة أخويه « سنجر» و «محمد » عند بغداد ، فلما تلاقى الجيشان المتحاربان بحذاء دجلة ، أخذ أعداؤه يشنعون عليه بميله إلى الباطنية ويكبرون عليه ويقولون : « يا باطنية ..!! » وربما كان المقصود من المذبحة التى أمر بإجرائها على الباطنية فى هذه السنة ، هو أن يزيل من عقول رعاياه هذه الفكرة الخطيرة التى تعلقت به والتى كانت كافية لقتله أو عزله كما حدث تماما لـ « أحمد خان » حاكم سمرقند ، و « إيرانشاه » أمير كرمان السلجوقى ، فإنهما مع جماعة آخرين من الوزراء ورجال السياسة مثل « مجد

---

(١) يروى « راحة الصدور» هذه الحادثة بشكل آخر . انظر المقال المنشور فى «مجلة الجمعية الملكية الأسيوية» سنة ١٩٠٢ ص ٦٠٣ — ٦٠٤ .

الملك » قد انتهوا إلى هذه النهاية المؤلمة بسبب اتهامهم بالعطف على الملاحدة ، وقد ساد الخوف جميع الناس ، وأصبح من الأمور العادية أن يلبس من يخشى نقمة الحشاشين درعا تحت ثيابه كما كان يفعل « بلكا » حتى إذا قدر عليه ونسى فى يوم من الأيام أن يتخذ هذه الحيطة التى اعتادها ، فقد حياته لقاء إهماله وتهاونه. وكان الفدائيون من الحشاشين ، إذا قبض عليهم وحكم عليهم بالتعذيب والإعدام ، لايعدمون حيلة فى الثأر من أعدائهم ، كمافعل قاتل «فخر الملك» ، فإنهم حينما أحضروه أمام « سنجر » وأخذوا يستجوبونه عن فعلته أعلن أن جماعة من الأمراء وضباط القصر كانوا شركاءه ، فأمر سنجر بإعدامهم جميعاً ، وربما كانوا أبرياء من هذه التهمة(١).

ومن أعجب الأحداث المتصلة بتاريخ هذه الطائفة المخيفة من الملاحدة ، أحداث رواها بالتفصيل صاحب « راحة الصدور » وكذلك « ابن الأثير » وأقصد بها الحوادث التى وقعت فى ربيع سنة ٥٠١ هـ = ١١٠٧ م وانتهت بتخريب حصن الحشاشين الحصين « شاه دز » أو « دزكوه » بالقرب من أصفهان وصلب « ابن عطاش » وقتل عدد كبير من أتباعه ... ووالد « أحمد بن عطاش » الذى نشير إليه هو «عبدالملك بن عطاش» وكان رجلا أديباً من أهل الفضل يقيم فى «أصفهان » اتهموه بالعطف على الشيعة فاضطر إلى الهرب إلى مدينة «الرى» حيث وقع تحت تأثير « الحسن بن الصباح » ودخل فى مذهبه (٢) ، وقد كتب فى هذه الأثناء إلى واحد من أصدقائه فكان مما جاء فى رسالته : « لقد وقعت على الصقر الأشهب فعوضنى الله بذلك جميع ما تركت » وقد اشتغل ابنه بتجارة الكتان ، وكان شديد الكراهية لمذهب أبيه فى الإلحاد ، فاستطاع بذلك أن ينجو من كل شر وسوء .

وكان بالقرب من أصفهان قلعة اسمها « دزكوه » بناها « ملكشاه » وأسماها « شاه دز » أى « قلعة الملك » وكانت هذه القلعة تحتوى على خزائن الملك وأسلحة الجيوش . وكان يقيم بها جماعة من غلمان القصر ووصيفاته ، تتولى حراستهم سرية من

---

(١) المترجم : انظر تفصيل ذلك فى حوادث سنة خمسمائة فى تاريخ الكامل لابن الأثير

(٢) أما ابن الأثير وجماعة آخرون من المؤرخين فيقولون إنه كان استاذا للحسن بن الصباح وليس تلميذا من تلاميذه .

الجند الديلميين ، فكان « ابن عطاش » يذهب إلى هذه القلعة بحجة التدريس لهؤلاء الشبان والشابات حتى استطاع تدريجيا بواسطة الهدايا والأقوال المعسولة أن يستميل رجال الحامية إلى جانبه . ثم أسس بعد ذلك دارا للدعاية فى مكان اسمه «دشت گور» شديد القرب من أبواب المدنية ، ونجح فى دعوته نجاحا باهرا ، حتى بلغ عدد أتباعه ومريديه ثلاثين ألفا كما يقول مؤرخنا المذكور .

وبدأ الرعب فى هذا الوقت يستولى على أهل «اصفهان» بسبب ما كان يتكرر وقوعه يوميا من اختفاء مواطنيهم وأهليهم . ثم مالبث القناع أن تكشف عن هذه الجرائم الغامضة على يد سائلة عجوز ، تقدمت إلى أحـــد المنازل تطلب إحسانا ، فسمعت أصوات عويل وأنين تنبعث من داخله ، فظنت أن بالمنزل مريضا وأخذت تدعوا الله أن يأخذ بيده ويشفيه . وحاول سكان المنزل أن يستدرجوها إلى الدخول ليعطوها طعاما وقوتا ، ولـكنها شكت فى نواياهم وأسلمت أرجلها للفرار ، وأخذت تستغيث بمن صادفها .

والتف حولها خلق كثيرون ، وأحاطوا بالمنزل ، ثم كسروا بابه ودخلوه ، فوجدوا فى سراديبه منظرا مرعبا ، يتألف من أربعمائة أو خمسمائة جثة من الجثث ، بعضهم مصلوب على الجدران ، وبعضهم ذبيح على الأرض ، وبعضهم مازال يجود بأنفاسه الأخيرة ، وبين هؤلاء وهؤلاء جماعة استطاع الناس أن يتعرفوا عليهم ويقرروا أنهم من أصدقائهم الذين فقدوهم أخيرا . وقد تبين أن هـذا المنزل مملوك لرجل اسمه « علوى المدنى» وأنه كان ندوة للحشاشين ، وكان من دأب هذا الرّجل أن يستند إلى إلى عصاه ، ويقف عند المغرب على باب الدرب المظلم الطويل الذى يؤدي إلى داره ، فإذا اجتاز به إنسان أخذ يدعو الله أن يغفر لمن يأخـذ بيد الضرير الفقير ويقوده إلى باب داره فى هذا الدرب ..! فإذا استجاب لدعائه واحد من الضحايا الآمنين وأخذ بيده انتهى أمره إلى الموت ، لأنه متى وصل به إلى نهاية الدرب انقض عليه جماعة من أتباع هذا الضرير ، وأخذوه فطرحوه فى سراديب الدار حتى يقضى عليه بالموت. وقد استمر الحال على هذا المنوال بضعة شهور قبل أن تنجلى حقيقته المفزعة على هذه الصورة التى بيناها . وكان من الطبيعى أن يتلو ذلك انتقام سريع ، فتصدى الناس

له ، وأوقدوا نارا كبيرة فى سوق المدينة ، ثم طرحوا فيها « علوى المدنى » وامرأته وجماعة آخرين من شركائه .

وكثر عند ذلك الشك ، وبالغ الناس فى الريبة ، فكان ممن شكوا فى أمره الوزير « سعد الملك » ولكن السلطان كان يقرب هذا الوزير ، فأبى فى البداية أن يصدق الناس فيما اتهموه به . وكانت قلعة « دژ كوه » محاصرة فى هذه الفترة ، وكادت موارد « ابن عطاش » أن تنضب ، فأرسل سرا إلى « سعد الملك » يبلغه أنه لاقبل له بالمقاومة أكثر من ذلك ويقترح عليه التسليم والخضوع . ولكن « سعد الملك » أجابه برسالة فحواها : « اصبر أسبوعا آخر حتى أهلك هـذا الكلب » قاصدا بذلك السلطان نفسه ؛ وكان يعلم أن السلطان يحتجم مرة فى كل شهر ، فأفلح فى رشوة الحلاق حتى يسمم موساه ، ويهلكه بهذه الوسيلة الخافية .

ولكن غلامه أبلغ أمر هذه الخطة الماكرة إلى زوجته الجميلة التى كان يقاسمها أسراره ، وأبلغتها هذه بدورها إلى عاشقها ، فنقلها العاشق إلى مسامع أحد ضباط «شرف الملك» ثم نقلها هذا فى النهاية إلى مسامع السلطان. فأمر السلطان باستدعاء الحلاق فلما أحضروه أمر به فجرحوه بموساه ، ونفذ السم فيه ، وظهر تأثيره ، فاسود جلده ، ومات بسرعة ، وهو يتلوى من الوجع والألم الشديدين .

عند ذلك فقط صدق السلطان التهمة المنسوبة إلى وزيره ، وأمر بصلبه وصلب أربعة من أعيان أصحابه كان من بينهم : « أبو العلا المفضل» . ولم يلبث أن انقضى على ذلك يومان حتى سلم « ابن عطاش » قلعة «دژ كوه» . وأمر السلطان فأركبوه جملا، وطافوا به فى شوارع «اصفهان» وشهروا به بين آلاف المتفرجين ، فقذفوه بالوحل والقاذورات ، وغاظوه بأغنياتهم الساخرة ، وبقيت من هذه الأغانى مقطوعة منظومة فى لهجة محلية نقلها كتاب «راحة الصدور» ، ثم علقوه مصلوبا مدة سبعة أيام كاملة . وأخذوا يرشقونه بالسهام والحراب وهو مصلوب لا يستطيع الحركة أو الدفاع عن نفسه ، حتى إذا لم يبق فى جسده موضع لرشقة أو رمية ، أخذوه وأحرقوه حتى استحال رمادا ذاريا . وكان « ابن عطاش » يدعى الخبرة بأحكام النجوم فتقدم إليه وهو مصلوب واحد من النظارة ، وسأله هل استطاع أن يتنبأ بمصيره بفضل ما عرفه من أحكام النجوم...؟ فأجاب «ابن عطاش» بقوله : «لقد عرفت من طالعى أننى سأطوف شوارع

أصفهان فى أبهة تفوق مواكب الملوك ، ولكنى لم أتخيل أنها ستكون على هذه الحال ...!! » (١)

وقد هال « السلطان محمد » أمر الحشاشين وأحس بالخطر الذى يهدده فبدأ ينظم الإجراءات التى تؤدى إلى اجتثاث أصولهم والاستيلاء على قلاعهم الجبلية الحصينة ، ولكن الوفاة أدركته فى سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ م فتوقف بموته تنفيذ مشروعاته ، ووجد الملاحدة فرصة مجددة ، لم يبطئوا فى انتهازها لتقوية حالهم . بحيث ذا انقضت على موته عشر سنوات أو خمس عشرة سنة . نجدهم قد استطاعوا بواسطة القوة أو الخديعة أو الرشوة أن يستولوا على القلاع الآتية فى الشام : وهى قلعة « قدموس » وقلعة « بانياس » وقلعة « مصياث »(٢) وأن يضيفوها إلى ممتلكاتهم فى إيران التى شملت « ألموت » و « گردكوه » و « شيركوه » و « طبس » و « خور » و « خوسف » و «زوزن» و« قاين » و « تون » و « وشمكوه» بالقرب من « أبهر » و « خالنجان » بالقرب من أصفهان ، و « استناوند » فى مازندران ، و « قلعة الناظر » فى خوزستان ، وقلعة « الطنبور » بالقرب من ارجان ، و « خلا دخان » وغير ذلك من المواقع الحصينة المنتشرة فى سائر أرجاء إيران .

---

(١) تروى هذه الحكاية بشىء من التحوير مع حذف الأسماء فى كتب الحكايات العربيه والفارسية مثل «جوامع الحكايات» تأليف محمد عوفى . ومن الجلى أن الشاعر « أنورى » يشير الى « ابن عطاش » عندما يقول :

در خواب ديده خصم تو خودرا بلندىٔ   تعبير آن بديدهٔ بيدار دار يافت

ومعناه :

— لقد رأى خصمك لنفسه الرفعة فى المنام والأحلام ،

فكان تعبير رؤياه أن وجد المشنقة بأعين اليقظة التى لاتنام .

(٢) المترجم : يسميها صاحب « معجم البلدان » باسم « مصياب » أو «مصياف» ويقول نها حصن حصين مشهور للاسماعيلية بالقرب من طرابلس .

الحركة الأدبية فى هذا العصر

الآن وقد انتهينا من عرض مجمل للحالة السياسية فى إيران على عهد « سنجر » وإخوته ، يجمل بنا أن نقوم بدراسة الحركة الأدبية فى هـذا العصر . وسنجد أن زيادة عدد شعراء الفرس ، واتساع استعمال الفارسية كلغة أدبية فى إيران بدل العربية ، سيكونان سبباً فى أن نقصر عنايتنا على دراسة أشهر الشعراء وأنبههم ذكرا ، كما سيكونان سبباً من ناحية أخرى فى أن نقلل من عنايتنا بالأمور العربية والكتابات العربية .

أولا — شعراء الفرس

ولنمض الآن فى دراسـة أشهر شعراء الفرس بحسب ترتيبهم الزمنى على وجه التقريب :

سنائى :

ينسب هذا الشاعر إلى غزنه أو بلخ[1] . واسمه الكامل هو « أبو المجد مجدود بن آدم » ويعتبر أول الشعراء المتصوفين الثلاثة العظام ممن كتبوا « المثنويات » فى إيران ، وأما ثانيهم فهو «الشيخ فريد الدين العطار» ، وأما ثالثهم فهو «جلال الدين الرومى» ويعتبر هذا الأخير أعظم الثلاثة شأنا وإن كان هذا لم يمنعه من أن يقول فى تواضع :

عطار روح بود وسنائى دو چشم او ما از پى سنائى وعطار آمديم

ومعناه :

— لقد كان «العطار» روحا ، وكان «سنائى» عينيه البصيرتين .

وقد أتينا تلو «سنائى» و «العطار» ، وفى إثر هذين الاثنين .

---

(١) يتحدث «سنائى» فى صحيفة ٨١ من النسخة المطبوعة من ديوانه فى إيران بأن بلخ تزدهر بصيته وتفتخر بذيوع اسمه .

وكل ما نعرفه عن حياة «سنائى» أمور قليلة ، تكاد تنحصر فى أنه كان فى الفترة المبكرة من حياته متصلا بخدمه «بهرامشاه» . أما ما رواه «دولتشاه» عن قصة إعراضه عن الدنيا ، وزهده فى حياة القصور ، وانتقاله إلى حياة التصوف ، وهى نفس الحكاية التى نقلها «سير جور أوزلى» فى كتابة «تراجم شعراء الفرس» فحكاية غير خليقة بالذكر بل جديرة بالإهمال(١) . فإذا أتينا إلى المقدمة التى كتبها لكتاب «الحديقة» أو التى كتبها تلميذه «محمد بن على الرقام» لم نظفر منهما بشيء على الإطلاق يتصل بحياته(٢) ، أللهم إلا ما كان متصلا بما هدفا إليه — كما يقول «ريو» — من تأكيد ما ذكره «جامى» من أن الشاعر كتب «الحديقة» وهى خير مؤلفاته فى نهاية أيامه ، وأنه لم يكد يتمها حتى أدركته الوفاة فى سنة ٥٢٦هـ = ١١٣١م .

أما «عوفى» فى كتابه «لباب الألباب» فلا يذكر لنا كعادته شيئاً متصلا بحياة هذا الشاعر . وقد أشار «إتيه» إلى أن بعض الحقائق المعروفة عن هذا الشاعر تتعارض مع بعض التواريخ التى يمكن استخلاصها من المقدمتين المكتوبتين للحديقة(٣) ، لأن هذه التواريخ تهدف إلى جعل هذا الشاعر متأخراً من الناحية الزمنية عن «المعزى» وإلى القول بانه لم يمت قبل سنة ٥٤٥هـ = ١١٥٠م إلا بفترة وجيزة .

وآثار «سنائى» تشتمل كما وصلتنا على سبع مثنويات وديوان . فأما المثنويات فهى :

١ — حديقة الحقيقة : وهى المثنوية الوحيدة التى اشتهرت من بين مثنوياته .
٢ — طريق التحقيق
٣ — غريب نامه : أو كتاب الغريب .
٤ — سير العباد إلى المعاد .
٥ — كار نامه : أو كتاب الأعمال .

---

(١) أنظر: Ouseley: Lives of the Persian Poets pp. 184 — 187 وكذلك « تذكرة الشعراء » ص ٩٥ — ٩٧ .

(٢) وصف « ريو » محتويات هاتين المقدمتين فى « فهرست المخطوطات الفارسية » ص ٥٥٠ .

(٣) انظر فهرست المخطوطات الفارسية المحفوظة فى المكتبة البودلية ، عمود ٤٦٣ ، وكذلك فهرست المخطوطات الفارسية المحفوظة بمكتبة إدارة الهند ، عمود ٥٧١

٦ — عشق نامه : أو كتاب العشق .
٧ — عقل نامه : أو كـتاب العقل .

والمثنويات الست الأخيرة نادرة جداً ، ولم يقدر لى أن أراها بعينى[١] . أما الديوان فنسخه المخطوطة كـثيرة ، وقد طبع على الحجر فى طهران سنة ١٢٧٤هـ = ١٨٥٧م وهذه النسخة المطبوعة تشتمل على ٢٧١ صحيفة ، كل صحيفة منها تشتمل على ٤٥ بيتاً على وجه التقريب ، بحيث يبلغ مجموع الأبيات التى يتضمنها الديوان اثنى عشر ألف بيت من الشعر ، موزعة بين القصائد والترجيعات والتركيبات والغزليات والرباعيات[٢]

ومثنويته «الحديقة» هى أشهر مؤلفاته وأكـثرها انتشاراً ، وقد طبعت طبعة شرقية جميلة على الحجر فى مدينة بمباى سنة ١٢٧٥هـ = ١٨٥٩م ؛ ومن أجل ذلك فسنقصر حديثنا عليها وعلى الديوان ونخصهما ببعض ملاحظاتنا[٣] .

حديقة الحقيقة :

أهدى سنائى هذا الكتاب إلى «بهرامشاه» سلطان غزنه ، وهو عبارة عن مثنوية تتصل بالأخلاق أكـثر مما تتصل بالتصوف الخالص ، ويبلغ عدد أبياتها أحد عشر ألف بيت ؛ وقد قسمها الشاعر إلى عشرة فصول أوكـتب :

---

(١) جميع هـذه المثنويات موجودة فى مخطوطة « مكتبة إدارة الهند » الرقيمة ٣٤٦و٣ ، وهناك مخطوطات أخرى تشتمل عليها باستثناء المثنوية التى عنوانها «غريب نامه» . انظر كذلك فهرست « إتيه » رقم ٩١٤

(٢) المترجم: للديوان جملة طبعات أخرى ، خيرها وأحسنها هى التى نشرها «مدرس رضوى» فى إيران سنة ١٣٢٠ هـ.ش . على نفقة « شركت طبع كتاب » وقد نشرت مثنويات «سنائى» الأخرى فى إيران فى تواريخ متفرقة .

(٣) المترجم : كذلك طبع الماجور « ستيفنسون » الجزء الأول من الحديقة مع ترجمة الانجليزية فى مدينة كلـكتا فى سنة ١٩١٠م وصدر الـكتاب بمقدمات قيمة عن حياة سنائى وعن النسخ الخطية والمطبوعة من الحديقة .

الأول : فى حمد الله .	الثانى : فى نعت النبى .
الثالث : فى العقل .	الرابع : فى المعرفة .
الخامس : فى الإعراض .	السادس : فى السماوات والبروج .
السابع : فى الفلسفة .	الثامن : فى العشق .
التاسع : فى أحوال الشاعر .	العاشر : فى مدح بهرامشاه سلطان غزنه .

وقد نظم الشاعر هذه المثنوية فى بحر من بحور الشعر الخالية من كل روعة أو جاذبية أو سحر[١] . والمثنوية فى رأيى تعتبر من أسقم الكتب الفارسية المملة ، وهى مليئة بالبديهيات الساذجة والحكايات السخيفة[٢] ، ولاسبيل إلى مقارنتها بما كتبه «جلال الدين الرومى» فى «المثنوى» إلا إذا أجزنا لأنفسنا أن نقارن ما كتبه «روبرت منتجومرى» فى كتابه «الشيطان» بما كتبه «ملتون» فى كتابه «الجنة المفقودة»...!! وفيما يلى حكاية من حكايات الحديقة ، تصور لنا أن الإنسان يستحيل عليه أن يدرك الله إلا إدراكاً ناقصاً معيباً ، وهى نموذج طيب من نماذج هذه المثنوية على العموم :

« فى جماعة العميان وأحوال الفيل[٣] »

بود شهرى بزرگ در حد غور ۝ واندران شهر مردمان همه كور
پادشاهى بر آن مكان بگذشت ۝ لشكر آورد وخيمه زد بر دشت
داشت پيلى بزرگ با هيبت ۝ إز پى جاه وحشمت وصولت
مردمان را ز بهر ديدن پيل ۝ آرزو خاست ز آنچنان تهويل
چند كور از ميان آن كوران ۝ بر پيل آمدند چون عوران
تا بدانند شكل وصورت پيل ۝ هر يكى تازيان دران تعجيل
آمدند وبدست بپسودند ۝ زانكه از چشم بى بصر بودند

---

(١) المترجم : وزن المثنويه هو (فاعلاتن مفاعلن فعلن) وهو وزن الخفيف المسدس المشعث المقصور ، وأبوابها ليست على ترتيب واحد فى جميع النسخ .

(٢) لاتصل إلى مستوى ما كتبه بالانجليزية «مارتن تپر» فى كتابه « الفلسفة لمثالية »
Proverbial Philosophy, by Martin Tupper.

(٣) المترجم : اكتفى «براون» بذكر الترجمة الانجليزية ولكنا للفائدة نقلنا النص الفارسى .

هر یکی را بلمس بر عضوی — اطلاع اوفتاد بر جزوی
هر یکی صورت محالی بست — دل وجان در پی خیالی بست
چون بر أهل شهر باز شدند — بر شان دیگران فراز شدند
آرزو کرد هر یکی ز ایشان — آنچنان گمرهان وبد کیشان
هیئت وشکل پیل پرسیدند — وآنچه گفتند جمله بشنیدند
آنکه دستش بسوی گوش رسید — دیگری حال پیل ازو پرسید
گفت : شکلیست سهمناك عظیم — پهن وصعب وفراخ همچو گلیم
وانکه دستش رسید زی خرطوم — گفت : گشت است مر مرا معلوم
راست چون ناودان میانه تهیست — سهمناکست ومایهٔ تهیست
وانکه‌را بد ز پیل ملموسش — دست وپای سطبر پر بوسش
گفت : شکلش چنانکه‌مضبوطست — راست همچون عمود مخروطست
هر یکی دیده جزوی از اجزا — همگان را نظر فتاده خطا
هیچ را دل ز کلی آگه نی — علم با هیچ کور همره نی
جملگی را خیالهای محال — کرده مانند غتفره بجوال
از خدائی خلائق آگه نیست — عقلا را درین سخن ره نیست

ومعنى هذه الأبيات :

— كانت في حدود «الغور[1]» مدينة كبيرة ذات خطر .
وكان أهلها جميعاً مكفوفين ... قد حرموا نعمة البصر ... !!
— فمر بهذه المدينة ملك في تجواله
وضرب خيامه في واديها ، وأناخ برجاله ...!!
— وكان له فيل كبير الحجم والجثة والهيبة ،
ليدل به على ما له من جاه وحشمة وصولة ...!!

---

(١) المترجم : هي جبال وولاية بين هراة وغزنه ، وهي بلاد واسعة موحشة لاتنطوي على مدينة كبيرة ، وأكبر مافيها قلعة يقال لها «فيروزكوه» . (أنظر : معجم البلدان)

— فرغب الناس فى رؤية هذا الفيل
وازدادت رغبتهم ، لما سمعوا عنه من تهويل ...!!

— فتقدم جماعة من بين هؤلاء العميان
واقتربوا من الفيل يتخبطون فى غير اتزان ....!!

— ثم هرع كل واحد منهم إلى مكان الفيل ،
لـكى يعرف شكله وصورته فى سرعة وتعجيل ....!!

— ومدوا جميعهم أيديهم يتحسسون بها جثته
لأنهم كانوا محرومين من البصر ونعمته .. !!

— ولمس كل واحد منهم عضواً من أعضائه
واستطاع بذلك أن يعرف جزءاً من أجزائه ....!!

— وكون كل واحد منهم صورة مستحيلة تصورها
واستقرت فى نفس كل منهم أخيلة تخيلها وقدرها ....!!

— فلما عادوا إلى أهل المدينة بعد هذه الزيارة
اجتمع حولهم الباقون . . والتفوا بغزارة ....!!

— وشاء كل واحد من هؤلاء الضالين
أن يسأل عن حقيقة الأمر ... ويستطلع الخبر اليقين ....!!

— فلما سألوهم عن شكل الفيل وهيئته
أخذوا جميعا يستمعون إلى حديثهم ويصغون له بجملته ....!!

— وسأل سائل منهم عن حال الفيل وما له من صورة
وكانت يد المسئول قد لمست أذنه الـكبيرة ....!!

— فقال . إن الفيل حيوان هائل عظيم الصورة
عريض ، ومتسع ، كأنه السجادة المنشورة ....!!

— أما من لمست يده خرطومه الطويل
فقال : إننى ـ على اليقين ـ قد عرفت الفيل . . !!

— إنه مستقيم كالقناة الجوفاء الخالية ....!!
ولـكنه مخيف ، وخطر ، ومصدر كل داهية ....!!

— وأما من لمس من الفيل يديه الغليظتين
أو قدميه الضخمتين المكتنزتين ....!!
— فقال : إن شكل الفيل على الوجه الصائب المضبوط
شبيه على التحقيق بالعمود أو المخروط ....!!
— وبذلك أدرك كل واحد منهم جزءا من الأجزاء ،
ولكنهم جميعا وقعوا فى أشد الأخطاء ....!!
— ولم يستطع أن يعرف واحد منهم شكل الفيل فى مجموعه
وكذلك لن يدرك الأعمى شيئا من العلم أو فروعه ....!!
— ولقد فكروا جميعا فى الخيالات المستحيلة الباطلة
وصاروا كالبلهاء عقولهم قاصرة جاهلة ....!!
— وكذلك لن يستطيع الخلق معرفة الحقيقة عن الله القدير
ولذلك لايتحدث عقلاؤهم فى هذا الأمر الخطير ....!!

* * *

أما ديوان سنائى فيشتمل — فى رأيى — على أشعار تفضل أشعار « الحديقة » وتمتاز عنها كثيراً بحيث يكاد الفرق بينهما يدفع المرء إلى الشك فى كون مؤلفهما شاعرا واحداً ، لولا معرفتى بأن شعراء الفرس قلما يجيدون إلا ضربا واحدا من الشعر دون سائر ضروبه . وسأكتفى بمثل واحد للتدليل على هذا الرأى ، وهو أن قصائد « الأنورى » تفوق قصائد « حافظ » بقدر ما تفوق « غزليات حافظ » غزليات « الأنورى» . وفيما يلى أمثلة اقتطفناها من ديوان « سنائى » وهو ديوان جدير بالفحص الدقيق والدرس العميق .

يقول فى قصيدة مذكورة فى الديوان ص٨٠من النسخة المطبوعة على الحجر[١]
برگ بى برگى ندارى لاف درويشى مزن
رخ چو عياران ندارى جان چو نامردان مكن

---

(١) المترجم : هذه القصيدة موجودة فى ص ٣٧٩ من نسخة إيران سنة ١٣٢٠ هـ.ش وقد نقلناها عن هذه النسخة .

یا برو همچون زنان رنگی وبوئی پیش گیر
یا چو مردان اندر آی وگوی در میدان فکن
هرچه بینی جز هوا آن دین بود بر جان نشان
هرچه یابی جز خدا آن بت بود درهم شکن
چون دل وجان زیر پایت نطع شد پائی بکوب
چون دو کون اندر دو دستت جمع شد دستی بزن
سر بر آر از گلشن تحقیق تا در کوی دین
کشتگان زنده بینی انجمن در انجمن
در یکی صف کشتگان بینی به تیغی چون حسین
در دگر صف خستگان بینی بزهری چون حسن
درد دین خود بوالعجب دردیست کاندر وی چو شمع
چون شوی بیمار خوشتر گردی از گردن زدن
اندرین میدان که خودرا می در اندازد جهود
وندرین مجلس که بت‌را می بسوزد برهمن

* * *

سالها باید که تا یك سنگ أصلی ز افتاب
لعل گردد در بدخشان یا عقیق اندر یمن
ماهها باید که تا یك پنبه دانه ز آب وخاك
شاهدی‌را حله گردد یا شهیدیرا کفن
روزها باید که تا یك مشت پشم از پشت میش
زاهدی‌را خرقه گردد یا حماریرا رسن
عمرها باید که تا یك کودکی از روی طبع
عالمی گردد نکو یا شاعری شیرین سخن
قرنهـــا باید که تا از مشت آدم نطفهٔ
بو الوفای کرد گردد یا شود ویس قرن

ومعنى هذه الأبيات :

— إنك لا تملك القدرة على الاستغناء ، فلا تفخر بأنك درويش كامل ... !!
ووجهك لا يشابه وجوه العيارين ، فلا تجعل روحك كروح الأراذل ...!!

— فإما أن تذهب كالنساء ، فتتعطر بالعطور وتصطبغ بالألوان . . . ! !
وإما أن تقبل كالرجال ، فتقذف الكرة فى الميدان . . ! !

— وكل ما تراه — خلاف الهوى — فهو دين ، فثبته على صفحة روحك واذكره ،
وكل ما تدركه — خلاف الله — فهو صنم ، فحطمه وكسره ...!!

— وارقص هنيئا ... إذا أصبح القلب والروح نطعا تحت قدميك
وصفق مرحا . . . إذا اجتمع الكونان فى قبضة يديك . . . ! !

— وارفع رأسك من روضة التحقيق ، حتى ترى فى جادة الدين
أن القتلى أحياء ، وأنهم صاروا فى جموعهم متراضين [1] .

— وسترى فى أحد الصفوف قتلى كالحسين ... قتلوا بحد السيف البتار
وسترى فى صف آخر قتلى كالحسن ... قتلوا بفعل السم الغدار ... !!

— وفى دينك عجب عجاب ، فأنت فيه شبيه بالشمع فى سيرتك ...!!
ومتى صرت عليلا ، فإنما تصح وتطيب... إذا قطعت رقبتك . . . !! [2]

— وفى هذا الميدان يلقى « اليهودى » بنفسه ووجوده
وفى هذا المجلس يحرق « البرهمى » صنمه ومعبوده . . . !!

— . . . .

— وتلزم سنوات كثيرة قبل أن يصبح حجر واحد بفعل الشمس والزمن
ياقوتا فى « بدخشان » ، أو عقيقا فى « اليمن » [3] . . . !!!

— وتلزم شهور كثيرة ... قبل أن تصبح بذرة القطن بفعل التراب والماء
حلة لحسناء ، أو كفناً لواحد من الشهداء . . . ! !

— وتلزم أيام كثيرة . . . قبلما تصبح حفنة صوف من ظهر الأغنام
خرقة لزاهد ، أو رسناً لحمار أو مقودا للأنعام . . . !!

---

(١) يشير إلى قوله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» .
(٢) المترجم : الشمعة إذا قطع فتيلها زاد ضياؤها
(٣) المترجم : الياقوت البدخشى المنسوب إلى «بدخشان» مشهور بجماله وصفائه ، وكذلك العقيق الجميل يخرج من اليمن .

— وتلزم أعمار طويلة ... قبلما يصبح طفل طيب الطبع ، سليم الوجدان
عالما كبيرا أو شاعرا حلو الكلام والأوزان ... !!
— وتلزم قرون عديدة ... قبلما تصبح نطفة من ظهر آدمى
« أبا الوفاء الكردى » أو « أويس القرنى » (١) . . . !!

* * *

وفيما يلى غزلية قصيرة من غزلياته ، ننقلها عن صحيفة ١٦٧ من الديوان : (٢)

هر دل كه قرين غم نباشد   از عشق بر او رقم نباشد
من عشق تو اختيار كردم   شايد كه مرا درم نباشد
زيرا كه درم هم از جهانست   جانان وجهان بهم نباشد
تا در دل من نشسته باشى   هرگز دل من دژم نباشد

ومعناها :

— كل قلب لا يقترن بالغموم والأحزان فى حياته
لا يصلح أن يكون مستقراً للعشق ، يرقم على صفحاته ... ! !
— ولقد اخترت عشقك دون غيرك ، ولم أكن مضطرا أو مرغما
وماذا يضيرنى . . ؟ إذا أصبحت مفلسا لا أمتلك درهما . . ! !
— لأن الدرهم يعتبر من متعلقات الدنيا الزائله
والحب والدنيا لا يجتمعان ، وليسا على شاكله . . . ! !
— وما دمت مستقرا فى قلبى ، وما دمت فيه باقيا
فإن قلبى لن يصبح قاسياً ولن يصير عاتيا ..!!

وفيما يلى مثل آخر من غزلياته الثنائية ننقلها عن صحيفة ٢٠٦ من الديوان (٣)

ترا دل دادم اى دلبر شبت خوش باد من رفتم
تو دانى با دل غمخور شبت خوش باد من رفتم

---

(١) أويس القرنى صوفى كبير ، مذكورة سيرته فى « تذكرة الأولياء » للشيخ فريد الدين العطار ؛ وأبو الوفاء الكردى صوفى أيضاً لم أعثر على ترجمة حياته .

(٢) المترجم : هذه الغزلية موجودة فى ص ٦٢٦ من النسخة المطبوعة فى إيران سنة ١٣٢٠ هـ ش

(٣) المترجم : هذه الغزلية موجودة فى ص ٦٧٤ من النسخة المطبوعة فى إيران سنة ١٣٢٠ هـ ش

اگر وصلت بگشت از من روا دارم روا دارم
گرفتم هجرت اندر بر شمت خوش باد من رفتم
بیردی نور روز وشب بدان زلف ورخ زیبا
ز هی جادو زهی دلبر شبت خوش باد من رفتم
بچهره اصل ایمانی ، بزلفین مایهٔ کفری
ز جور هر دو آفتگر شبت خوش باد من رفتم
میان آتش وآبم ازین معنی مرا بینی
لبان خشك وچشم تر شبت خوش باد من رفتم

ومعناها :

— لقد أسلمت لك قلبي أيها الحبيب ، فطب مساءاً . . . . . إنني ذاهب
وأنت تعلم حال قلبي الحزين ، فطب مساءاً . . . إنني ذاهب
— وإذا استحال وصلك لى مرة أخرى ، فأنت محق .. وعلى حق
ولكن دعني في ساعة الفراق أضمك إلى صدرى، وطب مساءاً . . . إننى ذاهب
— لقد سلبت بطرتك السوداء ووجهك الوضىء نور النهار وظلام الليل
فما أبدعك من ساحر ، وما أجملك من فاتن ، وطب مساءاً . . . إننى ذاهب
— وأنت بوجهك أصل للايمان . . . ولكنك بطرتيك أصل للكفر
وكلاهما سبب للبلاء . . فطب مساءاً .. . إننى ذاهب
— وإنك ترانى بهذا الوضع بين النار والماء
شفتاى صاديتان ، وعيناى باكيتان . . . فطب مساءاً . . إننى ذاهب . . . !!

* * *

وقد اخترت هذه الأمثلة اعتباطا وعن غير تعمد ، ولكنها تكشف لنا عن روعة وإبداع بالغين ؛ ولا شك أن الأشعار الفارسية مازالت خبيئة فى بعض المناجم الغنية التى لم تكشف حتى الآن ، ولو اعتنى بها الباحث الجاد لوجدها غنية بالدرر الزاهرة واليواقيت الباهرة

أزرقى :

« أبو بكر » أو « أبوالمحاسن الأزرقى » هو ولد «اسماعيل» الوراق الهروى الذى ذكر صاحب « چهار مقاله » عنه [١] ، أن« الفردوسى » اختفى فى بيته ستة أشهر عندما أثار عليه حنق السلطان «محمود الغزنوى».والفضل فى شهرة «الأزرقى» راجع كما يقول « جامى » و « دولتشاه » إلى مؤلف أدبى [٢] يشك فى نسبته إليه وكذلك إلى رباعية قيلت فى مناسبتها ، وهى الرباعية التى ذكرناها فى الفصل الأول من هذا الكتاب ص ٥٣ ، فقد استطاع بفضل هذين أن يكسب عطف الأمير السلجوقى « طغانشاه » وأن يفوز برعايته وحمايته [٣] .

وقد اشتهر « الأزرقى » بين شعراء عصره بأنه من كتاب القصائد والمدائح . ووضعه « عوفى » [٤] فى المرتبة التالية مباشرة للشاعر «المعزى » الذى يصغر عنه سنا ويكبر عنه شهرة وبعد صيت . والمدائح مهما قيل فى أمرها ، ومن اشتمالها على العرفان بالجميل لمن أشادت بذكرهم ، ومن فضلها فى جلب الغنى العريض لمنشئها ، إلا أنها الأسباب واضحة لا تهم الأجيال المتعاقبة بمقدار ما يهمهم الشعر الذى يمس العواطف الإنسانية عامة ويبقى على الزمان مهما قدم العهد أوطال العصر . ومن أجل ذلك فقد أصبح «الأزرقى» كما أصبح جماعة آخرون من أشهر منافسيه ، مجرد أسماء لا يعرف عنهم القارىء الفارسى شيئا ، وبقى ديوانه معدوما أونادر الوجود . وقد خصص «دولتشاه» مقالا للحديث عن سيرته [٥] ولكنه لم ينقل لنا من سائر أشعاره إلا الرباعية التى سبق لنا الإشارة إليها . أما « عوفى » فقد أورد لنا مجموعة من قصائده الطويلة [٦] ، كما يجد القارىء

---

(١) المترجم : أنظر ص٤٩ من الأصل الفارسى وص٨١ من ترجمة « براون » الإنجليزية

(٢) المقصود به كتاب «الفيه شلفيه» وقد وصف «عوفى» محتوياته وصفاً كاملا فى «لباب الألباب» ج٢ ص٨٧ كما فعل ذلك أيضا سائر المؤلفين . وقد أوردت عنوان الكتاب كما ذكر فى سائر النصوص ، ولكنى أميل إلى الاعتقاد بأن صحة تسميته هى « الفيه شلفيه »

(٣) المترجم : أنظر أيضاً التعليقات التى نشرها محمد بن عبد الوهاب القزوينى عن الأزرق فى «چهار مقالة» فهى غنية بالتفصيلات

(٤) أنظر «لباب الألباب» ج٢ ص ٨٨ (٥) أنظر «تذكرة الشعراء » ص٨٢

(٦) «لباب الألباب» ج ٢ ص ٨٦-١٠٤

أيضا فى كتاب « تاريخ سلاجقه كرمان » تأليف « محمد بن ابراهيم » قصيدة كاملة أنشأها الأزرقى فى مدح « اميرانشاه » أحد أمراء هذا الفرع من السلاجقه (١) .

ولما لم يكن فى أيدينا من مؤلفات «الأزرقى» إلا قصائده ، وهى صعبة الترجمة، غير مستساغة إذا ترجمت ، فسأحذو حذو « دولتشاه » وأكتفى بهذا القدر عن الأزرقى وانتقل إلى الحديث عن شاعر آخر .

مسعود سعد سلمان (٢)

هو « مسعود بن سعد بن سلمان » وهو جدير بالذكر على الخصوص لبعض القصائد العاطفية المبتكرة التى أنشأها عند ما أمر السلطان « ابراهيم الغزنوى » بحبسه فى قلعة « ناى» بتهمة التآمر عليه مع السلطان «ملكشاه» السجوقى . وقد سجل صاحب « چهار مقالة » هذه القصة (٣) وعلق على هذه الأشعار بقوله إنه يحس عند قراءتها « بأن شعره يقف على جسده ، وأن الدموع تجرى فى مآقيه لما اشتملت عليه من فصاحة ورقة . » وأورد مثلين من هذه الحبسيات ، الأول منهما عبارة عن الرباعية التالية (٤) :

در بند تو اى شاه ملكشه بايد   تا بند تو پاى تاجدارى سايد
آنكس كه ز پشت سعد سلمان آيد   گر زهر شود ملك ترا نگزايد

ومعناها :

— أيها الملك ... إن «ملكشاه » هو الذى يجب أن يرسف فى قيدك
وأن تربط أقدامه فى سلاسل أسرك ....!!

---

(١) طبع «هوتسما» ص١٤ــ١٦

(٢) بعد كتابة هذه المقالة نشرت فى « مجلة الجمعية الملكية الآسيوية » عدد أكتوبر سنة ١٩٠٥ ص٦٩٣ــ٧٤٠ وعدد يناير سنة١٩٠٦ ص١١ــ٥١ ترجمة لمقالة نشرها بالفارسية صديقى العلامة ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزوينى » عن هذا الشاعر ، وإنى أحيل القارىء الجاد إلى هذه المقالة لأنها تكمل ما كتبت ، بل إنها فى بعض المواضع تصحح ما سطرت

(٣) أنظر سيرته فى ص ٤٤ــ٤٦ من الأصل الفارسى وص ٧٢ــ٧٥ من الترجمة الإنجليزية

(٤) المترجم : لم يذكر «براون» أصل هذه الرباعية الفارسية .

— أما من يأتى من ظهر « سعد بن سلمان » أو سلالته
فلن يؤذى ملكك ... ولو كان سما زعافا برمته ..!!

وأما المثل الثانى فعبارة عن مقطوعة نصها كالآتى (١) :

مقصور شد مصالح كار جهانيان
بر حبس وبند اين تن مهجور ناتوان
بر حبس وبند نيز ندارندم استوار
تا گرد من ندارند ده تن نگاهبان
هر ده نشسته بر در وبر بام سجن من
با يكديگر دمادم بگويند هر زمان
هان بر جهيد زود كه حيلتگريست او
كز آفتاب پل كند از سايه نردبان
گيرم كه ساخته شوم از بهر كارزار
بيرون جهم ز گوشهٔ اين سجن ناگهان
با چند كس بر آيم در قلعه گرچه من
شيرى شوم معربد وپيلى شوم دمان
پس بى سلاح جنگ چگونه كنم مگر
من سينه را سپر كنم وپشت را كمان

ومعناها :

— لقد اقتصرت مصالح أهل الدنيا من الحاكمين
على حبسى وتقييدى ... أنا الضعيف العاجز المسكين ...!!
— وهم لا يثقون فى بقائى فى الحبس والقيد
مالم يضعوا حولى عشرات من الحراس، عن قرب وعن بعد ...!!
— كل عشرة منهم يجلسون على باب سجنى أو فوق سطحه ... فى انتباه والتفات
وهم يتصايحون فيما بينهم فى كل لحظة من اللحظات ...!!

---

(١) المترجم : لم يذكر «براون» أصل هـذه الأبيات بالفارسية ، ولم نجدها فى الأصل الفارسى لكتاب «چهار مقاله» .

— فيقولون : تنبهوا وخذوا حذركم ، فإنه متحايل ماكر
يصنع الجسور من أشعة الشمس ، ويرفع السلالم من ظلها العابر ...!!
— فلأفترض أنني وقفت في وقت العراك والنزال
واستطعت الفرار فجأة من ركن هذا السجن ، والخلاص من الوبال !!
— فهل استطيع أن أنتصر على هؤلاء الرجال الكثيرين في هذه القلعة الحصينة
ولو كنت أسدا مفترسا ... أو فيلا هائجا قوى الشكيمة ...!!
— وكيف أستطيع أن أحارب بغير آلة أو سلاح ...؟!
وهل أكتفي بأن أجعل صدري درعاً ، وأن أجعل ظهري قوسا للرماح..؟!

ولم تلن قناة السلطان أو يرق قلبه حتى أدركه الموت ، وظل « مسعود » في محبسه اثنتي عشرة سنة كاملة .

وفيما يلي قصيدة من قصائده أوردها «دولتشاه» في ص ٤٧ — ٤٨ من كتابه[١]

چون بديدم بديده تحقيق ... كه جهان منزل فناست كنون
راد مردان نيك محضر را ... روى در برقع خفاست كنون
آسمان چون حريف نا منصف ... بر ره عشوه ودغاست كنون
طبع بيمار من ز بستر آز ... شكر يزدان درست خاست كنون
وز عقاقير خانه توبه ... نوش داروى صدق خواست كنون
وين زبان جهان خديو سراى ... مادح حضرت خداست كنون
لهجه نو نواى خوش زخمه ... بلبل باغ مصطفاست كنون
عزت جامه وقصب بر من ... چون فزون شد خرد بكاست كنون
سر آسوده وتن آزاد ... پنج گز پشم وپنبه راست كنون
مدتى خدمت شها كردم ... نوبت خدمت خداست كنون

ومعناها :

— عندما رأيت بعين البصيرة والتحقيق
أن العالم أصبح الآن منزلا للفناء والضيق ...!!

(٢) المترجم : اكتفى «براون» بإيراد الترجمة وقد رأينا إيراد الأصل أيضاً .

— وأن الرجال الطيبين الـكرماء
قد تسربلت وجوههم فى براقع الخفاء والفناء ... !!
— وأن السماء قد أصبحت كالعدو اللدود
وأن أحكامها الآن سائرة فى نفاق وخداع وشرود ... !!
— نهضت سليما بعد المرض وتركت فراش الحرص والحاجة
وأخذت الآن فى شكر الله فى ضراعة ولجاجة . . . ! !
— وقصدت دار التوبة ، وطلبت منها مختلف العقاقير
لأعالج بها الصدق ، وألتمس بها باب «الحق» الـكبير . . . ! !
— فبدلت هذا اللسان الذى كان يمدح الملوك والسلاطين
وأصبحت الآن أقصر مدحى على رب العالمين . . . ! !
— وتجددت لهجة مدحى ، وأصبحت نغمته جديدة ذائعة
وأصبح لسانى بلبلا مغردا فى حديقة النبى الرائعة . . . ! !
— ومتى زادت الملابس الزاهية الموشاة بالذهب
قل العقل ، ونضب معينه وذهب ... ! !
— فالرجل الحر صاحب الهناءة والسعادة
تـكفيه خمسة أذرع من الصوف أو القطن فى العادة . . . ! !
— ولقد خدمتـكم « أيها الملوك » مدة طويلة مديدة
فلتـكن نوبتى الآن فى خدمة الله ذى المنن العديدة . . . ! !

* * *

ويضيف «دولتشاه» على ذلك أن «مسعود بن سعد» كان من أهالى «جرجان» كما أن « إتيه » يرى أن أباه « سعدا » كان فى خدمة الأمراء الزياريين فى هـذه الولاية . ويقول دولتشاه : إن الأكابر والفضلاء لهم رأى عال فى أشعار مسعود ، حتى أن «فلـكى الشروانى » عندما أراد أن يفخر بتبريزه فى قول الشعر قارن نفسه بمسعود فقال (١) :

---

(١) المترجم : هذا هو نص البيت بالفارسية وفقاً لما ورد فى «تذكرة الشعراء» ص٤٧ .

گر این طرز سخن در شاعری مسعودرا بودی
بجان صد آفرین کردی روان سعد سلمانش

ومعناه

ـ لو كان لمسعود من المهارة فى الشعر ما لكلامى من حسن البيان
لنهضت روح أبيه «سعد بن سلمان» وقالت له : أحسنت كل الإحسان...!!

والمعروف أن وفاة « مسعود » حدثت فى سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١ م أو فى سنة ٥٢٦ هـ = ١١٣١ م وهذا التاريخ الأخير هو أقرب التاريخين احتمالا وصحة.

أبو طاهر الخاتونى :

شهرة «أبى طاهر الخاتونى» تنحصر أساسا فى كونه المؤلف الذى ألف أقدم كتاب ، وصل خبره إلينا ، فى تراجم شعراء الفرس ؛ ومن سوء الحظ أن هـذا الكتاب مفقود ولم يعثر عليه أحد حتى الآن [1] ولكن « دولتشاه » أشار إليه فى موضعين [2] وذكر صراحة أنه نقل عنه خبرين من أخباره. ومن العجيب أنه لو صح أنه كان حقيقة فى حوزته ، لما اقتصرت استفادته منه على هـذا القدر البسيط ولأكثر من النقل عنه ؛ وهذا يدعونى إلى الظن بأنه لم يكن ينقل عنه مباشرة بل بطريق كتاب آخر نقل عنه مباشرة . وقد ذكره « حاجى خليفة » فى موسوعته كشف الظنون [3] وذكر أن الكتاب مكتوب بالفارسية ، ولكنه نسى أن يذكر لنا تاريخ وفاة مؤلفه ، وربما استعصى عليه أن يكشف عن هذا التاريخ ، فأهمله إهمالا ، وقد ورد ذكر «الخاتونى» أيضا فى جملة مواضع من كتاب البندارى «تاريخ السلاجقة» وهو يخبرنا [4] بأن «الخاتونى» أنشأ هجويه فى واحد من وزراء السلطان « محمد

---

(١) المترجم : يقصد به « مناقب الشعراء » وقد أخبرنى فى سـنة ١٩٤٩ أحد الأساتذة الأتراك وهو الأستاذ قاسم أستاذ التصوف فى المعهد الإسلامى بتركيا أن أحد أساتذة جامعة استانبول عثر على نسخة هذا الكتاب وأنه عازم على طبعه

(٢) أنظر «تذكرة الشعراء» ص ٢٩ ، ٥٨ .

(٣) أنظر طبعة «فلوجل» ج٦ ص ١٥٢ ، رقم ١٣٠٢٦

(٤) أنظر طبعة «هوتسما» ص ٨٩ ، ١٠٥ـ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٣ .

ابن ملكشاه» جعلها بعنوان «تنزير الوزير الزير الخنزير» وأنه كان يعتبر من أفاضل رجال عصرة ، ومن الكتاب الممتازين المتفننين (١) وقد أورد كذلك طائفة من هجوياته المنظومة ، ولكنه للأسف لم ينقلها بأصلها الفارسى بل اكتفى بذكر ترجمتها إلى العربية .

وقد عاش «الخاتونى» حوالى سنة ٥٠٠ هـ أو فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى ويبدو لى أنه تخلص باسم « الخاتونى » نسبة إلى زوجة السلطان المسماة « جوهر خاتون » لأنه كان ملتحقا بخدمتها . وقد ورد بيت من أبياته الفارسية فى كتاب « لغت فرس » تأليف أسدى . ولكن طابع هذا الكتاب وهو « پول هورن » أخطأ فى تسميته ، فاسماه « الحانوتى » بدل « الخاتونى » وهو خطأ فى الحقيقة لا يغتفر(٢) ..!! وأكبر مجموعة من أشعار «الخاتونى» موجودة فيما أعرف فى الكتاب الفارسى النادر الذى وضعه « شمس قيس » فى الشعر وأوزانه(٣) كما إن «الخاتونى» مذكور أيضاً فى كتاب الراوندى « راحة الصدور » حيث ورد ذكره على أنه كان يتولى قيد الصيد الذى يصيده « ملكشاه » (انظر « مجلة الجمعية الملكية الاسيوية » سنة ١٩٠٢ ص ٥٩٨)

وبالرجوع إلى أقدم المصادر يتضح لنا جليا أن « الخاتونى » كان مبرزاً فى طائفة من الأمور ؛ ولكن من العجب أن الكتب المتأخرة لا تذكره إلا قليلا . وليس هناك من شك فى أن ضياع كتابه «مناقب الشعراء» يعتبر من الكوارث الأدبية المحزنة . وينقل لنا أيضاً « راحة الصدور » مقطوعة للخاتونى فى بيتين ، هجا بهما الوزير « مجد الملك القمى » وذكر فيهما ما أمتاز به من لؤم وبخل (٤) .

---

(١) أورد «رضا قليخان» طائفة من أشعاره فى كتابه « معجم الفصحاء » ج ١ ص ٦٦ ، ويستفاد مما كتبه «رضا قليخان» عنه أنه كتب أيضاً فى تاريخ السلاجقة . وربما كان المقصود مما كتبه هو كتاب «تاريخ السلاجقه» الذى أشار اليه «دولتشاه»

(٢) أنظر ص ٢٣ من المقدمة وكذلك ص ٣١

(٣) المترجم : يقصد به كتاب « المعجم فى معايير أشعار العجم » وقد طبع ضمن «سلسلة جب التذكارية» . سنة ١٩٠٩م

(٤) أنظر « مجلة الجمعية الملكية الأسيوية » سنة ١٩٠٢ ص ٦٠٠

معزى :

الأمير «معزى» هو شاعر السلطان «سنجر» ؛ ولكنه استطاع قبل ذلك في أيام السلطان « ملكشاه » أن يفوز بشهرة عريضة في قول الشعر ؛ وقد استمد تخلصه الذى عرف به من أحد ألقاب هذا السلطان وهو « معز الدين » كما أخبرنا بذلك هو نفسه في إحدى الحكايات المروية في كتاب «چهار مقاله » وقدذكرناها برمتها في الفصل الأول من كتابنا هذا .(١) ويصفه صاحب «چهار مقاله» بأنه من أعذب شعراء الفرس قولا وأجملهم إنشادا ، وأن شعره قد بلغ أوج الروعة والجمال وامتاز بالفصاحة وشدة الأسر . كما أن عوفى يقول في كتابه « لباب الألباب » (٢) : « إن ثلاثة من الشعراء استطاعوا في ثلاث دول متوالية أن يبلغوا مراتب العز والإقبال بحيث لم يتيسر ذلك لغيرهم ، فأما الأول فالشاعر « رودكى » في عهد السامانيين ؛ وأما الثانى فهو اا « عنصرى » في عهد الغزنويين ؛ وأما الثالث فالشاعر « المعزى» في عهد السلاجقة . »

ولكن نهاية « المعزى » كانت مفجعة وحزينة ؛ فقد قتله سهم انفلت خطأ من من قوس « سنجر » عندما كان يقوم بالرماية . وقد اشتهرت هذه الحكاية عن مقتله ؛ ولكن هناك رواية أخرى تقرر أنه لم يقتل بل أصابه جرح ، لم يلبث أن شفى منه . ويروى « رضا قليخان » في « معجم الفصحاء » (٣) بيتا يستشهد به على صحة هذا الرأى ، لو صحت نسبته إلى المعزى ، لدلل بغير شك على صحة ما ذهب إليه قليخان ؛ وهذا البيت هو :

منت خداى را كه بتير خدايگان   من بنده بيگناه نشدم كشته رايگان

ومعناه :

ـــ المنة لله ذى الفضل والإحسان

إننى ، أنا العبد البرىء ، لم يهدر دمى سهم السلطان ... !!

(١) أنظر ص ٤٩ — ٥٠
(٢) أنظر ج ٢ ص ٦٩
(٣) أنظر ج ١ ص ٥٧١

ويذكر هذا الكتاب أن وفاة « المعزى » حدثت فى سنة ٥٤٢ ﻫ = ١١٤٧م ثم يورد بعض الأشعار التى رثاه بها الشاعر « سنائى ». كما يقرر أن« المعزى» كان تلو « الفرخى » فى الغزليات ، وتلو « العنصرى » فى القصائد . وفيما يلى مقطوعة تنهض مثلا لغزلياته (١) :

روى او ماهست اگر بر ماه مشك افشان بود
قد او سروست اگر بر سرو لالستان بود
گر روا باشد كه لالستان بود بر زاد سرو
بر مه رويش روا باشد كه مشك افشان بود
دل چو گوى وپشت چون چوگان بود عشاق‌را
تا زنخدانش چو گوى وزلف چون چوگان بود
گر ز دو هاروت او دلها بدرد آيد همى
درد دلهارا ز دو ياقوت او درمان بود

ومعناها

— وجهها هو القمر . .لو أمكن أن تنتشر فوق القمر غلالة من المسك سوداء..!!
وقدها هو السرو..لو أمكن أن يزهر السرو زهرات الشقائق الحمراء ..!!(٢)
— ولو صح للسرو أن يزهر زهرات الشقائق الحمراء
لصح للمسك أن ينتشر فوق وجهها القمرى ذى البهاء . . . !!
— وقلوب العشاق كأنها الكرات المتدحرجة ، وظهورهم كأنها الصوالج المقوسة
منذ استدارت ذقنها كالكرة ، وتقوست طرتها كالصولجان .
— وإذا ابتليت القلوب ، فأصابها السقم بفعل عينيها الساحرتين ؛
فإن شفاءها مضمون فى شفتيها الياقوتيين..!!

وعندما يشير «عوفى» إلى أن(٢) « طفل البلاغة وصل إلى حد البلوغ على يدى

---

(١) المترجم : اكتفى « براون » بإيراد ترجمة الأبيات الأربعة الأولى من هذه الغزلية وهى الأبيات التى نقلناها أعلاه . ولكن الغزلية برمتها تشتمل على سبعة أبيات كما هى مذكورة فى « لباب الألباب » ج ٢ ص ٧٢

(٢) نفس المرجع ص ٦٩ .

المعزى » فإنه ربما يقصد بذلك أننا نجد فى أشعاره سائر أنواع التشبيهات الأصيلة المبتكرة التىأصبحت فيما بعد مبتذلة ومألوفة لدى سائر من يدرس الأشعارالفارسية . ولو نظرنا إلى الأبيات الأربعة التى نقلناها آنفاً لوجدناها مليئة بالتشبيهات العادية المألوفة التى تشبه الوجه الجميل بالقمرالمنير ، وخصلات الشعرالسوداء المعطرة بالمسك الأذفر الذكى(١)، والقامة المديدة بشجرة السرو المعتدلة ، والخدود الحمراء بزهرة الشقائق القانية ، والذقن والقلب بالكرة ، والظهر الذى قوسته أفعال السنين والهموم بالصولجان الذى يقذف الكرة ، والشفاه باليواقيت ، والعيون الساحرة بـ «هاروت» ذلك الملاك الخاطىء الذى يعلم الناس السحر ، إذا سعوا إليه فى الجب الذى يحبس فيه مدينة «بابل » .

وفيما يلى غزلية أخرى من غزليات المعزى(٢) :

تا دلم عاشق آن لعل شكر بار بود
ديدهٔ من صدف لؤلؤ شهوار بود

صدف لؤلؤ شهوار بود ديدهٔ آنك
دل او عاشق آن لعل شكر بار بود

نخلد ناوك آن نركس خون خوار دلم
تا سلاح دلم آن زلف زره دار بود

اى نگارنده نگارى كه ز تو مجلس من
گه چو كشمير بود گاه چو فرخار بود

گر گنه كار نشد زلف تو بر عارض تو
چون پسندى كه همه سال نگونسار بود

ور گنه كرد چرا يافت بخلد اندر جاى
خلد آراسته كى جاى گناه كار بود

(١) المترجم : يشبه الشاعر شعر المحبوبة بالمسك الأسود ذى الرائحة الطيبة ، كما يشبه وجه المحبوبة بزهرات الشقائق الحمراء .

(٢) المترجم : نقلنا الأصل الفارسى عن « لباب الألباب » ج٢ ص٧٣

ومعناها :

— منذ أصبح قلبي عاشقا لشفتك الحلوة الحمراء ...
وقد أصبحت جفونى أصدافاً للدر الثمين اللألاء ...!!

— ومن الحق أن تصبح عين العاشق مليئة بالدرر الغالية
مادام قلبه يتعشق هذه الشفاه الحلوة القانية ...!!

— ولن تستطيع سهام عينك العطشى إلى الدماء
أن تخترق قلبي ، مادامت طرتك هى الدرع والسلاح والوقاء ...!!

— ويا أيتها الدمية الجميلة .. لقد أصبح مجلسى بحضورك شديد البهاء
وكأنه مليء بحسان « كشمير » أو غانيات « فرخار » صاحبات الرواء(١)...!!

— ولو لم تصبح طرتك جانية على وجنتيك
لما قبلت أن تتدلى طوال السنة مقلوبة الرأس على خديك ...!!

— وإذا صح أنها أذنبت .. فلماذا تستقر فى جنة الخلد العالية
وهل يعقل أن تصبح جنة الخلد البهيجة مستقراً لأصحاب الآثام النابية ...!!

وهنا أيضا نجد عندا متصل الحلقات من التشبيهات العادية التى تعارفوا عليها فى الشعر الفارسى الغزلى . فالعين الباكية هى الصدفة التى تجود باللآلىء والدرر ؛ والشفاه الحلوة الحمراء هى اليواقيت التى تنضح بالسكر ؛ والعين نرجسة توصف بأنها ظمأى إلى الدماء لأنها تجرح بسهامها قلوب العشاق وتدميها ؛ والشعر المجدول يشبه بالسلاسل والدروع ؛ والمحبوبة هى الدمية الجميلة التى تفوق فى جمالها تصاوير «مانى» التركستانيه ودمى المعابد الهندية ...!! أما وجه المعشوقة فهو جنة الخلد الموعودة ...!!

ولن يدهشنى بعد ذلك كله أن أقرر أن سائر التشبيهات التى استعملها فى عصور متأخرة شعراء الحب فى غرب آسيا ، إنما هى من إنتاج «المعزى» فقد أبدع الكثرة البالغة منها ، وكان له الفضل الأول فى تقريرها واستعمالها . وإذا صح هذا الرأى أمكن — إلى حد ما — تعليل السبب الذى من أجله نال « المعزى » هذه الشهرة العريضه فى بلاده . ولولا ذلك لما أمكننا وقد اعتدنا قراءة أشعار « حافظ » وغيره

(١) المترجم : كشمير وفرخار بلدان اشتهرا بجمال من بهما من النساء .

من الشعراء المتأخرين أن نعتبر « المعزى » ضمن النابهين المبدعين من الشعراء ، مالم نتذكر دائماً هذه الفترة المبكرة التى عاش فيها . فلنتركه الآن ولننتقل إلى شاعر آخر ممن ذكرناهم فى هذا الفصل وهو رشيد الدين الوطواط .

رشيد الدين الوطواط :

« رشيد وطواط » أو « رشيد الدين الوطواط » هو « محمد بن عبدالجليل العمرى » . سمى بالعمرى لانتسابه إلى الخليفة « عمر » . وكان يشتغل بالكتابة ومن أجل ذلك فإنه يلقب غالبا بالكاتب . وقد ألف بالإضافة إلى أشعاره طائفة من الكتب المنثورة ، أهمها الكتب الآتية :

١ — صد كله : أو الكلمات المائة من أقوال الخلفاء الراشدين الأربعة ، وقد شرحها وفسرها باللغة الفارسية (١) .

٢ — حدائق السحر : وهو كتاب شهير جداً فى البلاغة الفارسية والشعر الفارسى وقد اعتمد فى وضعه فيما اعتقد على كتاب « الفرخى » المفقود « ترجمان البلاغة » . وقد طبع على الحجر فى إيران ويعتبر من أهم الكتب المجملة فى علوم الشعر الفارسية (٢) .

وقد لقبوه بـ « الوطواط » لضآلة جسمه وهزال بنيته ، ولكن « دولتشاه » يذكر لنا أنه كان حاد اللسان قوى البيان ، فنتج عن ذلك أن كثر أعداؤه وازداد خصومه . ويروى لنا هذا المؤرخ أن « الوطواط » كان ذات مرة يتناقش فى مجلس من المجالس فى حضرة مليكه وراعيه « أتسز خوارزمشاه » وقد وضعوا بالمصادفة

---

(١) المترجم : لهذا الكتاب تسميتان أخريان هما : « نثر اللآلى من كلام أمير المؤمنين على » أو « مطلوب كل طالب من كلام على بن أبى طالب » وقد طبع هذا الكتاب فى ليبزج سنة ١٨٣٧م وفى طهران سنة ١٣٠٤هـ .

(٢) المترجم : نشر هذا الكتاب فى السنوات الأخيرة الأستاذ عباس إقبال وقدم عليه بمقدمات طويلة مفيدة عن حياة الوطواط ومؤلفاته . وقد طبعه بمطبعة المجلس فى طهران سنة ١٣٠٨ الهجرية الشمسية . وقد نقلته عن هذه النسخة إلى اللغة العربية وطبعته بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر فى سنة ١٣٦٤هـ = ١٩٤٥ م .

محبرة أمامه ، فلما اشتد النقاش أعجب « أتسز » بهذه السيل المنهمر من الكلمات التى تخرج من شخصه الضئيل ، فأمر رجاله بأن يرفعوا الدواة حتى يستطيع رؤية الشخص الذى يتحدث من ورائها . فلما سمع ذلك « رشيدالدين الوطواط » أسرع بالنهوض وقال على البديهة : «المرء بأصغريه قلبه ولسانه» . ثم يقول « دولتشاه » إن « الوطواط» قد عاش طويلا ، وإنه مات فى «خوارزم » أو « خيوه » فى سنة ٥٧٨ ه = ١١٨٢ م [١] وأما ولى نعمته « أتسز » فقد مات فى سنة ٥٥١ ه = ١١٥٦م وقد بكاه الوطواط بدمع سخين ، ورثاه بالرباعية التالية : [٢]

شاها فلك از سياستت ميلرزيد · پيش تو بطوع بندگى ميورزيد
صاحب نظرى كجاست تا در نگرد تا آن همه سلطنت بدين مى ارزيد

ومعناها :

— أيها الملك . . . لقد كان الفلك يرتعد لشدة قهرك . . .
— وكان ينقاد لك طواعية ، ويستجيب لأمرك . . . !!
— فأين واحد من أصحاب النظر . . . لينظر فى خبرك
— وهل كان كل هذا الملك ليساوى هذه النهاية عندما غيبوك فى قبرك . . . !!

وبعد هذه الحادثة بسبع عشرة سنة ، أى فى سنة ٥٦٨ = ١١٧٢م تولى عرش خوارزم الـ « سلطان شاه محمود » حفيد « أتسز » وشاء أن يرى هذا الشاعر العجوز المريض ، فحملوه إليه فى محفة ، فلما مثل بين يديه أنشأ له على البديهة الرباعية التالية : [٣]

جدت ورق زمانه از ظلم بشست عدل پدرت شكستگى كرد درست
اى بر تو قباى سلطنت آمده چست هان تا چه كنى كه نوبت دولت تست

ومعناها :

إن جدك قد غسل صحائف الزمان من المظالم والشرور

---

(١) المترجم : يرى الأستاذ «عباس إقبال» أن الوطواط توفى سنة ٥٧٣ ه
(٢) المترجم : نقلنا هذه الرباعية عن « تذكرة الشعراء » ص ٩١
(٣) المترجم : نقلنا هذه الرباعيـة عن « تذكرة الشعراء » ص ٨١ وقد ذكرها « عباس إقبال » كذلك فى مقدماته .

— وأقام أبوك بعد له ما اعوج من الأمور .

— فيا من يزهو بك رداء الملك والسلطان

— تنبه ، وتبين ما أنت فاعل ... فهذه نوبتك من الزمان . . ! !

وقد ورد قدر كبير من الأخبار المتصلة برشيد الدين الوطواط فى كتاب لم يطبع بعد عن تاريخ المغول (١) هو كتاب «الجوينى» المعروف باسم « تاريخ جهانكشا» وخصوصا فى الجزء الثانى منه المتعلق بتاريخ ملوك خوارزم . ففى بداية هذا الجزء ، وبعد الفصل الذى كتبه صاحبه عن هزيمة «سنجر» فى معركته مع جيوش «الخطا» وغارة «أتسز» على مدينة مرو فى سنة ٥٣٦ هـ = ١١٤١م نجد خطابا طويلا بالعربية كتبه الوطواط إلى شخص يسمى بالـ«حكيم حسن القطان» يبدو أنه اتهمه بنهب كتبه التى ضاعت أثناء هذه الغارة على مدينة مرو . وقد دافع « رشيد الدين» عن نفسه فى هذا الخطاب دفاعا قويا ، وأنكر هذه التهمة الكريهة الباطلة وقال : «وها أنا أتانى الله من الوجه الحلال قريباً من ألف مجلدة من الكتب النفيسة والدفاتر الشريفة ، وأنا وقفت الكل على خزائن الكتب المبنية فى بلاد الإسلام عمرها الله تعالى لينتفع المسلمون بها . ومن كانت عقيدته هذه ، كيف يستجيز من نفسه أن يغير على كتب إمام من شيوخ العلم أنفق جميع عمره حتى حصل أوراقا يسيرة ، لو بيعت فى الأسواق مع أجلاد أديم ما أحضرت بثمنها مائدة لئيم...! ! »(٢) ثم يتلو ذلك وصف لحصار قصبة « هزاراسف » وكيف أمر « أتسز » بإعدام « أديب صابر » وكيف نجا «الوطواط» بجهد النفس من غضب «سنجر» بسبب أشعاره التى قالها فى هذه المناسبة، وقد سبق لنا ذكرها فى موضع آخر . فإذا تقدمنا بعد ذلك بضع صفحات من الكتاب علمنا أن الوطواط وصاحبه « كمال الدين بن أرسلان خان محمود » حاكم « جند » قد تسببا فى سنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٢م فى إغضاب «أتسز» فأمر « أتسز» بطرد «الوطواط» من خدمته، ولكنه استطاع بعد ذلك أن يستعطفه بطائفة من القصائد

---

(١) المترجم : طبع هذا الكتاب برمته فى ثلاثة أجزاء ضمن « سلسلة جب التذكارية » صدر الأول منها سنة ١٩١٢ والثانى سنة ١٩١٦ والثالث قبيل الحرب العالمية الأخيرة .

(٢) المترجم : نقلت هذه العبارات عن « تاريخ جهانكشا » ج ٢ ص ٦ — ٧

والمقطعات حتى نال عفوه . وقد أورد « الجوينى » فيما أورد من هذه الأشعار المقطوعة التالية (١) :

سى سال شد كه بنده بصف نعال در
بودست مدح خوان وتو بر تخت مدح خواه
داند خداى عرش كه هرگز نايستاد
چون بنده مدح خوانى در هيچ بارگاه
اكنون دلت ز بندهٔ سى ساله شد ملول
در دل بطول مدت يابد ملال راه
ليكن مثل زنند چو مخدوم شد ملول
جويد گناه وبندهٔ بيچاره بى گناه

ومعنى هذه الأبيات :

— لقد مضت ثلاثون سنة منذ وقفت بالباب فى صف النعال ، (٢)
وكنت مداحا للملك ، وكان الملك على عرشه راغبا فى مدحى
— وإله العرش يعلم وحده ، أن أحدا مثلى
لم يقف مادحاً فى قصر من القصور . . . ! !
— ولكن قلبك الآن أصبح متعبا من خادمك الذى أمضى فى خدمتك ثلاثين عاما ،
ولا شك أن الملل يتطرق إلى القلوب بطول المدة والملازمة . . . ! !
— وقد ضربوا الأمثال فقالوا : « عندما يمل المخدوم ، يبحث لخادمه عن ذنب أو جريرة ، بينما يكون الخادم المسكين نقى الطوية والسريرة . . ! ! »

---

(١) المترجم : أنظر « تاريخ جهانگشا » ج ٢ ص ١١

(٢) يبدو من ذكر الثلاثين سنة أن « الوطواط » التحق بخدمة ملوك خوارزم سنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣م وقد رأينا أنه كان فى سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢م رجلا مسناً مريضاً . كما أن « دولتشاه » ذكر إنه توفى فى سنة ٥٧٨ هـ = ١١٨٢م ويقول « الجوينى » إن « الوطواط » كان قد جاوز الثمانين من عمره فى سنة ٥٦٨ هـ وعلى ذلك يكون مولده حوالى سنة ٤٨٨هـ = ١٠٩٥م . ولا أعرف المصدر الذى اعتمد عليه « بروكلمان » ليقرر فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » أن الوطواط مات سنة ٥٠٩ هـ .

ويقول « دولتشاه » إن ديوان «الوطواط» يشتمل على خمسة عشر ألف بيت من الشعر كلها مصنوعة ومليئة بالصناعات البلاغية والبديعية . وقد كان مغرما على الخصوص بصناعة « الترصيع » فادعى أن أحدا غيره لم يسبقه بين شعراء الفارسية أو العربية إلى إنشاء قصيدة كاملة ، دخلها الترصيع فى سائر أبياتها . أما قصائده فتمتاز عامة بأنها من نوع الفخريات والمبالغات التى اعتادها شعراء المدح فى هذا الوقت ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن شهرته الخالدة ترجع إلى هذه القصائد ، وإنما مرجعها الأول والأخير إلى كتابه «حدائق السحر» وإلى جملة من الأبيات التى تفسر لنا بعض الوقائع التاريخية كما ذكرنا ذلك من قبل .

أديب صابر :

من بين خصوم «رشيد الدين الوطواط» كان الشاعر التاعس «أديب صابر» وقد ذكرنا نهايته المفجعة فيما سبق لنا من قول حينما أمر «أتسز» بإغراقه فى نهر جيحون فى شهر جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ = أكتوبر سنة ١١٤٧م أو كما يقول «دولتشاه» فى سنة ٥٤٦هـ .

وقد ذكر «دولتشاه» أن هذين الشاعرين تهاجيا بهجويات وضيعة ، بلغت منتهى الخسة والتسفل بحيث لم يسمح لنفسه أن يوردها فى كتابه[1]. وكان لكل منهما معجبوه فكان «الأنورى» و «الخاقانى» من أشهر المعجبين بالأديب صابر ؛ بل كان «الأنورى» يفضله على الشاعر «سنائى» الذى يرجحه فى بعد الصيت والاشتهار ، فهو يقول[2]:

چون سنائى هستم آخر گرنه همچون صابرم

ومعناه :

— أنا على كل حال شبيه بسنائى ولكنى لست شبيها بصابر

---

(١) أنظر « تذكرة الشعراء » ص ٩٢

(٢) أنظر «لباب الألباب» لمحمد عوفى ج ٢ ص ١١٧

ولا يعرف من حياة «الأديب صابر» إلا قليل من الأخبار التي تتضمنها أشعاره. وقد كان من أهل مدينة « ترمذ » ولـكن « دولتشاه » يذكر لنا أنه أمضى أكثر حياته في خراسان وخاصة في مدينة «مرو». وفيما يلي بيتان من الشعر نقلهما «عوفي» في كتابه اللباب، أنشأهما «الأديب صابر» بمناسبة موت أحد أمراء «ترمذ» الظالمين المسمى «أخطى» حينما كان يستقي الخمر، فانتقل كما يقول «عوفي» في تعبيره الرشيق « بطريق الشراب إلى نار العذاب...!! » وهذان البيتان يدلان على أن هذا الشاعر لم يحرم بلدته من نتائج مواهبه وثمرات قريحته فهو يقول[1] :

روز مى خوردن بدوزخ رفتى اى اخطى ز بزم

صد هزاران آفرين بر روز مى خوردنت باد

تا تو رفتى عالمى از رفتن تو زنده شد

گرچه أهل لعنتى رحمت برين مردنت باد

ومعناها :

— لقد انتقلت في يوم الشراب .. يا «أخطى» ..! من مجلس المنادمة إلى نار السعير ...!! فوافرحتاه .. وطوبى لهذا اليوم الجدير بالتقدير ... !!

— فمنذ ذهبت ... أصبح العالم بعد ذهابك في عيش نضير

وأنت جدير باللعنة ... ولـكن يوم مماتك جدير بالرحمة والتقدير ...!!

وكان «الأديب صابر» يلقب بشهاب الدين، ولا شك أنه ظل فترة من الزمان في علاقات طيبة مع «أتسز» بدليل هذه القصائد التي يمدحه فيها، ثم ساءت العلاقات بينهما حتى انتهى الأمر بقتله على يديه. ويبدو كذلك أنه كان متصلا بجملة من الشعراء المعاصرين بالإضافة إلى «الوطواط» فكتاب « لباب الألباب » ينقل لنا طائفة من أشعاره قالها في مدح الشاعرين «عمادى» و «فتوحى» كما ينقل لنا مقطوعة قالها في ذم الشاعر «شمالى». وفيما يلي مقطوعة من ثلاثة أبيات، كتبها الأديب صابر إلى رجل من ذوي النفوذ، هجاه جماعة من الظرفاء بهجوية نسبوها إليه فكتب إليه معتذرا : [2].

---

(١) نفس المرجع ص ١٢٣

(٢) المترجم : نقلنا هذه الأبيات عن كتاب « لباب الألباب » ج ٢ ص ١٣٤.

گفتند که کردهٔ نکوهش آن راکه ستودهٔ جهانست
واین فعل نه فعل این ضمیرست واین قول نه قول این زبانست
این قصد کدام زن بمردست واین فعل کدام قلتبانست

ومعناها :

— لقد قالوا : إنك هجوت من هو حقيق بمدائح العالمين ...!!

— وفي الحق ... إن هذه الفعلة ليست من أفعالي ولا هذا القول من أقوالي...!!

— ويا ليتني أعلم أي زانية قالت هذا القول أو أي قواد فعل هذه الفعلة ...!!

ومما يؤسف له أن هذا الأسلوب العنيف شائع على الخصوص بين شعراء القصور في إيران ، ولكننا لا نستطيع أن نقدم للقارىء الأوروبي إلا ألطف أمثلته وأقلها عنفا وفحشا . ويبدو لي أن الأمراء المعاصرين كانوا يجعلون مثل هذه الأقوال المنبعثة من فورات الغضب والغيظ موضوعا لكثير من متعتهم وتسليتهم ، بل إنهم في بعض الأحيان كانوا يحرضون عليها تحريضا ، كما يتبين لنا ذلك من الحكاية المروية في كتاب «چهار مقاله» عن شاعرين معاصرين هما «عمق البخاري» و« الرشيدي» ؛ وأولهما كان شاعرا لـ «خضر خان » أحد أمراء الـ«ايلك خانيين» فيما وراء النهر وتركستان . يقول صاحب «چهار مقاله» :

« إن هذا الأمير كان محبا للشعراء ، وقد التحق بخدمته الأمير عمعق ، والأستاذ »
« رشيدي ، ونجار ساغرجي ،وعلي پانيذي وبشر درغوش وبشر الاسفراييني(١) »
« وعلي سپهري ونجيبي فرغاني، فنالوا منه الصلات الغالية والتشريفات الزاهية .وكان »
« الأمير عمعق هو أمير الشعراء في هذه الدولة فنال من أمرائها حظا موفورا ونعما سابغة »
« كان في عدادها الغلمان الأتراك والجواري المليحات والجياد الصافنات والسرج »
« الموشاة بالذهب والأواني الفاخرة والأموال الطائلة والعقارات الوافرة . وكان »
« عظيم الاحترام في مجلس الملك مما اضطر سائر الشعراء إلى القيام على خدمته. »

---

(١) المترجم : علق الأستاذ براون في الهامش بأنه يفضل كتابة هذين الاسمين بلفظ «بشر» بدل « پسر » الفارسية بمعنى «ابن» ولذا وجب التنبيه ، لأن الأصل الفارسي يذكر كلمة «پسر»

« وكان يطمع فى أن يعامله الأستاذ رشيدى بمثل ما كان يلقاه من غيره من »
« الشعراء ، ولكن ظنه لم يتحقق ، لأن رشيدى كان حديث السن غير أنه كان »
« عالما بصناعة الشعر ؛ وكان يقوم على مدح الست زينب حتى أصبح عالى »
« المنزلة فى حريم خضر خان ، وكانت هذه السيدة أثيره لدى الملك فأخذت »
« تمدح رشيدى وتعترف بفضله حتى علا أمره ، وظفر بلقب «سيد الشعراء» ، »
« وأخذ الملك يحسن الظن به حتى وصله بالصلات العزيزة الغالية . وفى »
« يوم من الأيام غاب رشيدى فسأل الملك عمعق: كيف ترى شعر عبد السيد »
« الرشيدى ؟ فقال : إنه شعر طيب منقح ومنقى . . . ولكن يلزمه »
« قدر من الملح ! . ثم لم تلبث أن انقضت أيام قليلة حتى عاد رشيدى والتحق »
« بخدمة الملك ، فلما هم بالجلوس ناداه الملك وقال له كما هى عادة الملوك عندما »
« يضربون الواحد من رعيتهم بالآخر : إننى سألت أمير الشعراء عن شعرك »
« فقال إنه شعر طيب ولكنه خال من الملح ، فيجب عليك أن تقول فى هذا »
« المعنى بعض الأبيات ، فانحنى رشيدى إجلالا ثم جلس فى مكانه وقال على البديهة : »
« — لقد عبت أشعارى، وقلت أنها خالية من الملح، ويجوز أن يكون ذلك حقا..!! »
« — لأن شعرى شبيه بالسكر والشهد ، ولا يستطاب الملح مع هذين الشيئين الحلوين »
« — أما شعرك فهو اللفت والباقلاء ، ولذا يلزمه الملح. . أيها القواد الخاسر[٢] . !!»

وقد سر «خضر خان» سرورا بالغا بهذه الأبيات العابثة الساخرة ، بحيث إنه منح «رشيدى» — كما يقول صاحب «چهار مقاله» — ألف دينار من الذهب نقلت إليه فى مجلس الملك فى أربعة أطباق كما جرت بذلك العادة المتبعة لدى أمراء ماوراء النهر والتركستان .

---

(٢) المترجم : فيما يلى أصل هذه الأبيات بالفارسية :

شعر هاى مرا به بى نمكى عيب كردى روا بود شايد
شعر من همچو شكر وشهدست وندرين دو نمك نكو نايد
شلغم وباقليست گفتهٔ تو نمك اى قلتبان ترا بايد

نظامي عروضي سمرقندي :

آن لنا الآن أن نفصل الحديث بعض الشيء عن صاحب كتاب « چهار مقاله » الذي أكثرنا من النقل عنه في هذا الفصل والفصول السابقة ؛ وهذا الكتاب يعتبر في رأيي من أهم الكتب المنثورة في اللغة الفارسية وأكثرها متعة وإيناسا ، كما إنه أكثر الكتب التي أعرفها فائدة في الكشف عن الصميم من حياة القصور في إيران وفي أواسط آسيا أثناء القرن السادس الهجري والثاني عشر الميلادي. وقد كان مؤلفه شاعرا مداحا التحق بخدمة الغوريين أو « ملوك الجبال » وبقي في خدمتهم كما يخبرنا هو نفسه حتى ألف هذا الكتاب أي مدة خمس وأربعين سنة . وهو يخبرنا أن اسمه الكامل كما ورد في « چهار مقاله » هو « أحمد بن عمر بن علي » وأن لقبه هو « نجم الدين » ولكنه مشهور بتخلصه الذي تخلص به وهو « نظامي » . وقد كان بين معاصريه — كما سيتضح لنا ذلك — جملة من الأشخاص فاقوه شهرة وبعد صيت ، عرف كل منهم باسم « نظامي » ، كما إن له سميا متأخرا عنه هو « نظامي الكنجوي » الذي يعتبر بحق « نظامي » الآداب الفارسية غير منازع ، ومن أجل ذلك يشيرون دائما إلى هذا الشاعر الذي ندرسه الآن باسم « نظامي العروضي السمرقندي » . ولم يصل إلينا من أشعاره إلا النزر اليسير ، بل إن « دولتشاه » نفسه لم ينقل إلينا إلا بيتا واحدا من قصة « ويس ورامين » ، وهي قصة يبدو للأسف أنها ليست من آثاره (١) . وقد أفرد له « عوفي » صفحتين من كتابه (٢)، نقل فيهما خمس مقطوعات من أشعاره ، كلها من أشعار المناسبات التي تمتاز بهذا النوع من الفحش الذي تحدثنا عنه فيما سبق ، ثم يقرر بعد ذلك أنه ألف جملة «مثنويات» لم يبق منها شيء ، بل إن أسماءها ضاعت واندثرت . وكل ما نعرفه عنه عبارة عن أخبار متفرقة يرويها هو نفسه في كتابه « چهار مقاله » ، ونستطيع أن نعتمد عليها في تحديد التواريخ التالية من حياته وهي :

---

(١) أنظر «تذكرة الشعراء» ص ٦٠ — ٦١

(٢) أنظر «لباب الألباب» ص ٢٠٧ — ٢٠٨

١ — إنه كان في مدينة «سمرقند» في سنة ٥٠٤ هـ = ١١١٠م يسمع أخبار الشاعر البكر « الرودكي » .

٢ — إنه كان في مدينة «نيسابور» في سنة ٥٠٦ هـ = ١١١٢ في صحبة الشاعر المنجم المشهور « عمر الخيام » .

٣ — إنه كان في مدينة «هراة» بعد ذلك مدة ثلاث سنوات .

٤ — وفي السنة التالية أي سنة ٥١٠ هـ = ١١١٦ م عاد إلى « نيسابور » ثم ذهب إلى « طوس » حيث أخذ يجمع أخبار الشاعر العظيم « الفردوسي » وانتهز الفرصة لزيارة قبره بهذه المدينة .

٥ — وقد استطاع في هذا الوقت بفضل مساعدة « المعزي » شاعر «سنجر» أن ينجح في تقديم نفسه إلى هذا السلطان ، فكان هذا بداية شهرته وعلو شأنه .

٦ — ثم نجده ثانية في مدينة « نيسابور » في سنة ٥١٢ هـ = ١١١٨ م وسنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م . وتمكن في هذه السنه الأخيرة من زيارة مقبرة « عمر الخيام » . وقد شغلت هذه الزيارة أذهان طائفة من أعضاء نادي « عمر الخيام » لأنهم لم يقرأوا كتاب « چهار مقاله » فظلوا يقدسون الوردة الحمراء ويولونها كثيرا من التقدير ، بينما تولى القصة المروية في هذا الكتاب كل تقديرها لزهرات أشجار الخوخ والكمثرى التي كانت تنثر أوراقها على مقبرته ..!!

٧ — وفي سنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٢ م اختبأ في مدينة «هراة» عقب هزيمة جيوش الغوريين على يدي « سنجر السلجوقي » .

وقد كتب « نظامي » كتابه في السنوات التسع التالية لهذه الواقعة ، فهو يشير فيه إلى « حسين جهانسوز » أو « حسين محرق العالم » على أنه مازال حيا يرزق ؛ ونحن نعلم أن هذا الرجل قد توفي في سنة ٥٥٧ هـ = ١١٦١ م .

أما ما يتعلق بالشطر الأخير من حياته فلا علم لنا به؛ بل إن سنة وفاته مجهولة لنا تمام الجهل .

أما سبب خلود اسمه فيرجع أساسا إلى كتابه «چهار مقاله» وهو كتاب لم تقدر

قيمته حتى الآن تقديرا سليما ، ولو أنه فى متناول دارسى الفارسية بفضل نسخته المطبوعة على الحجر فى مدينة طهران سنة ١٣٠٥هـ = ١٨٨٧ م ؛ كما إنه فى متناول قراء الإنجليزية فى ترجمته التى نشرتها له فى سنة ١٨٩٩ م . فى « مجلة الجمعية الملكية الأسيوية » والكتاب برمته جدير بالقراءة ، وقد أكثرت من الرواية عنه فى صفحات هذا الكتاب ، ولكنى مع ذلك كنت مضطرا لضيق المقام أن أحذف كثيرا من الأخبار الممتعة التى تاقت نفسى لذكرها. وسأكتفى فى هذا المقام بأن أنقل للقارىء حكاية لها دلالتها التاريخية المتصلة بحياة المؤلف ، وهى الحكاية الأخيرة من حكايات الباب الثانى المتعلق بأخبار الشعراء ، ويقول فيها :

« عند ما كنت فى خدمة مولاى ملك الجبال نور الله مضجعه ورفع فى الجنان »
« موضعه ، كان ذلك الملك الكبير قوى الاعتقاد فى ، رفيع الهمة فى إكرامى »
« ففى يوم عيد الفطر وصل إلى حضرته كبير من سلالة أكابر بلخ عمرها الله ، »
« هو الأمير العميد صفى الدين أبو بكر محمد بن الحسين الروانشاهى ، وكان »
« شابا فاضلا مفضلا ، وكاتبا مجيدا مستوفيا لشروط الأدب ، حائزا لثمار الفضل ، »
« مقبولا فى قرارات القلوب ممدوحا بأطراف الألسنة . ولم أكن فى هذا الوقت »
« حاضرا فى خدمة الملك. فلما انعقد المجلس قال الملك للحاضرين: ادعوا النظامى. »
« فالتفت الأمير العميد صفى الدين وقال: وهل النظامى موجود هنا ؟ فأجابوه: »
« بلى". وظن الأمير أن المقصود هو نظامى منيرى . فقال : إنه شاعر مجيد »
« ورجل معروف . »

« فلما أتانى الفراش واستدعانى أسرعت فوضعت الحذاء فى قدمى ودخلت المجلس »
« وسلمت وجلست فى مكانى . فلما دار الشراب بضع دورات قال الأمير العميد »
« إن نظامى لم يأت حتى الآن . ولكن ملك الجبال أجابه على الفور : بل إنه »
« قد أتى وهو جالس هنالك ...!! »

« فقال الأمير العميد : إنى لا أقصد هذا « النظامى » بل أقصد نظاميا آخر ، »
« ثم إنى لا أعرف هذا الشخص ...!! »

« عند ذلك رأيت الملك وقد تغير وجهه ، ثم التفت صوبى قائلا : هل يوجد »

« نظامى غيرك فى أى مكان ...؟ فأجبته : بلى يامولاى يوجد اثنان آخران . »
« أحـدهما من أهل سمرقند ويسمونه « نظامى المنيرى » والآخر من أهل »
« نيسابور ويسمونه «نظامى الأثيرى» . وأما عبدكم الماثل بين يديكم فيسمونه »
« بالنظامى العروضى . »

« فقال : وهل أنت خير منهما ... أم هل هما خير منك ... ؟! »
« وعلم الأمير العميد أنه أخطأ القول ، ورأى الملك وقد تغـير حاله وغضب »
« فقال : يامولاى إن الآخرين معربدان يثيران المجالس بعربدتهما ويتسببان »
« فى كثير من الضرر والأذى ...!! »

« فقال الملك مازحا متبسطاً : تمهل حتى ترى هـذا النظامى يشرب خمسة »
« أقداح من النبيذ ثم يقلب المجلس رأسا على عقب...!! ولـكن خبرنى أى هؤلاء »
« الثلاثة أكثر شاعرية وقدرة على الشعر..؟ فقال الأمير العميد: لقد رأيت الاثنين »
« الآخرين وأعرفهما حق المعرفة ، أما هذا فلم يسبق لى رؤيته ولم أستمع إلى »
« شعره ، فياليته يقول فى المعنى السابق بضع أبيات حتى استمع إلى شعره وأحكم »
« على ذوقه وأتمكن من أن أقرر أى هؤلاء الثـلاثة أجود طبعا وأحسن »
« شعرا ..!! »

« فالتفت الملك إلى وقال : هيا ... يانظامى .. وحذار أن تخجلنا ...، وقل »
« مايرغب فيه الأمير العميد . »

« وكان لى فى ذلك الوقت — عندما كنت أقوم بخدمة الملك — ، طبع فياض »
« وخاطر وهاج ؛ وكان إكرامه وإنعامه يجعلان بديهتى مواتية دانية ... »
« فلم أكد أمسك القلم ويدور الشراب دورتين حتى قلت هذه الأبيات »
« الخمسة (١) : »

---

(١) المترجم : فيما يلى نص هذه الأبيات بالفارسية :

در جهـان سه نظاميم اى شاه   كه جهـانى ز ما با فغانند
من بورساد پيش تخت شهم   وآن دو درمرو پيش سلطانند

=

« — أيها الملك .. ! يوجد فى العالم « نظاميون » ثلاثة ، قد سارت بذكرهم »
« الركبان وجلجل بأسمهم كل مكان ...!! »

« — وأنا واحد منهم أمام عرش المليك فى مدينة «ورساد» ، وأما الآخران »
« ففى مرو عند السلطان ...!! »

« — وفى الحق ... قد برز كل منهما فى قول الشعر حتى أصبح كل منهما »
« مفخرة خراسان ...!! »

« — وهما يقولان الشعر كالماء الجارى ، ويقدران مواضع الكلام كالحكيم »
« ذى البيان .. !! »

« — ولكننى أنا الشراب المعتق... إذا أدركتهما فإنهما يعجزان ويتخاذلان ..!! »
« فلما عرضت هذه الأبيات انحنى الأمير العميد وقال: دعك من جميع النظاميين »
« فلست أعرف بين شعراء ما وراء النهر وخراسان والعراق أحداً يستطيع »
« ارتجال مثل هذه الأبيات الخمسة وأن يجعلها بهذه المتانة والجزالة والعذوبة »
« بحيث تكون مليئة بالألفاظ العذبة ، مشحونة بأبكار المعانى . . فاهنأ »
« يا نظامى ... فليس لك نظير على سطح الأرض .. ويا مولاى... يا صاحب »
« الجلالة . . . إن له لطبعاً لطيفاً ، وخاطراً قوياً ، وفضلا كاملا ، وقد أصبح »
« نادرة زمانه بفضل إقبالك وهمتك (رفعهما الله) . وسيزداد شأنه علوا لأنه »
« مازال شابا فى مقتبل العمر . . . . ! ! »

« فاتقد وجه الملك كثيراً ، وبدت عليه بشاشة بالغة، وكال لى عبارات الإستحسان »
« ثم قال : لقد منحتك منجم الرصاص فى « ورساد » وجعلته لك منذ هذا »
« العيد الأصغر حتى عيد الأضحى ، فارسل عاملك حتى يشرف عليه . »

= بحقيقت كه در سخن امروز — هر يكى مفخر خراسانند
گرچه همچون روان سخن گويند — ورچه همچون خرد سخن دانند
من شرابم كه شان چو دريابم — هر دو از كار خود فرو مانند

« ففعلت ذلك وأرسلت « إسحاق اليهودى » وكان ذلك فى صميم الصيف ، »
« فلما اشتغل الرجال استطاعوا أن يذيبوا كثيرا من هذا المعدن حتى بلغ مقداره اثنى »
« عشر الف من من الرصاص الخالص ، أخرجوها فى سبعين يوما ، وكان نصيبى »
« منها الخمس . وأصبح الملك يقدرنى أكثر من ذى قبل بآلاف المرات ؛ أنار »
« الله مضجعه العزيز بشمع رضاه ، وفرح روحه الشريفة برحماته وعطاياه ، »
« عنه وكرمه . »

ونستطيع أن نرى من هذه الحكاية أن شاعرنا لم يكن متواضعا فى تقرير مواهبه والكشف عن مزاياه ، ولكننا ـ حيال سروره الواضح عند تصريحه بهذه المواهب والمزايا ـ لا نستطيع إلا أن نجرد أنفسنا من كل أسلحة النقد والهجوم ، وأن نقنعها بأن التواضع أمر قلما اتصف به شعراء الفرس أو عرفوه ... !!

وقبل أن يتطرق بنا الحديث إلى الكلام عن «الأنورى» أشهر الشعراء الملتحقين بقصر «سنجر» يجب أن نتحدث حديثا مختصرا عن شاعرين آخرين أو ثلاثه من زملائه . فهم وإن كانوا أقل شهرة منه ومن سائر الشعراء الذين ذكرناهم فى هـذا الفصل ، إلا أنهم مبرزون بين كثرة من أصحاب الشعر الجيد الذين عاشوا فى هذه الفترة ؛ ومن الحق علينا أن نخصهم بنظرة عابرة .

عبد الواسع الجبلى :

هذا الشاعر — كما تفيد نسبته — من أهل الولاية الجبلية «غرجستان» ، وقد خرج منها إلى «هراة» ثم إلى «غزنه» حيث التحق فترة بقصر «السلطان بهرامشاه ابن مسعود» فلما سار «سنجر» لمحاربة هذا السلطان فى سنة ٥٣٠ هـ = ١١٣٥ م استطاع هذا الشاعر كما يحدثنا «دولتشاه» ، أن ينال رضا «سنجر» بقصيدة جميلة مبتكرة ، ننقل منها الأبيات الثمانية الآتية [1] :

---

(١) أنظر «تذكرة الشعراء» ص ٧٤

ز عدل کامل خسرو وز امن شامل سلطان
تذرو وکبك وگور ومور در گشتند در گیهان
یکی همخانهٔ شاهین ، دوم همخوابهٔ طغرل
سه دیگر مؤنس ضیغم ، چهارم محرم ثعبان
خداوند جهان سنجر که همواره چهار آیت
بود در رایت ورای وجبین وروی او پنهان
یکی بهروزیٔ دولت ، دوم فیروزیٔ ملت
سه دیگر زینت دنیا ، چهارم نصرت ایمان
بنان اوست در بخشش ،سنان اوست در کوشش
لقای اوست در مجلس ، لوای اوست در میدان
یکی ارزاق را باسط ، دوم ارواح را قابض
سه دیگر سعد را مایه ، چهارم فتح را برهان
شد اندر قرن او باطل ، شد اندر عهد او ناقص
شد اندر عصر او حاصل ، شد اندر وقت او نقصان
یکی ناموس کیخسرو ، دوم مقدار اسکندر
سه دیگر نام افریدون ، چهارم ذکر نوشیروان

ومعناها :

— بسبب ماامتاز به السلطان من عدل وأمن شامل
أصبح الأمن يشمل التدرج والفراخ البرية وحمر الوحش والنمل فى كل مكان
— فأصبحت التدرجة تعاشر «الشاهين» ، وأصبحت الفرخة البرية قرينة للصقر
وأصبح حمار الوحش مؤنساً للضيغم ، وأصبحت النملة محرماً للثعبان...!!
— وفى ملك العالمين « سنجر » تستتر أربع آيات
توجد على الدوام فى رايته ورأيه وجبينه ووجهه
— ففى رايته الظفر والاقبال ؛ وفى رأيه الفوز وتحقيق الآمال
وفى جبينه زينة الدنيا والجمال ؛ وفى وجهه نصر الايمان والأبطال . . . ! !
— وبنانه مخصص للعطاء ، وسنانه مخصص لجهاد الأعداء

ولقاؤه محبب فى مجلس الأصدقاء ، ولواؤه مرتفع فى ميدان الفداء .. !!
— فأما بنانه فباسط للأرزاق . . . وأما سنانه فقابض للأرواح
وأما لقاؤه فسبب للهناء . . . وأما لواؤه فبرهان على الفتح والمضاء ...!!
— وقد بطل شىء فى زمنه . . . ونقص شىء فى عهده
وحصل شىء فى عصره . . . وقل شىء فى وقته ...!!
— فقد بطلت سطوة «كيخسرو» . . . ونقصت رهبة «الاسكندر»
وحصلت معدلة « أفريدن» ... وقلت شهرة « انو شيروان» .....!!

ويعتمد «دولتشاه» على أسباب لا نراها كافية ولا شافية ، فينكر القصة المعروفة عن « عبدالواسع الجبلى » وأنه فى بداية شأنه كان فلاحا جلفا ، استطاع أن يلفت إليه نظر واحد من الأثرياء الأقوياء ، بشطرات من الشعر قالها على البديهة ، وأخذ يرددها دون أن يظن أن أحداً يصغى إليه ، ليطرد بها بعض الإبل التى أغارت على حقل من القطن كان يقوم على حراسته ، فأخذ يقول (٩) :

اشتر دراز گرد نا دانم چـه خواهى كرد نا
گردن دراز ميـكنى پنبه بخواهى خـوردنا

ومعناها :

— أيتها الإبل ... ياذات الرقاب الطويلة ...!!
— إنى أعلم ماذا تصنعين من حيلة ... !!
— إنك تمدين رقبتك المستطيلة ...
— لـكى تأكلى هذه الأقطان الجميلة ... !!

* * *

(١) يؤكد «دولتشاه» أنه لم ير هذه القصة فى أى كتاب من كتب التاريخ المعتمدة ، ولـكن فاته أنها مذكورة فى كتاب « تاريخ گزيدة » وهو من المصادر التى رجع اليها فى تأليف كتابه « تذكرة الشعراء » ويعتبر من كتب المصادر التى نعتمد عليها أكثر مما نعتمد على تذكرته .

سوزنى :

السوزنى من أهل مدينة «نسف»[١] أو «سمرقند» كما يقول «دولتشاه» . واسمه الكامل «محمد بن على السوزنى» وقد اشتهر بقول الهزليات وبرع فيها أثناء شبابه ، والظاهر أن أشعاره كانت لاذعة جداً حتى بالنسبة لأهل زمانه والوسط الذى عاش فيه؛[٢] فإن «دولتشاه» الذى لم يعرف بالتزمت اعتذر عن أن يورد شيئاً من أمثلتها ، بينما أحل لنفسه فى غير امتعاض أن يذكر الأخبار الفاحشة التى وقعت بين «أبى العلاء الگنجوى» و«الخاقانى» ، وكذلك فعل «عوفى» فاعتبر هزلياته مليئة بالحكمة ولكنه رأى من الخير أن «يقصر عنان البيان عن إيراد أمثلتها» ودعا الله أن يغفر ذنوب هذا الشاعر الخاطىء لأنه تاب وأناب فى شيخوخته وقال جملة قصائد فى التوحيد والاستغفار .

وقد ذكر عوفى أنه اشتهر بلقب «السوزنى» لتعشقه غلاما جميلا كان يشتغل صبيا لرجل يحترف صناعة الإبر[٣] .

وقد ذكر عوفى أيضا أن «حميد الدين الجوهرى» كان من خصوم «السوزنى» وقد تبودلت بينهما جملة من المعارضات الشعرية .

ويذكر «دولتشاه» أن السوزنى مات فى سنة ٥٦٩هـ = ١١٧٣م . كما أن صاحب «تاريخ گزيده» يقول إن الله عفا عن السوزنى لقوله هذا البيت من الشعر :

چار چيز آورده ام يا رب كه در گنج تو نيست
نيستى وحاجت وجرم وگناه آورده ام

---

(١) المترجم : «نسف» مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند .

(٢) أورد صاحب «تاريخ گزيده» مثلا واحداً من أشعار «السوزنى» يتألف من ثلاثة أبيات من الشعر استشهد بها فى تبرير رأيه بأن «السوزنى» جاوز حدود المعقول فى هزلياته وقد كتب الشاعر هذه الأبيات فى الواحدة والخمسين من عمره ولم يشعر فيها بشىء من الندم أو الاستغفار . وقد ذكر «تاريخ گزيده» أن اسم «السوزنى» هو «أبوبكر بن السلمانى» وأنه من قرية «كلاش» من توابع «سمرقند» .

(٣) المترجم : «سوزن» فى اللغة الفارسية بمعنى : إبرة .

ومعناها :

— إنى جالب لك ... ياربى ... أربعة أشياء لا توجد فى كنوزك العامرة
وهى : العدم والحاجة والذنوب والجرائر الجائرة ...!!

ويقرر «السوزنى» نفسه أن حياته لم تخل من النقد والتجريح ، وهويقرر هذه الحقيقة ضمن قصيدة طويلة أوردها « دولتشاه » فى ص ١٠٠ من كتابه « تذكرة الشعراء » .

رفتم براه ديو وفتادم بدام او · وز ديو ديوتر شدم از سيرت تباه
يك روز بيگناه نبودم بعمر خويش · گويا كه بود بيگنهى نزد من گناه
هر گونه گناه ز اعضاى من برست · چون از زمين نم زده هر گونه گياه
فردا بروز حشر كه امروز منكرند · اعضاى من بود بر اعمال من گواه

ومعناها :

— لقد سرت فى طريق الشيطان ووقعت فى حبائله الشائكة
بحيث تشيطنت أكثر من الشيطان ، وفقته فى سيرته الخاطئة . . . !!

— ولم أكن فى يوم من أيام حياتى مبرءا من الآثام
حتى لقد خُيّل لى أن البراءة منها واحدة من الجرائر العظام . . . !!

— وقد نمت من سائر أعضائى مختلف الجرائر والأخطاء
كما تنمو الأعشاب فى الأرض الخصبة المندّاة بالماء . . . !!

— واليوم إذا أنكر المنكرون ذنوبهم ... ففى يوم الحشر فى الغداة
ستكون أعضاء بدنى شاهدة على أعمالى فى غير مداراة . . . !!

ويذكر « دولتشاه » أن ثلاثة من الشعراء يعتبرون من تلاميذ « السوزنى » ومقلديه وهم :

١ — على الشطرنجى صاحب قصيدة «اللكلك» التى أوردها «عوفى» فى كتابه لباب الألباب ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠

٢ ـ جنتي النخشبي (١)
٣ ـ لامعي البخاري .

صغار الشعراء

من العبث أن نحاول في هذا المقام ذكر سائر الشعراء الذين عاشوا في هذه الفترة وحققوا شيئاً من الشهرة أثناء حياتهم ، لأن أسماءهم قد عفى عليها النسيان وأصبح لا محيص لنا عن الرجوع إليها في كتب التواريخ والتراجم القديمة . وقد ذكر محمد عوفي في الباب العاشر من كتابه «اللباب» — وهو الباب الذي خصصه لشعراء الفترة الأولى من عهد السلاجقة — أنه عاش في الفترة التي تنتهي بموت «سنجر» والتي هي موضوع دراستنا في هذا الفصل ، اثنان وخمسون شاعراً لا يدخل في عدادهم الشعراء من الأمراء والوزراء والأطباء الذين خصص لهم عوفي الشق الأول من كتابه . ولا شك أن جماعة من هؤلاء جديرون بالذكر في أي كتاب يكون أوسع مقاما من كتابي هذا ؛ ولكنى لن أجرؤ على التحدث عنهم في هذا المكان لسبب آخر هو أنى لم أكون عن شخصياتهم فكرة واضحة ، ولا عن آثارهم رأيا قاطعا ؛ ومن هؤلاء :

«جوهري الهروي» و «سمائي المروزي» (٢) و«أثير الدين المروزي» و«سيفي النيسابوري» و «روحي الولوالجي» و «رشيدي السمرقندي» و «أثير الدين الأخسيكتي» و «أبو المعالي الرازي» و «قوامي الرازي» و «أبو الفرج الروني» و «كوهياري الطبري» و «سيد حسن الغزنوي» و «عماد الدين الغزنوي» و «علي بن أبي رجاء الغزنوي» (٣) .

---

(١) المترجم : النخشبي نسبة إلى مدينة «نخشب» من مدن ما وراء النهر بين جيحون وسمرقند ؛ ويقول ياقوت في معجمه أن «نخشب» هي «نسف» نفسها .

(٢) المترجم : الهروي نسبة إلى مدينة «هراة» ؛ والمروزي نسبة إلى مدينة «مرو» .

(٣) المترجم : كل شاعر من هؤلاء منسوب إلى بلدته . فالولوالجي نسبة إلى «ولوالج» بلد من أعمال «بدخشان» خلف بلخ وطخارستان ؛ والاخسيكتي نسبة إلى «إخسيكت» وهي مدينة بما وراء النهر وهي قصبة ناحية «فرغانه» على شاطىء نهر الشاش ؛ والرازي نسبة إلى مدينة «الري» ؛ والروني نسبة إلى مدينة «رونه» من خطة لوهور ؛ والغزنوي نسبة إلى مدينة «غزنه» ؛ والطبري نسبة إلى ولاية «طبرستان» .

ولكنى رغم إعراضى عن ذكر هؤلاء وأمثالهم ، أحس بتقصيرى وخلوى من دلائل الشهامة إذا أهملت ذكر الشاعرة الأولى من شاعرات الفرس ومضيت عنها فى صمت وسكوت ، وهى الشاعرة « مهستى » .

مهستى :

لا نعرف من أمر « مهستى » إلا قليلا من الأخبار . وما زال اسمها وضبطه واشتقاقه من المسائل التى لم يستقر عليها الرأى حتى الآن(١) . ويبدو لى — إذا لم نسىء الظن بها كثيرا — أنها كانت طروبة النزعة مرحة النفس ، وقد استخدمت « الرباعى » فى أكثر أقوالها ، ويقال إنها استطاعت أن تحوز رضا « السلطان سنجر » وحسن قبوله عندما غادر مجلسه فى ليلة من الليالى ليمتطى جواده فلما هم بفعل ذلك وجد الثلج يتساقط ويغطى الأرض فقالت على البديهة الرباعية الآتية (٢) :

شاها فلكت اسب سعادت زين كرد وز جمله خسروان ترا تحسين كرد
تا در حركت سمند زرين نعلت بر كل ننهد پاى زمين سيمين كرد

ومعناها :

— أيها المليك . . . لقد أسرج الفلك لك جواد السعادة والهناء
— وميزك على سائر الملوك بالعزة والقدرة والسناء . . !!
— وجعل لك الأرض فضية الأديم ، ناصعة الوجه ، بيضاء
— حتى لا يطأ جوادك — بحدوته الذهبية — طينتها الغبراء . . . !!

وقد ذكروا أن « مهستى » كانت معشوقة للشاعر « تاج الدين أحمد بن الخطيب الگنجوى » . ونقل صاحب « تاريخ گزيدة » فى كتابه جملة من الرباعيات التى

---

(١) يضبطونها أحيانا بكسر الميم وسكون الهاء وكسر السين فيقولون « مِهْسِتى » ، وأحيانا بكسر الميم وفتح الهاء وسكون السين فيقولون « مِهَسْتى » ، وأحيانا بفتح الميم وسكون الهاء وفتح السين فيقولون « مَهْسَتى » .

(٢) أنظر ، تذكرة الشعراء ، ص ٦٥ .

بودلت بينهما ، كما أورد بالإضافة إلى ذلك رباعيتين أخريين وجهتهما «مهسق» إلى جزار شاب كانت تتعشقه وتهيم به ، وقد كتب « اعتماد السلطنة » مقالا قصيرا عنها في الجزء الثالث من كتابه «خيرات حسان» وهو كتاب يتضمن سير شهيرات النساء، ولكن هذا المقال لا يكشف عن جديد نتزود به بشأن حياتها وآثارها، ولم نذكره في هذا المقام إلا لننبه القارىء إلى أن الرباعية التي تسبق الأخيرة من بين الرباعيات المنسوبة إليها في هذا الكتاب إنما هي من قول شاعرة أخرى،هي « بنت النجاريه» كما يقرر ذلك صاحب « تاريخ گزيده » .

ولا بد لنا أيضا أن نذكر أن من أهم صغار الشعراء الذين ظهروا في هذه الفترة الشعراء الثلاثة الآتية أسماؤهم :

١ — فريد كاتب أو فريد دبير وكلاهما بمعنى فريد الكاتب .

٢ — عماد زوزني أو عماد الزوزني .

٣ — سيد حسن الغزنوي .

وقد أنشأ « فريد الكاتب » عند هزيمة « سنجر » على أيدي « الغز » في سنة ٥٣٥ هـ = ١١٤٠ م الرباعية التالية التي اشتهرت شهرة بالغة حتى نرى لزاما علينا أن ننقلها في هذا المقام :

شاها ز سنان تو جهانی شد راست   تیغ تو چهل سال ز اعدا کین خواست
گر چشم بدی رسید آن هم ز قضاست   کان کس که بیك حال بماندست خداست

ومعناها :

— أيها المليك . . . لقد استقامت الدنيا بفضل سنانك ومضائك

— وثأر سيفك ، أربعين سنة ، من خصومك وأعدائك

— فإذا أصابك الآن نحس ... فما ذلك إلا من تقدير قضائك

— والله وحده هو الذي يبقى على حال واحدة ؛ فلا تحزن لبلائك ...!!

أما أشهر الشعراء إطلاقا من بين الشعراء الذين اتصل ذكرهم بقصر « سنجر » فهو الشاعر «الأنوري» وسندرسه بالتفصيل في الفصل التالي مع اثنين آخرين من معاصريه الشبان هما « الخاقاني» و « نظامي الگنجوي » فإن لهؤلاء الثلاثة أهمية بالغة تكسبهم الحق في دراسة واسعة مفصلة .

التواليف الفارسية المنثورة فى هذا العصر

تناولنا بالبحث فيما سبق كتابين من أهم الكتب الفارسية المنثورة التى ظهرت فى هذا العصر وهما .

١ — «حدائق السحر» : تأليف رشيد الدين الوطواط .

٢ — «چهار مقاله» : تأليف نظامى العروضى السمرقندي .

وقد تحدثنا أيضا بعض الحديث عن «الغزالى» ومؤلفاته ويكفى أن نذكر للقارىء فى هذا المقام أن أهم مؤلفاته الفارسية هو كتاب :

٣ — « كيمياى سعادت » : أو كيمياء السعادة وهو عبارة عن مختصر لكتابه الموسع الذى كتبه بالعربية باسم « إحياء العلوم » .

وبقى علينا أن ننبه القارىء إلى ثلاثة كتب منثورة أخرى جديرة بالذكر والدراسة وهى :

٤ — « ذخيرهٔ خوارزمشاهى »

٥ — «مقامات حميدى» وهى مقامات مكتوبة بالفارسية

٦ — «كليلة ودمنة» كما ترجمها « أبو المعالى نصر الله »

وسنتحدث فيما يلى عن هذه الكتب الثلاثة .

ذخيرهٔ خوارزمشاهى :

وهى عبارة عن موسوعة طبية، وضعها فى بداية القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) «زين الدين أبو إبراهيم إسماعيل الجرجانى » وأهداها إلى « قطب الدين خوارزمشاه» والد السلطان «أتسز» ، وهى غير جديرة بإضاعة الوقت فى التحدث عنها ، لأنها لاتدخل فى دائرة الآثار الأدبية الفنية ، وهى فى رأيى عبارة عن مختصر أو تلخيص للنظريات الطبية والتجريبية التى اتبعها « ابن سينا » وخلفاؤه .

وقد وضعها صاحبها باللغة الفارسية لتكون في متناول الهواة الذين لا يحسنون فن التطبيب أو لا يجيدون معرفة اللغة العربية (١)

مقامات حميدى :

وضع هذه المقامات « القاضى حميد الدين أبو بكر البلخي » من معاصرى « الأنورى » وممدوحيه . وهى تقليد فارسى للمقامات العربية الذائعة الصيت التى وضعها «بديع الزمان الهمذانى» و«الحريرى» اللذين يرجع إليهما الفضل فى إبداع هذا الأسلوب المصنوع والعمل على ترويجه .

وقد بدأ « حميد الدين » وضع مقاماته الفارسية فى صيف سنة ٥٥١هـ=١١٥٦م وقد ذكر صاحب «چهارمقاله» أن هذه المقامات تعتبر نموذجا للبلاغة وجودة الأسلوب. وهى عبارة عن ثلاث وعشرين مقامة أو أربع وعشرين مقامة كما اشتملت عليها النسختان المطبوعتان على الحجر فى طهران وكانپور . وقد توفى «حميدالدين» فى سنة ٥٦٠ هـ = ١١٦٤م .

ووصف «ريو» مشتملات هذه المقامات وصفا شاملا (٢) .وهى بلا شك لاتبلغ مبلغ زميلاتها العربية من حيث الموضوع والسبك والبراعة فى الأداء ، ولكنها مع ذلك حازت كثيرا من إعجاب الفرس وتقديرهم كما تشهد بذلك الأبيات الآتية من شعر الأنورى : (٣) :

هر سخن كان نيست قرآن يا حديث مصطفى
از مقامات «حميد الدين» شد اكنون ترهات

---

(١) ارجع الى وصف « ريو » لمحتويات هذا الكتاب فى فهرست المخطوطات الفارسية فى المتحف البريطانى ص ٤٦٦ — ٤٦٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٤٧ .

(٣) وردت هذه الأبيات فى ص ٢٥١ من طبعة تبريز سنة ١٢٦٦ هـ وفى ص ٦٠٢ من طبعة لكنو سنة ١٢٩٧ م .

[المترجم : نقلت النص الفارسى عن الطبعة الأخيرة .]

اشك اعمى دان مقامات «حريرى» و «بديع»
پيش آن دریای مالا مال از آب حيات
شاد باش ای عنصر محموديان را روى تو
رو که تو محمود عصری ما بتان سومنات
از مقامات تو گر فصلی بخوانم بر غدات
خالی از نا منطقی جذر أصم يابد نجات
عقل کل خطی تأمل کرد از و گفتا عجب
علم اکسیر سخن داند مگر أقضى القضات
دين مان ای رای قدرت عالم تأیید را
آفتابی بی زوال وآسمانی با ثبات

ومعناها :

ــ كل كلام لا يكون من الأحاديث النبوية أو من القرآن وآياته
أصبح بعد مقامات «حميد الدين» من لغو القول وترهاته ... !!

ــ فاعتبر مقامات «الحريرى» و «بديع الزمان» هى دموع العميان
وأما مقامات «حميد الدين» فهى البحار المليئة بماء الحياة .. !!

ــ فاسعد حالا... يامن أنت طليعة الشعراء المبرزين
وسر قدما . . . فإنك « محمود » هـــذا العصر .. . وما نحن إلا أصنام
« سومنات » (١).

ــ ولو أننى قرأت فصلا من مقاماتك ، لاستطاع فى الغداة
أن ينجو الأصم الأبكم مما به من بكم وصمم ...!!

ــ ولقد تأملك « العقل الكلى» فقال ياللعجب العجاب ... !!
إنما يعرف أقضى القضاة (أى حميد الدين) علم إكسير الكلام ...؟!

---

(١) المترجم : «سومنات» هى التى غزاها السلطان محمود الغزنوى وحطم مابها من أصنام.

ـ فعش طويلا ... ياصاحب الرأى القدير ... فإنك فى عالم التأييد ،

شمس لا تغرب ولا تزول ، وسماء مستقرة ثابتة كل الثبات

ويختلف ترتيب المقامات وفقا لاختلاف النسخ . وأسماؤها فى نسخة طهران تختلف عن نظائرها فى النسخة المخطوطة التى وصفها الدكتور «زيو» . وبعض هذه المقامات ما هو فى الحقيقة إلا « مناظرات » كالمقامة المتعلقة بالشباب والمشيب ، والمتعلقة بالسني والشيعي ، والمتعلقة بالطبيب والمنجم ؛ وبعضها يتحدث عن موضوعات مختلفة كالربيع والحب والخريف والجنون ؛ وبعضها عبارة عن ألغاز أو أحاجى أو معميات ؛ كما أن بعضها الآخر يتناول موضوعات فقهية أو تأملات صوفية . وهناك مقامتان من النوع الوصفى ، وصف فيهما المؤلف مدينتى «بلخ» و «سمرقند» ولقد خيل لى أنهما تشتملان على كثير من الأخبار الحقيقية الموثوق بها ، بل وعلى أخبار الرجال الذين عاشوا فيهما ، ولكن سرعان ما تحطمت آمالى عندما تحققت بأن الناحية اللفظية قد غطت على الناحية الموضوعية وطغت عليها .

وأسلوب هذه المقامات الذى يمتاز بالتصنيع والتكلف لا يسمح بنقلها إلى لغة أخرى ، لأن «الأسلوب» هو عماد هذه المقامات . وأما «الموضوع» فيعتبر أمرا ثانويا بالنسبة له ، ومن أجل ذلك فإننا إذا شئنا أن نعطى القارىء فكرة عن هذه المقامات فى أصلها الفارسى وجب علينا ألا نترجم فنيا بل أن نفسر ونحاول التلخيص والتقليد ، وفيما يلى مثل أخذناه من وصف مدينة « بلخ » قبل غارة « الغز » عليها فى سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م وما أصابها بعد هذه الغارة (١) :

« روى بصوب خراسان نهادم ، چون بسرحد آنولايت رسيدم إز واردان بلخ ديگر گونه حكايت شنيدم

ومن يسأل الركبان عن كل غائب   فلا بد أن يلقى بشيرا وناعيا

---

(١) هذه هى المقامة العشرون فى طبعة طهران وقد نقلت منها القطعة الواقعة فى ص ١٦٥ [المترجم : نشر الأستاذ على أصغر الهمدانى هذه المقامات فى مدينة تبريز سنة ١٣١٢ هـ].

ثقاة رواة خبر دادند كه مشتاقى كه مقصود ومقصد نه بر نمط ونسق عهد گذشته ، وأيام نوشته است ، آن همه نسيمها بسموم بدل شده است ، وآن همه شكرها بسموم عوض گشته ، از رياحين اين بساتين بجز خار نيست ، واز آن أقداح أفراح در سر جز خمار نه ، معشوق را در لباس خوارى وجامهٔ سوگوارى نشايد ديد ، ومربع ياران در خلقان بيمرادى مشاهده نبايد كرد

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

گفتم چشم بد كدام ناظر بر اين رياض ناضر باز خورد ، وكدام سموم نفاق آن انتظام وانتساق را از هم جدا كرد .؟! گفتند كه اى جوان .. طوارق حدثان ونوازل زمان را جنس اين تصرف بسيار است ، وأمثال اين دستبرد بيشمار ، وان الدهر ظلام ، وليس البيان كالعيان . بران تابدانى وبرو تا ببينى كه ذكر غايب از جملهٔ معايب است »

وترجمتها : (١)

«فانصرفت عن هذا المكان ، واتجهت صوب خراسان ؛ فلما بلغت حدود هذه الولاية ، وانتهيت إلى هذه الغاية ، سمعت من بعض من وردوا مدينة «بلخ» حكاية غريبة للغاية :

ومن يسأل الركبان عن كل غائب فلا بد أن يلقى بشيرا وناعيا

فقال لى الثقاة من الرواة ، تمهل ولا تعجل ، فمقصودك ومقصدك ليسا على نمط العهود السابقة ، ولا على نسق الأيام السالفة ، فقد تبدلت النسائم بالسموم ، والحلوى بالسموم ؛ ولم يبق من رياحين البساتين إلا أشواكها ، ولم يبق فى الرؤوس من أقداح الراح إلا خمارها ، ولا يجوز رؤية المعشوق فى لباس الهوان ، متدثرا بثياب الأحزان ؛ كما لا يجب مشاهدة مربع الأحباب ، وقد رانت عليه الذلة وخيم عليه الخراب .

---

(١) المترجم : لم يذكر الأستاذ «براون» النص الفارسى وإنما ذكر ترجمته وحاول أن يسجع العبارات الانجليزية ليعطى القارىء الانجليزى صورة عن أسلوب هذه المقامات . وقد ترجمتها أنا أيضاً مسجعة لاعتيادنا هذا الأسلوب فى العربية .

«أمن أم أوفي دمنة لم تكلم»

فقلت لهم : أى النواظر أصابت بالحسد هذه الرياض النواضر ... ؟! وأى سموم النفاق قد شتت هذا الانتظام والاتساق ...؟!

فقالوا لى : أيها الشاب الكريم والفتى العظيم ..!! ان طوارق الحدثان ، ونوازل الزمان ، لها أمثلة كثيرة من هذه التصرفات ، وأشباه لا يحصيها العدمن هذه الكوارث والآفات ، وأن الدهر ظلام ، وليس الخبر كالعيان ، فتقدم حتى تعلم ، واذهب بقدميك حتى ترى الأمر بعينيك ، فالتحدث عن الغائب ، معدود فى جملة العيوب والشوائب.

كليله ودمنه :

انتقل الآن إلى الحديث عن ثالث الكتب الفارسية المنثورة التى ظهرت فى هذا العصر ، وأعنى به الترجمة الفارسية التى قام بها «نظام الدين أبو المعالى نصر الله» للنسخة المشهورة من كتاب «كليله ودمنه» وهى التى كتبها بالعربية «عبد الله بن المقفع» . وقد وضع «أبو المعالى» هذه الترجمة الفارسية امتثالا لأمر «بهرامشاه الغزنوى» ثم أهداها إليه . (وقد حكم هذا السلطان من سنة ٥١٢هـ = ١١١٨م إلى سنة ٥٤٤هـ = ١١٥٠ م ؛ وقيل إلى سنة ٥٤٧ هـ = ١١٥٣ م أو إلى السنة التالية [١].) وقد وضعها أبو المعالى على كل حال بعد سنة ٥٣٩هـ = ١١٤٤م كما يقول بذلك «ريو»[٢]. وقد أشار «ريو» أيضا إلى أن هذه الترجمة نالت كثيرا من الإعجاب فى إيران بحيث إن مؤرخ المغول ومادحهم «الوصاف» يجعلها مثالا للفصاحة والبلاغة ، كما أن صاحب «هفت إقليم» يقرر أن سائر المنثورات الفارسية لا تبلغ مبلغها من حيث الجودة وحسن السبك .

وقد طبعت هذه الترجمة على الحجر فى مدينة طهران سنة ١٣٠٥ هـ = نهاية

---

(١) التاريخ الأول وارد فى كتاب «تاريخ گزيده» والثانى فى «روضة الصفا» والثالث فى «ابن الأثير» .

(٢) أنظر : فهرست المخطوطات الفارسية المحفوظة فى المتحف البريطانى ص ٧٤٥—٧٤٦

سنة ١٨٨٧ الميلادية ، وسأشير إلى هذه الطبعة كلما أحوجنى الأمر إلى ذلك (١) .

وأول ما أقرره فى هذا الموضوع هو أن الكتب العالمية التى نجحت نجاح «كليله ودمنه» قليلة جدا ، كما أن الكتب التى ترجمت إلى سائر اللغات مثل «كليله ودمنه» نادرة جدا . وأصل هذا الكتاب هندى ، أحضروه إلى إيران فى القرن السادس الميلادى أثناء حكم «كسرى أنو شيروان» ثم ترجموه إلى اللغة «البهلوية» ثم نقلت الترجمة البهلوية مباشرة إلى اللغة السريانية وإلى اللغة العربية ، ثم نقلت النسخة العربية إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية .

وقد وضح «كيث فولكنر» بالتفصيل تاريخ «كليله ودمنه» فى كتابه الذى طبعه فى سنة ١٨٨٥ م فى مطبعة جامعة كامبردج بعنوان . «كليله ودمنه أوقصص بيدبا» (٢) وقد أورد فى ص (د٨٠) من المقدمة جداول وافية تبين لنا العلاقه بين هذه النسخ المختلفة وتواريخها ، وتبين لنا أن جميع هذه النسخ منقولة عن النسخة البهلوية المفقودة التى نقلت فى سنة ٥٧٠ م إلى السريانية القديمة ، ثم نقلها «ابن المقفع» حوالى سنة ١٣٣ هـ = ٧٥٠ م إلى اللغة العربية . ولا يشذ عن ذلك إلا النسخة «التبتية» فهى وحدها التى نقلت عن اللغة «السنسكريتية» مباشرة . . أما سائر النسخ المعروفة من هذا الكتاب فمشتقة من نسخته العربية التى كتبها ابن المقفع ؛ ويدخل فى عداد هذه النسخ الترجمة السريانية المتأخرة التى وضعت فى القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى (٣) وكذلك الترجمات اليونانية والفارسية والعبرية (٤) واللاتينية (٥) والإسبانية والإيطالية والسلافية والتركية والألمانية

---

(١) ناشر هذه الطبعة هو «محمد كاظم الطباطبائى» وقد ذكر أن هذا الكتاب طبع مرتين قبل ذلك فى سنة ١٢٨٢ هـ ثم فى سنة ١٣٠٤ هـ .

(٢) أنظر: Keith Falconer:Kalilah and Dimnah, or the Fables of: Bidpai, Cambridge. 1885

(٣) نشر الأستاذ «رايت Wright» هذه النسخة السريانية المتأخرة فى سنة ١٨٨٤ م .

(٤) أنظر: Derenbourg : Deux versions hebraiques du livre de: Kalilah et Dimnah.

(٥) فى سنة ١٨٨٧ م نشرت كلية الدراسات العليا بباريس النسخة اللاتينية التى

والإنجليزية والدنمركية والهولندية والفرنسية . وآخر هذه الترجمات وأحدثها من الناحية الزمنية هي الترجمة الفرنسية التي بدأها « جالان Galland » وأكملها « كاردون Cardonne » في سنة ١٧٧٨ م .

ونسخه « أبي المعالي » هي أقدم الترجمات الفارسية الموجودة في أيدينا ، ولم يسبقها فيما نعلم إلا الترجمة المنظومة المفقودة التي تولاها « الرودكي » قبل ذلك بسنوات كثيرة .

أما خير الترجمات الفارسية لقصة « كليله ودمنه » فهي بغير شك الترجمة التي قام بها « حسين الواعظ الكاشفي » في نهاية القرن التاسع الهجري أو الخامس عشر الميلادي وقد اشتقت من هذه الترجمة النسخة الفارسية الثالثة التي تعرف باسم « عيار دانش » أي « عيار المعرفة » وهي التي وضعها « أبو الفضل » للسلطان « أكبر » ، وكذلك النسخة التركية التي وضعها « على چلبي » للسلطان سليمان الأول باسم « همايون نامه » أو الكتاب الملكي . وكلاهما من كتب القرن العاشر الهجري أي السادس عشر الميلادي .

وقد هدف صاحب « أنوار سهيلي » — كما يظهر — إلى تبسيط نسخة « نصر الله » وإذاعتها ولكنه أخفق في ذلك فكان أسلوبه أكثر تصنعا وتكلفا .

وللمقارنة بين الأساليب المختلفة لهذه الترجمات سأنقل للقارىء قصة « الثعلب والطبل » كما وردت في سائر النسخ المختلفة ، وهي القصة التي تأتي في بداية باب الأسد والثور . وفيما يلي نصها وفقا لنسخة ابن المقفع العربية (١) :

« قال دمنه : زعموا أن ثعلبا أتى اجمة فيها طبل معلق على شجرة ، وكلما هبت »
« الريح على قضبان تلك الشجرة حركتها فضربت الطبل فسمع له صوت عظيم »
« باهر. فتوجه الثعلب نحوه لأجل ماسمع من عظيم صوته ، فلما أتاه وجده ضخما »

وضعها « جون كابوا : John of Capua » حوالى سنة ١٢٧٠ م بعنوان Directorium vitae Humanae. وقد اعتمد فيها على النسخة العربية القديمة التي اعتمدت مباشرة على نسخة ابن المقفع العربية .

(١) أنظر طبعة بيروت سنة ١٨٨٤ م ص ١٠٦ .

« فأيقن فى نفسه بكثرة الشحم واللحم ، فعالجه حتى شقه ، فلما رآه أجوف لاشىء »
« فيه قال : لا أدرى لعل أفشل الأشياء أجهرها صوتا وأعظمها جثة ....!! »

وفيما يلى نص هذه الحكاية فى نسخه « نصر الله » الفارسية (١) :

« دمنه گفت: آورده اند که روباهى در بيشهٔ رفت. آنجا طبلى ديد در پهلوى »
« درختى افگنده ، وهرگاه باد بجستى شاخ درخت بر طبل رسيدى آواز »
« سهمناك بگوش روباه آمدى . چون روباه ضخامت جثه بديد ، ومهابت »
« آواز بشنيد طمع در بست که گوشت وپوست او فراخور آواز باشد ، »
« ميكوشيد تا آنرا بدريد . الحق جز پوستى بيشتر نيافت . مرکب ندامت »
« در جولان کشيد وگفت : ندانستم که هرکجا جثه ضخم تر وآواز هايلتر »
« منفعت آن کمتر ...!! »

أما « أنوار سهيلى » فيخط هذه القصة على النحو الآتى(٢) :

« دمنه گفت : آورده اند که روباهى در بيشهٔ ميرفت ، وببوى طعمه هر »
« طرف مى گشت . بپاى درختى رسيد که طبلى از پهلوى آن آويخته بودند »
« وهرگاه بادى بوزيدى شاخى از آن درخت در حرکت آمده بر روى »
« طبل رسيدى وآواز سهمگين از آن بر آمدى . روباه بزير درخت مرغ »
« خانگى ديد که منقار در زمين ميزد وقوتى مى طلبيد . در کمين نشسته »
« خواست که اورا صيد نمايد که ناگاه آواز طبل بگوش او رسيد. نگاه »
« کرد . جثهٔ ديد بغايت فربه وآواز وى مهيب استماع افتاد . طامعهٔ روباه »
« در حرکت آمده با خود انديشيد که هر آئينه گوشت وپوست او فراخور »
« آواز خواهد بود . از کمين مرغ بيرون آمد وروى بدرخت نهاد . مرغ از »

---

(١) أنظر طبعة طهران على الحجر سنة ١٣٠٥ هـ ص ٧٩ .
[المترجم : نقلنا النص عن نسخة طهران سنة ١٣١٢ هـ ص ٨٠] .
(٢) أنظر « أنوار سهيلى » طبع طهران على الحجر سنة ١٢٧٠ هـ ص ٥٨ ــ ٥٩ .
[المترجم : وقد اعتمدنا نحن على نسخة كانپور المطبوعة سنة ١٨٨٠م ص ٩٢] .

« آن واقعه خبر دار شـده بگريخت ، وروباه بصد محنت بدرخت بر آمد . »
« بسى بكوشيد تا آن طبل را بدريد . جز پوستى وپارهٔ چوبى هيچ نيافت. »
« آتش حسرت در دل وى افتاد ، وآب ندامت از ديده باريدن گرفت ، »
« وگفت : دريغ كه بواسطهٔ اين جثهٔ قوى كه همه باد بود ، آن صيد حلال »
« از دست من بيرون شد ، وازين صورت بيمعنى هيچ فائده بمن نرسيد...!! »

« دهل در فغانست دائم ولى »
« چه حاصل چو اندر ميان هيچ نيست(١) »
« گرت دانشى هست معنى طلب »
« بصورت مشو غره كان هيچ نيست »

ويبدو من هذا المثل أن نص هذه القصة كما وردت فى « أنوار سهيلى » قريب جدا من أصله ، وإن كان قد دخله بعض التمطيط والزيادة . ومع ذلك فهو مشحون بالمبالغات التافهة ، والكلمات الغامضة ، والتشبيهات السخيفة ، والمجازات البعيدة ، والتعبيرات الباردة ، بحيث يمثل لنا تماما أسوأ الأساليب التى اتبعها الكتاب المتصنعون الذين عاشوا فى رعاية التيموريين فيما وراء النهر والأجزاء الشمالية الشرقيه من إيران خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين أو الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، والذين انتقلوا — مع الاسف — فى ركاب « بابر » إلى الهند فأصبحوا القدوة التى يحتذيها أهل هذه البلاد المغرمون بالتعبيرات المنمقه والعبارات المزوقة . وربما كان هذا هو أهم الأسباب التى أدت إلى أن أهل الهند لم يعجبوا على الإطلاق بالفارسية البسيطة الخالصة ولم ينتجوا فيها شيئا من الأدب ، بل انتجوا طائفة متحذلقه من الكتاب ممن ينشئون بالفارسية المتكلفة ، وهم يشبهون تماما طائفة المتحذلقين الذين

---

(١) المترجم : تختلف هذه القصة عن القصة التى رواها ابن المقفع فى أنها تصور الثعلب وقد كمن فى البداية ليصيد فرخة ولكنه عندما استمع إلى صوت الطبل ترك الفرخة وطمع فى الطبل فلما صعد الشجرة وتحقق من حقيقة الطبل وأنه أجوف ، تندم على ترك الفرخة وإفلات الصيد من يده بعبارات منثورة اتبعت بالبيتين اللذين انتهت بهما القصة .

ينشئون حاليا بالإنجليزية المتكلفة التى تطربنا أمثلتها المضحكة الواردة فى كتاب « ترجمة حياة القاضى موكرجى » (١).

ولكى أتم مقارناتى أنقل فيما يلى قصة « الثعلب والطبل » كما وردت فى النص اللاتينى الذى وضعه « جون كابوا » حوالى سنة ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠ م اعتمادا على النسخة العبريه المنقولة عن العربية ، وترجمته كما يأتى : (٢)

« يقول دمنه : كان ثعلب يتجه نحو نهر . وكان بقربه شجرة قد علق عليها »
« طبل ، وكانت الريح تحرك أغصان الشجرة فتحدث صوتا ، فلما رآها الثعلب »
« ظنها حيوانا سمينا مليئا باللحم فمزقها ولكنه وجدها خالية خاوية ...!! »
« يقول دمنه : أننى لا أعتقد أن الأشياء ذات الحجم الكبير والصوت المرتفع »
« يكون لها فى نفسها قوة ...!! ثم سار فى طريقه وانصرف عائدا ... !! »

الكتب العربية فى هذا العصر

لم يبق علينا الآن إلا أن نذكر أهم الكتب العربية الخالدة التى تم وضعها فى هذا العصر . ومن الحق على أن أنبه القارىء إلى أن اختيار المجموعة الجديرة بالذكر من بين هذه الكتب ليس أمرا ميسورا ولا سهلا ، ومن أجل ذلك فقد عمدت

---

(١) انظر : Biography of Honble. Chief Justice Mookerjee.

(٢) فيما يلى النص اللاتينى كما جاء فى طبعة درنبورغ ص ٥٠

Ait Dimna : « Fuit vulpes quidam ambulans versus flumen, circa quod suspensum erat cimbalum in arbore, ventus autem ramos arboris agitabat et propulsabatur cimbalum. Et cum vulpes videret, estimavit esse aliquod pingue animal et plenum carnibus, que cum scindere ipsum, invenit ipsum concavum et vacuum. Et ait: « Nolo credere res magni corporis et fortis vocis in se habere potentiam », et abiit in viam suam ».

إلى اختيار الكتب التى أظنها مفيدة لدراسى الفارسية باعتبارها من المراجع التى يضطرون إلى اللجوء إليها بصرف النظر عن أخواتها العربية التى ترجحها شهرة وبعد صيت .

وأهم كتاب العربية وعلمائها الذين توفوا فى هذا العصر الذى ندرسه هم الآتون بحسب ترتيبهم الزمنى :

١ — « الزوزنى » : المتوفى سنة ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣م ، وهو عالم لغوى اشتهر بتفسيره للمعلقات السبع . وقد وضع أيضاً معجمين بالعربية والفارسية ، أحدهما هو « ترجمان القرآن » ليستفاد به فى قراءة القرآن وفهمه .

٢ — « التبريزى » : المتوفى سنة ٥٠٣هـ = ١١٠٩م وهو أيضا عالم لغوى اشتهر من بين مؤلفاته «شرح الحماسة» و« شرح المعلقات» . وقد كان تلميذاً للشاعر العظيم « أبى العلاء المعرى » .

٣ — « الغزالى » : وهو « حجة الإسلام » المتوفى سنة ٥٠٥هـ = ١١١١ م وقد درسنا حياته ومؤلفاته فى الفصل السابق .

٤ — « الرويانى » : وهو عبد الواحد الرويانى الذى قتله واحد من الحشاشين فى مدينة « آمل » عندما كان يقوم بالتدريس والمحاضرة .

٥ — « الطغرائى » : صاحب « لامية العجم » ووزير السلطان مسعود السلجوقى ، وقد أعدم حوالى سنة ٥١٤هـ = ١١٢٠ م

٦ — « الحريرى » : المتوفى سنة ٥١٥هـ = ١١٢١م ، وهو صاحب «المقامات» التى ذاع صيتها ، وقد أنشأها للوزير « أنوشروان بن خالد » المتوفى سنة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م وهو صاحب « تاريخ السلاجقة » الذى طبعه « هوتسما » فى مدينة ليدن سنة ١٨٨٩م ضمن مؤلف البندارى .

٧ — « الفراء البغوى » : المتوفى سنة ٥١٦ هـ = ١١٢٢م وهو فقيه ومحدث

اشتهر من كتبه تفسير للقرآن بعنوان « معالم التنزيل » .

٨ — « الميدانى النيسابورى » : المتوفى سنة ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م وقد سار ذكره بمؤلفه الجامع للأمثال العربية .

٩ — « ابن عبدون » : المتوفى سنة ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م ، وهو من أهل الأندلس ، وقد اشتهر بقصيدته التاريخية الطويلة التى شرحها فيما بعد واحد من مواطنيه هو « ابن بدرون » المتوفى حوالى سنة ٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م .

١٠ — « الزمخشرى » : المتوفى سنة ٥٣٨ هـ = ١١٤٣ م وهو من رجال المعتزلة وصاحب التفسير الكبير المعروف بـ « الكشاف » وكذلك صاحب جملة من المعاجم اللغوية بالعربية والفارسية .

١١ — « الجواليقى » : المتوفى سنة ٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م وهو من علماء اللغة وصاحب « المعرب » فى الكلمات الأعجمية المستعملة فى اللغة العربية .

١٢ — « الشهرستانى » : المتوفى سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م وهو صاحب « كتاب الملل والنحل » .

١٣ — « النَّسَفى » : وهو نجم الدين أبو حفص عمر المنسوب إلى مدينة نسف المعروفة أيضا باسم « نخشب » وقد توفى سنة ٥٣٧هـ=١١٤٢م ويعتبر من أئمة فقهاء الحنفية فى زمانه .

١٤ — « الطوسى » : وهو الفقيه الشيعى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م وصاحب مجموعة الكتب الشيعية التى نشرها « سبرنجر » فى مدينة كلكتا سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ م .

١٥ — «الطبرسى» : وهو أيضا من فقهاء الشيعة ، وقدتوفى سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣م .

وأكثر هؤلاء الكتاب — كما هو ظاهر — من أصل فارسى ، ولكن دراستهم بالتفصيل تعتبر من موضوعات « الآداب العربية وتاريخها » ، ولا مجال لها فى هذا الكتاب حتى لو اتسعت لذلك صفحاته واستوعبتها أوراقه . ومع ذلك فإنى أنبه كل جاد فى الاشتغال بتاريخ الآداب الفارسية بأن يعود نفسه على الاطلاع على أكثر مؤلفات هؤلاء الكتاب بين الفينة والفينة ، لأن اللغة العربية — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — ظلت تحافظ على مكانتها فى إيران كلغة للعلوم والآداب حتى كانت غارة المغول وسقوط بغداد فى منتصف القرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى ؛ وقد ألف فيها المؤلفون أكثر كتب المراجع التى لا يستغنى عنها الطالب الجاد والدارس المتفحص ، وربما كان من الخير أن أفصل الحديث قليلا عن بعض هؤلاء الكتاب ولنبدأ بالباخرزى فقد توفى سنة ٤٦٨ هـ = ١٠٧٥ م وكان لزاما علينا أن ندرسه فى الفصل السابق لولا ما وقعنا فيه من سهو وإغفال .

الباخرزى :

هو « أبو القاسم على بن الحسن بن أبى الطيب الباخرزى » وقد اشتهر بقول الشعر وكتابة تراجم الشعراء . وقد كتب عنه صاحب «اللباب» باعتباره شاعراً ، فترجم له ترجمة مطولة فى الجزء الأول من كتابه فى الصفحات من ٦٨ إلى ٧١ ، أما باعتباره من أصحاب كتب التراجم فقد استطاع «الباخرزى» أن يتم كتاب « يتيمة الدهر » الذى وضعه «الثعالبى» من قبل ، فأكمله بكتابه «دمية القصر» وضمنه سير حياة ٢٢٥ شاعراً من المعاصرين وعشرين رجلا من أهل الفضل لم يؤثر عنهم شىء من الشعر[1] . ومن الأسف أنه قصر عنايته على ذكر الشعراء الذين صاغوا شعرهم بالعربية ، وأغفل ذكر شعراء الفرس ، ولو أنه تحدث عنهم لكان حديثه مصدراً لكثير من الأخبار الصادقة الصحيحة .

---

(١) لهذا الكتاب مخطوطتان فى المتحف البريطانى تحت رقم ٩٩٩٤ Add ورقم Add٢٣٣٧٤

أما أشعار « الباخرزى » نفسه فبعضها عربى وبعضها فارسى ، وقد كتب عنه العوفى فقال: «لقد أصبح فى اللغتين علما يرتفع فوق أرجاء العالم ، وتمكن من أن يسلب فضلاء الزمان قصب السبق فى هذين اللسانين » .

وكان «الباخرزى» فى شبابه كاتباً للسلطان «طغرل» السلجوقى ثم فضل حياة العزلة فاستقال من منصبه وعاش عيشة لاهية عابثة انتهت بمقتله فى سنة ثمان وستين وأربعمائة الهجرية (= ١٠٧٥ م) أثناء ثورة من ثورات الشراب كما يظهر .

ويذكر « العوفى » فى الجزء الأول من « لباب الألباب » ص ٧٠ ، وكذلك « رضا قليخان » فى الجزء الأول من كتابه « معجم الفصحاء » ص ٣٤٣ أن « الباخرزى » أنشأ بالإضافة إلى أشعاره المتفرقة قصيدة مطولة ، جعل عنوانها «طرب نامه» أو « رسالة الطرب » وأنه جعلها مكونة من رباعيات فارسية تتسلسل بحسب الترتيب الهجائى للحروف .

وفيما يلى أبيات منقولة فى « اللباب » من قصيدة عربية قالها الباخرزى فى مدح طغرل :(١)

سرنا ومرآة الزمان بحالها فالآن قد محقت وصارت منجلا
تخذ الركاب فلا تعوج بنا على طلل الحبيب ولا تحيي المنزلا
وتحرك الأعطاف تشجيراً بنا تتيمم الملك المظفر طغرلا

وفيما يلى ترجمة لرباعية من رباعياته الفارسية (٢) :

— حول وجهها الأبيض ليل شديد السواد والقتام (أى الشعر)
— وتحت سكرتيها (شفتيها) اثنان وثلاثون كوكباً (أى أسنانها) تنير الظلام

---

(١) انظر « لباب الالباب » ج ١ ص ٦٩
(٢) المترجم : فيما يلى أصل هذه الرباعية كما وردت فى ص ٧٠ فى المرجع السابق
پيرامن روز قير گون شب دارد زير دو شكر سى ودو كوكب دارد
بر سرخ گل از غاليه عقرب دارد واز نوش دو ترياك مجرب دارد

— وفوق وردتها الحمراء (أى وجنتها) عقرب أسود هو طرتها السوداء
— ولـكن لديها ترياقان مجربان (أى شفتاها) لدفع الغمة ورفع البلاء ...!!

وفيما يلى رباعية أخرى قالها فى وصف الشراب (١) :

— إنى أريد تلك الخمر ... فهى سبب للسعادة والهناء
— واسمها الخمر ... ولـكنها فى الحقيقة كيمياء البهجة والصفاء ...!!
— وهى من ماء العنب ... ولـكنها كالعناب قانية حمراء
— وهى ماء عجيب ... يلهب الوجنات بالنار والبريق والضياء ...!!

وفمايلى رباعية أخرى يقال إنه أنشأها فى حالة النزع (٢):

— إننى ذاهب . . فتعال الآن وانظر إلىّ قبل الرحيل
— وانظر إلىّ وأنا أتعذب فى هذا الحال المؤلم الوبيل
— ثم انظر إلى هذه الحجارة من فوق وإلى يدى من تحتها
وإلى فراق الأحبة ... وإلى سيف الأجل القاطع الثقيل ...!!

وقد رثاه شاعر اسمه « عيّاضى » بالبيتين الآتيين(٣) :

مسكين على حسن كه از آفت شوم كارزار
بى جرم چون حسين على كشته گشت زار

---

(١) المترجم : فيمايلى أصل هذه الرباعية كما وردت فى صفحة ٧٠ فى المرجع السابق
زان مى خواهم كه خرمى را سبب است — نامش مى وكيمياى شادى لقب است
سرخست چو عناب واز آب عنب است — آبى كه برخ بر آتش آرد عجب است
(٢) المترجم : فيما يلى أصل هذه الرباعيه كما وردت فى« لباب الالباب » ج ١ ص ٧١
من مى روم بيا مرا سير به بين — وين حال بصد هزار تشوير به بين
سنگى ز بر ودست من از زير به بين — وز يار بريدنى بشمشير به بين
(٣) نفس المرجع والصحيفة

شـيرى بُـد إو كه بود ادب مرغزار او
گر كشته شد عجب نبود شير مرغزار

ومعناها :

— مسكين « على بن الحسن » فقد وقع فى هذا العراك المشئوم
— وقتل بغير جريرة كالحسين بن على الشهيد المظلوم ... ! !
— وقد كان أسداً ... وكان الأدب غرينه ووادبه
— ولا عجب إذا قتل الأسد فى مأسدته وبواديه ... ! !

الرويانى :

هو فقيه الشافعية ««عبدالواحد بن اسماعيل الرويانى» الملقب أثناء حياته بلقب «فخر الاسلام» وبعد مماته بلقب «الإمام الشهيد» . وأهم ما يذكر عنه هو طريقة استشهاده وقد أوردها « ابن أسفنديار » فى كتابه « تاريخ طبرستان » على النحو الآتى : (١) .

« وقد اشتهر بنفاذ البصيرة وصدق الحكم ، بحيث أنه عندما طلب الملاحدة (٢) »
« فى أيامه الفتوى كتابة فى مسألة قدموها إلى العلماء على النحو الآتى : ماذا »
« يقول علماء الإسلام فى قضية اتفق فيها الشاكى والمشكو فى حقة على قول »
« التزما فيه العدل والحق ، ولكن اعترض دعواها شاهد من الشهود فأنكر »
« دعوى الشاكى وإقرار المشكو فى حقه ... فهل تقبل شهادته أو ترفض . . ؟ »
« وقد كتبوا هذا الاستفتاء على الورق وأرسلوا به إلى المدينتين المقدستين مكة »
« والمدينة . فأفتى فقهاء المدينتين وكذلك أئمة بغداد وسوريا بأن شهادة الشاهد »

---

(١) أنظر ترجمتى المختصره لهذا الكتاب ص ٧٥ — ٧٦ وهى منشورة فى المجلد الثانى من « سلسلة جب التذكارية » وبه أصل القطعة باللغة الفارسية

(٢) سميت جماعة الحشاشين باسم « الملاحدة » وعرفوا بهذه التسمية فى إيران خاصة

« مرفوضة ، لايقبل سماعها؛ ولكنهم عندما قدموا الورقة المتضمنة لهذا الاستفتاء »
« إلى الروياني ، حدق فيها ثم التفت إلى مقدمها وقال له : أيها الملعون التاعس »
« إن غفلتك ستجلب لك الهلاك الوبيل ...!! ثم أمر بحبسه ، وجمع رجال القضاء »
« والشرع وقال لهم : لقد كتب الملاحدة هذا الاستفتاء ، وهم يقصدون بالشاكى »
« والمشكو فى حقه النصارى واليهود ، وأما الشاهد الذى يعنونه فهو النبى عليه »
« الصلاة والسلام لأن القرآن يقول : وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . »
« فلما سألوا الملحد فى هذه المسألة اعترف لهم بأنه ظل سنة كاملة يتنقل من »
« مكان إلى مكان يجمع الفتاوى والإجابات ، فأمروا برجمه ؛ واجتمع أهل »
« « آمل » فرجموه بالحجارة حتى مات . ثم أمر فخر الإسلام الروياني بلعنة »
« الملاحدة ومن ينتمى إليهم . فأثار عمله هذا حفيظتهم ، فأرسلوا إليه جماعة »
« من الفدائيين قتلوه غيلة بالمدى على باب أحد أروقة المسجد الجامع بمدينة »
« آمل من الناحية التى تنتصب فيها منارته . وما زالت المدية التى استعملت فى »
« قتل هذا الإمام الشهيد محفوظة فى الرواق الذى كان يقيم فيه بالمدرسة وقد »
« شاهدتها بنفسى جملة مرات . »

وقد كان غرض « الحشاشين » وما يهدفون إليه من وراء هذا الاستفتاء هو أن يسخروا من فقهاء الإسلام بأن يثبتوا لهم أن الشريعة الإسلامية تتنافى مع الفقه الإسلامى تمام المنافاة . فإن النصارى وهم الشاكون فى هذه القضية ، يتهمون اليهود وهم الجناة والمتهمون فيها بأنهم قتلوا «المسيح» وصلبوه ، واعترف اليهود بصحة التهمة المنسوبة إليهم وقبلوا الآثار المترتبة على جريمتهم ، ولكن النبى محمداً يذهب مذهب بعض الفرق الغنوصية [1] فينكر أن اليهود قد صلبوا المسيح ، وبذلك يشهد ضد الشاكى وينكر فى الوقت نفسه إقرار المتهم . وقد قبل المسلمون جميعاً شهادة نبيهم فى هذا الموضوع كما قبلوها فى مواضيع أخرى ؛ ولكنهم لو اتبعوا آراء فقهائهم وعلمائهم

(١) فرقة من المسيحيين تذهب إلى أن طريق الخلاص هو المعرفة وليست العقيدة

لما وجدوا ما يبرر قبولهم لهــذه الشهادة . وقد استطاع « الروياني » بنفاذ بصيرته وسرعة حكمه أن يكشف موضع الفخ الذى نصبه الملاحدة ، فأثار بذلك دهشتهم وإعجابهم ولـكنه فى الوقت نفسه أثار حفيظتهم عليه حتى قتلوه غيلة فى النهاية .

الحريرى :

درسنا فيما سبق هذا الأسلوب المصنوع المبتكر الذى تمتاز به سائر «المقامات» سواء ما كتب منهما بالعربية كمقامات «بديع الزمان الهمذانى» ومقامات«الحريرى» أو ما كتب بالفارسية كمقامات «حميد الدين البلخى» ، ولم تعد بنا حاجة إلى التمهل فى هذا المقام لدراسة أسلوب الحريرى خاصة ، فهو الملك المتوج على رأس هؤلاء الـكتاب الذين تخصصوا فى هذا الأسلوب المتكلف ، كما أن « بديع الزمان الهمذانى» هو أول السابقين إلى ابتكاره وترويجه . يضاف إلى ذلك أن مؤلفات «الحريرى» قد درست وشرحت وترجمت أكثر من مرة فى بلاد الشرق وأوربا ، بحيث أن محاولة الحديث عن هذه الدراسات والشروح والترجمات تستوعب فى مجموعها أكثر مما استوعبته صفحات هذا الـكتاب كما إنها تصرف القارىء عن كثير من المسائل الهامة التى بينها « دى ساسى » فى طبعته الأنيقة للمقامات فى باريس سنة ١٨٢٢ م ، أو التى تحدث عنها « تشنرى Chenery » فى الصفحات المائة التى قدم بها الجزء الأول من ترجمته للمقامات المطبوعة فى لندن سنة ١٨٦٧ (١) ، أو التى توجد فى التقليدات الألمانية لأسلوب المقامات كما اشتمل عليها المجلد الثانى من كتاب «فون كريمر» عن «تاريخ الأدب الشرقى» (٢) أو فى غير ذلك من المؤلفات المتعلقة بالآداب العربية .

ويقرر «الزمخشرى» فى بيت من الشعر ، كتبه «دى ساسى» على غلاف طبعته

---

(١) أنظر :
Chenery : Assemblies or Maqamat, London 1867

(١) أنظر :
Von Kremer:Culturgeschichte des Orients.vol II pp 470-476

أن مقامات« الحريرى» حرية بأن تكتب بماء الذهب ؛ وهو فى هذا يعبر عن رأى مواطنيه فيه ، ولكنه يخالف فى ذلك آراء جملة من كبار المستشرقين الممتازين . ومهما كان الأمر فإن المراجع المتعلقة بدراسة هذه المقامات وافرة وكثيرة وزائدة .

أما صاحب المقامات ، فيكفى أن نذكر عنه أنه ولد فى البصرة فى سنة ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م وأنه مات بها فى سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١ م وقد كان ضئيل الجسم ، زرى المظهر ، يقتلع شعرات ذقنه إذا اشتغل بالتفكير والكتابة ، ولكنه مع ذلك كله كان موضعا لتقدير الوزير «أنوشروان بن خالد» ورعايته ، وقد كتب «المقامات» بناء على طلبه وجعل إهداءها إليه (١) .

أنو شروان بن خالد :

هذا الوزير جدير بالذكر فى هذا المقام لأنه صاحب الرسالة المشهورة عن تاريخ السلاجقة ، وهى الرسالة التى طبعها «هوتسما» عند تحقيق تاريخ البندارى وجعلها الجزء الثانى من « مجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة » (١) .

وقد جمع «هوتسما» فى مقدمته (ص ١١ — ٣٠) جميع ما يعرف عن هـذا الوزير ، ولكنى وجدت عنه نبذة فى مخطوطة لكتاب « عيون الأخبار » محفوظة بمكتبة جامعة كامبردج تحت رقم Add.٢٩٢٢ بالورقة ١٢٦ فنشرتها فى ص ٨٦١ — ٨٦٢ من مجلة الجمعية الملكية الأسيوية لسنة ١٩٠٢ . وفيما يلى خلاصتها كما جاءت تحت سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م .

« وفيها توفى أنوشروان بن خالد بن محمد القاشانى أبو نصر الوزير . مولده بالرى »

---

(١) أنظر ص ٥ من طبعة «دى ساسى» للمقامات ، وكذلك ص ١٢ من مقدمة «هوتسما» لتاريخ البندارى وكذلك ص ٢٧٦ من الجزء الأول من كتاب «تاريخ الآداب العربية» لبروكلمان

(٢) Houtsma : Recueil de textes relatifs à l'histoire des Seljoucides , Leyden. 1889.

« سنة تسع وخمسين وأربعمائة . تنقلت به الأحوال إلى أن ولى وزارة السلطان »
« محمود [بن محمد بن] ملكشاه سنة سبع عشرة وخمس مائة وقدم معه بغداد »
« واستوطنها ، وكان يسكن بالحريم الظاهرى فى دار على شاطىء دجلة . وعزل »
« عن الوزارة ثم أعيد إليها ثم قبض عليه السلطان واعتقله ثم أفرج عنه »
« واستوزره الإمام المسترشد فى أواخر سنة ست وعشرين وأقام مدبراً إلى »
« أن عزل سنة ثمان وعشرين وأقام بمنزله فى الحريم الطاهرى مكرما إلى »
« أن توفى فى هذه السنة (٥٣٢هـ) ، وكان من الصدور الأفاضل موصوفا بالجود »
« والكرم محباً لأهل العلم ، وكان قد أحضر إلى داره أبا القاسم بن الحصين ليسمع »
« أولاده منه مسند ابن حنبل بقراءة أبى محمد بن الخشاب وأذن للناس عامة »
« فى الحضور لسماعه فحضره الجم الغفير وسمعه خلق كثير ، ولابن جكينا »
« الشاعر فيه أمداح وأهاجى . فمن أمداحه فيه قوله : »

« سألونى من أعظم الناس قدراً قلتُ مولاهمُ أنو شيروان »
« وإذا أظهر التواضع فينا فهو من آيه الرفيع الشان »
« ومتى لاحت النجوم على صفـحة ماء فهن غير دوانى »

« وكتب إليه القاضى ناصح الدين الأرجانى يطلب منه خيمة ، فلم يكن عنده ، »
« فبعث إليه صرّة فيها خمس مائة دينار وقال : اشتر خيمة : فقال الأرجانى : »

« لله در أبى خالد رجلا أحيا لنا الجود بعد ماذهبا »
« سألته خيمة ألوذ بها فجاد لى ملء خيمة ذهبا »

« وكان هو السبب فى عمل مقامات الحريرى ، وإياه عنى الحريرى فى أول »
« مقاماته بقوله : فأشار من أشارته حكم وطاعته غنم . وكان أنو شروان »
« يتشيع سامحه الله تعالى . . »

الزمخشرى :

أما العالم اللغوى والمفسر المعتزلى « أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشرى » فجدير منا بكلمات قليلة . ولد هذا الرجل فى مدينة خوارزم (وهى مدينة خيوة الحديثة) فى سنة ٤٧٦هـ = ١٠٧٤ م . ومات بالقرب منها فى سنة ٥٣٨هـ = ١١٤٣م .

وقد أقام بعض الوقت فى مدينة مكة ، فأسماه الناس من أجل ذلك به «جارالله»
وقدكان من أقوى المعارضين لمذهب الشعوبية ، وهو المذهب الذى كان يفضل العجم
على العرب فى كل شيء ، ولكنه مع ذلك وضع معجما عربيا فارسيا لينتفع به مواطنوه
وقد نشره «فتزشتاين» فى مدينة ليبزج سنة ١٨٤٤م[1] .

وأهم مؤلفاته هى الكتب الآتية ، وجميعها مكتوبة باللغة العربية :

١ — الكشاف : وهو تفسير كبير للقرآن

٢ — المفصل : وهو كتاب معروف فى قواعد اللغة العربية

٣ — كتاب الأمكنة والجبال والمياه : وهو عبارة عن معجم جغرافى .

٤ — أطواق الذهب .

الشهرستاني .

هو « أبو الفتح محمد بن أبى القاسم بن عبدالكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستانى»
نسبة إلى «شهرستان» فى ولاية خراسان . وقد ولد سنة ٤٧٩هـ = ١٠٨٦م وزار
بغداد فى سنة ٥١٠ = ١١١٦ م وبقى بها ثلاث سنوات . وتوفى فى النهاية فى بلدته سنة
٥٤٨هـ = ١١٥٣م

وقد ألف كتابين أو ثلاثة كتب قليلة الأهمية ثم ألف فى سنة ٥٢١هـ = ١١٢٧م
كتابه المعروف «الملل والنحل» وقد نشره « كيرتون Cureton » فى سنة ١٨٤٦م
كما ترجمه إلى الألمانية فى سنة ١٨٥٠ الدكتور «تيودور هاربروكر» . وقد ظل هذا
الكتاب مدة طويلة ، المرجع الأول والوحيد لجميع الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع
الهام، حتى تم الآن فى مدينة القاهرة طبع كتاب يحمل نفس هذه التسمية ولكنه أسبق

---

(١) المترجم : صحة هذا التاريخ هو سنة ١٨٤٣ م أنظر
I . G . Wetstein : Samachcharii Lexicon Arabicum Persicum, Lipsiae 1843

منه زمنا وأوفى موضوعا ، وهو كتاب « ابن حزم» الفقيه الأندلسى الظاهرى[1] ، المولود فى سنة ٣٨٤ هـ = ٩٩٤م والمتوفى سنة ٤٥٧ هـ = ١٠٦٤ م

وقد كان الفضل فى حصولى على نسخة جميلة من هذا الكتاب الهام، وهو شرف لم يفز به الا قليل من المحظوظين ، راجعا إلى صديقى وأستاذى المأسوف عليه مفتى مصر الأكبر الشيخ « محمد عبده » الرجل العظيم والأستاذ القدير وأعمق مفكرى الإسلام فى هذه الأيام.

---

(١) كتاب «الملل والنحل» لابن حزم طبع القاهرة سنه ١٣١٧ــ١٣٢١ هـ = ١٨٩٩ــ١٩٠٣ م

الفصل السادس

الشعراء الأربعة النابهون

فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى)

١ — الأنورى
٢ — الخاقانى
٣ — نظامى الكنجوى
٤ — ظهير الفاريابى

مقدمة :

سأنحرف فى هذا القسم قليلا عن تتبع النظام التاريخى الذى راعيته حتى الآن لكى أستطيع أن أدرس فى وقت واحد أربعة شعراء من الشعراء الذين ينسبون إلى الفترة الأخيرة من الدولة السلجوقية . وهؤلاء الشعراء الأربعة يعتبرون ، باتفاق آراء مواطنيهم فى عداد كبار الشعراء الذين أنشدوا القصيد فى إيران .

ولم يكونوا جميعا متعاصرين بالمعنى الدقيق ، كما لا يمكن أن نعتبر غير واحد منهم من شعراء السلاجقة ، ولكننا نجمعهم فى هذا الفصل فنقوم بدراستهم والمقارنة بينهم ، وذلك لما لهم من مكانة خاصة فى الأدب الفارسى ، تدعونا إلى الإفاضة فى الحديث عنهم ، وإعطائهم ماهم جديرون به من عناية واهتمام .

هؤلاء الشعراء الأربعة هم :

١ — أنوري الخاورانى من أهل خراسان :

عاش بعد «سنجر» مدة ثلاثين أوأربعين سنة ولكنه اشتهر على أيام «سنجر»

٢ — خاقانى شاعر شروانشاه :

ولد فى « كنجه » (الآن اسمها اليزاقتپول) فى سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ — ١١٠٧ م)

٣ — نظامى :

ولد أيضا فى « « كنجه » بعد الخاقانى بخمس وثلاثين سنة (٥٣٥ هـ) .

٤ — ظهير الدين الفاريابى :

ولد فى «فارياب» بالقرب من بلخ ، واتصل فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى (= السادس الهجرى) بطغانشاه فى «نيسابور» ، وحسام الدولة اردشير فى «مازندران» والأتابكة فى «أذربيجان» ثم مات فى النهاية فى مدينة «تبريز» عند مطلع القرن الثالث عشر الميلادى (= السابع الهجرى) .

١ — الأنورى

أقدم هؤلاء الشعراء وأكثرهم شهرة هو « الأنورى » . والبيتان التاليان المعروفان بجعلانه واحدا من ثلاث شعراء يعتبرون أكبر من أنجبتهم إيران على الإطلاق :

در شعر سه تن پيغمبر انند   قوليست كه جملگى بر آنند ..
فردوسى وأنورى وسعدى   هرچند كه لا نبى بعدى

ومعنى هذين البيتين :

— للشعر ثلاثة أنبياء ، وهذا قول يتبعه الجميع :

— الفردوسى والأنورى والسعدى ، ثم بعد ذلك لا نبى بعدى .

ومن الصعب على مستشرق أوروبى يدرس الفارسية ، مهما حاول احترام آراء النقاد من الفرس ، أن يتابع هذا القول فيجعل « الأنورى » مساويا للفردوسى أو «السعدى» أو يجعله فى مرتبة أعلا من مرتبة «ناصر خسرو» أو «النظامى » . ذلك لأن «المدائح» وهى الكثرة المطلقة من أشعار « الأنورى » لاتستطيع أن تمس إلا قلب الممدوح مهما اجتهد الشاعر فى تنميقها وتدبيجها .

ومن رأى أحد أصدقائى وهو «ميرزا محمد قزوينى» ، العالم الفاضل الذى كان من حسن حظى التعرف عليه ، أن شهرة الأنورى تعتمد أصلا على القصائد التى لم يكن غرضها «المديح» . وربما كانت هذه النظرة هى أصوب الآراء وأقربها إلى الدقة .

ولم يكن الأنورى مبرزا فى قول «الغزل» أو «الرباعى» أو ما شابه ذلك من فنون النظم وضروبه ولكن شخصيته كانت قوية واضحة فيما قال من «مقطعات».

مصادر دراسة الأنورى

وليس فى أيدينا عن حياة «الأنورى» إلا القليل من الأخبار الصحيحة التى يمكن أن نعتمد عليها ، ولكننا لو درسنا أشعاره دراسة دقيقة لأمكننا بلا شك أن نحصل على كثير من المعلومات التى مازالت خافية عنا من نواحى حياته . وللأسف لاتمدنا المصادر الأخرى إلا بالقليل من الأخبار التى لايمكن الوثوق منها .

أما عوفى فى كتابه « لباب الألباب » (الجزء ٢ ص ١٢٥ — ١٣٨) فلا يخبرنا — كعادته — بشىء عنه ، إلا أنه كان مبرزاً فى النجوم والهندسة والمنطق ؛ وهذه حقيقة معروفة لدينا من مصادر أخرى ، وعلى الخصوص من قصائده مروية فى «تاريخ گزيدة » (١) حيث يذكر هذه العلوم ويضيف إليها الموسيقى والإلهيات والأحكام ، بل وكل علم نظرى أو عملى يعرفه واحد من معاصريه .

---

(١) أنظر هذه القصيدة وترجمتها فى ص ٧ — ٨ من مقالتى المنشورة فى مجلة الجمعية الأسيويه الملكية عدد أكتوبر سنة ١٩٠٠ عن «شعراء الفرس المذكورين فى كتاب تاريخ گزيده»
Biographies of Persian Poets contained in the Tarikh—i—Guzida J. R. A. S. October 1900.

والنص أيضا موجود فى طبعة لكنو على الحجر سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) ص ٧٠٤ و ٧٠٥ وفى ص ٨١٣ من طبعة «براون» المنشورة فى «سلسلة جب التذكارية» طبع لندن سنة ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) وهذه الأبيات هى التالية :

گرچه در بستم در مدح وغزل يكبارگى   ظن مبر كز نظم الفاظ ومعانى قاصرم
بلكه از هر علم كز اقران من داند كسى   خواه جزوى گير آنرا خواه كلى قادرم
منطق وموسيقى وهيأت شناسم اندكى   راستى بايد بگويم بانصيبى وافرم
در الهى آنچه تصديقش كند عقل صريح   گر تو تصديقش كنى در شرح وبسطش ماهرم
نيستم بيگانه از أعمال وأحكام نجوم   ور همى باور نداری رنجه شو من حاضرم

نشأة الأنورى :

والأنورى وفقاً لما يقوله دولتشاة (ص ٨٣ — ٨٦ من طبعتى) ولد فى قرية « مهنه » من قرى « أبيورد » فى صحراء « خاوران » ، ومن أجل ذلك تخلص فى البداية بكلمة « الخاورى » ثم غيرها فيما بعد إلى « الأنورى »

وقد حصّل علومه فى المدرسة المنصورية بمدينة « طوس » حيث قضى سنوات تعلمه فى فقر وإملاق ، وفى يوم من الأيام — كما تقول الروايات — مر بباب المدرسة رجل جليل الهيئة قد امتطى صهوة جواده ، وفى أثره كثير من الخدم والحشم ، فسأل الأنورى عنه فقالوا له : إنه شاعر . . . فقال الأنورى : « سبحان الله . . . ! أهكذا أظل فقيراً مسكينا وقد بلغت النهاية من العلم . . . ؟ ! ويكون هو غنياً مع ما يعرف من هوان أمر الشعر . . . ! ! قسما برب العزة والجلال لأجعلن الشعر شغلى بعد اليوم ولو أنه أقل مراتبى وأهون ما حصلت . . . »(١) . . . ثم انبرى فى هذه الليلة فأنشأ قصيدته المعروفة فى مدح السلطان « سنجر » ومطلعها :

گر دل ودست بحر وكان باشد　　دل ودست خدايگان باشد

ومعناه :

— إذا استطاع القلب والكف أن يكونا بحراً ومنجما للدرر والجواهر
فإن قلب المليك وكفه هما البحر والمنجم لما يجودان به من عطاء وافر . ! !

فلما أصبح الصباح تقدم إلى السلطان « سنجر » وأنشده قصيدته ، فاستحسنها السلطان وسأله عن الجزاء الذى يريده منه ، وهل يفضل الالتحاق بخدمته أم الحصول على عطاء مالى . . . ؟ ؟ فقبل « الأنورى » الأرض بين يديه وقال له بيته المشهور :

---

(١) المترجم : أنظر ص ٨٣ من « تذكرة الشعراء » وقد اعتمدنا فى الترجمة على الأصل الفارسى لأنه أقرب إلى الروح العربية .

جز آستان تو ام در جهان پناهی نیست

سر مرا بجز این در حواله گاهی نیست (١)

ومعناها:

— هذه أعتابك ... ولا ملجأ لى فى العالم إلا هذه الأعتاب ...

وهذا بابك ... ولا معتصم لرأسى إلا فى هذا الجناب ... ! !

عنـد ذلك أمر له « سنجر » بمرتب شهرى وبخلعة طيبة ثم استصحبه معه إلى مدينة « مرو ».

ويؤخذ من أبيات مروية فى تذكرة الشعراء (ص ٨٤) أن «خاوران» أنجبت أربعة من الأفاضـل ليس لهم خامس . أحدهم « الأنورى » وثانيهم « أبو على أحمد ابن شادان» الذى كان وزيرا لـ « طغرل بيك » وثالثهم الأستاذ «أسعد مهنة» من فحول العلماء المعاصرين للغزالى والمناظرين له ، ورابعهم الصوفى المعروف « أبو سعيد ابن أبى الخير » الذى ترجمنا له فيما سبق ؛ ونص هذه الأبيات كما يلى(٢) :

تا سپهر صيت گردان شـد بخاك خاوران

تا شـبانـگاه آمدش چار آفتـاب خاورى

خواجهٔ چون « بوعلى شـادان » وزير نامدار

عالى چون « أسعد مهنـه » ز هر شيئى برى

صوفىٔ صافى چو سلطان طريقت « بو سعيد »

شاعر قادر چو مشهور خراسان « أنورى »

وقد أقدم « الأنورى » رغم علو منزلته فى علم النجوم ، على إخراج حكم من أحكامها لم يتحقق ، وكاد يقضى على ما عرف عنه من منزلة وشهرة فى هذا العـلم . وتفصيل الخبر : أن الـكواكب السبعة السيارة اجتمعت على عهد « سنجر » فى برج الميزان ، فقرر الأنورى أنه سينتج من اجتماعهـا فى هذا البرج أن تثور العواصف فى هذا الشهر ، فتقتلع البنايات من أساسها والأشـجار من جذورها ،

---

(١) المترجم : الظاهر أن « حافظا الشيرازى » أخذ هذا البيت وجعله مطلعاً لغزل رقم ٤٠ من غزلياته . أنظر ترجمتى العربية المنشورة تحت عنوان « أغانى شيراز » .

(٢) المترجم : أضفنا هذه الأبيات بنصها الفارسى وليس لها ترجمة فى الأصل

وتخرب المدن والبلاد ... فخاف عوام الناس من هذا التقرير وحفروا السراديب ليحتموا فيها عند وقوع الواقعة . . . فلما حلت الليلة التى حددها « الأنورى » لم يثر من الريح ما يكفى لإطفاء شمعة أشعلوها ورفعوها على مئذنة من مآذن المدينة ... !! فلما عاتبوه على خطأ تقديره ، اعتذر بأن آثار القرانات لاتظهر فجأة ، وإنها تحتاج إلى شىء من المهلة والتدرج ... ولكن مضت على ذلك سنة كاملة والرياح على غاية من الهدوء والضعف بحيث لم يكف هبوبها لتذرية المحصول واضطروا إلى إبقائه فى بيادره على حاله حتى الربيع التالى . . . !!

وقد قال « فريد الكاتب » بيتين من الشعر بين فيهما بطلان حكم الأنورى ، هذا نصهما :

گفت انورى كه از جهت باد هاى سخت
ويران شود عمارت وكه نيز بر سرى
در روز حكم او نوزيدست هيچ باد
يا مرسل الرياح تو دانى وأنورى

وترجمتهما :

— قال الأنورى : إن الرياح العاصفة ستخرب العمارات وتقتلع الجبال ...
— فلما كان اليوم الذى حدده ، لم تهب الرياح بل سكنت ... فيا مرسل الرياح أنت أدرى بالحال . . . !!

وقال أيضا البيتين الآتيين فى هذا المعنى :

مى گفت أنورى كه درين سال باد ها
چندان وزد كه كوه بجنبد تو بنگرى
بگذشت سال وبرگ نجنبيد از درخت
اى مرسل الرياح تو دانى نه انورى

ومعناها :

— قال الأنورى إن الرياح ستهب فى هذا العام بشدة بحيث تزحزح الجبال عن مكانها
— فانقضى عام بطوله ولم تحرك الرياح أوراق الأشجار ... فيا مرسل الرياح أنت عالم بحالها ... لا الأنورى !!

والمشهور أن قران الكواكب الذى أشار إليه « الأنورى » وقع فى شهر رجب سنة ٥٨١ هـ (أكتوبر سنة ١١٨٥ م) أو فى السنة التالية كما أشار إلى ذلك « إتيه »[١] ، وعلى ذلك يكون موت الأنورى قد حدث بعد هذا التاريخ قطعاً ؛ لا كما يقول أصحاب كتب التراجم من أقوال متناقضة (ربما تتناقض باختلاف الأمكنة من الكتاب الواحد) حينما يجعلون وفاته بين سنة ٥٤٥ هـ و ٦٥٦ هـ = ١١٥٠ — ١٢٥٨ م) .

وخير رسالة كتبت عن « الأنورى » هى التى نشرها الأستاذ « ڤالنتين زوكوفسكى Valentin Zhukovski » فى مدينة « بتروغراد » سنة ١٨٨٣ بعنوان « أوحد الدين الأنورى » .

ومن أسف ، أن هذه الرسالة مكتوبة باللغة الروسية ، ومن أجل ذلك فهى عسيرة على أغلب المستشرقين ، ولكن الدكتور « برتش W. Pertsch » أصبح يدينا بفضل جديد هو أنه لخص لنا الجزء المتعلق بحياة الشاعر ونشره فى الجزء الثانى من « الصحيفة الأدبية للفيلولوجيا الشرقية . ليبزج ١٨٨٤ » :

Litteratür— Blatt für orientalische Philologie, Leipzig, 1884

والرسالة الروسية الأصلية تحتوى على : مقدمات من ٢٤ صحيفة و ١٤٦ صحيفة فى صلب الموضوع ثم ٩٠ صحيفة من النصوص الفارسية ، وتشتمل على الفصول الآتية :

مقدمة ا — ز

تمهيد خ - خ

---

(١) يشير ابن الأثير إلى أن هذا القران وقع بين خمسة كواكب (لا سبعة) فى ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٥٨٢ هـ (١٦ سبتمبر سنة ١١٨٦م) ويشير إلى أحكام المنجمين وخطأهم بقوله : « كان المنجمون قديما وحديثا قد حكموا أن هذه السنة فى التاسع والعشرين من جمادى الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة فى برج الميزان ويحدث باقترانها رياح شديدة فلم يكن لذلك صحة ولم يهب من الرياح شىء البتة حتى أن الغلال (الحنطة والشعير) تأخر تجازها لعدم الهواء الذى يذرى به الفلاحون . فأكذب الله أحدوثة المنجمين وأخزاهم ... » .

أما الجزء الثانى الذى يشتمل على النصوص الفارسية فقوامه ما يأتى :

ويجب العناية بوجه خاص — فيما جمعه «ژوكوفسكى» من أخبار عن الأنورى — بالجدول الذى أورده فى ص ٢٩ ، ويبين فيه التواريخ المختلفة لوفاة هذا الشاعر وفقا لاختلاف المصادر ، وكذلك ببيان الكتب الفارسية والعربية التى تبلغ ستين كتابا ، وهى الكتب التى أشار اليها «أبو الحسن الفراهانى» فى شرحه لأشعار الأنورى (ص ٧٩ — ٩٦) .

أما تاريخ وفاة الأنورى فبيانه كما يبدو فى الجدول الآتى :

اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ التأليف	تاريخ وفاة الأنورى
آتشكده : كما ذكر «ژوكوفسكى»	لطفعلى بيك	١١٨٠ هـ = ١٧٦٦ — ١٧٦٧م	٥٤٥هـ = ١١٥٠ — ١١٥١م
آتشكده طبع ببمباى سنة ١٢٧٧هـ =	» » »	» » » »	٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م
١٨٦٠ م			٦٥٩ هـ = ١٢٦١
تقويم التواريخ	حاجى خليفة	١٠٥٨هـ=١٦٤٨م	٥٤٧ هـ = ١١٥٣ م
تذكرة الشعراء	دولتشاه	٨٩٢ هـ =١٤٨٦م	٥٤٧هـ = ١١٥٣ — ١١٥٣م
			وفى بعض المخطوطات نجد سنة
			٥٤٨ هـ أو ٥٥٦ هـ
مرآة الخيال	شيرخان لودى	١١٠٢ هـ = ١٦٩٠م - ١٦٩١م	٥٤٩هـ = ١١٥٥ م
هفت إقليم	أمين أحمد رازى	١٠٠٢ هـ = ١٥٩٣م — ١٥٩٤م	٥٨٠ هـ = ١١٨٤م — ١١٨٥م
المجمل	فصيحى خوافى	٨٤٥ هـ = ١٤٤١م — ١٤٤٢م	٥٨٥ هـ = ١١٨٩م — ١١٩٠م
خلاصة الأشعار	تقى خان كاشانى	٩٨٥ هـ = ١٥٧٧م — ١٥٧٨م	٥٨٧ هـ = ١١٩١م
مرآة العالم	محمد بختاور خان	١٠٧٨ هـ = ١٦٦٧م - ١٦٦٨م	٥٩٢ هـ = ١١٩٦ م
	d' Herbelot and Stewart		٥٩٧ هـ = ١٢٠٠م — ١٢٠١م

ويلاحظ القارىء أن أغلب هذه الكتب حديث التأليف ، لا يستثنى من ذلك إلا كتابان اثنان هما « المجمل » و « تذكرة الشعراء » اللذان يرجعان إلى القرن التاسع الهجرى . (النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى) . أما الكتب القديمة التى كنا نتوقع منها أن تذكر «الأنورى» ، فإننا نجد أن كتاب «چهار مقاله» لا يذكره مطلقا ؛ أما كتاب «تاريخ گزيده» تأليف حمدالله المستوفى (فى سنة ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠ م) فقد تحدث عنه ولكنه لم يذكر تاريخ وفاته ؛ وكذلك فعل كتاب «لباب الألباب» تأليف «محمد عوفى» (فى بداية القرن السابع الهجرى = ١٣ الميلادى) ؛ وكذلك فعل أيضا الكتاب العربى المعروف باسم « آثار البلاد » تأليف القزوينى (طبعة وستنفلد Wüstenfeld ص ٢٤٢ تحت كلمة «خاوران» فوصف شعر الأنورى بأنه : «غاية فى الحسن وهو ألطف من الماء وشعره بالعجمية كشعر أبى العتاهية بالعربية » وهذه المقارنة بين شعر «الأنورى» وشعر أبى العتاهية مقارنة فى غير موضعها كما يبدو لى .

وليس فى أيدينا إلى الآن أى مصدر يمكن أن نعتمد عليه فى تقرير التاريخ الذى ولد فيه «الأنورى» أو التاريخ الذى توفى فيه ؛ ومع ذلك فالأسباب التى بيناها آنفا تقطع بأن وفاته قد وقعت فى سنة ٥٨١ هـ ، أو بين سنتى ٥٨٥ و ٥٨٧ هـ (١١٨٩ — ١١٩١ م) كما أشار بذلك المستشرقان «ژوكوفسكى» و « إتيه» .

وقبل أن نسير قدما فى دراسة هذه الرسالة الممتعة التى كتبها «ژوكوفسكى» نرى من الواجب علينا أن نشير إلى رسالة أخرى كتبها « مسيو فرتيه M . Ferté »عن الأنورى أيضا ، ونشرها فى «المجلة الأسيويه Journal Asiatique » فى عدد مارس ابريل سنة ١٨٩٥ م (مجموعة ٩ مجلد ٥ ص ٢٣٥ — ٢٦٨) . ولكن هذه الرسالة لن تعوقنا طويلا لعدم أهميتها ، والظاهر أن مؤلفها كتبها دون أن يطلع على ما كتبه «ژوكوفسكى» أو «رتش» فاكتفى بأن يترجم بعض قصائد «الأنورى» المعروفة وأن يسوق بعض النوادر المتصلة به مما رواه كتاب التراجم ومما يكون مشكوكا فى صحته عادة .

يبدأ «ژوكوفسكى» كتابه بمقدمة يصف فيها المصادر التى استطاع جمعها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان الأسباب التى دعته إلى اختيار القصائد الست التى نشرها فى

بهاية الكتاب. وأول هذه القصائد هي أيضا الأولى وفقا لطبعة «لكنو» ومطلعها:

باز اين چه جوانى وجمالست جهان را   وين حال كه نو كرد زمين را وزمان را

ومعناه :

— أنظر ثانية . . ما أبدع نضرة العالم وجماله وشبابه الفتان . . . ! !

وما أبدع هذه الحال التي جددت المكان والزمان . . . ! !

ويقول «ژوكوفسكى» إنه اختار هذه القصيدة لأنها من أشهر قصائد «الأنورى» ولأنها من أصعبها وأكثرها تعقيدا ولأن « أبا الحسن الفراهانى » كتب عليها شرحا مطولا ، استطاع « ژوكوفسكى » أن يطبعه مع نصها ويضيفه إلى كتابه .

أما القصيدة الثانية فمطلعها :

اگر محول حال جهانيان نه قضاست   چرا ماجراى احوال بر خلاف رضاست

ومعناه :

— إذا لم يكن القضاء هو محول حال الناس ،

فلماذا تكون الأحوال على غيرما نرضى ونهوى .. ؟ !

ويقول « ژوكوفسكى » إنه نشر هذه القصيدة لأن « نيكولاس : Nicolas » ترجمها قبله ولم يستطع فهمها فأساء تصوير حال « الأنورى » وفقا لما ذهب إليه من ترجمة خاطئة ... !

أما القصيدة الثالثة فهى التي سبق ذكرها ومطلعها :

گر دل ودست بحر وكان باشد   دل ودست خدايگان باشد

ومعناه :

— إذا استطاع القلب والكف أن يكونا بحرا ومنجما للدرر والجواهر ...

فإن قلب المليك وكفه هما البحر والمنجم.. لما يجودان به من عطاء وافر... ! !

ويقول « ژوكوفسكى » إنه اختارها لأنها تعتبر من أوائل ما قاله « الأنورى » ومن أكثر قصائده جمالا وروعة .

أما القصيدة الرابعة فقد نشرها « كركپاتريك Kirkpatrik » مع ترجمة إلى اللغة الإنجليزية بعنوان « دموع خراسان The Tears of Khurasan » في المجلة

الأول من كتاب « Asiatic Miscellany » ص ٢٨٦ وما بعدها (طبع كلكتا لسنة ١٧٨٥ م) ومطلعها :

برسمرقند اگر بگذری ای باد سحر   نامهٔ اهل خراسان به بر سلطان بر

ومعناه :

— يا نسيم السحر .. إذا مررت بمدينة سمرقند ... ! !

فاحمل رسالة أهل خراسان إلى حضرة السلطان ... ! !

ويقول « ژوكوفسكى » إنه اختار هذه القصيدة لما اشتملت عليه من أخبار تاريخية ومشاعر إنسانية بالإضافة إلى ما لها من شهرة عريضة وصيت ذائع .

أما القصيدة الخامسة فهى التى مطلعها :

* اى برادر بشنو این رمزى ز شعر وشاعرى *[1]

ومعنى هذا المصراع :

— أيها الأخ ... استمع إلى حديث رمزى عن الشعر والشاعرية ... ! !

ويقول « ژوكوفسكى » إنه اختارها لأنها تحتوى على اعتراف الشاعر صراحة بذم الشعر وأهله .

أما القصيدة السادسة فهى التى مطلعها :

أى مسلمانان فغان از دور چرخ چنبرى   وز نفاق تير وجبر ماه وكيد مشترى

ومعناه :

— واويلاه ... أيها المسلمون ... ! ! من دورة الفلك الدائر ..

ومن نفاق المريخ وأفعال القمر وكيد المشترى ... ! !

---

(١) المترجم : فى نسخة خطية اشتريتها من طهران يختلف هذا المطلع قليلا فيرد بالصورة التالية :

اى برادر بشنوى رمزى ز شعر وشاعرى   تا ز ما هستى گدا كس را بى مردم تشمرى

ويقول «ژوكوفسكى» إنه اختارها لأنها من آخر ما نظمه «الأنورى» من قصائد رائعة ، هذا بالإضافة إلى ما اشتملت عليه من أخبار متعلقة بحياته .

وقد اختار «ژوكوفسكى» أربع غزليات فقط من غزليات «الأنورى» واعترف بأنه اختارها بطريق المصادفة لأنه يعتبر سائر غزلياته متساوية من حيث الصنعة والمعنى .

وقد أتبع «ژوكوفسكى» مقدمة كتابه بتمهيد بين فيه مركز الشاعر المحترف فى إيران فى هذه الفترة على الخصوص ، ووضح فيه الحاجة الملحة التى كانت تدفع الشاعر إلى العمل ليحصل على المال اللازم له ، مما يجعله يكرس مجهوداته للأشعار السياسية ومدح الأمراء والكبراء ، وإن كان يتخلل هذا المدح عادة شىء من التهكم بخصومهم لأن التهكم من مستلزمات المدائح على العموم

ويقول «ژوكوفسكى» إن استعمال البديع فى النظم — دون استعماله فى الشعر بمعناه الحقيقى — كان نتيجة لتزاحم «شعراء الملوك» الذين كانوا يقومون إلى حد ما بمهمة الصحفيين فى الوقت الحاضر وكذلك بمهمة الندماء والمهرجين . فقد كان شاعر القصر يكتب من أجل المال ، وربما تحدث عن ذلك صراحة كما قال الشيخ «أبو زراعه المعمرى الجرجانى» لممدوحه : «إذا أعطيتنى واحدا من ألف مما كان يناله الرودكى من عطاء الملوك ، فسأنظم فى مدحك من القصيد ما يفضل قول الرودكى ويعلو عليه ألف مرة . . . !! »(١) وكان يطلب من الشاعر أن يبرهن على أنه كفء للقول فى كل مناسبة تعرض لممدوحه ؛ فعليه أن يقول فى الفرح والمرح ، وأن يقول فى الحزن والترح ، وأن يهنىء مليكه بسلامة بصره لأنه استطاع أن يرى الهلال الجديد يعلن انتهاء شهر الصيام ، وأن يسليه إذا سقط عن ظهر جواد جامح أو إذا رمى

---

(١) المترجم: أنظر ص ١٠ من ج ٢ من «لباب الألباب» حيث يقول :

اگر بدولت با رودكى نمى مانم — عجب مكن سخن از رودكى نه كم دانم
اگر بكورى چشم او بيافت گيتى را — ز بهر گيتى من كور بود نتوانم
هزار يك زآن كو يافت از عطاء ملوك
بمن دهى سخن آيد هزار چند انم

السكعبتين خرجتا بغير ما يريد ، أو إذا انهزم أمام عدوه في الموقعة [١] أو إذا أحس بألم في الأسنان أو ماشابه ذلك من أغراض كثيرة . . . !!

ويذكر « ژوكوفسكي » نقطة أخرى لها غرابتها وطرافتها ، وهي أن كل شاعر شهير كان له في العادة راو يقوم برواية أشعاره وترويجها بين الناس . فذكر عن « الفردوسي » مثلا أن راويه هو « أبو دلف »[٢] ، كما أن « أبا الفرج الروني » قال في بيت من الشعر ذكره «ژوكوفسكي» مامعناه : «لقدأنشد راويّ في حضرتك ماقلته في فتح مرو ونيسابور » وكذلك فعل «مسعود بن سعد بن سلمان» حين أمر راويه «خواجه أبو الفتح» كما يقول ژوكوفسكي: ألا يظهر مواطن الضعف في أشعاره بل يجتهد في أن يزيل هذه المواضع بما يضفيه عليها حسن صوته من جمال، وبما تكتسبه من بهاء بواسطة إنشاده الذي يثير القلوب والمشاعر ... !!

ولعل الغموض الذي يسربل كثيرا من مدائحه المصنعة يجعل من الضروري على القارىء أن يستعين بشروح مستفيضة مفصلة حتى يتمكن من فهمها وإلا فإنه سيضطر في النهاية إلى أن يكتفي بقول العبارة المعروفة « إن معنى الشعر في بطن الشاعر » ..

ويختم « ژوكوفسكي » كلمته التمهيدية بأن يحاول أن يميز بين ثلاثة عصور مختلفة في تطور الشعر الفارسي حتى نهاية العصر السلجوقي الأول ، وهي العصور الآتية :

العصر الأول : عصر القصص الحماسي Epic الذي صاحب النهضة الفارسية القومية على أيام السامانيين ، وأنتج الشاعر الكبير الفردوسي .

---

(١) أنظر الرباعي الذي أنشده «فريد الدين الكاتب» للسلطان «سنجر» عند انهزامه أمام جيوش الـ «قرة خطاى» ص ٤٥٩ من «تاريخ گزيده» حيث يقول :

شاها ز سنان تو جهان شد راست تيغ تو چهل سال زاعدا كين خواست
ور چشم بدى رسيد آن هم ز قضاست كانكس كه بيك حال بماند ست خداست

ومعناها :

— ايها الملك .. ان العالم استقام بسيفك . وقد انتقمت من أعدائك أربعين عاما بحد سنانك .
— فإذا أصابتك عين السوء فذلك من فعل القضاء .. لأن الذي يبقى على حال واحدة هو الله سبحانه وتعالى . . . !!

(٢) أنظر ما كتبه « نولدكه » في Iranisches Nationalepos وكذلك «چهارمقاله» ص ٤٨

والعصر الثانى : عصر المدائح المشتراة Venal Panegyric التى ثار عليها الشاعران « ناصر خسرو » و « عمر الخيام » .

والعصر الثالث : عصر الشعر الصوفى Mystie Verse وهو الذى ينتهى إليه المداحون الذين لاتتحقق آمالهم وتتكشف أطماعهم عن سراب، ومن هؤلاء «سنائى» وكذلك « الأنورى » وإن كان متأخرا قليلا .

والأخبار المتصلة بحياة « الأنورى » مقتضبة أشد الاقتضاب . ولكن « ژوكوفسكى » استطاع أن يكتب فى الفصل الأول من كتابه مقالة وافية عن حياة الشاعر، ربما كانت أوفى ما نستطيع أن نكتبه عنه حتى الآن، وقد استعان فى كتابتها بكتب التراجم الثمانية التى ذكرناها آنفا (١) بالإضافه إلى ما استطاع أن يستخرجه من قراءة ديوان الشاعر نفسه .

أما مولد « الأنورى » وصباه فلا نعرف عنهما شيئا على الإطلاق . وأما إنه كان فى شبابه طالبا جادا فى تحصيل العلم كما يشير إلى ذلك كتاب التراجم ، وأنه كان ملما بكافة العلوم التى يعرفها أهل عصره، فذلك يؤكده ما كان يبديه فى شعره من استشهاد يدل على معرفة تامة بشعب العلوم المختلفة وبما ذكره صراحة فى مقطوعة معروفة سبق لنا ذكرها ومطلعها :

گرچه در بستم در مدح وغزل يكبارگى
ظن مبر كز نظم ألفاظ ومعانى قاصرم (٢)

---

(١) هى المذكورة فى الجدول السابق فى صحيفة ٤٦٩ من هذا الكتاب

(٢) هذه المقطوعة تشتمل على ١٩ بيتا وهى موجودة فى ص ٣٠٧ من ديوان أنورى طبع تبريز سنة ١٢٦٦هـ وكذلك باختلاف فى ترتيب الأبيات فى ص ٧٠٤ — ٧٠٥ من طبعة لكنو سنة ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) وستة أبيات منها مروية فى «تاريخ گزيده» ص ٨١٣ وفى كتاب ژوكوفسكى ص ٦ — ٧ .

ويقول الأنورى فى بيت آخر من الشعر (ص ٨٧ من طبعة لكنو) ما معناه : «إذا اختبرتنى فى أى فرع من فروع العلوم لوجدت أنى أدركت فيه مرتبة الكمال » .

ومعناه :

— إننى أغلقت باب المدح والغزل دفعة واحدة .

ولكن حذار أن تظن أننى عاجز عن نظم الألفاظ والمعانى .. ؟!

وفى قطعة أخرى رواها « ژوكوفسكى » (فى ص ٧) يفخر الأنورى بتبريزه فى جملة من الهوايات مثل الخط والشطرنج والنرد ومعرفة أشعار الأوائل والأواخر والقدرة على التهكم والهجاء والسباب . . ! ! وقد أكد لمولاه أنه سوف لا يمل مجلسه لإنه امتاز بسعة فى ثقافته وتشعب فى نواحى معلوماته .. ! !

وواضح أيضاً أن كتاب التراجم كانوا مصيبين حين قرروا أن «الأنورى» كان يغض من شأن الشعر ولكنه فى الوقت نفسه كان يغرق فى إعلان مواهبه فيه كشاعر من الطراز الأول . فهو يقول فى بيت من الشعر (يغلب على ظنى أن نصه الصحيح هو المنشور فى الجزء الثانى من لباب الألباب ص ١١٧) . « أنه مساو للشاعر سنائى وإن كان لم يصل إلى مرتبة أديب صابر » .

« چون سنائى هستم آخر گرنه همچون صابرم »(١)

وسنائى كما نعلم شاعر من الطراز الأول ، وهو أكثر شهرة من « أديب صابر » ولكن « الأنورى » رفع من قدره لأنه كان يمدح السلطان «سنجر» وقد قتل فى النهاية وهو قائم بعمله يؤدى لسيده خدمة من الخدمات .

وفى هذه القصيدة نفسها يقول « الأنورى» بيتا معناه :

— لقد أصبح يستهان بالنبوغ فى هذه الأيام .. وإلا لشهدت أشعارى بأنى لست شاعراً بل ساحراً ... !!

خود سزد در عهد با عيبست اگرنه اين سخن
ميكند برهان كه من شاعر نيم بل ساحرم

ويقول فى موضع آخر (طبعة لكنو ص ٦٩٤) :

---

(١) هذا النص يختلف عن النص المطبوع على الحجر من «لباب الألباب» وهذا النص الأخير لو ترجم لكان معناه هكذا : وأنا لست مساويا للشاعر «سنائى» ولا للشاعر « أديب صابر »

— إن لى روحا متقدة كالنيران ، ولسانا عذبا كالماء .
وعقلا حادا ، وذكاءا مفرطا ، وأشعارا خالية من الخلل والهراء ... !!
— ولكن وا أسفا ... لست أجد ممدوحا جديراً بهذا الثناء
ولا معشوقا أستطيع أن أوجه إليه هذا الغزل فى صفاء ... !!
خاطري چون آتشم هست وزباني همچو آب
فكرت تيز وذكاء نيك وشعرى بي خلل
اى دريغا نيست ممدوحى سزاوار مديح
وى دريغا نيست معشوقى سزاوار غزل

وفى موضع آخر (ص ٦٨٨) يعلن الأنورى أن أشعاره تجوب أنحاء العالم كالحمام الزاجل ، وأن أسلوبه هو بإجماع الآراء أجمل أساليب معاصريه (ص ٣٤) .

وعلى العكس من ذلك يتحدث «الأنورى» عن صناعة الشعر فيقول : (ص ٧٣٠)
— يا أنورى ... هل تعرف ما هو الشعر وما هو الحرص والطمع فى المال .. ؟
أما الأول فطفل رضيع ... وأما الثانى فمرضعته ... !!
— وأنت كالديك ... لك تاج من العلم فوق رأسك
ولكن هل لك أن تخبرنى لماذا تبيض كالدجاج .. ؟!
أنورى شعر وحرص ذانى چيست ..؟! آن يكى طفل ، وان دگر دايه
تاج دارى خروس وار از علم چكنى همچو ما كيان خايه ... !!

ثم هو يلزم نفسه بعد ذلك بأن «يطوح بقاذورات الشعر للرياح الذارية ... !!» .
وهناك قطعة أخرى ممتعة تدل على صدق ما قرره كتاب التراجم عن الأسباب التى دعت « الأنورى » إلى هجر العلوم والاشتغال بالشعر وهى مذكورة فى نهاية ص ٦٢٩ من طبعة لكنو ويقول فيها :
— مادام جاهى سيرتفع بقول المدح والقريض
فلماذا أحرق روحى وأضنيها فى نيران التفكير العميق ... ؟ !
— ولقد ضيعت عشرين عاما من عمرى فى «لعل وعسى »
ولكنى تحققت بعد ذلك أن الله لن يمنحنى عمر نوح الطويل ... !؟

— ومن أجل ذلك فسآخذ نفسي بالروية ، وأثني عناني
إذا لم أجد باب القبول مفتوحا أمامي . . . !!
— فإذا لم يمنحوني العطاء الجزل لمدحي إياهم
فسأحطم بالهجاء كل من مدحته حتى أخرج الدماء من رأسه . . . !!

چو آبروى بيفزايدم بمدح وغزل چرا بآتش فكرت همى بكاهم روح
بياد بوكه وبكه بيست سال بر دادم مرا خداى ندادست زندگانى نوح
عنان طبع ازين پس كشيده خواهم داشت
اگر گشاده نه بينم در قبول وفتوح
وگر عطا ندهندم بر آرم از پس مدح
بلفظ هجو دمارا از سر چنين ممدوح

ويقول الأنورى فى نهاية ص ٤١ «إن الاستجداء هو وسيلة الشعراء » گدائى شريعت شعراست) ولكنه على استعداد للهجاء اللاذع إذا لم يفلح الاستجداء فى أن يعود عليه بما يريد من عطاء ....!! ومع ذلك فهو يحس بكراهية شديدة لحياة القصور والحاشية ، وإن كان يعود فى ثورة جامحة على زمانه ، فيعترف من ناحية أخرى ، بأن حياة القصور وحدها للأسف هي الكفيلة بأن تدر عليه المال الوفير ، بينما حياة الجد والاجتهاد لا تفيده شروى نقير ..!! (أنظر ص ٧١١)

— ليس من الحق أن أتعب قلبي وروحي من أجل أن أكتسب آداب الندماء....!! (أى رجال القصور) .
— فأحرك لساني بالنثر والنظم ، وأبعث الأفكار العذارى من عقلي وخاطري..!
— لأن الندماء ينتهى بهم الأمر فى العادة إلى تلقى اللطمات وتلقى كلمات الازدراء والسباب ... !!

نشايد بهر آداب نديمى دگر بر جان ودل زحمت نهادن
زبان كردن بنظم ونثر جارى ز خاطر نكتهائى بكر زادن
كه باز آمد همه كار نديمان بسيلى خوردن ودشنام دادن

ويقول فى سوء معاملة الحظ لرجال العلم (ص ٣٩ سطر ٦) :

— وهل يمكن لفرد أن يعلم كيف أن هذا الفلك العجوز الأحدب مولع بإيذاء العلماء . . . ! !

کس چه داند کین کوژ پشت مینا رنگ
چگونه مولع آزار مردم داناست

وعلى هذا فقد كان الأنورى « طالب علم » باستعداده ومواهبه ، وشاعرا بصناعته ومهنته ، فتوزعت نفسه بين ما يمليه عليه استعداده وما تقتضيه منه صناعته . ولم يستطع أن يقنع بنصيب العالم من الفقر ، أو أن يهدأ إلى النفاق الذى تضطره إليه حياة القصور والملوك . وتحقق فيما بينه وبين نفسه ما تجلبه عليه أقواله من تعريض وزراية فازدرى نفسه وطريقة حياته ؛ وتاق إلى أن يعيش كما يعيش «ابن سينا» ولكنه اضطر اضطرارا إلى أن يعيش حياة مشابهة لحياة «أبى نواس» .

وقد قال إنه من الواجب على الشاعر ألا يقول الشعر بعد الخمسين (ص ٧٢٥) ولكنه هو نفسه ظل يقرض الشعر أربعين سنة على الأقل ؛ فقد ذكر فى إحدى قصائده (ص ٦٣٦) إنه قالها فى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ — ١١٤٦ م) ثم ظل يقول الشعر بعد خيبته المعروفة فى إصدار الحكم الذى استوحاه من اجتماع الكواكب فى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ — ١١٨٦ م) . ولكنه على ما يظهر نجح فى نهاية أيامه عند ماثار عليه أهل « بلخ » (دون جريرة ارتكبها) فى تطليق حياة القصور وترك خدمة الملوك والأمراء : والعودة إلى حياة العلم والعزلة والاعتكاف ، وهى الحياة التى طالما منى نفسه بها وأحبها .

وهناك بعض القصائد التى تقوم دليلا على صحة هذا القول وخاصة المقطوعة التى نشرتها مع ترجمتها الإنجليزية (ص ٨ — ١٠) فى مقالتى عن «حياة شعراء الفرس المذكورين فى تاريخ گزيده» . وهى المقالة التى نشرتها فى « مجلة الجمعية الأسوية الملكية» سنة ١٩٠٠ — ١٩٠١ م ؛ فهو يذكر فى هذه المقطوعة (فى شىء من الإخلاص) مقدار الهدوء والراحة اللذين ظفر بهما فى كوخه المتواضع حيث لا زاد له إلا الخبز الجاف وقليل من الأدام ، وحيث لا كأس له ولا مطرب إلا المحابر والأقلام . . . ! !

وهو يردد هذا المعنى فى موضع آخر (ص ٧٣٣ من طبعة لكنو سنة ١٨٨٠ م) .

— يا ربى ... بدل هذه النعم التى أغدقتها على
أعطنى القناعة بالحق، ورزقا طاهرا ؟ وزادا نظيفا
— واجعل قوام حياتى الأمن والصحة والطاعة
ورغيفا وخرقة مهلهلة والاعتكاف فى ركن من الأركان الهادئة ... !!

يا رب بده مرا بدل نعمتى كه بود جز سندى حقيقت وپاكيزه توشه
امنى وصحتى وپسنديده طاعتى نانى وخرقه ونشستن بگوشه

و«السيد نور الله الشوشترى» ، مؤلف كتاب «مجالس المؤمنين» الذى احتوى على تراجم كثير من أهل الشيعة وتم تأليفه حوالى سنة ١٥٨٦ م ، يعتبر «الأنورى» واحدا من شعراء الشيعة ، ولكن هناك مقطوعات فى ديوانه فى مدح « عمر » إذا ثبتت صحتها ونسبتها إليه كان الأمر على خلاف ما قال الشوشترى . هذا بالإضافة إلى أنه لا يمكن أن يعقل أن شاعراً من شعراء السلاجقة الذين كانوا من أهل السنة يستطيع أن يتغاضى عن هذه الحقيقة فيقدم على مدح مذهب الشيعة وهو عارف أن أسياده يكرهونه ويبغضونه كل البغض .

ويقول الأنورى فى إحدى مقطوعاته الواردة فى ص ٥٣ : « أن سيف الدين عمر» مفتى بلخ هو الإمام الذى اختاره الإسلام فورث عدل «عمر» وصلابته .. !!

صفى ملت اسلام وصدر دين خداى عمر كه وارث عدل وصلابت عمر است

ويقول فى مقطوعة ثانية واردة فى ص ٧٤ «إن الاسلام ظهر على يدى عمر» .

بدليرى وهيبت عمرى كه ظهور شريعت از عمر است

ويقول فى مقطوعة ثالثة:

— إن الكفر قد انمحى على يدى محمد وعمر وقد بعثت أنت أيامها من جديد.

وعندما كان الأنورى ملتحقا بخدمة الملوك لم يمتنع عن شرب الخمر ، بل نجده فى إحدى مقطوعاته (ص ٦٨٨ القطعة الثانية سطر ٤ ـ ٥) يقول : «هل لك أن تدلنى على طريقة أستطيع بها أن أعتذر عن شربى للخمر وإحساسى بالقيء والخمار » .

هيچ دانى چگونه خواهم داشت عذر فى كردگى ومستى خويش

وفى مقطوعة أخرى (ص ٦٩٨) يقول :

— أنت تعلم . . . يامولاى . . . أنى مريض بالنقرس ، ومن أجل ذلك فإنى (رغم حبى للخمر) امتنع عن كل ما هو لاذع حريف . . !!

— فلما سألتك كاساً من الشراب أعطيتنى كأسا من الخل الحامض الحريف ، فلو أنى شربته لقمت فى يوم مقيامة كاللحوم المتبلة . (المصوص)

— فأين ساقيك الوغد ... ؟! حتى أستطيع أن أهرق فى أنفه وأذنيه كأسا مترعة . . . !!

بزرگوارا دانی .كز آفت نقرس
ز هر چة ترشى من بندهٔ مى بپرهيزم
شراب خواستم وسركهٔ كهن دادى
كه گر خورم بقيامت مصوص بر خيزم
شراب دار تو آخر كجاست تا قدحى
بگوش وبينى آن قلتبان فرو ريزم

هذه هى الحقائق المجردة التى استطعت أن أصل إليها من نظرتى العاجلة لديوان الأنورى ، ولـكنى على ثقة من أن الدراسة الدقيقة لنص صحيح من هـذا الديوان ـ وهو مازلنا فى حاجة إليه إلى الآن ـ ستـكشف لنا عن تفاصيل جديدة عن حياة هذا الشاعر وعن كثير من الأسانيد التى يمـكن أن نحـكم بها على عقليته ونفسيته . فلنـكتف الآن بهذا القدر ولنعد إلى الحـكايات التى رواها عنه كتاب التراجم والتواريخ ، فهى وإن كانت تافهة القيمة بحيث لا يمـكن الاعتماد عليها كثيراً ، إلا أنه لا يمـكن إهمالها جملة والغض من شأنها غضا تاما .

ومن أهم الروايات المعروفة الرواية التى رواها كتاب « حبيب السير » (مجلد ٢ جزء ٤ ص ١٠٣ـ١٠٤ من طبعة بمباى سنة ١٨٥٧م) عن اتصال الأنورى بسنجر قصتها مخالفة للرواية التى ذكرتها المصادر الأخرى . وهى تقول إن «المعزى» كان أميرا للشعراء فى ذلك العهد ، وكان موكولا إليه مقابلة الشعراء الذين يريدون أن يرفعوا قصائدهم إلى السلطان ومنع من لم تسم مواهبهم عن التشرف بالمثول بين يديه ،

فابتدع «المعزى» حيلة مخزية يستطيع بها أن يقصى غيره من الشعراء الذين كان يخشى منافستهم له . . . ذلك أن ذاكرته كانت قويه على الحفظ بحيث كان يستطيع أن يعيد على التو أية قصيدة بعد سماعها مرة واحدة ، وكان له ابن يستطيع أن يعيدها بعد سماعها مرتين ، كما كان له خادم يستطيع إعادتها بعد سماعها ثلاث مرات . فاذا تقدم إليه شاعر يريد التشرف بالمثول بين يدى السلطان ، فإنه يأذن له أن ينشده قصيدته برمتها فإذا فرغ منها التفت إليه المعزى وقال له : «إننى أنا قائل هذه القصيدة ، وسأبرهن لك على صحة قولى بإنشادها لك ثانية ... » ثم يأخذ فى إنشاد القصيدة ؛ فاذا أعادها التفت إلى ابنه وقال : « وابنى أيضا يحفظهما عن ظهر قلب . » فيأخذ ابنه أيضا فى إنشادها وإعادتها على مسامع الحاضرين ، فيلتفت معزى إلى خادمه ــ كما فعل مع ابنه ــ فيأمره بإعادتها لثالث مرة ثم يأمر بطرد الشاعر المسكين بتهمة أنه شاعر وضيع يغير على أشعار غيره فينتحلها لنفسه ...!! وضاق الشعراء ذرعا بهذه الحيلة التى ابتدعها «المعزى» إلى أن بلغ الأمر «الأنورى» فألقى دلوه فى الدلاء لعله فاعل شيئا أومتدبر أمرا ، فتقدم إلى «المعزى» فى ثياب رثة مهلهلة وأخذ ينشده أشعارا مضحكة تافهة ، فاستثار بمظهره وشعره هزء الحاضرين وسخريتهم ، وظن «المعزى» أنه مهرج ماجن ولم يستشعر شيئا من الخطر يهدده إذا قدمه إلى السلطان، فوعده بذلك فى اليوم التالى . فلما حان الموعد الذى ضرب له تقدم «الأنورى» فى ثياب محترمة وأنشد البيتين الأولين من قصيدته التى مطلعها :

گر دل ودست بحر وكان باشد　　دل ودست خدا يگان باشد

ثم توقف عن الإنشاد والتفت إلى «المعزى» وقال له «أتمم إنشاد هذه القصيدة إذا كنت سمعتها قبل ذلك ... وإلا فاعترف أنها من إنشائى ...!! »

فذهل « المعزى » لهذه المفاجأة واعترف للأنورى بحسن حيلته وقوة بديهته

وهذه القصيدة نفسها تشهد بأن «الأنورى» كان يشتغل بقول الشعر قبل ذلك ببضع سنين ، فهو يقول فيها :

خسروا .. بنده را چو ده‌سال است　　كاش همى آرزوى آن باشد

گنز نديمان مجلس ار نبود   از مقيمان آستان باشد

ومعنى هذين البيتين :

ـ أيها المليك ...! لقد كانت الرغبة الوحيدة لعبدك منذ عشر سنوات

ـ أن يكون واحدا من ندماء مجلسك ، فإذا لم يستطع،فليكن مقيما على أعتاب بابك ... !!

ومهما كان من أمر ، فإن كلمات «الأنورى» تشهد بأنه نال استحسان الملك ورضاه فهو يقول :

انورى را خدا يگان جهان

پيش خود خواند ودست داد ونشاند

باده فرمود وشعر خواست ازو

. . . .

وترجمتها :

ـ فدعا مليك العالم شاعره « الأنورى» وسلم عليه وأجلسه إلى جواره

ـ ثم أمر بالشراب وسأله أن ينشده بعض أشعاره ... !!

وهناك قصة أخرى عن الأنورى مروية بصور مختلفة فى «هفت إقليم» و«بهارستان» و «مجمل فصيحى» و «لباب الألباب» (محمد عوفى ج ٢ ص ١٣٨ ـ ١٣٩) وهى تشير إلى تحذير تلقاه من شاعر معاصر هو« خالد بن الربيع » حين أراد السلطان علاء الداين ملك الجبال (ملك الغور) أن يستدعى الأنورى إلى حضرته ، فأظهر التلطف فى استدعائه، ولكنه كان يضمر له السوء ويريد أن ينكل به لأشعار قالها فى هجوه ! فعلم «خالد بن الربيع» بحقيقة الحال، وشاء أن يحذر صديقه من سطوة السلطان وقهره ، ولكنه خشى أن يكتب له صراحة بحقيقة الأمر ، خشية أن يثير غضب السلطان عليه ، فصدر رسالته اليه بهذه الأبيات العربية :

هى الدنيا تقول بملء فيها   حذار حذار من بطشى وفتكى

فلا يغررك طول فى ابتسامى   فقولى مضحك والفعل مبكى

هى الدنيا أشبهها بشهد   يسم وجيفة ملئت بمسك

فاستدل «الأنورى» من هذه الأبيات على الخطر الحائق به ورفض الذهاب إلى السلطان «علاء الدين» وأرسل السلطان رسولا آخر إلى « الملك طوطى » الذى كان يستضيف « الأنورى » وطلب منه أن يرسل إليه الشاعر فى مقابل ألف رأس من الغنم يعطيها له . ولكن الشاعر استطاع أن يقنع « الملك طوطى » بألا يسلمه غنيمة باردة لخصمه ... !!

ويقول بعض الكتاب إن « الأنورى » اعتذر للملك الغور بقصيدة مطلعها:[١]

كلبهٔ كاندران بروز وبشب

جاى آرام وخورد وخواب من است

وهى قصيدة يرجع تاريخ إنشائها إلى النصف الأخير من حياته حينما هجر القصور وحياة القصور . والمشهور أن «الأنورى» أمضى أواخر أيامه فى مدينة «بلخ» حيث إختار عيشة العزلة بعد ما أخفق فى حكمه على اجتماع الكواكب السبعة فى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ — ١١٨٦م) [٢] . ولكن سوء الحظ تابعه فى هذه البلدة أيضا ، فقد انتشرت بين أهلها قصيدة فى هجائهم باسم «خرنامه» أو « رسالة الحمير» كان مؤلفها الحقيق الشاعر «سوزنى»[٣] ولكنهم نسبوها خطأ إلى «الأنورى» فعامله أهل البلدة بشىء من القسوة والشدة ، وعرضوه فى شوارع بلدتهم معصوب الرأس بعصابة امرأة ، وكادوا يفتكون به لولا أن تدخل بعض أصحابه فى الأمر فخلصوه من أيديهم . وكان بين الذين خلصوه كثير من أصحاب النفوذ مثل القاضى «سيد أبوطالب حميد الدين» والمفتى « صفى الدين عمر » والمحتسب « تاج الدين أحمد » والأستاذ « نظام

---

(١) أنظر ص ٥٩٣ — ٥٩٤ من ديوان أنورى طبع لكنو سنة ١٨٨٠ ، وكذلك مقالتى عن الشعراء المذكورين فى «تاريخ گزيده» المنشورة فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية فى أكتوبر سنة ١٩٠٠ .

(٢) حاول البعض الدفاع عن الأنورى فقالوا إنه أشار فى حكمه إلى العواصف السياسية ، لا العواصف الجوية، لأن جنگيزخان فى ذلك الوقت استطاع أن يتزعم المغول ويتولى أمرهم .

(٣) قالت بعض الروايات أن هذه القصيدة كانت من خمسة أبيات ذم فيها قائلها حواضر خراسان الأربعة (أى مرو وبلخ ونيسابور وهراة) وأن الذى أنشأ هذه المقطوعة هو الشاعر «فتوحى» بتحريض من «سوزنى» الذى نسبها متعمداً إلى الأنورى للايقاع به .

الدين احمد »... وإلى الأخير منهم وجه الشاعر قصيدة تبلغ أبياتها المائة ، مدحه فيها على تخليصه إياه من بليته (وهى القصيدة رقم ٦ فى كتاب ژوكوفسكى) ومطلعها :

ای مسلمانان فغان از دور چرخ چنبری
وز نفاق تیر وجبر ماه وکید مشتری

ولا يفوتنى أن أقرر أن هذه القصيدة هى الأصل لقطعة نشرها الأستاذ المرحوم «بالمر E.H. Palmer » فى ص ٦٣ — ٨٠ من كتابه المسمى « أغنية الناى « Song of the Reed » تحت عنوان Palinodia [1] وهى ترجمة غير دقيقة ، لم تتقيد بالأصل الفارسى ، كما يدل على ذلك الفقرتان التاليتان اللتان يقابلهما ثلاثة أبيات من الأصل :

"Ah .. the spheres are incessantly rolling ,
And the Archer is shifting his ground ,
And the Moon is for ever patrolling ,
And Jupiter going his round
The water that tastes to another
Refreshing and cool on the lip ,
Is as fire that no efforts can smother
In the cup which I sip ."

"The dust that all quiet is lying
When others recline on the ground ,
Around me in volumes is flying ,
Like a desert where whirlwinds abound ;
And Fate , in the ship of my being ,
In happiness hurries me past ,
But if ever from sorrow I' m fleeing ,
It anchors me fast ."

فلو أننا ترجمنا الأبيات الثلاثة الفارسية التى ترجمت فى هاتين الفقرتين لكان معناها الحرفى هكذا :

---

(١) طبع تروبنر Trübner سنة ١٨٧٧م

— أيها المسلمون ... واويلاه من دورة هذا الفلك الأعوج

ومن نفاق «المريخ» ورياء «القمر» وكيد «المشترى(١)»

— فهى تحيل الماء العذب إلى نار تلتهب فى لهاتى وحلقى

وهى تحيل الأرض الهادئة إلى ريح صرصر عاتية تعصف بمسكنى

— والسماء دائما تفعل بزروق عمرى أمراً من أمرين :

فهى إما أن تنفخ الريح فى قلاعه وقت السرور ؛ وإما أن تلقى بمراسيه فى وقت الأحزان ..!!

وأشهر قصيدة معروفة للأنورى فى أوروبا هى التى ترجمها « الكابتن وليام كركپاتريك » إلى الانجليزية نظما تحت عنوان «دموع خراسان» ونشرها فى المجلد الأول من كتاب Asiatic Miscellany, الذى طبع فى مدينة كلكتا سنة ١٧٨٥م (ص ٢٨٦ — ٣١٠) وكذلك نشرها الأستاذ « پالمر E. H. Palmer » فى كتابه المعروف بـ « أغنية الناى» ص ٥٥ـ٦٢ .

ويقول « كركپاتريك » : « إن هذه القصيدة من أجمل القصائد فى اللغة الفارسية ، فالعواطف الممثلة بها طبيعية ، وهى فى الغالب من أجمل العواطف وأنبلها ، وكذلك الصور التى اشتملت عليها واضحة ظاهرة للعيان ؛ والشاعر ثائر فى قوله ولكنه جميل التعبير منمق العبارة عفيف الألفاظ ؛ ونظمه ليس سلسا فى كل المواضع ولكنه على العموم متناسب مع موضوع القصدة ، وكذلك البحر الذى نظم فيه الشاعر يعتبر من أبطأ البحور من حيث موسيقاه ومن أكثرها مهابة واتزاناً » . وهذه القصيدة لها بالإضافة إلى ذلك فائدة تاريخية كبيرة لأنها تمثل لنا الغارات التى قامت بها قبيلة متوحشة من الأتراك « الغز» فخربت أكثر الأنحاء ازدهارا فى ايران فى سنة ٥٤٨هـ (أوائل سنة ١١٥٤م) وكانت هذه القبيلة تستقر بمراعيها بالقرب من « ختلان » من أعمال بلخ ، وكانت تمد مطابخ السلطان «سنجر» بأربعة وعشرين ألف رأس من

---

(١) المترجم : فيما يلى نص الأبيات الفارسية :

آى مسلمانان فغان از دور چرخ چنبرى — وز نفاق تير وجبر ماه وكيد مشترى

آب نافع را دهد در مشرب من آتشى — خاك ساكن را دهد در مسكن من صرصرى

آسمان در زورق عمرم كند دايم دوكار — وقت شادى بادبانى وقت انده لنگرى

الغنم، تقوم بإيفائها له كجزية سنوية مرتبة عليهم . وقد طمع رئيس المطابخ (خوانسالار) فى عدد أكثر من ذلك العدد ، وقسا على « الغز » فى معاملته إياهم ، فأدى ذلك إلى كثير من المنازعات التى أريقت فيها الدماء ، وقدر حاكم بلخ المسمى «قماج» ما يحيطه من ظروف فكتب إلى مولاه « سنجر » يشكو له من ازدياد قوة « الغز » وجرأتهم عليه ويطلب إليه أن يعينه حاكما عليهم (شحنة) وتعهد له فى نظير ذلك أن يخضعهم لسلطانه وأن يجبرهم على رفع الجزية إلى ٣٠٠٠٠٠ رأس من الغنم . ولكن «قماج» لم يفلح فى تحقيق وعده واستطاع «الغز» أن يطردوه من أراضيهم وأن يذبحوا ابنه « علاء الدين » .

وحرض الأمراء السلطان «سنجر» أن يخرج إليهم بنفسه، وأن يرفض ما قدموه إليه من معاذير وتعويضات بلغت مائة ألف دينار وألفا من العبيد الترك ..!! وتقدم « سنجر » إلى خيامهم فاستولت عليهم الرهبة وتملكتهم الرعدة ، وخرجوا إليه هم ونساؤهم وأطفالهم يتوسلون إليه أن يغفر أخطاءهم ويتناسى جرائرهم ، ثم عرضوا عليه أن يدفعوا له سبعة أمنان من الفضة ، يأخذها من كل أسرة من أسراتهم .ولكن الأمراء منعوا السلطان «سنجر» من قبول هذه العروض السخية وخاصة « المؤيد» و « برنقش » و « عمر العجمى » وانتهى الأمر إلى القتال . واستيأس «الغز» فى الميدان فاستطاعوا بحماسهم أن يستأصلوا جيوش « سنجر » وأن يأخذوه أسيرا إلى عاصمته فى مدينة « مرو » وأن يغيروا على هذه المدينة ويبيحوها للنهب العام مدة ثلاثة أيام ، أذاقوا فيها الأهلين كثيرا من المرارة والعذاب حتى يضطروهم إلى إظهار الكنوز التى أخفوها . ثم التحق بهم مدد يبلغ عدده ثلاثة أضعاف قوتهم الأصلية ، أغلبه من الجنود المهزومة والأوباش والسفلة ، فاندفعوا بهم إلى مدينة «نيسابور» فدافعهم أهلها وقتلوا عددا منهم، ولكن «الغز» اشتدوا فى غارتهم على هذه المدينة واستطاعوا أن يقتلوا فى « المسجد الجامع » عددا كبيرا من أهل البلدة لا يبلغه الإحصاء ، لأن القتلى كما تقول الأخبار: « كانوا غارقين فى دمائهم لا تستطاع رؤيتهم وهم فى لجة عميقة من الدماء المهرقه ....!! »

ثم تحول « الغز » فأحرقوا « جامع المطرز » وكانت بنايته تستوعب ألفين من الناس... ثم استمروا على أضواء المشاعل يغيرون على أنحاء البلدة ويخربون ما تصل إليه

أيديهم . ثم عسكروا خارج البلدة ولـكنهم استمروا يوميا يدخلون المدينة ويعيثون فيها ، فيقتلون بعض الأفراد ، أو يكتفون بتعذيب بعض من يلاقونه ، وقد يخربون الديار ويحطمون المنازل ويفعلون من الأمور ما يثير في النفوس كثيرا من المرارة والحسرة . وقد بلغ عدد ضحاياهم بضعة آلاف ، بينهم جماعة من أفاضل الرجال مثل « الشيخ محمد الأكاف » و « محمد بن يحيى » وقد رثى الأخير منهما الشاعر « خاقانى » فى ثلاث قصائد على الأقل (١)

وكان الخراب شاملا بحيث أن مؤلف كتاب تاريخ السلاجقة المعروف بـ « راحة الصدور » (٢) يقول : إن « معزى » ربما فكر فى هذه الكارثة حينما أنشد الأقوال التاليه :

— وكان نديمى موجودا فى هذه الحدائق الزاهرة ومن حوله الرفقاء والإخوان ؛

— فأصبحت هذه الحدائق مرتعا للثعالب والذئاب والبوم والغربان ...!!

— وأصبحت حمر الوحش ترتع فيهـا . . . وكانت تدور فيها الكؤوس والأكواب .

— وأصبحت الغربان تنعب فيها ... وكانت تتجاوب فيها من قبل نغمات العود والمزمار ونبرات الحديث المستطاب . . . . ! !

— وقد محا الفلك هذه الآثار العزيزة على النفوس والقلوب ؛

— فلن يستطيع منقب فى ثناياها أن يتبين المكان الذى كنت أغازل فيه الحبيب..!

آنجا كه بود آن دلستان با دوستان در بوستان

شد كوف وكركس را مكان شد كرك وروبه را وطن

---

(١) أنظر مجلة « الجمعية الآسيوية الملكية » سنة ١٩٠٢ ص ٨٥٤ ، وكذلك « كليات خاقانى » طبع لـكنو سنة ١٢٩٣ هـ ج ١ ص ٥٨٧ — ٥٩٠

(٢) مؤلف « راحة الصدور » هو الراوندى .

بر جاى رطل وجام مى گوران نهـاد ستند پى
بر جاى نقل وناى ونى آواى زاغست وزغن
زين سان كه چرخ نيلگون كرد آن نها نهارا نگون
ديّار كى گردد كنون گرد ديار يار من (١)

وقد فعل « الغز » بسائر أنحاء خراسان مثلما فعلوا بمدينة نيسابور ، ولم ينج من أيديهم إلا مدينة « هراة » فإنها قاومتهم أشـد المقاومة وقد مكث « سنجر » سنتين أسيرا فى أيديهم ولم يستطع الخلاص إلا بعد أن دفع رشوة لجماعة من رؤسائهم فخرج من « بلخ » إلى « مرو » وأخذ يعد العدة لجمع جيش جديد ولـكن الحزن استولى عليه بسبب الخراب والدمار اللذين أصيبت بهما دياره فمرض مرضا شديدا توفى على أثره فى سنة ٥٥٠ هـ (= ١١٥٥ م) ودفن فى « مرو » بالمقبرة المعروفة باسم « دولتخانه » .

وقد كتب «الأنورى» قصيدته التى عرفت باسم «دموع خراسان» أثناء الفترة التى وقع فيها «سنجر» أسيرا فى يد «الغز» وربما كتبها فى سنة ٥٥٠ هـ (= ١١٥٥ م) وقد خاطب بها الشاعر أمير سمرقند «محمد بن سليمان» كما يرى ذلك «كركپاتريك» وإن لم يكن هنالك ما يقطع بهذا الرأى. والقصيدة طويلة بحيث لا يتسع المقام لنشرها لأنها تشتمل على ٧٣ بيتا ، ومن أجل ذلك فسأكتفى بأن أنشر هنا قطعا جميلة من ترجمة «كركپاتريك» وترجمة «پالمر»

وفيما يلى ثلاث فقرات من ترجمة « كركپاتريك » وهى تقابل الأسطر الأربعة عشر الأولى من ترجمـة « پالمر » وتقابل الأبيـات الخمسة الأولى من الأصل الفارسى :

---

(١) المترجم : أنظر ص ١٨٢ — ١٨٣ من كتاب «راحة الصدور» طبع ليدن سنة ١٩٢١م

I

"Waft, gentle gale, oh waft to Samarcand,
When next thou visitest that blissful land,
The plaint of Khorassania plunged in woe:
Bear to Turania's king our piteous scroll,
Whose opening breathes forth all the anguished soul,
And close denotes what all the tortur'd know."

II

"Whose red tinged folds rich patriot blood enclose,
The mortal fine impos'd by ruthless foes,
And misshap'd letters proof our trembling fears:
Whose every word reveals a pungent grief,
Whose every line implores a prompt relief,
While every page is moistened with our tears."

III

'Soon as loud Fame our wretched fate shall sound,
The ear of Pity shall receive a wound,
And feel th' extreme of intellectual pain:
Soon as our dismal tale shall meet the view,
The melting orbs shall catch a purple hue,
And sanguine drops the mournfull verse disdain."

وفيما يلي نورد الجزء المقابل لهذه الفقرات من ترجمة «بالمر» :

"O gentle zephyr: if o'er Samarcand
Some dewy morning thou shouldst chance to blow,
Then waft this letter to our monarch's hand,
Wherein Khorassan tells her tale of woe;
Wherein the words that for the heading stand
Are present danger and destruction nigh,
Wherein the words that are inscribed below
Are grief, and wretchedness, and misery,
On every fold a martyr's blood appears,
From every letter breathes a mourner's sigh,
Its lines are blotted with the orphan's tears,
Its ink the widow's burning anguish dries.
Its bare recital wounds the listenr's ears,
Its bare perusal scathes the reader's eyes."

وفيما يلى ترجمة حرفية للأبيات الفارسية التى تقابل القطع السابقة (١)

— إذا مررت ... يا ريح السحر ...! على مدينة « سمرقند »

فاحملى رسالة أهل خراسان إلى حضرة السلطان ...!!

— فهى رسالة مطلعها عناء للجسد وعذاب للروح

ومقطعها (أى نهايتها) ألم للفؤاد وضنى للأكباد .. !!

— وهى رسالة تبدو فى سطورها تأوهات الأعزاء

وتحتوى فى ثناياها على دماء القتلى من الشهداء ...!!

— وقد جفت صفحاتها بفعل التأوهات الحارة التى تخرجها صدور المظلومين

ولكن عنوانها مازال نديا مبللا بفعل الدموع الجارية من أعين المحرومين..!

— وقد احترق بها سمعى ... عندما أخذ يصغى إلى أخبارها

ودمى بها إنسان عينى ... عندما نظر إلى مضمونها وآثارها . .!!

وقبل أن نترك هذه القصيدة الخالدة يجدر بنا أن نذكر قطعا أخرى متقابلة فى ترجمتى « كركپاتريك » و « پالمر » .

[ثم يذكر الفقرات ١٣ — ١٦ من ترجمة « كركپاتريك » والقطعة التى تقابلها من ترجمة « بالمر » ولم نر حاجة إلى إيرادها] .

والترجمة الحرفية للأصل الفارسى [للفقرات الانجليزية التى تركناها] هى الآتية :(١)

---

(١) المترجم : فيما يلى النص الفارسى للأبيات الخمسة الأولى من القصيدة ، وهو الذى اعتمدنا عليه فى الترجمة :

بر سمرقند اگر بگذرى اى باد سحر ــــ نامهٔ أهل خراسان به بر خاقان بر

نامه مطلع آن رنج تن وآفت جان ــــ نامه مقطع او درد دل وخون جگر

نامه بر رقمش آه عزيزان پيدا ــــ نامه در شكنش خون شهيدان مضمر

نقش تحريرش از سينهٔ مظلومان خشك ــــ سطر عنوانش از ديدهٔ محرومان تر

ريش گردد ممر صوت ازو گاه سماع ــــ خون شود مردمك ديده ازو وقت نظر

(١) المترجم : الأبيات الفارسية هى :

بر بزرگان زمانه شده خوردان سالار ــــ بر كريمان جهان گشته لئيمان مهتر =

— وقد أصبح الصغار يرأسون العظماء والكبراء
وأصبح أهل اللؤم والبخل يفضلون الكرماء الأسخياء ...!!
— وأصبح الأحرار حيارى ... يقفون فى حزن على أبواب الأسافل
وأصبح الأبرار أسرى فى أيدى الأراذل ...!!
— ولم تعد ترى أحدا يبدو البشر على وجهه إلا إذا كان على أبواب الموت
ولم تعد تجد بنتا بكرا إلا من كانت فى بطن أمها ...!!
— وأصبح المسجد الجامع فى كل بلدة مربطا لدوابهم
ولم يعد له سقف أو باب ...!!
— ولم يعد أحد يخطب باسم «الغز» فى أى بلدة من البلاد
لأن خراسان قد خلت الآن من الخطباء والمنابر ...!!

شعر الأنورى :

ننتقل الآن إلى الفصل الثانى من كتاب « ژوكوڤسكى »[1] الذى أفرده لنشاط « أنورى » الأدبى ولخصائص شعره . وهنا نجد أن «الأنورى» اتبع نهج الشعراء الآتية أسماؤهم ، وهم من العرب والفرس وقد ذكرهم فى قطع مختلفة من قصائده : «الأخطل» و«جرير» و«الأعشى» و«حسان بن ثابت» و«البحترى» و«أبو فراس» و«بديع الزمان الهمذانى» و«الحريرى» و«العنصرى» و«الفردوسى» و«الفرخى» و«أبو الفرج» و«الأمير معزى» و«سنائى» و«أديب صابر» و«رشيدى» و«حميد الدين» و«رشيد الدين الوطواط» و « شجاعى » و«كمال الدين اسماعيل» . ويبدو

= بر در دونان أحرار حزين وحيران — در كف رندان ابرار اسير ومضطر
شاد إلا بدر مرگ نه بينى مردم — بكر جز در شكم مام نيابى دختر
مسجد جامع هر شهر ستور ايشانرا — پايگاهى شده نه سقفش پيدا ونه در
نكند خطبه بهر شهر بنام غز از آنكه — در خراسان نه خطيبست كنون نه منبر

(١) أنظر ص ٣٤ — ٣٧ من كتاب « ژوكوڤسكى » .

من هذه القائمة — كما لاحظ ذلك «ژوكوڤسكى» — أن الأنورى كانت له معرفة تامة بشعر الشعراء القدامى وكذلك بشعر المحدثين من معاصريه. وقد رأينا أن صلاته كانت طيبة مع واحد من معاصريه هو الأديب المعروف «حميد الدين» مؤلف «المقامات» وقد تبادل معه كثيرا من الأشعار. وقد ذكر «ژوكوڤسكى» جملة من هذه القطع الجميلة التى أرسلها الأنورى إلى «حميد الدين» ومن بينها هذه الأبيات المعروفة التى ترجمتها :

— إذا أرسلت بجناح جرادة إلى حضرة سليمان
فألتمس لى عذرا عن هذه الهدية التى أخجل من تقديمها ... !!

— وإنى لأخشى ماينالنى من احتقار زهرك وريحانك
وقد أقدمت على إرسال هذه الأشواك إلى بستانك ...!!

ومن بين الشعراء الذين خصهم الأنورى بإعجابه — وفقا لما ذكره صاحب «تاريخ گزيده» و «هفت إقليم» — الشاعر «أبو الفرج الرونى» الذى كان من أهل «لاهور» ومن المادحين لملوك «غزنه» وتوفى فى تاريخ لاحق لسنة ٤٩٢ هـ (= ١٠٩٩ م).

أما الأمراء والأفاضل الذين ورد ذكرهم فى أشعار الأنورى فمن بينهم :

«السلطان سنجر» و «أبو الفتح طاهر بن فخر الملك» وهو من أحفاد الوزير المعروف «نظام الملك» و «السلطان طغرل تگين» و «عماد الدين فيروز شاه» حاكم بلخ و «خواجهٔ جهان مجد الدين أبو الحسن العمرانى» و «السيد أبو طالب» و «حميد الدين» صاحب المقامات.

ويختتم «ژوكوڤسكى» هذا الفصل بذكر الفنون الشعرية التى اتبعها الأنورى مثل «القصيدة» و «الغزل» و «الرباعى» و «الهجاء» و «المقطوعات» ثم يذكر بعد ذلك جملة من أشعاره التى قالها فى احتقار الشعر، ثم يورد بعد ذلك

المنظومات التى قالها ثلاثة من الشعراء من بينهم «مجد الدين همكر» و « إمامى » (١) عندما سئلوا عن آرائهم فى المفاضلة بين « الأنورى » و « ظهير الدين الفاريابى » فاتفقوا جميعاً على تفضيل «الأنورى» على صاحبه.

صعوبة أشعار الأنورى :

فإذا وصلنا إلى الفصل الثالث من كتاب « ژوكوفسكى » وجدناه يتعلق بصعوبة أشعار الأنورى ، وبالمراجع التى تساعدنا على التغلب على هذه الصعوبة والتمكن من فهم أشعاره وخاصة الشرحين الآتيين :

١ — الشرح الذى كتبه «محمد بن داود العلوى الشادآبادى» على أشعار الأنورى (وهذا الشخص نفسه هو الذى شرح أشعار «الخاقانى») .

٢ — الشرح الذى كتبه « أبو الحسن الفراهانى » من رجال النصف الأخير من القرن السابع عشر الميلادى (= الحادى عشر الهجرى) .

وقد أعجب « ژوكوفسكى » بالثانى من هذين الشرحين ، لأن صاحبه اعتمد فيه على ما سمعه شفويا من روايات ، وكذلك على ما قرأه مكتوبا من تفاسير اشتمل عليها ستة وثمانون كتابا ذكرها الشارح بأسمائها .

أسلوب الأنورى :

أما الفصل الرابع والأخير من كتاب « ژوكوفسكى » فيتعلق بأسلوب الأنورى ولغته ، وبما قام به المستشرقون من جهود لتعريف الناس بالأنورى وبأشعاره . وليس هذا الفصل فى حاجة إلى تعليق جديد نكتبه عنه .

فلنترك الآن الأنورى ، ولننتقل إلى الحديث عن الشاعر « الخاقانى » .

---

(١) النص الفارسى لهاتين القصيدتين موجود مع ترجمته إلى الإنجليزية فى ص ٦٠ — ٦٤ من مقالتى عن الشعراء الفرس المذكورين فى كتاب «تاريخ گزيدة» ، ويذكر مجد الدين أنه قال قصيدته فى رجب سنة ٦٧٤ هـ (= يناير سنة ١٢٧٦ م) .

٢ — خاقانى

اشتهر هذا الشاعر بصعوبه أشعاره وخفاء معانيها . وأغلب منظوماته من نوع القصائد ولكنه نظم «مثنويا» طويلا أسماه « تحفة العراقين » وصف فيه حجه إلى مكة المكرمة . وضمنه كثيرا من المعلومات التى تتصل بحياته .

وهناك مقالة قيمة كتبها « خانيقوف N . de Khanikoff » عن الشاعر خاقانى تحت عنوان «خاقانى : الشاعر الفارسى فى القرن الثانى عشر الميلادى»

Mèmoire sur Khâcânî ,Poête Persan du XII Siècle

ونشرها فى « المجلة الآسيوية » سنة ١٨٦٤ — ١٨٦٥ م

وقد كتب عنه فقال إنه «نجم لامع بين الملهمين من الفرس» ثم أخذ يبين لنا حاله فى صورة واضحة ، استطاع أن يجلو بها كثيرا مما خفى من أمر الشاعر وأمر عصره . ويؤخذ من بيت من قصيدة له عن أصفهان أن «أفضل الدين إبراهيم بن على الشيروانى» كان يعرف أولا باسم «حقائقى» ثم تلقب بعد ذلك بالـ « خاقانى » وأنه ولد سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ — ١١٠٧م) فى مدينة « گنجة » التى تعرف الآن باسم اليزافتبول Elizavetpol[1] .

وكان أبوه نجارا وكانت أمه مسيحية من النساطرة اعتنقت الإسلام [2] وكانت تشتغل طاهية .

وكان جده — كما يخبرنا هو بصراحة تامة — نساجا ، وكان عمه طبيباً اسمه « ميرزا كافى بن عثمان » وإليه يرجع الفضل فى تأديبه وتثقيفه .

وفى سن مبكرة تركه أبوه - إما لوفاته أو لهجر أمه — فاهتم عمه بالعناية به وتولى تنشئته وتربيته ثم علمه مبادئ العلوم واللغة العربية والطب والنجوم والفلسفة . وقد

---

(١) هكذا رأى «خانيقوف» ولكن يبدو لى من «تحفة العراقين» (النسخة المطبوعة على الحجر فى سنة ١٨٧٧ م ص ٣٥) أنه ولد فى مدينة «شروان» .

(٢) تحفة العراقين ص ١٩٩ سطر ١ — ٦ تحت عنوان أصل الشاعر

قاسى فى تعليمه الكثير لأنه كان على شاكلة أهل عصره وبيئته يريد ألا يفسد الطفل ولو اضطر إلى استعمال العصاة والمقرعة . فلما بلغ «خاقانى» الخامسة والعشرين من عمره مات عمه ولم يتجاوز الأربعين من عمره فانقطعت بموته تربية الشاعر ووقف تعليمه .

خاقانى وأبو العلاء الگنجوى :

ولكن خاقانى مدين فى براعته فى النظم إلى أستاذ آخر هو « أبو العلاء الگنجوى» أحد شعراء « منوچهر شراونشاه»[1] وقد قدمه هذا الشاعر إلى مولاه فأذن له أن نغير تخلصه الذى عرف به باسم «حقائق» إلى هذا اللقب الفخم الذى أصبح يعرف به وهو : «خاقانى» .

وقد زوج « أبو العلاء» ابنته من تلميذه «الخاقانى» فكان هذا مثارا لحسد تلميذه الآخر « فلكى الشروانى » الذى مازال غاضبا من أستاذه بسبب هذه الزيجة حتى أرضاه فى نهاية الأمر بمنحه ٢٠٫٠٠٠ درهم ليشترى بها كما قال له : « عشرين أمة تركية يفقن عروس الخاقانى جمالا وبهاء ....!! »

والظاهر أن رضاء «أبى العلاء» على تلميذه وزوج ابنته لم يستمر طويلا ، وأنه أحس من الخاقانى شيئا من الجفاء والنفور فوجه إليه هذه الرباعية :

خاقانيا گرچه سخن نيك دانيا
يك نكته گويمت بشنو رايگانيا
هجو كسى مكن كه ز تو به بود بسن
شايد كه پدر بود ... تو ندانيا ... !!

ومعناها :

— ياخاقانى ...!! ولو أنك ماهر حقيقة فى قول الشعر
— ولكن دعنى أنصحك نصيحة واحدة ، فاصغ إليها من غير أجر
— لا تهز أ بشاعر يكبرك سنا ... وحذار أن تهجوه
— فربما كان أباك ... دون أن تعرف أنت هذا الأمر ... ؟!

---

(١) كان على عهده كثير من الشعراء مثل «نظامى الگنجوى» و«أبو العلاء الگنجوى» و« فلكى الشروانى » و« خاقانى » و«السيد ذو الفقار» و« شاهفور » . أنظر تذكرة الشعراء ص ٧١ .

وربما ساء « الخاقانى » ما سمعه من قدح حميه فيه، فطلب منه أن يعتذر عما قال ولـكن « أبا العلاء » لم يستمع إليه وجدد هجاءه له فى الأبيات الآتية :(١)

تو اى افضل الدين گر راست پرسى بجـان عزيزت كه از تو نشـادم
دروگر پسر بود نامت بشروان بخاقانيت بر لقب بر نهادم
بجاى تو بسيار كردم نكوئى ترا دختـر ومال وشهرت بدادم
چرا حرمت من ندارى تو چون من ترا هم پسر خوانده هم اوسـتادم
عن چند گوئى كه گفتى سُخنها كه من يك شبى مر ترا خوش بگادم
وگر خيزگى مى كنى باز گويم كزين سان سُخنها نباشـد يادم
بگفتم بگفتم نـگفتم نـگفتم بگادم بگادم نـگادم نـگادم

ومعنى هذه الأبيات :

ــ يا أفضل الدين .. لو أنك سألتنى الحق لأقسمت لك بروحى أننى مستاء منك

ــ لقد كان اسمك فى «شروان» ابن النجار ، فلقبتك بالخاقانى ... !!

ــ ثم أكثرت من إحسانى لك ، فزوجتك ابنتى ، وأعطيتك المال والشهرة ..!

ــ فلم لا تحترمنى ... وقد كنت أتخذك ولداً ، وكنت لك أستاذاً . . . !!

ــ وإلى متى تقول أننى قلت بشأنك حديثاً ، وأننى نـكحتك فى إحدى الليالى نـكحة طيبة ... !!

ــ أما إذا كنت تعبث بى ، فإننى أعيد القول أننى أنا نفسى لا أكاد أذكر هذا الحديث ... !!

ــ فإن كنت أنا قلته فيها ، وإن كنت لم أقله فيها ، وإن كنت أتيتك فيهـا ، وإن كنت لم آتك فيها . . . !!

وقد أجابه « خاقانى » على هذه الأبيات بمنظومة لاذعة فاحشة الألفاظ ، نشرها «خانيقوف» مع ترجمتها، ثم اعتذر عن إقدامه على نشرها بأنها صيحة فارسى فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) فلا غرو إذا احتوت على كثير من الفحش

---

(١) أنظر « تذكرة الشعراء » ص ٧١

الذي ربما وجدنا له مثيلا في هذا القرن في لغة إيران وفي لغة أوربا أيضاً (١) .

---

(١) المترجم : فيما يلى نص هذه المثنوية نقلا من مقالة «خانيقوف» :

بینی سگ گنجه در این کوی   هم سرخ قفا وهم سیه روی
آن سرخ نه کز معمری خاست   سرخی که ز دست مرغزی خاست
آن ملحد أبو العلای سافل   چون وحش بی همه عقل وغافل
غربچه وغرچه ز کوری   غوری سگ وعولی اصل عوری
چون آن سگ عوری از جهان زاد   همشیره شیخ نجدی افتاد
شکز وچو سگ زبان مختال   پرورده شیر سگ علی الحال
آن جاحظ وقت را بدی خواه   وآن جاحد دین أباده الله
بطریق زمانه پاپ بطروس   صد ره به ازو جهود ومجوس
خواهی اش جهود ملحدان دان   ور خواهی ملحد جهودان دان
مانند جهود شد زحل رنگ   لا بل چو زحل جهود نیرنگ
او کیست که با روان نارك   باشد بمنسبت هو یدوك
او جز پی نفی حق نپوید   ان از اب وابن روح گوید
آن مشرك واین معطل از دل   هم مشرك بهتر از معطل
از نم شده افتابش از دست   شتاب ودهن دریده چون طست
لا بل که چو شمع طست از آغاز   خو. کرده شمعهای سرگاز
دارد نسب از جحیم خذلان   هم نار جحیم گردش جان
بوده نسبش از آتش آز   هم بر سر آز جان دهد باز
ماند بجعل بفعل وسیما   بینی بجعل که وقت گرما
از نقل چهارپا بر آید   هم بر سر آتش جان بر آید
چون از در دین ستوده گردد   گرد در وگرد کوه گردد
صباحی را در ابر جوید   چون یافت نعام صباح گوید
گوید که حسن پیمری بود   کیال بزرگ مهتری بود
گوید که محمد ای برادر   مردست حکیم کیمیا گر
که با زن زید این آن کرد   انگاه ورا نکاح دین کرد
از محدث کاف ونون که مولیست   محجوبم کز این حدیث او نیست
وز روضه مصطفی که مینرست   بیزارم ار این نه گفته اوست
هستند بر این گوا شب وروز   در فندق او دو صد کله دوز
در فندق او بود دکانش   صد کوثر دو مغز در دهانش
وز فندقیان بطبع نا خوش   در نعره چو شه بلوط از آتش
آنکه احد را حکیم داند   خاقانی را به بین چه خواند
گوید که رسول بود فاجر   در پوری علی چه گوید آخر
صباح شد این لعین بی دین   مانا که نماند أهل قزوین
شروان که چو کعبه بود ازاین پیش   گردش چو گذشت از آفت خویش
بیت المقدس بده با ایام   چون دارا قمامه گشت بد نام
بر جبهتش از فنا رقم باد   أهل ألموت را ألم باد

ولم يكتف «خاقانى» فى هذه القصيدة باتهام أستاذه وصديقه بأشنع التهم ، بل اتهمه بتهمة أشد وأشنع مما كانت تثيره الشكوك حول المسائل الأخلاقية، فأعلن صراحة أنه من أتباع « الحسن بن الصباح » وجماعة الحشاشين الذين كانوا يقيمون فى حصن « ألموت » .

ويقول «خانيقوف» إن الخاقانى أنشد هذه القصيدة فيما بين سنتى ٥٣٢ — ٥٤٠هـ (١١٣٨ — ١١٤٦م) وإنه فى ذلك الوقت ترك مسقط رأسه والتحق بخدمة ملك شروان المسمى « أختسان بن منوچهر» الذى انتقل بعاصمته من مدينة «گرشاسب» فى أذربيجان إلى مدينة «باكو» ، ولكن الأمور لم تسر وفقاً لمراده هناك ، لأنه كان من الصعب إرضاء هذا الملك الذى كان كثير الشكوك، كثير الغضب، لأقل سبب. ويتمثل جفاء طباعه فى الحكاية المعروفة الآتية :

« ... أرسل الخاقانى إليه فى إحدى المناسبات قصيدة تضمنت البيت التالى :

وشقى ده كه در برم گيرد   يا وشاقى كه در برش گيرم

ومعناه :

— فأعطنى برداً يضمنى إلى متنه ، أو غلاما أضمه إلى صدرى . . ! !

فأمر« شروانشاه» بقتله على هذا القول الجرىء ... !! فلما علم الخاقانى بغضب مولاه أخذ ذبابة وقطع أجنحتها ثم أرسلها إلى مولاه قائلا : إنها السبب فى إهدار دمه لأنه كتب «با وشاقى» فسقطت الذبابة على الباء فجعلتها «ياء» بنقطتين(٢).

ويضيف «دولتشاه» على ذلك قوله : «هكذا كان حال الملوك من حيث الهمة والعظمة، وهكذا كان لطف الشعراء والفضلاء ؟ ولو أن شاعرا طلب الآن من ممدوحه حملين من اللفت لما رأوا فى ذلك ما يغض من قدره ، ولشكروه على هذا التخفيف فيما يطلب ... !! »(١) .

واستأذن «خاقانى» فى الذهاب إلى مكة للحج، وكان قد حج قبل ذلك بثلاثين سنة

---

(١) أنظر « تذكرة الشعراء » ص ٨٠.

(٢) المترجم : بكتابة كلمة « با » يكون معنى البيت :
فأعطنى بردا يضمنى إلى متنه [وأرسله] مع غلام [أى خادم] حتى أضم البرد إلى صدرى..

عندما كان غلاما صغيرا فى رفقة عمه ، وأنشد فى ذلك قصائد تصف خروجه من « شروان » ومروره على « سفيد رود» ورؤية الثلج على قمة جبل «سبلان» .

وربما فكر فى هذا الوقت فى زيارة خراسان كما يقول «خانيقوف» . ولا شك إنه سمع كثيرا عن جود « سنجر » فشوقه ذلك إلى الالتحاق بخدمته ، ولكننا لانكاد نعثر على الدليل الذى يثبت لنا أنه استطاع أن يحقق ما كان يجول برأسه من رغبة وأمل .

وقد قال فى هذا الصدد جملة قصائد، منها :

چه سبب سوى خراسان شدنم نگذارند

عندليبم بگلستان شدنم نگذارند

ومعناه :

— لأى سبب لايسمحون لى بالذهاب إلى خراسان .

وأنا العندليب فلماذا لا يسمحون لى بالذهاب إلى البستان . .. !!

وله قصيدة أخرى مطلعها :

بخراسان شوم إن شاء الله از ره آسان شوم إن شاء الله

ومعناه :

— سأذهب إلى خراسان إن شاء الله.

وسأذهب بطريق اليسر إن شاء الله .. !!

وله قصيدة ثالثة مطلعها :

ره روم مقصد إمكان بخراسان يابم تشنه ام مشرب إحسان بخراسان يابم

ومعناه :

— سأسلك سبيلى ، وسأجد مقصد الإمكان فى خراسان ...

وإنى ظمآن ، وسأجد مشرب الإحسان فى خراسان.... !!

ويبدو أن« الخاقانى» استطاع أن يشرّق حتى وصل إلى مدينة « الرى » ثم منع لأمر من الأمور عن تجاوزها ، فقال فى ذلك قصيدة وجهها إلى هذه البلدة ، منها البيتان الآتيان :

چون نيست رخصه سوى خراسان شدن مرا
هم باز پس نكشم من بالاى رى
گر باز رفتنم سوى تبريز اجازت است
شكرانه گويم از كرم پادشاى رى

ومعناهما:

— لا رخصة لى فى الذهاب إلى خراسان... ومن أجل ذلك فسأرجع، فلا قدرة لى على تحمل متاعب مدينة « الرى » ... !!

— وإذ سمح لى بالذهاب إلى «تبريز» ... فإننى أكرر الشكر لملك « الرى» وأحمد له كرمه ... !!

وربما تخيل « الخاقانى » أنه سيفوز بكثير من التقدير فى خراسان ، فقال فى نهاية القصيدة التى سبقت البيت الآتى :

چون ز من اهل خراسان همه عنقا بينند
من سليمان جهانبان بخراسان يابم

ومعناه ::

— ولما كان أهل خراسان يرونني العنقاء ، فربما استطعت أن أجد سليمان الحكيم فى خراسان .. !!

وهو يشير بذلك إلى «سنجر» الذى ذكره صراحة فيما بعد . ويبدو لى أنه قال هذه القصيدة قبل غارة « الغز » على أملاك «سنجر» فى سنة ١١٥٤ م (= ٥٤٩ هـ) وهى الغارة التى قتل فيها الطبيب العالم «محمد بن يحى» صديق الخاقانى ، وكان قد تراسل معه كثيرا أثناء حياته، فلما قتل خنقا على أيدى «الغز» رثاه بمرثيات جميلة مذكورة فى ديوانه (١)

وكان «الخاقانى» أيضا متصلا بملوك خوارزم (الخوارزمشاه) ويثبت ذلك وجود

---

(١) أنظر قصيدة باللغة العربية ضمن « كليات خاقانى » موجهة إلى « محمد بن يحيى »

جملة قصائد من قصائده فى مدح الـ « خوارزمشاه » وفى مدح شاعره المعروف «رشيد الدين الوطواط» الذى أرسل إليه جملة أبيات يثنى عليه فيها .

ويبدو لى أن «الخاقانى» لم يفكر فى زيارة «خراسان» بعد موت « سنجر » لما أحدثته فيها غارة « الغز »من دمار وهلاك .

تحفة العراقين :

أما فيما يختص برحلة« الخاقانى» إلى مكة للحج للمرة الثانية ، ففى أيدينا سجل من إنشائه فى مثنويته المعروفة بـ « تحفة العراقين » التى طبعت فى مدينة « لكنو » فى سنة ١٢٩٤ هـ . وهذه المثنوية مقسمة إلى خمس مقالات :

المقالة الأولى : فى الشكر الإلهى .

المقالة الثانية :تحتوى على بيانات عن ترجمة حياة الشاعر .

المقالة الثالثة : وصف همدان والعراق وبغداد .

المقالة الرابعة : وصف مكة .

المقالة الخامسة : وصف المدينة

وقد شرح «خانيقوف» محتويات هذه المقالات الخمس وفسر ماورد بها من أسماء ومن أجل ذلك فسأكتفى بهذا الحديث الوجيز عنها .

وقد أوحت هذه الرحلة بجملة قصائد أخرى جميلة بالإضافة إلى «تحفةالعراقين» ومن بينها القصيدة الرائعة التى مطلعها :

سر حد باديه است ، روان باش بر سرش
ترياك روح كن ز سموم معطرش

ومعناه :

— ها كه حد البادية ... فتقدم إليه ... ولا تتردد ... !!
واشف روحك برياحها العليلة المعطرة ... !!

وقد زار «خاقانى» مدينة أصفهان أثناء عودته من الحج ، فأصابه هناك شيءمن سوء الحظ كالذى أصاب «الأنورى» فى مدينة«بلخ».وتفسير الخبر أنه عند ما وصل إلى «اصفهان» أحسن أهلها استقباله ولـكن أحد تلاميذه وهو «مجيرالدين البيلقانى» نشر رباعية (١) عن أهل أصفهان مليئة بالسباب والشتائم ، فانبرى شاعر آخر اصفهانى اسمه « جمال الدين عبد الرزاق » للرد عليه بقصيدة لاذعة مليئة بالفحش ؛ وأراد« الخاقانى » أن يتخلص مما جره عليه تلميذه ، فأنشأ قصيدة أخرى كلها مدح وثناء على أصفهان والإصفهانيين ، يقول فيها بعد ما أطراها كل الاطراء :

اين همه كردم برايگان نه براى طمع

كافسر وزر يابم از عطاى صفاهان

ديو رجيم انكه بود دزد بيانم

گر دم طغيان زد از هجاى صفاهان

او بقيامت سپيد روى نخيزد .

زانكه سيه بست بر قفاى صفاهان

أهل صفاهان مرا بدى ز چه گويند

من چه خطا كرده ام بجاى صفاهان

ومعنى هذه الأبيات :

— وقد فعلت ذلك غير طامع، وبدون أجر ، ودون أن أفكر فى الحصول على تاج ذهبى من عطاء اصفهان ...!!

---

(١) المترجم:الرباعية المنسوبة إلى« مجير الدين البيلقانى» هى الآتية :

گفتم ز عراق قوت جان خيزد لعليست مروت كه از آن كان خيزد

كى دانستم كاهل صفاهان كورند با اين همه سرمه كز صفاهان خيزد

ومعناها :

قلت لنفسى إن الروح تسترد قوتها فى العراق، وتستطيع أن تجد يواقيت المروءةفى مناجمها . ولـكنى لم أعرف أن أهل اصفهان عمى العيون ،رغم هذاالـكحل الـكثير الذى يجلب منها.

— ولكن هذا الشيطان الرجيم الذى سرق فصاحة بيانى ، لو أنه تنفس بكلمة واحدة فى هجاء اصفهان ،

— لما قام فى يوم القيامة أبيض الجبين ، لأنه أراد أن يلطخ بالسواد رأس اصفهان... !!

— فلماذا يتحدث أهل اصفهان بالسوء فى شأنى ... وأى خطأ ارتكبته فى حق اصفهان . . . ؟!

وقد نظم الشاعر هذه القصيدة بعد سنة ٥٥١ ه كما يستفاد ذلك مما بها من إشارات ، أو ربما فى السنة التالية كما يقول «خانيقوف» .

وعندما عاد خاقانى إلى «شروان» غضب عليه ملكها «أختسان» فأمر بحبسه فى قلعة «شابران» حيث أنشأ قصيدته «الحبسية» المعروفة . وربما كان سبب غضب مولاه عليه راجعاً إلى غروره واعتداده بنفسه (وهى صفة لم تفارق الشاعر فى أى وقت من الأوقات) أو ربما كان السبب راجعا إلى اتهام بعض الحاسدين له بأنه يسعى إلى الالتحاق بخدمة شخص آخر غير ملك شروان[1] .

ولسنا نعرف إلا القليل من أمر « الخاقانى » من يوم حبسه إلى وفاته بعد ذلك فى تبريز سنة ٥٨٢ ه (١١٨٥م) ولكنا نعلم من قصائده أنه عاش فترة بعد موت مولاه « أختسان » وأنه فقد امرأته وأحد أبنائه المسمى « رشيد » ولم يتجاوز العاشرة من عمره [2] .

---

(١) المترجم: هذه الحبسية تعتبر من أبلغ ماقاله «الخاقانى» من قصائد، ونحن ننقل منها الأبيات الآتية من المطلع :

صبح دم چون كله بندد آه دود آساى من   چون شفق در خون نشيند جسم شب پيماى من
مجلس غم ساخته است ومن چو بيد سوخته   تا بمن راوق كند مژگان مى پالاى من
رنگ بازيچه است كار گنبذ نارنج رنگ   چند جوشم كز بيرونم بگزرد صفراى من

(٢) تاريخ وفاة «خاقانى» المذكور آنفا قال به عوفى فى «لباب الألباب» و «المستوفى» فى «تاريخ گزيده» ودولتشاه فى «تذكرة الشعراء» ولكن هناك أقوال أخرى أوردها «خانيقوف» فى مقالته تجعل وفاته بعد ذلك إلى سنة ٥٩٥ه (١١٩٨ م — ١١٩٩م) . ويلاحظ «خانيقوف»

وقد تحدث «خانيقوف» عن المرثية التى رثا بها «خاقانى» زوجته فقال :

« إن هذه القصيدة - فى رأيى - هى القصيدة الوحيدة التى يظهر فيها الخاقانى كما نود له أن يظهر : شاعراً طيباً رقيق الإحساس . فقد أنساه الأسى قوة بيانه فلم يشحن عباراته بالاصطلاحات العسيرة ولا بالصناعات البديعية الكثيرة ، فكان ذلك سبباً فى أن تتدفق أشعاره إلى قلب القارىء فيحس فيها بلوعه الأسى التى صورت هذه النكبة المنزلية منذ سبعة قرون ماضية ...!! »

وقد دفن «الخاقانى» فى مقبرة الشعراء فى «سرخاب» بالقرب من «تبريز» بجوار الشاعرين المعروفين «ظهير الدين الفاريابى» و «شاهفور بن محمد الأشهرى النيسابورى» . وقد أخبرنا «خانيقوف» أنه سمع من رجلين عجوزين من أهالى تبريز فى سنة ١٨٥٥م أن هذه المقبرة كانت قائمة ومعروفة قبلما يحطمها الزلزال الشديد الذى خربها ولم يبق على شىء من آثارها . وقد حاول «خانيقوف» البحث عن هذا القبر فأجرى كثيرا من الحفريات ولكنه لم يستطع الكشف عنه .

وممن اتصل بهم «خاقانى» غير من ذكرناهم :

١ — الفيلسوف أفضل الدين الساوجى .

٢ — أثير الدين الأخسيكتى .

وقد ذكر جماعة غير هؤلاء من الشعراء والأدباء... كان يذكرهم فى معرض الفخر عليهم، من بينهم «معزى» و «الجاحظ» (ولكن النسخة المطبوعة على الحجر ذكرت بدل « الجاحظ » كلمة « حافظ » وهذا بالطبع خطأ فاحش نصادف كثيراً مثله فى الشروح الهندية عادة) و « أبورشيد » و «عبدك الشراوانى» و «قطران التبريزى» و «سنائى الغزنوى» و «العنصرى» و «الرودكى» .

فن الخاقانى :

يعتبر الخاقانى من الشعراء الذين برزوا فى قول القصائد مثل « الأنورى »

= أن التواريخ المتأخرة أقرب إلى الصواب، لأن المعروف أن «خاقانى» عاش بعد «اختسان» وأن « أختسان » توفى سنة ٥٨٣ هـ فلا يعقل أن يقال أن « خاقانى » مات فى سنة ٥٨٢ هـ

وشهرته قائمة على هذا الفن وحده من الفنون الشعرية ، رغم أنه أنشأ كثيراً من «الغزليات» ومن« الرباعيات» ومن « المثنويات » وخاصة « تحفة العراقين » التى ذكرناها فيما سبق وكذلك جملة من القصائد العربية .

وأسلوبه غامض فى العادة ، كثير التصنع حتى ليقال إنه يغرق فى التكلف ، وقد عقد «فون هامر Von Hammer »مقالة قارن فيها بين «خاقانى» وبين «پندار» وقد استعرضها «خانيقوف» وتناولها بالنقد .

أما قصائد«خاقانى» فكثيرة تملأ ١٥٨٢ صحيفة من الصفحات الكبيرة وفقا لطبعة الكنو على الحجر.[١] وفى إحدى قصائده التى نشرها«خانيقوف» يظهر«خاقانى» معرفته بالدين المسيحى ومراسمه ، ويرغب فى أن يلتحق بخدمة امبراطور بيزنطة وأن يعتنق الديانة المسيحية؛ كما يذكر أنه يحى تعاليم زرد شت اذا سمح له بذلك القيصر... ولكنه عاد فسأل الله الرحمة والغفران فى نهاية قصيدته[٢] ..!!

٣ــ نظامى الكنجوى

ثالث الشعراء النابهين الذين عاشوا فى هذا العصر هو نظامى الكنجوى، أستاذ الشعر المثنوى الرومانتيكى ، الذى برّز على كل الشعراء فى فنه فاكتسب به شهرة عريضة خلدت ذكره فى إيران وفى تركيا أيضا .

وفى أيدينا رسالة قيمة كتبها الدكتور « ولهلم باخر Dr. Wilhelm Bacher» ونشرها فى مدينة «ليبزج» فى سنة ١٨٧١ تحت عنوان :

Nizâmî's Leben und Werke und der zweite theil des Nizâmischen Alexanderbuches, mit persischen Texten als anhang.

وسأعتمد على هذه الرسالة فى الكتابة عن «نظامى» فى هذا الجزء من كتابى.

---

(١) المترجم : أحدث طبعة لديوان «خاقانى» هى التى نشرها الأستاذ «على عبد الرسولى» فى سنة ١٣١٦ الهجرية الشمسية ، وطبعها فى «شركت چاپخانهٔ سعادت »

(٢) مطلع هذه القصيدة :

فلك كجروتر است ازخط ترسا   مرا دارد مسلسل راهب آسا

اتبع «باخر» فى رسالته الطريقة العلمية الصحيحة التى يجب اتباعها عند محاولة الكتابة عن حياة شعراء الفرس ، فأهمل تماما جميع الروايات التى لا يعتمد عليها مما كتبه «دولتشاه» وأمثاله من كتاب التراجم (١) ، وقصر همه فيما جمع من معلومات عن الشاعر على مصدر واحد موثوق به ،هوعبارة عن الإشارات العارضة التى أشار بها الشاعر إلى نفسه فى ثنايا أشعاره .

وعلى هذا نجد أن كتاب التراجم يختلفون فى تأريخ وفاة « نظامى » ، فيجعله «دولتشاه» (٢) فى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ — ١١٨١م) ، ويجعله غيره مثل حاجى خليفة ما بين سنتى ٥٩٦ و ٥٩٩ هـ (١١٩٩ — ١٢٠٣م) . ولكن «باخر» استطاع أن يبرهن بالدليل الكافى على صحة التاريخ الأخير من هذه التواريخ ، وأن يثبت أيضاً كثيرا من الأخبار التاريخية المتصلة بحياة هذا الشاعر ، فقال إنه ولد فى مدينة «گنجه» (وتعرف الآن باسم اليزاڤتبول : Elizavetpol) فى سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠ — ١١٤١م) ، وأنه كتب أولى مثنوياته (٣) المعروفة باسم « مخزن الأسرار » حوالى سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ - ١١٦٦م) ،وكتب المثنوية الثانية عن قصة «خسرو وشيرين» فى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ — ١١٧٦م) ، وكتب المثنوية الثالثة المسماة « ليلى ومجنون» فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ - ١١٨٩م) ،وكتب المثنوية الرابعة المسماة «سكندرنامه» فى سنة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) . وكتب المثنوية الخامسة المساة «هفت پيكر» أوالصور السبع فى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ — ١١٩٩م) ، ثم مات فى منتصف العام الرابع والستين من عمره فى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ — ١٢٠٣م) .

واسم نظامى كما يقول «باخر» هو الياس ، وكنيته « أبو محمد » ، ولقبه «نظام الدين» ومن هذا اللقب استمد الشاعر تخلصه الذى عرف به فى أشعاره . وعرف

---

(١) كان «عوفى» صاحب لباب الألباب معاصرا لـ«نظامى» » وكان فى مقدوره أن يمدنا بمعلومات قيمة عنه ، ولكنه كعادته اكتفى بأن يقصر همه على سخافات قليلة فى باب اللعب على الألفاظ (أنظر ج ٢ ص ٣٩٦ — ٣٩٧) .

(٢) أنظر ص ١٣١ من «تذكرة الشعراء»

(٣) كتب « نظامى » خمسة من القصائد المزدوجة عرفت باسم «الخمسة» أوالمثنويات الخمسة أو باسم « پنج گنج» بمعنى «الكنوز الخمسة» .

أبوه باسم «يوسف بن زكى مؤيد» وقد توفى عنه وهو صغير ، ثم لم تلبث أمه أيضاً أن ماتت بعده بقليل ، وكانت من أسرة كردية كريمة . والشاعر يشير فى بعض أشعاره إلى وفاة واحد من أخواله ، ويرى «باخر» أن هذا الخال قام بتربيته بعد وفاة أبيه . وللشاعر أخ اسمه «قوامى المطرزى» نال مكانة لا بأس بها فى قول الشعر (١) ، واشتهر على أنه مؤلف قصيدة من مائة بيت عن البديع الفارسى أوردناها فى الجزء الأول من هذا الكتاب (٢) .

ويؤخذ من مواضع مختلفة من أشعار «نظامى» أنه تزوج ثلاث مرات . وأنه أعقب ولدا واحدا على الأقل اسمه : محمد ، كانت ولادته فى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ – ١١٧٥م) لأنه كان فى الرابعة عشرة من عمره حين أتم والده كتابة مثنويته الثالثة «ليلى والمجنون» .

ويقول «دولتشاه» (٣) أن نظامى كان مريدا « (تلميذا) للشيخ» «أخى فرج الزنجانى» ولكن «باخر» يسمى هذا الشيخ باسم «أخى فرخ الريحانى» . . وفيما عدا الأخبار التى رويناها فيما سبق لا نكاد نعرف شيئا عن الشاعر إلا أنه (كما قال «باخر» ص ١٤ — ١٥) عرف أغراض الشعر الحقيقية وواجبات الشاعر أكثر مما عرفها غيره من شعراء القصور الذين يمثلهم «الأنورى» فأعرض عن المدائح وتجنب ارتياد القصور (٤) ، وإن كان قد تابع أهل عصره فى إهداء مثنوياته إلى حكام زمانه ؛ فأهدى «مخزن الأسوار» إلى «إيلدگز» حاكم أذربيجان؛ وأهدى «خسرو وشيرين» إلى ولديه اللذين أعقباه فى الحكم «محمد» و «قزل أرسلان» (٣) وكذلك

---

(١) نسخة من ديوانه مكتوبة فى القرن الرابع عشر الميلادى موجودة فى المتحف البريطانى تحت رقم Or. 6464

(٢) المترجم : تعرف هذه القصيدة بين الفرس باسم «كشف الأستار عن بدايع الأشعار» أو «بدايع الأسمار فى صنايع الأشعار» أنظر الصفحات ٦٣ — ٨٩ من هذا الكتاب

(٣) انظر : « تذكرة الشعراء » ص ١٢٩

(٤) بذلك أيضا قالت الروايات المختلفة وكذلك أشعاره فى مواضع متفرقة .

(٥) أثابه «قزل أرسلان» على هذه الهدية بأن خصص له قرية «حمدونيان «انظر ص ١٢٩ من « تذكرة الشعراء » حيث قال إن الشيخ شكر هذا الإنعام بقوله :

نظر بر حمد وبر اخلاص من كرد ده حمدونيانرا خاص من كرد =

أهداهاالآخر ملك سلجوقى فى إيران وهو « طغرل بن أرسلان» ، وأهدى « ليلى والمجنون» إلى «اختسان بن منوچهر» حاكم شروان الذى كان يرعى بحمايته الشاعر «خاقانى» ،وأهدى كتاب «الاسكندر» أو «سكندرنامه» إلى «عز الدين مسعود» حاكم الموصل ثم إلى « نصرة الدين أبى بكر بيشكين » الذى تولى حكم أذربيجان بعد وفاة عمه « قزل أرسلان » فى سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) ، كما أهدى إليه أيضا كتاب «هفت پيكر» .

ويقول « دولتشاه » فى كتابه«تذكرة الشعراء» ص١٢٩ أنه بالإضافة إلى هذه المثنويات التى سبق ذكرها والتى تعرف بالـ « الخمسة » فإن لنظامى ديوان من الغزليات والموشحات والقصائد يبلغ العشرين ألف بيت(١) . ويذكر « باخر » بيتاً من « ليلى ومجنون » يستشهد به على أن « نظامى » رتب ديوانه هذا فى نفس الوقت الذى كتب فيه هذه القصة أى فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ — ١١٨٩ م) .

أما«عوفى» فعلى العكس من ذلك يذكر فى كتابه لباب الألباب (ج٢ ص ٣٩٧) « إن الرواة لم ينسبوا لنظامى شيئا من الشعر إلا هذه المثنويات . ومع ذلك فقد سمعت من أحد العظماء فى مدينة نيسابور أن الرواة نسبوا إليه قول الغزليات الآتية .. » ثم يورد عوفى ثلاثا من هذه الغزليات ، كل واحدة منها تشتمل على خمسة أبيات ، والأخيرة منها مرثية قالها فى رثاء ابنه(٢) .

وقد أضاف « دولتشاه » (ص ١٢٩ — ١٣٠) غزلية رابعة من ثمانية أبيات

= ومعناه : أنه نظرا لإخلاصى له وحمدى لنعمه ، فقد خصص لى قرية «حمدونيان»

(١) المترجم : يقول فى النص الفارسى : «ديوان شيخ نظامى وراى خمسة قريب بيست هزار بيت باشد وغزليات مطبوع وموشحات وشعر مصنوع بسيار دارد »

(٢) المترجم : نص هذه المرثية كما يلى :

اى شده هم سر خوبان بهشت	آنچنان عارض وآنگه بر خشت
بر نخ عمر بسر بردن خوش	دوزخى ناشده رفتى به بهشت
خط نياورده بتو عمر هنوز	اين قضا بر سرت آخر كه نوشت
چه عجب گرشودى جان وجهان	خاك از ديده من خون آغشت
سبزه زارى خطت اندرخاكست	آب كى باز توان داد بكشت

ذكر فى البيت الأخير منها تخلصه صريحا . ومع ذلك فيجب ملاحظة أنه وجد فى الأدب الفارسى جملة من الشعراء تخلصوا باسم « نظامى » وأن دولتشاه ، وقد عرف بكثرة الخطأ فيما كتب من سير وتراجم ؛ معرض لأن يخلط بين « نظامى » الذى نترجم له فى هذه المقالة وبين غيره ممن حملوا هذا اللقب الشعرى .

ومهما كان من أمر فإننا لو فرضنا صحة القول بوجود ديوان لنظامى،فإن هذا الديوان قد ضاع منذ زمن طويل وعفت الأيام على محتوياته .

مكانة نظامى :

ومكانة « نظامى» كشاعر موهوب ، كثير الإنتاج، متميز بذكاء نادر ، يعترف بها جميع النقاد من الفرس وغيرهم على السواء . وقد اعترف له بذلك كتاب التراجم ومن بينهم « عوفى» و«حمد الله المستوفى القزوينى » و « دولتشاه » و « لطفعلى بيك » وكذلك الشعراء ومن بينهم « سعدى » و « حافظ » و « جامى » و « عصمت » .

وكما أن ذكاءه لاينافسه فيه إلا القليل من شعراء إيران ، فكذلك أخلاقه قلما يدانيه فيها أحد؛ ذلك لأنه كان يمتاز بالورع الحقيقى دون أن ينزل إلى التعصب والتزمت والجمود ، وكان مستقلا برأيه شديد الاحترام لكرامته ، ولكنه كان كذلك ظريفا وديعا ؛ وكان والداً محبا لأولاده ، وزوجا عاشقا لزوجته ، وكان لا يحتسى الخمور ، وهو فى ذلك على النقيض من الكثرة الكثيرة من شعراء إيران وخاصة الصوفيين منهم ، فإنهم كانوا يحتسونها برغم تحريمها ، ويجعلونها النبع الذى تصدر عنه آلهة الوحى والشعر . ولو أردنا تحرى الدقة والإيجاز فى وصف « نظامى » لقلنا إنه الشاعر الوحيد بين شعراء إيران الذى جمع بين الذكاء النادر والخلق الرفيع، وأنه تميز بهاتين الخصلتين مجتمعين بين جميع شعراء الفرس الذين أمكنت دراستهم والترجمة لهم .

ومن الواجب علينا الآن أن نتحدث حديثا قصيراً عن كل واحدة من هذه المثنويات التى تشتمل عليها الـ « خمسة » ، ومع ذلك فإنه يجب علينا أيضا أن نعترف بأن حديثنا عنها سيكون ناقصامقتضبا ، لأنه من المحال أن نوفيها حقها أوشيئا منه فى كتاب موجز مثل كتابنا هذا لايتسع نطاقه للافاضة فى العرض والتحليل .

وقد نشرت « الخمسة » فى طبعات شرقية مختلفة ، وأنا شخصيا أستعين بنسخة طهران المطبوعة على الحجر فى سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٤ م) ، وهى تقع فى مجلد واحد تبلغ عدد صفحاته ستمائة صحيفة ، كل واحدة منها تشتمل على خمسين بيتا من الشعر(١) .

مخزن الأسرار

فأما « مخزن الأسرار » فهو المثنوية الأولى من هذه المثنويات الخمسة من ناحية ترتيبها الزمنى ، كما أنها أقصرها طولا . وهى تمتاز عن المثنويات الأخرى بأنها ليست قصة روائية Romance بل هى « منظومة صوفية » تشتمل على كثير من النكات والحكايات على أسلوب « حديقة الحقيقة » التى ألفها « سنائى » ، أو على أسلوب « المثنوى » الذى كتبه فيما بعد « جلال الدين الرومى » .

ويظهر لى أيضا أنها دون المثنويات الأخرى من الناحية الفنية ، وربما كان سبب ذلك راجعا إلى كراهيتى الشديدة لوزنها الشعرى الذى صنفت فيه (البحر السريع)

| — ∪ — | — ∪ ∪ — | — ∪ ∪ — |

مفتعلن   مفتعلن   فاعلن

وهى تشتمل على كثير من المقدمات فى المناجاة والحمد ، يعقبها عشرون مقالة كل واحدة منها تتعلق بموضوع فقهى أو أخلاقى يتناوله الشاعر أولا من الناحية النظرية والمعنوية ، ثم يصوره بعد ذلك بحكاية من الحكايات .

ولكى ندرك أسلوب هذه القصة نكتفى بأن نذكر هنا على سبيل المثال ترجمة حكاية « أنو شروان مع وزيره » ، وهى الحكاية التى تمثل الوزير الجرىء يعنف سيده على ما أصاب الرعية من حيف وإهمال(٢) :

---

(١) المترجم : أحدث طبعات «الخمسة» هى التى نشرها « وحيد دستگردى » فى خمسة أجزاء فى طهران ــ وهناك أيضا نسخة جميلة من «هفت پيكر» نشرها فى استامبول المستشرقان «ريتر» و «ريپكا» فى سنة ١٩٣٤ .

(٢) أنظر ص ٢٣ من «الخمسة» طبع طهران سنة ١٣٠١ هـ ، وكذلك ص ٨٠ من مخزن الاسرار طبع طهران سنة ١٣١٣ هـ . س

— خرج «أنو شيروان» يوما للصيد فابتعد به جواده عن كوكبة الفرسان .

— ولم يبق له من أنيس إلا وزيره ، فسارا معا ولم يكن معهما كائن من كان .. !!

— فمر الملك بناحية مليئة بالصيد، ورأى بها قرية خربة كقلوب الأعداء .

— وقد جلست فيها بومتان متجاورتان، وهما تتحدثان، والملك يضيق ذرعا بحديثهما

— فالتفت إلى وزيره وقال له: فيم يتحدثان وما دلالة هذا الصفير الذى يصفران

— فقال الوزير : ياملك الزمان ، اسمع لى وكن غفورا ، أقل لك مايقولان .

— ليس حديثهما غناء وطربا ، بل هما يعدان خطبة للزواج .

— فقد أعطى ذلك الطائر ابنته لهذا الطائر ، وهو يطلب منه مهرها الآن .

— وهو يقول له : اترك لى هذه القرية الخربة وكذلك بضع قرى أخرى مثلها

— فيقول له الطائر الآخر: «ماعليك بهذا ، ألست ترى جور الملك ؟ فلا تدع الهموم تستولى عليك ... !!

— فإنه لو امتدت أيام الملك ولو قليلا .. لأعطيتك من القرى الخربة مائة ألف قرية أخرى[1] .. !!

---

(١) المترجم : فيما يلى أصل هذه الأبيات بالفارسية :

صيد كنان مركب نو شيروان — دور شد از كوكبهٔ خسروان
مؤنس خسرو شده دستور وبس — خسرو ودستور ودگر هيچكس
شاه دران ناحيت صيد ياب — ديد دهى چون دل دشمن خراب
تنگ دو مرغ آمده در يكديگر — وز دل شه قافيه شان تنگتر
گفت بدستور: چه دم مى زنند — چيست صفيرى كه بهم مى زنند
گفت وزير : أى ملك روزگار — گويم اگر شه بود آموزكار
أين دونوا نز پى رامشگرى است — خطبة از بهر زنا شوهرى است
دخترى اين مرغ بآن مرغ داد — شيربها خواهد ازو بامداد
كاين ده ويران بگذارى بما — نيز چنين چند سپارى بما
أن دگرش گفت كزين در گذر — جور ملك بين برو غم مخور
گر ملك اينست نه بس روزگار — زين ده ويران دهمت صد هزار

خسرو وشيرين

فى هذه القصة يجرى « نظامى » على نسق « الفردوسى » من ناحية الموضوع والصياغه . وموضوع قصته يشتمل على مخاطرات الملك الساسانى « كسرى پرويز » (خسرو پرويز) وغرامه مع معشوقته الجميلة « شيرين » ، ونهاية منافسه التعيس « فرهاد » ، وقد اعتمد « نظامى » فى هذه القصة على المصادر التى اعتمد عليها « الفردوسى » من قبل أو على مصادر أخرى شبيهة بها ، ولكنه تناولها بطريقة أخرى ، ابتعد فيها عن الدراسة الموضوعية ، فاستطاع أن يخرجها لنا قصة غرامية بعكس « الفردوسى » فإنه أخرجها لنا قصة حماسية . وقد استعاض « نظامى » فى صياغتها عن « البحر المتقارب » الذى خصصه الاستعمال للشعر الحماسى ، بالهزج المسدس على هذا النحو :

| ـــ ـــ ـــ u | ـــ ـــ ـــ u | ـــ ـــ u |

مفاعيلن مفاعيلن فعولن (١)

وهذه المنظومة تشتمل على ما يقرب من ٧٠٠٠ بيت ، وفيما يلى قطعة منها تمثل حسرة « فرهاد » وموته عندما أمر « خسرو » رجاله بأن يبلغوا « فرهاد » النبأ الكاذب بموت « شيرين » فى نفس الوقت الذى أتم فيه « فرهاد » المهمة الملقاة على عاتقه من قطع أخدود فى جبل « بيستون (٢) » ، وهى المهمة التى قام بها ووعد عند إتمامها بالزوج من « شيرين » :

— فلما سمع « فرهاد » هذا الخبر ، سقط من فوق الجبل كقطعة من الحجر !

— وأخرج زفرة حزينـــة من كبده ، كما لو أصابت كبده حربة ذات رأسين فمزقته . . !!

— فقال فى لوعة : يا أسفا على المشاق التى تحملتها ، وقد مت دون أن أظفر بالراحة ... !!

---

(١) المترجم : هذا هو وزن الهزج المسدس المحذوف .

(٢) جبل « بيستون » قريب من « كرمانشاه » وهو مشهور بالآثار الأكمينية وبالنقوش القديمة ، وكان يسمى فى اللغة القديمة « باجستانا » .

— ويا حسرتاه على مجهودى الضائع ، وعلى أملى الخائب ... ! !

— فما النتيجة التى حصلت عليها من شق الصخور ... ! ؟ ولم يتيسر مطلبى ، وازدادت مشقتى ... ؟ !

— وكنت جهولا أطمع فى اليواقيت ، فلم أظفر بها ولم أصب إلا الحجارة التافهة ... !!

— واشتعلت نيران الدمار فى بيدرى ، ثم أغرقنى البلاء فى طوفانه ... !!

— وخلت الدنيا من الشمس والقمر ، وخلت الخمائل من الزهر والشجر... !!

— وانطفأ المصباح المضىء ، فلم تغب عنى «شيرين» ... بل غابت عنى الشمس المشرقة ... ! !

— وهذا هو الفلك الغادر لايشفق على مظلوم ، ولا يرعى برحمته محروم... !

— فيا أسفا على هذا الكوكب الذى أصابه الخسوف فجأة ... !!

— ولقد بكت جميع الكائنات على قلبى المحزون ، لأن ماء حياتى قد غاض فى الظلام ... ! !

— ولأى سبب يقع الفراق بينى وبين حبيبتى ... ؟ ولماذا أبقى فى هذه الدنيا وقد ذهبت عنها «شيرين» ... ! !

— ولو قسم لى البقاء بغير « شيرين » لانخلعت عظامى من جسدى ... !!

— ومئات من الحملان تمر أمام الذئب الجائع ، ولكنه لا يختطف إلا حمل الفقير المسكين ... !! (١)

---

(١) المترجم : أنظر ص ١٢٩ من الخمسة طبع طهران سنة ١٣٠١ هـ ، وكذلك ص ٢٥٦ من «خسرو وشيرين» طبع طهران سنة ١٣١٣ هـ . ش . طبع مطبعة أرمغان . والأصل الفارسى كما يلى :

چو افتاد اين سخن در گوش فرهاد — ز طاق كوه چون كوهى در افتاد
بر آورد از جگر آهى چنان سرد — كه گفتى دور باشى بر جگر خورد
بزارى گفت كاوخ رنج بردم — نديده راحتى در رنج مردم

ـ وقد وقعت شجرة السرو الطويلة...فحق لى أن أهيل التراب على هامتى...!

ـ وانتثرت أوراق الورد الباسمة ... فحق للبستان أن يصبح سجنا لى ... ! !

ـ وطارت طيور الربيع البهيجة ، فلماذا لا أنوح فى لوعة كالسحب الراعدة .. !!

ـ وانطفأ السراج اللامع ، فلماذا لا يستحيل نهارى المشمس إلى ليل دامس....!!

ـ وخمدت أنفاسى لحسرتى وكربى ، واصفرت « شمسى » لغياب « قمرى » وموضع حبى ... !!

ـ وسألتحق بـ « شيرين » فى طيات العدم ، وسأهرع إليها فى قفزة واحدة

ـ ثم صلى على « شيرين » وترحم على عشقها ، وقبل الأرض على ذكرها ، ثم أسلم روحه إلى بارئها (١)... ! !

=

دريغا هرزه رنج روز گارم دريغا آن دل اميد وارم
مرا زين كوه كندن حاصل اين بود نشد كارم ميسر مشكل اين بود
نديدم لعل وسنگك آمد بدستم چو نادان طمع در لعل بستم
چه آتش بود كاندر خرمن افتاد چه طوفان بدكه ناگاه در من افتاد
جهان خالى شد از مهتاب وخورشيد چمن خالى شد از شمشاد واز بيد
چراغ عالم افروز از جهان شد نه شيرين كافتاب از من نهان شد
نبخشايد فلك بر هيچ مظلوم نبا شد شفقتش بر هيچ محروم
دريغا آنچنان خورشيد وآماه كز اينسان درخسوف افتاد ناگاه
بگريد بر دل من مرغ وماهى كه رفت آب حياتم در سياهى
چرا از روى آن دلبر جدايم چو شيرين رفت من اينجا چرايم
اگر بى روى شيرين زنده مانم سزد كز تن بر آيد استخوانم
اگر صد گوسفند آيد فرا پش برد گرگك از گله قربان درويش
فرو رفته بخاك آن سرو چالاك چرا بر سر نريزم هر زمان خاك
زگلبن ريخته گلبرگك خندان چرا بر من نگردد باغ زندان
پريده از چمن كبك بهارى چرا چون ابر نخروشم بزارى
فرو مرده چراغ عالم افروز چرا روزم نگردد شب بدين روز
چراغم مرد بادم سرد از آنست مهم رفت آفتابم زرد از آنست
بشيرين در عدم خواهم رسيدن بيك تك تا عدم خواهم دويدن
صلاى عشق شيرين در جهانداد زمين بر ياد او بوسيد وجان داد

(١) قارن هذه القطعة بما يقابلها فى القصة التى كتبها الشاعر « شيخى » باللغة التركية

ليلى ومجنون :

ثالثة المثنويات التى كتبها «نظامى» هى قصة « ليلى والمجنون » وقد أصبحت لها مكانة كبيرة فى أذهان الخاصة والعامة على السواء ، وذاعت شهرتها بين قصص الحب فى الشرق وطغت على ما عداها من هذه القصص ، وفازت بالمكانة الأولى فى إيران وكذلك فى تركيا حيث أضفى الشاعر التركى « فضولى » كثيراً من الجمال على قصة هذا العاشق الحزين وعلى محبوبته الحسناء مما ساعد على نشرها فى الناحية الغربية من القارة الآسيوية (١) . وفى العربية ديوان ذائع الصيت يشتمل على كثير من الغزليات الجميلة التى ينسبونها إلى « قيس العامرى» الذى اشتهر بالمجنون ، وهو شخصية تكاد تكون خرافية ، ويقول عنه « بروكلمان (٢)» أنه توفى فيما يظن فى سنة ٧٠ الهجرية (= ٦٨٩ م) .

وقصة «نظامى» لا تحدث وقائعها فى إيران بل تقع حوادثها فى بلاد العرب ،وهى لا تمثل شخصية ملكية كالقصة السابقة، بل تمثل شخصين عاديين من عرب الصحراء أحدهما هو البطل ، والآخر هو الفتاة المعشوقة . ولكن « نظامى » استطاع أن يصبغها بالصبغة الفارسية وقد اختار لها الوزن الشعرى الآتى (٣) :

| — — u | — u — u | u — — |

فعولن   مفاعلن   مفعولُ

وتقع هذه المثنوية فيما بين الصفحات ١٩٤ - ٢٧٨ من نسخة طهران وهى تشتمل على أكثر من ٤٠٠٠ بيت .

= وتجدها مذكورة فى كتاب «تاريخ الشعر العثمانى» تأليف المرحوم « جب » ج ١ ص ٣٥٤ أما عرض القصة وتحليلها ففى صفحة ٣١٠ .

(١) أنظر ملخصا عن القصة التركية مع أمثلة لأسلوب «فضولى» فيما نشره « جب » فى كتابه «تاريخ الشعر العثمانى» ج٣ ص ٨٥ وكذلك ص ١٠٠ — ١٠٤ .

(٢) أنظر « تاريخ الآداب العربية» لبروكلمان ج ١ ص ٤٨ .

Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur

(٣) المترجم : هذا هو وزن الهزج المسدس الأخرب المقبوض المحذوف.

ونحن ننقل فيما يلي قطعة منها ، صور فيها الشاعر « زيداً » وقد رأى في منامه ليلى والمجنون في جنات الخلد . وتعتبر هذه القصة دليلا ـ إذا أحوجنا الدليل ـ على كذب الخرافة الشائعة بين الأوروبيين من أن المسلمين ينكرون على نسائهم الدخول في الجنة أو أنهم يستخفون بحب طاهر عفيف ... !!

ـ فلما فتق الليل نوافج العبير ...
ونثر فتات المسك على صفحات النهار المنير ... !!

ـ أتى « ملاك » فأظهر له في غفلته
روضة الخلد المزدانة في جنته .. !

ـ وقد ازدانت ساحتها بالأشجار العالية ... !!
وامتلأت بالهناء . كقلوب أصحاب الحظوظ المواتية ... !!

ـ وكل زهرة في أحضانها حديقة منمقة نامية ... !!
وكل ورقة من أوراق الورد كأنها الثريات الصافية .... !!

ـ والخمائل كأنها العيون المبصرة الراضية ... !!
أصبحت « مستقراً للأرواح » بألوانها اللاجوردية الزاهية .... !!

ـ والزهور المتفتحة قد أمسكت بكؤوس الشراب ... !!
وأخذت البلابل السكرى تشدو بأغاني الحب والأحباب ... !!

ـ وخضرتها يانعة ... لا يشابهها الزبرجد في صفائه ... !!
ونورها ساطع ... لا حد لروائه وضيائه ... !!

ـ وأخذ العازفون يعزفون بالأنغام والألحان ... !!
وأخذت الحمائم تردد أغاني الشوق والحنان ... !!

ـ وفي ظلال الورود المشمسة ذات البهاء ... !!
قد نصبوا « أريكة » على حافة النهر والماء ... !! (١)

---

(١) المترجم : الأصل الفارسي هو الآتي كما ننقله من ص ٢٦٩ من « ليلى ومجنون » طبع طهران سنة ١٣١٣ الهجرية الشمسية .
=

ـــ وفرشوها بالديباج والدمقس والحرير ... ! ! .
فبدت كأنها فراش الجنة الجميل الوثير ... ! ! .

=

شب چون سر نافه را خراشید　　بر نیفهٔ روز مشك پاشید
بنمود فرشته ایش در خواب　　آراسته روضهٔ جهانتاب
صحناش ز بلندی درختان　　خرم چو دل بلند بختان
در دامن هر شکوفه باغی　　هر برگ گلی در او چراغی
در هر چمنی چو چشم بینا　　مینو کدهٔ برنگ مینا
گلهای شکفته جام بر دست　　بر داشته بانگ بلبل مست
خضرا تر از ان زبرجدی نه　　افرختگیش را حدی نه
هم رود زنان بزخمه راندن　　هم فاختگان بزند خواندن
در سایه گل چو آفتابی　　تختی زده بر کنار آبی
وان تخت بفرشهای دیبا　　چون فرش بهشت کرده زیبا
فرخ دو سروش پی خجسته　　در دست نشاطگه نشسته
سر تا بقدم بزیور نور　　آراسته چون بحله در حور
می در کف ونوبهار در پیش　　ایشان دو بدو بقصه خویش
گه بر لب جام لب نهادند　　گه بر لب خویش بوسه دادند
گاهی سخنان خویش گفتند　　گاهی بمراد خویش خفتند
پیری بتعهد ایستاده　　سر بر سر تختشان نهاده
هر لحظه ز نو نثاری انگیخت　　بر تارك آن دو شخص میریخت
بینندهٔ خواب از آن نهانی　　پرسید ز پیر آسمانی
کاین سرو بتان که جام دارند　　در باغ ارم چه نام دارند
در منزل جان هوا گرفتند　　این منزلت از کجا گرفتند
آن پیر زبان گرفته حالی　　گفتش ز سر زبان لآلی
کاین یار دوگانه یگانه　　هستند رفیق جاودانه
آنشاه جهان براست بازی　　این ماه بتان بدلنوازی
لیلی شد لیلی آنکه ماهست　　مجنون لقب آمد آنکه شاهست
بودند دو لعل نابسوده　　در درج وفا بمهر بوده
آسایش این جهان ندیده　　اینجا بمراد دل رسیده
اینجا ألمی دیگر نبینند　　الی أبد الأبد چنین اند
هر کو نخورد در آنجهان بر　　زینگونه کند در این جهان سر
آنکس که در آن جهان حزینست　　شادیش در این جهان چنین است

ـــ ثم أقبل ملاكان رحيمان سعيدان ... ! !
فجلسا فى حبور وسرور وحنان ... !!
ـــ وفاض عليهما النور من أخمص القدم إلى قمة الرأس العالية ... ! !
فكأنهما الحور فى أبهى الحلل والأردية الغالية ... ! !
ـــ والخمر فى أكفهما ، ونضرة الربيع بادية عليهما ... ! !
وهما يتحدثان عن قصتهما وأمرهما ... ! !
ـــ فيقبلان شفة الكأس فى لهفة واشتياق ... ! !
أو يقبلان الشفاه والثغور والأعناق ... ! !
ـــ وأحياناً يتحدثان بما هما فيه من حب وهيام ...
وأحياناً يتعانقان فى غفلة لذيذة الأحلام ... ! !
ـــ ووقف إلى جوارهما « شيخ » وقور جليل ... !!
قد أطل برأسه ليتمتع بمنظرهما الجميل ... !!
ـــ وكان ينثر عليهما فى كل لحظة الذهب والجواهر ...
ويصب على مفرقهما ما شاء من الإبريز الساحر ... !!
ـــ فتقدم رائى الرؤيا ، فسأل ذلك الشيخ الخافى عن العيان ...
ليحدثه بأمر هذين العاشقين منذ أقدم الأزمان ...
ـــ فسأله : من يكون هذان العاشقان الممسكان بالأقداح ... ؟
وما اسمهما فى حديقة إرم بين الغيد والملاح ... ! !
ـــ فإنهما قد تحابا فى منزل الأرواح ...
فمن أين لهما بهذه المكانة والمنزلة ... يا صاح ... ! ؟
ـــ فأجابه الشيخ على الفور بحديث بادى النظام ...
هو من سحر القول أو من جواهر الكلام ... ! !
ـــ فقال : هذان حبيبان فريدان ...
قد انعقدت الصداقة بينهما منذ أبعد الأزمان ... !!
ـــ فأما أحدهما فملك ... حكم العالم بنقائه ...
وأما الأخرى فقمر ... فاق الأقمار بصفائه ... ! !

— فلما ماتت « ليلى » ... وكانت القمر المنير ... ! !
جن المليك ، فلقبوه بالمجنون الكسير ... !!
— وكانا من قبل ياقوتتين غير مثقوبتين ...
اشتمل عليهما درج الوفاء ، وختموه بالحب حتى لايفرق بينهما البين ...
— ومن أسف أنهما لم يظفرا فى الدنيا إلا بالعناء ... ! !
ولكنهما ظفرا هنا بما شاءا من سعادة وهناء ... ! !
— وسوف لايريان بعد الآن ألماً يدعو إلى الأنين ...
وسيظلان فيما هما فيه إلى أبد الآبدين ... ! !
— فإن الذى لايظفر فى الدنيا بمناه ...
سيظفر بما يريد ويشتهى ... فى أخراه ... !!
— وكذلك الذى أعيته الأحزان فى دنياه ...
سيكون سروره فى الآخرة على هذا النحو الذى تراه ... !!

هفت بيكر أو بهرام نامه (الصور السبع أو كتاب بهرام)

هذا الكتاب فى الحقيقة هو آخر المثنويات التى أنشدها « نظامى » ولكنه فى طبعة طهران يأتى بعد ليلى والمجنون ، ويحتل الصفحات من ٢٨٠ إلى ٣٩٤، ويشتمل على أكثر من ٥٠٠٠ بيت من الشعر تجرى على الوزن الآتى :

| — u u | — u — u | — — u — |

فعلان مفاعلن فاعلاتن

وموضوع هذه المثنوية مشابه لموضوع « خسرو وشيرين » فى كونه متعلقا بقصة خاصة بأحد الملوك الساسانيين وهو « بهرام گور » . وأكثر الحكايات التى رويت عن هذا الملك الذى اشتهر بفروسيته ومهارته فى الصيد والطراد مبنية على أساس تاريخى ، أو متعارف عليها من قديم الزمان ، فهى مروية فى تاريخ الطبرى (وقد صرح نظامى باسمه وذكره من بين مصادره التى اعتمد عليها . انظر « باخر » ص ٥٤) . وربما كانت تسمية هذه المثنوية باسم « بهرام نامه » أظهر فى الدلالة على

موضوعها من تسميتها باسم « هفت پيكر » ؛ لأن الصور السبع التى ذكرت فيها ليست إلا موضوعا واحدا من موضوعات القصة ، وربما سميت به لأنه أهم موضوع فيها .

والصور السبع التى تشير إليها هذه المثنوية هى الصور التى اكتشفها « بهرام گور » فى غرفة سرية فى قصره المعروف بالخورنق ، وقد تبين له أنها صور سبع أميرات يمتزن بالجمال والحسن : أولاهن إبنة ملك الهند ، والثانية إبنة خاقان الصين ، والثالثة إبنة شاه خوارزم ، والرابعة إبنة ملك الصقالبة ، والخامسة إبنة شاه إيران ، والسادسة إبنة امبراطور بيزنطة ، والسابعة إبنة ملك المغرب .

فلما رأى « بهرام » صورهن وقع فى حبهن جميعا ، فلما مات أبوه « يزد جرد » وتولى العرش مكانه ، كان أول ما فعله أن جد فى طلب هؤلاء الأميرات من آبائهن ، واستطاع أن يحقق رغبته بالزواج منهن جميعا . وقد أسكن كل واحدة من هؤلاء الأميرات السبع فى قصر مستقل ، جعله فى لونه يمثل إقليما من الأقاليم السبعة التى ينقسم إليها الـكون ، ثم أخذ فى زيارتهن بالتناوب فى سبع ليال متتالية ، بادئا فى يوم السبت بزيارة القصر الأسود الذى خصصه لإبنة ملك الهند ، ومنتهيا بيوم الجمعة بزيارة « القصر الأبيض » الذى تسكنه إبنة ملك المغرب . وتستقبله كل أميرة من الأميرات باحتفال فائق ، وتحتـفى به خير احتفاء بأن تسرد له ليلة مبيته عندها جملة من الحكايات الممتعة كالتى نجدها عادة فى قصة « ألف ليلة وليلة » .

وتنتهى المثنوية بقصة « الوزير الظالم » الذى التفت « بهرام » إلى سوء أعماله عند سماعه لحكاية « الراعى وكلبه الخائن » ، فإذا ما انتهت هذه القصة وصلت « المثنوية » إلى خاتمتها بوفاة « بهرام »

وفى المثنوية حكاية رائعة تمثل صحة المثل القائل بأن : « التكرار يعلم الحمار » تصور « بهرام گور » وهو يخرج كعادته مع جارية له إسمها « فتنة » تعود أن

---

(١) هذه القصة مروية بتمامها فى كتاب « سياست نامه » تأليف « نظام الملك » . أنظر طبعة شيفر Schefer ص ١٩ — ٢٧ .

يستصحبها معه عند خروجه للصيد ، وتعودت هى أن تغنى له على نغمات العود فى فترات استراحته واستجمامه ، ففى يوم من الأيام أظهر الملك مهارة عظيمة فى الصيد والرماية ، وكان يريد أن يستمع إلى كلمة إعجاب من جاريته « فتنة »

— ولكنها تدللت عليه ، ومنعت نفسها من الثناء عليه

— فصبر الملك على ذلك برهة ، حتى اجتاز به عن بعد حمار وحش

— فقال لها : « أيتها الفتاة التترية يا ذات العيون الضيقة ، لا تحتقرى مهارتى فى الصيد . . . ! !

— فمهارتى فى الصيد لا يشملها وصف ، وكيف يمكن لى أن أبديها لعينيك الضيقتين . . . ؟ !

— فقولى لى ، وقد أقبل هذا الحمار كيف أطارده ، وفى أى جزء من أجزائه أرميه بسهمى . . . واختارى مكانا بين رأسه وحافره ... ؟ ! »

— فأجابته الجارية : « إذا شئت أيها المليك أن تبيض وجهك ، فاضرب هذا الحمار بسهم واحد ، واقرن رأسه بحافره ...!! »

— فعلم الملك بتعقيدها للأمور ، وأخذ يبحث عن وسيلة يتخلص بها من سوء مقصدها ونيتها .

— ثم أسرع يطلب قوسه ووضع فيها كرة من الطين الصلصال

— وقذف بها حمار الوحش ، فأصابت الكرة أذنه وآذته

— ورفع حمار الوحش حافره إلى أذنه ليحكها به ، ويخلصها من هذا الصلصال الذى علق بها .

— فإذا بالمليك يلقى السهم... فيصيبه كالبرق ... ويقرن حافره برأسه ...!!

— فالتفت الملك إلى جاريته المفترية وقال لها : « لقد فزت كما ترين . . ! ! »

— فقالت الجارية هازئة به « لقد أتقن الملك هذا الأمر فكيف يصعب عليه ما أتقن . . ؟ ! .

— وكل ما يتعلمه المرء ، يسهل عليه فيستطيع فعله ولو كان صعبا . . ! !

— فإذا كنت قد أصبت بسهمك حافر الحمار فما ذلك إلا لطول مرانك على

الصيد . . . وليس فى الأمر ما يدل على قوة عضدك (١) . . !! »

فلما سمع الملك إجابتها وتهكمها به ، اشتد حنقه عليها ، وأمر أحد ضباطه بأخذها وقتلها ، ولكنها ما زالت بالضابط تتودد إليه وتستعطفه بأن المليك سيندم على قتلها أشد الندم ، حتى استطاعت فى النهاية أن تقنعه بأن من الخير له أن ينقذها من الموت ، فأخذها الضابط إلى قصره فى الريف وأخفاها هنالك ، وكانت هى نفسها ما زالت تتوق إلى أن تثبت له إن « التكرار يعلم الحمار » وأن « المران ينتهى إلى الإتقان » فلاحظت أن سلم القصر يشتمل على ستين درجة ، فاشترت عجلا رضيعا وأخذت تحمله كل يوم على أكتافها وتصعد به ذلك الدرج ثم تهبط به ثانية ، حتى اعتادت حمله رغم نموه وكبره .

وفى يوم من الأيام نزل « بهرام گور » ضيفا على هذا الضابط فغطت « فتنة » وجهها بنقاب ثقيل ، وأخذت تعرض على الملك رياضتها التى مرنت عليها . فأعجب الملك

---

(١) المترجم : هذه ترجمة الأبيات المذكورة فى ص ٨٩ من النص الفارسى لـ « هفت پيكر » الذى نشره الأستاذان ريتر Ritter وريپكا Rypka فى استانبول سنة ١٩٣٤ ونصها كالآتى :

وآن كنيزك ز ناز وعيارى	در ثنا كرد خويشتن دارى
شاه يك ساعت ايستاد صبور	تا يكى گور شذ روانه ز دور
گفت كاى تنگ چشم تاتارى	صيد مارا بچشم در نارى
صيد ما كز صفت برون آيذ	در چنان چشم تنگ چون آيد
گورى آمد بگوكه چون نازم	وز سرش تا سمش چه اندازم
گفت بايذ كه رخ بر افروزى	سر اين گور در سمش دوزى
شاه چون ديذ پيچ پيچى او	چاره گر شذ ز بذ بسيچى او
خواست اول كمان گروهه چوباذ	مهره در كمان گروهه نهاذ
صيد را مهره در فكند بگوش	آمذ از تاب مهره مغز بجوش
سم سوى گوش برد صيد زبون	تا ز گوش آرد آن علاقه برون
تير شه برق شذ جهان افروخت	گوش وسم را بيكديگر دردوخت
گفت شه با كنيزك چينى	دست بردم چگونه مى بينى
گفت پر كرد شهريار اين كار	كار پر كرده كي بود دشوار
هرچ تعليم كرده باشذ مرد	گرچ دشوار شذ تواند كرد
رفتن تير شاه بر سم گور	هست از ادمان نه از زيادت زور

كثيرا باستطاعتها أن تحمل ثورا إلى سطح المنزل وبإمكانها كذلك أن تهبط به ثانية إلى الأرض ، وطلب إليها أن ترفع نقابها ، فلما فعلت عرف أنها معشوقته السابقة ، فسر سرورا بالغا بسلامتها وعفا عما أظهرته نحوه من عناد ودلال .

اسكندر نامه أو كتاب الاسكندر

هذه هي المثنوية الخامسة من مثنويات نظامى، وهى مكتوبة فى وزن «المتقارب» وهو الوزن الذى كتب فيه أكثر الشعر القصصى .

| — u | — — u | — — u | — — u |

فعولن فعولن فعولن فعل

وهذه المثنوية مقسمة إلى قسمين : الأول منهما يسمى « إقبال نامه (١) » أو كتاب الإقبال ، والثانى يسمى « خرد نامه » أو كتاب العقل .

والجزء الأول من هذين الجزءين موجود فى الصفحات من ٣٩٦ — ٥٣٠ من طبعة طهران ، ويتلوه الجزء الآخر فى الصفحات من ٥٣٢ — ٦٠١ من هذه الطبعة ولا يقل عدد الأشعار التى يشتمل عليها هذان الجزءان عن عشرة آلاف بيت ، ثلثاها فى الجزء الأول والثلث فى الجزء الثانى .

وقد ترجم « الكولونيل كلارك Colonel W . Clarke كتاب الإقبال إلى اللغة الإنجليزية نثرا . كما درس الدكتور « واللس بدج E. Wallis Bupge « قصة الإسكندر » دراسة وافية تبين نشأتها فى مختلف الآداب الشرقية .

ومن أجل ذلك لم أر داعيا إلى الإفاضة فى هذا الموضوع من جديد ، فلن يكون

---

(١) هناك اختلاف كبير فى عناوين هذين القسمين ، فليرجع القارئ إلى مقالة «باخر» ص ٥٠ ، ٥٢ والمتفق عليه فى الفارسية تسميتهما تباعا باسم «شرف نامه» و «اقبال نامه» أى « كتاب الشرف » و « كتاب الإقبال » .

أما فى الهند ، فيميز الهنود القسمين بجعل عنوان أحدهما « اسكندر نامه برى » وعنوان الآخر « اسكندر نامه بحرى » .

من نتيجة ذلك إلا الإطالة فى هذه المقالة التى تحدثنا فيها عن « خمسة نظامى » فطال فيها الحديث من حيث لا نريد .(١)

٤ — ظهير الدين الفاريابى

هذا الشاعر وإسمه الكامل « ظهير الدين طاهر بن محمد الفاريابى(٢) » أقل شهرة من الشعراء الثلاثة الذين سبق الحديث عنهم ، وهو مدين فيما حاز من شهرة إلى بيت واحد من الشعر، يكثر ترديده بين الفرس دون أن يعرف قائله وهو :

ديوان ظهـــير فاريابى در كعبه بدزد اگر بيابى

ومعناه : إسرق ديوان « ظهير الدين الفاريابى » ولو وجدته فى الكعبة ...!!

وقد أشرنا فيما مضى إلى آراء « مجد الدين همكر » و « إمامى » وشاعر ثالث فى المفاضلة بين « ظهير الدين » وبين « الأنورى » ، ورأينا أن الشعراء الثلاثة أجمعوا على تفضيل « الأنورى » .

ولكن قيام هذا النوع من الجدل بين هؤلاء الشعراء يدلنا بصورة قاطعة على أن أشعار « ظهير الدين » كانت فى وقت من الأوقات تقدر حق قدرها ويكثر قراؤها على خلاف حالها الآن .

وقد طبعت أشعار « ظهير الدين » على الحجر فى مدينة « لكنو »(٣) وقام على طبعها « نول كشور : Nawal Kashor » . ولكن النسخة التى اعتمد عليها فى هذا البحث عبارة من مخطوط جيد (رقم Oo64.6) من مخطوطات مكتبة «جامعة كامبردج» وهو يشتمل على ١٦٠ ورقة ، كل واحدة منها تشتمل على ٢٢ بيتا من الشعر أى أن كل صحيفة من صفحاتها تشتمل على أحد عشر بيتا من الشعر ، ومعنى ذلك أن هذه الورقات تشتمل على ما يزيد على ثلاثة آف بيت من الشعر موزعة بين « القصائد » و « المقطعات » و « الغزليات » و « الرباعيات » .

(١) المترجم : من حسن الحظ أن أحدث بحث عن « نظامى » هو الذى كتبه بالعربية صديقى الدكتور عبد النعيم حسنين وأحرز عليه فى العام الماضى أول درجة للدكتوراه من جامعة ابراهيم وقد تمكن من نشره هذا العام بعنوان : نظامى الگنجوى ، شاعر الفضيلة .

(٢) أنظر « تاريخ گزيده » وكذلك « تذكرة الشعراء » لدولتشاه .

(٣) المترجم : تاريخ هذه الطبعة هو ١٢٩٧ هـ = ١٨٨٩ م .

وقد خصص «عوفى» مقالة ليست بالقصيرة لحياة « ظهير الدين » [١] وفيها مغالاة كبيرة فى بيان سمو مرتبته وعلو منزلته حتى إنه قال : « إن لشعره من الرقة واللطف ما ليس لشعر غيره من الشعراء » (٢) وأضاف « عوفى » إلى ذلك أن « ظهير الدين » ولد فى بلدة « فارياب » فى الشمال الشرقى من إيران ، ولكنه فاز بشهرة عريضة فى العراق حيث كان يفوز برعاية خاصة يتلقاها من حاكم أذربيجان الأتابك « نصرة الدين أبى بكر بن محمد بن ايلدكز » الذى كان يلقب باسم « جهان پهلوان » أى «بطل العالم» .

وقد أفرد له « دولتشاه » مقالة طويلة (ص ١٠٩ — ١١٤ من تذكرة الشعراء) قال فيها : أن ظهير الدين كان تلميذا للشاعر رشيدى السمرقندى ، وإنه ترك خراسان وهاجر إلى العراق وأذربيجان فى أثناء حكم الأتابك « أرسلان بن ايلدكز » (٥٨١ — ٥٨٧ هـ = ١١٨٥ — ١١٩١ م) ، وإنه كان قبل ذلك فى خدمة « طغان » حاكم نيسابور ، وإن بعض الأكابر والأفاضل يعتبرون أشعاره أرق وأدق من أشعار الأنورى .

ويبدو لنا مما جاء فى « تاريخ طبرستان » أن « ظهير الدين » كان قبل ذلك ملتحقا بخدمة إصبهبذ مازندران المسمى « حسام الدولة اردشير بن الحسن » الذى قتل فى أول إبريل سنة ١٢١٠ م = ٦٠٧ هـ ؛ وإليه وإلى جوده يشير «ظهير الدين» فى كثير من اللوعة والندم حيث يقول :

شايد كه بعد خدمت ده سال در عراق

نانم هنوز خسرو مازندران دهد

ومعناه : وهل يجوز بعد ما انقضت على عشر سنوات خدمتها فى العراق أن يظل ملك مازندران يعطينى قوتى . . . ؟ ! (٣)

---

(١) أنظر ج ص ٢٩٨ — ٣٠٧ من « لباب الألباب » .

(٢) المترجم : العبارة الفارسية الأصلية هى : « وشعر اولطفى دارد كه لطف او هيچ شعر ديگر ندارد » .

(٣) يقول ابن اسفنديار فى كتابه « تاريخ طبرستان » إن بعض الخدم نقل هذا البيت الى إصبهبذ مازندران فأمر بأن يعطى الشاعر مائة دينار وجواداً وخلعه ومنطقة مرصعة بالجواهر .

وقد زار « ظهير الدين » مدينة أصفهان ، ولـكن قاضى قضاتها المسمى : «صدر الدين عبـد اللطيف الخجندى » لم يحسن استقباله فبقى بها فترة قصيرة ، وكان من بين أعدائه « مجير الدين البيلقانى » شاعر الهجاء والتهكم فى اصـفهان ، وهو نفس الشاعر الذى صادفناه من قبل بين خصوم «الخاقانى » ، وقد أشار إليه «ظهير الدين» فى البيت التالى ، وفيه يتهكم به وبملابسه الفاخرة التى كان ينالها من « قزل أرسلان »

گر بديبـــاهاى فاخر آدمى گردد كسى

پس درأطلس چيست گرك ودر عبائى سوسمار(١)

ومعناه : إذا استطاع الإنسان أن يصير آدميا بالملابس الفاخرة

فمـا ذا يكون الذئب فى فروه الوافر ، والضب فى جلده الفاخر . . !!

وقد اعتزل « ظهير الدين » قبيل انتهاء حياته عيشـة الملوك والقصور وقنع كما فعل الـكثيرون غيره من شعراء المديح بعيشة الاعتكاف والتعبد فى تبريز حتى أدركته الوفاة فى نهاية سنة ١٢٠١ م (٢) = ٥٩٨ هـ وقد دفن هنالك، كما رأينا من قبل ، فى مقبرة « سرخاب » بجانب الشاعرين المعروفين « خاقانى » و« شاهفور الأشهرى».

ومع ذلك فإن قصائد « ظهير الدين » خالية من كل أثر للتدين ، عاطلة من كل ما يشعرنا بأنه أحسن التعبد والتزهد ، وهى — على العكس من ذلك — دنيوية فى أغراضها ومعانيها ، بحيث إذا فرضنا جدلا أنه شعر بالندم فى آخر حياته من التزامه حياة القصور فقرر بعـد ذلك الاعتزال والاعتكاف ، وجب علينا لزاما أن نفترض أيضا أنه اعتزل فيما اعتزل قول الشعر وإنشاء القصيد .

ولقد حملت نفسى مشقة كبيرة فى قراءة ديوانه المخطوط ، ولـكن النتيجة التى حصلت عليها من هذه القراءة كانت محزنة مزعجة ، فلقد وجدت أن الإشارات التى تشير إلى حوادث تاريخية قليلة جدا ، كما وجدت أن سائر أشعاره تجرى على نمط واحد ، فهى دائما من نوع القصـيد المصقول المهذب الذى امتاز به شعراء المديح من الفرس فجعل أشعارهم خالية من كل ما يستسيغه الذوق ، وجعلها خالية من الأقوال العنيفة

---

(١) أنظر « تذكرة الشعراء » ص ١١٤ .

(٢) سنة ٥٩٨ هـ كما ذكر ذلك « تاريخ گزيده » و « تذكرة الشعراء » لدولتشاه . ويقول « تاريخ گزيده » أنه مات فى شهر ربيع الأول من هذه السنة .

أو التهكمات اللاذعة أو الإحساسات النفسية العميقة ، وهذه الأشياء جميعها هى التى أضفت فى الحقيقة كثيرا من الروعة والجمال على قصائد « الأنورى »و «الخاقانى». وقصائد « ظهير الدين » ومقطعاته وغزلياته تبلغ فى عددها ١٨٥ منظومة ، أما «رباعياته» فتبلغ ٩٧ رباعية . ويشتمل ديوانه بالإضافة إلى ذلك علىمثنوية واحدة فى مدح السلطان « قزل أرسلان »

الملوك والأمراء الذين اتصل بهم ظهير الدين :

والملوك والأمراء الذين خصهم « ظهير الدين» بمدائحه هم كما يلى (١) :

١ — « عضد الدين طغانشاه بن مؤيد » : (٢) الملقب بملك الشرق (خسرو شرق) وقد خصه بسبع أو ثمان قصائد .

٢ — «حسام الدين أردشير بن حسن» ملك مازندان، وخصه بثلاث قصائد (٣).

٣ — «أخثسان» شروانشاه ، وقد وجه إليه قصيدة واحدة،وهوملك شروان الذى اختصه «الخاقانى» بمدائحه .

٤ — « قزل أرسلان بن ايلدكز » أتابك أذربيجان ، وقد وجه إليه إحدى عشرة قصيدة وأشار إلى موته فى مقطوعتين أخريين .(٤)

٥ — « نصرة الدين أبو بكر بيشكين بن محمد بن ايلدكز » حفيد « قزل أرسلان » ووارث ملكه وقد وجه إليه ٣٥ قصيدة .

٧ — «طغرل بن أرسلان» آخر ملوك السلاجقة فى فارس ، وقد وجه إليه قصيدة واحدة (٥) .

---

(١) الأسماء المذكورة فى هذا البيان ذكرناها وفقا لما جاء فى هذه القصائد لأن العناوين قليلة ولا تذكر فيها هذه الأسماء .

(٢) مات كما جاء فى « ابن الأثير » سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ — ١١٨٧) .

(٣) توفى كما جاء فى « ابن الأثير » سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ — ١٢٠٧ م) .

(٤) قتل فى « قونيه » فى سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) .

(٥) قتله « الخورزمشاه » فى مدينة الرى فى سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) .

٧ — سيد الرؤساء «بهاء الدين أبو بكر» : وقد خصه بأربع قصائد
٨ — « تاج الدين إبراهيم » : وقد خصه بقصيدتين
٩ — «مجد الدين محمد بن على أشعث(١)» : وقد خصه بأربع قصائد
١٠ — « سعد الدين » : وقد خصه بقصيدتين
١١ — « رضى الدين » : وقد خصه بقصيدتين
١٢ — « جمال الدين حسن » : وقد خصه بثلاث قصائد
١٣ — الوزير « شمس الدين » : وقد خصه بخمس قصائد
١٤ — « جلال الدين » : وقد خصه بقصيدة واحدة
١٥ — « شرفشاه » : وقد خصه بقصيدة واحدة
١٦ — الوزير « عماد الدين » : وقد خصه بقصيدة واحدة
١٧ — الوزير « محمد بن فخر الملك » : وقد خصه بقصيدة واحدة
١٨ — « صفى الدين الأردبيلى » : وقد خصه بقصيدة واحدة
١٩ — « عز الدين يحيي التبريزى » : وقد خصه بقصيدة واحدة
٢٠ — الوزير « نظام الدين » : وقد خصه بقصيدة واحدة
٢١ — « صدر الدين الخجندى » : وهو من كبار رجال الشافعية

فى إصفهان ، وكان مقتله على يد « فلك الدين سنقر » فى سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٦ م) . وقد وجه إليه « ظهير الدين » ثمانى قصائد . وكان « صدر خجند » هذا يعرف باسم « عبد اللطيف » وقد روى لنا « دولتشاه » مقالا بين فيه علاقة « ظهير الدين » به ، فقال (٢) :

« يقولون إن ظهير الدين خرج سائحاً من نيسابور إلى إصفهان ، وكان صدر الدين عبداللطيف الخجندى فى ذلك الوقت قاضياً للقضاة فى إصفهان ، فذهب إليه ظهير الدين ليسلم عليه ، فرأى عنده كثيراً من الفضلاء والعلماء ، فسلم عليه وجلس فى مكان من الأمكنة ، ولم يظفر فى هذه الجلبة بما كان يطمع فيه من العناية والعطف

(١) فى ديوان « الفاريابى » طبع « لكنو » كتب هذا الاسم بالباء اى « أشعب » .
(٢) انظر ص ١١٢ من « تذكرة الشعراء » .

فغضب على صاحب الدار ، وما لبث أن قال قطعة من الشعر ، أنشأها على البديهة ، وأسرع بتسليمها إليه ، [وترجمة هذه القطعة كما يلى] :

— أيها السيد العظيم ... رفقا ... فإن عظمة الدنيا ليست من الخطورة بحيث تسمح لأحد بأن يرفع رأسه تكبرا وعجبا ...!!

— وبالفضل وحده يكون الشرف ، ولقد جمعته برمته ، فلماذا تتيه اختيالا بهذا النعيم المزور ...؟!

— ولماذا لا ترعى باحترامك أهل الفضل ...، وأنت معروف فى هذا الزمان بأنك ممتاز بالفضل ... ؟ !

— فانظر إلى ، ولا تهزأ بى، فإن قلبى بما امتلأ من فضل لا يلهو بطرر الحور ... !!

— وإذا لم يعجبك حديثى ... فاستمع لكلمة واحدة منى واجعلها دستورا لأحوالك .. .!!

— واطرح هذا النقاب الذى اتخذته على وجهك فى هذه الدنيا ، وطوح به بعيداً عنك فى يوم عرض المظالم ...!!

— فسوف لا ترفع عليك ظلامة إلا ما تعلق منها بإجابتك الخشنة على سلام الناس عليك ... ! ؟ (١)

وقد أولاه «صدر الدين» كثيراً من رعايته وعنايته ، ولكنه لم يشأ أن يقيم بعد ذلك فى مدينة إصفهان ، وغادرها إلى أذربيجان ، فالتحق هنالك بخدمة الأتابك

---

(١) المترجم: فيما يلى النص الفارسى لهذه الأبيات وفقا لما جاء فى «تذكرة الشعراء» ص١١٣ وهذه الأبيات موجودة أيضا فى ص١٧٧ من ديوان الفاريابى طبع «لكنو» سنة ١٨٨٠ م

بزرگوارا دنيا ندارد آن عظمت	كه هيچ كس را زيبد بدان سرا فرازى
شرف بفضل وهنر باشد وترا همه هست	بدين نعيم مزور چرا همى نازى
ز.چيست كاهل هنر را نميكنى تميز	تو نيز هم بهنر در زمانه ممتازى
بمن نگه تو ببازى مكن از آنكه بفضل	دلم بگيسوى حوران نميكند بازى
اگرچه نيست خوشت يك سخن ز من بشنو	چنانكه آنرا دستور حال خود سازى
تو اين سپر كه ز دنيا كشيده در رو	بروز عرض مظالم چنان بيندازى
كه از جواب سلامى كه خلق را بر تست	بهيچ مظلمه ديگرى نپردازى

« مظفر الدين محمد بن إيلدگز » ، فبقى فى خدمته مدة السنوات العشر التالية .. »

ولـكن هذه القصة لا تتفق مع الحقيقة المعروفة عن «ظهير الدين» من أنه وجه إلى « صدر الدين الخجندى » جملة قصائد ذكر فى إحداها صراحة أنه مكث ملازما لأعتابه الشريفة مدة سنتين كاملتين ، وأنه يرجوه فى إلحاح أن يستمر على شموله بنعمه ، وألا يضطره فى يوم من الأيام — وهو كنز العلم والفضائل — إلى أن يمد يده إلى طغمة من الأسافل والأراذل ... !!

وعلى هذا يبدو لنا أن الشاعر مكث فى أصفهان سنتين أو ثلاث ثم ساءه أنه لم يظفر من « صدر الدين » بالجوائز والعطايا التى كان يطمع فيها فتركه إلى آذربيجان يريد أن يجرب حظه عند سيد جديد ربما يكون أكثر كرما وأجزل عطاءا .

حياة ظهير الدين :

ومن العسير أن نفصل الحديث عن حياة «ظهير الدين» لأن كثيراً من الحقا المتعلقة بحياته ليست فى أيدينا ، ولـكن النقطة الأساسية فى سيرته واضحة تمام الوضوح بحيث نستطيع أن نستشف منها صورة كاملة لحياة هذا الشاعر .

فقد بدأ يقول الشعر فى بلدته «فارياب» وذكرها فى بعض أشعاره على أنها موطنه ومسكنه ؛ ثم خرج منها وذهب إلى «نيسابور» ومدح حاكمها «طغانشاه بن المؤيد» بجملة من قصائده . وقد مات هذا الأمير فى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦—١١٨٧ م) ، وعلى ذلك يتحتم علينا أن نقول إن الشاعر قال مدائحه التى يخص بها هذا الأمير قبل هذا التاريخ . وقد ذكر الشاعر فى أحد أبياته أنه بلغ الثلاثين من عمره ، فإذا فرضنا أنه محق فى قوله ، وأنه لم يكن يقل عن الثلاثين ، أو إنه لم يتجاوزها إلا بسنوات قليلة فمن الممكن أن نستنتج من هذه القرينة أن «ظهير الدين» ولد حوالى ٥٦٢ هـ (١١٥٦م) .

وقد جاء إلى « آذربيجان » أثناء حياة «قزل أرسلان» ، وعلى ذلك يبدو أن زياراته لـ «حسام الدين أردشير بن حسن» ولـ «ملك مازندران» ولمدينة أصفهان ،

إنما وقعت جميعها فيما بين سنة ٥٨٢ هـ وسنة ٥٨٦ (١١٨٧ — ١١٩١ م) ، والسنة الأخيرة من هذين التاريخين هى السنة التى جلس فيهما الأتابك « نصرة الدين أبو بكر » فى مكان عمه « قزل أرسلان » .

وإذا صح أن وفاة «ظهير الدين» حدثت فى سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) — وليس لدىّ من الأخبار ما ينفى هذا التاريخ — فإنه يبدو أنه أمضى السنوات التى سبقت وفاته فى خدمة مولاه «نصرة الدين أبى بكر» ، وأنه لم يعتكف فى «تبريز» إلا خلال السنة الأخيرة من حياته ، أو على الأكثر خلال السنتين الأخيرتين السابقتين على مماته .

ونجد الشاعر يشير إلى بعض ظروف حياته فى جملة من قصائده ؛ فقد ذكر فى إحداها ، وربما قالها عند انتهاء إقامته فى «نيسابور» هذين البيتين :

مرا بمدت شش سال حرص علم وأدب بجا كدان نيشابور كرد زندانى
بهر هنر كه كسى نام برد در عالم چنان شدم كه ندارم بعهد خود ثانى

ومعناها :

— إن حرصى على العلم والأدب حبسنى مدة ست سنوات فى مدينة نيسابور الكريهة .

— ولكننى استطعت أن أصبح ولا ثانى لى فى كل فن من فنون الفضل المعروفة فى هذا العالم ...!!

وفى هذه القصيدة نفسها إشارة تحملنى على الظن بأن «ظهير الدين» تهكم بالشاعر « أنورى » عندما أصدر حكمه عن اقتران الكواكب فى سنة ٥٨٢ هـ (سبتمبر سنة ١١٨٦ م) فقد قال هذا البيت :

رسالتى كه ز إنشاى خود فرستادم بمجلس تو بابطال حكم طوفانى

ومعناه :

— وهى رسالة من إنشائى ، أرسلتها إليك لأبطل بها حكم الطوفان . . . !!

ويساعدنى على هذا الظن قطعة أخرى عثرت عليها فى ديوانه ، إذا صح فهى له ، فهى تشير صراحة إلى « الأنورى » لأنه قال فيها :

آنكس كه حكم كرد بطوفان باد گفت　　آسيب آن عمارت گيتى كند خراب
تشريف يافت از تو واقبال ديد وجاه　　در بند آن نشد كه خطا گفت يا صواب
من بنده چون بنكتهٔ إبطال كردم　　با منّ چرا زوجه ديگر ميرود خطاب

ومعنى هذه القطعة :

— ذلك الشخص الذى أصدر حكمه بقيام الريح ... قال إن أذاها سيجعل عمائر الدنيا خربة محطمة .

— ولقد نال منك التشريف والاقبال والجاه ، فلم يعلق أهمية على قوله إذا أخطأ أو أصاب .

— ولقد أبطلت حكمه بنكتة من قولى ، فلماذا تخاطبنى بطريقة أخرى جزاءا لما قلت من صدق وصواب ...؟ !

وربما تعرف «ظهير الدين» بعد ذلك بالأنورى ، أو ربما أطلع على أشعاره ، فإنه يبدو لى أن «ظهير الدين» قال قصيدته التى مطلعها :

اى فلك سر بدان در آورده　　كه تو گوئى كه خاك پاى من است

يجيب بها « الأنورى» ويعارضه فى قصيدته التى مطلعها :

كلبهٔ كه اندر آن بروز وبشب　　جاى آرام وخورد وخواب من است

ولا استطيع بالإضافة إلى هذه الإشارات أن أجد إشارة صريحة فى أشعار «ظهير الدين» لشاعر آخر من معاصريه ، اللهم إلا إذا كان البيت التالى يشير إلى الشاعر «نظامى» الذى أكمل مثنويته عن « خسرو وشيرين» فى سنة ٥٧١هـ (١١٧٥ — ١١٧٦ م) وهذا البيت هو :

وليك بيخم ازين در عراق ثابت نيست
خوشا فسانهٔ شيرين وقصهٔ فرهاد

ومعناه :

— ولـكن جذورى ليست ثابتة فى العراق
فما أحلى قصة «شيرين» وحكاية «فرهاد» ...!!

ومن المحتمل جدا أن «ظهير الدين» كان يحسد معاصريه الـكبيرين « نظامى» و«الأنورى» ؛ فإن أشعاره مليئة بالبراهين التى تدل على أنانيته ، وحرصه على المنفعة واستعداده لتحين الفرص للظفر بما يريد ، وتحقيره لأرباب مهنته ؛ وهو فى هذا كله مشابه للأنورى . وقد أشار «ظهير الدين » فى أشعاره إلى شاعر آخر سابق لعهده هو « بندار الرازى » الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) فقـال فيه هذين البيتين :

شعر بندار كه گفتى بحقيقت وحى است
آن حقيقت چو به بينى بود از پندارى
در نهان خانهٔ طبعم بتماشا بنـگر
تا ز هر زاويهٔ عرضه دهم دلدارى

ومعناهما:

— إن شعر «بندار» الذى قلت عنه إنه فى الحقيقة وحى ، إذا نظرت إليه لوجدت أن هذه الحقيقة وهم وخيال ... !!

— فانظر فى دخيـلة نفسى ، ففى استطاعتى أن أطلعك فى كل ركن من أركانها على ما يسبيك ويأسرك ...!!

وهنا أيضا نلحظ أن «ظهير الدين» على عادته يحقر أشعار غيره من الشعراء حتى هذا الشاعر المتقدم عليه ، الذى لم يـكن بينه وبينه أى منافسة أو حسد .

وكان «ظهير الدين» كغيره من شعراء القصور مولعا بشرب الخمر ، وكان سنى المذهب ، ولـكنه ربما لم يهتم بأمر الدين فى كثير أو قليل ، فهو يقول فى إحدى رباعياته : «إنه من الخير لك أن تـكون ثملا بالخمر فى جهنم من أن تـكون مفيقا فى الجنة ... !! »

---

(١) أخطأ «دولتشاه» فى نقل هذين البيتين فأورد البيت الثانى منهما بقليل من التحريف وسوء الفهم . انظر ص ٤٣ من «تذكرة الشعراء» .

وهو يقول فى رباعية أخرى : « إنه عبد مطيع للخضر الذى أخرجه من ظلمة العنب والعناقيد .. !! » وهو يشير بذلك إلى رحلة « الإسكندر » فى الظلمة تحت إرشاد « الخضر » باحثا عن ماء الحياة .

وقد اعترف « ظهير الدين » بكونه سنى المذهب فيما تحدث به عن الخلفاء وخاصة عمر وعثمان .

فهو يذكر « عمر » على أنه مثال للعدل حيث يقول :

شاهنشه ابى بكر محمد كه جهان را   از حضرت او مژده عدل عمر آمد

ومعناه :

— أن الملك « أبابكر محمد » قد زف البشرى من لدنه إلى الدنيا بعدل عمر

وقد ذكر عمر وعثمان معا فى مكان آخر ، فقال مامعناه :

— فهو الأتابك العظيم الذى استطاع عدله أن يقيم دين الله وسنة الرسول

— وهو كأبى بكر فى عظمته ، وهو شبيه بعثمان فى تواضعه ورحمته ، وهو فى علمه وعدله مساو للفاروق (عمر) ولحيدر (على) .

ولعل المثل العربى الذى يقول إن « الناس على دين ملوكهم » لا ينطبق تمام الانطباق إلا على شعراء القصور ؛ ولعله من الخطأ الواضح أن نعلق أية أهمية على مثل هذه الأقوال التى لا دلالة لها أكثر من أنها ترينا أن « ظهير الدين » لم يكن شيعيا متعصبا على أقل تقدير .

وكان شاعرنا — كما قلنا — شحاذا ملحاحا ، ولكنه كان على بينة من أنه باستجدائه بأشعاره قد أساء تمام الإساءة فى استغلال مواهبه . والأبيات التالية مثل واضح لطائفة كبيرة من أشعاره ، فهو يقول فى قصيدة طويلة يخاطب بها « صدر خجند » ما معناه (١) :

---

(١) هذه الأبيات موجودة فى ص ٤٤ — ٤٥ من ديوان « ظهير الدين الفاريابى » طبع لكنو سنة ١٨٨٠ م ، وهذا نصها مع مراعاة أنها لم ترد بالقصيدة على هذا الترتيب :

عالمى از عطات بر سر موج   كشتى من چنين گران لنگر

منم امروز وحالتى كه مپرس   گر بگويم نداريم باور =

— سار العالم بأجمعه فى بحر من عطاياك ، ولكن سفينتى وحدها ثقلت مراسيها ...!!

— فلا تسلنى عن حالتى اليوم ، فلو حكيتها لك لما صدقتنى ...!!

— فالفتنة بأنواعها كامنة حولى والفاقة بألوانها متكشفة أمام وجهى ...!!

— فهلا تريد أن أصبح بقليل من عنايتك ، مادحا لك فى هذا العالم ... !!

— ففى البحث عن أوجه المعاش لن يكون هناك مجال لحب أبى بكر أو صداقة عمر (١)

— وليس فى العراق جوهرى خبير بالجواهر ، ومن أجل ذلك حق لهم ألا يعرفوا قيمة جواهرى ... !!

— فيا قلبى ... إنك أنظف من أكياس الفضة ، ويا وجهى ... إنك أشد اصفرارا من صرر الذهب .

— وكل ما نالنى من جاه أنى أصبحت رئيسا للشعراء أجمعين ... !!

وفى قصيدة أخرى خاطب بها سيد الرؤساء «بهاء الدين أبى بكر» يقول مامعناه :

— ولما أطلق لسانى فى مدحك ، وإن كان كرمك يستوجب المعذرة من قصائدى ...!!

= فتنه در گرد من گشاده كمين — فاقه در روى من كشيده حشر
مى نخواهى كه من ز اندك سعى — با شمت در جهان ثنا گستر
در وجوه معاش مى شنود — مهر بو بكر ودوستى عمر
جوهرى نيست در عراق ورواست — گر ندا نند قيمت گوهر
اى دل پاك تر ز كيسهٔ سيم — وى رخ زرد تر ز صرهٔ زر
نيست دولت وراى آنكه شدم — در ميان سخنوران سرور

(١) المترجم : يقول الأستاذ « براون » فى تعليقاته على هذا البيت إنه يدل على أن الشاعر كان متهما أمام « صدر الدين الخجندى » وهو من كبار المتشيعين ، فأراد أن يعتذر عن سفيته بمثل هذا القول ، وربما كان هذا هو السبب الذى انتهى به إلى الابتعاد عن أصفهان .

— ولقد نفر خاطرى من الشعر لأنه ينقص من درجة الفضلاء (١)

— وكل غرضى هو أن أمدحك ، وإلا فأين مكانى من الشعر والشاعرية ..؟

— ومقامى فى قربك هو أدنى مقام فى خلوة سراى القدرة ....!!

— فكيف أفخر بالشعر ، ولو ثبت اسمى فى جرائد الشعراء ....!!

— والشعر فى ذاته ليس أمرا مشينا ، ولكن شكواى منه ترجع إلى خسة شركائى فيه ....!!

وهو يقول فى قصيدة أخرى ما معناه (٢) .

— والشاعرية هى أقل مواهبى ، فانظر إلى أنواع البلاء التى تحملتها منها ..!!

— فلم يثبت لى منها شىء فى العراق سواء فى «همدان» أو « بغداد » ... !!

— وكل ما تلقيته من تنعم بسبب فضلى فى هذا العالم كان قاصرا على جفاء أبى وصفعات أستاذى ... !!

— وكل من مدحته ورفعت ذكره ، عمل كل مافى استطاعته ليمحو ذكرى عن خاطره ... !!

— والغزل هو أحسن أنواع الشعر، ولكنه للأسف ليس البضاعة التى يمكننى أن أعتمد عليها ...!!

---

(١) المترجم هذه الأبيات موجودة فى ص ١١٦ من ديوان « ظهير الدين الفاريابى » ، وهذا نصها الفارسى :

من بمدحت زبان نداده هنوز — كرمت عذر صد قصيده بخواست
نفرتى د شت خاطرم از شعر — ز انكه آن نقص منصب فضلا ست
غرضم مدحت تو بود ار نه — شاعرى از كجا وبنده ز كجاست
زانكه خلوت سراى قدرترا ز قربت — جاى من در مقام او أدناست
چون تفاخر كنم بشعر ار چه — نام من در جريدهٔ شعراست
شعر در نفس خويش هم بد نيست — نا لهٔ من ز خست شركاست

(٢) المترجم : هذه الأبيات موجوده ص ٣١ من الديوان ، وهذا نصها الفارسى :

كمينه مايهٔ من شاعريست خود بنگر — كه چند گونه كشيدم ز دست او بيداد
وليك هيچم ازين در عراق ثابت نيست — تو خواه در همدان گير وخواه در بغداد

— ولقد أخذ بناء عمرى فى التحطم... فإلى متى أعمر منزل أطماعى بعطايا الناس وما أؤمل منهم ... !!

— وأية فائدة لى من أن حسناء فضية الصدر موجودة فى « كشمير » ... وأى نفع لى ... من أن حلوة الشفاه موجودة فى «نوشاد»(١) ...؟!

— فاقنع بهذا القول ولا تسلنى عن حال توبتى ، فليس فى استطاعتى أن أشرح لك مقدار العناء الذى يقاسيه قلبى ...!!

— وأطيب وردة تفتحت لى من قول الشعر هو أننى أصبحت أسمى نفسى عبد وأسمى معشوقى حرا (٢)

— وأحيانا أصف عبدا زنجيا بأنه من حور الجنان ، وأحيانا أصف السفلة والأراذل بأنهم أشد الناس نبلا ومجدا ... !!

ولا شك أن مثل هذه الأقوال تعتبر اعترافات صريحة لاذعة ، شاء الشاعر أن يتهكم بها بكل مداح محترف . ولا شك أيضا أن « ظهير الدين » كان يعتبر نفسه واحدا من هذا الطراز من الشعراء . فهو يعترف فى قصيدة أخرى أنه ليس من أصحاب الثروات الواسعة ، ولا من أصحاب المتاجر الرائجة ، ومن أجل ذلك فهو

=

تنعمى كه من از فضل در جهان ديدم ... همين جفاى پدر بود وسيلى استاد
به پيش هر كه ازو ياد ميكنم حرفى ... نميكند پس از آن نا تواند از من ياد
ز جنس شعر غزل بهتر است وان كم نيست ... بضاعتى كه توان ساختن بران بنياد
بناى عمر خرابى گرفت چند كنم ... برنگ وبوى كسان خانهٔ هوس آباد
مرا ازانچه كه سيمين بريست در كشمر ... مرا ازانچه كه شيرين لبى ست در نوشاد
برين پسند كن از حال تو به هيچ مپرس ... كه شرح درد دل اين نميتوانم داد
بهين گلى كه مرا بشگفد ازو اين است ... كه بنده خوانم خودرا وسرو را آزاد
گهى لقب نهم آشفته زنگى را حور ... گهى خطاب كنم مست وسفلهٔ را راد

(١) اشتهرت جملة مدن بأن أهلها يمتازون بالجمال والحسن ، ومن أشهر هذه المدن فى الشعر الفارسى المدن الآتية : «كشمير» ، «نوشاد» ، «ختان» ، «فرخار» ، «جگل» .

(٢) المترجم : يشبه المعشوق فى الشعر الفارسى بشجرة السرو فيقولون «سروآزاد» أى شجرة السرو الحرة أو النبيلة وهى أجمل أنواع السرو وأكثرها اعتدالا .

لا يملك المخازن الملأى بالغلال ، ولا الصناديق الزاخرة بالنقود والأموال ... !! ومن أجل ذلك أيضا تحتم عليه أن يتكسب بما يقول من شعر ، وأن يخضع نفسه إلى ما يستلزمه قول المديح من اعتبارات، ربما كان يحس لها بالمضض والحسرة فى قرارة نفسه . وهو فى هذا يلزم نفسه بأن تقنع مؤقتا بما تظفر به من عطاء ، وأن تتطلع إلى وسيلة تلتمس بها المزيد ، فإذا ظفر مثلا بخلعه طيبة وبمركب فاره ، فإنه يجد الفرصة مواتية ليقول :

— إننى لازلت أطمع فى برذعة ولجام
لكى أستطيع أن امتطى متن هذا المركب الذلول ... !!

فإذا لم يظفر بالمال لقاء ما يصدر عنه من مديح ، فإنه ربما لجأ إلى «الهجاء» وربما ظفر من أعداء من يهجوه بما يعوض عليه مافاته عند قول المديح ، ولعل الأبيات الآتية تقوم دليلا على هذا الرأى ، وفيما يلى ترجمتها :(١)

— أيها السيد .. لقد انقضى على ما يزيد على عام
وأنا أتجرع شراب مدحك فى كؤوس النظم والشعر ... !!
— ولكننى لم أر منك شيئا أستطيع التحدث عنه
ولم أظفر منك بشىء أستطيع أن أتدثر به ... !!
— فإذا سألونى عما أظفر به من جود فى مجلسك ... ؟
أجد نفسى مضطراً إلى أن أحشو آذانى بالقطن وأدعى الصمم ... !

---

(١) المترجم : الأبيات الفارسية موجودة بالديوان ص ١٩٧ ، وهذا نصها :

خدايگانا سالى زيادست كه من — بجام نظم مى مدح تو همى نوشم
نديده ام ز تو چيزى چنانكه برگويم — نيافتم ز تو چيزى چنانكه در پوشم
به مجلس تو ز جودت مرا سؤال كنند — نهاده بايد تا چار پنبه در گوشم
مباش غره اگرچه من از شمائل خوب — حكيم سيرت ونيكو نهاد وخاموشم
بگاه نظم چو من بر سخن سوار شوم — كشند غاشيه أقران ز فخر بر دوشم
بمدح وهجو همه كس پى شكايت وشكر — چو آفتاب بتابم چو بحر بخروشم
منار ز هجو تو بيتى دو بر كسى خوانم — نهند تخته دنيا همى در آغوشم
بزر سرخ چو از من هجاى تو بخرند — روا بود كه به نرخ تمام بفروشم

— فلا تغتر بشمائلى الطيبة
إذا بقيت حكيما ؛ طيب العنصر ، ملتزما للصمت . .!!
— فإننى إذا امتطيت صهوة النظم عندما أريد قول الشعر
فإن أقرانى يحملون لى ـ فى فخر ـ البراذع على أكتافهم ...!!
— وفى المدح أو فى الهجاء ، جميع الناس إلى شكاية أو ثناء
لأننى فى كلا الحالين أضىء كالشمس الساطعة وأصخب كالبحر الزاخر ...!!
— ولو أننى أنشدت أحداً بيتاً أو بيتين فى هجائك
لوضع فى أحضانى خزائن الدنيا ...!!
— وما داموا على استعداد لأن يشتروا هجاءك منى
فمن الحق على أن أبيعهم إياه بثمن باهظ ....!!

والظاهر أن مجرد التهديد بالهجاء كان فى ذاته كافياً لأن يجعل (حتى الذين لا يرتاحون إلى المديح) يحلون عن طيب خاطر الأربطة التى تزم أكياس نقودهم فيبذلونها راضين أو كارهين للشاعر ، ومن أجل ذلك أيضاً لا نجد فى ديوان الشاعر إلا عدداً قليلا من هذه الهجويات .

وفيما يلى هجاء موجه إلى فقيه اسمه «محيي الدين» نلحظ فيه ، على خلاف ما هو متبع فى الهجو ، أنه معتدل اللهجة متزن الحاشية ، وفيما يلى ترجمته (١):

— يا إمام العالم ، ويا مفتى الخلق ، يامحيي الدين ...
أنت تفوق بمركبك (٢) وطلعتك ، الخلق أجمعين...!!

(١) المترجم : الأبيات الفارسية موجودة بالديوان ص ١٨٨ ، وفيما يلى نصها :

إمام عالم ومفتى خلق محيى الدين	توئى باسب ورخ از كل كائنات فره
بمدحت تو دو نوبت قصيده ها گفتم	نه كرده سعى تو از كار من كشاده گره
ز پيش منبرت امروز مردكى بر خاست	كه توبه ميكنم از جرمها تو گفتى زه
ز مردمانش زر وسيم خواستى وهمه	بر طوع طبع بدادند بى لجاج وسته
ز بهر شعر چيزى نداديم بارى	براى توبه كنه دادى بشاعريم - بده

(٢) الكلمتان الفارسيتان هما « أسب» و «رخ» والأولى بمعنى جواد، والثانية بمعنى «وجه» أو «قلعة» وهما أيضا قطعتان من قطع الشطرنج .

— لقد مدحتك مرتين بقصائدى
ولكنك لم تحل المعقد من أمورى ....!!
— واليوم وقف رجل أمام منبرك
فقال : إننى تائب عن جرائرى فأجبته : لقد أحسنت ....!!
— ثم طلبت له من الناس بعض النقود والأموال
فاستجابوا لطباعهم الكريمة وأعطوك المال بغير لجاجة أو إلحاح
— فإذا لم تعطنى شيئا فى مقابل ما أقول من الشعر
فلا أقل من أن تعطينى شيئاً فى مقابل التوبة التى أوحيت لى بها عن قول الشعر ....!!

ومن السهل أن نستشهد بكثير من أقوال الشاعر التى كان يلح فيها على ممدوحيه بطلب المال ، والتى كان يضج فيها بالشكوى من فقره وعوزه ، فيقول مثلا : « إن الدائنين يرابطون على أعتاب دارى ، كما يرابط الحظ السعيد على أبوابك ... !! » ولكنا نكتفى بما سبق من أمثلة فهى كافية لتصوير اللهجة التى كان يتخذها الشاعر ولتصوير نوع الشعر الذى كان يقوله .

وكان ظهير الدين — رغم فخره بعلو منزلته فى العلم — أقل مكانة من الأنورى والخاقانى اللذين تمتلىء قصائدهما بإشارات كثيرة تدل على علم غزير .

وفيما يلى يجدر بنا أن نقف قليلا لنتأمل بيتا من الشعر قاله الشاعر لايخرج فى معناه عما نجده فى الإنجيل :

شتر بچشم سوزن بيرون نخواهد شد حسود خام طمع گو درين هوس بگداز

ومعناه :

— إن الجمل لاينفذ من عين إلا برة .
فقل لحسودك الساذج : « احترق فى رغبتك الجامحة ... !! »

ولست أعرف النظام الذى اتبع فى تنسيق ديوان « ظهير الدين » فإن ترتيب القصائد الموجودة به ليس موافقا للترتيب الزمنى ولا للترتيب الأبجدى ؛ ويبدو لى أن

جامعه سعى إلى أن يضع فى بداية الديوان أجمل قصائد الشاعر ؛ وربما كان مستغربا أن نجد أن ثلاثا من القصائد الخمس الأولى فى الديوان قد استشهد بها « عوفى » فى كتابه « لباب الالباب (١) » ، وأن رابعتها قد استشهد بها «دولتشاه» فى كتابه «تذكرة الشعراء » (٢) ، وفى رأيى أن أجمل قصيدة فى الديوان هى القصيدة الأولى التى تشتمل على سبعة وثلاثين بيتا ، وربما كان من الخير أن أختم مقالى عن «ظهير الدين» بترجمة بعض أبياتها :

— ولكى تملأ بطنك بالطعام ؛ ولكى تستر جسدك بالثياب
انظر إلى ماتلاقيه الكائنات منك ... من ألم ونصب وعذاب ...!!

— وإلى الإعباء الثقيلة التى تعانيها منك الهوام والسوام
وإلى الأرزاء المريرة التى تصادفها منك قلوب الوحوش والطيور والأنعام..!!

— وهذا حيوان فى غفلة من أمره ... يرعى الأشواك فى واد بعيد
ولكنك تعد لحلقه هذا الساطور القاطع الشديد ...!!

— وهذه ديدان ضعيفة... تنسج أعشاشها بدماء قلوبها الضعيفه
ولكنك تجمعها لتتخذ منها لنفسك الأطلس والحرير والثياب اللطيفة...!!

— وأنت تأخذ أكفان الدودة الميتة فتلبسها فى هناء
فهل يعذرك أحد من أهل المروءة فيما تفعل من بلاء ... !!

— ولشدة جشعك وغاية حرصك على أن تجعل لسانك حلو المذاق
جلست تترصد النحل أن يتقيأ من فمه ما يحمل من شهد راق (٣) ...!!

---

(١) أنظر ج ٢ ص ٢٩٨ — ٣٠٧ .

(٢) أنظر ص ١١٠

(٣) المترجم : الأبيات الفارسية موجودة فى ص ٢ — ٣ من الديوان وهى الآتية :

به بين كه تا شكمت سيرو تنت پوشيده است — چه مايه جانور از تو خسته ورنجور
چه بارها ست ز تو بر تن سوام وهوام — چه داغهاست ز تو در دل وحوش وطيور
بدشت جانورى خار ميخورد غافل — تو نيز ميكنى ز بهر حلق او ساطور
كناغ چند ضعيف بخون دل بتند — تو جمع آرى كين اطلست وآن سيفور

=

خاتمة :

ومن العدل أن أعترف إننى أطلت الحديث عن « ظهير الدين الفاريابى » ، ولم يكن ذلك لأننى أساويه بـ« الأنورى » ، أو «الخاقانى» ، أو «نظامى » ، أو لأننى أقرنه بـ« الفردوسى» ، أو « ناصر خسرو » ، ولكن لأننى وجدته نموذجا طيبا لعدد لا يحصى من شعراء المديح الذين لازموا القصور فى هذه الفترة ، مثل « أثير الدين الأخسيكتى » ، و « مجير الدين البيلقانى » ، و « فريد الكاتب » ، و « شُفُروَه الأصفهانى » ، وكثير غيرهم ممن لا يزيدون أو يقلون فى مكانتهم عن « ظهير الدين » .

ومن الخير أن نكتفى فى هذا المقام بذكر أسمائهم ، دون أن نحاول أن نفصل الحديث عنهم جميعا فى كتاب ، مثل كتابنا هذا ، لا تتسع صفحاته للتفصيل والإفاضة .

=

ز گرم مرده كفن بر كشى ودر پوشى ... ميان أهل مروت كه داردت معذور
بدان طمع كه دهن خوش كنى ز غايت حرص ... نشسته‌ء مترصد كه قى كند زنبور

الفصل السابع

مملكة خوارزم

غارة المغول على خوارزم ، واستيلاؤهم على بغداد وتحطيمهم للخلافة العباسية

تحدثنا فى الفصل الخامس من هذا الكتاب عن نشأة ملوك خوارزم المعروفين باسم الـ « خوارزمشاه » أو « ملوك خيوه » الذين ينتسبون إلى « أنوشتكين » ساقى « ملكشاه » السلجوقى .

ولقد وصلنا الآن إلى بداية القرن الثالث عشر الميلادى (السادس الهجرى) وفيه نجد أن « علاء الدين محمد » حفيد « أتسز » قد تربع على عرش خوارزم ، وأخذ يحكم امبراطورية واسعة الأرجاء كانت فى السنوات الأخيرة تنافس فى اتساع رقعتها وفسحة نواحيها إمبراطورية السلاجقة فى أبهى أيامها وأسعد أوقاتها ، فقد امتدت من جبال الأورال إلى الخليج الفارسى ، ومن جبال الإندوس إلى حدود الفرات ، وشملت جميع ولايات إيران ما عدا ولايتى فارس وخوزستان .

ومن المستبعد جدا أن تكون مملكة خوارزم قد قامت على دعائم قوية ثابتة تفوق تلك التى قامت عليها الدول التى سبقتها ، والتى أخذت تزول عند ظهورها ، كدولة الغزنويين والسلاجقة والغوريين ، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تثبت أقدامها مدة تزيد على قرن كامل من الزمان ؛ ولم يمحها من الوجود إلا كارثة عامة لم يكن ينتظر وقوعها أحد من الناس ؛ وكانت هذه الكارثة من الشدة والقسوة بحيث استطاعت أن تغير وجه البسيطة بأجمعه ، وأن تحرك من القوى الكامنة ما ظل يفعل فعله حتى هذه اللحظة الحاضرة ، ولقد أصابت الجنس البشرى بكثير من الشرور التى لم تحدثها كارثة أخرى فى تاريخ العالم المعروف ؛ وأعنى بهذه الكارثة : غارة المغول .

فهذه الغارة شبيهة بثورة جامحة من ثورات الطبيعة الشاردة ، ولكنها لا تشبه فى شيء ما نعرفه من أحداث التاريخ الإنسانى ، لأنها امتازت بالمفاجأة ، والتخريب الشامل ، والقسوة النابية ، والغلظة الجافية ، والشدة التى لا تقاوم ، والتحطيم الذى لا رحمة فيه ، والدمار الذى لا مقصد من ورائه ... !!

وقد قامت بهذه الأفعال جميعها قبائل متوحشة لم يكن يعرفها أحد ، حتى أشد الناس اتصالاً بهم من جيرتهم ....!!

ويقول « دوسون d'Ohsson » : « لولا أن المصادر كلها تتفق على تصوير ما قاموا به من قتل وتخريب وتدمير لما استطاع أحد أن يصدق مقدار البلاء الذى أوقعته فى سنين قليلة هذه الجموع البربرية بمساحات واسعة من العالم امتدت من اليابان إلى المانيا (١) ... !! » .

ولقد نستطيع أن نعرف مدى الأثر الذى أثروا به فى قلوب معاصريهم من الكتاب إذا أوردنا هذه النبذة التى كتبها عنهم الكاتب المدقق والمؤرخ المحقق « ابن الأثير » عندما أراد أن يتحدث عنهم تحت سنة ٦١٧ هـ (= ١٢٢٠ — ١٢٢١ م) فقد قال :

« ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام : »
« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة ، استعظاماً لها ، كارهاً لذكرها »
« فأنا أقدم إليها رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى »
« الإسلام والمسلمين ... ؟ ! ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ... ؟ ! فياليت »
« أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . إلا أنى حثنى جماعة »
« من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى »

---

(١) طلب المغول من اليابان الخضوع لسلطانهم فى سنة ١٢٧٠ م وهاجموهم ثلاث مرات كانت الأخيرة منها فى سنة ١٢٨٣ م وقد حطم أسطول المغول فى سنة ١٢٨٠ م كما حطمت الأرمادا الأسبانية تماما . أما غارات المغول فى أوروبا فقد حدثت ما بين سنة ١٢٣٦ وسنة ١٢٤١ م .

« نفعاً ، فنقول : هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى »
« التى عقت الأيام والليالى عن مثلها ؛ عمت الخلائق وخصت المسلمين ، فلو قال »
« قائل : إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان »
« صادقاً . فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . ومن أعظم ما يذكرون »
« من الحوادث ما فعله « بختنصر » ببنى إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس . »
« وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء اللاعين من البلاد التى كل مدينة »
« منها أضعاف البيت المقدس ، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا ... ؟ ! »
« فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل ... !! ولعل الخلق »
« لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج . »
« وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه ، وهؤلاء لم يبقوا على »
« أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا »
« الأجنة . فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم »
« لهذه الحادثة التى استطار شررها ، وعم ضررها ، وسارت فى البلاد كالسحاب »
« استدبرته الريح . فإن قوما خرجوا من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد »
« تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند »
« وبخارى وغيرها ، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره ، ثم تعبر طائفة »
« منهم إلى خراسان فيفرغون منها ذكا وتخريباً وقتلا ونهباً ، ثم يتجاوزونها »
« إلى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ، ثم يقصدون »
« بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج إلا »
« الشريد النادر ... فى أقل من سنة ، هذا ما لم يسمع بمثله ... !! »

« ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى « دربند شروان » فملكوا »
« مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم ، وعبروا عندها إلى بلد اللان »
« واللكز ومن فى ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلا ونهباً وتخريباً »
« ثم قصدوا بلاد القبجاق وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم »
« فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء »
« التتر عليها . فعلوا هذا فى أسرع زمان ، لم يلبثوا إلا بمقدار سيرهم لا غير ...!! »

« ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنه وأعمـالها وما يجاورها من » .
« بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد . هذا ما لم »
« يطرق الأسماع مثله ، فإن الإسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا »
« لم يملـكها فى هذه السرعة إنما ملـكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً ، »
« إنما رضى من الناس بالطاعة ، وهؤلاء قد ملـكوا أكثر المعمور من الأرض »
« وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا ، وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة فى نحو »
« سنة ... !! ولم يبت أحد من البلاد التى لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقعهم »
« ويترقب وصولهم إليه ... !! »

« ثم إنهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم ، فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل »
« وغير ذلك من الدواب ، يأكلون لحومها لا غير ، وأما دوابهم التى يركبونها »
« فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير ... !! »
« إذا نزلوا منزلا لا يحتاجون إلى شىء من خارج ... !! »

« وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ، ولا يحرمون شيئاً ، فهم »
« يأكلون جميع الدواب حتى الـكلاب والخنازير وغيرها ... !! ولا يعرفون نكاحا »
« بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال ، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه ... !! »

« ولقد بلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من »
« الأمم ، منهـا : هؤلاء التتر — قبحهم الله — أقبلوا من المشرق ففعلوا »
« الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بهـا ، وستراها مشروحة مفصـلة »
« إن شاء الله تعالى ؛ ومنها خروج الفـرنج — لعنهم الله — من المغرب »
« إلى الشام وقصدهم ديار مصر وملـكهم ثغر دمياط منها ، وأشرفت ديار مصر »
« والشام وغيرها على أن يملـكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم ، وقد »
« ذكرناها سنة أربع عشرة وستمائة ؛ ومنها أن الذى سـلم من هاتين »
« الطائفتين فالسيف بينهم مسلول ، والفتنة قائمة على ساق ، وقد ذكرناه أيضا »
« فإنا لله وإنا إليه راجعون ، نسأل الله أن ييسر للاسلام والمسلمين نصراً من »
« عنده ، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم ، وإذا أراد الله بقوم »

« سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ثان . . . هؤلاء التتر إنما »
« استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع . وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمداً كان »
« قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم ، وبقى هو وحده سلطان البلاد »
« جميعها ، فلما انهزم منهم لم يبق فى البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ليقضى الله »
« أمراً كان مفعولا ... !! »

وقد كتب « ابن الأثير » هذا البيان برمته قبلما تحدث النكبة النهائية بثلاثين سنة تقريباً عندما أغار المغول على بغداد وحطموا الخلافة فى فبراير سنة ١٢٥٨ م = ٦٥٦ هـ . وقد انتهى « ابن الأثير » من تاريخه بذكر سنة ٦٢٨ هـ (= ١٢٣٠ — ١٢٣١ م) ثم مات بعد سنتين من ذلك التاريخ ولم يشهد بعينيه الفظائع التى تحدث عنها ، ولكنه كان يسمعها من الهاربين الذين استولى عليهم الرعب والفزع ثم أخذ فى تسجيلها بعد ذلك فاستطاع أن يحفظ لنا جملة من رواياتهم، ذكرها فى السنة الأخيرة التى انتهى بها تاريخه حيث يقول :

« ... ولقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى »
« ألقاه سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم ، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم »
« كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس ، فلا يزال يقتلهم »
« واحداً بعد واحد، لا يتجاسر أحد أن يمد يدا إلى ذلك الفارس... !! وقد بلغنى »
« أن إنساناً منهم أخذ رجلا ، ولم يكن مع التترى ما يقتله به ، فقال له : ضع »
« رأسك على الأرض ولا تبرح.. !! فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى فأحضر »
« سيفاً فقتله به ... !! وحكى لى رجل قال : كنت ومعى سبعة عشر رجلا فى »
« طريق ، فجاءنا فارس من التتر ، وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضاً ، فشرع »
« أصحابى يفعلون ما أمرهم ... !! فقلت لهم : هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب ؟ »
« فقالوا : نخاف . فقلت : هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله »
« يخلصنا ... !! فوالله ما جسر أحد يفعل ذلك ... !! فأخذت سكيناً وقتلته »
« وهربنا فنجونا . وأمثال هذا كثير ... » (١)

---

(١) ترجم هذه النبذة المؤرخ «دوسون d'Ohsson » فى كتابه بالجزء الثالث ص ٨٠

وكان « ياقوت الحموى » معاصرا لغارة المغول (فقد ولد سنة ٥٧٥هـ = ١١٧٨ وتوفى سنة ٦٢٧ هـ = ١٢٢٩ م) وكان صديقا لابن الأثير الذى ذكرناه سابقا ، وقد استطاع أن ينجو بنفسه من غارتهم ، وأن يخلف لنا صورة جلية لما كانوا يلقونه فى النفوس من رعب وفزع . وإشاراته إلى ذلك واضحة فيما نقله إلينا متفرقا فى كتابه الجغرافى « معجم البلدان » وكذلك فى خطاب له أورده « ابن خلكان» فى كتابه وفيات الأعيان(١) . وقد وجه ياقوت خطابه هذا إلى « القاضى الأكرم جمال الدين أبى الحسن على الشيبانى القفطى » وزير ملك حلب ، وذلك بعد ما تمكن « ياقوت» من التغلب على كثير من المصاعب والهرب من « مرو » والوصول إلى الموصل .

ويرجع تاريخ هذا الخطاب إلى سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ — ١٢٢١ م) وقد وصف فيه ياقوت المكتبات الموجودة فى مدينة مرو ، وقال فى لغة قوية رصينة : أنها كانت سببا لنسيانه الأهل والأحباب والوطن والأصحاب ، وأن محتوياتها وما اشتملت عليه من الكتب « شغله عن الأهل والوطن ، وأذهله عن كل خل صفى وسكن ، فظفرمنها بضالته المنشودة ، وبغية نفسه المفقودة ، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص ، وقابلها بمقام لا يزمع عنها محيص . »

ثم ذكر مقدار الرخاء والعمران اللذين فيهما كانت تنعم خراسان ، وأنها كانت فى ذلك شبيهة بجنة المأوى ورياض الخلد ، فقال :

« فكم فيها من خيّر راقت خيره ، ومن إمام توجت حياة الإسلام سيره ؟ »
« آثار علومهم على صفحات الدهر مكتوبة ، وفضائلهم فى محاسن الدنيا والدين »
« محسوبة ، وإلى كل قطر مجلوبة ، فما من متين علم وقويم رأى إلا ومن »

=

وكذلك « السير هنرى هوورث Sir Henry Howorth » فى كتابه « تاريخ المغول» History of the Mongols جزء ١ ص ١٣١ .

(١) هذه الرسالة مذكورة فى ترجمة ياقوت الرومى بالجزء الثانى من وفيات الأعيان طبع المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣١٠ هـ أنظر ص ٢١١ — ٢١٤ وانظر أيضا ترجمة De Slane لكتاب وفيات الأعيان (جزء ٤ ص ١٢ — ٢٢) .

« مشرقهم مطلعه ، وما من معرفة فضل إلا عندهم مغربه وإليهم مترعه ، وما »
« نشأ من كرم أخلاق بلا اختلاف إلا وجدته فيهم ، ولا إغراق فى طيب »
« أعراق إلا اجتنيته من معانيهم ، أطفالهم رجال وشبابهم أبطال ، ومشايخهم »
« أبدال ؛ شواهدمناقبهم باهره، ودلائل مجدهم ظاهره . ومن العجب العجاب أن »
« سلطانهم المالك ، هان عليه ترك تلك الممالك وقال لنفسه الله وآلك وإلا فأنت فى الهوالك . »
« وأجفل إجفال الرال ، وطفق إذا رأى غير شىء ظنه رجلا بل رجال...!! [(١)] »
« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، »
« فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والإلحاد ، وتحكم فى تلك الأستار »
« أولو الزيغ والعناد [(٢)] ، فأصبحت تلك القصور كالممحو من السطور ، »
« وأمست تلك الأوطان مأوى للأصداء والغربان ، يتجاوب فى نواحيها البوم »
« ويتناوح فى أراضيها السموم ، يستوحش فيها الأنيس ، ويرثى لمصابها إبليس »

« كأن لم يكن فيها أوانس كالدمى وأقيال ملك فى بسالتهم أسـد »
« فمن حاتم فى جوده وابن مامـة ومن أحنف أن عد حلم ومن سعد »
« تداعى بهم صرف الزمان فأصبحوا لنـا عبرة تدمى الحشا ولمن بعد »

« فإنالله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر وتهدم العمر ، وتفت »
« فى العضد ، وتوهى الجلد ، وتضاعف الكمد ، وتشيب الوليد ، وتنحب لب »
« الجليد ، وتسود القلب ، وتذهل اللب ...!! »

« فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه ناكصا ، ومن الأوبة إلى حيث تستقر »
« فيه النفس بالأمن آيسا ، بقلب واجب ، ودمع ساكب ، ولب عازب ، وحلم غائب ، »
« فتوصل وماكاد حتى استقر بالموصـل ، بعد مقاساة أخطار ، وابتلاء »
« واصطبار ، وتمحيص الأوزار ، وأشراف غير مرة على البوار والتبار ، لأنه »
« مر بين سيوف مسلولة ، وعساكر مغلولة ، ونظام عقود محلولة ، ودماء »

---

(١) أى «علاء الدين محمد» ملك خوارزم .
(٢) أى المغول

« مسكوبة ؛ وكان شعاره كلما علا قتبا ، أو قطع سببا : لقد لقينا من سفرنا »
« هذا نصبا . . ! فالحمد لله الذى أقدرنا على الحمد ، وأولانا نعما تفوت الحصر »
« والعد ؛ وجملة الأمر إنه لولا فسحة فى الأجل ، لعز أن يقال : سلم البائس »
« أو وصل ، ولصفق عليه أهل الوداد صفقة المغبون ، وألحق بألف ألف »
« ألف ألف ألف هالك بأيدى الكفار أو يزيدون . وخلف خلفه جل »
« ذخيرته ومستمد معيشته : »

« تنكر لى دهرى ولم يدر أننى ، أعز وأحداث الزمان تهون »
« وبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه وبت أريه الصبر كيف يكون . ! ! »
« . . . . الخ (١) »

وقد ساعد مظهر المغول البغيض ، وما امتازوا به من عادات قبيحة كريهة على زيادة الفزع الذى استولى على القلوب بسبب ما عرف عنهم من غلظة لا تقف عند حد وقسوة لا مزيد عليها . ولقد كان فتح العرب لأيران سببا فى كثير مما وقع فيها من دمار وخراب وعناء ، ولكن العرب كانوا — على حد تعبير أعدائهم الأسبانيين — « فرسانا وأبطالا يمتازون بكثير من الرقة والدماثة ولو كانوا من المغاربة القساة الأشداء ! ! » وقد خربوا فى الحقيقة كثيرا من إيران ولكنهم جلبوا معهم كثيرا من الخير والنفع ؛ وعلى العكس من ذلك كان المغول الذين وصفهم مؤرخهم النابه « دوسون » بقوله (١) :

« . . . لقد فاقوا فى قسوتهم أشد الشعوب همجية ، فقتلوا غيلة جميع من وقع فى أيديهم من أهل البلاد التى فتحوها ، ولم يبقوا على رجل أو امرأة أو طفل

---

(٣) المترجم : الترجمة الانجليزية لهذه النبذة مختصرة وقد أثبتنا هنا الأصل العربى .

(١) أنظر ص ٦ من المجلد الأول من كتابه المعروف « تاريخ المغول من جنكيز خان إلى تيمور لنك » .

Histoire des Mongols depuis Tchenguiz Khan jusq'ua Timour Bey ou Tamerlan , par M. Le Baron C. d'Ohsson, Paris 1834 - 35. 4 vols.

وأحرقوا البلدان والقرى ، وأحالوا الديار العامرة إلى مفازات مقفرة ؛ ولم يكن يحفزهم على ذلك كله رغبة فى ثأر أو حب لانتقام ، فقلما كانوا يعنون بمعرفة أسماء ضحاياهم الكثيرة ، وقلما كانوا يهتمون بالكشف عن هويتهم أو الوقوف على شخصيتهم .

ولربما ظن ظان أن التاريخ تغالى فى وصف مآسيهم وفظائعهم ، ولكن جميع المراجع التى دونت عنهم فى بلاد مختلفة ، تتفق تمام الإتفاق على ما امتازوا به من غلظة وعنف . وكانت عادتهم أن يسترقوا البقية الباقية من أهل البلاد التى يفتحونها وأن يعذبوهم أشد العذاب، بحيث كان من ينجو برأسه من سيوفهم لا يستطيع أن ينجو بنفسه من عسفهم وظلمهم . وكانت حكومتهم تعمل على نشر الفساد فتقصى كل من عرف بالشرف والنبل ، وتقرب كل من اشتهر بالضعة والخسة ، وتجزيهم على طاعتهم الذليلة وعلى خضوعهم لسادتهم من ذوى القلوب الغليظة بكل ما يتمنون من مال أوقوه أو سلطة ، يستطيعون بها التعسف مع ذوى قرباهم وأبناء جلدتهم . وقد أصبح تاريخ المغول ، بما انفرد به من وحشية وعنجهية ، سجلا لكثير من حوادث الفزع والرعب ، ولكن دراسته على الرغم من ذلك واجبة على كل من يريد تفهم الحوادث الهامة التى وقعت فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . خاصة وأن تاريخهم قد اتصل بتاريخ جملة من الممالك والامبراطوريات . . !! »

وربما اقتصرت فضائل المغول على مزاياهم الحربية ، فقد كانوا يمتازون بالنظام والخضوع وطاعة الرؤساء ، وكانت الترقية عندهم قاصرة على من يكون جديرا بها لكفاية أو دراية ؛ وكان الفاشل فى أداء الواجب أو الخارج على النظام أو العاجز عن القيام بما وكل إليه ، يعاقب بالموت هو وزوجه وأولاده . . ! !

وإذا غضب امبراطور المغول لأمر ارتكبه أكبر قواده ، فإنه كان يأمر بعقابه عقابا علنيا أمام سائر جنده ، وربما وكل أمر عقابه إلى رسول بسيط من رسله . . !!

وكان المغول يسترخصون حياة الناس ، ولكنهم كانوا يعنون بحياة المغولى أشد العناية ، فلا يلجأون إلى الحرب والقراع إلا إذا أعيتهم الحيلة ولم تنفعهم الوقيعة والخداع .

وكانوا يعاقبون من يقف فى وجههم بالموت ، ولـكنهم أيضا كانوا يعاقبون من يخنع أمامهم بالموت . . ؟؟ ولم يكونوا يبقون على أحد من سكان المدن التى يفتحونها إلا على من ينتفعون بمهارته فى حرفته ، أو من يستخدمونه فى غاراتهم التالية فى محاربة أبناء وطنه وعشيرته . وكانوا يضعون فى طليعة جيوشهم جماعات من الأسرى المساكين فإذا بدأت المعركة فإنهم كانوا يقذفون بهم ليقيموا لهم آلة الحرب والحصار ، ثم ربما أكرهوهم بحد السيف إلى أن ينفذوا خلال الفجوات التى يحدثونها فى أسوار المدينة وأن يملأوا الخنادق بأجسادهم لـكى يعبروا عليها ، فإذا سلم منهم أحد بعد هذا كله ، فإنهم كانوا يحزون رأسه ليتخلصوا منه وليفسحوا المجال للأسرى الجدد الذين يظفرون بهم فى موقعتهم الجديدة ...!!

وكانت قسوة المغول متعمدة يقصدون بها إيقاع الرعب فى قلوب أعدائهم حتى يشل الفزع حركتهم فلا يقدرون على المقاومة أو المدافعة . وكانوا يجدون أنه آمن لجيوشهم المظفرة ألا يتركوا وراءهم إلا الخرائب الملتهبة ، أو الأفران الملأى بالجثث الآدمية . لأنهم كانوا يخشون أن يبقوا على أحد بعد المعركة مخافة أن يثير لهم الفتن والقلاقل ... !!

ولا تتسع صفحات هذا الـكتاب لإيراد التفاصيل المتعلقة بتاريخ المغول ، أو لايراد ملخص عن إحداثهم فى إيران ، وإنى أحيل القارىء الذى يرغب فى استيعاب هذه التفاصيل إلى أحد مرجعين :

١ — تاريخ المغول الذى كتبه « دوسون d'Ohsson » .

٢ - تاريخ المغول الذى كتبه « السيرهنرى هوورث SirHenry Howorth »

ويمتاز المرجع الأول من هذين المرجعين ، بأن مؤلفه قد استعان فى تأليفه بالمصادر العربية والفارسية كما حدثنا بذلك فى مقدمة الجزء الأول من كتابه (١).

وأهم المصادر الإسلامية فى تاريخ المغول هى الآتية :

١ — تاريخ « ابن الأثير » وهو مكتوب بالعربية .

---

(١) أنظر ص ١٠ — ٦٨ من المقدمة .

٢ — سيرة السلطان جلال الدين المنكبرنى وقد كتبها بالعربية صاحب رسائله المسمى بـ «شهاب الدين محمد النسوى» .

٣ — تاريخ «جهان گشا» وقد كتبه بالفارسية « علاءالدين عطاملك الجوينى» وزير « هولاكو خان » .

٤ — جامع التواريخ وقد كتبه بالفارسية «رشيد الدين فضل‌الله» .

٥ — تجزئة الأمصار أو «تاريخ الوصاف» وقد كتبه بالفارسية « أبوعبدالله بن فضل الله الشيرازى » .

والكتاب الأول من هذه الكتب طبع مرتين إحداهما فى القاهرة والأخرى طبعة تورنبرج Tornberg ؛ وأما الكتاب الثانى فقد نشره وترجمه إلى الفرنسية « م . هوداس M. Houdas » فى باريس سنة ١٨٩١ — ١٨٩٥ م[1] وأما الكتاب الأخير فقد نشره مع ترجمة ألمانية المستشرق «هامر پورجستال Hammer Purgstall » وقد ظهر الجزء الأول منه فى مدينة ڤينا فى سنة ١٨٥٦ ، وله كذلك طبعة شرقية على الحجر . وأما الكتاب الثالث والرابع فمخطوطان حتى الآن[2] .

---

(١) المترجم : أحدث طبعة لسيرة جلال الدين هى التى نشرتها دار الفكر العربى سنة ١٩٥٣ م

(٢) المترجم : عندما كتب الأستاذ «براون» هذا الفصل لم يكن فى متناول يده إلا النسخ الخطية من كتابى « تاريخ جهانگشا » و « جامع التواريخ » ولكن هذين الكتابين طبعا بعد ذلك فى سلسلة جب التذكارية .

وقد أشار الأستاذ براون إلى أن « شيفر Sehefer » نشر جزءا من تاريخ «جهان گشا» فى ص ١٠٦ — ١٦٩ من الجزء الثانى من كتابه المعروف باسم مختارات فارسية Chrestomathie Persane وهذا الجزء هو الذى يتحدث فيه المؤلف عن غارة المغول على خوارزم وينتهى بغارتهم على نيسابور ؛ كما نشر كاترمير Quatremére » جزءا من « جامع التواريخ » مع ترجمة فرنسية فى سنة ١٨٣٦ وهذا الجزء هو الذى يفسر فيه المؤلف أحوال هولاكوخان ؛ وقد نشر « برزين Bérésine » جزءا آخر من هذا الكتاب ولكن الحصول عليه عسير لقلة نسخه ،وقال إن بلوشية Blochet يقوم بتكملة العمل الذى بدأه كاترمير ليتم طبع جامع التواريخ فى سلسلة جب التذكارية كما تنوى هذه السلسلة أيضاً طبع « تاريخ « جهانگشا » . [وقد تم طبعه فعلا فى ثلاثة أجزاء]

وقد أصدرت هذه السلسلة أيضاً فى سنة ١٩٤٠ م « تاريخ مبارك غازانى» باهتمام «كارل يان»

والرأى السائد أنه لم يكن هنالك ما يحول دون وقوع غارة المغول ، ولكنها من غير شك سهلت وتيسر حدوثها بواسطة ما عرف عن ملك خوارزم «علاء الدين محمد» من طمع وخيانة وتردد . فطمعه ظاهر كما يقول « ابن الأثير » فى أنه استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم ، ليبقى هو وحده على مملكة نخرة هاوية ، فلما انهزم أمام المغول وفر أمام جيوشهم تاركا بلاده للقدر يفعل بها ما يشاء ، لم تجد هذه البلاد أميراً إسلامياً واحداً يستطيع أن يلم شعثها ويوحد جهودها أمام الجيوش المغيرة من أهل الكفر والزيغ . وأما خيانته فظاهرة لأنه أقدم على قتل رسل المغول وتجارهم فأعطى بذلك لـ « جنكيز خان » الحجة الدامغة لتبرير الهجوم عليه ولإثبات أوجه الضعف والخذلان التى تسود الحالة فى إيران . وأما تردده فظاهر كذلك من أنه عند أول صدمة تلقاها من المغول أسرع إلى إظهار الفزع والخوف بدل ما كان يبديه من غطرسة وتحد ، ولم تكد تنقضى سنتان على قتله لرسل المغول حتى نجده فى النهاية يموت شريداً طريداً فى جزيرة من جزر بحر قزوين . ولولا الجهود الجبارة والأعمال الخالدة الجليلة التى أثرت عن ولده «جلال الدين» للازم العار جبين هذه الدولة الكبيرة التى كانت تعرف بمملكة خوارزم.

وهناك سبب آخر يرجع إليه ضعف المقاومة الاسلامية فى وجه المغول ، وهو الخلاف الذى نشأ بين ملك خوارزم «محمد» والخليفة العباسى « الناصر » . فقد كان هذا الخليفة يخشى ملك خوارزم وازدياد قوته وطمعه فى الاستيلاء على « بغداد » ، فسعى كما كان يفعل الخلفاء المتأخرون إلى أضعاف منافسه والإيقاع به وتدبير المكائد له ، وأخذ يشجع المغول على مهاجمته ، وقد أشار إلى ذلك « ابن الأثير» إشارة عارضة كما صرح بذلك « المقريزى» فى كتاباته ؛ ومن عجب أن أعقاب هذا الخليفة قد هلكوا على أيدى هؤلاء المغول الذين أبادوهم جميعاً وحطموا دولتهم واستولوا على بلادهم(١).

ويبدو أن الكارثة قد بدأت عندما علم ملك خوارزم عند استيلائه على مدينة غزنه . بأمر مراسلات متبادلة بين الخليفة وحكام «غزنه» من أعقاب «سبكتكين» (٢)

---

(١) أنظر ما كتبه « دوسون » فى جزء ١ ص ٢١١ .
(٢) أى الغزنويين من أعقاب محمود الغزنوى بن سبكتكين .

يثيرهم فيها الخليفة على ملك خوارزم ؛ وقد أسرع هذا برد الكيل مضاعفا، فأعلن أن الخليفة العباسى لا يمكن أن يعتبر إماما للمؤمنين ، ونصب أحد الأشراف من سلالة «على» فى مكانه واعترف له بالسلطة الروحية التى كانت للخليفة. وأصبحنا بذلك نجد أن ملك خوارزم بدل أن يجمع قوته لملاقاة الكارثة التى تهدد حدوده الشمالية الشرقية يزج بنفسه فى خصومة حامية مع خليفة بغداد . ثم يزداد الأمر سوءا بوقوع كارثة أخرى كان سببها اشتداد البرد وقسوة الشتاء فى هذه الديار بشكل لم تعرفه من قبل .

ومن المحتمل جداً أن الكارثة كانت آتية لا ريب فيها، وأنه لم يكن ليمنعها مانع، أو ليؤجل وقوعها مؤجل . ولكن سببها المباشر يرجع إلى إحدى هذه البعثات التى نسمع عنها كثيرا فى تلك الأيام . فقد رأى « جنكيز خان » أن يرسل جماعة من التجار محملين بمصنوعات بلاده إلى مدينة على حدود خوارزم اسمها «أترار» . وقد اختلفت المصادر اختلافا بينا فى عدد هؤلاء التجار ، فقال « النسوى » إنهم أربعة ، وأنهم كانوا مسلمين ومن رعايا خوارزم؛ بينما قال كتاب آخرون أنهم يبلغون الأربعمائة والخمسين تاجراً ، وقد قتلهم حاكم «أترار» جميعا بتحريض خفى من ملك خوارزم بعدما ألقى فى روعه أنهم ليسوا تجاراً فى الحقيقة بل هم جواسيس للمغول .

فلما قتل هؤلاء التجار ، أسرع « جنكيزخان» بإرسال بعثة إلى ملك خوارزم مكونة من عضوين مغوليين وثالث تركى اسمه «بغرا» وكلفهم بأن يحتجوا لديه على ما أصاب رسله من إهدار لحقوق الضيافة وتضييع لواجبات المجاملة ، وإن يطلبوا إليه أن يسلمهم حاكم «أترار» وإلا فليعد العدة لحرب طويلة قاسية .

ولم يجبهم ملك خوارزم إلى ما طلبوا ، بل على العكس من ذلك قتل الرسول التركى « بغرا» وأمر الرسولين المغوليين الآخرين بالعوده إلى مولاهم بعد أن حلق ذقنيهما .

وثار «جنكيزخان» لإهانة رسله، فعقد جمعية عامة من المغول «قوريلتاى» وقرر مهاجمة « خوارزم » .

وبدأت الحرب بانتصار تافه فاز به « محمد خوارزمشاه » ولكنه بقى مع ذلك

خاملا مبتعداً بنفسه عن مواقع الخطر ، تاركا أمر المدافعة عن حدود بلاده. ب أغار عليها المغول إلى حكامها ، منتظراً — فيما يقولون — لحظة مباركة يشير بها المنجمون ليبدأ فيها منازلة خصمه . . . . !! (١)

وفى أثناء انتظاره وترقبه ، عصفت العاصفة بشدة فيما وراء النهر فى خريف سنة ١٢١٩ م = ٦١٦ هـ وسقطت مدينة «أترار» بعد حصار دام خمسة أشهر أو ستة، وقبض المغول على حاكمها الذى أمر بقتل تجارهم ، فأعدموه بأن صبوا الفضة المصهوره فى عينيه وأذنيه ، ثم ساقوا أمامهم من نجا من غارتهم على هذه المدينة فدفعوا بهم إلى مدينة « بخارى » لينتفعوا بهم كما ذكرنا ضد مواطنيهم وأهل دينهم .

وأغاروا على « أوزكند »وعلى مدينتين صغيرتين أو ثلاث ؛ ثم أتوا إلى «جند» فاستولوا عليها بعد حصار قصير وأعملوا الغارة فيها تسعة أيام كاملة، ولكن من عجب أنهم لم يقتلوا سكانها . . !! » ثم سقطت مدينة « بنا كت » فى أيديهم ، وصمدت فى وجههم مدينة «خجند» لأن « تيمور ملك » دافع عنها دفاعا مجيداً . . ولم تظهر تباشير سنة ١٢٢٠ م = ٦١٧ هـ حتى سيطر المغول على مدينة « بخارى» وأعملوا الغارة فيها وأحرقوها وقتلوا عدداً كبيرا من سكانها واستحيوا النساء وهتكوا الحرمات وقد آثر الموت جهاداً جماعة من سكانها لم يرضوا بحياة العار والذل فاستشهدوا مقاتلين ، وكان من بين هؤلاء « القاضى بدر الدين » والإمام « ركن الدين » وابنه .

وجاءت نوبة « سمرقند » بعد ذلك فحاصرها المغول أربعة أيام ثم خضعت لهم فى نهاية هذه المدة ، فأغاروا عليها كعادتهم ونهبوها وقتلوا كثيرا من سكانها واستعبدوا من نجا من حد سيوفهم .

واستمر « محمد خوارزمشاه » فى التقهقر والتراجع ، وأخذ ينصح سكان البلاد التى يمر بها أن يعملوا ما يستطيعون لحماية بلدانهم لأنه فى موقف يعجز معه عن معاونتهم أو حمايتهم . واعتقد أن المغول سوف لا يجسرون على عبور نهر «جيحون»

---

(١) ربما قيل فيه ذلك إظهارا لجبنه وتردده

فتوقف قليلا فى مدينة « نيسابور » ، ولكن لم تنقض على ذلك ثلاثة أسابيع حتى علم أنهم دخلوا خراسان ، فأسرع إلى الهرب إلى ناحية الغرب صوب « قزوين » فلما بلغها دار على عقبه ويمم وجهه شطر « گيلان » و « ما زندران » وهناك تركه أتباعه وانفضوا من حوله ، ثم مرض بالبرص واشتدت عليه علته فمات شريدا طريدا فى جزيرة بعيدة من جزر بحر قزوين ، تاركا ملكه لابنه الشجاع « جلال الدين » وقد وقعت أمه « تركان خاتون » مع زوجاته وأولاده وجواهره فى أيدى المغول وحوزتهم .

وسقطت بعد ذلك « خوارزم » وكانت قد قاومت المغول مقاومة شديدة أثارت حفيظتهم ، فلما وقعت فى أيديهم أعملوا سيوفهم فى رقاب أهليها جميعا ولم يبقوا من سكانها إلا على أصحاب الحرف والصناعات ونقلوهم كعادتهم إلى «منغوليا» . وقد ذكر صاحب « جامع التواريخ » أن الجيش المغولى الذى حاصر « خوارزم » كان يبلغ خمسين الف مقاتل ، وإنه وكل إلى كل واحد من هؤلاء أن يقتل أربعة وعشرين رجلا من الأسرى الذين وقعوا فى قبضتهم بعد الاستيلاء على هذه المدينة . . ! !

واستشهد على أيديهم فى هذه المدينة العالم الورع الشيخ «نجم الدين كبرى»[١] وعاملوا سكان مدينة «ترمذ» نفس هذه المعاملة فقتلوا سكانها ، ووقعت فى أيديهم امرأة عجوز ابتلعت جوهرة لتخفيها عنهم ،فأمروا جندهم بإخراج القتلى وشق بطونهم بحثاً عن الدرر والجواهر . . . !!

وازدادت قسوة المغول وغلظتهم بازدياد نجاحهم ونفوذهم ؛ فلم نعد بعد الآن نسمع بحادثة واحدة أظهروا فيها قليلا من الرحمة والشفقة حيال سكان المدن البائسة التى وقعت تحت أيديهم بل أخذوا يبيدونهم عن آخرهم فى غلظة وفظاعة كما فعلوا بسكان « بلخ» و«نصرت كوه» و «نسا» و «نيسابور»و «مرو» وأماكن أخرى كثيرة . وقد قدر «ابن الأثير» القتلى من أهل «مرو» بـ ٧٠٠،٠٠٠ قتيل ، وأما صاحب « تاريخ جهانگشاى » فقد رفع عددهم إلى ١،٣٠٠،٠٠٠ وذلك فيما عدا

---

(١) ارجع إلى « نفحات الأنس » تأليف جامى ، طبع « نساوليز » ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧.

الذين اختفت أجسادهم فى فجوات مجهولة أو تحت الأنقاض والخرائب ....!!

وفى «نيسابور» قطع المغول رؤوس القتلى، وبنوا أهرامات عالية أحدها للرجال، والآخر للنساء، والثالث للأطفال، وبذلك ضمنوا أن لا ينجو مخلوق من حد سيوفهم بادعائه الموت وارتمائه بين الأشلاء والجثث المترامية ....!!

وخفت غارتهم على مدينة «هراة» قليلا، ولكنهم عندما وصلوا إلى «باميان» قتل أحد أمرائهم أثناء المعركة فخربوها تخريباً كاملا، ولم يأخذوا شيئاً من أسلابها بل فضلوا أن يتركوها صحراء خاوية، بقيت خالية من السكان قرنا كاملا من الزمان ..!!

ولم يأل «المغول» جهداً فى إيقاع الدمار والخراب بالأماكن التى اجتازتها جيوشهم وكانوا يعمدون إلى إحراق الحبوب والغلال التى تزيد على حاجتهم، وكثيراً ما كانوا يعودون إلى البلدان التى أغاروا عليها فيفتشونها من جديد ويقتلون البقية الباقية من أهلها المساكين الذين اختبأوا أثناء الغارة الأولى وأخذوا يخرجون الآن باحثين عن الطعام أو الشراب....!! وقد فعلوا ذلك مع أهل «مرو» فاستطاعوا أن يقتلوا أثناء عودتهم خمسة آلاف رجل نجوا من غارتهم الأولى التى ذكرنا خبرها فيما سبق من حديث .

وكانوا يلجأون إلى شتى وسائل التعذيب لحمل الأسرى على الاعتراف بأماكن النقود والكنوز التى أخفوها ... !!

أما كنوز الآداب والفنون التى كانت تزخر بها المدن القديمة التى فتحوها فقد حطمت تمام التحطيم وكان هذا طبيعيا ومنتظرا من قوم يستهينون أشد الاستهانة بكل شىء وبالحياة الإنسانية على وجه الخصوص .

ويذكر «الجوينى» أنه « لم يبق بالبلاد التى فتحها المغول واحد من ألف من ألف من سكانها »؛ ثم يعلن : أنه إذا لم تقع بخراسان والعراق العجمى حادثة من الحوادث تعوق ازدياد السكان بهاتين الولايتين، فإن أهليها لن يبلغوا إلى يوم القيامة عشر العدد الذى بلغوه قبل غارة المغول . . !! (١)

---

(١) أنظر ما كتبه «دوسون» جزء ١ ص ٣٥٠ .

وكانت أعمال المغول الإرهابية تلقى الفزع فى نفوس سكان البلاد التى يزمعون الإغارة عليها ، وكانت قلوبهم تنخلع رعباً وفزعاً حينما يوجهون إليهم إنذارهم المعتاد : « ولسنا نعلم ماذا تفعل بكم الأقدار إذا لم تسرعوا إلى تقديم الخضوع والاستسلام لنا، والله وحده هو الذى يعلم ما هو نازل بكم ...!! » (١)

وكانت عادات المغول وطباعهم تدعو إلى الاشمئزاز ؛ كما إن بعض أمورهم كانت تبعث فى نفوس المسلمين كثيراً من النفور والكراهية لمنافاتها لتعاليمهم ، فكانوا على استعداد لأن يأكلوا كل ما حرمه الإسلام وكذلك كل حيوان دنس كالفئران والقطط والكلاب . بل كان طعامهم — كما يقول « جان دى پلان كارپان Jean de Plan Carpin » — «يشتمل على كل ما يستطاع مضغه، وقد رأيناهم يزدردون كل شىء حتى الأعواد الجافة والبراغيث ....!! » (٢) .

وكانوا يكرهون الاستحمام والاغتسال ، وحرموا غسل الأيدى أو الثياب فى المياه الجارية واعتبروا ذلك جريمة جنائية بل من أمهات الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام ....!!

وكذلك اعتبروا ذبح الحيوان (بقطع حلقه) من أمهات الجرائم، فحرموا على المسلمين ذبح حيواناتهم وفقاً للطريقة التى أجازها الشرع ، واستعاضوا عن ذلك بطريقتهم الخاصة ، فكانوا يشقون بطن الحيوان ثم يمدون أيديهم إلى جوفه ، فإذا وصلوا إلى قلبه أمسكوه ونزعوه من مكانه ....!!

وكان المغول فى أمور الدين يتساهلون أشد التساهل ، وقد سووا بين رجال الدين فى مختلف العقائد والمذاهب وميزوهم ببعض الميزات وأعفوهم من بعض الضرائب، وهكذا كان حالهم فى معاملتهم للأطباء ولجماعات خاصة من أرباب الحرف ، وقد امتاز « جنكيزخان » على الخصوص بتسويته بين الأديان جميعها دون أن يعتنق واحداً منها ، وأما « قبلاى خان » ١٢٥٧—١٢٩٤م = ٦٥٥—٦٩٤ هـ فكان أول

---

(١) نفس المرجع ، جزء ١ ص ٣٩٤ .
(٢) نفس المرجع ص ٤١١ .
(٣) حيى «قبلاى خان» هذه العادة فيما بعد كما «يحدثنا «دوسون» فى جزء ٢ ص ٤٩١—٤٩٢

من اعتنق البوذية من عشيرته ؛ وأما أول من اعتنق الإسلام فهو: أحمد تاكدار خان ١٢٨٢-١٢٨٤م = ٦٨١-٦٨٣هـ ثم غازان خان ١٢٩٥-١٣٠٤م = ٦٩٥-٧٠٤هـ وقد بقى أعقابه الذين حكموا إيران يدينون بهذا الدين ، وقضى نهائيا على أمل طالما تردد فى نفوس المسيحيين بأن يكسبوا إلى جانبهم المغول وأن ينجحوا فى جلبهم إلى حوزة المسيحية ومعتنقيها ، حتى يتمكنوا من القضاء على الإسلام القضاء الأخير الذى لا بعث بعده . ولم يبق من أثر للبعثات المسيحية التى وصلت إلى المغول فى عاصمتهم « قراقورم » إلا السجلات الخالدة لأسفار جماعة من المبشرين والقسيسين الذين احتملوا فى شجاعة فائقة أهوال السفر العديدة ومخاطره الشديدة لعلهم يظفرون بفوز مؤزر للكنيسة المسيحية بجلب المغول إلى حوزتهم ، وكان من بين هؤلاء : «جان دى بلان كاربان» و«روبريكس Rubruquis » وغيرهما من القسس والرهبان.

وقد تحققت أوروبا من أن «خان» (١) المغول الذى ظل يراسلهم فى لغته المغولية برسائل مكتوبة بالخط الأيغورى ، سوف لا يعتنق المسيحية ، وبدا هذا اليقين واضحاً فى رسالة مكتوبة فى « نورثامبتون» فى ١٦ أكتوبر سنة ١٣٠٧م بعث بها «إدوارد الثانى » إلى ملك المغول « ألجايتو خدا بنده » (٢) .

وهذه الاتصالات التى كانت تتكرر بين أباطرة المغول وملوك أوروبا كان الغرض منها التحالف مع المغول ضد المسلمين ، ومساعدة الأرمن ، والسعى إلى استرجاع الأراضى المقدسة ؛ وقد نجحت هذه الاتصالات إلى حد ما ، فجلبت إلى حوزة المسيحية عشيرة مغولية اسمها الـ«قيرايت» كذلك أظهر الميل إلى اعتناق الدين المسيحى بعض الأمراء كالأميرة « أوروك خاتون » واثنين من الملوك الإيلخانين فى إيران هما « احمد تاكدار »و« ألجايتو خدا بنده » فكلاهما عمد فى صباه باسم «نيكولاس»

---

(١) «خان» هو لقب ملوك المغول .

(٢) أنظر ما كتبه «دوسون» جزء ٤ ص ٥٩٢ — ٥٩٤ وكذلك ما كتبه رموسا Abel Remusat بعنوان « بحث فى العلاقات السياسية بين الأمراء المسيحين ، وخاصة بين ملوك فرنسا وأباطرة المغول » .

«Memoire sur les relations politiques des princes Chrétiens et particulièrement les Rois des France avec les Empereurs Mongols»

ولكنهما فيما بعد اعتنقا الدين الإسلامى وأصبحا من أكبر المتفقهين فى تعاليمه (١) .

ومهما قيل فى غارة المغول وأنها كانت كارثة كبرى أصابت صميم الحياة وأنها جنت على العلوم والمعارف وخاصة الحضارة العربية التى استطاعت أن تحتفظ بكيانها سليما فى إيران طوال القرون الستة التى تلت الفتح العربى لهذه البلاد ، فإن هذه الغارة كانت مجلبة لبعض عناصر الخير برغم ما عرف عنها من شدة وغلظة ، وربما كان من بعض فضائلها أنها كانت سببا فى المزج بين الشعوب المختلفة المتباعدة ، مما نتج عنه فيما بعد تجديد العقليات التى طال ركودها وخمولها .

وكان تأثيرها فى أوربا واضحا ، فقد كانت سبباً هاما بل أهم الأسباب فى حركة النهضة ، فهى التى دفعت بالأتراك العثمانيين من مجاهل خراسان إلى أبواب القسطنطينية ، فكانت بذلك السبب المباشر والأخير فى تحطيم الامبراطورية البيزنطية وما نتج عن ذلك من انتشار اليونان وكنوزهم العلمية فى مختلف البلاد الأوروبية. وقد استطاعت هذه الغارة أيضاً أن تحطم الحدود والحواجز بين مختلف الأقاليم والممالك ، فمكنت بذلك لبعض الرحالة من أمثال « ماركو بولو Marco Polo » أن يجوبوا الأقطار النائية من آسيا وأن يحدثونا بالعجائب التى لم يكن من المستطاع الوصول إليها لشدة المحافظة عليها . وكما كانت سبباً فى البداية فى خلق التطاحن بين الفرس والعرب من ناحية ، وبين الصينيين وأهل «التبت» من ناحية أخرى ، فإنها كانت كذلك سبباً فى إيجاد التوافق والتعاون بينهم ، بمساواتها بين « الفقيه المسلم » و« القس المسيحى » و« اللاما البوذى » و « البخشى المغولى » وكل رئيس لدين آخر أو مذهب مخالف ؛ وكانت هذه المساواة الدينية قد انعدم وجودها منذ خمسة قرون أو ستة خلت قبل هذه الغارة .. (٢)

---

(١) أنظر كتاب «دوسون» جزء ٣ ص ٦٥١ وجزء ٤ ض ٧٩ .

(٢) فى سنة ١٢٧٢ م استعان « قبلاى خان » باثنين من المهندسين الإيرانيين فى حصار « فان شنج » بالصين وكان أحدهما يدعى « علاء الدين » والآخر يدعى « إسماعيل » [انظر كتاب دوسون جزء ٢ ص ٣٨٩] ؛ وعندما خرج «هولاكوخان» فى حملته على بغداد فى سنة ١٢٥٢ م = ٦٥٠ هـ جلب معه ألفاً من مهندسى الصين ليقيموا له المجانيق وآلات الحصار [أنظر نفس المرجع جزء ٣ ص ١٣٥] وقد استعان المنجم الفارسى المشهور والفيلسوف =

ومما لا شك فيه أن الأمور تحسنت كثيراً عندما ترك أعقاب «هولاكو خان» فى إيران معتقداتهم الوثنية واعتنقوا الدين الإسلامى، فقد كان هذا سبباً فى انفصالهم نهائياً عن ذوى قرباهم من أهل «قراقورم» وفى اندماجهم فى النهاية بالشعوب المغلوبة على أمرها التى كانت تخضع لحكمهم.

ومن عجب أن «هولاكو خان» الذى حطم الخلافة فى بغداد، والذى يعتبر أكبر خصم للاسلام، كان يشمل برعايته اثنين من كبار الكتاب فى زمانه، أحدهما «نصير الدين الطوسى» والآخر «عطا ملك الجوينى» مؤلف تاريخ «جهانكشاى» (١) وقد عاش مؤرخان آخران أثناء حكم «غازان خان» ١٢٩٥ — ١٣٠٤م = ٦٩٥ — ٧٠٤ هـ وهما «عبدالله بن فضل الله الشيرازى» المعروف باسم «وصاف الحضرة» والوزير «رشيد الدين فضل الله» وكلاهما يعتبر من أكبر الكتاب الذين دونوا التاريخ باللغة الفارسية.

والأدب الفارسى بمعناه الضيق، لا يمكن أن يقال عنه أنه قد أصيب بسبب غارة المغول بكارثة دائمة الأثر... لأننا نجد أن ثلاثة من أكبر الشعراء الذين نشأوا فى إيران قد عاصروا هذه الغارة وعاشوا خلالها، ونقصد بهم «سعدى الشيرازى» و«فريد الدين العطار» و«جلال الدين الرومى» كما أن جماعة آخرين من أكبر الشعراء قد نشأوا بعدها بقليل.

ومع ذلك كله فإن تحطيم بغداد كعاصمة للمسلمين، وإنزالها إلى مرتبة المدن الإقليمية، قد أصاب رباط الوحدة بين الأمم الإسلامية بلطمة شديدة كما أصاب مكانة اللغة العربية فى إيران بضربة قاصمة، فاقتصر استعمالها بعد ذلك على العلوم الفقهية والفلسفية، فإذا وصلنا إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) لم نعد نصادف إلا القليل النادر من الكتب العربية التى تم تأليفها فى إيران.

= المعروف «نصير الدين الطوسى» بجماعة من المنجمين الصينيين فى عمل الزيج الذى قدمه إلى «هولاكو خان» فى سنة ١٢٥٩ م = ٦٥٨ هـ.

[أنظر نفس المرجع جزء ٣ ص ٢٦٥]

(١) بمعنى «تاريخ فاتح العالم» ويقصد به جنكيز خان

عهود استعلاء نفوذ المغول فى إيران :

فلنمض بعد ذلك إلى بيان العهود المختلفة التى استعلى فيها نفوذ المغول فى إيران . وهذه العهود يمكن أن يقال أنها تمتد منذ الغزوة الأولى التى تم بها لجنكيز خان فتح هذه البلاد فى سنة ١٢١٩م = ٦١٦هـ وتنتهى بموت «أبى سعيد خان» فى سنة ١٣٣٥م = ٧٣٦هـ ويتبع هذه الفترة مدة تقرب من نصف قرن من الزمان سادت فيها الفوضى وانتهت بغزوة أخرى للتتر بقيادة « تيمور لنك (١) » (١٣٨٠ — ١٤٠٠م = ٧٨٢ — ٨٠٣هـ)

وهذه الحادثة التاريخية الأخيرة تعتبر «فترة انتقال» إلى ما يمكن أن نسميه بـ«تاريخ إيران الحديث » وهى تخرج عن نطاق هذا الجزء من كتابنا الذى نقصره على عهد المغول بمعناه الضيق ، ولم يكن ذكرنا لها فى هذا الموضع إلا لننبه القارىء إلى أن يجعلها حدا للفترة التى سنتناولها بالبحث .

وأول عهد لاستعلاء نفوذ المغول هو العهد الذى أسماه « ستانلى لين پول » بعهد كبار الملوك (أو الخانات جمع خان بمعنى ملك) وهو العهد الذى حكم فيه « جنكيز خان » و « أوكداى » و « كيوك » و «منكو » وقد امتد هذا العهد من سنة ١٢٠٦م إلى سنة ١٢٥٧م (٦٠٣ — ٦٥٥هـ)

ويمتاز هذا العهد بأن الولايات المختلفة التى فتحها المغول وأصبحت جزءا من امبراطوريتهم ، كان يقوم على حكمها ولاة يعينهم « الخان الأكبر » الذى كان يقيم فى عاصمة المغول « قراقورم » .

وعندما اجتمعت الجمعية الكبرى للمغول أى الـ«قوريلتاى» فى سنة ١٢٥١م = ٦٤٩هـ وذلك فى بداية عهد « منكو » قررت هذه الجمعية إيفاد بعثتين حربيتين إلى ناحيتين مختلفتين ، يتولاهما اثنان من أخوة هذا الامبراطور ومن أحفاد « جنكيز خان » ؛ فأما البعثة الأولى فكانت موفدة إلى الصين ، وكان يتولاها

---

(١) أو تيمور الأعرج .

«قبلاى خان» ؛ وأما الثانية فكانت موفدة إلى إيران والعراق وآسيا الصغرى وكان برأسها «هولاكو خان».

وثانى عهد لاستعلاء نفوذ المغول هو العهد الذى يمكن تسميته بعهد «الإيلخانيين الكفرة» أو العهد الذى أصبح فيه منصب «نائب الملك» فى إيران وآسيا الصغرى منصبا متوارثا فى أبناء نائب الخان الأكبر. وهذا العهد يبدأ بعبور «هولاكو خان» لنهر جيحون فى يناير سنة ١٢٥٦م = ٦٥٤هـ وينتهى بقتل «بايدو» فى ٥ أكتوبر سنة ١٢٩٥م = ٦٩٥هـ. ويمتاز هذا العهد بأن الإسلام فيه أخذ يستعيد قوته وأخذ يناضل بكل ما يملك من قوة لحفظ كيانه ضد هجمات البوذية والمسيحية، ويمتاز أيضا بأن الصلات التى كانت تربط الإيلخانيين فى إيران بأباطرة المغول فى موطنهم الأصلى أخذت تنفصم وتتلاشى. وجدير بنا أن نلاحظ هذا التطور الدينى الذى أصاب المغول المقيمين فى إيران، فبينما كان مقتل «أحمد تاكدار» فى أغسطس سنة ١٢٨٣م = ٦٨٢هـ يرجع سببه جزئيا إلى حبه للاسلام[١]، فإن مقتل «بايدو» بعد اثنتى عشرة سنه من ذلك التاريخ يرجع إلى حد كبير إلى بغضه للاسلام وحبه للمسيحية وتفضيلها عليه[٢] ولم يكد عقبه «غازان» يجلس فى مكانه حتى أعلن اعتناقه للاسلام وأمر بهدم الكنائس المسيحية والمعابد البوذية فى إيران. وبعد ذلك بقليل نجده فى سنة ١٣٠٠م = ٧٠٠هـ يأمر كهنة المغول[٣] الذين يقيمون فى إيران أن يعتنقوا الدين الإسلامى أو أن يتركوا إيران وإلا أمر بقتلهم والقضاء عليهم. ومن أجل ذلك نجد أن أشراف المغول وقوادهم ممن كانوا يناوئون الإسلام يجتمعون عند اعتلاء «غازان» العرش فى سنة ١٢٩٥م = ٦٩٥هـ ويدبرون مؤامرة كبيرة لخلعه تنتهى بفشلهم ومقتلهم جميعا[٤]، وبعد ذلك بعشر سنوات نجد أن بعض الأميرات والأمراء يحاولون أن يحرضوا «ألجايتو خدا بنده» على ترك الدين الإسلامى والرجوع إلى عقيدة آبائه

(١) أنظر كتاب «دوسون» ج ٣ ص ٦٠٨.
(٢) أنظر كتاب «دوسون» ج ٤ ص ١٤١.
(٣) يعرف الكاهن المغولى باسم «بخشى».
(٤) كتاب «دوسون» ج ٤ ص ٢٨١ — ٢٨٢.

وأجداده (١) . وربما كانت هذه الحادثة هى آخر مظهر للوثنية المغولية فى إيران . وكانت هذه الوثنية تظهر من قبل فى أمور تثير النفوس كاختيار المغول للفتيات الحسناوات ثم قتلهن وتقديمهن قربانا لروح الأباطرة عند وفاتهم...!! وكقتل جميع الذين يصيبهم الحظ النكد بأن يصادفوا جنازة الامبراطور فى أثناء نقلها إلى مقرها الأخير خشية أن يتسرب نبأ موته قبل إعلانه رسميا ...!!(٢)

فإذا رجعنا الآن إلى هذه العهود التى وصفناها من عهود استعلاء المغول نجد أن العهد الأول منها وهو عهد التدمير والتحطيم يمتاز بموجتين من أمواج الفتح :

الأولى بقيادة جنكيزخان ١٢١٩—١٢٢٧م = ٦١٦—٦٢٥هـ .

والثانية بقيادة هولاكوخان ١٢٥٥—١٢٦٥م = ٦٥٣ - ٦٦٤هـ .

وقد اكتسحت الغزوة الأولى إقليم خراسان وامتدت غربا إلى «الرى» و«قم» و «قاشان» و «همدان» وفى خلالها قام «جلال الدين خوارزمشاه» بأعماله الفائقة فى مقاومة المغول فأبدى من أعاجيب البطولة ما يخلب أبصارنا عندما نقرأ قصته كاملة واضحة فيما سجله من مآثره كاتبه المعروف «شهاب الدين محمد النسوى» الذى ظل يرافقه حتى اغتاله أحد الأكراد فى ١٥ أغسطس سنة ١٢٣١م = ٦٢٩هـ .

أما الغزوة الثانية التى قادها «هولاكوخان» فقد اكتسحت أيضا خراسان فى بداية سنة ١٢٥٦م = ٦٥٤هـ وامتدت إلى حصون الإسماعيلية فى «ألموت» و «قهستان» فحطمتها ، ثم مضت إلى الخلافة فى بغداد فأودت بها أيضا ، واستمرت تزحف غربا حتى أوقفها مماليك مصر فى موقعة « عين جالوت » التى وقعت فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م = ٦٥٩هـ وفاز فيها المصريون فوزا كبيرا اعتبر أول فوز أصابه المسلمون

---

(١) نفس المرجع ج ٤ ص ١٥٧ .

(٢) أمر «أوكداى» بقتل أربعين فتاة عذراء قربانا لروح جنكيز خان وكذلك أمر بقتل عدد كبير من الجياد . [كتاب دوسون ج٢ ص١٣] وقرر الجند الذين رافقوا جثة «منكوخان» إلى مقرها الأخير فى جبال آلتاى أنهم قتلوا أثناء الجنازة مالا يقل عن ٢٠٠٠٠ شخص .
[أنظر : كتاب « دوسون ج ١ ص ٣٨٤ »]

ضد «المغول» فى مدى السنوات الثلاثين التى تلت موت « جلال الدين خوارزمشاه » ومنذ ذلك التاريخ انحطمت موجة الفتح المغولى، وأخذ المسلمون يرون أن القول بأن أعداءهم لا يقهرون كان مجرد خرافة وخزعبلة ،فاستجمعوا قوتهم من جديد وتمكنوا من أن ينتصروا عليهم فى كثير من المواقع الفاصلة وخصوصا موقعة « عين تاب » فى ١٦ أبريل سنة ١٢٧٧م = ٦٧٦ هـ عندما تمكن « الظاهر بيبرس » من هزيمة المغول هزيمة نكراء واستطاع أن يقتل منهم فى هذه الموقعة ٦٧٧٠ جنديا . وربما كان فوز المصريين أكبر وأوضح فى موقعة « مرج الصفر » بالقرب من دمشق فى ٢٣ أبريل سنة ١٣٠٣م = ٧٠٣ هـ فقد استطاع الملك الناصر أن يجلب عند عودته إلى القاهرة ١٦٠٠ أسير مغولى مصفدين فى الأغلال ، وقد حمل كل واحد منهم رأس قتيل مغولى ، تتدلى من سلسلة فى عنقه ، وسار بهم فى المدينة ، يتقدمهم ألف فارس من رجاله، قد شهروا حرابهم ، وعلى كل واحدة منها رأس قتيل مغولى جلبوه معهم من الموقعة .. !!

وقد وصفنا فيما مضى هول الفظائع التى كان يأتيها جند « جنكيز خان » أثناء الغزوة الأولى لإيران ، ولمن شاء زيادة الإيضاح أن يرجع إلى وصف البلاء الذى أصاب المدن الآتية « أترار » و «جند» و«بناكت » و « بخارى » و« نيسابور» و «سمرقند» و «خبوشان» و «طوس» و «إسفرايين» و « دامغان»و « سمنان » و «نخشب» و «أرگنج» (أو گرگانج أو الجرجانية كما يسميها العرب) و «ترمذ» و« بلخ » و « نصرت كوه»و«نسا» و«خرندر» و«مرو»و«هراة»و« كردوان» و «باميان» و «غزنه» و «الرى» و «قم » و «مراغه» و «إربل» و « قاشان » و « بيلقان» و «همدان» وعدداً آخر من المدن والقرى الفارسية .

وهذا الوصف مذكور بإيضاح فى «تاريخ جهانگشاى» وفى «جامع التواريخ» وكذلك فى الكتب التى كتبها « دوسون » و « السير هنرى هو ورث » ، ومنها يبدو أن البلاء الذى عانته إيران وآسيا الصغرى على يد المغول كان مساويا للبلاء الذى أصابوا به الصين وآسيا الوسطى ، وأقل قليلا مما ابتلوا به أوروبا الشرقية .

وقد اتسعت رقعة الامبراطورية المغولية وبلغت ذروة الاتساع أثناء حكم « قبلاى خان » ١٢٦٠ — ١٢٩٤ م = ٦٥٩ — ٦٩٤ هـ . وفى أثناء هـذه السنوات تمكن « ماركو پولو Marco Polo » من القيام برحلاته الخالدة فى أرجاء هـذه الامبراطورية الشاسعه ، التى لم تبلغها إمبراطورية أخرى ، والتى كانت تتضمن الصين وكوريا والهند الصينية والتبت والهند إلى حدود نهر الـگنج وإيران وآسيا الصغرى والقرم وجزءا كبيرا من روسيا إلى حدود نهر الدنيپر(١).

وقد تهدمت إمبراطورية المغول فى إيران بموت « أبى سعيد » فى سنة ١٣٣٥م = ٧٣٦ هـ ، وتهدمت امبراطوريتهم فى الصين بعـد خمسين سنـة من ذلك التاريخ ، وظلت إمبراطوريتهم فى روسيـا حتى نهاية القرن الخامس عشر (٢) ؛ وكانت آخر بقاياهم ممثلة فى خانية خيوه (خوارزم) وخانية بخارى . [وقد فقدتا استقلالهما فى سنـة ١٨٦٨ وسنـة ١٨٧٢م ،] وكذلك فى خانية القرم التى زالت قبل ذلك فى سنة ١٧٨٣م . وقد بقى واحد من أحفادهم اسمه « السلطان كريم گراى كتى گراى » انتهى به المطاف إلى اسكتلندا فتزوج بها وأقام فى مدينة « إدنبره » (٣) .

جلال الدين خوارزمشاه

فى هذه الأيام الحالـكة التى وقعت فيها غارة جنگيزخان، وفى هذه الأوقات التى تلبدت فيها سماء إيران بالأدخنة المتصاعدة من المدن المحترقة ، وتبلل فيها ثراها بالدماء المهرقة من قلوب أبنائها ، نجد أن «جلال الدين خوارزمشاه» بماحباه الله من شخصية لامعة يسطع لحظة قصيرة كالشهاب الثاقب والبرق الخاطف، ثم تخمد ناره وينطفىء أواره دون أن ينتج أثرا أو يجدى نفعا . ولربما خلت صفحات التاريخ من ذكر أمير مثله

---

(١) أنظر « دوسون » ج ٢ ص ٤٧٧ .

(٢) أنظر « دوسون » ج ٢ ص ١٨٣ — ١٨٦ .

(٣) أنظر كتاب « الدول الاسلامية » تاليف «ستانلى لين پول »
Mohammadan Dynasties, by S. Lane — Poole.

امتاز بجرأته وإقدامه ، فقد كان يعلم من البداية أنه يحارب موقعة خاسرة لا رجاء فيها ، وكان من أجل ذلك حقيقا ، بأن يترفق به القدر فلا يقضى عليه بأن يموت شريدا طريدا على يد جلف من أجلاف الأكراد فى سنة ١٢٣١ م = ٦٢٩ هـ . ولقد رأينا فيما سبق كيف تبدل حال أبيه « علاء الدين محمد خوارزمشاه » عندما تحقق من قسوة المغول فانقلب بين عشية وضحاها من ذئب كاسر إلى حمل وديع فما زال يفر ويهرب حتى قضى نحبه فى جزيرة من جزر بحر قزوين فى سنة ١٢٢٠ م = ٦١٧ هـ ؛ ورأينا كيف قبض المغول على جدته « تركان خاتون » وحملوها أسيرة ذليلة إلى « جنكيزخان » فى عاصمته « قراقورم » فى سنة ١٢٢٣ م = ٦٢٠ هـ وكيف وقفوا بها فترة على حدود خوارزم لتنتحب على ملكها الضائع(١) ، ولتكفر عن صلفها وقسوتها عندما وجدت الأمور تفلت من يدها فأمرت بقتل البقية الباقية من أمراء السلاجقه والغوريين ، وكانوا رهائن لديها لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا(٢)

فى هذه الأحوال المضطربة نجد أن « جلال الدين » يستجمع قوته فيتزود بدعاء أبيه ويتمنطق بسيفه ثم يمضى أمام العاصفة على عجل فيحتمى بالحدود الهندية (٣) ويقوم هنالك بأعجوبه من أعاجيب بطولته التى ذاع صيتها وانتشر خبرها . وتفسير الأمر أنه عندما بلغ مع جيشه الصغير نهر السند وجد نفسه فجأة وقد أحاطت به جموع كبيرة من المغول فائقة العدة والعتاد ، فقاومها قدر ما يستطيع من مطلع الفجر إلى منتصف النهار ، وأبدى من ضروب الشجاعة والجلد مالامزيد عليه ، ولكنه أدرك فى النهاية أنه قد خسر الموقعة فهجم على أعدائه هجوم اليائس ، ثم يمم وجهه شطر النهر وألقى بدرعه عن جسده ، ثم امتطى صهوة جواده ، وعبر النهر على متنه ، وتبعه قوم من أتباعه ففعلوا مثل مافعل ولكن أكثرهم غرقوا أو أهلكتهم سهام المغول الذين كانوا يجدون فى أثرهم(٤) .

---

(١) أنظر كتاب دوسون ج ١ ص ٣٢٢ .

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٢٥٥ .

(٤) نفس المرجع ج ١ ص ٣٠٦ والصفحات التالية ، وقد روى صاحب تاريخ جهانگشاى أن أم جلال الدين وزوجه وبعض نساء حرمه كن معه فى ذلك الوقت وأن المغول أسروهن ،

ولقد استطاع بعد ذلك أن يجمع شتات جيشه وأن يدفع عن نفسه غارة شنها عليه أمير هندى اسمه « جودى » ، وشجعه هذا الانتصار فجمع الزاد والعتاد وهاجم أمير السند «قراجه» وأمير دهلى « التاتمش » وكانا متحالفين على قتاله ؛ ولكنه استطاع رغم هذا التحالف أن يبقى فى بلادهما حتى ينسحب المغول ويفسحوا له طريق العودة إلى إيران ليسعى مرة ثانية إلى استرجاع مملكة آبائه وأجداده .

وأعقبت ذلك ثمان سنوات قام فيها « جلال الدين » بسلسلة لا نظير لها من المجازفات والمخاطرات التى سجل تفاصيلها كاتبه « النسوى » فى كتاب يمكن قراءته باللغة العربية ، وكذلك باللغة الفرنسية فى ترجمة كاملة تولى نشرها المسيو هوادس M. Houdas [1] .

ولقد اضطر «جلال الدين» إلى أن يحارب جميع الناس تقريبا ؛ فقد كان عليه أن يحارب المغول الذين كانوا يتعقبونه، وكان عليه أن يحارب أيضا أخاه الخائن «غياث الدين » ، وأن يحارب أيضا حاكم كرمان «براق الحاجب» ؛ وكأنما لم يكتف القدر له بهذا العدد من الأعداء فاضطره فى ظروف مختلفة إلى أن يحارب الخليفة فى بغداد وكذلك التركمان والحشاشين (الاسماعيلية) وأن ينفذ إلى ولاية جورجيا فاتحا غازيا .

وفى سنة ١٢٢٣ م = ٦٢٠ ﻫ نجده يقتحم كرمان وفارس وأصفهان والرى ؛ وفى سنة ١٢٢٥ م = ٦٢٢ ﻫ يتمكن من هزيمة « قشتمر » قائد الخليفة ويتبع جيشه حتى أبواب بغداد ويستولى على تبريز ويهزم جيوش جورجيا ؛ وفى سنة ١٢٢٦ م (٦٢٣ — ٦٢٤ ﻫ) يستخلص مدينة «تفليس» ثم يعود فى عجلة إلى الجنوب الشرقى من إيران لينزل سخطه بحاكم كرمان « براق الحاجب » الذى خانه وتحالف مع المغول على الإيقاع به .

وفى سنة ١٢٢٧ م = ٦٢٥ ﻫ تمكن من معاقبة التركمان والحشاشين ثم اتبع

ولكن كاتبه النسوى روى رواية أخرى فقال إنهن سألن « جلال الدين » أن يأمر بإغراقهن خشية أن يقعن فى أيدى المغول ورأى جلال الدين استحالة العبور بهن فأمر بإغراقهن .

(١) المترجم : أحدث طبعة لكتاب « سيرة السلطان جلال الدين » هى التى نشرتها دار الفكر العربى سنه ١٩٥٣ م .

ذلك بنصر كبير على المغول فى « دامغان » وقتل اربعمائة أسير مغولى وقعوا فى يده ، ثم دار إلى أصفهان فدافع المغول عنها، ثم علم أن أهل «جورجيا» قد تحالفوا مع المغول على قتاله فأسرع إليهم وقتل أربعة من قوادهم فى موقعة واحدة انتهت بهزيمتهم هزيمة منكرة .

وفى سنة ١٢٢٩ م = ٦٢٧ هـ أخذ يدعو أمراء المسلمين للتحالف معه على محاربة المغول وكاد ينجح فى إنشاء هـــذا الحلف ولـكن جيشا من المغول قوامه ٣٠,٠٠٠ محارب بقيادة « نويان چرماغون » حمل عليه فجأة واضطره إلى الهرب شمالا حيث استطاع أن يستولى على مدينة گنجه (١) .

وانقلب حظه بعد ذلك ، وخمد نشاطه ، وأدمن الشراب ، وهام على وجهه دون غاية ، وبدت عليه الهموم ، فأصبح كسير القلب ، سريع البـكاء ، وأخذ ينتحب أشد الانتحاب لموت «قليج» أحد غلمانه المقربين إليه ، وما زال يهرب أمام المغول حتى انتهى به مطافه إلى قرية كردية ، فهجم عليه أحد رجالها وتمـكن من قتله فى ١٥ أغسطس سنة ١٢٣١ م = ٦٢٩ هـ .

وقد أحاط كثير من الشك بنهاية «جـلال الدين» ولم يستطع المؤرخ الـكبير « ابن الأثير » أن يقطع بأمر فى مصيرها ، وظلت الاشاعات تملأ الوادى الايرانى مدة السنوات الاثنتى والعشرين التى تلت موته ، فظنوا أنه مازال حيا ، وأنه قد خرج ثانية من مخبائه ؛ وادعى ذلك كثير من المدعين وانتهى الأمر بقتلهم على أيدى المغول .

ونهاية «جلال الدين » هذه وما أحاطها من شك فى مصيره ، تمثل لنا حال أى بطل قومى تتعلق به الآمال فى ساعات اليأس العصيبة ... وشبيه بها عندنا حالة « هارولد الانجليزى» ، ففى كلتا الحالتين نجد الأوهام الشعبية تنتهى بالبطل إلى حياة الزهد والتقشف ثم الموت فى سن الشيخوخة ميتة الأولياء والصالحين .

---

(١) هى المعروفة الآن باسم « اليزافتپول Elizavetpol» .

اوكدى (أوكتاى) :

مات « جنكيزخان » فى الصين فى ١٨ أغسطس سنة ١٢٢٧ م = ٦٢٥ هـ بعد ما حكم اثنتين وعشرين سنة ، وكان يبلغ من العمرستة وستين عاما . وقد انقضت على موته سنتان قبل أن يتمكن أمراء المغول ورؤساؤهم فى مختلف البلاد التى فتحوهامن الاجتماع فى جمعية عمومية «قوريلتاى» لأختيارخليفته ؛ وقد انتخب ابنه «أوكداى» فى تاريخ تصادف وقوعه مع موت « جلال الدين » وانتهاء حكمه اا «خوارزمشاه» أو ملوك خوارزم . وقد كان حكم أوكداى قصيرا لأنه مات فى ديسمبر سنة ١٢٤١ م = ٦٣٩ هـ وربما ساعد على التعجيل بموته إدمانه للشراب القوى ، وهى خصلة اعتادها المغول من بين ما اعتادوه من خصال سيئة شريرة .

وامتاز حكم « أوكداى » بجملة أشياء من بينها :

١ — تأسيس عاصمة المغول فى « قراقورم » فى سنة ١٢٣٥ م = ٦٣٣ هـ.

٢ — إيفاد بعثة حربية إلى إيران بقيادة « نويان چرماغون » .

٣ — غزو روسيا وپولندا ما بين سنتى ١٢٣٦ و ١٢٤١م = ٦٣٤ — ٦٣٩هـ وقد ابتلى المغول روسيا وپولندا بنفس الأهوال التى ابتلوابها إيران فتحمل كثير من مدنهما شناعات المغول وخاصة « موسكو » و « روستوف » و « ياروسلاف » و« تفير » و « شير نيكوف » و « كييف » و « كراكاو»و «پست » .

وفى پولندا وحدها جمع المغول أكياسا ملأوها بآذان ضحاياهم وقتلاهم فبلغ مجموع ما جمعوه ٢٧٠،٠٠٠ أذن ، أخذوها معهم دليلا على ما كانوا يفخرون به من بأس وسطوة . . . ! !

وازعج المغول بأفعالهم وشناعاتهم العالم المسيحى، فبعث البابا «جريجورى التاسع» خطابا دوريا إلى الأمراء المسيحيين يحثهم فيه على التكاتف لإعلان حرب صليبية على هؤلاء الغزاة من التتر .

ومع ذلك كله ...فقد كان «أوكداى» بالقياس إلى المغول الآخرين ، لين العريكة

كريم الجانب، وقد أجمع المؤرخون الإسلاميون على وصفه بذلك وخاصة مؤلف كتاب « تاريخ جهانگشاى » وكذلك «طبقات ناصرى» [١] ، فقد أورد هذان المؤلفان أمثلة كثيرة تبرهن على شدة حبه للشفقة والرحمة وعلى بغضه لإراقة الدماء بغير داع أو سبب ، وعلى خصال يخالف فيها ماعرف عن أخيه الأكبر « چغتاى » من غلظة وفظاظة [١] .

كيوك :

عندما مات « أوگداى » تولت امرأته « توراكينا » حكومة البلاد حتى يستطيع ابنها الأكبر « كيوك » العودة إلى « منغوليا » من معاركه التى كان مشغولا بها فى فى روسيا وپولندا عندموت أبيه . وقد امتازت الجمعية العامة التى تم فيها انتخابه بوفرة عدد من حضرها من ممثلى الدول الأجنبية والشعوب الخاضعة لنفوذ المغول ، فقد حضرها ممثل للخليفة فى بغداد ، وآخر يمثل شيخ الجبل أو رئيس الحشاشين فى الموت ، واثنان من الكهنة بعث بهما البابا ، وكان أحدهما هو « جان دى پلان كارپان» وقد أشرنا إلى مذكراته فيما سبق ، وكان يحمل من البابا خطابات يرجع تاريخها إلى أغسطس سنة ١٢٤٥ = ٦٤٣ هـ .

وقد استقبل هذان الكاهنان خير استقبال ونجحا فى التأثير على وزيرين من وزراء « كيوك » إسمهما « كدك» و « چنگاج » فاعتنقا الديانة المسيحية واستطاعا بما لهما من مكانة لدى مولاهما التأثير عليه بحيث أخذ يعطف على المسيحية ومعتنقيها .

أما ممثل « الخليفة » وممثل « شيخ الجبل » فقد استقبلا شر استقبال ، وطردهما الإمبراطور المغولى من حضرته بعد ما زودهما بكثير من التهديدات التى سرعان ما حققتها الأيام .

والظاهر أن المسيحيين جميعا كانوا على استعداد لأن يتغاضوا عن الشناعات التى

---

(١) أنظر ص ٣٨٠ — ٣٩٦ فى طبعة ناساو ليز Nassau Lees .

(٢) أنظر ص ١٥٣ من«تذكرة الشعراء» تأليف دولتشاه .

ارتكبها المغول ضد أبناء دينهم فى روسيا وبولندا وأن يجدوا المغول كمحطمين لقوة العرب ، لأننا نجد أن بعثات أخرى مسيحية تقصد المغول فى هذا الوقت من بينها بعثة «دومنيكية» وصلت إلى حضرة «بايدو» فى إيران فى سنة ١٢٤٧ م = ٦٤٥هـ وكذلك بعثة أخرى بعثها «سانت لويس» فى ١٠ فبراير سنة ١٢٤٩ م = ٦٤٧هـ من «نيكوسيا» عاصمة «جزيرة قبرص» وكان يرأسها «روبريكس Rubruquis» ولكنها لم تصل إلى «قراقورم» إلا فى نهاية سنة ١٢٥٣ = ٦٥١ وكان كيوك قد مات وتولى مكانه «منكو»

منكو :

مات «كيوك» فى إبريل سنة ١٢٤٨ م = ٦٤٦ هـ فخلفه على عرش المغول ابن عمه «منكو» بن «تولى» بن «جنكيزخان» وقد تم تتويجه فى أول يولية سنة ١٢٥١ م = ٦٤٩ هـ وقد تآمر عليه أحفاد «أوكداى» لخروج الملك من فرعهم ولكن «منكو» أسرع بالقبض عليهم وقتلهم قبل أن تفلح مؤامراتهم.

وعند ما اجتمع الـ «قورياتاى» فى سنة ١٢٥١ م = ٦٤٩ هـ لتتويج «منكو» تقرر ايفاد بعثتين حربيتين ، إحداهما إلى الصين والأخرى إلى إيران . فأما الأولى فقد أعطيت رئاستها لـ «قبلاى» ، وأما الثانية فكانت قيادتها فى يد «هولاكو» وكان كل من هذين القائدين أخا للامبراطور «منكو»

وبدخول هولاكو فى إيران ، تبدأ الفترة الثانية من الفترات الثلاث التى ينقسم إليها عهد استعلاء النفوذ المغولى ، وهى فترة الإيلخانيين الكفرة التى امتدت من سنة ١٢٥٦ إلى سنة ١٢٩٥ م = ٦٥٤ — ٦٩٥ هـ حينما أصبحت إيران وغرب آسيا قصرا على فرع خاص من الأسرة المغولية المالكة ، يتبع إسميا الخان الأكبر فى منغوليا ، ولكنه عمليا مستقل استقلالا تاما عنه ، حتى قبل أن يعتنق أفراده الديانة الاسلامية وقبل أن يتم اندماجهم بأفراد رعاياهم عندما لم تعد تربطهم رابطة من الروابط بعشائرهم الوثنية فى منغوليا والصين .

وعلى ذلك فمن الممكن ، لكى نصل إلى أغراضنا التى نتحراها ، أن نتغاضى عن

ذكر الأعمال المجيدة التى قام بها « قبلاى خان » وأن نمر سراعا ، فلا نصف العظمة التى اتصفت بها عاصمته « خان باليق » (١) وهى العظمة التى وصفها الشاعران « كولريدج Coleridge » و « لونج فيللو Longfellow » للقارىء الانجليزى وأن نقصر جهودنا على أعمال « هولا كو » (٢) وحفدته فى إيران وهم الذين يعرفون باسم : « الإيلخانيين »

هولاكو :

خرج « هولا كو » من « قراقورم » يوليه سنة ١٢٥٢ م = ٦٥٠ هـ مزودا بتعليمات مشدده بأن يستأصل شأفة « الحشاشين » فى « ألموت » ، وأن يحطم الخلافة فى بغداد ، وكان يصطحب فى حملته عددا كبيرا من المهندسين ورجال المدفعية من أهل الصين ليستعين بخبرتهم فى أعمال الهجوم والمحاصرة . وكان سيره فى البداية وئيدا بطيئا ، وأمضى صيف سنة ١٢٥٤ = ٦٥٢ هـ ، فى تركستان ثم وصل إلى سمرقند فى سبتمبر سنة ١٢٥٥ م = ٦٥٣ هـ وبقى أربعين يوما . وفى يناير سنة ١٢٥٦ م = ٦٥٤ هـ ، وصل إلى « كيش » فلاقاه بها « أرغون » الذى كان يتولى حكم إيران من قبل « منكو » منذ سنة ١٢٥٣ م = ٦٥١ هـ وكان فى صحبته كاتبه الأكبر (الوغ بتكجى) بهاء الدين الجوينى وابنه عطاملك الجوينى . وقد لحق الابن بـ « هولا كو » فأصبح كاتبه الخاص وصحبه فى أشد معاركه وحضر معه غارته على حصن « ألموت » معقل الحشاشين ، فتمكن بذلك من الرجوع إلى مصادر أصيلة موثوق بها ، كان عليها اعتماده فى تأليف كتابه « تاريخ جها نگشاى » الذى طالما أشرنا إليه فى مواضع مختلفة .

الحشاشون أو الاسماعيلية فى ألموت :

تحدثنا فيما سبق عن نشأة الحشاشين أو الاسماعيلية فى ألموت ، وقلنا أن أولهم كان « الحسن بن الصباح » الذى كان معاصراً لعمر الخيام ، وهو الذى أنشأ « الدعوة

---

(١) كانت تسمى بأسماء مختلفة منها « خندو » و « كبلو » وهى « پكين » الحالية .
(٢) الشاعر الانجليزى « Longfellow » اسمى « هولا كو » فى قصائده باسم « Alaü »

الجديدة» واستطاع أن يكون مرهوب الجانب منذ استيلائه على حصن «ألموت» فى ٦ رجب سنة ٤٨٣ هـ = ٤ سبتمبر سنة ١٠٩٠م ؛ ثم مات فى ٢٣ مايو سنة ١١٢٤ م [1] = ٥١٨هـ .

وكان الحسن رجلا غليظ القلب؛ خالفه ولداه فى بعض تعاليم مذهبه فأمر بقتلهما ، وعين أحد أتباعه خليفة له وهو المعروف باسم «كيابزرگ أميد» وإليه ينتسب الستة الذين أعقبوه فى رئاسة هذا المذهب . فقد خلفه عند مماته ابنه «محمد» فى ٢٠ يناير سنة ١١٣٨م = ٥٣٣هـ؛ فلما مات فى ٢١ فبراير سنة ١١٦٢م = ٥٥٨هـ خلفه ابنه الحسن الذى عرف بين أتباعه باسم «الحسن على ذكره السلام» . وقد أعلن الحسن فى جرأة أنه ليس من أحفاد «كيا بزرگ اميد» بل هو من سلالة الفاطميين ومن أعقاب الإمام «نزار بن المستنصر» الخليفة الفاطمى الذى دعا له الإسماعيليون دعوتهم الجديدة ، وبهذا الادعاء الجرىء أعلن الحسن نفسه إماما للمذهب وليس داعيا له . وكان الحسن يريد أن يعلن هذا الادعاء قبل وفاة أبيه . ولكن أباه استطاع أن يكبح جماحه فأسرع بقتل جماعة من أتباعه يبلغون مائة وخمسين رجلا ، وشرد مائة وخمسين آخرين فنفاهم خارج حصنه فى ألموت ، ولكن الفرصة تهيأت للحسن عند وفاة أبيه فعقد فى ١٧ رمضان سنة ٥٥٩هـ = ٨ أغسطس سنة ١١٦٤م جمعية عامة للاسماعيليين أسماها «عيد القيامة» ثم خطب فيهم بوصفه «إماما» لهم ، وأعلمهم أن القرآن قد ألغيت معانيه الحرفية منذ ذلك التاريخ ، وأن تعاليم الإسلام لا تشير إلى هذه المعانى الحرفية التى تدل عليها الكلمات بل إلى معان أخرى رمزية تحتاج إلى إيضاح وتفسير ... !!

وقد قابل أتباعه هذا التصريح خير قبول وأسرعوا إلى العمل بمقتضاه فكان ذلك سببا فى زيادة النفور الذى أحسه أهل السنة لهم ، ويقول «رشيد الدين فضل الله» أنه ابتداء من ذلك الوقت أخذ أهل السنة يطلقون عليهم اسم «الملاحدة» ، ومن عجب أن الحسن كان يطلق على مقره اسم «مؤمن آباد» أو بلدة المؤمنين ....!!

---

(١) اعتمدنا فى هذه التواريخ على ما ذكره صاحب «جامع التواريخ» وقد ذكر هذا الكتاب تفاصيل كثيرة عن الإسماعيلية تزيد على ما ورد عنهم فى تاريخ «جهانگشاى» ولكن هناك قدرا مشتركا بينهما تكاد تتفق كلماته .

وإلى «الحسن» يرجع الفضل في تنمية تعاليم الاسماعيلية وخاصة من ناحيتها الفلسفية وهو الذى أنشأ الدعوة الجديدة التى أسماها بـ «دعوة القيامة» . وقد انتهى الأمر بقتله فى «المسر» فى ١٠ يناير ١١٦٦م = ٥٦٢هـ على يد صهره «الحسين بن ناماور» أحد أحفاد الديالمة من آل بوية .

وقد تولى مكانه ابنه «نور الدين محمد» فكان أول ما فعله أن أمر بإعدام قاتل أبيه ، وكذلك باستئصال البقية الباقية من البويهيين . وقد اتبع تعاليم أبيه ، وكان فيما يقولون على نصيب كبير من القدرة الأدبية والمعرفة الفلسفية ، كما كان على جانب كبير من القدرة على الإقناع ، فاستطاع أن يضم إلى جانبه الفيلسوف الكبير «فخر الدين الرازى» بواسطة «الحجج الدامغة» التى قدمها إليه أى بواسطة الذهب والسيف ، فجعله على الأقل يظهر شيئاً من الاحترام للمذهب الذى كان يتولى رئاسته . وقد كانت هذه بداية طيبة لفخر الدين الرازى لأن المرتب الكبير الذى كان يتلقاه فى «ألموت» لقاء أن يكف عن ذكر الاسماعيلية بسوء ، مكنه فى النهاية من أن يقدم نفسه إلى الأميرين الغوريين «شهاب الدين» و «غياث الدين» وكذلك إلى ملك خوارزم «محمد خوارزمشاه» . ومات «محمد بن الحسن على ذكره السلام» فى أول سبتمبر سنة ١٢١٠م = ٦٠٧هـ فأعقبه ابنه «جلال الدين» وقد خالف سياسة أبيه وجده فأعلن إلغاء جميع المذاهب ، وأعلن نفسه مسلما سنيا ، وأصبح يعرف باسم «نو مسلمان» أو «المسلم الجديد» وقد أسرع بتقديم خضوعه للخليفة العباسى «الناصر لدين الله» وأخذ يوثق العلاقات بينه وبين أمراء المسلمين ، وبعث بأمه إلى مكة لتؤدى فريضة الحج فى سنة ١٢١٠م = ٦٠٧هـ . ولكى يقيم الدليل على حسن نواياه بعث إلى فقهاء «قزوين» وهى أقرب البلاد جوارا إلى مقره فى «ألموت» يدعوهم إلى أن يراجعوا الكتب التى يقتنيها وأن يعدموا منها ما يرونه خارجا عن تعاليم الإسلام أو متضمنا لشىء من الإلحاد .

وقد وثق به فى النهاية جميع الناس ، وخلع عليه الخليفة الخلع الطيبة وقربه أشد التقريب ، فكان ذلك مثارا لحسد الـ «خوارزمشاه» مما ترتب عليه اشتداد الخلف بين خوارزم وبغداد بحيث أدى ذلك إلى كثير من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة

وقد تحالف مع الأتابك «مظفر الدين أزبك» ١٢١٣ — ١٢١٥ (= ٦١٠ — ٦١٢هـ) ضد «ناصر الدين منكلى» ؛ وكان الوحيد من بين «مشايخ الجبل» الذى

استطاع أن يقضى مايقرب من سنة ونصف السنة خارج معاقل الإسماعيلية فى العراق وأران وأذربيجان ، وقد تحالف فى بداية الأمر مع « جلال الدين خوارزمشاه » ولـكن عندما أخذت طلائع « جنكيزخان » تتقدم فى داخل إيران ، وجد من الحكمة أن يتحالف مع هذا الفاتح الوثنى ، فـكان رسله أول من قدموا خضوعهم له بعدما عبر بجيوشه نهر جيحون . وربما أثارت فعلته هذه حنق أتباعه وسخطهم عليه فبعد قليل من الزمن نجده يموت مسموما على يد إحدى نسائه فيما يقولون ، فى الثانى أو الثالث من شهر نوفمبر سنة ١٢٢٠م = ٦١٧هـ وقد خلفه ابنه الوحيد « علاء الدين » ولم يكن عمره يزيد على تسع سنوات فتولى الوصاية عليه وزيره ، وكانت فاتحة أعماله أن أمر بقتل جماعة من النساء اللائى كن فى حريم «جلال الدين نو مسلمان» بحجة أنهن تآمرن على قتله ، كما أمر بحرق بعضهن وهن على قيد الحياة . وقد ذكر «رشيد الدين» فى كتابه ، أن «علاء الدين» لم يكد يبلغ الخامسة عشرة من حياته حتى أصيب بعارض شديد من الماليخوليا بحيث أصبح من الخطر على أى إنسان أن يقربه ليفضى إليه بأنباء لا تسره أو ليخبره بأمور لا ترضيه . وفى أيامه تمكن الحاكم الاسماعيلى لـ«قهستان» واسمه «ناصر الدين»[1] من أن يختطف المنجم المشهور « نصير الدين الطوسى» مؤلف الرسالة الأخلاقية المعروفة باسم « أخلاق ناصرى» وأن يبعث به إلى حصن «ألموت» حيث أقام كارها حتى تمكن المغول من فتحه والاستيلاء عليه . وقد كان لهذه الحادثه دلالة مزدوجة من حيث الناحية الأدبية والناحية التاريخية، فهى من الناحية الأدبية قد أتاحت لبعض الرواة أن يخلطوا بين الأسماء المتشابهة فيضمنوا طرفا من هذه القصة فى الترجمة الزائفة التى وضعت عن حياة « ناصر خسرو» الذى كان يعيش قبل ذلك بما يزيد على قرن ونصف القرن من الزمان ؛ أما من حيث الناحية التاريخية فأهميتها ناتجة من أننا نعلم أن « نصير الدين الطوسى» هو أول من حرض « ركن الدين خورشاه» إلى أن يسلم نفسه للمغول الغادرين [2] ، ثم هو الذى أشار على «هولاكو خان» بأن غضب السماء سوف لا ينصب عليه إذا هو

---

(١) أهدى « الطوسى » كتابه إلى هذا الحاكم الاسماعيلى ، ولـكنه فى نسخة أخرى اعتذر عن هذا الاهداء وعن بعض المواضع التى أبدى فيها ميله إلى المذهب الاسماعيلى .

(٢) أنظر ص ٢٥٩ من ترجمتى الانجليزية لـ « تاريخ طبرستان » تأليف ابن اسفنديار .

أقدم على قتل «المستعصم بالله» آخر خلفاء بنى العباس [١]..!! وما أعجب تهكمات القدر التى سمحت لهذا الخائن المخادع أن يكتب رسالة فى الأخلاق، لا زالت تعتبر من أجمل ما كتب فى موضوعها باللغة الفارسيه ...!

وقد تزوج «علاء الدين» وهو صغير، ولم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره حتى أنجب أول أولاده « ركن الدين خورشاه» فجعله خليفة له على الإسماعيلية ، ولكن أفعال الأيام جعلت الحسد يدب بينهما بحيث سعى الوالد إلى خلع ابنه، وعمل جاهدا على ذلك ولكن الإسماعيلية رفضوا أن يجيبوه إلى ماطلب ، لأنهم يدينون بالمذهب القديم الذى ينص على أن ولاية العهد متى صدرت من إمام له الحق فى منحها فلا يمكن بحال من الأحوال الرجوع أو التحول عنها . وقد ترتب على هذه الظروف أن وجد «علاء الدين» مقتولا فى «شيركوه» فى آخر شوال سنة ٦٥٣هـ = أول ديسمبر سنة ١٢٥٥م ، وقد بادر ابنه «ركن الدين» إلى الأمر بإعدام قاتله «الحسن المازندرانى» وإحراق جثته ، ولكن الأقاويل ثارت بأنه هو الذى حرضه على قتل أبيه ... !! وقد برهن على صحة هذه الأقاويل «رشيد الدين» فقال أن « ركن الدين » بادر إلى إعدام قاتل أبيه ولم يتبع معه الطرق القانونية العادية خشية أن يفضى أثناء التحقيق بما حرص على إخفائه ... !!

وقد ذكر هذا المؤرخ أن من يقتل أباه لا يستطيع أن يفلت من عقاب الله ، وساق على ذلك الأمثلة الكثيرة كحادثتى « شيرويه الساسانى » و« المنتصر » الخليفة العباسى؛ فقد قتل كلاهما أباه فلم يعيشا إلا فترة قصيرة ، ثم أشار إلى هـــذه المصادفة الغريبة التى أدت بـ « ركن الدين» إلى أن يسلم نفسه لقاتليه بعد سنة هجرية كاملة من مقتل أبيه حينما سلم نفسه للمغول فى آخر شوال سنة ٦٥٤هـ = الأحـد ١٩ نوفمبر سنة ١٢٥٦م .

* * *

---

(١) أنظر كتاب « دوسون » المجلد الثالث ، الفصل ٤٥٥ .

فإذا عدنا الآن إلى حملة « هولاكو » التى تركناها فى مدينة « كيش» فى يناير سنة ١٢٥٦ م = ٦٥٤هـ فإننا نجده يتحول سريعا إلى معقلين من معاقل الاسماعيلية فى ولاية قهستان فيستخلصهما فى مارس سنة ١٢٥٦ م وهما « تون » و« خواف » وقد أمر بإعدام كل من يزيد عمره على عشر سنوات من سكان مدينة خواف ولم يستثن إلا عددا قليلا من الفتيات الجميلات ، أبقى عليهن ليتحملن حظا هو فى الحقيقة أكثر سوءا وأشد بؤسا من الموت...!!

ثم استعمل «هولاكوخان» الطرق المغولية المعروفة،فنشر الوعود الكاذبة،رجاء أن يجنى من ورائها كل مايريد ، قبل أن يجرد سيفه من غمده فلا يستطيع أحد أن يوقفه ولاتستطيع الدماء أن تروى ظمأه ؟ وتنازعت المخاوف روح «ركن الدين» ولم يكن له من الجرأة مايدفعه إلى المقاومة حتى النهاية المريرة ... ولم يكن له من الحزم وبعد النظر مايدفعه إلى الإسراع بتقديم خضوعه للمغول حتى يستطيع بذلك من أن يتعلق بأمل واه فى إطالة حياته الشائنة ، بل استمر على تردده وتراخيه فترة من الزمان وأخذ يساوم المغول ، ولكنه أعطاهم كل مايريدون ولم يحصل منهم إلا على وعود كاذبة ، ومازالوا يضيقون عليه الخناق حتى رضى بأن يسلمهم بعض حصونه ومعاقله على شريطة ألا يعدموا حاميتها وسكانها ، ثم أرسل أخاه «شاهنشاه» ومعه ثلثمائة رجل إلى « هولاكوخان» ليستبقيهم لديه كرهائن . ولكن «هولاكو» سرعان ما التمس بعض الأعذار فأمر بقتل « شاهنشاه» فى بلدة «جمال آباد»[1] بالقرب من قزوين ، ثم اتبع ذلك بقتل جميع الاسماعيلية الذين سلموا معاقلهم له،ولم يستثن من ذلك أحدا منهم بل وقتل الأطفال فى مهادهم..!!واستيأس جماعة من أشداء الاسماعيليه فى مقاومة المغول وحصل لهم «ركن الدين خورشاه» على عفو كتابى (يرليغ) من هولاكوخان ولكنهم استمروا على مدافعة المغول واستطاعوا أن يقتلوا عددا كبيرا منهم . غير أن هذه المحاولات جميعها لم تستطع أن تؤجل النهاية التى كانت تنتظر طائفه الاسماعيلية حينما سلم « ركن الدين » نفسه إلى المغول فى ١٩ نوفمبر سنة ١٢٥٦ م = ٦٥٤ هـ وحينما

---

(١) أشار «الجوينى» إلى أن القزوينيين اعتادوا بعد هذه الحادثة أن يستعملوا عبارة «ذهب إلى جمال آباد » بمعنى ذهب إلى حتفه . !!

ستولى المغول على قلعتى « ألموت » و« ميمون دژ » فأعملوا فيهما الغارة ثم اشعلوا فيهما النار بعد ذلك .

وقداستطاع «عطا ملك الجوينى»أن يستأذن مولاه«هولا كوخان» فى أن يحتجز لنفسه جملة من التواليف القيمة التى اشتملت عليها مكتبة« ألموت » الشهيرة ، وأن يحتفظ كذلك ببعض الأدوات التى استعملوها فى رصد النجوم، وتمكن من أن يترك لنا فى مقابل ذلك وصفا رائعا للمهارة الفائقة التى بنى على أساسها حصن«ألموت» بحيث أصبح من الأماكن الحصينة التى لا يمكن اختراقها. وقد نقل لنا عن كتاب تاريخى وجده فى هذا الحصن وكان من تأليف«فخر الدولة البويهى» أن هذا المؤلف يذكر أن الذى بنى هذا الحصن هم أمراء الديلم فى سنة ٢٤٦ هـ = ٨٦٠ م .

واستولى المغول بعد ذلك على بقية معاقل الاسماعيلية فى إيران [١] فأخذوا « لمسر » فى ٤ يناير سنة ١٢٥٧ م(= ٦٥٥هـ) ولكنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا «گردكوه » حتى سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م وكان « منهاج السراج » قابعا فيه على تدوين كتابه « طبقات ناصرى » .

وأخذ المغول «ركن الدين خورشاه» إلى همدان وأحسنوا معاملته وسمحوا له بأن يتزوج فتاة مغولية أعجب بها ، ومنحوه مائة من الجياد الفارهة كان يتسلى برؤيتها وهى تتعارك مع بعضها ، وهى متعة مرذولة لم تكن لتليق بحالته ومكانته ، وربما كانت أكثر خسة من الهواية الغريبة التى اشتهر بها أبوه وهى غرامه برعى الأغنام ....!!

وفى ١٩ مارس سنة ١٢٥٧ م = ٦٥٥ هـ أرسله المغول[٢] إلى «قراقورم» ليقدم نفسه إلى الامبراطور المغولى «منكوخان» وفى أثناء الطريق اضطروه إلى أن يأمر ضباطه فى « قهستان » بتسليم قلعتهم إلى المغول ، ففعلوا ذلك بعدما أمنهم المغول على حياتهم ، ولكنهم ما لبثوا أن قتلوا من السكان الآمنين اثنى عشر ألفا بمجرد تحرك

---

(١) كان للاسماعيلية فرع آخر فى سوريا ، لم يقض عليه كما قضى على أخيه فى إيران وما زالت بقية من الفرع السورى باقية حتى الآن .

(٢) ذكر «الجوينى» و«رشيد الدين» أن ذهابه إلى قراقورم كان بناء على طلبه ولكننا لا نوافقهما على ذلك .

ركاب « ركن الدين » فى طريقه إلى « قراقورم » . فلما وصل ركابه إلى بخارى أساء حراسه معاملته ، ولم يكد يصل إلى قراقورم حتى أمر « منكو خان » بقتله قائلا : أنه كان من السفه استعمال خيول البريد فى نقله إلى قراقورم ....!!

وأمر بعد ذلك بقتل جميع أتباعه حيثما كانوا . ولا شك أن العدد الذى هلك منهم كان كبيرا جدا، ولكن مما لاشك فيه أيضا أن الإبادة لم تشملهم جميعا، فلا زالت لهم بقايا فى إيران كما أخبرنى بذلك « درويش كرمانى » من البابية، رأيته فى القاهرة فى سنة ١٩٠٣ ، ولهم بقايا فى الهند باسم « خواجه » أو « چترال » وكذلك لهم بقايا فى الزنجبار وسوريا وفى أماكن أخرى غير تلك ، ولكن يجب أن اعترف بأننى محتاج إلى كثير من التعب والعناء لكى أتمكن من أن أربط بين رئيسهم الحالى « أقا خان » الذى يمتاز بالرقة والوداعة ، وبين « مشايخ الجبل » فى حصن ألموت كما أسماهم بذلك « ماركو پولو » فى رحلته المشهوره .

الهجوم على بغداد

فاز « هولاكو خان » بعد القضاء على «الحشاشين» بإعجاب أهل السنة فى العالم الإسلامى . ولكن خطوته التالية اقترنت بكثير من الرعب الذى لم يتمكن من إخفائه أشد الناس تحفظا وأكثرهم حرصا على كتمان الأمور ؛ فبعد انقضاء ستة أشهر على خروج « ركن الدين خورشاه » إلى قراقورم ليلاقى حتفه هنالك ، أرسل هولاكو خان من مقره فى «همدان» إنذارا إلى الخليفة «المستعصم بالله» بأن يسلم نفسه إليه وأن يسلمه كذلك مدينة بغداد التى ظلت عاصمة للمسلمين طيلة القرون الخمسة الماضية . وانقضى على ذلك شهران ثم بدأ «هولاكو خان» معركته فى نوفمبر سنة ١٢٥٧ م = ٦٥٥ ﻫ وكان يستصحب معه جملة من أمراء المسلمين من بينهم أتابك شيراز « أبو بكر بن سعد بن زنكى » الذى عرف برعايته للشاعر الكبير «سعدى» وكذلك أتابك الموصل «بدر الدين لولى» الذى يشير إليه «ابن الطقطقى» كثيرا فى كتاب الفخرى ؛ وكان يرافقه كذلك كاتبه « عطا ملك الجوينى » مؤلف « تاريخ جهانگشاى » وكذلك المنجم المعروف « نصير الدين الطوسى » .

وكان الخليفة العباسى قد بادر بإرسال « شرف الدين عبد الله بن الجوزى » إلى « هولاكو خان » فى همدان، وزوده برسالة إليه ، ولكن هذا القائد المغولى اعتبر رسالة الخليفة غير مرضية وغير قاطعة ، فأخذ يوجه الجزء الأساسى من جيشه إلى بغداد ليحيط بها من ناحية الشرق ، وأمر جيشا آخر بقيادة « باجو نويان » أن يتحرك من الشمال عن طريق تكريت بالقرب من الموصل ، وأن يلتف حول المدينة من ناحية الغرب . وكان قوام الجيش الأول كما يقول ابن الطقطقى(١) يزيد على ثلاثين ألف محارب ، بينما يقول مؤلف كتاب « طبقات ناصرى » (٢) إن قوام الجيش الثانى كان يبلغ ثمانين ألف جندى(٣) ، وأن جيش الخليفة فى بغداد لم يكن يزيد على عشرين ألف مقاتل .

وتلاقت جيوش المغول مع جيوش الخليفة فى تكريت ، واستطاع جند الخليفة أن يحطموا الجسر القائم على « دجلة » وكان القائد المغولى « باجو نويان » يريد العبور بواسطته ، ولكن انتصارهم هذا كان قصير الأمد وما لبث المغول أن اندفعوا إلى « دجيل » و « الإسحاقى » ونهر الملك ونهر عيسى وأماكن أخرى كثيرة بالقرب من بغداد . واستولى الفزع على سكان هذه البلاد فأخذوا يفرون أمام المغول لائذين بعاصمتهم الكبيرة بغداد . واستغل ملاحو القوارب حالة الفزع هذه ، فأخذوا ينقلون الشخص من شاطىء إلى آخر لقاء أجر كبير أو لقاء سوار ذهبى أو بعض الأمتعة الثمينة الغالية كما حدثنا بذلك صاحب كتاب الفخرى .

ثم تلاقت جيوش المغول وجيوش الخليفة للمرة الثانية بالقرب من دجيل فى يوم ١١ يناير سنة ١٢٥٨ م = ٦٥٦ هـ وتمكن جيش الخليفة بقيادة « مجاهد الدين ايبك » الملقب بالدويدار الصغير ، و « الملك عزالدين بن فتح الدين » من إحراز نصر صغير رغم قلة الجند الذين كانوا تحت قيادتهما ، ولكن المغول انتظروا إلى الليل واستعانوا بالمهندسين الصينيين الذين كانوا فى رفقتهم ، ثم غمروا معسكر المسلمين بالماء

---

(١) أنظر ص ٣٠٠ من كتاب الفخرى طبع القاهرة سنة ١٣١٧ هـ .
(٢) أنظر ص ٤٢٦ من هذا الكتاب طبع ناساو ليز Nassau Lees .
(٣) ربما بالغ المؤلف فى هذا التقدير .

فتمكنوا بذلك من إنزال الهزيمة بجيوش الخليفة ومن الإيقاع بالمشاة والأسرى الذين وقعوا فى أيديهم بعد ذلك .

وعندما تحدث صاحب كتاب الفخرى عن فتح العرب لايران فى القرن السابع الميلادى ذكر أن جنود الايرانيين كانوا مزودين بخير العدة والعتاد فأخذوا يتهكمون بالبدو من العرب الذين لم يكونوا يتدثرون إلا بالخرق البالية المهلهلة ثم قارن هذه الحادثة بحادثة رواها له « فلك الدين محمد بن أيدمر » عند قدوم المغول إلى بغداد فقال : « كنت فى عسكر الدويدار الصغير لما خرج إلى لقاء التتر بالجانب الغربى من مدينة السلام فى واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة ، قال فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل ، فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة وتحته فرس عربى وعليه سلاح تام ، كأنه وفرسه الجبل العظيم ، ثم يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار وفى يده رمح كأنه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من رآه ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكرة فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر، ثم كان من الأمر ما كان . » (١)

وقد هلك عدد كبير ممن نجوا من المعركة فى الأوحال التى نتجت عن غمر الأراضى بالماء ، ولم ينج منهم إلا من استطاع أن يعبر النهر سباحة وإن يدخل البرية ويمضى على وجهه إلى الشام ،وقد نجا الدويدار مع جماعة صغيرة من أتباعه واستطاعوا أن يدخلوا بغداد . ثم أخذ هو و « عز الدين » يحرضان الخليفة على مغادرة بغداد والذهاب إلى البصرة ولكن الوزير « ابن العلقمى » لم يوافقهما على هذه الخطة ؛ وتردد الخليفة ولم يستطع أن يقطع برأى وإذا بجيوش المغول تحيط ببغداد من كل ناحية وتضرب عليها الحصار ابتداء من ٢٢ يناير (= الخميس ٤ محرم سنة ٦٥٦هـ). وبدأ المغول هجومهم العام فى الثلاثين من هذا الشهر ، وبعد أربعة أيام أرسل الخليفة رسوله « ابن الجوزى » ثانية إلى هولاكوخان ليقدم له فى هذه المرة كثيرا من الهدايا القيمة مشفوعة برضاه بالتسليم ووقف القتال ؛ ولم تمض على ذلك بضعة أيام حتى

---

(١) أنظر ص ٧٦ من كتاب الفخرى طبع القاهرة سنة ١٣١٧ هـ .

خدعه المغول بالوعود الكاذبة فسلم نفسه إليهم مع ولديه الأكبرين « أبي العباس أحمد » و « أبي الفضائل عبد الرحمن » ، ولكن « هولا كوخان » سرعان ما أمر بإعدامهم جميعاً دون شفقة أو رحمة [في ٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ] .

أما الطريقة التي اتبعها المغول في قتل الخليفة فيحوطها كثير من الشك والغموض ، وقد ذكر الشاعر الانجليزي « لونجفلو Longfellow » في قصيدة « كمبالو Cambalu » إنهم حبسوا الخليفة في خزانته وبيت ماله وتركوه هنالك يموت جوعا . . . ! ! ولكن هذه الرواية بعيدة عن الاحتمال، وربما كان أقرب منها إلى التصديق الرواية التي ذكرها المؤرخون الإسلاميون حينما قالوا أن المغول لفوا الخليفة في سجادة ثم انهالوا عليه ضربا بعصيهم ودبابيسهم حتى مات . ومما يؤيد أنهم اتبعوا هذه الطريقة أو ما يشابهها في قتل الخليفة أنهم كانوا يحرمون إهراق الدم الملكي ، وكانوا إذا رادوا إعدام أحد أمرائهم يتبعون طريقة وحشية اختصوا بها في إعدام الأمراء فلا يقتلونهم بالسلاح بل يكتفون بكسر ظهورهم ... ! !

وبدأت الغارة على بغداد في يوم ١٣ فبراير سنة ١٢٥٨ م = منتصف المحرم سنة ٦٥٦ هـ واستمرت أسبوعا كاملا ، أعدم فيه المغول عـددا يبلغ الثمانمائة ألف من سكانها ، واستولوا خلاله على الكنوز المادية والأدبية والعلمية التي اجتمعت في بغداد خلال القرون الطويلة الماضية التي ظلت فيها بغداد عاصمة زاهرة لخلفاء العباسيين .

أما الخسارة التي أصابت الحركة العلمية الإسلامية فلا يمكن وصفها مهما أعملنا في ذلك ضروب الفكر والخيال؛ ولم ينحصر أثر هذه الكارثة في خسارة العدد الكبير من الكتب القيمة التي أبيدت تمام الإبادة ، ولكنها امتدت فأهلكت من رجال العلم عددا كبيرا ولم تبق منهم إلا على فئة قليلة مشردة الأذهان ، بحيث نجد أن الدراسة الصحيحة والبحث العلمي اللذين امتازت بهما من قبل دراسة الآداب العربية لم تقم لهما قائمة بعد هذه الكارثة . ولم يحدثنا التاريخ أن مدنية زاهرة كالحضارة الإسلامية قد اختفت في مثل هذه السرعة التي اختفت فيها هذه المدنية وأصبحت طعمة تلتهمها النيران المستعره وتغرقها الدماء المهرقة .

ثم تبع ذلك كما يقول صاحب كتاب الفخري : « أن تقحم العسكر السلطاني

هجوما ودخولا ، فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة ، فما الظن بتفاصيله . . ؟ !

وكان ما كان مما لست أذكره فظن ظنا ولا تسأل عن الخبر

الخ ... ... »(١)

هذا ما قاله صاحب كتاب «الفخرى» بعد أربعة وأربعين سنة من هذه الكارثة (لأنه كتب كتابه فى سنة ١٣٠٢م = ٧٠٢ هـ) ولم يكن طليق العنان يكتب مايشاء ويسجل ما يريد ولكنه كان يكتب ما يكتب وهو يعلم أنه يعيش تحت حكم مغولى أيام غازان حفيد هولا كوخان .

ابن العلقمى :

أما الدور الذى لعبه وزير الخليفة « مؤيد الدين محمد بن العلقمى » فى تسليم بغداد فيحوطه كثير من الشك والغموض ، فصاحب « طبقات ناصرى » يتهمه بالخيانة وإنه قلل من عددالحامية متعمدا ، وإنه هو الذى زين للخليفة التسليم ووقف القتال ، وأنه كان يريد من وراء ذلك إرضاء أطماعه المتزايدة وكذلك الانتقام لبعض الاضطهادات التى أنزلها ابن الخليفة الأكبر بأهل الشيعة الذين كان يدين بمذهبهم . أما« ابن الطقطقى» فيدفع عنه هذه التهم مستندا إلى ماذكره له «أحمد بن الضحاك » — وهو ابن أخت الوزير ابن العلقمى — من أن نصير الدين الطوسى هو الذى قدم الوزير إلى هولا كوخان فسمع كلامه ووقع موقع الاستحسان عنده ثم قدمه إلى شحنة بغداد «على بها در» فسلمه المدينة ... ويعلق «ابن الطقطقى» على ذلك « بأن من أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة ، فإن السلطان هولا كو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه ، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه ..!! »(٢)

ولكن يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن «ابن العلقمى » وكذلك « نصير الدين الطوسى » كانا من أهل الشيعة ، وأن الثانى منهما رغم كتابته فى الموضوعات

---

(١) المترجم : أنظر ص ٣٠٠ من كتاب الفخرى طبع مصر سنة ١٩٢٣م.

(٢) نفس المرجع والصحيفة .

الأخلاقية والدينية قد أنكر جميل مضيفيه من الاسماعيلية ، كما ساعد على الإيقاع بالخليفة فى سبيل أن يرضى فاتحا وثنياً سفاكا للدماء مثل هولاكو ..!! ولما كان «ابن الطقطق» شيعيا مثل هذين تماما ، فإنى شخصيا أرى أن ما ذكره فى كتاب الفخرى عن هذه الواقعة ، يجب تأويله تأويلا مضادا للرأى الذى رآه .

ولكى نوفق بين آرائنا وبين ما نعرفه عن المغول وخاصة هولاكو خان ، يجب أن نفترض أن «ابن العلقمى» قد خدعته الوعود الطيبة التى بذلها له المغول ، ثم أعماه التعصب المذهبى ، فزين له تفضيل الوثنى الكافر على من يخالف مذهبه من أهل دينه . وربما انضم إلى ذلك أنه كان على وفاق مع «نصير الدين الطوسى» الذى أصبح وزيرا لهولاكو خان والذى كان مثله أيضا من أهل الشيعة ، فقبل من أجل هذه الفروض جميعها أن يخون الخليفة وأن يخون بغداد وأن يسلمهما معا إلى المغول ليفعلوا بهما ما يشاءون . وقد قربه المغول كعادتهم ، حتى إذا اعتصروا وعصارته ونالوا منه ما يريدون تخلصوا منه فى قليل من الزمن . وربما يؤيد هذا الرأى إننا نجد أن حياته لا تمتد إلا إلى ثلاثة أشهر بعد موت الخليفة أى إلى مايو سنة ١٢٥٨ م = جمادى الأولى سنة ٦٥٦ هـ

ومع كل هذا .. يجب أن نقرر أن الأمر مستغلق ، وأنه سيظل مستغلقا غامضا ما شاء الله له أن يكون ، فإذا لم تشأ أن تدعو للوزير بالرحمة كما فعل ابن الطقطقى ، فلا أقل من أن تمتنع عن لعنته كما فعل صاحب « طبقات ناصرى » . ومن الملاحظ أن هذا الأخير يتغالى فى سنيته أكثر مما يتغالى « ابن الطقطقى » فى تشيعه .

المستعصم :

ويبدو لنا من الفصل الأخير من كتاب « الفخرى » وهو الفصل الذى خصصه للخليفة المستعصم ، أن الخليفة كان لين الجانب سهل العريكة مستضعف الرأى ، وأنه لم يكن الشخص المناسب لمدافعة هذا الخطر الداهم الذى بشقيت به أيامه والذى انتهى بالقضاء عليه شخصيا فى قليل من الزمن .

وكان «المستعصم» خيرا ، متدينا ، عفيف اللسان ، عالما ، مليح الخط ، يكثر القراءة فى الكتب ، خفيف الوطأة على أتباعه ؛ ولكنه كان برغم هذه الخصال الطيبة رعديدا مترددا ، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بأمور المملكة . وقد رفض أن يتبع سنة آبائه الذين كانوا يحبسون أولادهم وأقاربهم مخافة أن يتآمروا على خلعهم ويستأثروا بالسلطة

لأنفسهم . وقد حكوا عنه أن خويدما صغيرا كان يقوم على خدمته ، نام قريبا من الأريكة التى كان يجلس عليها الخليفة فى خزانة كتبه ، وكان الخليفة فى ذلك الوقت جالسا يقرأ ، فاستغرق الغلام فى النوم وتقلب حتى تلفف فى الملحفة المبسوطة على الأريكة ثم تقلب حتى صارت رجلاه على المسند ، فأشار الخليفة إلى خازن الكتب أن يترفق بالغلام وألا يوقظه حتى يخرج من الحجرة خشية أن تنفطر مرارته من الخوف إذا علم بما فعل ... !!

وكان الوزير «ابن العلقمى» يشبه مولاه من حيث شغفه بالكتب وتقريبه لرجال العلم والأدب ، وقد احتوت مكتبته على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب ، وقد صنف له الناس كثيرا من الكتب ، وأهداه كثير من الشعراء دواوينهم . وكان كما يقول ابن الطقطقى — وهو الذى اعتمدنا عليه فى استقاء هذه الأخبار — عفيفا عن أموال الديوان وأموال الرعية ، متنزها مترفعا .

وقد كنت أحب أن أفعل كما فعل صاحب كتاب « طبقات ناصرى » فأختتم هذا الجزء من كتابى بهذا الملخص التاريخى الذى أوردته فيما سبق ، وطالما تمنيت ألا تكون نهايته مفجعة مثل هذه النهاية الحزينة التى وصلنا إليها عندما نزلت هذه الطامة الكبرى بالإسلام وبالحضارة «العربية الفارسية» التى ازدهرت أيام الخلافة العباسية ، ولكن بقى أمامى أن أتم هذا الجزء بالحديث (فى فصلين تاليين) عن الحركة الأدبية التى نشأت فى هذه الفتره التى أجملنا الحديث عنها سياسيا ، وهى فتره تستغرق الخمسين أو الستين سنة الأولى من القرن الثالث عشر الميلادى .(السابع الهجرى)

ولا شك أننا بهذا نوفى موضوعنا الأصيل الذى اخترنا الكتابة فيه وهو «تاريخ الأدب فى إيران » وإنى أرجو أن أكمله فى مجلد آخر أو أكثر ، حتى أصل به إلى الحديث عن الأدب فى إيران فى أوقاتنا الحاضرة .

جدول بأسماء

كتاب العصر المغولى الأول

[وفقاً لورود ذكرهم فى الفصل التالى]

١ — أصحاب التواريخ العامة

ابن الأثير
ابن العبرى
منهاج السراج
جرجيس المكين

٢ — أصحاب التواريخ الخاصة

الجربا ذقانى
الفتح البندارى
عطا ملك الجوينى
أحمد النسوى

٣ — كتاب التراجم

ابن خلكان
القفطى
ابن ابى أصيبعة
محمد عوفى

٤ — أصحاب التواريخ المحلية

ابن اسفنديار
ابو عبد الله الدبيثى
جماعة آخرون

٥ — الجغرافيون والرحالون

ياقوت الرومى
زكريا القزوينى
ابن جبير

٦ — الفلاسفة

فخر الدين الرازى
ناصر الدين الطوسى

٧ — أصحاب التواليف العربية

ابن ميمون
البونى
ابن البيطار
التيفاشى
عز الدين الزنجانى
جمال القرشى
ابن الحاجب
المطرزى
ضياء الدين ابن الأثير
مجد الدين ابن الأثير
البيضاوى
ياقوت المستعصمى

٨ — مؤلفون آخرون

أبو نصر الفراهى
شمس قيس الرازى

٩ — كتاب الصوفية

روزبهان
نجم الدين كبرى
مجد الدين البغدادى
سعد الدين الحموى
شهاب الدين السهروردى
محى الدين بن العربى
عمر بن الفارض

الفصل الثامن

كتاب العصر المغولى الأول

٦٠٠ – ٦٦٠ هـ = ١٢٠٣ – ١٢٦٢ م

مقدمة :

سأتحدث فى هذا الفصل عن أهم الكتاب الذين ظهروا فى العصر الذى تحدثت عنه فى الفصل السابق ، وسأترك الحديث عن « شعراء الفرس » إلى فصل لاحق لأن ثلاثة منهم على الأقل تكفى أخبارهم لملء هذا الفصل الذى سيكون خاتمة فصول هذا الكتاب . وهؤلاء الكتاب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام متباينة :

١ ــ كتاب ولدوا فى « إيران » وكتبوا كل كتاباتهم أو أغلبها باللغة الفارسية .

٢ ــ كتاب ولدوا فى « إيران » وكتبوا كل كتاباتهم أو أغلبها باللغة العربية .

٣ ــ كتاب ليسوا من أصل إيرانى وكتبوا بالعربية ، ولكن لا يمكن التغاضى عن ذكرهم لما لهم من صلة خاصة بإيران ، وبالموضوعات الفارسية ، أو لما لهم من أثر هام فى العالم الإسلامى عامة . ومن أجل ذلك كان لزاما علينا أن نتحدث عنهم بعض الشىء فى هذا الكتاب الذى خصصناه أصلا لدراسة النشاط الأدبى فى إيران دون غيرها من الأقطار .

ولكن بعض الدوافع العملية تجعل من المناسب إهمال هذا التقسيم ، وتفرض علينا أن نتناولهم جميعا بالبحث طبقة طبقة ، وفقا للموضوعات التى تناولوها بالكتابة ، دون تفرقة بين من كتب منهم بلغة من اللغات أو بأخرى ، ذلك لأن اللغة العربية كانت إلى ذلك الوقت منتشرة فى إيران ، يصاغ فيها كثير من الأدب والعلم والثقافة ؛ وقد ظلت محافظة على مالها من مكانة عالية فى هذه الديار حتى انتهى الأمر بسقوط الخلافة وتخريب بغداد عاصمة الإسلام وحاضرة المسلمين .

فلنبدأ إذن بذكر المؤرخين وأصحاب التراجم والجغرافيين وقد سبق لنا الإشارة إلى أهمهم فى الفصول السابقة .

١ – أصحاب التواريخ العامة

ابن الأثير :

وأول هؤلاء وأجدرهم بالذكر بين جميع المؤرخين فى كل زمان ومكان ، هو « عز الدين ابن الأثير الجزرى » المنسوب إلى موطنه جزيرة « ابن عمر » بالقرب من الموصل ، ومؤلف التاريخ الكبير المعروف باسم « الكامل » . وهذا الكتاب يشتمل على تاريخ العالم كما عرفه المسلمون فى هذا العصر منذ بداية الزمان حتى سنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م . وقد زاره « ابن خلكان » فى مدينة حلب فى سنة ٦٢٧ هـ = نوفمبر سنة ١٢٢٩ م وتحدث عنه حديثا طيبا ، أكد فيه أنه كامل حقا فى الفضل والتواضع وكرم الأخلاق . ولا حاجة بى فى هذا المقام إلى ذكر المقالة التى كتبها عنه « ابن خلكان » لأن القارىء الأوروبى يستطيع قراءتها فى الترجمة التى نشرها « دى سلان de Slane » لكتاب وفيات الأعيان (١) وسأكتفى هنا بأن أذكر أن « ابن الأثير » ولد فى سنة ٥٥٦ هـ = مايو سنة ١١٦٠ م وتوفى فى سنة ٦٣١ هـ = مايو سنة ١٢٣٣ م .

وقد طبع « تورنبرج Tornberg » كتابه « الكامل » فى مدينة ليدن فى سنة ١٨٥١ م إلى سنة ١٨٧٦ م ونشره فى ١٤ مجلدا ، كما طبع هذا الكتاب أيضا فى « بولاق » فى سنة ١٢٩٠ هـ إلى سنة ١٣٠٣ هـ = ١٨٧٣ — ١٨٨٦م ونشر فى ١٢ مجلدا ؛ ولكن من سوء الحظ أن الطبعة المصرية وهى الطبعة الوحيدة التى يمكن الحصول عليها الآن ، لا تشتمل على فهرست مبوب بأسماء الأعلام ، ومن أجل ذلك فقد نقصت فائدتها نقصا كبيرا ، ولا شك أن هذا عيب خطير قد أصاب مرجعا كبيرا لا يستطيع أن يستغنى عنه طالب من طلبة التاريخ الإسلامى (٢).

وقد كتب « ابن الأثير » بالإضافة إلى كتابه التاريخى الكبير كتابا فى أخبار

---

(١) انظر الجزء الثانى من الترجمة ص ٢٨٨ — ٩٠

(٢) المترجم : طبع هذا الكتاب بعد ذلك أكثر من مرة فى القاهرة ، ففى سنة ١٣٠٢هـ طبعته المطبعة الأزهرية وفى سنة ١٣٠٣ هـ نشره محمد افندى مصطفى وفى سنة ١٣٥٣ هـ نشرته إدارة الطباعة المنيرية .

أهم صحابة النبي وأسماه « أسـد الغابة فى معرفة الصحابة » وقد طبع فىالقاهرة فى ٥ أجزاء فى سنة ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٣م ، وكذلك لخص كتاب الأنساب للسمعانى وهو غـــير مطبوع [١] ؛ كما كتب « تاريخ الماـكة الأتابكية بالموصل » ، وهو مطبوع بتمامه فى الجزء الثانى من « مجموعة المؤرخين العرب الذين أرخوا الحروب الصليبية » [٢] .

ابن العبرى :

وآخر من كبار المؤرخين الذين عاشوا فى هذه الفترة ، وكتبوا بالعربية كما فعل « ابن الأثير » هو النصرانى اليعقوبى « يوحنا أبو الفرج » المعروف بابن العبرى ، أى ابن اليهودى ، لأن أباه « اهـرون » ترك ديانته الأصلية وكانت اليهودية واعتنق المسيحية ؛ ويعرف « ابن العبرى» أيضاً باسم «جريجوريوس» أو« غريغوريوس » وهو الإسم الذى أطلقه على نفسه فى سنة ٦٤٤ هـ = ١٢٤٦ م عندما تولى أسقفية « جوباس » من أعمال « ملطية » .

وقد ولد « ابن العبرى » فى مدينة « ملطية » فى سنة ٦٢٤ هـ = ١٢٢٦ م ، فلما حدث الفزع من غارة المغول فر به أبوه وكان طبيباً إلى مدينة « أنطاكيه » فى سنة ٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م ثم خرج بعد ذلك فزار مدينة « طرابلس » . وفى سـنة ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م تولى أسقفية حلب ، حتى إذا كانت سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م أقامه اليعاقبة « مفريانا » عليهم [٣] فـكان يقيم أحياناً فى « الموصل » وأحياناً أخرى

---

(١) المترجم : يعرف هذا الـكتاب باسم « اللباب فى معرفة الأنساب » .

(٢) أنظر : Recueil des historiens Arabes des croisades.
وقد ترجمه إلى الفرنسية البارون دى سلان de Slane .

(٣) المترجم : فيما يلى معنى كلمة «مفريان» نقلا عن المقدمة الموضوعة على كتاب « تاريخ مختصر الدول » طبع الأب « أنطون صالحانى اليسوعى » ببيروت سنة ١٨٩٠ م ، قال : « مفريان من السريانى ومعناها عندهم المثمر . وكان منصب المفريان عند اليعاقبة من أكبر » « المناصب بعد البطريركية وتحت رئاسته عدد من الأساقفة له عليهم ملـُ السلطان مثل » « ما للبطريرك على أساقفته ؛ وهو عندنا بمقام كبير رؤساء الأساقفة » .

فى إقليم « أذربيجان » أى فى تبريز والمراغة فى الشمال الغربى من إيران . وقد مات فى مدينة « المراغة » فى الثلاثين من يوليه سنة ١٢٨٦ م = ٦٨٥ هـ .

وقد كتب « ابن العبرى » تاريخه المعروف باسم « مختصر تاريخ الدول » فى الأصل باللغة « السريانية » ولكن جماعة من كبار المسلمين طلبوا إليه أن ينقله إلى العربية ففعل ذلك فى السنوات الأخيرة من عمره . وقد طبع هذا التاريخ لأول مرة سنة ١٠٧٤ هـ = ١٦٦٣ م فى مدينة أكسفورد بالعربية واللاتينية بمراجعة العلامة « بوكوك » ثم نشرت له ترجمة إلى الألمانية فى سنة ١١٩٨ هـ = ١٧٨٣ م ثم طبعه طبعة أنيقة « الأب أنطون صالحانى اليسوعى » فى مدينة بيروت سنة ١٨٩٠ م . وتشتمل هذه الطبعة الأخيرة على ٦٣٠ صحيفة تتضمن أصل الكتاب وكذلك ترجمة لحياة مؤلفه ، وفهرسة للأعلام والأماكن ، وجدولا لمقابلة السنين الهجرية بالسنين المسيحية.

وقد تحدث « ابن العبرى » فى كتابه عن عشر دول ، هى الآتية :

الدولة الأولى : دولة الأولياء من آدم أول «البرنساء» أى الناس .

الدولة الثانية : دولة قضاة بنى إسرائيل .

الدولة الثالثة : دولة ملوك بنى إسرائيل .

الدولة الرابعة : دولة ملوك الكلدانيين .

الدولة الخامسة : دولة ملوك المجوس . أى ملوك إيران منذ الملك الأسطورى « كيومرث » إلى «دارا» ومقتله على أيدى الاسكندر الأكبر

الدولة السادسة : دولة ملوك اليونانيين الوثنيين .

الدولة السابعة : دولة ملوك الفرنج ، ويقصد بهم ملوك الرومانيين .

الدولة الثامنة : دولة ملوك اليونانيين المتنصرين ، أى البيزنطيين .

الدولة التاسعة : دولة ملوك العرب المسلمين .

الدولة العاشرة : دولة ملوك المغول : وقد أوصل ابن العبرى تاريخهم إلى سنة ٦٨٣هـ = ١٢٨٤م وهى السنة التى تولى فيها «أرغون» الحكم.

وقد كتب الأستاذ «نولدكه» مقالا ممتعاً عن «ابن العبرى» والعصر الذى عاش فيه نشره فى كتابه « صور من التاريخ الشرقى » ولهذا الكتاب ترجمة إلى الإنجليزية نحيل إليها القارئ الذى يريد أن يتزود بمعلومات أوفى عن هذا الكاتب وكتابه(١)

منهاج السراج :

ومن بين كتّاب التاريخ العام الذين كتبوا بالفارسية فى هذه الفترة ، بل أنبههم ذكراً « منهاج السراج » المنتسب إلى « جوزجان » بالقرب من « بلخ » وهو مؤلف كتاب « طبقات ناصرى » الذى أكثرت من الإشارة إليه فى الفصل السابق من هذا الكتاب .

ولد «منهاج السراج» حوالى سنة ٥٩٠هـ = ١١٩٣م والتحق كأبيه وجده بخدمة ملوك الغور ، فلما كانت سنة ٦٢٤ هـ = ١٢٢٦م أقبل إلى الهند والتحق بخدمة السلطان « ناصر الدين قُبَاچه » وظل بها سنة حتى إذا تغلب « شمس الدين ألتتمش » على هذا السلطان التحق بخدمته ، وأهدى كتابه إلى ابنه المسمى « ناصر الدين محمود شاه » وقد فرغ من تأليف كتابه فى سنة ٦٥٩ هـ = سبتمبر ١٢٦٠ م .

وقد أعطى « ريو » فى « فهرست المخطوطات الفارسية » كثيراً من الأخبار المتعلقة بحياته (٢) . كما أن السير « هـ . م . اليوت » تحدث عنه فى كتابه « تاريخ الهند »(٣) .

---

(١) أنظر ترجمة هذا الكتاب إلى الانجليزية بعنوان :
Sketches from Eastern History, pp 236—256

ومترجم هذا الكتاب إلى الانجليزية هو المستر جون بلاك John S. Black

(٢) أنظر ص ٧٢ من فهرست المخطوطات الفارسية .

(٣) أنظر ص ٢٦٠ من كتاب H. M. Elliot : History of India.

وكتاب « طبقات ناصرى » موزع على عشرين فصلا تبدأ بالأولياء والأنبياء وتنتهى بغارة المغول . وقد تحدث المؤلف عن هذه الغارة حديثا مستفيضا أمكنة فيه أن يزودونا بأخبار فريدة لا توجد فى غيره من المراجع .

وقد طبع الكابتن « نساو لبز Nassau Lees » جزءا من هذا الكتاب ، ترجمه الماچور « راڤرتى Raverty » فى سلسلة مكتبة الهند[1] ومن أسف أن هذا الجزء المطبوع لايتناول إلا ذكر الدول المتصلة بالهند ويهمل كل ماله صلة بالطاهريين والصفاريين والسامانيين والديلميين والسلاجقة والخوارزمشاه وغير ذلك من الدول التى لها أهمية خاصة لدى كل مشغوف بدراسة التاريخ الفارسى .

وترد فى نهاية الكتاب قصيدة غريبة جدا منظومة باللغة العربية ومنسوبة إلى شخص إسمه « يحي أعقب » من أتباع « على بن أبى طالب » صهر النبى وابن عمه ، وفيها نبوءة عجيبة عن المصائب التى أحدثتها غارة المغول . وقد قرنت هذه القصيدة العربية بترجمة منثورة إلى الفارسية منشورة فى ص ٤٣٩ — ٤٤٣ من الجزء المطبوع من هذا الكتاب .

جرجيس المكين :

وآخر من كتب التاريخ العام المؤلفة فى هذا العصر ، ويجدر بنا ذكره فى هذا المقام ، لأنه من أوائل الكتب العربية التاريخية التى طبعت فى أوروبا ، هو « كتاب المجموع المبارك » تأليف « جرجيس » أو « عبد الله بن أبى الياسر بن أبى المكارم المكين بن العميد » .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية المستشرق الهولندى « اربنيوس Erpenius » ونشر الترجمة مقرونة بالنص العربى فى مدينة « ليدن » سنة ١٠٣٥ هـ = ١٦٢٥ م — ثم ترجمه إلى الإنجليزية فى السنة التالية المستشرق

---

(١) أنظر : Bibliotheca Indica

« برچاس Purchas »[1] حتى إذا كانت سنة ١٠٦٨ هـ = ١٦٥٧ م ترجمه « ڤاتير Vattier » إلى الفرنسية ، وبذلك أصبح هذا الكتاب ومعه كتاب تاريخ أبي الفدا أمير حماة[2] هما عماد المصادر العربية التي ظلت فترة طويلة في متناول البحاثة الأوروبيين المشتغلين بالتاريخ الإسلامي . ولو لم تكن له هذه الميزة لما ذكرناه في هذا المكان لأن مؤلفه مسيحي مصري لا علاقة له بإيران على الإطلاق . وقد ولد في سنة ٦٠٢ هـ = ١٢٠٥ م وتوفي في سنة ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م .

٢ – أصحاب التواريخ الخاصة

ونحن نمضي الآن إلى دراسة طبقة أخرى من المؤرخين وكتاب التراجم ، وهم الذين عنوا بدراسة أسرة من الأسر الحاكمة ، أو ملك من الملوك ، أو فترة من الفترات أو ولاية من الولايات ، أو بلدة من البلدان ، أو جماعة خاصة من جماعات الناس ، ويدخل ضمن هؤلاء أصحاب كتب التراجم المبوبة تبويب المعاجم .

الجرباذقاني :

عندما كنا نتحدث في فصل سابق عن « آل سبكتكين » أو الدولة الغزنوية ، أشرنا مرارا إلى تاريخ « العتبي » المسمى « تاريخ اليميني » نسبة إلى السلطان الغزنوي محمود يمين الدولة . وقد كتب العتبي هذا الكتاب باللغة العربية حتى إذا كانت هذه الفترة التي ندرسها . قام على ترجمته إلى اللغة الفارسية « أبو الشرف ناصح الجرباذقاني » أو « الگلپايگاني » نسبة إلى الكلمة الفارسية « گلپايگان » وهو إسم مكان بين أصفهان وهمدان[3] وقد تحدث « ريو » في « فهرست المخطوطات الفارسية »

---

(١) عنوان هذا الكتاب باللاتينية كما نشره « أربنيوس » هو :
Historia Saracenica arabice olim exarata a. Georgio El Macino et latine reddita opera Th. Erpedii.

(٢) ولد « أبو الفدا » سنة ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م ومات سنة ٧٢١ هـ = ١٣٢١ م

(٣) المترجم : جاء في معجم البلدان أن « جرباذقان » يتلفظ بها بفتح الجيم المقابلة لحرف الكاف الفارسية . ويقول ياقوت أنه يشار بها إلى بلدتين . إحداهما بلدة قريبة من همذان والأخرى بلدة بين استراباذ وجرجان من نواحي طبرستان .

حديثا طويلا عن هذه الترجمة وذكر فى ص ١٥٧ — ١٥٨ أنها تمت بين سنتى ٦٠٢ و ٦٠٧ هـ = ١٢٠٥ — ١٢١٠م كما يذكر أن « المتحف البريطانى » يشتمل على مخطوطة قديمة جميلة منها ، يرجع تاريخ نسخها إلى سنة ٦٦٥ هـ = ١٢٦٦ م . وقد نشرت هذه الترجمة فى طبعة على الحجر فى مدينة طهران سنة ١٢٧٢ هـ = ١٨٥٥م. وقد نقلت هذه الترجمة الفارسية إلى اللغتين التركية والانجليزية ، فقام « درويش حسن » بترجمتها إلى التركية ، وقام الأب «جيمس رينولدز James Reynolds» بترجمتها إلى الإنجليزية . كما عنى الأستاذ « نولدكه » بمقارنة الترجمة الفارسية بأصلها العربى ونشر خلاصة آرائه المتعلقة بهذا الموضوع فى العدد الثالث والعشرين من « محاضر جلسات الأكاديمية القيصرية » (١) .

وهو يقرر فى هذا البحث أن الترجمة الفارسية لم تتقيد بالأصل إلا فيما يتعلق بالمراسلات والمستندات والقصائد التى وردت فى الأصل العربى ، وأما فيما عدا ذلك فكانت ترجمة مطلقة من كل قيد ، لم يراع فيها المترجم الدقه فى نقل العبارات بقدر ماراعى تزويقها بالصناعات البلاغية لتكون محاكية للأصل العربى . ومن أجل ذلك فقد أباح المترجم لنفسه أن يغير بعض العبارات أو أن يحذف منها فى بعض المواضع أو يضيف إليها فى مواضع أخرى .

الفتح البنداري :

أما « آل سلجوق » وهم حكام الدولة التى خلفت الدولة الغزنوية فهناك رسالة هامة عنهم ، يرجع تاريخ كتابتها إلى هذا العصر الذى ندرسه . وقد كتبها صاحبها باللغة العربيه ، ونشر الفصلين الثالث والأخير منها المستشرق « هوتسما Houtsma » .

وتاريخ السلاجقه الذى أشرنا إليه مرارا عديدة فى الفصول التى درسنا فيها فترة السلجوقيين ، عبارة عن مؤلف ألفه أصلا باللغه الفارسية الوزير

---

(١) Sitzungsberichte der Kaiserlichen Akademie, Vienna 1857, Vol XXIII pp 15 - 102:

«أنو شروان بن خالد» المتوفى فى سنة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م وفقا لما جاء فى كتاب « عيون الأخبار » وقد ترجمه بعد ذلك إلى العربية ، بإضافة كثير من الزيادات « عماد الدين الكاتب الاصفهانى » وكان ذلك فى سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م ثم اختصر هذه الترجمة ونشرها بعد ذلك « الفتح بن على بن محمد البندارى » فى سنة ٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م .

وقد بحث « هوتسما » العلاقة بين هذه الكتب فى مقدمته الواضحة التى قدم بها طبعته لنسخة « البندارى » وقرر أن هذه النسخة توجد فى صورتين مختلفتين ، الأولى منهما مطولة وتشتمل عليها مخطوطة اكسفورد ، والأخرى قصيرة وتشتمل عليها مجموعة باريس .

بالإضافة إلى ذلك يجب أن نذكر أننا مدينون للبندارى أيضاً بتلخيص نثرى كتب بالعربية لكتاب « الشاهنامه » من تأليف الفردوسى ، وتشتمل « مكتبة جامعة كامبردج » على نسخة خطية جميلة لهذا المختصر(١) . وقد كتب الأستاذ « نولدكه » فى ص ٧٧ من كتابه « الحماسة الإيرانية »(٢) ينبه الأذهان إلى احتمال أن يكون هذا المختصر هاما من ناحية المساعدة فى نشر نصوص الـ « شاهنامه » بصورة أصح وأصوب .

عطا ملك الجوينى :

من بين كتب التاريخ الخاصة التى ألفت عن دولة بعينها فى هذه الفترة ، يجب أن نفرد مكانا ممتازاً لكتاب أشرنا إليه كثيراً فى الفصل السابق ، وأعنى به الكتاب المكتوب بالفارسية بعنوان « تاريخ جهان كشا » أو « تاريخ فاتح العالم »(٣) ، من تأليف « عطا ملك الجُوَينى » .

---

(١) المترجم : هذا المختصر هو الذى نشره الدكتور عبد الوهاب عزام بعنوان «الشاهنامه» فى سنة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ م . وكان موضوعا لرسالة الدكتوراه التى قدمها للجامعة المصرية

(٢) أنظر كتاب : Noldeke ; Iranisches Nationalepos.

(٣) المقصود بعبارة « فاتح العالم » هو « چنگيزخان » .

وقد بينت فيما مضى أهمية هذا الكتاب بما فيه الكفاية ، كما شرحت أيضا حال مؤلفه شرحا كافياً ، ولكنى يجب أن أصارح القارىء بأن عدم طبع هذا الكتاب ونشره حتى الآن ، برغم كثرة نسخه الخطية الجميلة وخاصة الموجودة فى المكتبة الأهلية فى باريس ، يعتبر فضيحة أدبية كبرى ، جعلت معالجتها من أهم آمالى وأطماعى[1] .

والكتاب يشتمل على ثلاثة أجزاء أو مجلدات : الأول منها يتحدث عن أصل المغول وفتوحات جنكيزخان ؛ والثانى عن ملوك خوارزم المعروفين باسم «خوارزمشاه» ، والثالث عن الحشاشين أو إسماعيلية حصن « ألموت » و«قهستان» ومحاربة « هولاكو خان » لهم[2] . وقد استفاد «دوسون» فائدة كبرى من هذا الكتاب عند تأليف كتابه « تاريخ المغول »[3] ؛ ولكنه كان ـ فى رأيى ـ شديد القسوة على مؤلفه ، ولم يراع أن سوء الحظ هو الذى اضطره إلى خدمة المغول الأجلاف ، وأنه اضطر بالتبعية إلى التحدث عنهم فى أدب ومجاملة.

أحمد النسوى :

الكاتب الذى يستحق بعد ذلك أن نخصه بالذكر هو « شهاب الدين محمد بن أحمد النسوى » كاتب السلطان الشجاع «جلال الدين خوارزمشاه» ومؤرخ سيرته. وقد أشرنا فى الفصل السابق كثيراً إلى مذكراته التى كتبها عن هذا السلطان

---

(١) المترجم : هكذا كتب الأستاذ « براون » عندما أخذ يكتب هذا الكتاب وقد نشر بعد ذلك كتاب تاريخ «جهانگشا» فى ثلاثة أجزاء ضمن سلسلة جب التذكارية وعنى بتصحيحه علامة إيران المرحوم «محمد بن عبدالوهاب القزوينى» وقد استطاع الأستاذ براون أن يكتب مقدمة بالانجليزية ألحقها بآخر المجلد الأول ، أرخها ٤ أغسطس سنة ١٩١٢ كما أن الجزء الثالث منه طبعه على حدة أستاذى الجليل المرحوم السير دنيسون روس Sir Denison Ross فى صورة فوتوغرافية عن أصله المخطوط .

(٢) أنظر مقالتى التى نشرتها فى يناير سنة ١٩٠٤ فى « مجلة الجمعية الملكية الأسيوية » فى موضوع محتويات هذا الكتاب التاريخى والمواد التى تساعد على نشره .

(٣) أنظر : كتاب تاريخ المغول لدوسون: D'Hosson ; Histoire des Mongols

ذى الحظ العاثر. وهذه المذكرات يمكن الاطلاع عليها فى أصلها العربى وفى ترجمتها الفرنسية التى قام بنشرها السيد « هوداس Houdas » فى باريس من سنة ١٨٩١-١٨٩٥ م.

وقد كتب « النسوى » هذه المذكرات المعروفة باسم « سيرة جلال الدين » فى سنة ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م أى بعد عشر سنوات تقريبا من موت « جلال الدين ». وقد كان النسوى وثيق الارتباط بسلطانه طوال حياته المليئة بالأحداث والمغامرات، ومن أجل ذلك فإن كتاباته مليئة بالمتعة والأهمية ؛ وقد بين ذلك بما فيه الكفاية « السيد هوداس » فى مقدمته التى قدم بها ترجمته الفرنسيه لـ «سيرة جلال الدين» ونحن نكتفى بأن ننقل منها هذه العبارات الرصينه :

« وخلال المدة الطويلة التى حكمها السلطان جلال الدين، لم يتركه النسوى إلا »
« فى أوقات قليلة نادرة، كان يؤدى له فيها بعض المهمات الخاصة التى يكلفه »
« بها. وقد كان إلى جواره ليلة هربه، حينما هم به أحد الأكراد المتوحشين »
« وكاد يقتله بطعنة من خنجره. »
« وشاهد النسوى معظم الأحداث التى رواها فى كتابه، بل وساهم فيها فعليا »
« بعض المساهمة، حتى ليمكننا أن نقول أن كتابه عن سيرة جلال الدين إنما »
« هو من باب المذكرات الشخصية الصحيحة ؛ لأن النسوى استطاع، بفضل »
« تقريب السلطان له، وبفضل علاقاته الوثيقة مع أعظم شخصيات المملكة، »
« أن يرى الأشياء على حقيقتها، وأن يكشف عن عللها وأسبابها. ولما كان »
« معروفا أنه لم يؤلف كتابه إلا بعد موت سيده بعشر سنوات، فمن الواضح »
« الأكيد أنه استطاع أن يتحدث عنه وعن الموضوعات التى ذكرها بصراحة »
« تامة وجرأة كاملة؛ وإذا لاحظنا أحيانا أنه يتحفظ بعض التحفظ عندما يعرض لنقد »
« بعض الأمور، فما ذلك إلا لأنه كان يخشى أن يتهم بالجحود ونكران الجميل »
« إزاء صاحب الفضل عليه، ولأنه أيضا كان يحرص فى هذه الفترة على سمعة »
« بعض أصدقائه وأصحابه. ولكنه رغم هذا التحفظ لم يستطع أن يخفى »
« مشاعره الحقيقية وأراءه الشخصية. ولا شك أن النحو الذى نحاه من حيث »
« التوسط والاعتدال ليدل دلالة واضحة على صدقه وإخلاصه. »

« ولم يقنع النسوى بأن يصف لنا ما رآه ، أو أن يروى لنا ماسمع ، بل »
« أجهد نفسه فى فهم الحوادث التى ذكرها واستقصاء أسبابها وتتبع نتائجها ، »
« وهى نتائج عجيبة ، نتبين أهميتها إذا رجعنا إلى دراسة هذه الفترات الموغلة »
« فى القدم . »

« ويبدو لى أنه — مع إعجابه بكتاب الكامل لابن الأثير — قد تحقق مما »
« فى هذا الكتاب من جمود يدعو إلى الملل والسأم ، فحاول فى كتابه أن »
« يبرهن للناس أن فى الإمكان كتابة التاريخ بأسلوب آخر ، يكون أكثر »
« تشويقا وأشد أسرا، بحيث يشبع الفضول ويرضى العقول . »

« وكان النسوى بارعا فى استعمال اللغة العربية وإجادة الإنشاء فيها ، ولكن »
« مما لاشك فيه أن قارئه ما زال يحس بشىء من الأثر الفارسى ، قد تخلف فى »
« أسلوبه وتعبيره . »

٣ — كتّاب التراجم

ابن خلكان :

إذا انتقلنا الآن إلى ذكر « كتاب التراجم» فإن « ابن خلكان» يحتل المكانة الأولى بينهم؛ولا يقتصر شأنه فى ذلك على كتاب التراجم من معاصريه بل بالنسبة إلى كتاب المسلمين عامة . فكتابه المشهور «وفيات الأعيان» الذى بدأ فى تصنيفه فى القاهرة فى سنة ٦٥٤هـ = ١٢٥٦ وانتهى منه فى سنة ٦٧٣هـ= ١٢٧٤ م يعتبر من أوائل كتب المراجع التى يحرص على اقتنائها كل مستشرق مبتدىء .

وقد نشره فى طبعة على الحجر المستشرق «وستنفلد» من سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٨٤٣م وطبع بعد ذلك مرتين على الأقل فى مصر (١) كما أن القارىء الإنجليزى يستطيع

(١) المترجم : طبع هذا الكتاب عدة مرات فى مصر وآخر طبعة له صدرت فى سنة ١٩٤٩ م . وقد طبع أيضا فى « إيران » .

الاطلاع على ترجمته الإنجليزية التى قام بها البارون «دى سلان» ونشرها بلندن فى أربعة مجلدات من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٨٧١م .

وكان «ابن خلكان» من سلالة البرامكة وقد ولد فى إربل فى سنة ٦٠٨هـ = ١٢١١ وأقام بها حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ثم انتقل إلى حلب ثم إلى دمشق ثم إلى القاهرة ثم إلى الاسكندرية حيث تولى كثيرا من المناصب التعليمية والقضائية . وقد أدركته منيته أخيرا فى سنة ٦٨١هـ = أكتوبر سنة ١٢٨٢م وقد اشتغل الكتاب بعد ذلك بكتابة الإضافات والزيادات التى ألحقوها بمعجمه الكبير «وفيات الأعيان» فكتب «الموفق فضل الله الصقاعى» ملحقا بلغ به سنة ٧٢٦هـ = ١٣٢٥م وكتب « ابن شاكر» ملحقا آخر [مات سنه ٧٦٤هـ = ١٣٦٢م] وقد نقل هذا الكتاب إلى الفارسية ، نقله يوسف ابن محمد بن عثمان فى سنة ٨٩٦ هـ = ١٤٩٠م ، ثم « كبير بن أويس بن محمد اللطيفى » فى أيام السلطان سليم العثمانى الذى حكم بين سنتى ٩١٨ — ٩٢٦ هـ = ١٥١٢ — ١٥١٩م

فإذا انتقلنا الآن إلى «كتب التراجم» التى تذكر طائفة خاصة من الناس أو جماعة من أصحاب الحرف ، فإننا نجد لزاما علينا أن نذكر منها مؤلفين بالعربية وثالثا بالفارسية وهى جميعا من مؤلفات هذا العصر ونقصد بهذه الكتب الثلاثة ما يأتى :

(ا) تاريخ الحكماء : للقفطى بالعربية

(ب) طبقات الأطباء : لابن أبى أصيبعة بالعربية

(جـ) لباب الألباب : لمحمد عوفى بالفارسيه وهو فى جزءين

طبع الأول منهما فى سنه ١٩٠٣ والثانى مازال فى المطبعة (٢)

فلنمض الآن فى دراسه هؤلاء الكتاب الثلاثة متبعين نفس النهج الذى اتبعناه فيما سبق .

---

(٢) المترجم : بدأ «براون» بطبع الجزء الثانى من هذا الكتاب فى سنة ١٩٠٣م ثم طبع الجزء الأول سنه ١٩٠٦ م

القفطى

ولد «جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى» فى مدينة « قفط » من صعيد مصر فى سنه ٥٦٨هـ = ١١٧٢م وقد جاء آباؤه أصلا من مدينه الكوفة، أما أمه فيرجع نسبها إلى قبيلة قضاعة العربية الكبيرة . وقد اهتم بتحصيل علومه حتى الخامسة عشرة من عمره فى مدينتى القاهرة وقفط ثم اختار «صلاح الدين الأيوبى» والده « يوسف » ليتولى القضاء فى مدينة القدس فاتصل بأسرته فى القدس وأقام فيها حتى إذا كانت سنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م ذهب يوسف إلى « حران » وكانت منذ العصر العباسى الأول مشهورة بأنها مركز هام من مراكز الدراسات الفلسفية اليونانية فى آسيا بحيث سميت باسم « هللنوپوليس » فاشتغل بها وزيرا للملك الأشرف ، ثم أدى فريضة الحج وذهب إلى اليمن حيث مات فى النهاية فى سنة ٦٢٥ هـ = ١٢٢٧م .

أما ابنه ، وهو المؤلف الذى نعنى به فى هذا المقام، فقد انتقل فى تلك الأثناء إلى « حلب » حيث تولى وزارة المالية بها ولقب باسم « القاضى الأكرم » ويبدو لى أن أمره لم يقتصر على كونه موظفا كفءا أمينا وباحثا عالما يجد فى طلب المعرفة . بل كان بالإضافة إلى ذلك من أكبر المعينين لرجال العلم ، وقد كان الجغرافى « ياقوت » واحداً من هؤلاء الذين شملهم عطفه ورعايته عندما فر أمام غارة المغول من خراسان إلى ناحية المغرب كما سبق لنا أن ذكرنا ذلك فى موضعه . وكان القفطى حريصاً كل الحرص على أن يوفر لنفسه أوقات الفراغ ليتابع فيها دراساته ولكنه اضطر فى سنة ٦٣٤ هـ = ١٢٣٦ م أن يقبل الاشتغال لثالث مرة بالمناصب الحكومية فتولى الوزارة للملك العزيز وتوفى بعد اثنى عشرة سنة وهو ما زال وزيراً فى سنة ٦٤٦هـ = ديسمبر ١٢٤٨م. ويجد القارىء تفاصيل أوفى مما ذكرت عن حياة « القفطى » ، مذكورة فيما كتبه الدكتور« ليبرت Dr. Lippert» فى مقدمته التى قدم بها طبعته التى نشرها لكتاب « تاريخ الحكماء » وقد استقى معظم أخباره من معجم الأدباء لياقوت (وهذا المعجم يعده الآن للطبع ضمن سلسلة جب التذكارية الأستاذ مرجوليوث

الأستاذ بجامعة اكسفورد (١)) وقد أجمل رأيه فى «القفطى» فوصفه بأنه الصورة العربية لـ « ولهلم فون همبولد »(٢) .

وقد كتب « القفطى » كثيرا ، واستطاع ياقوت ، وقد توفى قبله بما يقرب من عشرين سنة ، أن يذكر لنا عناوين عشرين مؤلفا من مؤلفاته،ضاعت جميعها تقريبا كما يقول « مولر Muller » فى غارة المغول على مدينة حلب فى سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦٠ م . وفى رأى الدكتور ليبرت أن كتابه «تاريخ الحكماء» فى صورته الحاضرة ما هو إلا مختصر من الكتاب الذى وضعه أصلا بهذا الاسم . والكتاب فى صورته الحاضرة يشتمل على ٤١٤ سيرة من سير الفلاسفة والأطباء والرياضين والمنجمين الذين ظهروا فى مختلف العصور التاريخية منذ أقدم الأزمنة حتى زمان المؤلف،وهو غنى بالمعلومات الهامة التى تساعد على دراسة تاريخ الحكمة والفلسفة. وقد استفاد به كثير من معاصريه ومن تبعهم ، نخص منهم بالذكر « ابن أبى أصيبعة » و «ابن العبرى » و « أبا الفدا » . والكتاب مرتب على الحروف الهجائية ولم يرتب وفقاً للترتيب الزمنى .

ابن أبى أصيبعة :

ولد « ابن أبى أصيبعة » مؤلف « طبقات الحكماء » فى مدينة دمشق فى سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م ودرس الطب فيها وفى القاهرة ثم مات فى موطنه فى سنة ٦٦٩ هـ = يناير ١٢٧٠ م وقد اشتغل كوالده بصناعة الطب واختص على وجه الدقة بطب العيون ، وقد ذكر «ابن أبى أصيبعه» بين أساتذته العالم النباتى والطبيب المشهور « ابن البيطار ». وقد اشتغل فترة من حياته بإدارة إحدى المستشفيات التى أنشأها « صلاح الدين الأيوبى » فى مدينة القاهرة .

أما كتابه « طبقات الحكماء » فقد نشره « مولر » فى مدينه « كونجزبرج »

---

(١) المترجم: أتم الأستاذ المرحوم مرجوليوث طبع هذا الكتاب فى سلسلة جب التذكارية كما طبع هذا المعجم فى مصر .

(٢) اسمه بالحروف اللاتينية : Wilhelm von Humboldt.

فى سنه ١٨٨٤ م كما نشر بالقاهرة فى سنه ١٨٨٢ م ، وتوجد له نسخة خطية قديمة يرجع تاريخ نسخها إلى سنه ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م وهى ضمن مجموعة مخطوطات « شيفر » المحفوظه بالمكتبه الأهليه بمدينه باريس، وقد اعتمد « وستنفلد » اعتمادا كليا على كتاب ابن أبى أصيبعه فى تأليف كتابه «تاريخ الطب والنبات عند العرب» (١)

محمد عوفى :

الكاتب الجدير بالذكر بعد ذلك هو « محمد عوفى » مؤلف كتاب « لباب الألباب » الذى أشرنا إليه كثيرا فى هذه الفصول ، وهو كذلك مؤلف مجموعة من الحكايات بعنوان « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » .

وهو يقرر فى القسم الأول من كتابه الأخير أنه استمد نسبته فعرف باسم « العوفى » نسبة إلى « عبدالرحمن بن عوف » أحد صحابة النبى لأنه كان من سلالته . وقد أمضى «العوفى» معظم طفولته فى خراسان وما وراء النهر وخاصة فى مدينة « بخارى » ، ثم رحل عن هذه المدينة إلى الهند فالتحق بخدمة السلطان «ناصر الدين قباچه» وأهدى إلى وزيره «عين الملك حسين الأشعرى» معجمه الذى صنفه عن شعراء الفرس باسم «لباب الألباب» . فلما فقد هذا السلطان ملكه وحياته فى سنة ٦٢٦هـ = إبريل ١٢٢٨ م انتقل «العوفى» كما فعل المؤرخ «منهاج السراج» إلى خدمة السلطان الذى قهره [شمس الدين ايلتتمش] وأهدى إليه كتابه «جوامع الحكايات » . هذا هو جماع ما نعرفه عن العوفى ، بالإضافة إلى بعض التفصيلات الأخرى المتعلقة بتواريخ زياراته لمختلف البلاد وأفاضل الشعراء وأكابر الناس.

أما كتابه «جوامع الحكايات » فلم يطبع حتى الآن (٢) ونسخه الخطية غير قليلة

---

(١) أنظر كتاب : Wüstenfeld : Geschichte der Arabischen Aerzte und Naturforscher. Gottingen, 1840.

(٢) المترجم : أوفى ما كتب عن هذا الكتاب حتى الآن هو ما كتبه « محمد ناظم الدين» الأستاذ بالجامعة العثمانية فى حيدر أباد . وقد نشر كتابه عن هذا الموضوع فى مدينة لندن سنة ١٩٢٩ بعنوان: Introduction to the Jawami u'L — Hikayat

ولانادرة ومن بينها نسخة قديمة نخصها بالذكر كانت من ممتلكات «السير وليم جونز» وهى الآن محفوظة بمكتبة إدارة الهند تحت رقم (W ٧٩) .

وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة واسعة من الحكايات ، تختلف فى قيمتها وجمالها ، وهو مقسم إلى أربعة أقسام ، كل قسم منها يشتمل على خمسة وعشرين بابا ، وكل باب منها يشتمل على مجموعة من الحكايات تصور موضوعه وتفسره . وأسلوب الكتاب سهل بسيط ، وهو فى هذا يختلف تماما عن الكتاب الآخر الذى ألفه العوفى قبل ذلك ، وهو أهم كتابيه ، ونعنى به «لباب الألباب» . فهذا الكتاب يعتبر أقدم كتب التراجم التى كتبت عن شعراء الفرس . وقدذكر ذلك «بلاند» فى مقالته التى وصف بها إحدى النسختين المخطوطتين الموجودتين فى أوروبا (١) وقد انتفع بهذا الكتاب الدكتور «إتيه» انتفاعا بالغا فى تأليف مقالاته العديدة الفائقة التى كتبها عن شعراء الفرس المبكرين . ولم يكن هذا الكتاب فى متناول الباحثين حتى أصدرت طبعتى له ، فظهر المجلد الثانى منه فى سنة ١٩٠٣ وسيظهر المجلد الأول منه فى خلال سنة ١٩٠٦ م . وكتاب «لباب الألباب» يعتبر من أهم الكتب فى تاريخ الأدب الفارسى بالنظر إلى قدمه وبالنظر إلى ما أورده من تراجم بعض الشعراء الذين كادت أخبارهم تندرس كلية ولم يرد قبل ذلك ذكر عنهم ، ولكنه رغم ذلك كله مخيب للآمال من عدة وجوه ، فالأخبار التى رواها عن الشعراء خالية من التواريخ الدقيقة أو التفاصيل الممتعة ، وقد استعاض المؤلف عن

---

(١) نشرت مقالة بلاند Bland فى الجزء التاسع من مجلة الجمعية الملكية الأسيوية فى سنة ١٨١٨ أما المخطوط الذى تحدث عنه فقد أعاره له صديقه «جون باردون اليوت John Bardon Elliot» فلما مات أشتراه مع سائر كتبه اللورد كروفورد Lord Crawford فى سنة ١٩٠١ ثم باعه ابنه اللورد كروفورد الحالى مع سائر مخطوطاته الشرقية إلى «المسز ريلاندز Mrs Reylands» من أهالى منشستر فوضعته فى مكتبة جون ريلاندز بهذه المدينة أما المخطوطة الأخرى الموجودة فى أوروبا من نسخ هذا الكتاب فهى ضمن مجموعة سبرنجر Sprenger المحفوظة فى مكتبة برلين ، وكانت فى الأصل من ممتلكات ملك أوذ . وقد استخدمت هاتين المخطوطتين فى إعداد طبعتى لهذا الكتاب فأصدرت الجزء الثانى منه أولا فى سنة ١٩٠٣ ويكاد الجزء الأول منه يتم الآن وأنا أكتب فى إبريل سنة ١٩٠٦ . ولابد أن هذا الكتاب توجد له مخطوطة ثالثة على الأقل فى إيران لأن «رضا قليخان» استعمله كثيرا فى تصنيف كتابه «مجمع الفصحاء» المطبوع على الحجر فى طهران سنة ١٨٧٨ م

ذلك بشحنها بالعبارات البلاغية والمحسنات اللفظية ، كما أن مختاراته التى استشهد بها من أقوال الشعراء تعتبر من المختارات الرديئة الخالية من الذوق والجمال ، يضاف إلى ذلك أنه أهمل ذكر جماعة من الشعراء المشهورين مثل «ناصر خسرو» و«عمر الخيام» بينما أفاض فى نهاية الجزء الأول فى ذكر جماعة من متوسطى الحال أخذ ينعتهم بمختلف الأوصاف ويطيل فى أخبارهم بغير ما داع أو سبب ، إلا أنهم كانوا من معاصريه الذين التحقوا مثله بخدمة السلطان «ناصر الدين قباچه» . وفيما عدا ذلك فإن هذا الكتاب يعتبر من كتب الدرجة الأولى لأنه يشتمل على ما يقرب من ثلثمائة ترجمة من تراجم شعراء الفرس الذين ظهروا قبل أن يشتهر اسم «السعدى» ، ومتى أحسنا الانتفاع به فستزيد معلوماتنا كثيرا فيما يختص بهذه الفترة المبكرة من فترات الأدب الفارسى . ومع ذلك كله فمن العسير أن يتفادى المرء شعوره بالضيق والخيبة عندما يفكر قليلا فى أن المؤلف كان فى استطاعته بما مهد له من وسائل ، أن يجعل مؤلفه أبلغ أثراً وأشمل نفعا[1] .

٤ — أصحاب التواريخ المحلية

ابن اسفنديار

ننتقل الآن إلى الحديث عن «التواريخ المحلية» فنقول إن أهم ما ألف منها فى هذه الفترة باللغة الفارسية هو «تاريخ طبرستان» تأليف «محمد بن الحسن بن اسفنديار» . ولسنا نعرف إلا القليل عن حياة المؤلف ، وكل ما نعرفه عنه هو عبارة عن الأخبار المتفرقة التى يرويها عرضاً عن نفسه فى صفحات كتابه . ويستفاد من هذه الأخبار أنه عاد من بغداد إلى مدينه الرى فى سنة ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م ، وأنه وجد هناك فى مكتبة الملك «رستم بن شهريار» النسخة العربية من «تاريخ طبرستان»

(١) المترجم : تم طبع الجزءين وهما الآن من أهم المراجع التى يعتمد عليها الباحثون فى دراسة شعراء الفرس

وهى التى قام بتأليفها «اليزدادى» فى أيام «قابوس بن وشمكير» سنة ٣٦٦-٤٠٣ هـ = ٩٧٦-١٠١٢ م فأخذ هذه النسخة العربية ، واعتمد عليها فى وضع كتابه الفارسى .

ثم اضطر «ابن اسفنديار» بعد فترة وجيزة إلى العودة إلى مدينة «آمل» ثم انتقل منها إلى مدينة « خوارزم » وحدثنا عن حالها فى تلك الفترة فوصفها بأنها مدينة عامرة برجال العلم والأدب . وقد بقى فى «خوارزم» فترة لا تقل عن خمس سنوات اكتشف فى خلالها كثيراً من الأخبار المتصلة بموضوع مؤلفه، فجمعها وأدخلها فيه لأنه كان حتى هذا الوقت مشتغلا بإكماله فى سنة ٦١٣ هـ = ١٢١٦ م .

بعد ذلك تنقطع أخباره فلا نعرف عنه شيئا ، ولا نستطيع أن ندلى برأى فيما إذا كان قد هلك على يد المغول أثناء غارتهم على خوارزم فى سنة ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م . أو إذا كان قد نجا بحياته فعاد قبل ذلك إلى موطنه « مازندران » .

ولسنا فى حاجة إلى تفصيل القول عن كتابه لأن فائدته يمكن التحقق منها بمراجعة الترجمة المختصرة التى نشرتها له فى المجلد الثانى من «سلسلة جب التذكارية» وكل ما يمكن أن يقال عنه هو أن أجزاءه الأولى تشتمل على كثير من الأمور المتصلة بالأساطير، ولكنه متى وصـــل إلى العصر الإسلامى فإنه يفيض فى ذكر الحقائق التاريخية والجغرافية والأخبارية ، وخاصة التفاصيل المتعلقة بسير الرجال المحليين من أصحاب الشهرة والصيت ، سواءا أقاموا فى طبرستان أم خارجها ، وعلى الخصوص سير الشعراء الذين أنشأوا أشعارهم فى اللهجة الطبرية ، وهى لهجة يبدو أنها كانت مستعملة فى طبرستان استعمالا واسعاً بحيث أصبحت لهجة أدبية متعارفا عليها . وقد انتهى « ابن اسفنديار » من تاريخه فى الحد الطبيعى الذى قدر له، أى بوفاة «رستم بن أردشير» فى سنة ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م ، لكن يداً متأخرة استطاعت أن توصل سجل الأخبار المروية فيه إلى سنة ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩ م .

والتواريخ المحلية الشبيهة بتاريخ « ابن اسفنديار » كثيرة ووفيرة ، وهى تؤلف فى مجموعها قسما متميزاً من أقسام الأدب الفارسى . ولدينا منها على سبيل المثال تواريخ متعلقة بـ «أصفهان» و «شيراز» و «يزد» و « قم » و « هراة » و « سجستان » و «ششتر » وطائفة أخرى من المدن الإيرانية ، كما أن لدينا منها عدداً آخر ألف عن

«طبرستان» نفسها. وقد نشر «دورن Dorn» طائفة كبيرة من هذه المجموعة الأخيرة، ولكن أغلبها ما زال خطيا ، ولم ينشر منها في بلاد الشرق إلا مجموعة قليلة طبعت على الحجر .

بالإضافة إلى ذلك يوجد نوع آخر من هذه التواريخ المحلية يمكن وصفه على وجه الدقة بأنه عبارة عن « معجم محلى » مرتب فى الغالب على حسب الحروف الهجائية ، ويشتمل على سير الرجال النابهين الذين ظهروا فى بلدة بعينها أو فى ولاية بعينها . وقد ألف «ابن الخطيب البغدادى» المولود فى سنة ٣٩٣ هـ = ١٠٠٢ م والمتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م كتابا من هذا النوع باللغة العربية ذكر فيه رجال العلم والأدب فى بغداد ، وجعله فى أربعة عشر مجلدا [١] ، فلما كانت الفترة التى نتحدث عنها فى هذا الفصل أضاف إليه « أبو عبد الله محمد الدبيثى » المتوفى سنة ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م ملحقا كتبه أيضا باللغة العربية . وهذا الملحق فيما نعلم غير موجود بتمامه ، ويوجد منه جزء فى باريس ، كما يوجد جزء آخر قد يكون من بين أجزائه فيما أعتقد فى مكتبة كامبردج . وهذا الجزء الأخير منسوبة كتابته ، كما يبدو على الغلاف إلى « ابن الخطيب» نفسه ، وقد ذكرت فيما سبق أنه توفى فى سنة ٤٦٤ هـ = ١٠٧١ م فإذا كان هذا الجزء يشتمل على أخبار مروية عن سنة ٦١٥ هـ = ١٢١٨م فمن الواضح الجلى أنه ليس من تأليف «ابن الخطيب» نفسه ، بل هو ملحق كتب فى زمن متأخر ، وإذا لاحظنا أيضا أن هذا الجزء كبير الحجم إلى درجة ملحوظة ، ولكنه لا يشتمل إلا على جزء من حرف «العين» فمن السهل أن نتصور أن هذا الملحق كان بالغ الطول مفرطا فى الضخامة .

---

(١) المترجم : طبع هذا الكتاب برمته فى القاهرة فى مطبعة السعادة فى سنة ١٣٤٩ هـ الموافقة سنة ١٩٣١ م .

٥ — الجغرافيون والرحالون

[الكتب الجغرافية وكتب الأسفار]

ننتقل الآن إلى دراسة الكتب الجغرافية وكتب الأسفار التى كتبت فى هذه الفترة . وسأقتصر فى هذا المقام على ذكر ثلاثة منها كتبت جميعا باللغة العربية .

ياقوت :

وأهم هذه الكتب مرجع أشرت إليه كثيرا فى الفصل السابق، وهو المعجم الجغرافى الواسع الذى ألفه ياقوت بعنوان « معجم البلدان » وقد طبعه « وستنفلد » فى ستة أجزاء من سنة ١٨٦٦ إلى سنة ١٨٧١ م[١] .

وقد ولد « ياقوت بن عبد الله » فى سنة ٥٧٥هـ = ١١٧٩م من أبوين يونانيين ومن أجل ذلك سمى بالرومى . كما إنه فى طفولته كان عبدا بالشراء لتاجر من تجار مدينة « حماة » ومن أجل ذلك نسب إليها فقيل « الحموى » وقد تمكن ياقوت من أن ينال قسطا وافرا من التعليم ، وأن يجوب كثيرا من الديار بحيث شملت أسفاره الأقطار الممتدة جنوبا بشرق حتى جزيرة « كيش » فى الخليج الفارسى ، والأقطار الممتدة شمالا بشرق حتى «خراسان» و «مرو» حيث دأب على الاشتغال فى مكتباتها العامرة التى امتازت بها هذه المدينة الزاهرة ، حتى إذا كانت غارة المغول أضطر إلى الهرب إلى «الموصل» واستطاع فى ربيع عام ٦٢١ هـ = ١٢٢٤ م أن يكمل مؤلفه الواسع «معجم البلدان» . وهذا الكتاب مرجع من أهم المراجع التى يعتمد عليها الباحثون فى كل ما يتعلق بجغرافية الأنحاء الغربية من آسيا ، وفى كثير مما يتعلق بتاريخها ، وهذه الأمور ، وخاصة ما يتعلق منها بإيران ، لم يكن من السهل ، لغير المستشرقين ، مراجعتها إلا فيما كتبه باربييه دى منار فى «معجمه الجغرافى التاريخى

---

(١) المترجم : هذه هى الطبعة الأوروبية وقد طبع الكتاب فى ثمانية أجزاء فى القاهرة بمطبعة السعادة فى اختتام سنة ١٣٢٣ هـ وافتتاح سنة ١٩٠٦ م .

الأدبى لبـلاد إيران والبـلاد المصاقبة »[١] . وقد ألف ياقوت كتابين آخرين فى الجغرافيا هما :

(١) مراصد الأطلاع : وقد طبعه « جوينبل Juynboll » فى مدينة ليدن من سنة ١٨٥٠ إلى سنة ١٨٦٤ م .

(ب) المشترك : وهو كتاب يذكر فيه أسماء البلاد المشتركة فى أسمائها ، وقد تم، طبعه بجهود« وستنفلد » فى مدينة «جوتنجن» فى سنة ١٨٤٦ م .

بالاضافة إلى هذه الـكتب صنف «ياقوت» معجما مشتملا على سير الأدباء وأسماه « معجم الأدباء » ستطبع أجزاؤه بواسـطة الأستاذ « د . س . مارجوليوث » ضمن « سلسلة جب التذكارية »[٢] . وله كتاب آخر فى الأنساب .

وقد كتب « فون كريمر » مقالة طيبة عن ياقوت فيها تقدير جميل له فى الجزء الثانى من كتابه الممتع[٣] « تاريخ الأدب الشرقى » ص ٤٣٣ — ٤٣٦ .

القزوينى :

الجغرافى الآخر الذى لايبلغ مرتبة ياقوت من الناحية العلمية ، هو « زكريا بن محمـد بن محمود القزوينى » وقد ألف كتابين نشرهما « وستنفلد » فى سنتى ١٨٤٨ و١٨٤٩ م . فأول هذين الـكتابين عنوانه «عجائب المخلوقات» وهو يشتمل على بيان التقويم الشمسى والنجوم والإجرام السماوية والحيوانات والنباتات والمعادن وكذلك كل ما يتعلق بالوحوش والحيوانات الخرافيـة المختلفة . وأما كتابه الثـانى فهو

---

(١) أنظر : Barbier de Meynard : Dictionnaire Geographique, historique et Litteraire de la Perse et des contrées adjacentes Paris 1871.

(٢) المترجم : تم طبع «معجم الأدباء » ضمن « سلسلة جب التذكارية » وقد طبع بالقاهرة وتولى طبعه الدكتور أحمد فريد رفاعى فى عشرين جزءا فى سنة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦ م

(٣) أنظر : Von Kremer ; Culturgeschichte des Orients

« آثار البلاد » وهو عبارة عن وصف علمى بقدر الاستطاعة المدن والبلاد المعروفة للعالم الإسلامى فى هذا الزمان ، وقد رتبه المؤلف وفقا لحروف الهجاء وتبعا لأقاليم الدنيا السبعة ، فابتدأ بالإقليم الأول وهو المصاقب لخط الاستواء ثم اختتمه بالإقليم السابع وهو الذى يتضمن جميع البلاد الواقعة إلى أقصى الشمال .

وكتاب «عجائب المخلوقات» هو أكثر هذين الكتابين ذكرا وأوسعهما انتشارا فى بلاد المشرق ، وتوجد منه نسخ خطية كثيرة مزدانة فى الغالب بتصاوير كثيرة منقولة عن أصله العربى أو عن ترجمته الفارسية .

أما كتاب « آثار البلاد » فهو أهم الكتابين وأكثرهما متعة ، ويرجع ذلك إلى أنه يشتمل على كثير من الأخبار الجغرافية النافعة ، وإلى أنه كذلك يشتمل على كثير من الأخبار المتصلة بتراجم الرجال الذين ورد ذكرهم بمناسبة الحديث عن بلدانهم ، ومن بين هؤلاء عدد كبير من شعراء الفرس من أمثال «الأنورى» و «عسجدى» و«أوحد الدين الكرمانى» و «فخرى الجرجانى » و «فرخى» و « الفردوسى » و«جلال طبيب » و « جلال خاورى » و « خاقانى » و « أبو طاهر الخاتونى » و «مجير البيلقانى» و «ناصر خسرو» و « نظامى الگنجوى » و « عمر الخيام » و « أبو سعيد بن أبى الخير » و « سنائى » و « شمس طبسى » و « عنصرى » و « رشيد الدين الوطواط » .

والأخبار الجغرافية التى ترد فى هذا الكتاب لاتبلغ من حيث الدقة مبلغ مارواه « ياقوت » وغيره من الجغرافيين المبكرين ، ولكنها مع ذلك مشحونة بالأخبار الممتعة المسلية . ومن الغريب أن الكتاب لم يرد به ذكر إطلاقا لانجلترا ولكنه يشتمل على مقالة عن إيرلنده وردت ضمن كلامه عن الإقليم السادس مع وصف مجمل لصيد الحيتان ، وكذلك يشتمل على مقالة مطولة عن مدينة روما . وعندما تعرض المؤلف لذكر الإقليم السابع تحدث عن الطقوس التى يتبعها الفرنج فى النار والماء والمعارك ، وعن السحر والسحرة وإحراق المشعوذين ، وعن « الخليج الڤارنجى Varangian Fiord » فى أقصى الشمال . وفى رأيى أننى لم أصادف بين الكتب العربية كتابا ممتعا جديرا بالقراءة مثل هذا الكتاب . وإذا راعينا الدقة التامة

وجب علينا أن نقول إن هذا الكتاب يخرج عن دائرة الفترة التى نتناولها بالبحث فى هذا المؤلف . لأن نسخته الأولى تم تأليفها فى سنة ٦٦٢ هـ = ١٢٦٣م بينما لم تتم نسخته الثانية [وهى نسخة مزيدة ومنقحة] إلا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة أى فى سنة ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م . وقد ولد القزوينى فى مدينة « قزوين » من بلاد إيران فى سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م وأقام فترة من حياته فى مدينة « دمشق » ، وتولى القضاء فى أيام الخليفة « المستعصم » آخر الخلفاء العباسيين فنصبوه قاضيا على « واسط » و « الحلة » ثم توفى فى سنة ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م .

ومن الجدير أن نذكر أيضا إنه أهدى كتابه « عجائب المخلوقات » إلى « عطا ملك الجوينى » مؤلف كتاب « تاريخ جهانگشا » .

ابن جبير :

والآن يجدر بنا أن نتحدث حديثا مختصرا عن الرحالة «ابن جبير» وهو الرحالة الذى نشر أسفاره الأستاذ المرحوم « و . رايت Wright » فى مدينة ليدن سنة ١٨٨٢م .

كان «ابن جبير» من أهالى «غرناطة» وقد فاز بشهرة عريضة فعرف بأنه كاتب مجيد وشاعر مجيد أيضا . وقد سافر إلى المشرق ثلاث مرات ، أدىَ فى كل مرة منها فريضة الحج إلى مكة . وقد بدأ أولى أسفاره فى ٥٧٩ هـ = ٤ فبراير سنة ١١٨٣م وعاد إلى موطنه فى ٥٨١هـ = نهاية أبريل سنة ١١٨٥م . ثم وقعت بعد ذلك مدينة «بيت المقدس» فى يدى «صلاح الدين» فدفعته هذه الأنباء إلى القيام برحلته الثانية فشرع فيها فى ٥٨٥هـ = أبريل ١١٨٩م وانتهى منها فى ٥٨٦ هـ = أواسط سبتمبر سنة ١١٩٠م . ثم ماتت زوجته وكان يحبها حبا شديدا فدفعه الحزن عليها إلى القيام برحلته الثالثة فخرج من «سبته:Cueta» إلى «مكة» وبقى فى «مكة» فترة من الزمن ثم غادرها إلى «بيت المقدس» و«القاهرة» و «الاسكندرية» حيث توفى فى هذه المدينة الأخيرة فى ٦١٤هـ = ٢٩ نوفمبر سنة ١٢١٧م ولم يترك لنا «ابن جبير» إلا حديثه عن الرحلة الأولى من هذه الرحلات الثلاث .

٦ — الفلاسفة

وإذا انتقلنا الآن إلى الحديث عن الفلاسفة فإن أهم فيلسوفين ظهرا في هذه الفترة وسبق لنا الإشارة إليهما في الفصل السابق من هذا الكتاب هما :

« فخر الدين الرازي » و « نصير الدين الطوسي »

فخر الدين الرازي :

ولد «الرازي» في ٥٤٤هـ = ٧ فبراير سنة ١١٤٩ م ؛ ثم أخذ في تحصيل علومه في موطنه أي مدينة «الري» وكذلك في بلدة «المراغة» ثم رحل إلى «خوارزم» وما وراء النهر وانتهى به المطاف إلى مدينة «هراة» حيث أدركته الوفاة في ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م . وقد كان إنتاجه الأدبي كبيرا شمل كثيراً من الموضوعات فكتب عن تفسير القرآن والحديث ، وكتب عن الفقه والفلسفة والنجوم والتاريخ والبلاغة كما صنف موسوعة في العلوم . وقد عدّ بروكلمان ثلاثة وثلاثين مؤلفا من مؤلفاته[1] لا زالت باقية برمتها أو أغلبها حتى الآن . وربما كان من آخر تأليفاته رسالة « في ذم الدنيا » كتبها في مدينة هراة سنة ٦٠٤هـ = ١٢٠٧م وقد ألف أحد مؤلفاته باللغة الفارسية وهو الكتاب الذي أهداه إلى ملك خوارزم « علاء الدين خوارزمشاه » وأسماه من أجل ذلك باسم «الاختيارات العلائية » كما أنه ألف أيضا لهذا الملك نفسه موسوعة العلوم التي كتبها في سنة ٥٧٤هـ = ١١٧٨م .

نصير الدين الطوسي :

سبق لنا الإشارة إلى هذا الفيلسوف في الفصل السابق ، ونحن هنا نكتفي بأن نذكر أنه ولد في مدينة «طوس» كما تدل على ذلك نسبته في سنة ٥٩٧هـ = ١٢٠٠م[2]

---

(١) أنظر: Brockelmann: Gesch. d. Arab. Litt., vol I, pp 506—508

(٢) هكذا يقول « ابن شاكر » في كتابه « فوات الوفيات ». أما بروكلمان فيقول إنه ولد في سنة ٦٠٧هـ = ١٢١٠ م ولكني لا أعرف المرجع الذي اعتمد عليه في ذلك .

وقد اشتغل ـ كما رأينا ـ رغما عنه مع «الحشاشين» حتى إذا تم للفاتح المغولى «هولاكو» إخضاع قلعتى «ألموت» و « ميمون دژ» انتقل « نصير الدين » إلى خدمته وأصبح موضعا لتكريمه وتشريفه . وقد استفاد كثيرا من مصاحبته للجيش المغولى الذى حطم «بغداد» فاستغل فرصة العبث بالمكتبات وأغنى مكتبته الخاصة بحيث أصبحت فى النهاية تضم بين جدرانها أكثر من أربعمائة ألف مجلد كما يقول « ابن شاكر »(١) . وكان شديد التأثير فى مولاه المغولى المتوحش «هولاكو» بحيث أصبح هذا الفاتح الهمجى لا يقدم على أمر من الأمور دون أن يستشيره بشأن حكم النجوم وملاءمة الوقت لتنفيذ ما يقدم عليه أو الأحجام عنه . وقد استطاع فى وقت من الأوقات أن يستغل الخرافات التى كان يؤمن بها «هولاكو» وينقذ بذلك حياة « صاحب الديوان »(٢) «علاء الدين الجوينى» وجماعة آخرين من الناس حكم عليهم بالإعدام . وقد ساعده فى بناء المرصد المشهور بمدينة « المراغة » ، وهو المرصد الذى بدأ بناؤه فى سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ . جماعة من مشاهير العلماء ، ذكر أسماءهم جميعا فى كتابه المعروف ، باسم «زيج إيلخانى» وقد مات « نصير الدين» فى مدينة بغداد سنة ٦٧٣ هـ = يونيه ١٢٧٤ م . ويمتاز «نصير الدين » بأنه كان كاتبا خصب الإنتاج فى الموضوعات الدينية والفلسفية والرياضية والطبيعية والمسائل المتصلة بأحكام النجوم وقد عد « بروكلمان » مالا يقل عن ستة وخمسين مؤلفا من مؤلفاته(٣) وأغلب هذه المؤلفات مكتوب بالطبيعة باللغة العربية ، وهى اللغة التى كانت حتى هذا العصر تعتبر « لاتينية العالم الإسلامى الشرقى » ولغة العلوم والفنون ، ولكنه أيضا كتب جملة من مؤلفاته باللغة الفارسية؛ وكذلك أنشأ كثيرا من الأشعار فى هذه اللغة ، كما أشار إلى ذلك « ابن شاكر » مرتين عندما تعرض لترجمة حياته فى كتابه «فوات الوفيات» (٤)

---

(١) أنظر « فوات الوفيات » ج ٢ ص ١٤٩ .

(٢) المترجم : هذا التعبير كان من ألقاب الوزراء فى هذا الوقت .

(٣) أنظر: Brockelmann:Gesch.d. Arab. Litt., vol II pp. 508—512

(٤) أنظر الجزء الثامن ص ١٥١ .

ومؤلفاته المنثورة التى كتبها بالفارسية تتضمن الكتب الآتية :

١ — « أخلاق ناصرى» : وهو كتاب مشهور فى علم الأخلاق .
٢ — « بيست باب درمعرفت اسطرلاب» :أى عشرون بابافى معرفةالاصطرلاب.
٣ — « رسالة سى فصل» : أى رسالة الفصول الثلاثين وتتضمن الحديث عن النجوم والتقويم السنوى .
٤ —«زيج إيلخانى» : وهو الزيج الذى ألفه لـ « هولا كوخان »
٥ — «تنسوق نامهٔ ايلخانى» :وهو عبارةعن رسالةفى المعادن والأحجار الكريمة

وكذلك ألف بالفارسية مجموعة من الرسائل المتصلة بالفلسفة والنجوم والرياضة ورسالة عن أخلاق المتصوفة أسماها «أوصاف الإشراف» ورسالة أخرى عن « علم الرمل » .

أما مؤلفاته العربية فأهمها فيما أظن هو كتابه الذى كتبه عن الفلسفة الدينية بعنوان « تجريد العقائد» .

ويمكن الاطلاع على سائر مؤلفاته فى « تاريخ الأدب العربى » تأليف « بروكلمان » وكذلك فى « فوات الوفيات » لابن شاكر وفى « مجالس المؤمنين» وكتب أخرى .

وقد تمكن صاحب الكتاب الأخير من أن يورد فى كتابه نقدا لاذعا للطوسى نقله عن كتاب «تاريخ الحكماء » من تأليف الشهرزورى ، وفيه يعلن المؤلف أن شهرة «الطوسى» لا تعزى إلى مقدار ماامتاز به من فضل وإنما تعزى إلى حدة طبعة وكراهيته للمعارضة . وقد تحقق الناس من ذلك كما تحققوا من مدى السلطة التى يتمتع بها فى حكومة «هولاكو» فلزموا جانب الحكمة وامتنعوا عن نقده أو التعرض له والتقليل من شأنه .

ولم يبق من أشعاره الفارسية إلا أمثلة قليلة.وقد اقتصر «رضا قلى خان» على أن يورد لنا طائفة من أشعاره ، نقلها فى كتابه الكبير «مجمع الفصحاء» ولكنها لاتزيد

---

(١) أنظر « مجمع الفصحاء » ج ١ ص ٦٣٣— ٦٣٤ .

على ست رباعيات ومقطوعة فى بيتين اثنين . ويحسن بنا فى هذه المناسبة أن نذكر أيضا أن صاحب «مجمع الفصحاء» قد نقل لنا فى صفحة ٣٧٤ من الجزء الأول من كتابه خمسة رباعيات من نظم الفيلسوف الذى تقدم ذكره أى « فخر الدين الرازى»

ولا يفوتنا أيضا أن نذكر اسم منجم آخر، جدير بالذكر «هو الجغمينى الخوارزمى» نسبة إلى موطنه خوارزم . والمعتقد أن هذا المنجم قد توفى فى سنة ٦١٨هـ = ١٢٢١م ولكن هناك كثيرا من الشك فى تحديد الفترة التى عاش فيها كما إن سائر مؤلفاته قد ضاعت باستثناء مؤلف واحد هو «الملخص» .

٧ — أصحاب التواليف العربية

ومن بين الكتاب الذين كتبوا باللغة العربية فى هذه الفترة ، نكتفى بذكر الأسماء الآتية لجماعة منهم :

ابن ميمون

وهو الفيلسوف والطبيب اليهودى «أبو عمران موسى بن ميمون » من أهالى قرطبة ، وقد اشتغل فى أواخر حياته طبيبا لـ«صلاح الدين الأيوبى» ومات فى سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م . وقد ذكرناه لأهميته ولو أنه لا تربطه بإيران صلة من الصلات

البونى

كذلك يأتى من المغرب الشيخ «محي الدين البونى» المتوفى ٦٢٢هـ = ١٢٢٥م وهو من أشهر من كتبوا وانتجوا فى «العلوم الباطنة »

ابن البيطار

وهو أيضا من الغرب ، من مدينة «ملقة» وقد كان عالما بالنبات. ومات فى مدينة دمشق فى سنة ٦٤٦هـ = ١٢٤٨م

التيفاشى

وقد كتب عن المعادن والأحجار الكريمة وكذلك عن موضوعات أخرى متصلة بالفلسفة الطبيعية .

عز الدين الزنجانى :

وهو من علماء اللغة الذين ظهروا فى هذه الفترة . وقد مات فى مدينة بغداد فى سنة ٦٥٥ ه = ١٢٥٧ م وقد ألف كتابا فى النحو العربى انتشرت نسخه بشكل عجيب .

جمال القرشى :

وقد ترجم إلى الفارسية القاموس العربى المشهور الذى ألفه « الجوهرى » باسم « الصحاح » .

ابن الحاجب

وقد توفى فى سنة ٦٤٦ه = ١٢٤٨ م وهو مؤلف الكتابين المعروفين فى النحو العربى باسم «الكافية» و «الشافية» .

المطرزى :

وهو الكاتب الذى ولد فى سنة ٥٣٨ ه = ١١٤٣م ، وهى السنة التى مات فيها «الزمخشرى» ومن أجل ذلك فقد عرف باسم «خليفة الزمخشرى» .

ضياء الدين بن الأثير :

وهو شقيق المؤرخ العظيم الذى اعتمدنا عليه كثيرا فى كتابة هذا الكتاب وقد توفى فى مدينة بغداد فى سنة ٦٣٧ه = ١٢٣٩ م وله كتب كثيرة فى اللغة العربية ، ربما كان أهمها « كتاب المثل السائر » .

مجد الدين بن الأثير :

وثالث هؤلاء الأخوة هو « مجد الدين بن الأثير » المولود فى سنة ٥٤٤ ه = ١١٤٩ م والمتوفى سنة ٦٠٦ ه = ١٢٠٩ م وقد كان محدثا وفقيها استطاع أن يعطى بحظ الشهرة والصيت .

البيضاوى :

البيضاوى أهم هؤلاء جميعا ، واسمه « أبو عبد الله بن عمر البيضاوى » من مواليد إقليم فارس . وقد اشتغل فترة من حياته بالقضاء فى مدينة « شيراز » وألف تفسيرا للقرآن مازال يعتبر أحسن التفاسير وأكثرها انتشاراً حتى هذا الزمان . وله أيضا مختصر ممل فى التاريخ كتبه باللغة الفارسية باسم « نظام التواريخ » .

ياقوت المستعصمى :

كذلك يعتبر من رجال هذه الفترة واحد من كبار الخطاطين الذين ظهروا فى ديار المشرق وهو « ياقوت » الملقب بـ « المستعصمى » لأنه اشتغل بخدمة الخليفة صاحب الحظ العاثر الذى سبق لنا بيان نهايته فى خاتمة الفصل السابق .

وقد ذكر «ميرزا حبيب» فى كتابه «خطوخطاطان» أى «الخطوالخطاطون» ترجمة حياته (١) . وأشار إلى أنه توجد فى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية ثلاث نسخ من القرآن كتبها ياقوت بخط يده : الأولى مؤرخة سنة ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م وهى محفوظة فى ضريح السلطان سليم ؛ والثانية مؤرخة سنة ٦٥٤ = ١٢٥٦ م وهى محفوظة فى جامع آيا صوفيا ، والثالثة مؤرخة سنة ٦٦٢ = ١٢٦٣ م وهى محفوظة فى ضريح الحميدية .

ويقال أن « ياقوت » ظفر بمائتى ألف مثقال من الذهب ، أجراً لنسخة من « الشفاء » كتبها للملك دهلى « محمد تغلق »(٢) .

وقد مات فى سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٨ م وفقا لعبارة بحساب الجمل مذكورة فى كتاب « ميرزا حبيب » ، ولكن « بروكلمان » يذكر أنه مات فى سنة ٦٩٨ هـ = ١٢٩٨م(٣). ويعتبر«ياقوت» وسلفاه اللذان سبقاه «ابن مقلة» و«ابن البواب» أكبر الخطاطين الثلاثة الذين لهم فضل بالغ عظيم على الخط العربى .

---

(١) طبع هذا الكتاب فى مدينة القسطنطينية سنة ١٣٠٦هـ.

(٢) هذه الرواية يشوبها اضطراب من ناحية صحة التاريخ المنسوبة إليه .

(٣) أنظر الجزء الأول ص ٣٥٣ من كتابه « تاريخ الأدب العربى » .

٨ — مؤلفون آخرون

أبو نصر الفراهى :

وهناك مؤلف آخر واسع الشهرة بين تلاميذ المدارس الإيرانية هو « أبو نصر الفراهى » مؤلف منظومة بالعربيــة والفارسية ما زالت منتشره بكثرة في مدارس إيران ، وله أيضا منظومة بالعربية متعلقة بالفقه على مذهب أبى حنيفة . وقد مات فى سنة ٦٤٠ هـ = ١٢٤٢ م .

شمس قيس الرازى :

ومن أهم الـكتب التى تم تأليفها فى هذا العصر ، كتاب نادر فى «الشعر الفارسى» اسمه «المعجم فى معايير أشعار العجم» قام بتأليفه فى مدينة شيراز شخص اسمه « شمس قيس» وأهداه إلى حاكمها «الأتابك أبى بكر بن سعد بن زنگى»(١) وهو الحاكم الذى اشتهر صيته بفضل رعايته للشاعر العظيم الشيخ «سعدى». وهذا الـكتاب القيم له — فيما اعلم — نسخه واحدة فى أوروبا محفوظة بالمتحف البريطانى تحت رقم ٢٨١٤ر٢ من المخطوطات الشرقية ، ولـكن الدكتور «بول هورن» يقول كذلك إنه اكتشف نسختين أخريين من مخطوطات هذا الـكتاب، وأنهما محفوظتان فى مدينة القسطنطينية ويجرى الآن طبع هذا الـكتاب فى مدينة بيروت ليدخل فى عداد المطبوعات التى تقوم على نشرها « سلسلة جب التذكارية » (٢) ويمتاز الـكتاب بأنه يتضمن مجموعة كبيرة من أقوال كثير من شعراء الفرس المبكرين ، وكذلك أقوال جماعة من شعراء الفرس الذين ضاعت أخبارهم كلية ، وكذلك عدداً كبيرا من «الفهلويات» أى الأشعار المنظومة فى بعض اللهجات الفارسية .

---

(١) تولى الحكم فى مدينة شيراز سنة ٦٢٣ — ٦٥٩ هـ = ١٢٢٦ — ١٢٦٠ م .

(٢) المترجم : أتم الأستاذ براون والأستاذ محمد عبد الوهاب القزوينى تصحيح هذا الـكتاب وطبعه فى سنة ١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩ م .

ولا يعرف عن مؤلف هذا الـكتاب إلا القليل من الأخبار التى جمعها « ريو » من ثنايا هذا الـكتاب نفسه (١) ويستفاد منها أنه كان من أهل « خراسان » أو « ما وراء النهر » وأنه كان فى عداد جيش خوارزم الذى استأصله المغول أمام حضن « فرزين » فى صيف سنة ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م(٢)

سعد الدين الوراوينى :

وهناك كتاب آخر من الـكتب التى ظهرت فى هذا العصر، من الخير إلا نهمله فى هذا المقام وهو كتاب «مرزبان نامه» وقد كتبه أصلا باللهجة الطبرية «مرزبان ابن رستم بن شروين » الذى ألف أيضا منظومة فى هذه اللهجة أسماها « نيكى نامه» أو « كتاب الخير» وأهداها لشمس المعالى «قابوس بن وشمكير» (٣٦٦—٤٠٣ هـ = ٩٧٦ — ١٠١٢م) . وقد قام « سعد الدين الوراوينى » فيما بين سنتى ٦٠٧ ، ٦١٢ هـ = ١٢١٠ ، ١٢١٥ م بنقل كتاب «مرزبان نامه» من اللهجة الطبرية(٣) إلى الفارسية الأدبية المتعارفة (٤)

---

(١) أنظر Rieu : Persian Supplement. pp 123—125

(٢) المترجم : جدير بالذكر أيضاً أن مؤلف هذا الـكتاب وضعه أصلا على نسختين: إحداهما عربية والأخرى فارسية، ولـكن النسخة العربية ضاعت ولم تصل إلى أيدينا وبقيت النسخة الفارسية وهى التى طبعت .

(٣) أنظر ما يأتى : Ethé: Neupersische Litteratur. vol. II Grundriss der Iranischen Philologie, p 328.
Schefer : Chrestomathie Persane. vol II. pp 171—199 text. and pp 194.211 of the notes.
Browne : Abridged Translation of ibn Isfandiyar's History of Tabaristan. p. 86

(٤) المترجم : اللهجة الطبرية هى لهجة طبرستان الولاية المصاقبة لبحر قزوين ، والوراوينى نسبة إلى بلدة « وراوين » أو « وراوى » كما يقول ياقوت فى معجمه وهى بليدة طيبة كثيرة الخيرات والمياه فى جبال آذربيجان بين أردبيل وتبريز .
ويجدر الإشارة إلى أن كتاب « مرزبان نامه » قد تم طبعه بتصحيح محمد بن عبدالوهاب القزوينى فى مدينة ليدن سنة ١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩ م ودخل فى مجموعة الـكتب التى تنشرها

٩ — كتاب الصوفية

نتناول بالبحث بعد ذلك طائفة أخرى من الكتاب لهم أهميتهم الخاصة ، وهم كتاب الصوفية العظام الذين ظهروا في هذه الفترة من الزمان ، ويدخل فى عدادهم بعض الأسماء اللامعة ممن اشتغلوا بهذا النوع من التفكير والأدب ، ونخص بالذكر منهم اثنين من أصل عربى ، امتازا بكثير من التفوق وبعد الصيت بحيث أصبح لزاما علينا أن نراجع أنفسنا فى صحة النظرية التى سادت فى وقت من الأوقات بأن التصوف فى جملته عبارة عن رد فعل آرى للتعاليم الجافة التى أتت بها ديانة الساميين. وهذان العربيان هما :

(١) عمر بن الفارض : الشاعر الصوفى المصرى .

(ب) الشيخ محي الدين بن العربى : المتصوف النابه وهو من أهل الأندلس .

وبالإضافة إلى هذين نرى واجبا علينا أن نتحدث عن سميين آخرين ، أحدهما اسمه « نجم الدين كبرى » والآخر « نجم الدين دايه » ، وكذلك عن الشيخ «روزبهان» والشيخ « شهاب الدين عمر السهروردى » . كما يجب علينا أن نتحدث حديثا مختصرا عن الشيخ « صدر الدين القونيوى (١) » لأنه أشهر تلاميذ الشيخ « محي الدين » ، ثم ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن واحد أو اثنين آخرين من الصوفية المعاصرين لهؤلاء ، تاركين مؤقتا الحديث عن اثنين من كبار شعراء الصوفيه اللذين ظهرا فى هذا الوقت ، وهما :

(١) الشيخ « فريد الدين العطار »

(ب) مولانا « جلال الدين الرومى »

فقد أفردنا الفصل المقبل للحديث عنهما بشىء من التفصيل والتطويل .

« سلسلة جب التذكارية » كما تجدر الاشارة أيضاً إلى أن مصحح الكتاب يرى أن هذا الكتاب نقل من اللهجة الطبرية إلى اللهجة الفارسية فيما بين سنتى ٦٠٧ و٦٢٢هـ = ١٢١٠ و١٢٢٥م .

(١) نسبة إلى مدينة « قونية » فى آسيا الصغرى .

روزبهان

أسبق المتصوفة الذين ذكرناهم فى الكلمة السابقة ، من الناحية الزمنيه ، هو الشيخ « أبو محمد روزبهان بن أبى نصر البقلى » الملقب بـ « شطاح فارس » فقد مات فى بلدته شيراز فى شهر المحرم سنة ٦٠٦ هـ = يوليه ١٢٠٩ م وقد ورد ذكر ضريحه فى المخطوطة العربية المحفوظة فى المتحف البريطانى تحت رقم ٣٩٥ر٣ وهى المخطوطة التى تسمى عادة باسم « هزار مزار » أى « الألف مزار » باللغة العربية ، ولكن يجب تصحيح اسمها إلى « شد الإزار » ، وهذه المخطوطة قام على تأليفها « معين الدين أبو القاسم جنيد الشيرازى » فى سنة ٧٩٢ هـ = ١٣٨٩ م وتناول فيها الحديث عمن ظهر فى بلدته من أولياء وأصفياء(١). فذكر أن الشيخ «روزبهان» كان كثير الأسفار فى شبابه شأن الدراويش المتصوفين ، وأنه تمكن من زيارة العراق وكرمان والحجاز والشام ، كما تمكن من تأليف مجموعة كبيرة من الكتب اشتهر منها كما يقول مؤلف الكتاب الفارسى « شيراز نامه » (٢) مايقرب من ثلاثين كتابا ، يدخل فى عدادها تفسير صوفى للقرآن بعنوان «لطائف البيان» وكذلك كتاب « مشارب الأرواح » وكتاب « منطق الأسرار» وكتب أخرى غير هذه .

وقد نظم أيضا أشعارا بالفارسية ، نورد ترجمة مثلين منها فيما يلى :

المثل الأول : هـذا الذى لم تستطع أن تراه أعين الزمان ... !!
ولم تستطع أن تسمعه على الأرض أذن من الآذان ... !!
قد أبدى اليوم سناه . . . فأبدع خلق الإنسان ... !!
فقم ... وتعال وتمتع برؤيته فى هذا الكيان ... !!

---

(١) المترجم : طبع هذا الكتاب فى طهران سنة ١٣٢٨ هـ ٠ ش وقد صححه المرحوم محمد قزوينى والأستاذ عباس إقبال وعنوانه الكامل « شد الإزار فى حط الأوزار عن زوار المزار»

(٢) كتاب « شيراز نامه » هو كتاب ألفه بالفارسية أحد أحفاد الشيخ « زركوب » وفرغ منه فى سنة ٧٤٤ هـ = ١٣٤٣ م .

[المترجم : وقد طبع هذا الكتاب بتصحيح «بهمن كريمى» فى طهران سنة ١٣٥٠ هـ وورد به ذكر « روزبهان » فى ص ١١٦ — ١١٧ .]

والمثل الثانى هو قوله ما ترجمته :

في هذا الزمان أنا القائد فى طريق الصراط المستقيم لكل سالك وطالب .
ولقد سلكت طريق الله من أدنى المشارق إلى أقصى المغارب
ولكن .. هل يستطيع حقا أن يدركنى الصلحاء والعرفاء ...؟!
وقد استقرت روحى فيما وراء الحدود والأنحاء ..!! (١)

واستمر الشيخ « روزبهان » يصلى بانتظام مدة خمسين سنة فى جامع شيراز المعروف باسم « الجامع العتيق » وقد توفى فى الرابعة والثمانين من عمره ، وعلى ذلك يمكننا تأريخ ولادته بأنه مقارب لسنة ٥٢٣ هـ = ١١٢٨ م ، وكان الأتابك «أبوبكر بن سعد» من أصدقائه والمعجبين به،وقد درس مع الشيخ « أبى النجيب السهروردى» فى مدينة الاسكندرية (٢) ، وهناك أخبار أخرى قليلة متعلقة بالشيخ « روزبهان » رواها « جامى » فى كتابه « نفحات الأنس » (٣) عند ما تعرض لترجمة سيرته وهى تشتمل على طائفة من الحكايات العجيبة التى نصادفها عادة فى المؤلفات التى تذكر كرامات الأولياء ومعجزاتهم .

نجم الدين كبرى :

نتناول بالبحث بعد ذلك صوفيا آخر هو « أبو الجناب أحمد بن عمر الخيوقى » نسبة إلى مدينة « خيوه » أو « خوارزم » . ويعرف عادة باسم «الشيخ نجم الدين كبرى » وتقول أصدق الروايات المعتمدة أن لقبه « كبرى » ما هو إلا الاختصار لعبارة « الطامة الكبرى » وهو اللقب الذى لقبه به أصدقاؤه لما لاحظوه عليه من قدرة فى المناقشة ومهارة فى الجدال . (٤)

---

(١) المترجم : أصل هذه الأشعار بالفارسية موجود فى كتاب « شد الإزار» ص ٢٤٤ و ص ٢٤٦ .

(٢) مات هذا الشيخ فى سنة ٥٦٣ هـ = ١١٦٧ م .

(٣) أنظر كتاب « نفحات الأنس » طبع « نساو ليز : Nassau Lees » ص ٢٨٨ — ٢٩٠ .

(٤) من حسن الحظ أن هذا اللقب أيضا ميزه عن سميه « نجم الدين دايه » .

ويلقب أيضا بعبارة « ولى تراش » أى « ناحت الأولياء » لأن الناس كانوا يعتقدون أنه إذا نظر وهو فى حالة الوجد والانجذاب إلى شخص من الأشخاص، فإن هذا الشخص يصبح على الفور وليا من أولياء الله وأصفيائه . ويذكر «جامى» طائفة من الحكايات يبين فيها أن كرامته الخارقة هذه ، لم يقتصر فعلها على الآدميين بل تعدتهم إلى الكلاب والعصافير .

أما تكنيته بـ « أبى الجناب » فيقال أن النبى أطلقها عليه فى رؤيا رآها وفسرت له بأن معناها أن يتجنب الدنيا تجنباً دائما .

وليس هناك من شك فى أن « نجم الدين كبرى » كان فى عداد الضحايا الكثيرين الذين قتلوا أثناء غارة المغول على « خوارزم » فى سنة ٦١٨ هـ = ١٢٢١ م. وليس هناك ما هو أدل على علو شأنه من أن كتاب «جامع التواريخ» لم يذكر إسما واحدا من أسماء الضحايا الذين قتلوا فى هذا اليوم المنكود وقد بلغ تعدادهم ٦٠٠ر٠٠٠ قتيل إلا اسم هذا الشيخ؛ ويقول مؤلف هذا الكتاب[١] : أن جنكيزخان سمع عن شيخ المشايخ وقطب الأولياء الشيخ نجم الدين كبرى عليه الرحمة ، فلما عرف بخبره أرسل إليه رسالة يخبره فيها بعزمه على الإغارة على « خوارزم » وقتل أهلها ، ويوصيه وقد آن أوان العاصفة ونزول الكارثة ، أن يخرج منها ويلحق به لأنه يقدر له مكانته التى تجعله أكبر رجال العصر والأوان . ولكن الشيخ أجابه قائلا : « إننى أعتبر خروجى وحدى دون سائر الأهلين عملا خاليا من كل معانى الفضيلة والكرامة . » وقد ترتب على ذلك أن جثته وجدت بين جثث القتلى والمذبوحين فى هذه الواقعة .

ويؤيد نبأ قتله أيضا قصيدة أنشأها فى رثائه « المؤيد بن يوسف الصالحى » وقد نقلها اليافعى فى كتابه « مرآة الزمان » (٢) وهو يقول فيها بيتين ، معنى الأول منهما :

— فهل رأى أحد من الناس بحرا من العلم غارقا فى بحر من الدماء؟!..

---

(١) نسخته المخطوطة موجودة فى « إدارة الهند » تحت رقم ٥٢٤ر٣ المقابلة لرقم ٢٨ر٢ من فهرست إتيه Ethé للمخطوطات الفارسية الموجودة فى هذه الإدارة .

(٢) مخطوطة رقم ١١د١ر بالمتحف البريطانى ، الورقة ٣٤١ .

ومعنى البيت الثانى :

— ويا يوم فجيعة خوارزم ... لقد سارت بذكرك الأخبار

فملأتنا بالرهبة والخوف ... وجعلتنا نفقد الإيمان والأمن والقرار ...!!

وهذان البيتان يكفيان لبيان مكان قتله وظروفه وكيفيته .

وقد نسجت على هذه الحقيقة التاريخية المجردة ، جملة من الحكايات لانكاد نؤمن بصحتها ، وقد أورد « جامى » الرواية التالية فى كتابه نفحات الأنس : (١)

« فلما بلغ المغولى الكافر مدينة خوارزم جمع الشيخ نجم الدين كبرى تلاميذه »
« وأتباعه حوله، وكانوا يزيدون على الستين . وكان السلطان محمد خوارزمشاه »
« قد هرب من خوارزم ولكن المغولى الكافر ظل يعتقد أنه مازال بها ، وصمم »
« على الإغارة عليها بجيوشه . فاستدعى الشيخ جماعة من أتباعه من بينهم الشيخ »
« سعد الدين الحموى و«رضى الدين على لالا» وقال لهم : قوموا وغادروا هذه »
« الديار بسرعة إلى مواطنكم ودياركم فستتقد فى المشرق نار يندلع لهيبها حتى »
« يلفح المغرب ، وإنها لكارثة لم يحدث مثلها حتى الآن لهؤلاء القوم الآمنين . »
« فلما سكت قال له واحد من أتباعه : ولم لا تصل من أجلهم فربما ينكشف »
« البلاء عن ديار الإسلام ...؟! ولكن الشيخ أجابه على الفور بأن هذا البلاء »
« قدر مقدور لا تنفع فيه صلاة أو ضراعة ....!! ثم ذهب إليه أتباعه وقالوا له : إن »
« الدواب على أهبة الاستعداد للرحيل... فهل لك أن تشاركنا فى سفرنا إلى خراسان »
« فالفرصة مازالت باقية ..!! ولكن الشيخ أجابهم سلباً ، وقال لهم أنه سيبقى ليموت »
« شهيداً ، لأنه غير مسموح له بالسفر ، ثم تركهم يسافرون إلى خراسان ....!! »

« فلما دخل الكافر مدينة خوارزم جمع الشيخ حوله من تخلف معه من »
« أتباعه وقال لهم : انهضوا باسم الله حتى نحارب فى سبيل الله...!! ثم دخل منزله »
« وارتدى خرقته وشد على وسطه حزاما ، وملأ جعبته بالحجارة ثم خرج إليهم »
« على هذا النحو وقد أمسك فى يده حربة طويلة ، فلما التقى بالمغول أخذ يقذفهم »

---

(١) أنظر ص ٤٨٦ — ٤٨٧ من هذا الكتاب .

« بالحجارة حتى فرغت جعبته ، ورشقه واحد منهم بسيل من السهام ، اخترق »
« أحدها صدره ، فمد يده وجذبه من صدره وطرحه جانبا ثم لفظ أنفاسه الأخيرة »
« على هذا النحو ...!! ويقال إنه قبض أثناء استشهاده على ضفيرة واحد من المغول »
« فلم يستطيعوا تخليصها من قبضته بعد موته واضطروا إلى قطعها ...!! »
« ويقول بعض الناس إن مولانا جلال الدين الرومى يشير إلى هذه القصة »
« وإلى صلته بهذا الشيخ فى هذين البيتين من غزلياته : »

« ما از آن محتشمانيم كه ساغر گيرند »
« نه از آن مفلسكان كه بز لاغر گيرند »
« بيكى دست مى خاص إمام نوشند »
« بيكى دست ديگر پرچم كافر گيرند »

ومعناها :

— إننا من أغنياء الناس الذين يتناولون كؤوس الخمر الجميلة
ولسنا من المفلسين الذين لا يرعون إلا الماعز النحيلة ... !!
— ونحن قوم نشرب خمر الإمام الصافية بإحدى اليدين ،
— ونمسك بضفيرة الكافر بثانية الكفين . . . ! !

« وقد استشهد قدس الله سره فى سنة ٦١٨ هـ (= ١٢٢١م) وكان له أتباع »
« كثيرون من بينهم جماعة كانوا من نوادر الدهر ونوابغ الزمان مثل الشيخ »
« مجد الدين البغدادى ، والشيخ سعد الدين الحموى وبابا كمال الجندى (١) »
« والشيخ رضى الدين على لالا والشيخ صفى الدين الباخرزى والشيخ نجم »
« الدين الرازى والشيخ جمال الدين الجيلانى (٢) . ويؤكد جماعة من الناس »

---

(١) المترجم : الجندى نسبة إلى مدينة « جند » وهى مدينة عظيمة فى بلاد تركستان بينها وبين خوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك من وراء النهر .

(٢) المترجم : الگيلانى نسبة إلى « گيلان » أو « جيلان » وهى البلاد المصاقبة لبحر قزوين .

« أن مولانا « بهاء الدين ولد» والد مولانا «جلال الدين الرومى » كان أيضا »
« من تلاميذه . «

وقد بقى من مؤلفات الشيخ « نجم الدين كبرى » كتابان على الأقل ما زالا موجودين بالمتحف البريطانى : أحدهما عبارة عن رسالة قصيرة مكتوبة بالعربية فى صحيفتين أو ثلاث ، وموضوعها قول الصوفية المعروف « إن الطرق إلى الله بعدد أنفس الخلائق » ؛ وأما الكتاب الآخر فمكتوب بالفارسية وقد أسماه « صفة الآداب » وبين فيه الآداب التى يجب أن يتحلى بها المريد الجديد . وأشار «ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزوينى» فى مقدمته التى قدم بها طبعة « نيكلسون » لكتاب « تذكرة الأولياء » إلى أن الشاعر الصوفى العظيم « فريد الدين العطار » تحدث عن الشيخ « نجم الدين كبرى » فى كتابه «مظهر العجائب» بكثير من التجلة والاحترام (١) وقد كان هو نفسه كما يقول «جامى» فى نفحاته ، تلميذاً لتلميذه «مجد الدين البغدادى» الذى سيكون مدار حديثنا التالى .

مجد الدين البغدادى :

هو الشيخ « أبو سعيد مجد الدين شرف بن المؤيد بن أبى الفتح البغدادى » ويقول عنه « جامى » إنه قدم إلى « خوارزم » ليكون طبيبا للخوارزمشاه ولكن بعض المراجع الأخرى تدحض هذا القول وتجعله موضعا للانكار . ومهما كان من أمر فمن الواضح أنه ألحق نفسه بخدمة الشيخ « نجم الدين كبرى » وأصبح واحدا من مريديه ، ولكنه لم يلبث أن اعتبر نفسه فى منزلة أعلى من شيخه بحيث أثر عنه أنه قال فى يوم من الأيام : « لقد كنا بيضا على ساحل البحر ، فضمنا الشيخ نجم الدين تحت جناحيه ، وما زال يحمينا حتى أفرخنا ، فلما صرنا بطيطات قفزنا إلى البحر وبقى الشيخ على الشاطئ ...!! » وقد استشاط الشيخ «نجم الدين» عند

---

(١) أنظر كتاب « تذكرة الأولياء » ج ١ ص ١٧ .

سماعه هذه العبارة، ولعن قائلها مبتهلا إلى الله أن يغرقه فى الماء...!! وبلغت هذه اللعنة إسماع الشيخ « مجد الدين » فاستولى عليه الرعب وأخذ يعتذر فى خضوع وندم إلى شيخه أن يرفع عنه هذه اللعنة؛ ولكن جهوده واعتذاراته ذهبت عبثا ، ولم يلبث إلا فترة قصيرة حتى أمر الخوارزمشاه، تحت تأثير الشراب والكراهية بأن يطرحوه فى اليم ويغرقوه . ومن العجيب أن الشيخ « نجم الدين » غضب لذلك غضبا شديدا ودعا الله أن يثأر للغريق من ملك خوارزم لإقدامه على قتله بهذه الصورة الشنعاء التى لم تكن فى الحقيقة إلا استجابة لدعائه عليه. وقد اضطرب ملك خوارزم لهذه الدعاء وحاول بمختلف الوسائل أن يجعل الشيخ يرفع عنه لعنته ، ولكن الشيخ أجابه بقوله : « إن هذا القدر مكتوب فى كتاب معلوم ، وسيثأر الله بزوال مملكتك برمتها ، فتموت أنت ويموت كثيرون من رجالك وسأكون أنا أيضا فى عدادهم...!! »

وتاريخ موت الشيخ « مجد الدين » مختلف فيه ، ويذكر « جامى » إن وفاته حدثت فى سنة ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م أو فى سنة ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م

سعد الدين الحموى

تلميذ آخر من تلاميذ الشيخ « نجم الدين كبرى » ممن نالوا شيئا من بعد الشهرة والصيت هو « سعد الدين الحموى » ويقول عنه « جامى » فى نفحاته ص ٤٩٢ إنه ألف كثيرا من المؤلفات ولكنه لم يذكر منها إلا كتابين اثنين هما :

ا — كتاب محبوب : أو « كتاب المحبوب » .

ب — سجنجل الأرواح .

ويصف « جامى » هذين الكتابين فيقول إنهما « مليئان بالألغاز والمعميات والأرقام والدوائر التى لا تستطيع عين العقل والأدراك أن تكشف خفاياها » .

ويبدو أن « سعد الدين » كان عرضة لنوبات طويلة من نوبات الوجد أو الصرع وأن إحدى هذه النوبات ظلت تلازمه ثلاثين يوما كاملة. وقد أورد « جامى » فى نفحاته أمثلة من أشعاره العربية والفارسية . وهو يقرر أن وفاته حدثت فى نهاية سنة ٦٥٠ هـ =

فبراير سنة ١٢٥٣ م وكان له من العمر إذ ذاك ثلاث وستون سنة . وقد تعرف « سعد الدين » أثناء حياته بالشيخ « صدر الدين القونيوى » ولكننا نرجىء الحديث عنه إلى أن نتعرض له أثناء حديثا عن الشيخ « محي الدين بن العربى » .

نجم الدين دايه :

نتناول الآن بالحديث ثانى النجمين وهو « نجم الدين دايه » ويقول « جامى » عنه إنه كان تلميذا للشيخين « نجم الدين كبرى » و « مجد الدين البغدادى » .

ولنجم الدين دايه كتاب كبير الأهمية اسمه « مرصاد العباد » ما زالت مخطوطة جميلة من مخطوطاته القديمة ، مكتوبة فى سنة ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م ، محفوظة بالمتحف البريطانى تحت رقم ٣٢٤٢ر٣ ، وهو يتحدث فيها عن نفسه فيقول إن اسمه الكامل هو : « أبو بكر عبد الله بن محمد شاهاور » ثم يتحدث عن « مجد الدين البغدادى » فى صراحة تامة فينعته بأنه « سلطان الزمان ومرشده الروحى » .

أما مؤلفاته الأخرى فأهمها كتاب « بحر الحقائق » وقد كتبه فى سنة ٦٢٠ هـ = ١٢٢٣ م فى مدينة «سيواس» من بلاد آسيا الصغرى عندما اضطر إلى الاحتماء بها فرارا من غارة المغول . وقد تلاقى فى هذه البلاد بالشيخ «صدر الدين القونيوى» وبالصوفى الشهير « جلال الدين الرومى » . وأدركته الوفاة فى سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م .

شهاب الدين السهروردى :

صوفى آخر من مشــــاهير الصوفية الذين ظهروا فى هذا العصر هو الشيخ « شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد البكرى السهروردى » المولود فى رجب سنة ٥٣٩ هـ = يناير ١١٤٩ م ، والمتوفى سنة ٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م ، وقد كان من بين شـيوخه القدماء الذين استرشد بهم فى خطواته الأولى فى طريق التصوف ، عمه « أبو النجيب السهروردى » المتوفى سنة ٥٦٣ هـ = ١١٦٧ م ، وكذلك الشيخ

المعروف « عبد القادر الجيلانى » المتوفى قبل ذلك بعامين أى فى سنة ٥٦١ هـ = ١١٦٥ م.

وأهم مؤلفاته كتابان هما :

(ا) عوارف المعارف .

(ب) رشف النصائح .

والكتاب الأول تكثر نسخه الخطية ، وقد طبع على الأقل مرة واحدة على هامش كتاب « إحياء العلوم » للغزالى المطبوع فى القاهرة فى سنة ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨ م

وقد ترجم « ابن خلكان » سيرة « شهاب الدين السهروردى » وروى بعض أشعاره العربية ، وتحدث عن أحوال الوجد التى كان يبلغها ، وأنفاسه المباركة التى كانت تجعل الناس يتواجدون فى مجلسه عند سماع أقواله ، ثم يقول : « ولم يتفق لى رؤيته لصغر السن » .

وكان الشيخ « سعدى الشيرازى » واحدا من تلاميذه ، وقد روى عنه حكاية قصيرة فى كتابه الـ « بوستان » فصوره بأنه كان يبتهل إلى الله أن يملأ به جهنم إذ كان فى ذلك منجاة لغيره ...!!

وكان « شهاب الدين » شيخ الشيوخ فى مدينة بغداد ، وكان يمتاز بصحة الرأى والحكم ، فقد روى أن واحدا من الصوفية كتب إليه يقول : « ياسيدى... إن تركت العمل أخلدت إلى البطالة ، وإن عملت داخلنى العجب ؛ فأيهما أولى ؟ فكتب جوابه: اعمل ! واستغفر الله تعالى من العجب ...!! »

ومن الواجب علينا ألا نخلط هذا الشيخ بالشيخ المتقدم عنه « شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردى » مؤلف كتاب « حكمة الإشراق » فإن هذا الشيخ كان من أهل الكرامات وأصحاب الخوارق ، وقد اتهم بالزندقة على أيام « الملك الظاهر بن صلاح الدين » فأعدموه فى مدينة حلب فى سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م ، أو فى السنة التالية لذلك ، ولم يكن قد تجاوز السنة السادسة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين من عمره ، وقد لقبوه لهذا السبب بلقب « المقتول » تمييزا له عن غيره من الشيوخ . ويبدو لى أن « السهروردى المقتول » كان خيرا من سميه ، من حيث

عبقريته وسلامة طبعه ومقدرته على الإبداع . وما زال كتابه « حكمة الإشراق » مخطوطاً ، وقد تصفحته بنظرة عابرة فوجدته جديرا بالاهتمام والدرس[١] .

محي الدين بن العربي[٢] :

نتناول الآن بالبحث شخصا تعارف العالم على اعتباره من أكبر رجال الصوفية الذين ظهروا فى ديار الإسلام ، بل ربما كان أكبرهم على وجه الإطلاق.. ونقصد به الشيخ « محي الدين بن العربي » المولود فى مدينة « مرسيه » من بلاد الأندلس فى خلال سنة ٥٦١ هـ = ٢٨ يوليه سنة ١١٦٥ م . وقد بدأ دراساته الفقهية فى مدينة « إشبيلية » فى سنة ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م ثم خرج فى سنة ٥٩٨ هـ = ١٢٠١ م قاصدا بلاد المشرق فعاش فترة فى مصر ثم فى الحجاز ثم فى بغداد ثم فى الموصل ثم فى آسيا الصغرى ، وانتهى به المطاف إلى دمشق حيث توفى بها فى خلال سنة ٦٣٨ هـ = ١٦ نوفمبر ١٢٤٠ م .

وقد وصفه « بروكلمان » فقال : إنه كان كاتبا غزير الإنتاج كثير الإخراج ، وعد من مؤلفاته مائة وخمسين كتابا ما زالت باقية فى أيدينا حتى اليوم ، ولا شك أن من أشهر هذه الكتب الكتابان الآتيان :

(ا) فصوص الحكم .
(ب) الفتوحات المكية .

وقد كتب أولهما فى مدينة دمشق فى سنة ٦٢٨هـ = ١٢٣٠ م وكثرت بعد ذلك طباعته على الحجر وبالحروف كما كثرت ترجماته وشروحه فى مختلف بلاد الإسلام[٣] ، أما كتابه الثانى فموسوعة كبيرة جدا طبعت فى مصر أيضا .

---

(١) المترجم : طبع هذا الكتاب فى طهران على الحجر سنة ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م .

(٢) المترجم : يفضل بعض المحققين تسميته بـ « ابن عربى » بغير استعمال إداة التعريف .

(٣) المترجم : آخر طبعة صدرت من « فصوص الحكم » هى التى أخرجها وعلق عليها الدكتور « أبو العلا عفيفى » أستاذ الفلسفة بجامعة الإسكندرية . وقد صدرت عن دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٦ م .

وأوفى ترجمة أعرفها لحياة « ابن العربى» هى تلك التى يتضمنها كتاب «المقرى» المعروف باسم « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » (١) وقد ترجم «جامى» له أيضا ترجمة وافية فى كتابه « نفحات الأنس » (٢) .

وكان « ابن العربى » كأغلب رجال الصوفية شاعراً ، وقد وردت أمثلة كثيرة من أشعاره فى كتاب « نفح الطيب » كما أن له ديوان مطبوع على الحجر فى ٢٤٤ صحيفة ، قام على طبعه «ميرزا محمد شيرازى» من أهل بمباى . وقد وصف «جامى» أشعاره فقال : « إن قصائده غريبة وثمينة » . ولكن كثيرا من رجال الدين يتهمونه بالكفر والزندقة ، وقد حاولوا قتله فى مصر جملة مرات ، ولم ينج من الموت إلا لأن المتعصبين من أتباعه والمعجبين به كانوا كثيرين ومتعددين . ومن الغريب أن تأثيره حتى الآن ما زال محسوساً فى إيران الشيعية ، بل ربما فاق فى ذلك كل صوفى آخر .

وقد ادعى « ابن العربى » أنه خاطب النبى فى أحلامه ، وأنه أخذ خرقته من « الخضر » وأنه يعرف علم الكيمياء والعلم المتعلق باسم الله الأعظم . وكان على صلة بالشاعر الصوفى « عمر بن الفارض » فسأله أن يأذن له بكتابة شرح على تائيته ، ولكن ابن الفارض أجابه بأن « كتابك الفتوحات المكية ما هو ، فى الحقيقة ، إلا شرح لهذه التائية ... !! » .

وكان « ابن العربى » يؤمن بالأحلام وأن الإنسان له قدرة على تحقيقها بمحض إرادته فهو يقول ما معناه : « وخليق بعبد الله أن يستعمل إرادته ليحقق بها التركز فى أحلامه وبذلك يستطيع أن يتغلب على خياله ، وأن يتحكم فيه أثناء النوم كما يتحكم فيه أثناء اليقظة ، فإذا تم لإنسان هذا التركز وأصبح بالنسبة له أمرا طبيعا فإنه يستطيع بواسطته أن يجنى ثماره فى «البرزخ» وينتفع بها انتفاعا كبيرا . وعلى ذلك يجب على الإنسان أن يجاهد لكى يدرك هذه الحال ، لأنها نافعة له بإذن الله نفعاً كبيرا ... » .

---

(١) طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٤ م . أنظر ج ١ ص ٣٩٧ — ٤٠٩ .
(٢) طبع « نساو ليز » ص ٦٣٣ — ٦٤٥ .

وأسلوب « ابن العربى » غامض ، وربما تعمد ذلك تعمدا ، جريا على ما تعارف عليه الأولياء وأهل الكرامات والمتصوفة من المسلمين ؛ فإنهم كانوا يحاولون دائما أن يعبروا عن آرائهم التى لم يتعارف عليها عامة الناس بكلمات وتعبيرات تكون قريبة الفهم من تعبيراتهم ومصطلحاتهم حتى يتفادوا بذلك القتل كما أصاب « الحسين بن منصور الحلاج » و الشيخ « شهاب الدين المقتول » .

وقد سئل الشيخ « محى الدين » مرة عما يعنيه بقوله :

يامن يرانى ولا أراه　　كم ذا أراه ولا يرانى

فأضاف على الفور شطرتين إلى هذا البيت ، تجعلان معناه مقبولا لدى الكافة ، لا يجدون فيه مطعنا ، فقال :

يا من يرانى مجرما　　ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما　　ولا يرانى لائذا

ولست أستطيع فى هذا المقام أن أصف « ابن العربى » بعبارة أبلغ من العبارة التى استطاع « جوبينو » بما امتاز به من إدراك عميق للعقلية الشرقية ، أن يكتبها عن فيلسوف آخر متأخر هو الـ « ملا صدرا » فإن كلماته عن هذا الفيلسوف تنطبق تماما على الشيخ « محى الدين » وأضرابه ، قال (١) :

« إن عنايته بتعمية أحاديثه أوجبت عليه أن يعمى كتبه أيضاً ، ومن أجل »
« ذلك فإن قارئها يخرج منها بفكرة غير كاملة عن تعاليمه . خاصة من يقرأها »
« دون أن يستعين بخبير يعرف أسرارها ويملك ناصيتها ؛ فأما إذا تهيأ له ذلك فإنه »
« ينفذ إلى قرارتها دون مشقة أو تعب . وقد توارث تلاميذه جيلا بعد جيل »
« أفكاره الحقيقية ، وأصبح لديهم مفتاح اصطلاحاته ، ولكنهم لم يستخدموه »
« للافصاح بل استخدموه للاهتداء والاسترشاد . وأكدت التفسيرات التى »
« تناقلوها فيما بينهم قيمة كثير من مؤلفات هذا الأستاذ ، وبينت كيف تركزت »
« فيها وقت تأليفها متعة مجتمع ينتشى بالجدل ، تستهويه المعارضة الدينية ، »

---

(١) أنظر : Gobineau : Les Religions et les Philosophies dans l'Asie Centrale. Paris 1866 p. 88

« ويتعشق الآراء الجريئة التى يتداولها سرا ،ويتحمس كثيرا للمموهات الرائعة »
« والأباطيل البارعة . »

ـ كتاب فصوص الحكم :

قلما يصادف المرء كتاب « فصوص الحكم » دون أن يكون مقروناً بالشروح والتعليقات ولكن من المشكوك فيه أن يستطيع أحد — برغم وجود هذه الشروح وكثرتها — أن يفهم أفكاره ومعانيه... اللهم إلا إذا استعان على ذلك بواحد ممن قدر لهم أن يعيشوا فى هذه الأودية الفكرية التى عاش فيها مؤلف هذا الكتاب واستطاع أن يستمد من ثناياها كل ما امتاز به من نشاط ذهنى وفكرى

ولست أعرف صوفياً آخر من متصوفة المسلمين يفوق « الشيخ محيى الدين » من حيث تأثيره وغزارة إنتاجه وغموض معانيه... اللهم إلا إذا استثنينا « جلال الدين الرومى » .

ولم يتهيأ لأحد فى أوروبا حتى اليوم أن يدرس جميع مؤلفاته ويبين مذهبه دراسة وافية كافية ؛ ولكن الفرصة ما زالت مهيأة وسانحة لأصحاب الطموح ممن يشتغلون بالعربية ويعنون بهذا النوع من خصائص الفكر الشرقى .

ولا يتسع موضوع هذا الكتاب، الذى خصصناه أساسا للأدب الفارسى، للافاضة فى الحديث عن رجل لا تربطه بإيران إلا صلة واحدة محصورة فى الأثر الذى أحدثته كتاباته فيها حتى اليوم . ولكنا نكتفى بأن نقول بأن « فخر الدين العراقى » كان من أشهر شعراء الفرس وكتابهم المتصوفين الذين وقعوا تحت تأثيره مباشرة ، فقد اعتاد أن يلزم مجالس « صدر الدين القونيوى » عندما كان يشرح مؤلف أستاذه العتيد « فصوص الحكم » فاستوحى منه موضوع كتابة القيم « اللمعات » الذى أصبح بدوره فى نهاية القرن التاسع الهجرى (نهاية الخامس عشر الميلادى) موضوعاً لتفسير مفصل وضعه عليه « الملا نور الدين عبدالرحمن الجامى » بعنوان « أشعة اللمعات » .

وقد قابله شاعر فارسى آخر ممن اشتهروا بين شعراء الفرس هو « أوحد الدين الكرمانى » وظل يرافقه مدة حتى أصبح من الضرورى أن نقرر أنه تأثر به .

بعض الشيء. وقد أصبحت أميل إلى القول بأننا إذا تعمقنا فى دراسة عقلية الجيل التالى من صوفية الفرس، وهم الذين سنتناولهم بالبحث فى مطلع المجلد التالى من مجلدات هذا الكتاب، اتضح لنا بجلاء أن أي شخص من الأشخاص (باستثناء جلال الدين الرومى) لم يستطع أن يؤثر فى تفكير من تبعوه بقدر ما أثر « شيخ الأندلس الأكبر » فى تفكير خلفائه.

وفيما يلى مثل من أشعاره منقول عن كتاب « نفح الطيب » للمقرى (١).

حقيقتى همت بها وما رآها بصرى
ولو رآها لغدا قتيل ذاك الحور
فعندما أبصرتها صرت بحكم النظر
فبت مسحورا بها أهيم حتى السحر
ياحذرى من حذرى لو كان يغنى حذرى
والله ما هيمنى جمال ذاك الخفر
فى حسنها من ظبية ترعى بذات الخمر
إذا رنت أو عطفت تسبى عقول البشر
كأنما أنفاسها أعراف مسك عطر
كأنها شمس الضحى فى النور أو كالقمر
إن أسفرت أبرزها نور صباح مسفر
أو سدلت غيبها سواد ذاك الشعر
يا قمرا تحت دجى خذى فؤادى وذرى
عينى لكى أبصرك إذ كان حظى نظرى

---

(١) أنظر « نفح الطيب » طبع القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ . ج ١ ص ٤٠٠

ابن الفارض :

نعرض بعد ذلك للحديث عن « ابن الفارض » ، واسمه الكامل هو « شرف الدين أبو حفص عمر » وليس له كابن العربى علاقة مباشرة بإيران ولكننا نتناوله بالحديث لأنه كان من أشهر شعراء الصوفية المسلمين وأنبههم ذكرا وأكثرهم نبوغا . ومن الواجب علينا أن نؤكد كل ذلك عنه لأن الرأى السائد فى أوروبا يميل إلى الاعتقاد بأن مذهب الصوفية هو نتاج فارسى أو آرى خالص ، وهو رأى معيب لا أقره بل أقول إنه لا يستقيم مع الواقع وحقيقة الأمر .

ويذكر كثير من المراجع أن « ابن الفارض» ولد بالقاهرة فى سنة ٥٥٦ هـ = ١١٦١م أو فى سنة ٥٦٦ هـ = ١١٧٠م ولكن «ابن خلكان » يذكر أنه ولدفى الرابع من ذى القعدة سنة ٥٧٦ هـ = ٢٢ مارس ١١٨١م.

وتنحدر أسرته من مدينة «حماة» من بلاد الشام ، ومن أجل ذلك فقد نسبوه إليها فقالوا عنه «الحموى» كما نسبوه إلى مصر فقالوا « المصرى » . ولم تكن حياته مليئة بالأحداث ، وكل ماروواه أصحاب التراجم عنه عبارة عن بعض الأحداث التى لها طابع الكرامات ، وقد اعتمدوا فى روايتها على ابنه « كمال الدين محمد» . وقد أمضى « ابن الفارض » شطراً كبيراً من شبابه فى الخلوة فى جبل المقطم بالقرب من القاهرة . وقد ترك والده قبيل مماته خدمة الحكومة وآثر الانقطاع إلى الله فى الجامع الأزهر ، فلما أدركته الوفاة أطال « ابن الفارض » أوقات عزلته ولزوم الخلوة فى جبل المقطم . ثم حرضه بقال عجوز ، توسم فيه أنه ولى من أولياء الله أن يخرج للحج ، فلبى« ابن الفارض » دعوته وخرج من القاهرة إلى مكة حيث أقام فترة من الزمن ، لازمته خلالها دابة غامضة تدعوه عبثاً إلى امتطاء متنها فى رحلاته وأسفاره .وقدظل على هذه الحال كما يقول جامى فى نفحاته (ص٦٢٧)مدة خمس عشرة سنة ثم هتف به هاتف أن يعود إلى القاهرة ليكون إلى جوار البقال وهو يحتضر على فراش الموت . وقد حكوا عن هذا البقال كثيراً من الكرامات كما حكوا بمناسبة جنازته كثيرامن الحكايات الغريبة المتعلقة بطيور الجنة الخضراء التى تسكنها أورواح الشهداء. وقد بقى « ابن الفارض» بعد ذلك الوقت فى مدينة القاهرة حتى أدركته الوفاة فى

ولم يكن « ابن الفارض» غزير الأنتاج كابن العربى . ولم تزد آثاره على مجموعة من الأشعار وصفها «ابن خلكان » بأنها عبارة عن « ديوان شعر لطيف » وبأن « أسلوبه فيه رائق ظريف ينحو منحى طريقة الفقراء » . وقد أنشأ بالإضافة إلى أشعاره الأدبية جملة من الأشعار العامية التى تعرف باسم « المواليا » وضرب « ابن خلكان» مثلا من أمثلة المواليا التى قالهافى غلام صنعتهالجزارة(١)، وهذا المثل فاذ فى دلالته ، لغرابة موضوعه ، ولأنه شبيه فى مضمونه برباعية أخرى مروية فى كتاب « تاريخ گزيدة » للشاعرةالفارسية «مهستى» [بفتح الميم وسكون الهاء وفتح السين] أو « مهستى» [بفتح الميم والهاء وسكون السين] أو « مهستى » [بكسر الميم وفتح الهاء وسكون السين] .

وابن الفارض شبيه بالشيخ، «محيىالدين »من حيثأنه رأى «النبى» فى أحلامه وتلقى منه تعاليمه التى ضمنها أشعاره وقد قالوا إنه لم ينشىء شعراً لم يوح إليه به ، ويقول «جامى » إنه ربما ظل فى حالة وجد مدة أسبـوع أو عشرة أيام لايعى فيها شيئاً مما حوله ثم يعود إلى وعيه فيملى ثلاثين بيتاً أو أربعين بيتاً أو خمسين بيتاً أومايفتح الله عليه به أثناء غيبوبته . وأشهر قصائده وأطولهاهى تائيته الـكبرى التى تتضمن خمسين وسبعمائة بيت من الشعر . ويقول « اليافعى » أنه برز فى وصف الخمر والعشق فى أشعاره وأن ديوانه يتضمن كل النكات الدقيقةالمتصلة بالزهدوالطريق والحب والحنين والوصال وما شابه ذلك من التعبيرات الفنية والعلومالحقيقية المتعارف عليها فى كتب مشايخ الصوفية . وإذا صدقنا ما رواه عنه ولده الشيخ « كمال الدين محمد » وان ابن الفارض كان من حيث مظهره متناسق التركيب . يمتاز بطلعة جميلة

---

(١) المترجم : المواليا المنسوبة إلى ابن إلفارض هى الآتية .

قلتو لجزار عشقتوكم تشرخنى قتلتنى ، قال : دا شغلى ،توبخنى!؟
ومال إلى ، وباس رجلى ، يرنخنى يريد ذبحى فينفخنى ليسلخنى .!!

أما الرباعية المنسوبة إلى « مهستى » فهى الآتية .

هر كارد كه از كشته خود بر گيرد واندر لب ودندان چو شكر گيرد
گر بار دگر بر كاوى كشته نهد از ذوق لبش زندگى از سر گيرد

جذابة قد أشربت بحمرة ، يزداد جمالها وبهاؤها متى دخل فى حالة الوجد بعد سماعه للأذكار والتضرعات ، فإذا بلغ هذه الحال فإن العرق يتصبب من جسده حتى يسيل تحت أقدامه . ويقرر «كمال الدين» بعد ذلك أنه لم ير من يشبه « ابن الفارض » جمالا لا بين العرب ولا بين العجم ، وإنه أشبه الناس به .

وأحسن طبعة أعرفها من ديوان « ابن الفارض » هى تلك التى نشرها الشيخ « رشيد بن شالب الدحداح اللبنانى » فى مدينة پاريس سنة ١٨٥٥ وقد صدرها بمقدمة للأب بارجيس Abbé Bargès أستاذ العربية فى جامعة السوربون . وقد اشتملت هذه الطبعة على أشعار « ابن الفارض» وكذلك على شرحين مطولين لهذه الأشعار : أولهما لغوى صرف وقد كتبه الشيخ « حسن البيرونى » ، والآخر يعنى بتفسير المعانى الباطنة وقد كتبه الشيخ « عبد الغنى النابلسى » .

وفيما يلى قصيدة من قصائد « ابن الفارض » تبدو لى مثلا طيبا لأشعاره عامة وما تمتاز به من جمال فائق ورقة باللغة (١) :

ما بين ضال المنحنى وظلاله   ضل المتيم واهتدى بضلاله
وبذلك الشعب اليمانى منية   للصب قد بعدت على آماله
يا صاحبى هذا العقيق فقف به   متوالها إن كنت لست بواله
وانظره عنى إن طرفى عاقنى   إرسال دمعى فيه عن إرساله
واسأل غزال كناسه هل عنده   علم بقلبى فى هواه وحاله
وأظنه لم يدر ذل صبابتى   إذ ظل ملتهيا بعز جماله
تفديه مهجتى التى تلفت ولا   من عليه لأنها من ماله
أترى درى أنى أحن لهجره   إذ كنت مشتاقا له كوصاله
وأبيت سهرانا أمثل طيفه   للطرف كى ألقى خيال خياله
لا ذقت يوما راحة من عاذل   إن كنت ملت لقيله ولقاله

---

(١) المترجم : أورد « براون » ترجمة هذه القصيدة بالإنجليزية وأما نحن فقد أوردناها بعينها .

فوحق طيب رضى الحبيب ووصله ما مل قلبي حبه لملاله
واها إلى ماء العذيب وكيف لى بحشاى لو يطفى برد زلاله
ولقد يجل عن اشتياقي ماؤه شرفا فواظمأى للامع آله

* * *

ولما كان موقع الآداب العربية ثانويا بالنسبة إلى هذا الكتاب فمن العسير علينا أن نفصل القول فيه عن هذا الشاعر النابة الذى تذكرنا قراءة كثير من أشعاره بهذه الصورة الفكرية والمعنوية التى رددها شعراء الصوفية من الفرس. بل إننا نقرر أنه يفوق الكثير منهم قدرة وتنوعا وغنى بالتعبيرات.

وقد كتب كثير ممن تناولوا « الصوفية » بالدرس فوصفوها بأنها فى أساسها حركة آرية خالصة، ومن أجل ذلك وجدت لزاما على أن أؤكد الحقيقة الماثلة لى الآن، وهى أن اثنين من أكبر المتصوفين كانا من أصل غير آرى، وأقصد بهما « ابن العربى » و « ابن الفارض » وربما أضفنا إليهما ثالثاً هو « ذو النون المصرى » ففى رأى صديقى المستر « ر. ا. نيكلسون » أن هذا الأخير هو أول من صبغ « الزهد » بنظرية « وحدة الوجود » ونظرية « الحب الالهى » وهما الفكرتان اللتان أصبحتا من أخص خصائص المتصوفة كما نعرف (١).

---

(٢) المترجم: أحدث ما كتب عن ابن الفارض كتاب قيم أصدره الصديق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى بعنوان « ابن الفارض والحب الإلهى » (طبع القاهرة فى ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥م).

الفصل التاسع

شعراء العصر المغولى الأول

١ — فريد الدين العطار
٢ — جلال الدين الرومى
٣ — سعدى
٤ — جماعة آخرون من صغار الشعراء

إذا كان « ابن الفارض » الذى تحدثنا عنه فى نهاية الفصل السابق ، يعتبر بغير شك أكبر شعراء الصوفية لدى العرب ، فإن « جلال الدين الرومى » يفوز بهذه المرتبة العالية لدى الفرس . فهو صاحب الكتاب الصوفى الكبير المسمى بـ«المثنوى» وهو كذلك صاحب مجموعة من الغزليات تعرف باسم « ديوان شمس تبريز » . وقد لاحظنا فيما سبق ، أن «جلال الدين» يعتبر الشاعرين «سنائى» و «فريد الدين العطار» قدوتيه وأستاذيه فى إنشاد الشعر الصوفى ، فإذا أتينا الآن وقلنا إن هؤلاء الشعراء الثلاثة هم أهم دعاة المذهب الصوفى بين شعراء الفرس ، فإنما نكون على حق فيما نقول . لأنه فى مثل هذه الموضوعات يجب أن يكون الحكم النهائى لأهل اللغة أنفسهم ، لأنه يصعب على الناقد الأجنبي أن ينصف فى حكمه كما ينصف الناقد الذى تربطه بالشاعر صلة القرابة واللغة . ولقد أحس أنا شخصيا عند قراءتى لأشعار « عراقى » بكثير من المتعة التى لا أحسها عند قراءة أشعار « سنائى » ولكن ذلك لا يشفع لى فى أن أرتفع برأيى الشخصى لأجعله فى عداد النظريات العامة المقررة .

١ — فريد الدين العطار

«فريد الدين العطار» حاله كحال كثير من شعراء المشرق ؛ لو أنه كتب أقل مما كتب ، لاشتهر بين الخلق أكثر مما اشتهر ، ولقرأ له الناس أكثر مما قرأوا .

فمن المعروف أن عدد مؤلفاته مساو لعدد سور القرآن أى ١١٤ مؤلف ، كما يقرر ذلك « القاضى نور الله الششترى » فى كتابه « مجالس المؤمنين » ولكن يبدو لى أن هذا العدد مبالغ فيه جدا لأنه لم يبق من مؤلفاته إلا قرابة ثلاثين مؤلفا ، بعضها ليس فى أيدينا ، وإنما وردت إشارات عنه فى بعض كتاباته . وأهم هذه المؤلفات الكتب الآتية :

(ا) پند نامه : أى كتاب النصيحة ، وهو كتاب صغير مجمل ملئ بالمواعظ الأخلاقية، وقد طبع أكثر من مرة فى بلاد المشرق .

(ب) منطق الطير: وهو منظومة رمزية ، نشرها مع ترجمة فرنسية «جارسان دى تاسى Garcin de Tasy »فى باريس[1]سنة ١٨٥٧ وسنة ١٨٦٣.

(ج) تذكرة الأوليا : أو تذكرة الأولياء . وقد نشر الجزء الأول منه « المستر ر . ا . نيكولسون R. A. Nicholson » فى مجموعة «الكتب التاريخية الفارسية» التى أتولى بنفسى نشرها ، أما الجزء الثانى فما زال تحت الطبع[2]. وقد صدره بمقدمة قيمة بالفارسية صديقى الفاضل « ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزوينى » معتمداً فى كتابتها على المعلومات الموثوق بها التى جمعها من آثار الشاعر نفسه . ولما كانت هذه المقدمة هى أدق ما كتب عن العطار ، ولما كانت للأسف لم تترجم إلى الإنجليزية ، فسأجعلها عمادى فيما أكتب عن هذا الشاعر فيما يلى من حديث .

حياة العطار :

إسمه الكامل « أبو طالب محمد » أو « أبو حامد محمد » وهو ابن« أبى بكر إبراهيم» ابن« مصطفى بن شعبان »؛ ويعرف عادة باسم «فريد الدين العطار» وكلمة «عطار» معناها بائع العطر ، ولكن «ميرزا محمد» يثبت بأمثلة وجدها فى كتابيه

---

(١) المترجم : نشر هذا الكتاب أكثر من مرة فى إيران وله طبعة لا بأس بها فى اصفهان سنة ١٣٥١ هـ .

(٢) المترجم : تم بعد ذلك طبع الجزء الثانى .

« خسرو نامه» و « أسرار نامه » أن هذه الـكلمة لها معنىأوسع منذلك، ويقول أنها أطلقت عليه لأنه كان يتولى الاشراف على دكان لبيع الأدوية حيث كان يزوره المرضى، فيعرضون عليه أنفسهم، فيصف لهم الدواء ويقوم بنفسه على تركيبه وتحضيره . ولقد تحدث عن نفسه فى كتابيه «مصيبت نامه» و « إلهىنامه» فذكر صراحة بأنه ألفهما فى صيدليته «دارو خانه» التى كان يتردد عليها فى ذلك الوقت خمسمائة من المرضى، كان يقوم على فحصهم وجس نبضهم . ويقول «رضا قلى خان» فى كتابه « رياض العارفين » [1] أنه تعلم الطب على يدى « الشيخ مجد الدين البغدادى » وهوالشيخالذى ذكرناه فى نهاية الفصلالسابق وأحد تلاميذ «الشيخ نجم الدين كبرى » .

أما التفاصيل المتعلقة بحياة « العطار » فلا يصح منها إلا أخبار قليلة مذكورة فى كتب التراجم . وقد كتب عنه « عوفى » وهو أقدم كتاب التراجم فى كتابه « لباب الألباب » مقالة قصيرة جدا[2] ووضعه بين الشعراء الذين اشتهروا بعدزمان السلطان « سنجر » أى بعد سنة ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م ، ويؤيد هذ القولأننا نجد « العطار » نفسه يتحدث فى قصائده عن « سنجر » باعتباره ميتاً ؛ كما يؤيده أيضاً أننا نجد « اللباب » وهو مؤلف قطعا فى سنة ٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م يتحدث عن « العطار » باعتباره باقياً على قيد الحياة .

وقد ولد « العطار » كما يبدو من قطعة واردة فى « لسان الغيب » ، فى مـدينة « نيسابور»؛ وأمضى بها ثلاثة عشر عاما منطفولته،التزم فيها ضريح الإمام«الرضا» ثم أكثر بعد ذلك من الترحال فزار « الرى » و « الـكوفة » و « مصر » و « دمشق » و « مكة » و « الهنـد » و « تركستان » ثم عاد فاستقر فى مدينته الأصلية . واشتغل تسعاً وثلاثين سنة من حياته فى جمع أشعار الصوفية وأقوالهم ، وأبى طوال حياته على حد قوله « أن يلوث موهبته الشعرية بإنشاد المدائح » . وقد روى لنا أيضا فى « أشتر نامه : كتاب الجمل » بأنه رأى النبى فى أحد أحلامه وأن النبى باركه كما حدث ذلك تماما لـ « ابن العربى » و « ابن الفارض » .

---

(١) لم يذكر لنا المصدر الذى اعتمد عليه فى استقاء هذا الخبر .

(٢) أنظر « لباب الألباب » ج ، ص ٣٣٧ — ٣٣٩ .

ومن كتبه المتأخرة كتاب اسمه « مظهر العجائب » (١) وهو عبارة عن منظومة فى مدح « على ابن أبى طالب » وكان يلقب بهـذا اللقب ؛ ويقرر « ميرزا محمد » أن هذه المنظومة تمتاز بشـيئين ؛ أحدهما : امتلاؤها بالميول الشيعية الواضحة ، والآخر بضعف أسلوبها عن مستوى أساليب كتاباته الأخرى . ويبدو أن نشر « العطار » لهذه المنظومة كان سببا لإذاعة روح السخط والغضب والتعصب لدى أحد الفقهاء السنيين من أهل « سمرقند » فإنه أمر بإحراق نسختها واتهم صاحبها بالإلحاد وأنه حقيق بالموت والإعدام . ثم أمعن فى الـكيد له فاتهمه بالـكفر لدى « براق التركمانى » «٢» وحرض العامة على هدم منزله والإغارة على أمتعته . واضطر « العطار » بعد ذلك إلى أن يرحل ويلجأ إلى « مكة » حيث ألف كتابه الأخير « لسان الغيب » وهو عبارة عن منظومة سقيمة اشتهرت كسابقتها بركاكة العبارة مما يدل على أن الشاعر كتبها وقواه خائرة وعمره متقدم وإنه قارب الفناء . ومما يجدر بنا ملاحظته فى هذا الصدد أن الشاعر شـبه نفسه فى هذه القصيدة بـ « ناصر خسرو » الذى اضطر كما فعل « إلى أن يهجر العالم ويخفى نفســه كالياقوتة البدخشية (٣) لـكيلا يقع بصره على مضطهديه ووجوههم البشعة النكراء . . . ! ! »

موت العطار :

أما تاريخ وفاة الشيخ « العطار » فقد اختلفت فيه آراء أصحاب التراجم اختلافا كبيرا . فالقاضى « نور الله الششترى » يجعله فى سـنة ٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م ، وتجعله النسخة القديمـة من « فهرست المخطوطات العربيـة المحفوظة فى المتحف البريطانى » (٤) فى سنة ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م ؛ فإذا اتينا إلى « دولتشاه » وجدناه

---

(١) المترجم : يكتبها الأستاذ براون بفتح الميم ولـكنه بعد ذلك يقول أن هذه العبارة لقب عرف به « على ابن أبى طالب » مما يقتضى قراءتها بضم الميم .

(٢) من سلالة « گورخان » وأحد أمراء خوارزم « خوارزمشاه » وقد فتح « كرمان » فى سنة ٦١٩ هـ = ١٢٢٢ م .

(٣) المترجم : أحسن أنواع اليواقيت هو ما ينسب إلى « بدخشان » .

(٤) أنظر ص ٨٤ من هذا الفهرست .

يحدد وفاته(١) بسنة ٦٠٢ هـ = ١٢٠٥ م ولكن هذين التاريخين الآخيرين يتناقضان تماما مع الخبر الذى رواه «دولتشاه» فى الصحيفة السابقة متعلقاً بوفاة العطار على أيدى المغول أثناء غارتهم على مدينة « نيسابور » سنة ٦٢٧ هـ = ١٢٢٩ م . ومع ذلك فإن «دولتشاه» يذكر تاريخا آخر يجعل فيه وفاة «العطار» فى سنة ٦١٩ هـ = ١٢٢٢ م وهو يتفق فى ذلك مع ما ذكره « تقى الدين كاشى » . أما «حاجى خليفه » و « أمين أحمد رازى » فيجعلان وفاته فى سنة ٦١٩ هـ وسنة ٦٢٧ هـ . ويبدو لى أن هـذا التاريخ الأخير هو أكثر التواريخ قبولا ، ويؤيدنى فى ذلك ثمانيـة من أصحاب المصادر (٢) ولو أن « حاجى خليفة » يذكر تاريخا آخر لوفاة العطار هو سنة ٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م .

ويتضح من ذلك أن الفجوة الواقعة بين أسبق التواريخ المـذكورة عن وفاة العطار وآخرها ، هى فجوة لا يقل مداها عن ثلاث وأربعين سـنة قمرية ، وهـذا الفرق الواضح يجعلنا بغير شك لا نثق فى أقوال أصحاب التراجم المتأخرين ، ويجعل لزاما علينا أن نلتمس أسانيـد أخرى من أقوال الشاعر نفسه فى كتاباته ، فقد نستطيع بواسطة ذلك أن نقرب بين جانبى الهوة ونقصر مسافة الفجوة . ويؤكد بعض أصحاب التراجم أن «العطار» عاش إلى الرابعة عشرة بعد المـائة من عمره ، ولـكن هذا القول لا يرتفع إلى مرتبة التصديق ، ومن المعروف أنه ذكر فى إحدى قصائده بيتا يدل على أنه بلغ السبعين من عمره وجاوزها ، ولـكننا رغم ذلك لا نملك من الوسائل ما نستطيع بواسطته أن نحقق به مدى الفترة التى عاشها بعد السبعين . ويشير « العطار » فى إحدى مثنوياته إلى ثورة « الأتراك الغز» فى سنة ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م . وكذلك نجد فى إحدى نسخ كتاب «منطق الطير» المحفوظة فى المتحف البريطانى(٣) وكذلك فى نسخة أخرى محفوظة فى « إدارة الهند » قطعة شعرية تجعل تاريخ انتهاء الشاعر من نظمها هو «يوم الثلاثاء ، اليوم العشرين من شهر

---

(١) أنظر ص ١٩٤ من كتاب « تذكرة الشعراء » .

(٢) أغلب هؤلاء متأخرون ، وقد قال عنهم « ميرزا محمد » أنهم يتابعون فى ذلك كتاب « جامى » المعروف باسم « نفحات الأنس » .

(٣) نسخة رقم or. 1.227

الله سنة ٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م » يضاف إلى ذلك أن «العطار» كان معاصرا للشيخ « مجد الدين البغدادى أو الخوارزمى » وأنه كان تلميذا له كما ذكر ذلك « جامى » فى «نفحات الأنس» .

وربما استقى « جامى » هذا الخبر مما ذكره العطار نفسه فى مقدمته لكتاب « تذكرة الأولياء » (١). ومن المعروف أن الشيخ « مجد الدين » مات فى سنة ٦٠٦ هـ أو سنة ٦١٦ هـ = ١٢٠٩ أو ١٢١٩ م ، أما البرهان القاطع فموجود حقيقة فى مقطوعة واردة فى كتاب « مظهر العجائب » حيث يتحدث الشاعر عن الشيخ « نجم الدين كبرى » باعتباره ميتا ، وقد تحدثنا عن هذا الشيخ فى الفصل السابق وقلنا أنه قتل على أيدى المغول أثناء غارتهم على خوارزم فى سنة ٦١٨ هـ = ١٢٢١م وبناء على ذلك يمكن أن ننتهى من هذه الأبحاث بتقرير أن «العطار» كان حيا فى هذه السنة وأن مولده كان سابقا على سنة ٥٤٥ هـ أو ٥٥٠ هـ = ١١٥٠ — ١١٥٥م؛ وأنه لا دليل إطلاقا على ما ذكره « جامى » (٢) من أن المغول قتلوه فى سنة ٦٢٧هـ = ١٢٢٩م ، ولا على ما ذكره «دولتشاه» فى مقال مفصل عن طريقة قتله وكيف حاول أن يخدعنا بحكايته الباطلة ، فدقق فى ذكر تاريخ مقتله ، بل وذكره على وجه التحديد فجعله فى اليوم العاشر من جمادى الثانية سنة ٦٢٧ هـ = ٢٦ إبريل سنة ١٢٣٠م حتى نصدق بذلك جميع ما يقول عنه . وهناك أخبار أخرى من هذا القبيل ترددها كتب التراجم المتأخرة ، من بينها الخبر المروى عن توبته ، وكذلك الخبر المروى عن إضفائه بركته على الطفل « جلال الدين » الذى أصبح فيما بعد مؤلف « المثنوى المعنوى » ، وكذلك الخبر المروى عن المعجزة التى أظهرها بعد موته ليبرهن بها على قداسته ويلزم بذلك أحد منكريه ....!! وفى رأيى أن مثل هذه الحكايات ما هى فى الحقيقة إلا اختراعات من انتحالات « دولتشاه » واتباعه ، وأنها غير جديرة بأن يلتفت إليها ، ويمكن لمن يشاء الاطلاع عليها أن يرجع إلى ما كتبه «سير جور أوزلى»

---

(١) أنظر ج ١ ص ٦ طبع نيكولسون .
(٢) أنظر « نفحات الأنس » ص ٦٩٩ .

فى كتابه عن « أخبار شعراء الفرس » (١)

وأغلب آثار « العطار » لم تطبع حتى الآن إلا طباعة على الحجر فى مدينة « لكنو » فى سنة ١٨٧٢م ولكنى للأسف لا أملك نسخة من هذه الطبعة (٢) ويجب أن أقرر فى هذا المكان أنه ما زال ينقصنا كثير من الدراسات المستفيضة المتعلقة بمؤلفات « العطار » قبل أن نجرؤ على التحدث عنها ولو حديثا إجماليا . فإذا أضفنا إلى ذلك أنى أكتب هذا الفصل وأنا بعيد عن المكتبات العامة التى تشتمل على مخطوطات لأهم آثاره ، فإنى أكون معذوراً إذا اضطررت إلى أن أقنع نفسى بالاكتفاء بابداء ملاحظات قليلة عن أهم مثنوياته الصوفية وأوسعها شهرة، وأقصد بها مثنوية «منطق الطير» (٣) فقد أصبحت فى متناول الجميع بفضل الطبعة الجميلة التى نشرها « جارسان دى تاسى ». وقد استطاع هذا الأستاذ الفاضل أن يصدر مقدمته التى كتبها على ترجمة هذه المنظومة بقصيدة تتألف من أربعة وعشرين بيتا نقلها عن النصب الذى أقيم على مقبرته فى مدينة « نيسابور » . ولكن يجب ملاحظة أن هذا النصب أقيم فى زمن متأخر نسبيا أى فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد أمر ببنائه السلطان « أبو الغازى الحسين» الذى كان حاكما لخراسان من سنة ٨٧٣ هـ إلى سنة ٩١٢ هـ = ١٤٦٨ — ١٥٠٦ م مما يجعل فائدة الأشعار المنقوشة عليه قليلة القيمة ، ومما يوفر علينا الجهد الذى نتكلفه فى إظهار ما بها من سقم واضطراب .

منطق الطير :

« منطق الطير » عبارة عن منظومة رمزية تبلغ ٤٫٦٠٠ بيت . وموضوعها هو بحث الطيور عن الطائر الوهمى المعروف بالعنقاء أو كما يسميه الفرس «سيمرغ»

---

(١) ارجع إلى: Sir Gore Ouseley: Biographical Notices of Persian Poets: London. 1846, pp. 236-243

(٢) المترجم : طبعت أغلب هذه الآثار فيما بعد فى إيران والهند ومصر والبلاد الأوربية الأخرى

(٣) ليس لدى من جديد أضيفه إلى ما سبق لى ذكره عن كتابيه « تذكرة الأولياء » و « پند نامه » .

و« الطيور » هنا ترمز إلى السالكين من أهل الصوفية ،وأما «العنقاء»فترمز إلى «اللهالحق » ، وتبدأ المنظومة كماهو العادة بجملة من المدائح فى حمد اللهومدح الرسول والخلفاء الراشدين الأربعة مما يدل على أن « العطار » كان إلى وقت كتابة هذه المنظومة سنيا مؤمنا بسنيته . والجزء المتعلق بالحكاية نفسها يبدأ بالبيت ٥٩٣ من المنظومة نفسها وهو يشتمل على خمسة.وأربعين مقالا تنتهى بخاتمة . وتبدأ القصة بتوجيه الخطاب والترحيب بثلاثة عشر طائرا ينعقد بهم المجلس،فيقررون أنه لا بد لهم من أن يخضعوا أنفسهم لواحدمنهم يجعلونه مرشداً لهم أثناء بحثهم عن العنقاء حتى يوفقوا إلى العثور عليها . ثم يختارون « الهدهد». والهدهد(كما هو معروف) مشهور جدا بين المسلمين لأنه كان رسول «سليمان » إلى« بلقيس» ملكة سبأ. ويأخذ«الهدهد» فى مخاطبتهم بحديث طويل ينتهى بهذه الأبيات التى يتمثل فيها تجلى العنقاء وظهورها(١):

ابتداى كار سيمرغ أى عجب   جلوه گر بگذشت درچين نيمشب
در ميان چين فتاد ازوى پرى   لاجرم پر شور شد هر كشورى
هر كسى نقشى از آن پر برگرفت   هر كه ديد آن نقش كارى در گرفت
هست آن پر در نگارستان چين   اطلبوا العلم ولو بالصين بيين
گر نگشتى نقش پر او عيان   اين همه غوغا نبودى در جهان
چون نه سر پيداست وصفش را نه بن   نيست لايق بيش ازين گفتن سخن(٢)

ومعنى هذه الأبيات بالعربية :

— ابتداء أمر العنقاء يا للعجب العجاب
إنها اجتازت بديار الصين فى نصف الليل مجلوة الإهاب ... !!

---

(١) المترجم : الأبيات الفارسية غير مذكورة فى الأصل .
(٢) المترجم : فى نسخة اصفهان المطبوعة فى سنة ١٣٥١ هـ بيت آخر يسبق هذا البيت الأخير ونصه :

اينهمه آثار صنع از فر اوست   نقشها جمله ز نقش پر اوست

ومعناه :
— آثار الإبداع جميعها وليدة عظمته ، وجميع الكائنات صورة من ريشته.

— فسقطت ريشة من ريشها فى وسط بلاد الصين
فامتلأت بالصخب والجلبة ديار العالمين ...!!
— فتوهم كل واحد صورة هذه الريشة الفريدة .
فأما من رآها من الناس ... فقد تعلق بها فى لحظة وحيدة ... !!
— وهذه الريشة ... كائنة فى معبد تصاوير الصين
فاطلبوا العلم ولو بالصين ، كما قال سيد المرسلين ...!!
— ولو لم تجعل نقوش هذه الريشة واضحة للعيان ،
لما وجد فى هذا العالم صخب تدوى به الأركان ...!!
— ووصف هذه الريشة لا بداية له ولا انتهاء
فمن الخير أن نجمل الحديث عنها ولا نكثر الأقوال والآراء ...!!

ولم تكد أنواع الطيور تصمم على الوصول إلى « العنقاء » حتى عادت فوجدت الطريق إليها طويلة متبعة ، فأخذ كل طائر منها يلتمس لنفسه عذرا من الأعذار ، فاعتذر « البلبل » بأنه مشغول بحب الوردة النضيرة ، واعتذرت « الببغاء » بأن جمالها جعلها للأقفاص أسيرة ، واعتذر « الطاووس » بادعاء الخجل والتواضع لاقتران اسمه بقصة إخراج آدم من الجنة ، واعتذرت « البطة » بعدم استطاعتها البعد عن الماء ؛ واعتذرت « الحجلة » بأنها لا تستطيع البعد عن الجبال والأودية ؛ واعتذرت « البجعة » بعدم استطاعتها مغادرة البحيرات الصافية ؛ واعتذرت « البومة » بعدم استطاعتها مغادرة الأماكن الخربة التى اعتادت أن ترتادها ، وأبدى طائر الـ « هما » إعجابه بقدرته على منح الملوك ألقابهم(١) ، واعتذر « الصقر » بأنه لا يستطيع أن يترك مكانه الممتاز على أكف الملوك ، واعتذرت « الصعوة » بأنها ضعيفة هزيلة يقعدها الوهن والسقم ...!!

وجميع هذه الأعذار ترمز إلى الأعذار التى يبديها الآدميون عندما يقعدون عن التماس عالم الروح ويعجزون عن المضى فيه ، وقد أخذ « الهدهد الحكيم » يجيب عليها واحدا واحدا ويتمثل بطائفة من الحكايات للتدليل على آرائه وأفكاره .

---

(١) المترجم : طائر الهما طائر وهمى ، تجرى الأساطير بأن ظله إذا وقع على أحد أصبح ملكا.

ثم يأخذ « الهدهد » بعد ذلك فى وصف الطريق الخطرة التى يجب على الطيور اجتيازها حتى يصلوا إلى الـ «سيمرغ» ، ويعرض أثناء ذلك إلى حكاية طويلة تتعلق بالشيخ « صنعان» الذى أغرم بفتاة مسيحية غراما شديدا ، وعرفت الفتاه حبه لها فأمعنت فى غيها وتيهها ، واضطرته إلى إطعام خنازيرها ، مما جعل أصدقاءه وتلاميذه يتنكرون له وينكرونه. وتقرر الطيور عند ذلك أن تخرج فى رحلة بقيادة «الهدهد» للبحث عن الـ «سيمرغ» ولـكنها سرعان ما تلتمس الأعذار أو تقيم العقبات حتى يأخذ « الهدهد » من جديد فى الإجابة على أعذارها مؤيدا إجابته بطائفة من الحـكايات والنكات . وهنا نجد تفاصيل هذه الأعذار التى ذكرها اثنان وعشرون طائرا مقترنة بإجابة «الهدهد» على كل واحد منها . ثم تأخذ بقية الطيور فى سيرها للبحث عن الـ « سيمرغ » حتى إذا سلـكت « أودية السلوك السبعة » ومرت على التوالى بـ«وادى الطلب» و«وادى العشق» و «وادى المعرفة» و«وادى الاستغناء» و«وادى التوحيد»و«وادى الحيرة» و«وادى الفقر والفناء» واستطاعت بمجاهداتها الطويلة أن تتطهر من أدران النفس والجسد، وجدت فى النهاية طلبتها أى «السيمرغ» وحققت بوجوده وجودها . والأبيات التى تمثل لنا هذه النهاية أبيات عجيبة ، تمثل لنا تمثيلا حسنا فـكرة الصوفية المتعلقة بـ « الفناء فى الله » وفيما يلى ترجمة حرفية لواحد وعشرين بيتا منها (١) :

---

(١) المترجم : فيما يلى نص هذه الأبيات نقلا عن نسخة «اصفهان» سنة ١٣٥١ .

جان آنمرغان ز تشویر وحیا	شد فنای محض وتن شد توتیا
چون شدند از کل کل پاك آنهمه	یافتند از نور حضرت جان همه
باز از سر بندهٔ نوجان شدند	می ندانستند این تا آن شدند
کرده ونا کرده دیرینه شان	پاك گشت ومحو شد از سینه شان
آفتاب قربت از ایشان بتافت	جمله را از پرتو آن جان بتافت
هم ز عکس روی سیمرغ جهان	چهره سی مرغ دیدند آنزمان
چون نگه کردند آن سی مرغ زود	بیشك این سی مرغ آن سیمرغ بود
در تحیر جمله سر گردان شدند	این ندا نستند تاخود آن شدند
خویشرا دیدند سیمرغ تمام	بود خود سیمرغ سی مرغ تمام
چون سوی سیمرغ کردندی نگاه	بود خود سی مرغ در آن جایگاه
ور بسوی خویش کردندی نظر	بود این سی مرغ ایشان آن دگر

— وأصبحت روح تلك الطيور بما أصابها من عناء وحياء
فناءاً محضا ... كما أصبحت أجسادها هباء ... !!
— فلما تطهرت من « كل الكل » جميعها على السواء
ظفرت بالروح والحياة ثانية من نور الله ذى البهاء ... !!
— وعادت ثانية فأصبحت خدماً تجددت فيهم الأرواح
ولم يعلموا بذلك حتى أصبحوا على هذه الحالة من الفلاح ... !!
— وانمحى ماصنعوه ... ومالم يصنعوه ... فى أيامهم الأخيرة
وانمحى عن صدورهم كل ما اقترفوه من جريرة ... !!
— وأضاءت شمس القرب من عندهم فى جلاء وبهاء
فاستنارت أرواحم جميعاً بما لها من ضياء ... !!
— وانعكست صورة هذا « السيمرغ » فى هذا الأوان ...
فبدت صورة «الثلاثين طائراً»...ورأوها فى هذا الزمان...!!
— فلما نظر فى عجلة هؤلاء الطيور الثلاثين [سى مرغ] ...
كان أمامهم جميعاً طلعة « السيمرغ » الأمين ...!!
— فدارت رؤوسهم جميعاً وظلوا فى حيرة واضطراب ...
ولم يدروا بذلك حتى أصبحوا فيما هم فيه من أمر عجاب ...!!

=

ور نظر در هر دو کردندی بهم — هر دو یك سیمرغ بودی بیش وکم
بود این یك آن وآن یك بود این — در همه عالم کسی نشنود این
آنهمه غرق تحیر ماندند — بی تفکر در تفکر ماندند
چون ندانستند هیچ از هیچ حال — بیزبان کردند از آنحضرت سؤال
کشف این سر قوی در خواستند — حل. مائی وتوئی در خواستند
بیزبان آمد از آنحضرت جواب — کاینه است آنحضرت چون آفتاب
هرکه آید خویشتن بیند در او — جان وتن هم جان وتن بیند در او
چون شما سی مرغ اینجا آمدید — سی در این آیینه پیدا آمدید
گر چل وپنجاه وشصت آیند باز — پرده از خویش بگشایند باز
گرچه بسیاری بسر گردیده آید — خویشرا دیدید وخودرا دیده آید

ـــ وظنوا أنفسهم الـ « سيمرغ » بلا اختلاف . .
وظن الـ« سيمرغ » نفسه الثلاثين طائرا [سى مرغ] فى ائتلاف . . !!
ـــ فلما نظروا إلى الـ « سيمرغ » وأمعنوا النظر
كان فى مكانه ثلاثون طائراً [سى مرغ] يقع عليهم البصر . . . !!
ـــ فلما نظروا إلى أنفسهم . . . وأمعنوا فيها التدقيق . . .
كانوا الثلاثين طائرا [سى مرغ] وكانوا « السيمرغ » على التحقيق . . !!
ـــ فلما نظر الطرفان كل منهما إلى الآخر . . .
كان كلاهما هو « السيمرغ » بغير زيادة أو قصر . . . !!
ـــ فكان هذا هو ذاك بعينه . . . وكان ذاك هو هذا بعينه . . .
فهل سمع بهذا أحد فى العالم . . أو أصغى إليه بأذنه . . ؟!
ـــ فبقوا جميعاً فى تعجب واضطراب وتحير . . .
وظلوا جميعاً . . . من غير تفكر . . . يديمون التفكر . . . !!
ـــ فلما لم يعرفوا شيئاً قط عن هذه الحال . .
أخذوا بغير لسان يسألون هذه « الحضرة » عن هذا الأمر المحال . . !!
ـــ وطلبوا كشف هذا السر الخفى المكين . . .
وحل الطلاسم عما نكون نحن . . . ؟ وما تكونون . . . !!
ـــ فأجابت هذه « الحضرة » بغير مقال أو لسان . . .
إنها كالشمس مرآة ذات ضياء ولمعان . . !!
ـــ وكل من يقبل عليها يرى نفسه ظاهرا فى صفحتها . . .
ويرى الروح روحا . . والجسد جسدا فى لوحتها . . . !!
ـــ فلما أتيتم إليها ثلاثين طائرا على التمام . . .
ظهرتم فيها ثلاثين طائراً فى انتظام . . . !!
ـــ ولو أتى إليها أربعون . . . أو خمسون . . . أو ستون . . .
لكشفوا كذلك الحجاب الذى يحجبهم أجمعين . . .
ـــ ولو أضفتم إلى أنفسكم أكثر من ذلك بكثير . . . !!
لرأيتم أنفسكم . . ولما رأيتم غير أنفسكم . . . وهذا أمر يسير . . . !!

٢ — جلال الدين الرومى

اسمه « جلال الدين محمد » ولـكنه اشـتهر فيما بعد بلقبه الذى عرف به وهو « مولانا جلال الدين الرومى » نسبة إلى بلاد الروم أو آسيا الصغرى حيث قضى الشطر الأكبر من حياته . وهو يعتبر — بغير شك — أشهر شعراء الصوفية الذين أخرجتهم إيران ؛ كما أن كتابه الصوفى المعروف باسم « المثنوى » جدير بأن يوضع فى صف الملاحم الـكبرى التى جاد بها الزمان .

حياة جلال الدين

ولد « جلال الدين » فى مدينة بلخ فى خريف سنة ٦٠٤ هـ = ١٢٠٧ م . ولم يكد يمضى وقت طويل على ولادته حتى اضطر والده « محمد بن الحسين الخطيبى البكرى » المعروف عادة باسم « بهاء الدين ولد » إلى الرحيل عن موطنه والهجرة غربا نتيجة للاضطهاد الذى لقيه من « علاء الدين محمد خوارزمشاه » — كما تذكر القصة المعروفة — وسار الوالد حتى اجتاز مدينة « نيسابور » فى سنة ٦٠٨ هـ = ١٢١٢ م وزار هنالك الشـيخ « فريد الدين العطار » ويقال أن هذا الشيخ أخذ الطفل « جلال الدين » بين ذراعيه وبشره بمستقبل عظيم ثم باركه وأعطاه نسـخة من منظومته « إلهى نامه » . ثم انصرف المهاجرون عن « نيسابور » فرحلوا إلى « بغداد » ثم إلى « مكة » وخرجوا من هنالك إلى مدينة « ملطية » حيث أقاموا أربع سنوات ، ثم غادروها إلى مدينة « لارنده » التى تعرف الآن باسم « قرمان » فأقاموا بها سبع سنوات ثم غادروها إلى مدينة « قونية » التى كانت فى ذلك الوقت عاصـمة للحاكم السلجوقى « علاء الدين كيقباد » وهنا يستقر بهم المقام ويموت « بهاء الدين » والد « جلال الدين » فى سنة ٦٢٨ هـ = فبراير سنة ١٢٣١ .

وكان « جلال الدين » وهو فى مدينة « لارنده » قد قارب الواحدة والعشرين من عمره ؛ فتزوج هنالك فتاة اسمها « جوهر خاتون » إبنة « لالا شرف الدين السمرقندى » . وقد أنجبت له ولدين ؛ أحدهما « علاء الدين » والآخر « بهاء الدين سلطان ولد » . فأما أولهما فقد قتل فى مدينة « قونية » أثناء الفتنة التى حدثت بها وقتل خلالها « شمس الدين التبريزى » الذى يعتبر المرشد الروحى لـ « جلال

الدين الرومى» ؛ وأماالآخرأى«بهاء الدين سلطان ولد» فقد ولد فى سنة ٦٢٣هـ = ١٢٢٦ م وفاز بشهرة عريضة لأنه يعتبر صاحب أول منظومة مازالت فى أيدينا من أمثلة الأشعار « التركية الغربية » المبكرة ، ونقصد بها مثنويته المعروفة باسم « رباب نامه » التى تشتمل على ١٥٦ بيتا ، وقد استطاع المرحوم « إ . ز . و . جب » أن يترجم نظما إلى الانجليزية شطرا كبيرا من هذه المثنوية وأن يترجم كذلك طائفة من « الغزليات » التى أنشأها صاحبها ، وأضاف إلى هذه الترجمات كثيرا من التفاصيل المتعلقة بهذه الأشعار ، وكثيرا من الأخبار المتعلقة بناظمها وبوالده (١).

ويبدو أن « جلال الدين» فقد زوجته الأولى فتزوج بعد وفاتها زوجة أخرى أنجبت له طفلين آخرين أحدهما ذكروالآخر أنثى. فلما كانت سنة ٦٧٢هـ = ١٢٧٣م توفى « جلال الدين » ودفن فى نفس الضريح الذى ضم رفاة والده ، وهو الضريح الذى شيده فى سنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣١ م سلطان « قونية » « علاء الدين كيقباد السلجوقى »(٢).

ويخيل إلى أن « جلال الدين » ظل يدرس العلوم المتعارف عليها مع والده حتى أدركته الوفاة فى سنة ٦٢٨ هـ = ١٢٣١ م ثم رحل بعد ذلك إلى « حلب » و «دمشق» طلباً لاستيفاء الدرس والتحصيل ، فتلاقى هنالك بواحد من تلاميذ أبيه هو «الشيخ برهان الدين الترمذى » ودرس عليه «أسرار الطريقة» فلما توفى هذا الشيخ انتقل إلى الشيخ « شمس الدين التبريزى » المعروف باسم « شمس تبريز » فتلقى عليه تعاليمه الصوفية. ويصف «نيكلسون» هذا الشيخ بأنه « شخصية غامضة تتدثر بلباد أسود خشن ، تضوى لحظة قصيرة على مسرح الحياة ثم تختفى فجأة وفى سرعة فائقة. » (٣) ويقال عن هذا الشيخ العجيب بأنه من أبناء « جلال

---

(١) أنظر : E. J. W. Gibb : History of Ottoman Poetry, vol. I, pp. 141—163 .

[المترجم : طبع « ديوان سلطان ولد » فى استانبول سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٤١ م ضمن « الآثار المولوية فى أدوار السلجوقية »].

(٢) للاطلاع على وصف هذا الضريح إرجع إلى الفصل العاشر من كتاب : Cl. Huart : Konia, la ville des Derviches Tourneurs. (Paris, 1897) pp. 194—211,

(٣) إرجع الى ص ١٨ من مقدمة كتاب « غزليات مختارة من ديوان شمس تبريز» R.A. Nichol son: Selected Odes from the Diwan—i—Shamsi-Tabriz

الدين » الملقب بلقب « نو مسلمان » (١) الذى كان زعيما « للحشاشين » ، ثم انقلب عليهم بسبب غيرته على الإسلام ، كما تحدثنا عن ذلك فيما سبق من صفحات(٢) وقد اشتهر «شمس تبريز » بكثرة تنقلاته وسرعة تجولاته بحيث لقبوه بلقب « پرنده» أى «الطائر» ويصفه «ردهاوس Redhouse » (٣) بأنه «شخصية عاتية مسيطرة » ولكن «سپرنجر Sprenger»(٤) يقول على عكس ذلك «إنه فظ غليظ القلب مكروه الطباع » أما « نيكلسون Nicholson » فقد أجاد فى إجمال صفاته فى عباراته التى قال فيها : « إنه كان إلى حد ما أميا ، ولكنه امتاز بحماس روحى شديد ، مصدره الفكرة التى استولت عليه فجعلته يتخيل إنه مبعوث العناية الإلهية ، وقد استطاع بواسطة ذلك أن يسيطر على كل من قدم عليه أو دخل فى مجلسه . وهو من هذه الناحية ومن نواح أخرى تتصل بحبه المتقد ، وفقره المدقع ، وموته العنيف ، شبيه كل المشابهة بالفيلسوف «سقراط » ، فكلاهما استطاع أن يفرض نفسه على أذكياء الناس بقدرته على تصوير أفكارهم البسيطة فى تعبير فنى رائع ، وكلاهما استطاع أن يكشف لنا عن خطل العلوم الظاهرة ، وعن شدة حاجتنا إلى التثقف والتنور وعن قيمة الحب فى حياتنا ، وأن الانفعالات الشاردة والتحديات الجاهلة للقوانين الإنسانية إنما تؤدى إلى فقد « الاتزان العقلى» و«السمو الأخلاقى» اللذين هما مقياس التمييز بين الحكيم والمريد (٥) . »

ويقول « شمس الدين أحمد الأفلاكى » فى كتابه « مناقب العارفين » (٦) إن «جلال الدين» تعرف إلى هذه الشخصية الغامضة فى مدينة قونية فى شهر رجب ٦٤٢هـ ديسمبر سنة ١٢٤٤ م وكان قبل ذلك قد رآه فى دمشق ولكنه لم يتحدث معه ، ثم

---

(١) المترجم : بمعنى « المسلم الجديد » .

(٢) ارجع إلى ص ٥٧٨ من هذا الكتاب .

(٣) أنظر ص ١٠ من المقدمة التى كتبها وألحقها بترجمته الانجليزية للكتاب الأول من «المثنوى»

(٤) أنظر : Sprenger ; Catalogue of the Oudh Mss. p. 490

(٥) أنظر ص ٢٠ من مقدمته لكتاب « Selected Odes etc »

(٦) ترجم منه جزء كبير نشر بعنوان « Acts of the Adepts » فى مقدمة الترجمة المنظومة التى نشرها « ردهاوس » للكتاب الأول من « المثنوى » .

ازدادت صلته به واستمرت الألفة بينهما مدة تقرب من خمسة عشر شهرا ، انتهت فجأة فى ذى القعدة سنة ٦٤٤ هـ = مارس سنة ١٢٤٦ م بمقتل « شمس تبريز » كما أشرنا إلى ذلك من قبل، ويقول « أفلاكى » بالإضافة إلى ذلك أن «جلال الدين» قرر تخليدا لذكرى صديقه القتيل أن يرتدى اتباعه « الزى المولوى » المكون من القلنسوة الطويلة المصنوعة من اللباد البنى ومن العباءة السوداء الفضفاضة ؛ وهو الزى الذى ما زال دراويش المولوية يرتدونه حتى الآن (١) كما قرر عليهم أيضا هذه الرقصات الدائرة التى جعلتهم يعرفون لدى الأوروبيين باسم «الدراويش الراقصين» ومع ذلك فقد ذكر «أفلاكى» فى صفحات تالية من كتابه (ص ٢٧ – ٢٨) أمورا أخرى عزى إليها سبب فرض الغناء والرقص على هؤلاء الدراويش

ولا يعرف على وجه التحقيق التاريخ الذى بدأ فيه « جلال الدين » نظم مؤلفه الصوفى الكبير «المثنوى المعنوى» وهوعبارة عن «مثنوية» تشتمل على ستة كتب(٢) تتضمن فى مجموعها — كما يقول « أفلاكى » — ٢٦٫٦٦٠ بيتا عن الشعر ، والمعروف أن «جلال الدين» بدأ ينظم الكتاب الثانى من المثنوية فى سنة ٦٦٢هـ = ١٢٦٣ م بعد سنتين من فراغه من نظم الكتاب الأول ، لأنه شغل فى هذه الفترة بوفاة زوجة تلميذه المقرب وكاتبه الخصوصى « حسن حسام الدين » ، وعلى ذلك يمكن أن نقرر مطمئنين أنه فرغ من نظم الكتاب الأول فى سنة ٦٦١هـ = ١٢٦١م ولكن لا حيلة لنا إلى تحديد الفترة التى استغرقها نظمه ، وإن كان من المحتمل أنه بدأه بعد فترة طويلة من مقتل « شمس تبريز » وأنه لم ينته من سائر الكتاب إلا فى سنة ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م حينما أدركته الوفاة .(٣) ومن المحتمل أيضا أن تأليف هذا الكتاب استغرق فترة تزيد على عشر سنوات . ويبدأ كل جزء من الأجزاء الخمسة الأخيرة من الكتاب بنصيحة يوجهها المؤلف إلى « حسن حسام الدين » بن

---

(١) المترجم : اختفى هذا الزى الآن بسبب إلغاء تكايا المولوية فى تركيا ثم فى مصر .

(٢) قد يقابل الباحث كتابا سابعا ، ولكنه بغير شك منتحل . وقد طبع هذا الكتاب السابع على الحجر فى بلاد الشرق .

(٣) مات « جلال الدين » على وجه التحديد فى مغرب يوم الأحد ٥ جمادى الآخر سنة ٦٧٢ هـ = ١٦ ديسمبر سنة ١٢٧٣ م . أنظر أيضاً كتاب « ردهاوس » ص ٩٦ .

أخى ترك » كما أن المؤلف لم ينس أن يذكر لنا فى مقدمته المكتوبة باللغة العربية للجزء الأول بأنه ألفه استدعاءا لهذا الحسن واستيحاء منه . ولما كنا نعرف أن هذا « الحسن » اشتغل كاتبا خاصا لـ « جلال الدين » بعد موت « صلاح الدين فريدون زركوب »(١) فى سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م فمن المحتمل أنه بدأ « المثنوى » بعد ذلك التاريخ مباشرة .

ونحن فى غنى عن أن نفصل الحديث أكثر من ذلك فيما يتعلق بحياة « جلال الدين » وسيرته لأن أصدق الأخبار المروية عنه وأكثرها تفصيلا يرويها لنا « أفلاكى » فى كتابه « مناقب العارفين » وهو الكتاب الذى ترجم بعض فصوله الأستاذ «ردهاوس» . ومن الحق أن نعترف فى هذا الصدد بأن أكثر الكرامات المروية فى هذا الكتاب عن « جلال الدين » وأسلافه وأتباعه لا يمكن أن يتصورها العقل ، كما أن هناك مواضع غير قليلة بها أخطاء تاريخية وموضوعية ، ولكن ذلك جميعه لا يقلل من قيمة الكتاب إذا راعينا أن صاحبه بدأ تأليفه بعد خمس وأربعين سنة فقط من وفاة « مولانا جلال الدين » أى فى سنة ٧١٨ هـ = ١٣١٨ م ؛ وأنه انتهى منه فى سنة ٧٥٤هـ = ١٣٥٣م ؛ وأن صاحبه كان تلميذا لـ «جلال الدين» يعيش معه فى مكان واحد ، ويستقى أخباره من أوثق المصادر وأكثرها صحة واعتمادا ، بناء على أمر أحد أحفاد « جلال الدين » المسمى بـ « چلبى أمير عارف » ابن « بهاء الدين سلطان ولد »

ديوان شمس تبريز :

أما أشعار « جلال الدين » الغنائية أو الغزلية فيتضمنها ديوانه المعروف باسم «ديوان شمس تبريز» . ويقول «نيكلسون» أن «دولتشاه» يقرر أن «جلال الدين» أنشأها فى فترة غياب «شمس تبريز» فى مدينة« دمشق» ؛ بينما يقرر «رضا قلى خان» أن «جلال الدين» كتبها رثاءاً له بعد مقتله . ورأى « نيكلسون » الخاص (وهو أقرب الآراء من الصواب) هو «أن جزءاً من هذا الديوان قد تم إنشاؤه أثناء حياة

---

(١) « زركوب » كلمة فارسية معناها « دقاق الذهب » .

«شمس تبريز» ولكن أكثره لم يتم إلا بعد موته بفترة من الزمن . وهو يضيف إلى ذلك : أن جلال الدين قد ألف أيضاً رسالة منثورة عنوانها « فيه ما فيه » تشتمل على ثلاثة آلاف بيت وقد أهداها لشخص اسمه « معين الدين» حاكم الروم المعروف بلقبه « پروانه »[١] .

قيمة المثنوى

وأشعار «المثنوى» و « الديوان » تعتبر من أرقى الأشعار ، وقد تعارف أهل إيران على تسمية «المثنوى» بالقرآن البهلوى ويقصدون بذلك القرآن الفارسى . كما أن صاحبه كتب فى مقدمته العربية التى ألحقها بالكتاب الأول منه: «إن المثنوى هو أصل أصول أصول الدين ، فى كشف أسرار الوصول واليقين ، وهو فقه الله الأكبر ، وشرع الله الأزهر ، وبرهان الله الأظهر، مثل نوره كمشكاةفيها مصباح ، يشرق إشراقاً أنور من الإصباح، وهو جنان الجنان ، ذو العيون والأغصان ، منها عين تسمى عند أبناءهذا السبيل سلسبيلا،وعندأصحاب المقامات والكرامات خيرمقاماً وأحسن مقيلا ، الأبرار فيه يأكلون ويشربون ، والأحرار منه يفرحون ويطربون، وهو كنيل مصر شراب للصابرين ، وحسرة على آل فرعون والكافرين ، كما قال يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ... » .

والمثنوى منظوم برمته على وزن الرمل المسدس المحذوف ، فتكرر تفعيلته «فاعلاتن» ست مرات فى كل بيت من الأبيات ، ولكنها فى نهاية كل شطر تكون محذوفة النون أى «فاعلات». وكل بيت من الأبيات تتفق شطرته الأولى مع شطرته الثانية كما تدل على ذلك تسميته بالمثنوى. وهو يتضمن عددا من الحكايات المتداولة تتعلق بمختلف الموضوعات والأغراض؛ بعضها مليح متزن ، وبعضها قبيح مستهجن، وهى جميعها موزعة فى مختلف الأبواب الصوفية أو الكشفية التى لايفهم المقصود منها بسهولة ووضوح ؛ أما الأجزاء القصصية من «المثنوى» فعلى العكس من ذلك مكتوبة فى لغة بسطية وإضحةلا يشوبها إلا بعض الخصائص اللغوية واللفظية .

ويمتاز « المثنوى » بالإضافة إلى ذلك بأنه يبدأ مباشرة فى الموضوع دون أن يصدر بالتصدير التقليدى المتعلق بمدح الله والرسول والأنبياء. فيبدأه «جلال الدين»

---

(١) المترجم : هذه الرسالة مطبوعة على الحجر .

بالمقطوعة المشهورة الجميلة التي ترجمها الأستاذ المرحوم «إ . هـ. پالمر» ونشرها بعنوان « أغنية الناى»[1] وهو كتاب صغير لم يقدر له أن ينتشر بقدر مايستحق، ويتضمن ترجمات ومنشآت منظومة مختلفة. ولا يقتصر على ترجمة المنظومة الافتتاحية من المثنوى المعروفة بـ «أغنية الناى» بل يتعداها إلى غيرها من الحكايات المذكورة فى الكتاب الأول من المثنوى . وقد ترجمها «پالمر» بتصرف شديد، ولكنه استطاع مع ذلك أن يحتفظ بروحها ومعانيها الأصيلة بحيث يمكننى أن أعتبرها من أروع الترجمات التى صادفتها فى نقل الأشعار الفارسية إلى اللغة الإنجليزية .

مترجمو جلال الدين إلى الإنجليزية :

وقد انفرد «جلال الدين الرومى» من بين سائر شعراء الفرس بعناية مترجمية من الانجليز. فبالإضافة إلى «أغنية الناى» التى ذكرناها فيما سبق ، توجد ترجمة منظومة للكتاب الأول من المثنوى قام بها «السير جيمس ردهاوس Sir James Redhouse» ونشرها «تروبنر Trubner فى المجموعة الشرقية»[2] التى تتضمن أيضاً بين أعدادها مجلداً آخر هو عبارة عن مختصر للمنظومة كلها يشتمل على مقتطفات منها ترجمها نثراً المستر «إ . هـ. هوينفلد E. H. Whinfield» وقد استطاع هذا المترجم بترجمته لهذه المقتطفات وبترجمته التى قام بها لكتاب «گلشن راز» للشيخ «محمود الشبسترى» أن يؤدى لنا أجل الخدمات لدراسة التصوف فى إيران وتفسير نصوصه ومتونه .

ولم يفت المترجين الإنجليز النظر إلى ديوان « جلال الدين » . وفى رأيى أن الكتاب الذى نشره «المستر نيكلسون» فى كامبردج سنة ١٨٩٨ بعنوان «قصائد مختارة من ديوان شمس تبريز» مع نشر الأصـــل والترجمة وإضافة المقدمات والتعليقات والفهارس ، يعتبر من أبدع الدراسات وأكثرها أصالة فى هذا الموضوع

---

(١) أنظر: E. H. Palmer : Song of the Reed.

(٢) أنظر : Messrs Trubner ; Oriental Series

(٣) عنوان هذا الكتاب بالانجليزية هو :

R. A. Nicholson : Selected Poems from the Divan i shams-i-Tabriz Cambridge 1898 ,

فقد تمكن بواسطة خبرته وتخصصه من أن يفحص الصلات التى اعتقد وإياه إنها قائمة بين تعاليم « الصوفية المسلمين » وأصحاب « الأفلاطونية الحديثة » فى الاسكندرية، وأن يبرهن على قيام هذه الصلات فعلا. وقد أدى هذه الدراسة بقدرة عجيبة كما تشهد بذلك مقدمته على «القصائد المختارة» ولكنه مازال يتابعها ويكمل أبحاثها فى مؤلفات أخرى. وقد استطاع بنشره لكتاب «تذكرة الأولياء» من تأليف الشيخ «فريد الدين العطار» الحصول على كثير من المعلومات الجديدة المفيدة[1]، وهو يخبرنى بأنه أصبح الآن يميل إلى أن ينسب نشأة الناحية الفلسفية من مذهب التصوف إلى «ذوالنون المصرى» وحده، ولاشك أن هذا الرأى إذا ثبتت صحته سيكون عظيم الخطورة والأهمية لأنه سيبرهن على وجود الحلقة المفقودة التى تربط « الصوفية » بمدرسة الاسكندرية الفلسفية[2].

ووجود هذه الترجمات الكثيرة التى ذكرتها فى متناول الأيدى، يحتم على ألا أكثر من ضرب الأمثلة من مؤلفات «جلال الدين الرومى» ؛ وعلى ذلك سأكتفى بأن أقدم للقارىء مثلا واحداً اخترته من « المثنوى» وغزليتين أخذتهما من «الديوان» أما المثل الأول فمأخوذ من قصة الوزير «اليهودى» المذكورة فى الكتاب الأول من المثنوى . وللقارىء أن يقارن بين ترجمتى التى أسوقها فى السطور التالية وبين الترجمة التى قام بها «پالمر» فى كتاب «أغنية الناى » ص ٢٤ — ٢٥ والترجمة التى قام بها «ردهاوس» فى ص ٢٩ — ٣١ من كتابه[3].

---

(١) المترجم : عندما كتب «براون» هذا الجزء لم يكن نيكلسون قد نشر إلا الجزء الأول من « تذكرة الأولياء » وأما الجزء الثانى منها فكان معدا للطبع ، وقد تم بعد ذلك طبع هذا الجزء ضمن مجموعة « النصوص الفارسية التاريخية» التى قام بنشرها « براون » بعنوان :
(Persian Historical Texts Series)

(٢) المترجم : استمر الأستاذ « نيكلسون » فى هذه الأبحاث حتى أدركته الوفاة فى سنة ١٩٤٨ وقد استطاع قبل وفاته أن ينشر كثيراً منها وأن يتم نشره وترجمته للمثنوى برمته فوقع ذلك فى ستة مجلدات طبعت منذ سنة ١٩٢٥ فى « سلسلة جب التذكارية » .

(٣) المترجم : هذا بالطبع لفائدة القارىء الانجليزى ، أما القارىء العربى فإنى أنشر لفائدته النص الفارسى مع ترجمته العربية . وفيما يلى أصل الأبيات الفارسية :

هر شبى از دام تن ارواح را   مى رهانى مى كنى الواح را =

— أنت... فى كل ليلة من الليالى ... تدع هذه الأرواح
وتخلصها من محبس الأجساد... وتنزع عنها هذه الألواح...!!
— فتتحرر هذه الأرواح فى كل ليلة من أقفاس الأجساد
وتتحرر منن الأحكام والأقوال وأفعال العباد...!!
— وفى الليل...لايدرى «المحبوسون»شيئاً عن «السجن»الذى هم فيه
وفى الليل ... لايدرىالسلاطين شيئاًمنأمر الحكموالعز والتيه...!!
— وفى الليل ... يمتنع التفكير فى الربح والخسران
وفى الليل... يمتنع التفكير فى أمر فلان أو فلان ... !!
— وحال «العارف» هى هذه الحال تماماً ... دون غفلة أو منام
و« هم رقود» كما قال تعالى ، فلا تجفل من هذا الكلام
[انظر سورة «الكهف» آية ١٧ حيث يقول تعالى : وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود]

می رهند أرواح هرشب زین قفص ـــ فارغان از حکم وگفتار وقصص
شب ز زندان بی خبر زندانیان ـــ شب ز دولت بی خبر سلطانیان
نی غم واندیشهٔ سود وزیان ـــ نی خیال این فلان وآن فلان
حال عارف این بود بی خواب هم ـــ گفت ایزد : هم رقود زین مرم
خفته از احوال دنیا روز وشب ـــ چون قلم در پنجهٔ تقلیب رب
آنك او پنجه نبیند در رقم ـــ فعل پندارد بجنبش از قلم
شمه زین حال عارف وا نمود ـــ خلق را هم خواب حسی در ربود
رفته در صحرای بی چون جانشان ـــ روحشان آسوده وابدانشان
وز صفیری باز دام اندر کشی ـــ جمله را داد ودر داور کشی
فالق الإصباح اسرافیل وار ـــ جمله را در صورت آرد زان دیار
روحهای منبسطرا تن کند ـــ هر تنی را باز آبستن کند
اسب جانهارا کند عاری ز زین ـــ سر النوم أخو الموتست این
لیك بهر آنك روز آیند باز ـــ بر نهد بر پاش پابند دراز
تا که روزش وا کشد زان مرغزار ـــ وز چرا گاه آردش در زیر بار
کاش چون أصحاب کهف این روح را ـــ حفظ کردی یاچو کشتی نوح را
تا ازین طوفان بیداری وهوش ـــ وارهیدی این ضمیر وچشم وگوش
ای بسا أصحاب کهف اندرجهان ـــ پهلوی تو پیش تو هست این زمان
غار با او یار با او در سرود ـــ مهر بر چشمت وبر گوشت چه سود

ـ والعارف راقد فى غفلة عن أحوال الدنيا أثناء الليل والنهار
وهو كالقلم فى «قبضة» ربه يقلبه كما يختار ... !!
ـ فالذى لايستطيع أن يرى «القبضة» عند الكتابة والتحرير
يظن أن حركة «القلم» نفسه هى التى تحدث الرقم والتسطير ... !!
ـ وقد أبدى «العارف» شيئا مما يتصل بهذه الحال
ولكن النوم الحسى سلب ألباب سائر الخلق والرجال
ـ فذهبت أرواحهم إلى صحراء العدم والفناء
واستقرت هى وأبدانهم فى راحة وهدوء على السواء ... !!
ـ ثم إذا أنت بصفير واحد تطوى الشباك والشراك
وتدعوهم جميعاً إلى الحساب ... وإلى لقياك !!
ـ وكإسرافيل يدعوهم فالق الإصباح [أى الله. انظر سورة الأنعام آية ٩٦]
من هذه الديار ، فيلبسهم صورهم التى كانت لهم
ـ ويجعل لهذه الأرواح المنبسطة الشفافة أجسادا
ويجعل كل جسد منها محملا بروحه
ـ وفى الليل يعرى جواد الروح من سرجه
وهذا هو سر قولهم : « إن النوم هو أخو الموت »
ـ ولما كانت الأرواح تعود فى أثناء النهار
فإنه قد كبلها بقيود ثقيلة طويلة
ـ حتى يسترجعها أثناء النهار من هذه المروج اليانعة
وحتى يسترجعها من مراعيها ، ويحملها الأحمال النافعة
ـ فياليته حفظ هذه الروح كما حفظ أصحاب الكهف
وياليته حفظ هذه الروح كما حفظ سفينة نوح ... !!
ـ حتى يتمكن الضمير وتتمكن الأعين والآذان
أن تتخلص من طوفان اليقظة والعقل والأتزان ... !!
ـ وما أكثر مافى الدنيا من رجال يشبهون أصحاب الكهف
وهم أمامك ... وإلى جوارك ... وموجودون فى كل زمان ... !!

ـــ وهم فى الغار ومعهم الأحبة الأخيار ... وهم يتغنون بأعذب الألحان
ولكن ما الفائدة وقد ختم الله على بصرك وسمعك فعميت الأبصار وانسدت الآذان

ديوان شمس تبريز :

وأهل المشرق لايقرأون ديوان « جلال الدين الرومى» أو يدرسونه كثيراً كما يفعلون بالمثنوى . ولكن بعض المستشرقين الأوروبيين يجعلون الديوان أعلا مرتبة من «المثنوى » من ناحية صياغته الشعرية ومعانيه المبتكرة. وقد كان هذا الرأى ـ وفقا لما جاء فى إحدى الحكايات التى ذكرها الأفلاكى فى كتابه(١) ـ رأى جماعة من أكبر الأدباء الذين عاصروا « جلال الدين » نفسه ، ويدخل فى عدادهم الشاعر الكبير «سعدى» ؛ فقد ورد الخبر بأن أمير شيراز أرسل إليه أن ينتقى له أطيب غزلية فى الشعر الفارسى وأن يراعى فى اختيارها أن تكون ممتازة بأسمى الأفكار وأعلا المعانى ، فاختار «سعدى» غزلية من ديوان «جلال الدين» وقدمها إليه قائلا : إن جمال الكلمات التى صيغت فيها هذه الغزلية جعلتها بحيث لم يستطع أحد فى الماضى أن يقول مثلها ولن يستطيع أحد فى المستقبل أن يبلغ مبلغها ، وياليتنى أستطيع أن أذهب إلى بلاد الروم لأمسح وجهى بتراب أقدام من قالها...!!(٢) .

وقد اعتنى المستر «نيكلسون» عناية بالغة بهذه الغزليات وأبدى كثيراً من الذوق والخبرة فى دراسته لها فى الكتاب الذى أشرت إليه آنفاً ، ومن تحصيل الحاصل أن أضيف شيئاً إلى ماقاله لأنى لم أدرس الديوان دراسة بحث واستقصاء . ولكنى لا أريد فى هذه المناسبة أن أحرم نفسى أو القارىء من إيراد ترجمة نيكلسون المنظومة لغزليتين من أجمل الغزليات ذكرهما فى الجزء الثانى من ملاحق كتابه(٣) .

---

(١) أنظر ترجمة « ردهاوس » رقم ١٤ ص ١٨ — ٣٠

(٢) يقول « الأفلاكي » أن أمنية « سعدى» قد تحققت فيما بعد؟ ولكنى لا أستطيع أن أجد مصدراً واحدا معتمدا يؤيد التقاء هذين الشاعرين الكبيرين .

(٣) المترجم: هاتان الغزليتان غير كاملتين وهما واردتان بتمامهما فى كتاب نيكلسون تحت رقم ٣١ و ٣٦

وفيما يلى ترجمة الغزلية الأولى(١) :

ـــ أيها المسلمون ... ما التدبير ... وأنا نفسى لا أعرف نفسى ....!!
فلا أنا مسيحى ، ولا أنا يهودى ، ولا أنا مجوسى ، ولا أنا مسلم ....!!

ـــ ولا أنا شرقى ، ولا أنا غربى ، ولا أنا برى ، ولا أنا بحرى
ولا أنا من عناصر الأرض والطبيعة ، ولا أنا من الأفلاك والسموات....!!

ـــ ولا أنا من التراب ، ولا أنا من الماء ، ولا أنا من الهواء ، ولا أنا من النار
ولا أنا من العرش ، ولا أنا من الفرش ، ولا أنا من الكون ، ولا أنا من المكان ....!!

ـــ ولا أنا من الهند ، ولا أنا من الصين ، ولا أنا من البلغار ، ولا أنا من السكسون ... !!
ولا أنا من ملك العراقين ، ولا أنا من بلاد خراسان ....!!

ـــ ولا أنا من أهل الدنيا ، ولا أنا من أهل العقبى ، ولا أنا من أهل الجنة ، ولا أنا من أهل النار ... !!
ولا أنا من نسل آدم ، ولا أنا من نسل حواء ، ولا أنا من أهل الفردوس ، ولا أنا من أهل جنة الرضوان ... !!

ـــ وإنما مكانى حيث لامكان ، وبرهانى حيث لابرهان
فلا هو الجسد ... ولا هو الروح ... لأننى أنا فى الحقيقة من روح الروح (الحبيب) ....!!

---

(١) المترجم: فيما يلى أصل هذه الأبيات بالفارسية:

چه تدبير اى مسلمانان كه من خودرا نمى دانم — نه ترسانه يهودم من نه گبرم نه مسلمانم
نه شرقيم نه غربيم نه بريم نه بحريم — نه از كان طبيعيم نه از افلاك گردانم
نه از خاكم نه از آبم نه از بادم نه از آتش — نه از عرشم نه از فرشم نه از كونم نه از كانم
نه از هندم نه از چينم نه از بلغار وسقسينم — نه از ملك عراقينم نه از خاك خراسانم
نه از دنيى نه از عقبى نه از جنت نه از دوزخ — نه از آدم نه ازحوا نه از فردوس ورضوانم
مكانم لا مكان باشد نشانم بى نشان باشد — نه تن باشد نه جان باشد كه من از جان جانانم

وفيما يلى ترجمة الغزلية الثانية: (١)

— أيها العشاق ... هذا هو وقت الرحيل عن هذا العالم
وهاهى طبول الرحيل تدق فى السماء وتصل إلى مسامع روحى ....!!

— فتنبه ... فقد نهض الجمال ، وهيأ القافلة وشد الرحال
وطلب منا كل ماهو حلال ، فلما ذا تظل فى غفلة .. أيها المسافر ..؟!

— وهذه الأصوات التى تحيط بك من خلف ومن قدام إنما هى أصوات الرحيل
وفى كل لحظة من اللحظات... تسرى نفس ويسرى نفس إلى لامكان ..!!

— ومن هـذه الشموع المقلوبة (أى النجوم) ومن هـذه الحجب الزرقاء (أى السماء)
خرجت المخلوقات العجيبة ، حتى تجعل ما فى الغيب عيانا ..!!

— وقد أصابك نوم ثقيل فى هذه العجلة الدائره (الأفلاك)
فيا لوعتاه على هذا العمر الخفيف .. ويا حذرا من هذا النوم الثقيل ... !!

— وياقلبى .. عليك بالحبيب ، ويا أيها الحبيب ... سر إلى لقاء الحبيب
ويا أيها الرقيب .. تيقظ .. فلا يجوز لصاحب النوبة أن يغفل ..!!

---

(١) المترجم : فيما يلى أصلها بالفارسية :

اى عاشقان اى عاشقان هنگام كوچست از جهان
در گوش جانم ميرسد طبل رحيل از آسمان
نك ساربان بر خاسته قطارها آراسته
ازما حلالى خواسته چه خفته ايد اى كاروان
اين بانگها از پيش وپس بانگ رحيلست وجرس
هر لحظهٔ نفس ونفس سر ميكند در لا مكان
زين شمعهاى سر نگون زين پردهاى نيلگون
خلقى عجب آمد برون تاغيبها گردد عيان
زين چرخ دولابى ترا آمد گران خوابى ترا
فرياد ازين عمر سبك زنهار ازين خواب گران
اى دل سوى دلدار شو اى يار سوى يار شو
اى پاسبان بيدار شو خفته نشايد پاسبان

وإنى لأعترف بأنى لا أذكر من الترجمات الانجليزية المنظومة لأشعار شرقية إلا أمثلة قليلة تبلغ فى جمالها وعذوبتها مبلغ هذه الترجمات التى نظمها «نيكلسون» ، ومن أسف أن أمورا كثيرة تمنعه عن مواصلة مجهوده فى هذا السبيل ، منها صعوبات الطبع وتصحيح الأصول ، وحضور المجتمعات ، وإعادة المعلومات البديهية على مسامع جمهور نهم يتوق إلى الاستزادة من المعلومات التى تتضمنها عادة بطون الموسوعات ودوائر المعارف ؛ فمثل هذه الأمور جميعها تعوقه — كما تعوق كثيرا من أمثاله — عن المثابرة فى سلوك الطرق التى مهدت لهم والسبل التى طمعوا دائما فى سلوكها والوصول إلى غايتها

٣ — سعدى

نصل الآن إلى « سعدى الشيرازى » وهو ثالث الشعراء الثلاثة الكبار الذين نشأوا فى هذه الفترة ، وقد ذكرنا أنه يعتبر — وفقا لمقطوعة سبق لنا إيرادها — واحدا من «أنبياء الشعر» الثلاثة ، الذين يتم ثالوثهم بالشاعرين الآخرين « الفردوسى » و «الأنورى» . ومن الحق أن نقرر أيضا أن الشهرة الواسعة والصيت الكبير اللذين فاز بهما «سعدى» لم يفز بهما أديب فارسى آخر حتى اليوم ، سواء أكان ذلك فى موطنه بالذات أم فى أى مكان آخر يعنى باللغة الفارسية. وما زال كتاباه « گلستان » و « بوستان » يعتبران فاتحة الدراسات الأدبية التى تقدم لطالب الفارسية. كما أن غزلياته لا يعلوها من حيث مكانتها الأدبية إلا غزليات مواطنه المعروف «حافظ الشيرازى »

و «سعدى» شاعر من طراز آخر(١)، يختلف تماما عن أخويه اللذين ترجمنا لهما فى هذا الفصل؛ وهو يمثل بوجه عام الشخصية الفارسية المتزنة التى تعنى بالدين والدنيا فى وقت واحد ، بينما يمثل زميلاه الآخران الشخصية التى خلص تدينها وتصوفها تمام الخلوص . وكان التصوف فى هذا الوقت قد راج رواجا كبيرا فى إيران ، وأصبحت تعابير الصوفية ومصطلحاتهم — كما هو الحال حتى الآن — جزءا من الحديث العادى بين كافة الناس ، فبقيت آثار منها ظاهرة وكثيرة فى كتابات «السعدى» ، ومع ذلك

---

(١) المترجم : كتب عن «سعدى» بالعربية كتابان :

ا — رسالة بعنوان «السعدى الشيرازى» مطبوعة على الآلة الكاتبة ومحفوظة بدار الكتب تحت رقم ٧٣٨٠ وهى من تأليف الأستاذ «ظهير الدين أحمد» من خريجى دار العلوم وجامعة حيدر أباد وتاريخها ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦ م .

ب — كتاب بعنوان «سعدى الشيرازى» نشره الدكتور «محمد موسى هنداوى» المدرس بكلية دار العلوم فى سنة ١٩٥١ م .

فإننا لا نتردد مطلقا فى أن نقرر أن طابعه الخاص كان ينحو نحو الحكمة الدنيوية دون التصوفية أو الدينية ، ويعتبر كتابه « گلستان » على الخصوص ، من أهم الكتب « الميكيافيلية » التى كتبت بالفارسية ، ولربما يوجد به كثير من الآراء والعواطف الدينية ولكنها فى الواقع آراء عملية تبعد عن الناحية المثالية التى يتصف بها غيره من كتاب الصوفية الخالصين

حياة السعدى :

ويبدو من مراجعة أقدم النسخ الخطية (١) الموجودة فى أيدينا من مؤلفات « السعدى » أن اسمه الكامل هو « مشرف الدين بن مصلح الدين عبد الله » ولم يكن اسمه «مصلح الدين» كما هو معروف عادة ،والمشهور عنه أنه ولد فى مدينة شيراز حوالى سنة ٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م ، وأنه مات وقد جاوز المائة من عمره فى سنة ٦٩١هـ=١٢٩١م ، وأنه فقد أباه فى سن مبكرة كما تدل على ذلك الأبيات الآتية(٢) من الـ « بوستان » :

---

(١) النسخة الخطية الرقيمة ٨٧٦ بإدارة الهند بلندن وهى مكتوبة فى سنة ٧٢٩ هـ = ١٣٢٨ م أى بعد موت سعدى بسبع وثلاثين سنة فقط .

(٢) المترجم : فيما يلى نص الأبيات بالفارسية .

پدر مرده را سايه بر سر فكن	غبارش بيفشان وخارش بكن
ندانى چه بودش فرومانده سخت	بود تازه بى بيخ هرگز درخت
چو بينى يتيمى سر افكنده پيش	مده بوسه بر روى فرزند خويش
يتيم ار بگريد كه نازش خرد	وگر خشم گيرد كه بازش برد
الا تا نگريد كه عرش عظيم	بلرزد همى چون بگريد يتيم
برحمت بكن آبش از ديده پاك	بشفقت بيفشانش از چهره خاك
اگر سايهٔ خود برفت از سرش	تو در سايهٔ خويشتن پرورش
من آنگه سر تاجور داشتم	كه سر در كنار پدر داشتم
اگر بر وجودم نشستى مگس	پريشان شدى خاطر چند كس
كنون دشمنان گر برندم اسير	نباشد كس از دوستانم نصير
مرا باشد از درد طفلان خبر	كه در طفلى از سر برفتم پدر

— انشر ظل حنانك على اليتيم الذى قضى الموت على أبيه
وانفض الغبار عنه ، واقتلع الشوك الذى يؤذيه ... !!
— وهل تراك تعلم إلى أى حد هو عاجز مقهور ... !!
وهل تبقى الشجرة نضيرة إذا اجتثت منها الجذور ...؟!
— وإذا رأيت يتيما قدخفض رأسه فى ذلة وانكسار
فحذار أن تقبل أمامه واحدا من أولادك الصغار ...!!
— وهل لليتيم أحد يرعاه إذا بكى أو انتحب ...!!
وهل لليتيم أحد يسترضيه إذا حنق أو غضب .. !!
— فلا تدع اليتيم يبك ، فإن العرش العلى العظيم
تهتز جنباته ، إذا استمع إلى بكاء اليتيم ... !!
— وامسح دموعه من مآقيه فى حنو وشفقة
وانفض الغبار عن وجهه فى عطف ورقة . .!!
— وإذا انحسر عنه الظل وانكشف جسده للهجير
فخذه وربه فى ظلك الوارف الغزير ...!!
— فلقد كانت رأسى يعلوها تاج ذهبى
عندما كنت أعيش هانئا فى كنف أبى ...!!
— وكانت إذا حطت ذبابة واحدة على جسدى
اضطربت أذهان جملة من الناس خوفا من غضبى ..!!
— أما الآن فإذا استطاع أن يأسرنى الأعداء
فلن يكون لى نصير واحد من بين الأصحاب والأصدقاء ...!!
— ومن أجل ذلك فإنى خبير بآلام الأطفال
لأن أبى تركنى فى طفولتى يتيما ضعيف الحال ...!!

وللدكتور « إتيه » مقالة بعنوان « الأدب الفارسى » منشورة فى المجلد الثانى من كتاب « المفصل فى الدراسات اللغوية الإيرانية » .

وهى تتضمن أو فى بحث كتب عن «السعدى » فيما أعرف . وقد ذكر « إتيه » فى هذا البحث أن السعدى عند موت أبيه انتقل إلى رعاية حاكم فارس المعروف باسم

الأتابك « سعد بن زنگى » الذى تولى العرش سنة ٥٩٢ هـ = ١١٩٥ م . وقد اختار الشاعر تخلصه الذى عرف به وهو «السعدى» من إسم هذا الحاكم وتكريما له. وإلى هذا الحاكم يرجع الفضل فى إرساله إلى المدرسة النظامية فى بغداد لمتابعة دروسه واستيفاء تحصيله . وبهذه الحادثة تبدأ أولى الفترات الثلاث التى قسم إليها الدكتور « إتيه » حياة « السعدى » وأعنى بها :

(ا) فترة التحصيل : وقد استمرت إلى سنة ٦٢٤ هـ = ١٢٢٦ م وقد أمضى الشاعر أكثرها فى بغداد . ومع ذلك يبدو من إحدى الحكايات الواردة فى الباب الخامس من الـ « گلستان » أن الشاعر استطاع خلال هذه الفترة أن يقوم برحلته الطويلة إلى مدينة « كاشغر » فهو يقول إنه « دخل هذه المدينة فى نفس السنة التى اختار فيها السلطان محمد خوارزمشاه لأمور سياسية أن يعقد الصلح مع الخطائيين» ومن المعروف لنا أن هذه الحادثة وقعت فى سنة ٦٠٧ هـ = ١٢١٠ م . والظاهر أيضا كما يبدو من هذه الحكاية أن شهرته حتى فى هذه الفترة المبكرة كانت قد شاعت وذاعت بحيث سبقته إلى هذا الثغر القاصى من الثغور الإسلامية الواقع فى الناحية الشمالية الشرقية من بلاد الإسلام . وهذه المسألة لا تدل فقط على نجاحه وفوزه وذيوع إسمه وهو ما زال فى السادسة والعشرين من عمره، ولكنها تدل أيضا على شىء آخر حاولت مرارا أن أؤكده فى كتاباتى وهو مقدار السرعة التى كانت تنتشر بواسطتها الأنباء والأخبار فى ديار المسلمين فى هذا الوقت البعيد .

وقد وقع « السعدى » أثناء إقامته فى بغداد تحت تأثير الشيخ الصوفى المشهور « شهاب الدين السهروردى » المتوفى سنة ٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م وقد تحدث « السعدى » عن صلاح هذا الشيخ وتقواه وعن حبه الخالص لأفراد البشر فى إحدى الحكايات المروية فى الـ « بوستان » . وتدل حكاية أخرى مروية فى الباب الثانى من الـ « گلستان » على أن « شمس الدين أبا الفرج بن الجوزى » كان أيضا من بين الرجال الذين استطاعوا بفضلهم وعلمهم أن يفيدوا السعدى أثناء هذه الفترة من الشباب .

(ب) فترة الترحال : أما الفترة الثانية من حياة « السعدى » فهى فترة الأسفار

الواسعة التى قام بها . وقد بدأت كما يقول الدكتور « إتيه » فى سنة ٦٢٤ هـ = ١٢٢٦ م حينما اضطرته الظروف المضطربة فى إقليم فارس إلى الهجرة عن «شيراز» وكان قد عاد إليها من بغداد . فاستمر قرابة ثلاثين عاما أى إلى سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م يتجول فى الأنحاء المختلفة من ديار الإسلام ، ما بين الهند شرقا إلى الشام والحجاز غربا . وقد أشار فى مقدمة الـ « كلستان » إلى أسباب مغادرته مدينة شيراز فى الأبيات الآتية (١) :

— الا تدرى لماذا أمضيت فى أقاليم الغربة أزمانا طويلة . . . ! !

— لقد فررت من مضايقة الأتراك عندما رأيت العالم قد اختلطت أحواله كشعر الزنوج . . . ! !

— وكانوا جميعا من أبناء آدم ، ولكنهم كانوا من حيث التعطش إلى سفك الدماء ذئابا حادة المخالب . . . ! !

— فلما عدت . . . وجدت الديار هادئة وقد تخلصت النمور من طباعها الشرسة . . !

— ووجدت فى الداخل أناسا طيبين كالملائكة ، وفى الخارج جنودا أبطالا كالأسود المفترسة . . ! !

— وقد كانت الدنيا فى عهدها الأول الذى شاهدته مليئة بالفتن والاضطرابات والمضايقات . . . ! !

— ولكنها أصبحت آمنة ساكنة فى أيام السلطان العادل الأتابك « أبى بكر سعد بن زنكى » . . . . ! !

---

(١) المترجم : فيما يلى أصل هذه الأبيات بالفارسية :

ندانى كه من در أقاليم غربت — چرا روز گارى بكردم درنگى
برون رفتم از تنگ تركان كه ديدم — جهان در هم افتاده چون موى زنگى
همه آدمى زاده بودند ليكن — چو گرگان بخون خوارگى تيز چنگى
چون باز آمدم كشور آسوده ديدم — پلنگان رها كرده خوى پلنگى
درون مردمى چون ملك نيك محضر — برون لشكرى چون هزبران جنگى
چنان بود در عهد اول كه ديدم — جهان پر ز آشوب وتشويش وتنگى
چنين شد در ايام سلطان عادل — اتابك ابو بكر سعد بن زنگى

(ج) الفترة الثالثة : فترة الاستقرار والتأليف : وقد كانت عودة السعدى إلى «شيراز» وهى العودة التى أشار إليها فى آخر الأبيات السابقة، فى سنة ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م وتعتبر هذه السنة بداية الفترة الثالثة والأخيرة من حياته، وهى الفترة التى استوعبت بوجه خاص نشاطه الأدبى برمته . فبعد سنة واحدة من عودته أى فى سنة ٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م استطاع أن ينشر منظومته المثنوية «بوستان» فلما انقضت سنة أخرى بعد ذلك نشر الـ «گلستان» فى صورة مجموعة من الحكايات ، استقاها من ملاحظاته المختزنة وتجاربه المكتنزة ، وأفاض عليها مثلا أخلاقية وحكما عملية؛ وقد سطرها جميعاً فى أسلوب منثور يختلط به كثير من الأبيات المنظومة. والـ «بوستان» والـ «گلستان» كتابان مشهوران تماما . وقد ترجما إلى سائر اللغات بحيث لا أجد ضرورة تضطرنى إلى الإفاضة فى الحديث عنهما فى هذا المقام (١) .

أسفار السعدى :

أشرنا فيما سبق إلى أن أسفار «السعدى» كانت واسعة وأنه استطاع خلالها زيارة «بلخ» و «غزنة» و «البنجاب» و «سومنات» و «كجرات» و «اليمن» و «الحجاز» وأجزاء أخرى من «بلاد العرب» و «الحبشة» و «سوريا» وعلى الخصوص مدينتى «دمشق» و «بعلبك» و «شمال أفريقيا» و «آسيا الصغرى» وقد قام بهذه الرحلات فى زى الدراويش، وسلك جميع الطرق والسبل، واختلط بكافة الناس على سائر أنواعهم . ومن خلال كتاباته وخاصة الـ «گلستان» نرى «السعدى» أحيانا وقد سار متعثرا فى أثر قافلة الحجاج مخترقا صحراوات بلاد العرب القائظة ؛ وأحيانا نراه يتندر مع صبيان «كاشغر» بفكاهات نحوية لها طابعها الفنى الدقيق ؛ وأحيانا أخرى يقع أسيرا فى أيدى الفرنج ويحكم عليه بالأشغال الشاقة مع جماعة من اليهود فى مدينة «طرابلس» ، وأحيانا أخرى نجده مشغولا بالكشف عن سر صنم هندى عجيب فى معبد «سومنات» ، فإذا اكتشفه حارس هذا الصنم وهو مستغرق فى الفحص والتدقيق لا يجد السعدى بداً من قتل هذا الحارس حتى

---

(١) تحدث «إتيه» عنهما باستفاضة فى مقاله المذكور آنفا أنظر ص ٢٩٥ — ٢٩٦

يستطيع النجاة بنفسه . وهو يروى هذه القصة الأخيرة بكل صراحة واطمئنان على هذا النحو (١) :

— فاغلقت باب الدير بإحكام ... فى ليلة من الليالى . . . ! !
وجريت كالعقرب عن يمينى وشمالى . . . !!
— ونظرت تحت المائدة وفوقها ... بتفرس وإمعان . . . ! !
فرأيت ستارة موشاة بالذهب فى هذا المكان . . . ! !
— وقد جلس وراءها كاهن من عبدة النيران (٢) . . . ! !
يشد إلى يديه حبلا يمسكه فى أتزان . . . ! ! .
— فانكشف الأمر أمامى فوراً ... وانجلى الحال للعيان ... !!
وتيسر الأمر ، كما تيسر للحديد أن يصبح شمعا رخوا فى يد داود بن سليمان ...!!

---

(١) المترجم : روى السعدى هذه القصة فى نهاية الباب الثانى من كتابه « بوستان » وفيما يلى نص الأبيات الفارسية :

در دير محكم به بستم شبى — دويدم چب وراست چون عقربى
نگه كردم از زير تخت وزبر — يكى پرده ديدم مكلل بزر
پس پرده مطرانى آذر پرست — مجاور سر ريسمانى بدست
بفورم دران حال معلوم شد — چو داود كآهن برو موم شد
كه ناچار چون در كشد ريسمان — بر آرد صنم دست فرياد خوان
برهمن شد از روى من شرمسار — كه شنعت بود بخيه بر روى كار
بتازيد ومن در پيش تاختم — نگونش بچاهى در انداختم
كه دانستم ار زنده آن برهمن — بماند كند سعى در خون من
پسندد كه از من بر آرد دمار — مبادا كه سرش كنم آشكار
چو از كار مفسد خبر يافتى — ز دستش بر آور چو در يافتى
كه گر زنده اش مانى آن بى هنر — نخواهد ترا زندگانى دگر
وگر سر بخدمت نهد بر درت — اگر دست يابد ببرد سرت
فريبنده را پاى بر پا منه — چو رفتى وديدى أمانش مده
تمامش بكشتم بسنگ آن خبيث — كه از مرده ديگر نيايد حديث

(٢) من المدهش أن المسلمين حتى المتعلمين منهم لا يعلمون إلا القليل عن الأديان الأخرى غير الاسلام وهكذا نجد « السعدى » رغم قراءاته الواسعة وأسفاره الكثيرة يعجز عن أن يحدثنا عن معبد الصنم الهندى دون أن يختلط عليه الأمر فيشير إلى أمور متعلقة بالديانة الزردشتية أو الديانة المسيحية .

ـــ فعلمت أنه عندما يشد هذا الكاهن هذه الحبال . . . ! !
يرفع الصنم يديه فى ضراعة وابتهال . . . ! !
ـــ وخجل « البرهمى » منى وأحس لرؤيتى بالعار . . . ! !
وتأكد من شناعة الحال إذا انفضحت الأسرار . . ! !
ـــ فجرى هاربا ... وجريت فى عقبه دون تريث أو إبطاء
حتى استطعت أن أقلبه فى بئر مليئة بالماء ...!!
ـــ فلقد أيقنت أنه إذا بقى على قيد الحياة
فلن يتردد فى أن يهرق دمى فى غير أناة ... !! ٥
ـــ وأنه سيسر كثيرا إذا استطاع أن يوردنى موارد الدمار
خشية أن أهتك الأستار وأفضح الأسرار ... !!
ـــ فإذا قيض لك أن تطلع على حال مفسد من المفسدين
فلا تتردد فى القضاء عليه ... إذا كنت من القادرين ...!!
ـــ فانك إن أبقيته سالما على قيد الحياة
فلن يتردد هذا الخبيث عن إهلاكك بأى أداة ... !!
ـــ ولو فرض ووضع جبينه على بابك خضوعا فى خدمتك
لما تردد إذا تهيأت له الفرصة ... أن يقطع رأسك ورقبتك
ـــ فلا تتابع كل مختال خداع أثيم
وإذا تابعته فلا تعطه الأمان ... فهو لئيم ... !!
ـــ ومن أجل ذلك قضيت عليه تماما حتى مات هذا الخبيث
والميت كما يقولون : لايستطيع ترديد الحديث ...!!

سعدى وتعاليم الأخلاق :

عندما يوصف « السعدى » كما هو العادة بأنه شاعر « أخلاقى » يجب ألا يغيب عن بالنا أن هذا الوصف صحيح إلى حد ما ، ولكن مثله ومبادئه الأخلاقية تختلف بعض الشىء عن قواعد الأخلاق المقررة فى البلاد الغربية من أوروبا ؛ فمضمون أولى حكايات الـ « گلستان » يتلخص فى « أن الكذب المقترن بالمصلحة خير من الصدق المثير للفتنة » وكذلك الحكاية الرابعة تمثل لنا « أن خير أنواع التهذيب لا يستطيع أن

يصلح الطباع المعوجة والميول المتوارثة الآثمة» ، فإذا وصلنا إلى الحكاية الثامنة وجدناه ينصح الأمراء بأن يهلكوا بغير رحمة جميع الذين يخشونهم (أى يخشون الأمراء) لأن « القطة إذا عجزت فإنها تلتقط بمخالبها عيون النمر » ، وأما الحكاية التاسعة فتؤكد الحقيقة المريرة التى تجعل ورثة المرء هم أعدى أعدائه ، والحكاية الرابعةعشرة يسوقها دفاعا عن جندى هرب من ميدان القتال لأن أجره لم يدفع إليه ، وأما الحكاية الخامسة عشرة ففارسية لحما ودما وخلاصتها : « إن وزيرا عزل من الوزارة فلحق بحلقة من حلقات الدراويش ثم عاد الملك فرضى عنه وأراد أن يرجعه إلى منصبه ولكن الوزير لم يقبل هذا التشريف ؟ فقال الملك : ولكنى أريد رجلا عاقلا قادرا يستطيع تدبير أمور الملك ، فأجابه الوزير المعزول : إن علامة القدرة والعقل لا تثبت لإنسان إلا إذا رفض مثل هذا العمل الذى تعرضه علىّ .. !!

والحكاية التالية بعد ذلك توضح هذا الرأى أكثر من ذلك فتقرر « إن الحكماء يقولون : إن الإنسان يجب أن يكون على حذر من تلون الملوك وتقلب طباعهم فهم أحيانا يؤذون من يقابلهم بالسلام والاحترام، وأحيانا أخرى يثيبون من يوجه إليهم بذىء الكلام ... !!» .

ولكى أوجز الحديث فى هذا الموضوع أكتفى بأن أسوق إلى القارىء الحكاية التالية المذكورة فى الباب الأول من الـ « كلستان» فهى عاطلة من كل مبادىء الأخلاق والمعنويات(١) :

«حكوا عن وزير شرير أنه ضرب رجلا صالحا على رأسه بحجر ، ولم يستطع هذا الدرويش المسكين أن ينتقم منه فاكتفى بأخذ الحجر والاحتفاظ به حتى إذا غضب الملك على هذا الوزير الشرير ، وأمر بحبسه فى الجب ، أسرع الدرويش وقذفه بنفس هذا الحجر . فقال المحبوس : من أنت يامن قذفتنى بالحجر ولماذا قذفتنى به..؟ فأجاب الدرويش: أنا فلان، وهذا هو الحجر الذى قذفتنى به فى التاريخ الفلانى..! فقال المحبوس : وأين كنت طوال هذه المدة الماضية ..؟ قال : كنت مختفيا خشية

---

(١) أنظر الحكاية الثانية والعشرين .

جاهك ونفوذك ... حتى إذا رأيتك الآن فى قاع الجب انتهزت الفرصة ، وانتقمت لنفسى ، متابعاً قول من قال :

— إذا وافى الحظ سفيهاً من السفهاء ...
فإن العقلاء يسلمون له . . . حتى ينكشف البلاء ... !!
— فإذا لم تكن أظافرك حادة قاطعة ...
فحذار أن تدخل مع الأشرار فى واقعة....!!
— فإن من يصارع أصحاب السواعد الفولاذية . . .
لا يؤذى إلا سواعده البضة الفضية ...!!
— فانتظر حتى يشل الزمان يديه
واشف رغبة أحبابك ... فاقتلع مخه وأقض عليه. . . !!

وفى الحق إن جمال كتابات «السعدى» وفوزه بالشهرة العريضة التى نالها، لا يرجعان إلى ما امتاز به من مثالية كاملة بل إلى ما اتصف به من مرونة شاملة . ففى كتاباته أمور ترضى سائر الأذواق : الرفيع والوضيع ، والمهذب والخليع، والموقر والرقيع . وكتاباته بهذا الوضع عبارة عن أنموذج مصغر من نماذج الشرق، تتمثل فيه خير المناظر وأطيبها ، وكذلك شر الصور وأقبحها ، ومن أجل ذلك لم يكن من مجرد المصادفة التى لا سبب لها أن تستمر كتبه طوال القرون الستة والنصف الماضية هى أوائل الكتب التى تعطى لدارس الفارسية حيثما اتفقت له هذه الدراسة .

مؤلفات السعدى :

قصرت حديثى حتى الآن على أهم مؤلفات «السعدى» وأكثرها شهرة وأعنى بذلك كتابيه «گلستان» و «بوستان» ولكن للسعدى بالإضافة إلى ذلك «كليات» أى آثار مجموعة تشتمل على ما يأتى :

(ا) قصائد عربية . (ب) قصائد فارسية .
(ج) ملمعات أى أشعار بعضها فارسى وبعضها عربى .
(د) مراثى (ه) ترجيعات

(و) غزليات : مقسمة إلى أربعة أقسام تشمل « الغزليات القديمة » و « الطيبات » و « البدائع » و « الخواتيم » .

(ز) رباعيات ومقطوعات وأبيات مفردة .

(ح) هزليات أو قصائد عابثة .

(ط) رسائل منثورة تشتمل فيما تشتمل على ثلاث مقالات خليعة بشكل لا يتصور تسمى بالخبيثات .

(ى) رسالات موجهة إلى « صاحب الديوان » ويقصد به أول رؤساء الوزراء الذين وزروا لـ « هولاكو خان » المغولي . ثم خليفته « شمس الدين محمد الجويني »

(ك) مضحكات : وهي حكايات بعضها مضحك ولكنه غير ممتع .

(ل) پند نامه : أي كتاب النصائح، وقد وضعه على نمط كتابات «العطار» وغيره من الكتاب .

سعدى اللغوى :

وواضح وجلي أن هناك استحالة تحول دوننا وتفصيل الحديث – أو حتى إعطاء الأمثلة – عن كل ناحية من هذه النواحي التي يتمثل فيها نشاط السعدى وإنتاجه . بل إن آثاره التي ذكرناها في البيان السابق لم تشمل مؤلفاته على سبيل الحصر ، لأن « سعدى » قد اشتهر بالإضافة إلى ذلك بأنه أول من أنشد الشعر باللغة «الهندوستانية» أو «الأردية» التي تعلم أصولها فيما يظهر أثناء أسفاره في بلاد الهند. وقد رأيت أمثلة من هذه الأشعار في مخطوط تمتلكه « الجمعية الملكية الآسيوية » ، ولكني لا أستطيع أن أبدي رأيا فيما يتعلق بصحة نسبة هذه الأشعار إليه وعدم تزييفها .

وقد أنشأ « سعدى » أيضاً بعض « الفهلويات » أي القصائد المنظومة في إحدى اللهجات الفارسية ، وقد نشرت أمثلة منها في مجلة «الجمعية الملكية الآسيوية» في شهر أكتوبر سنة ١٨٩٥م في مقالة جعلتها بعنوان : « ملاحظات على الأشعار المنظومة

فى لهجات فارسية »(١) ؛ ومن بين هذه الأشعار قصيدة فاتنى ذكرها فى هذا المقال ولا أستطيع الحصول عليها الآن ، ولكنها تشتمل على أشعار قد نظمت فى جملة من اللغات واللهجات المختلفة . ولا معدى لنا من أن يظل الشك يساورنا فيما يتعلق بمعرفة الشاعر لكل هذه اللغات واللهجات ، حتى نستطيع الحصول على نسخة من مؤلفاته تكون أكثر اعتماداً وصحة ، وحتى نتمكن من معرفة اللهجات الفارسية التى كانت سائدة فى القرون الوسطى معرفة تامة كاملة . ومن الجائز جدا أن تكون هذه الأشعار محاولات مصطنعة ومنتحلة قام بها غيره دون أن يعرف السعدى عنها شيئاً على الإطلاق ؛ وحاله فى ذلك حال من يكتبون الكتب عن « إيرلنده » وينسبونها إلى أناس لا يعرفون عنها شيئاً بالمرة ، ولكى يظهروها بمظهر الكتب الصحيحة المعتمدة ، يضطرون إلى التماس بعض الوسائل لستر عملهم ، كأن يكتبوا الكلمات الإنجليزية بإملاء سقيم مضطرب أو أن ينثروا بين الصفحات ألفاظاً إيرلندية مهوشة أو غير مفهومة(٢).

قصائد سعدى :

السائد فى « إيران » و « الهند » أن القصائد العربية التى أنشأها « سعدى » جميلة جداً ، ولكن أدباء العربية مع ذلك يعتبرونها متوسطة أو دون المتوسطة .

أما قصائده الفارسية ـ فعلى عكس ذلك ـ تعتبر الغاية فى الفن والجمال ، وخاصة قصيدته التى مطلعها (٣) :

ـ حذار أن تسلم نفسك لصديق من الأصدقاء ... أو للدار والديار .
فالناس كثيرون ... والأراضى متسعة ... وكذلك البحار ...!!

---

(١) عنوان المقالة بالإنجليزية : otes on the Poetry of the Persian Dialects. pp 792-802

(٢) المترجم : يسوق المؤلف أمثلة لهذه الألفاظ هى :
"musha","acushla machree", « mavourneen »

(٣) المترجم: فيما يلى مطلع هذه القصيدة بالفارسية:
بهيچ يار مده خاطر وبهيچ ديار ... كه بر وبحر فراخست وآدمى بسيار

وهناك أيضاً قصيدة أخرى مشهورة من قصائده وهى التى رثى بها تخريب بغداد على أيدى المغول وقتل الخليفة «المستعصم » فى سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨م وقد ذكرنا طرفا منها فى الصفحات السابقة(١).

غزليات سعدى :

وقد ذكرت أيضاً أن الـ «سعدى» لا يقلّ من حيث غزلياته عن أى شاعر فارسى آخر ولو كان هذا الشاعر « حافظاً الشيرازى» . وعدد غزلياته كبير جداً وهى موزعة بين الكتب الأربعة التى عناوينها : «الطيبات» و «البدايع» و «الخواتيم» و «القصائد القديمة» وكل هذه تقع فى ١٥٣ صحيفة من صفحات نسخة «الكليات» المطبوعة على الحجر فى مدينة بمباى فى سنة ١٣٠١ هـ = ١٨٨٣ — ١٨٨٤ م . وسأكتفى فى هذا المقام بترجمة اثنتين من هذه الغزليات تصلحان مثلا لسائر غزلياته .

أما الغزلية الأولى فترجمتها كما يلى(٢) :

— ما أحب هذه التأوهات التى تحرق القلوب بنارها الضرام . . .

فإننى أستطيع بواسطتها . . مهما اشتدت . . أن أقضى الليالى والأيام . . !!

---

(١) المترجم : انظر ص (٤١) من هذا الكتاب .

(٢) المترجم : فيما يلى أصل هذه الغزلية بالفارسية [أنظر : كليات سعدى طبع بمباى سنة ١٣٠١ هـ ص ٢٤٦].

دوست ميدارم من اين ناليدن دلسوزرا ... تا بهر نوعى كه باشد بگذرانم روزرا
شب همه شب انتظار صبح روئى ميرود ... كان صباحت نيست اين صبح جهان افروزرا
وه كه گر من باز بينم چهر مهر افزاى او ... تا قيامت شكر گويم طالع پيروزرا
گر من از سنگ ملامت روبگردانم زنم ... جان سپر كردند مردان ناوك دلدوزرا
كامجويانرا ز نا كامى كشيدن چاره نيست ... بر زمستان صبر بايد طالب نوروزرا
عاقلان خوشه چين از سر ليلى غافلند ... كين كرامت نيست جز مجنون خرمن سوزرا
عاشقان دين ودنيا باز را خاصيتى است ... كان نباشد زاهدان مال وجاه اندوزرا
ديگرى را در كمند آور كه ما خود بنده ايم ... ريسمان در پاى حاجت نيست دست اموزرا
سعديا دى رفت وفردا همچنان موجود نيست ... در ميان اين وآن فرصت شمار امروزرا

— ولقد ينقضى الليل .. وأنا أتلهف طواله إلى رؤية وجه حبيبى الصبوح..
فإن صباحته تضفى على صباحى كثيراً من النور والوضوح ... !!

— ولو أننى رأيت ثانية وجهه الذى يزيد ما بى من حب وحنين ...
لظللت أشكر عن حظى وطالعى إلى يوم الدين ... ! !

— وهل أستطيع أن ألوى وجهى خجلا من لوم اللائمين ...
وشجعان الرجال يتقون بأرواحهم قدح القادحين ... !!

— وليس على طالب الظفر إلا أن يتحمل التعب والعناء ...
كما أن طالب الربيع ، عليه أن يصبر على زمهرير الشتاء ... !!

— وهاهم العقلاء من أصحاب الحرص فى غفلة عن هوى «ليلى» الدفين ...
ولم يظفر بهذه الكرامة إلا «المجنون» الذى أتلف المهجة وحصاد السنين !

— وإذا كانت هناك ميزة يتميز بها عاشقو الدنيا والدين ...
فإن هذه الميزة تنتفى عمن يحرص على جمع المال والجاه من الزاهدين ..!!

— فإذا أوقعت فى شراكك أحداً .. فأوقع غيرى .. فإننى لك عبد مطيع لأوامرك
ولا حاجة بك إلى وضع القيود والحبال فى أقدام من هو طوع إشارتك !!

— وياسعدى .. لقد مضى الأمس ، وما زال الغد محجوباً فى ستار الغيب ..
فاغتنم الفرصة بين هذا وذاك ، وتمتع بيومك الحاضر حتى يشتفى القلب..!!

والغزلية الثانية معروفة جداً لدى أهل « شيراز » لأنها تتضمن مدحا رقيقاً تستحقه مدينتهم الجميلة ، وترجمتها كما يلى[1]:

---

(١) المترجم : فيما يلى أصل هذه الغزلية بالفارسية : [كليات سعدى ص ٢٨٩]

رها نميكنند ايام در كنار منش	كه داد خود بستانم ببوسه از دهنش
همان كمند بگيرم كه صيد خاطر خلق	بدان همى كند ودر كشم بخويشتنش
وليك دست نيارم زدن بدان سر زلف	كه مبلغى دل خلقست زير هر شكنش
غلام قامت آن لعبتم كه بر قد او	بريده اند لطافت چو جامه بر بدنش
ز رنگ وبوى تو اى سرو قد سيم اندام	برفت رونق نسرين وباغ ونسترنش
يكى بحكم نظر پاى در گلستان نه	كه پايمال كنى ارغوان وياسمنش

— إن الأيام لاتسمح للحبيب أن يكون فى أحضانى ...
حتى أشفى النفس بتقبيل ثغره ... وأحقق الأمانى ... ! !
— فلأسرق هذه الشراك التى يصيد بها ألباب الأنام...
حتى أستطيع أن أصيده ، وأضمه إلىّ ... فى يوم من الأيام ... ! !
— ولكن من أسف .. أننى لن أستطيع أن أمسك بيدى أطراف طرته
لأن كل ثنية منها قد اشتملت على القلوب التى وقعت فى محبته ... ! !
— وإننى لعبد لقامته المديدة التى يقاس عليها اللطف والجمال ...
كما يقاس الرداء على جسده المتميز بالحسن والدلال ... ! !
— فياشجرة السرو .. ياذات الكيان الفضى .. إنك بما امتزت به من عبير وصفاء ...
قد أوديت بما امتاز به النسرين والنسترن من رونق ورواء ... !!
— فتقدمى خطوة .. للتفرج على ما فى هذه الروضة من رياحين ...
ولا حرج عليك .. إذا وطئت أقدامك زهور الأرغوان والياسمين ... !!
— وما أبهج مشاهدة النيروز ... خاصة فى مدينة شيراز
فإنها تنسى الغريب موطنه ... بفعل جمالها المتاز ... !!
— ولقد أصبح الورد بجماله (الذى يبلغ جمال يوسف) عزيزاً على خميلة مصر الزاهرة؛ وجلبت نسائم الصبا إلى هذه المدينة روائحه المعطرة ... !!
— فلا تعجب ... أيها الحبيب . . إذا استطعت فى وقت الربيع البليل
إن تثير الغيرة حتى يبكى السحاب ويضحك الزهر الجميل ... !!
— ولا تعجب ... إذا استطعت بمثل صفاتك أن تجتاز بميت من الأموات
فينهض الميت من ثراه ... وتتجاوب فى أكفانه الأصوات ... !!

خوشا تفرج نوروز خاصه در شيراز — كه بر كند دل مرد مسافر از وطنش
عزيز مصر چمن شد جمال يوسف گل — صبا بشهر بر آورد بوى پيرهنش
عجب مدار كه از غيرت تو وقت بهار — بگريد ابر وبخندد شكوفه در چمنش
بدين روش كه توئى گر بمرده بر گذرى — عجب نباشد اگر نعره آيد از كفنش
نماند فتنه در ايام شاه جز سعدى — كه بر جمال تو فتنه است وخلق بر سخنش

ـــ وفى أيامك ... أيها المليك ... لم تعد تثور فى هذه البلدة فتن أوثورات غير افتنان «سعدى» بجمالك ، وافتتان الخلق بما يقول من غزليات ...!!

ويندر فى هذه الغزليات أن توجد بها إشارات متعلقة بحياة الشاعر ، ولو أن سعدى قد تحدث فى واحدة منها فقال : إنه فى مأزق بسبب عشقه لأنه يكاد يفقد فى خمسة أيام كل ما جمع من حكمة وحزم فى خمسين سنة متتالية ...!! وكذلك بالغزليات إشارات كثيرة لسيده ومولاه « صاحب الديوان » فقد ورد ذكره فى غزلية كتبها فيما يظهر قبيل خروجه من شيراز قاصداً مدينة بغداد ، فهو يقول فيها :

دلم إز صحبت شيراز بكلى بگرفت وقت آنست كه پرسى خبر از بغدادم

هيچ شك نيست كه فريادمن آنجا برسد عجب ار «صاحب ديوان» نرسد فريادم

سعديا حب وطن گرچه حديثيست صحيح نتوان مرد بسختى كه من اينجا زادم

ومعنى هذه الأبيات :

ـــ لقد انقبض قلبى تماماً من حياه شيراز وما أحسه فيها من بلاء

وآن لك أن تسأل عن أخبارى من بغداد ، إذا التمست الأنباء ...!!

ـــ ولا شبهة عندى فى أنى إذا استغثت هنالك فسيسمع صوت استغاثتى

ولكن يا عجبا ـ اذا امتنع « صاحب الديوان » من إغاثتى ... !!

ـــ ويا سعدى ...!! إن حب الوطن حديث صحيح السند(١)

ولكنى لا أستطيع أن أموت هنا بكربى . . . لا لشىء إلا لأنى ولدت فى هذا البلد

أشعار سعدى الواردة فى الگلستان وديوان حافظ :

وهناك نقطة أخرى جديرة بالملاحظة وهى أن طائفة من أشعار السعدى المروية فى ديوانه تذكر أيضاً فى كتاب الـ «گلستان». ولا غرابة فى ذلك لأن كلا الكتابين من تأليفه ؛ ولكن وجه الغرابة واقع فى أن بعض هذه الأشعار تذكر أحياناً فى ديوان شاعر آخر يعادله شهرة ومكانة ولكنه متأخر عنه من الناحية الزمنية وهو مواطنه « حافظ الشيرازى » . وقد وجدت فى قراءة عابرة ثمانيــة أمثلة من أمثلة

---

(١) المترجم . الحديث الذى يشير إليه هو « حب الوطن من الايمان » .

الأشعار المروية فى الـ « گلستان » كما وجدت ثلاثة أخرى من أمثلة الأبيات المروية فى ديوان «حافظ » ومن الجائز جداً أن تكثر الأمثلة إذا دققنا البحث وصبرنا على الفحص . ولنبدأ بذكر الأمثلة التى تمثل الطائفة الأولى ، فى صفحة ٣٧ من «الطيبات» المطبوعة على الحجر فى بمباى سنة ١٣٠١ هـ نجد البيت الآتى :

نه آنچنان مشغولم بتو أى بهشتى رو　　كه ياد خويشتنم در ضمير مى آيد

ومعناه :

— وأننى مشغول بك أيتها الجميلة الحسناء
بحيث لايواتينى التفكير فى نفسى فى هذه الأثناء ... !!

وقد ورد هذا البيت فى الباب الخامس من كتاب الـ « گلستان »؛ وكذلك ورد فى« البدايع » البيت التالى :

آنرا كه جاى نيست همه شهر جاى اوست　　درويش هر كجا كه شب آمد سراى اوست

ومعناه :

— كل من لا منزل له ، فالمدينة برمتها منزله وداره
والدرويش حيثما يواتيه الليل ... فالمكان قصره وسرايه ...!!

وقد ورد هذا البيت فى الباب الثالث من كتاب الـ «گلستان» مع بعض التعديل فى شطرته الأولى بحيث أصبح على هذا النحو :

شب هر توانگرى بسرائى همى رود　　درويش هر كجا كه شب آمد سراى اوست

ومعناه :

— أثناء الليل ... يذهب كل غنى إلى قصر من القصور
أما الدرويش فحيثما أتاه الليل .. فقصره حيثما اتفق له العبور ... !!

وكذلك نجد فى « البدايع » ص ٩٩ هذه الشطرة التالية :

* بنده چه دعوى كند ؟ حكم خداوند راست *

ومعناها :

وأى دعوى يدعيها العبد ... ؟ والحكم لمولاه ... ؟ !

وهذه الشطرة ترد فى الباب الأول من «الـگلستان» وقد أضيفت إليها شطرة أخرى تكملها فى حكاية « عمرو بن الليث الصفار» وعبده .

أما الأبيات الأخرى التى ترد فى الديوان وكذلك فى الـگلستان فهى الآتية : بيتان فى الغزلية المذكورة فى ص ١٠٠ التى مطلعها :

معلمت همى شوخى ودلبرى آموخت   جفا وناز وعتاب وستمگرى آموخت

ومعناه :

— لقد علمك معلمك الجرأة والقحة وسلب القلب والفؤاد

وعلمك الجفاء والدلال والعتاب والظلم والاستبداد ...!!

والبيت المروى فى ص ١١٥ من « البدائع » ونصه :

عجب از كشته نباشد بدر خيمهٔ دوست

عجب از زنده ، كه چون جان بدر آورد سليم

ومعناه :

— فلا عجب من قتيل... قتل على باب خيمة أحبابه

ولكن العجب من الحى ، كيف استطاع النجاة بروحه ولم يقتل على بابه ...!!

والبيت المروى فى ص ١٤٤ من « الخواتيم » ونصه :

ديدار مى نمائى وپرهيز ميكنى   بازار خويش وآتش ما تيز ميكنى

ومعناه :

— وأنت تظهر طلعتك ، ثم تتمنع وتصد عنا

وكأنك تروج تجارتك ، وتشعل النار المتقدة فى صدورنا

وفى النهاية توجد فى ص ١٤٥ من « الخواتيم » رواية أخرى بها بعض التعديل للأبيات التى وردت فى مقدمة الـ « گلستان » وقد ذكرناها فيما سبق فى الفصل الأول من هذا الكتاب عندما تحدثنا عن « شعر الفرس وبلاغتهم » وذكرنا الصناعة التى تعرف بـ « التضمين » بمعنى أن يضمن الشاعر فى أشعاره شطرة أو بيتا أو أكثر من أشعار غيره من الشعراء . وكان الشاعر لكيلا يتهم بالسرقه يراعى فى تضميناته أحد أمرين : أولهما ألا يضمن من الأشعار إلا ما كان متداولا ومعروفا لدى جميع المتعلمين حتى لا يتهمه واحد منهم بأنه شاء أن ينسبها لنفسه ؛ والآخر ألا يضمن شعرا لشاعر غير معروف إلا إذا ذكر اسمه صراحة فى أشعاره . فإذا وجدنا أن « حافظا الشيرازى » عندما ضمن الأبيات الآتية فى أشعاره لم يذكر صراحة اسم سلفه « السعدى » فإن ذلك وحده يكفى دليلا — إذا أعوزنا الدليل — على البرهنة على ما امتازت به غزليات السعدى من رواج عريض وشهرة واسعة .

يقول «حافظ» فى إحدى غزلياته :

بدم گفتى وخرسندم ، عفاك الله نكو گفتى
جواب تلخ ميزيبد لب لعل شكر خارا

ومعناه (١) :

رعاك الله أن تمضى بإيلامى وتجريحى فمر القول لايجرى على شفة رشفناها

والشطرة الأولى من هذا البيت ترد بنصها فى ص ٦٨ من « طيبات » السعدى على هذا النحو :

بدم گفتى وخرسندم ، عفاك الله نكو گفتى
سگم خواندى وخوشنودم ، جزاك الله كرم كردى

ومعنى الشطرة التى قرنت بالشطرة المشتركة هو التالى :

وقد اسميتنى كلباً ، وسعدت بذلك ، فليجزك الله لقد أكرمتنى ...!!

وكذلك يقول السعدى فى ص ١٠٧ من « البدايع » :

جز اين قدر نتوان گفت در جمال تو عيب
كه مهربانى از آن طبع وخو نمى آيد

ومعناه :

ــ ولا يستطيع أحد أن يقول إن فى جمالك عيبا ... إلا هذه الرذيلة وهى : أن الحب لايتأتى من أصحاب الوجوه الجميلة والطباع الوبيلة ...!!

وقد أخذ « حافظ » الشطرة الأولى من هذا البيت وقرنها بشطرة أخرى من شعره ، نصها كما يلى :

كه خال مهر ووفا نيست روى زيبارا

ومعناها :

فإن الحب والوفاء لايكون لأصحاب الوجوه الجميلة ...!!

وكذلك نجد « سعدى » يقول فى « الطيبات » ص ٨٠ البيت الآتى :

ذوقى چنان ندارد بى دوست زندگانى دودم بسر بر آمد زين آتش 'انى

---

(١) المترجم : انظر ترجمتى لديوان حافظ الشيرازى المنشورة فى جزءين بعنوان «أغانى شيراز»

ومعناه :

— أن الحياة لاطعم لها بغير صحبة الخلان

وقد صعد الدخان إلى رأسي مما في دخيلتي من نيران .. !!

وقد أخذ «حافظ» الشطرة الأولى من هذا البيت وقلبها على هذا النحو :

« بى دوست زندگانى ذوقى چنان ندارد »

ولست أعرف حتى الآن أن أحدا من الكتاب قد سبق له الإشارة إلى هذا الدين الذى استدانه « حافظ » من سلفه «السعدى» ، ومن أجل ذلك جرؤت على معالجة الموضوع بشيء من التفصيل الذى ربما اعتبره بعض القراء من لغو القول الذى لاتدعو إليه حاجة أو ضرورة .

٤ — صغار الشعراء

أما صغار الشعراء الذين ظهروا فى هذه الفترة فكثيرون ، وقد نستطيع أن نجمع من « لباب الألباب » تأليف عوفى مجموعة منهم تبلغ الأربعين شاعرا كانوا برمتهم أو أكثرهم معاصرين للشعراء الثلاثة الكبار الذين خصصنا لهم هذا الفصل من الكتاب . ويضطرنى ضيق المقام إلى أن أقصر حديثى على اثنين فقط من الممتازين بين هؤلاء الأربعين ، وأقصد بهما الشاعرين الإصفهانيين «شرف الدين محمد شفروه» و « كمال الدين اسماعيل » الذى يلقب بـ «خلاق المعانى » . وقد يضاف إليهما شاعر ثالث هو « الأمير خسرو الدهلوى » لأن شهرته تجعله جديرا بالذكر والحديث ، ولكننا اضطررنا إلى التجاوز عنه لأننا راعينا أن نخرج كل ما يتعلق بالهند من دائرة هذا الكتاب . ومن أجل ذلك فإنى اكتفى بأن اذكر أن هذا الشاعر ولد فى « پتيالى » فى سنة ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م وتوفى فى « دلهى » فى سنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٥ م وأنه كان فى أشعاره تلو « نظامى الگنجوى » .

(أ) شرف الدين شفروه :

«شرف الدين شفروه» وكذلك «جمال الدين عبد الرزاق» (والد الشاعر «كمال الدين إسماعيل») كان كلاهما مداحاً لقاضى قضاة مدينة اصفهان الملقب بـ « صدر خجند »

وهما يعتبران من جيل متقدم نسبياً لجيل الشعراء الذين ذكرناهم آنفا، لأن الأخير منهما مات فى سنة ٥٨٨ هـ = ١١٩٢ م والأول مات فى سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م وقد وقع كلاهما ـ من أجل ظروف بيناها فى فصل سابق ـ(١) فى عراك مع تلميذ «خاقانى» المسمى بـ « مجير الدين البيلقانى » . فقد أقذع هذا الأخير فى هجائهما مما كان سبباً فيما بعد لإهدار دمه ؛ وقد هجا كل منهما الآخر أثناء الفترات التى قاما فيها بتوجيه المدائح لمولاهما المشترك قاضى قضاه اصفهان . ولم أصادف بين أشعار « جمال الدين » شيئا يلفت النظر ولكنى صادفت بين أشعار «شرف الدين» قصيدة جميلة جداً يصف فيها مجد «اصفهان» الغابر وما أصابها من تخريب وتحطيم ، وقد نشرت نصها فى مقالى الذى أذعته فى «مجلة الجمعية الأسيوية الملكية» فى سنة ١٩٠١ م بعنوان «مقال عن مخطوط نادر متعلق بتاريخ اصفهان».(٢)

(ب) كمال الدين اسماعيل :

كان « كمال الدين إسماعيل » الملقب بـ « خلاق المعانى » مداحا مثل أبيه « جمال الدين عبد الرزاق» . وقد اختص بمدائحه جماعة من الناس من بينهم « ركن الدين صاعد بن مسعود » وجملة من ملوك خوارزم المعروفين باسم « خوارزمشاه » مثل « تكش » و « قطب الدين محمد » و«جلال الدين» وكذلك مدح ملك ما زندران « حسام الدين أردشير » وحكام فارس المعروفين بالأتابكة وخاصة « سعد بن زنكى» وابنه وخليفة « أبا بكر بن سعد » وقد ذكرنا من قبل أن هذين الحاكمين كانا من ممدوحى « سعدى » وأصحاب الفضل عليه .

وقد كان « كمال الدين » واحدا من كبار الضحايا الكثيرين الذين قتلهم المغول؛ ويذكر «دولتشاه » عنه أنه كان كريما وغنيا ، وقد أنكر فضله بعض من من خصهم بكرمه من أهل أصفهان فذمّ المدينة وأهلها فى أبيات معناها(٣) :

---

(١) أنظر صحيفة ٥٠٣ من هذا الكتاب

(٢) أنظر : « مجلة الجمعية الملكية الأسيوية » سنة ١٩٠١ م

ومطلع القصيدة التى يشير إليها هو :

ديدى تو اصفهان را آن شهر خلد پرور   آن سدرهٔ مقدس آن عدن حور پرور

(٣) المترجم . أنظر ص ١٥٢ من تذكرة الشعراء . وهذا هو نص الأبيات :

— يا إله الكواكب السبع السيارة
أرسل كافرا شديد الفتك والغارة
— حتى يجعل «دردشت» قاحلة كالصحارى
وحتى يجرى نهرا من الدماء فى « جوباره » (١)
— وحتى يضاعف عدد سكان هذه المدينة
بأن يقطع كل واحد منهم إلى مائة قطعة ... !!

وقد استجابت الأقدار بسرعة لدعوته فدخل جيش المغول مدينة أصفهان حوالى سنة ٦٣٥ هـ = ١٢٣٧ م بقيادة « أوكداى» وأوقع بها شر وقيعة على النحو الذى عرفت به غارات المغول وما يصاحبها من قتل وتعذيب واضطهاد . ويقرر « دولتشاه» (وقد ذكرنا من قبل أنه لايعتمد عليه تمام الاعتماد لكثرة جنوحه إلى الخيال) أن « كمال الدين إسماعيل » لبس فى هذه الأثناء خرقة الصوفية ، وتشبه بهم ، واختار زاوية خارج المدينة فلزمها فترة من الزمان ، لم يتعرض له فيها المغول بشىء من الأذى ولكن أهل أصفهان استغلوه لمصلحتهم فأودعوا لديه كثيرا من أموالهم وأمتعتهم ، فأخذها وأخفاها فى بئر فى هذه الزاوية . وذات يوم دخل صبى من المغول إلى زاويته وفى يده قوس ، فقذف طائرا بقذيفة ، فسقط شصّه من أصبعه ووقع فى هذه البئر ؛ فلما طلب إخراجه منها اكتشف الكنوز المخبأة فيها . وثار طمع المغول وجشعهم فلم يكتفوا بما وجدوه بل أخذوا يعذبون « كمال الدين » رجاء أن يضطر إلى إلى الكشف عما عساه قد خبأه من أموال وكنوز أخرى . ويقال إن « كمال الدين » وهو فى حالة النزع استطاع أن يكتب بدمه الرباعية التالية :

— لقد دمى قلبى ... وهذا هو شرط الذلة والتفانى
— وهو أيضا مظهر الذلة والخضوع أمام الله الباقى

ای خداوند هفت سیاره · کافری را فرست خونخواره
تا در دشت چودشت کند · جوی خون راند او ز جوباره
عدد مردمان بیفزاید · هر یکی را کند بصد پاره

(١) محلتان فى اصفهان . انظر ص ٢٠٥ من كتاب :
Le strange : Lands of the Eastern Caliphate.

— ومع ذلك فلست أستطيع أن أقول شيئا من الاقوال
وكأنما أجر الخدمة هو ما أنا فيه من حال ...!![1]

خاتمة الكتاب

عند ماندرس تاريخ أمة من الأمم، أو نتعرض على الخصوص لحضارتها وحياتها العقلية، لا يمكننا أن نصل إلى نقطة من النقط نستطيع أن نقف عندها ونقول فى دقة وإيمان بأن هذه النقطة تنتهى بها فترة من فترات تاريخها . ومع ذلك فهذا التحديد ضرورى لأغراض عملية كثيرة . وقد سبق لى أن قررت أن تاريخ إيران بل تاريخ الإسلام كافة لا يمكن أن توجد به معالم واضحة تفرق بين أزمنته السابقة أو اللاحقة لهذه النكبة التى ابتلت ديار المسلمين بغارة المغول ؛ وكل ما هنالك أنه منذ وقعت هذه النكبة النكباء لم يستطع الإسلام أن يفيق مما أصابه من ركود عام فى سائر نواحيه ، وخاصة النواحى الفكرية والعقلية منها . وقد اختفى المغول منذ أمد بعيد ولم يعودوا قوة عالمية يحسب حسابها ، أو عاملا سياسيا يرهب جانبه ، ولكنهم مع ذلك كله استطاعوا أن يغيروا معالم الأرض بما أحدثوه فيها من تخريب لا يمكن إصلاحه وبلاء لا يمكن علاجه .

وهذا المجلد الذى يؤذن بالانتهاء لا يشتمل إلا على دراسة فترة لا تزيد على قرنين ونصف القرن من الزمان ، ولو ساعدتنى صحتى وتمهدت لى أوقات الفراغ لكان من اليسير على أن أعالج فى مجلد مثل هذا المجلد ما بقى من تاريخ القرون الستة والنصف التى تصل بين النقطة التى وقفنا عندها وبين وقتنا الحاضر[2]،

---

(١) المترجم : فيما يلى نص الرباعية :

دل خون شد وشرط جانگدازى اينست   در حضرت او كمينه بازى اينست
با اين همه هم هيچ نمى يارم گفت   شايد كه مگر بنده نوازى اينست

(٢) المترجم : أكمل المؤلف ذلك فى مجلدين آخرين كل منهما فى حجم المجلد الحالى

وجعلت دراستى لهذه الفترة الطويلة أدق وأوفى من دراسة هذه الفترة القصيرة التى تناولتها فى هذا المجلد بكثير من التوسع والتفصيل ، ومع ذلك فإنها للأسف الشديد تبدو للقارىء العادى غير مغنيه ولا شافية ، وإنى متحقق من ذلك كله ، ولكننى لو أننى انتظرت حتى أستطيع أن أقدمها له دراسة وافية كافية لما تمكنت مطلقاً من الانتهاء من هذا الكتاب . وفى رأيى أن الأدب شبيه بالحب . وعليهما جميعاً ينطبق المثل التركى الذى يقول :

« يار سز قالير كيمسنه عيب سز يار ايسته ين »

ومعناه : يبقى بلا حبيب من يريد حبيبا مبرءا من العيوب ... !!

أو كما قال الشاعر العربى :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

[وكان الفراغ من ترجمة هذا الكتاب
فى يوم الإثنين ٤ إبريل سنة ١٩٤٩ .]
[وكان الفراغ من طبعه فى يوم السبت أول مايو
سنة ١٩٥٤]

كشـــاف

١ — أسماء المؤلفات
٢ — أسماء الأعلام
٣ — أسماء الأمكنة

[هذا الكشاف مرتب ترتيباً أبجديا باعتبار الكلمات مجردة من أداة التعريف «ال» ومن كلمة «ابن» وكلمة «أبو»؛ وإذا وضعت شرطة بين رقمين فمعناها «إلى»]

— ١ —

أسماء المؤلفات

[هذه المؤلفات والمنشآت الأدبية مكتوبة بلغات مختلفة تعرف بالرجوع إلى مواضعها]

(ب)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(گ)

(ل)

(م)

٢

أسماء الأعلام

(ا)

(ب)

(خ)

(د)

(ع)

(غ)

(ف)

(گ)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

٣

أسماء الأمكنة

(ب)

(پ)

(ت)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(هـ)

(و)

(ى)

تصويبات

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤	آخر سطر	لليمان	للعيان
٧	١٣	الثمن	السدس
٩	٢١	بدؤا	بدأوا
٣٢	١٩	أى	أن
٥٠	١٢	يرجل	ترجل
٥٥	٥	جزا او	جز او
١٠٠	١١	ألفه الفخرى	اسمه الفخرى
١٣٠	٤	تعال	تعالى
١٤٤	٨	جلوغ	جولوغ
١٥٩	٤	وگنرچد	وگرچند
	٥	ناهمى	همى
	٧	آنست ندم	ندانست قام
١٦٧	٢	الحو	النحو
١٧٦	٢٠	بقدر	بقدم
٢٠٩	١١	ناصر خسر	ناصر خسرو
٢٢٧	٨	أسرا	سرا
٢٢٨	١١	الدينة	الدينية
٢٣٣	١٢	بمثل الحكايات	بمثل هذه الحكايات
٢٤١	آخر سطر	ومن أجل	ومن أجل ذلك
٢٤٢	١١	التى	الذى
٢٤٨	آخر سطر	الحسن فى الصباح	الحسن بن الصباح
٢٥٨	٩	على بن طالب	على بن أبى طالب
٢٦٨	١٨	ناصر الدين الطوسى	نصير الدين الطوسى
٢٨٠	١١	الناسبين	الناصبين
٢٨٥	٢	أن كلام هو الله	إن كلام الله هو
٣٠٠	٥ ، ١٤	ناصر الدين الطوسى	نصير الدين الطوسى
٣١٩	١١، ١٨	ناصر الدين الطوسى	نصير الدين الطوسى
٣٣٤	آخر سطر	كعدد أنفاس بنى آدم	بعدد أنفس الخلائق
٣٤٦	٢٠	ابن المؤيد	أبو المؤيد
٣٥٧	١٥	سفيه	سيفه
٣٦٣	١٧	أولها	أولها
٣٦٤	١١	والعمان	والغلمان

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٨٥	١٥	برهان	برهانى
٤١٣	١٦	معجم الفصحاء	مجمع الفصحاء
٤٢٣	١٣	عمق	عمعق
٤٣٢	٧	أفريدن	أفريدون
٤٥٢	٨	معجم الفصحاء	مجمع الفصحاء
٤٧٢	١١	ومنى	ومعنى
٤٧٩	٢٣	الذين	اللذين
٤٨١	٥	يوم مقيامة	يوم القيامة
٤٨٢	٩	يحفظهما	يحفظها
٥٢٨	١٥	حفيد	ابن أخى
٥٦٠	٢٢	أهليا	أهلهما
٥٧٣	١	أوكدى (رقعة)	او كداى
٥٩٠	آخر سطر	ناصر الدين	نصير الدين
٦٠٥	١٥ ، ٢١	طبقات الحكماء	طبقات الأطباء
٦٠٧	آخر سطر	معجم الفصحاء	مجمع الفصحاء
٦١٠	١٤	٤٦٤ هـ	٤٦٣ هـ
٦٣٤	٥	ديوانٌ مطبوع	ديوانا مطبوعا
٦٦٧	٤	جور	جهور
٦٨٧	١٧	وخليفة	وخليفته

[تم والحمد لله]

A LITERARY HISTORY OF PERSIA

« From Firdawsî to Sa'dî »

By

EDWARD G. BROWNE

M. A., M. B., F. B. A., F. R. C. P.

Translated into Arabic

By

IBRAHIM AMIN SHAWARBY

B. A. Hons., L. L. B., Dipl. S.O.A.S, D. Litt.

This translation is published by arrangement with the Cambridge University Press, England.

1954

A LITERARY HISTORY OF PERSIA

« From Firdawsi to Sa'di »

By

EDWARD G. BROWNE

M. A., M. B., F. B. A., F. R. C. P.

Translated into Arabic

By

IBRAHIM AMIN SHAWARBY

B. A. Hons., L. L. B, Dipl. S.O.A.S, D. Litt.

anslation is published by arrangement with the Cambridge University Press, England.

1954